

القيم الحضارية في السنة النبوية

ندوة علمية دولية ثالثة

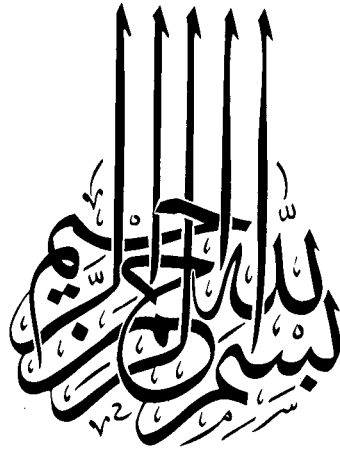
عقدت في رحاب كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي

4 - 7 / 4 / 1428 هـ - 22 - 25 / 4 / 2007 م

بحوث هذه الندوة العلمية محكمة

القيم الحضارية في السُّنة النبوية

ندوة علمية دولية ثالثة



القيم الحضارية في السنة النبوية

ندوة علمية دولية ثالثة

الجزء الأول

(الجلسة الأولى والثانية)

عقدت في رحاب كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي

2007 / 4 / 25 - 22 م

1428 / 4 / 7 - 4 هـ

كلية الدراسات الإسلامية والعربية
دبي، الإمارات العربية المتحدة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

قواعد النشر :

- ١- ألا يكون البحث قد نشر من قبل أو قدم للنشر إلى جهة تحكيمية، وعلى الباحث أن يقدم تعهداً خطياً بذلك.
- ٢- إرسال ملخص عن فكرة البحث وأهدافه وعناصره بحيث لا يزيد على صفحتين عبر الفاكس أو البريد الإلكتروني وفقاً للموعد المحدد.
- ٣- أن تكون الأدلة المذكورة موثقة بالتخريج من المصادر الأصلية، ومبيناً درجة قبولها، إذا كانت من غير الصحيحين.
- ٤- أن يتسم البحث بالجدّة والأصالة والعمق والسلامة اللغوية والالتزام بالشروط الأكاديمية المتبعة في الأبحاث العلمية.
- ٥- عدم استعمال مصطلحات غير عربية إلا في حدود الضرورة مع توضيحها في الحاشية عند أول ذكر لها.
- ٦- عدم التكلف في الاستدلال بالنص على ما هو بعيد الصلة به وتوضيح وجه الدلالة منه.
- ٧- أن تثبت المصادر والمراجع مستوفاة في آخر البحث مرتبة على حروف المعجم.
- ٨- أن يقدم اسم الكتاب على اسم مؤلفه عند توثيق النصوص في الحواشي، وكذلك في ثبت المصادر والمراجع.
- ٩- ألا يشار في الحواشي إلى المعلومات المتعلقة بطبعة الكتاب المحال إليه إلا في

حال اعتماد الباحث أكثر من طبعة للكتاب الواحد.

١٠- ذكر خلاصة نتائج البحث وإضافاته العلمية وتوصياته.

١١- أن يرفق الباحث مع بحثه سيرة ذاتية له وصورة حديثة و قرصاً مدمجاً يتضمن البحث (CD). أو يرسل البحث بالبريد الإلكتروني.

١٢- في حال اشتغال الباحث على جانب في اختصاص غير العلوم الشرعية يفضل اشتراك باحثين في إنجاز البحث، كل منهما في اختصاصه.

١٣- يلتزم الباحث بإجراء التعديلات التي تطلبها لجنة التحكيم على بحثه.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد، الرحمة المهداة
والنعمة المسداة، السراج المنير، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم
الدين. أما بعد:

فقد احتضنت كلية الدراسات الإسلامية والعربية دبي، بفضل من الله تعالى
وتوفيقه، ثم برعاية معالي جمعة الماجد (حفظه الله) مؤسس الكلية، ودعم
مجلس أمنائها الموقر، ندوة علمية دولية ثالثة حول (القيم الحضارية في السنة
النبوية)، واستمرت فعاليتها على مدى أربعة أيام بدءاً من ٤-٧ / ٤ / ١٤٢٨هـ،
الموافق ب ٢٢-٢٥ / ٤ / ٢٠٠٧م، وقدم فيها اثنان وثلاثون بحثاً علمياً محكماً،
والبحوث بمجموعها عنيت بالتأصيل للمحاور الآتية:

المحور الأول: مفهوم القيم الحضارية في السنة النبوية

المحور الثاني: القيم الحضارية في العلم والمعرفة .

المحور الثالث: القيم الحضارية في القضايا الاجتماعية .

المحور الرابع: القيم الحضارية في الشؤون الاقتصادية .

المحور الخامس: القيم الحضارية في مجال الاتصال والإعلام .

ومن أجل الإفادة من هذه الندوة العلمية الدولية، واستثمار عوائدها على نطاق
أوسع ومدى بعيد، حرصت الأمانة العامة على طبع هذه الأبحاث في كتاب
مستقل يفتح أمام الباحثين آفاقاً معرفية جديدة في مجال الاطلاع على كنوز السنة
النبوية مثلاً وقيماً ومقاصد .

وإذا كانت هذه الأبحاث قد مرت - قبل طبعها - بمراحل متعددة من التحكيم والتنقيح والتصحيح من أجل سد الثغرات التي تعاني منها الدراسات الحديثة، فإنها لا تخرج عن كونها عملاً يقوم بإنجازه وإتقانه بشر، ومن ثمَّ فإنَّ مجال الاعتراض على الكتاب وما يحويه من الأبحاث يظل مفتوحاً أمام الناقد، سواء أكان في جانب الاستنتاج من الأحاديث، أم في جانب اختيارها وتخريجها، أم في جانب الإضافة المعرفية أم في غير ذلك.

ومهما كان الأمر فإنه يكفي أننا - من خلال إقامة الندوة وتحكيم أبحاثها ثم طبعها في كتاب مستقل - قد حَطَّونا خطوة نرجو أن تكون مباركة بفضل الله نحو تحقيق غاية كبرى يتشوف إليها المجتمع على مر الدهور، وهي استنهاض همم الباحثين القادرين على دراسة الأحاديث بعمق منهجي حتى تتعرف الأمم مكانة السنة النبوية وأثرها الفاعل في إصلاح الناس، ورعايتهم بالعدل، ورفع الظلم عن الضعفاء، والعمل على صيانة البيئة وحمايتها من التدهور والفساد.

ومن المعلوم أن النبي ﷺ مبعوث إلى الناس كافة حتى يوم القيامة، وأن ما صدر عنه ﷺ من قول أو فعل أو تقرير لا بد أن يكون قدوة ومصدر تشريع أبدي. وإن كان ﷺ قد خاطب مجتمعه - الذي عاصره وعاشره - بلغته وأسلوبه آخذاً بعين الاعتبار المناسبة التي اقتضت الخطاب وصياغته، لكنه في الوقت نفسه خطاب موجه إلى جميع الأمة في جميع الأمصار والأعصار. ولذا، فمن الطبيعي أن يتميز قوله بوصفه "جوامع الكلم".

وفي الوقت الذي ترتفع فيه الأصوات عالية ومدوية بنصرة محمد ﷺ، فإن العمل على إعداد أفواج من الباحثين المبدعين في مجال الدراسات الحديثة، وتشجيعهم على استلهام القيم الحضارية من الهدى النبوي الشريف، يعد عنصراً مهماً من عناصر النصر الحقيقية التي تسدى لنبينا المصطفى محمد ﷺ، والذب الصادق عن سيرته العطرة.

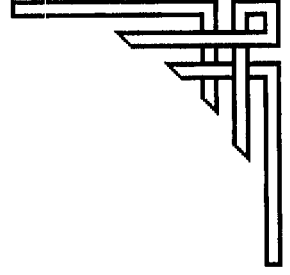
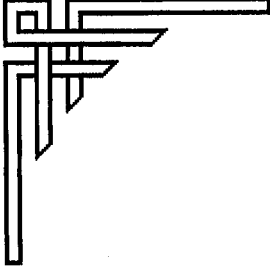
وإذا كان الباحثون اليوم أكثر حظاً من السابقين لكونهم قد وقفوا على ثروة هائلة من التجارب والمعارف المتنوعة التي تفتح الأبواب إلى الآفاق المعرفية الرحاب، فإن حاجتهم إلى تكوين منهج هادف باتت ضرورة لا معدى عنها. والحري بالقول: إن هذه الندوة أعقبت أصداً طيبة وأثراً محمودة لدى الأساتذة الباحثين الذين حضروا من جامعات الدول العربية والإسلامية، وكانت - بحق - مرآة صقيلة صادقة للاهتمام الكبير الذي أولاه مجلس أمناء الكلية الموقر للندوة العلمية الدولية في السنة النبوية مرة كل سنتين، ومصدق ذلك هو الدعم الموصول الذي ما فتئت تحظى به الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف من قبل مجلس أمناء الكلية الموقر.

وختاماً لا يسع الأمانة العامة إلا أن تتقدم بخالص الشكر والتقدير وبالغ الامتنان والعرفان لكل من أسهم من قريب أو بعيد في إنجاح هذه الندوة وإثرائها ببحث أو مناقشة أو تحكيم أو تصحيح، وإخراج هذا الكتاب على هذا النحو المرضي.

والشكر موصول غير مقطوع إلى راعي الندوة ومؤسس الكلية، ومجلس أمنائها الموقر الداعم الرئيس لهذه الندوة، وسعادة مدير الكلية، أجزل الله مثوبتهم، وبارك في سعيهم، وألهمهم مزيداً من التوفيق والسداد. وإلى ندوة علمية دولية رابعة بإذن الله تعالى نستودعكم الله تعالى الذي لا تضيع ودائعه.

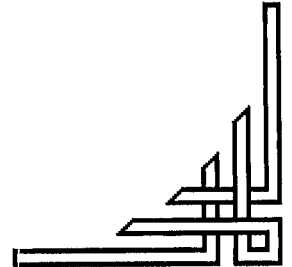
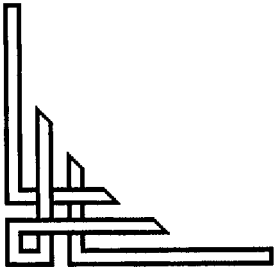
والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أمين عام ندوة الحديث الشريف
أ.د. حمزة عبد الله المليباري



الجلسة الافتتاحية

- كلمة معالي جمعة الماجد - رئيس مجلس أمناء الكلية .
- كلمة الأمين العام لندوة الحديث الشريف:
أ.د. حمزة عبدالله المليباري .
- كلمة الضيوف:
أ. د. محمد المختار ولد أمباله - رئيس لجنة الانتخابات الوطنية بموريتانيا .
- قصيدة: « ومضات إيمانية » :
د. قطب الريسوني - كلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي .



كلمة معالي جمعة الماجد - رئيس مجلس أمناء الكلية

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ، وَعَلَى آلِهِ
وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .
أَمَّا بَعْدُ:

فَيَسِّرُنِي أَنْ أَلْتَقِيَ بِكُمْ فِي رَحَابِ كَلِيَّةِ الدِّرَاسَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ دُبَي
بِمُنَاسَبَةِ افْتِتَاحِ أَعْمَالِ النَّدْوَةِ الْعِلْمِيَّةِ الدَّوْلِيَّةِ الثَّلَاثَةِ حَوْلَ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ،
وَأَرْحَبُ بِهَذَا الْحُضُورِ الْكَرِيمِ، الَّذِي يَضُمُّ نُحْبَةَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْبَاحِثِينَ وَطَلَبَةَ
الْكَلِيَّةِ، سَائِلًا الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُكَلِّلَ جُهُودَكُمْ فِي خِدْمَةِ الإِسْلَامِ وَعُلُومِهِ،
وَيُسَدِّدَ خُطَاكُمْ فِي بِنَاءِ الأُمَّةِ حَضَارَةً وَتَقَدُّمًا وَقُدْوَةً صَالِحَةً.

إِنَّ الظُّرُوفَ الَّتِي تَمُرُّ بِنَا الْيَوْمِ تُؤَكِّدُ أَهْمِيَّةَ دَوْرِ الْمُوَسَّسَاتِ الْعِلْمِيَّةِ فِي خِدْمَةِ
الإِسْلَامِ وَالْأُمَّةِ وَالْوَطَنِ مِنْ خِلَالِ تَعْلِيمِ الأَجْيَالِ وَتَكْوِينِهِمْ وَتَرْبِيَتِهِمْ عَلَى مَنَهِجٍ
صَحِيحٍ يَدْعُو إِلَيْهِ دِينُنَا الْحَنِيفِ، وَسُلُوكِ مُسْتَقِيمٍ يَتَّسِمُ بِالْوَعْيِ وَالصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ
وَبُعْدِ النَّظَرِ وَفِقْهِ الْوَاقِعِ وَالشُّعُورِ بِالمَسْئُورِيَّةِ. وَلِذَا أَصْبَحَ مِنَ الْوَاجِبِ التَّرْكِيزُ
عَلَى تَطْوِيرِ الْمَنَاهِجِ الدِّرَاسِيَّةِ حَسَبَ مَا يَمْلِي عَلَيْنَا تَغْيِيرُ الْوَاقِعِ وَمُعَالَجَةُ الْقَضَايَا الَّتِي
تَهْمُ الإِسْلَامَ وَالْأُمَّةَ وَالْوَطَنَ فِي جَمِيعِ الْمَجَالَاتِ مَعَ الإلتِزَامِ بِالثَّوَابِتِ الدِّينِيَّةِ.
والتَّأَكِيدُ عَلَى أَهْمِيَّةِ الْعَمَلِ الْمُوَسَّسِيِّ فِي جَمِيعِ الْمَجَالَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ
وَالاجْتِمَاعِيَّةِ؛ إِذْ هُوَ أَضْمَنُ مِنَ الْعَمَلِ الْفَرْدِيِّ لِتَحْقِيقِ الْغَايَاتِ النَّبِيلَةِ مَعَ تَجَدُّدِ
الْعَطَاءِ مَحَافِظًا عَلَى الثِّقَّةِ وَالسُّمْعَةِ الطَّيِّبَةِ.

إِنَّ أَيَّ عَمَلٍ مُوَسَّسِيٍّ لَا تُحَقِّقُ أَهْدَافَهُ كَامِلَةً إِلَّا بِتَعَاوُنِ جَمِيعِ الْعَنَاصِرِ بِالْعَمَلِ
التَّطَوُّعِيِّ، وَإِنَّ الْعَمَلَ التَّطَوُّعِيَّ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى عُنْصُرٍ دُونَ آخَرَ؛ فَإِنْ كَانَ صَاحِبُ
الْمَالِ تَحِبُّ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ وَالتَّطَوُّعُ بِالإِنْفَاقِ فَإِنَّهُ يَتَعَيَّنُّ عَلَى الْعَالِمِ الإِنْفَاقَ الْعِلْمِيَّ
وَجُوبًا وَتَطَوُّعًا وَعَلَى الْمُثَقَّفِ الإِنْفَاقَ الثَّقَافِيَّ وَعَلَى الْبَاحِثِ التَّطَوُّعَ بِبِحُوثِهِ، غَيْرَ
مَحْصُورٍ فِي الأَدَاءِ الْوُظَيْفِيِّ الْمُحَدَّدِ بِالزَّمَنِ وَبِالأَجْرِ.

وَلَا يَسْعُنِي فِي هَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ إِلَّا أَنْ أُقَدَّرَ جُهْدَ الْأَمَانَةِ الْعَامَّةِ لِنَدْوَةِ الْحَدِيثِ
الشَّرِيفِ لِعَقْدِ هَذِهِ النَّدْوَةِ الثَّلَاثَةِ حَوْلَ الْقِيمِ الْحَضَارِيَّةِ فِي السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ فِي
الْوَقْتِ الَّذِي تَشْتَدُّ فِيهِ الْحَاجَةُ إِلَى تَوْعِيَةِ الْأُمَّمِ بِمَا يَتَمَيَّزُ بِهِ الْإِسْلَامُ مِنَ الْمَبَادِيءِ
الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْقِيمِ الْحَضَارِيَّةِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْإِنْسَانِ بَلْ فِي التَّعَامُلِ مَعَ جَمِيعِ
الْكَائِنَاتِ .

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ" .
وَأَرْجُو أَنْ يُسَهِّمَ الْجَمِيعُ فِي تَحْقِيقِ هَذِهِ النَّدْوَةِ نَجَاحَهَا الْكَامِلِ فِي نَشْرِ
مَحَاسِنِ السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ بَيْنَ الْمُجْتَمَعَاتِ الَّتِي تَجْهَلُهَا .

كَمَا لَا يَسْعُنِي إِلَّا أَنْ أَشْكُرَ فِي هَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ وَمُنَاسِبَةِ مُرُورِ عِشْرِينَ عَامًا عَلَى
إِنْشَاءِ هَذِهِ الْكَلِيَّةِ صَاحِبَ السُّمُوِّ الشَّيْخِ مُحَمَّدَ بْنَ رَاشِدِ آلِ نَهْيَانَ رَئِيسَ الدَّوْلَةِ
حَفِظَهُ اللهُ، وَصَاحِبَ السُّمُوِّ الشَّيْخِ مُحَمَّدَ بْنَ رَاشِدِ آلِ مَكْتُومِ نَائِبِ رَئِيسِ الدَّوْلَةِ
رَئِيسَ مَجْلِسِ الوُزَرَآءِ حَاكِمَ دُبَيِّ، الَّذِيْنَ لَهُمْ فَضْلٌ بَعْدَ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ
فِي تَطَوُّرِ هَذِهِ الْمُؤَسَّسَةِ وَتَجَدُّدِ عَطَائِهَا فِي مَجَالِ الْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ .

وَشُكْرِي مَوْصُولٌ إِلَى جَمِيعِ الضُّيُوفِ وَالْبَاحِثِينَ الَّذِيْنَ تَجَسَّسُوا عَنَاءَ سَفَرِهِمْ
إِثْرَاءً لِهَذِهِ النَّدْوَةِ، وَإِلَى إِدَارَةِ الْكَلِيَّةِ وَالْأَمَانَةِ الْعَامَّةِ لِنَدْوَةِ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ وَإِلَى
كُلِّ مَنْ أَسَهَّمَ فِي عَقْدِ هَذِهِ النَّدْوَةِ وَإِنْجَاحِهَا عَلَى الْمُسْتَوَى الْمَطْلُوبِ .
وَأَنْ يَحْفَظَنَا وَإِيَّاكُمْ، وَأَنْ يُوفِّقَنَا جَمِيعًا لِلتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

كلمة الأمين العام لندوة الحديث الشريف أ.د. حمزة عبدالله الميباري

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، الرحمة المهداة
والنعمة المسداة، والسراج المنير، بعثه الله تعالى ليتمم مكارم الأخلاق، وعلى آله
وصحبه والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين .
معالي جمعة الماجد مؤسس كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي ورئيس
مجلس أمنائها،

السادة أعضاء مجلس الأمناء ،
سعادة مدير الكلية ،
أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة،
الضيوف الأكارم ،
أيها الحفل الكريم،
أحييكم بتحية الإسلام:
السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.
أما بعد:

فها هي الندوة العلمية الدولية الثالثة تنطلق فعاليتها برعاية معالي جمعة الماجد
في رحاب كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي لمدة أربعة أيام حول أهم
موضوع من الموضوعات التي تعد إثارتها أو إثراءها اليوم من أشد ما يحتاج إليه
المجتمع، ألا وهو القيم الحضارية في السنة النبوية.

ولا ينبغي أن يمر علينا هذا اللقاء العلمي الدولي بصفته مجرد نشاط احتفالي
تتزين به أجواء الكلية، وتنتهي آثاره بانتهاء أيامه الأربعة، بل لا بد أن نعتبره حدثاً
مهما له أبعاد تاريخية ورسالية؛

أما بالنسبة إلى الأبعاد التاريخية فإن الكلية إذ تجدد عهداً بمواصلة الندوات

العلمية الدولية حول الحديث الشريف مرة كل سنتين فإنها حقيقة تستأنف مسيرة المؤتمرات التي انقطعت سلسلتها منذ ستة عشر عاما.

وأما البعد الرسالي فإن مواصلة عقد الندوات الدولية حول الحديث الشريف دون انقطاع يعني العمل على تقوية صلة الأمة بالنبي صلى الله عليه وسلم وسيرته المطهرة التي تُعلم العالم على مدى الدهر ما هي القيم الحضارية والمبادئ الإنسانية في التعامل مع الإنسان والبيئة والحيوانات وحتى الجمادات.

وحين أعلن معالي جمعة الماجد قراره يوم افتتاح الندوة الأولى عام ٢٠٠٣م أن تعقد في الكلية ندوة دولية حول الحديث الشريف مرة كل سنتين، ثم قرر معاليه في أثناء كلمته التي ألقاها يوم افتتاح الندوة الثانية عام ٢٠٠٥م أن تشرف على هذه الندوات أمانة عامة تتشكل من أساتذة يُنتقون من الكفاءات العلمية المتخصصة من الجامعات بالدول العربية والإسلامية فإن ذلك برهن على مدى اهتمام معاليه بواجبه الديني نحو الحديث الشريف الذي هو مصدر ثاب لبناء مجتمع مثالي ورسالي.

ولأهمية موضوع هذه الندوة وضرورة تحقيق أهدافها على المدى البعيد ولثلا تضيع الجهود التي أسهم فيها أطراف متعددة فإن الأمانة العامة بدأت استعدادها مبكرا ووضعت خططا كفيلا بنجاح هذه الندوة وقامت بتنفيذ الخطط مرحليا حسب المواعيد المحددة لها، ومما يذكر في هذه المناسبة أن الأمانة العامة قامت باستلام أكثر من ١٠٠ بحث، وبعد التحكيم الأولي تم اختيار ٩٠ بحثا للتحكيم النهائي الخارجي حسب الشروط العلمية المعتمدة في المجالات المحكمة، وأرسلنا كل بحث إلى محكمين اثنين بسرية تامة، وبعد التحكيم تم انتقاء اثنين وثلاثين بحثا بناء على تقارير المحكمين دون أن تعرف الأمانة من صاحب البحث.

ولا ندعي أن عملنا في هذا المجال حقق نجاحا كاملا في اختيار أحسن الأبحاث حسب الشروط المعلن عنها التي من أهمها أن يتسم البحث بإضافة معرفية جديدة وأن تكون نصوصه الحديثية موثقة توثيقا دقيقا ومبينة أحكامها بطريقة علمية

معتمدة، لكننا بذلنا جهدنا في سبيل تحقيق ذلك دون تقصير، والحمد لله على توفيقه.

وفي هذه المناسبة تحرص الأمانة العامة على أن تعبر عن شكرها العميق لجميع الباحثين الذين أرسلوا إلينا بأبحاثهم للمشاركة. وهذه المساعي الشاقة التي قامت بها الأمانة العامة إنما هي من أجل تحقيق الأهداف الآتية :

١- إبراز محاسن السنة ووظيفتها في تربية المجتمع على مكارم الأخلاق في كل زمان ومكان مع اهتمامها في الوقت نفسه بالبعد الجمالي والبعد الإنساني والبعد الفطري.

٢- نشر محبة رسول الله ﷺ في الأجيال كما أمرنا الله تعالى ورسوله .

٣- خدمة الإسلام بما يليق بمكانته ووفق مقتضيات العصر ومستجداته.

٤- تشجيع الباحثين على الدراسات العلمية الجادة والمبتكرة التي تمد الأمة بأسمى القيم الإنسانية والحضارية التي تتضمنها السنة النبوية.

٥- إصدار كتاب محكم عن الندوة يحتوي أبحاثها كاملة.

هذا ومهما تدهورت حال الأمة الإسلامية اليوم وتخلفت تخلفا ملحوظا حضاريا وثقافيا وعلميا واقتصاديا فإن الإسلام الذي ننتمي إليه كله شرف وكله كرامة وعزة وكله قيم وحضارة ومكارم أخلاق في كل زمان ومكان.

وكيف لا يكون كذلك؛ وقد قال الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ .

وقد برهن على هذه الحقيقة ما سجله التاريخ من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة السلف الصالح فردا ومجمعا وأسرة ودولة.

إن غالبية الأمم لا ينظرون إلى القرون الأولى التي هي خير القرون ولا يقرؤون تاريخها ولا يجعلون ذلك معيارا لمعرفة الإسلام وإنما ينظرون فقط إلى واقع الأمة الإسلامية المتدهور ليتهموا ديننا الإسلامي بعكس ما يعلمه الناس وليسيووا إلى

حبينا المصطفى الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق ورحمة للعالمين . وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين .

ومن الواجب على الجميع فردا ومؤسسة وأسرة ومجتعا أن ينهضوا بمهمة تبليغ ما يتميز به الإسلام من قيم وأخلاق ومبادئ، وليس أمامنا من سبيل لذلك إلا بأن يلتزم كل فرد بالتخلق بها وتربية الأجيال على هذه المكارم ونشرها بين الأمم بحكمة وموعظة حسنة .

وهنا حقيقة مرة لا بد أن نراجعها جميعا - رضينا أو أبينا - وهي أن مظاهر سلوك بعض أفراد المجتمع الإسلامي ساعدت فئات من الناس على تشوه تصوراتهم تجاه الإسلام بل استغلها بعضهم لمواصلة ما قام به سلفهم في التاريخ الماضي من الإساءة إلى الإسلام ونبيه الكريم بعكس ما كان يعلمه الإنسان ويرشد إليه .

وإلا فكيف يتهم نبينا الحبيب المصطفى الذي شهد الله تعالى - وكفى بالله شهيدا - بأنه أرسله رحمة للعالمين ؟

وكيف يساء إليه وهو الذي عفى عن آذاه بل أحسن إلى من آذاه وأخرجه من بلده ؟

بل الذي يتبلور في سيرته المطهرة هو شدة حرصه صلى الله عليه وسلم على هداية الناس ونشر القيم الأخلاقية في حياة الإنسان وتحويل العدو منهم إلى حبيب حميم والمحافظة على سمعة الإسلام والمسلمين .

ولذلك، صبر وتحمل وأثر مصلحة الإسلام على مصلحته الشخصية .
ولذلك، أصبحت سيرته المشرفة كلها زاخرة بحكمة التصرف، وفهم الواقع، وفقه الأولويات، ولم يواجه حدثا في حياته على المغامرة بل كله كان خاضعا للمشاورة والتخطيط والدراسة المستقبلية وحتى الاستعداد لمواجهة الطوارئ كان بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن تحقيقا للهدف بأقل الخسائر الممكنة .

انظر إلى حادث الهجرة؛ فإنه صلى الله عليه وسلم انشغل بالتخطيط واللقاءات والحوارات طوال سنتين أو أكثر قبل الهجرة مستغلا لمواسم الحج وغيره مع كونه نبيا مؤيدا بالوحي .

وكل ذلك لأن يكون له موقع ثقة وقوة، لا للثأر من عاداه ولا لاستئصالهم وإنما لينطلق بقوة في مجال الدعوة وحرصا على دخول الناس إلى الإسلام أفواجا . وهذا صلح الحديبية يحمل في طياته أسمى معاني القيم الحضارية في إدارة الأمور العامة ومواجهة الأحداث الطارئة والحاسمة، وتتمثل هذه القيم في الصبر والتحمل وفقه الواقع وبعد النظر إلى المستقبل وعدم الاندفاع دون النظر إلى النتائج والعواقب . وها هو في طريق عودته من الحديبية إلى المدينة يأتيه الوحي ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ مؤكدا على نجاح عمله بكل أبعاده .

يقول ابن مسعود وغيره من الصحابة: إنكم تعدون الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعد الفتح صلح الحديبية .

وكيف يتهم هذا النبي الحبيب الذي دخل مكة فاتحا دون أن يريد الثأر من المشركين الذين آذوه وأخرجوه منها ومخططا لدخولها دون إراقة دم، وكان بإمكانه أن يسحق المشركين سحقاً؟

إن سنة المصطفى ﷺ زاخرة بالقيم الحضارية التي يجب علينا إبرازها بكل ما نملكه من الوسائل .

وكم يسعدني أن أقترح في هذه المناسبة أن نعمل بجهود متضافرة لكي نشحذ القرائح ونستنهض العزائم من أجل تصنيف جديد للأحاديث النبوية وتبويبها بمصطلحات جديدة تنهض بخدمة الوعي الحضاري للأمة وتطوير وسائله .

وقد كان ينبغي كذلك أن نحث العزائم من أجل تدريس السيرة والسنة النبوية لكي نبرز القيم الحضارية في جميع مجالات الحياة بعيدا عن الدراسة العاطفية التي قد لا تقدم شيئا ذا بال في عصر نحن بأمس الحاجة فيه إلى معرفة هذه القيم الحضارية التي تنشر بين الناس الثقة والأمن والسلام وتجعل العدو حبيبا حميما .

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة .

ولا يسعني في هذه العجالة إلا أن أتقدم نيابة عن الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف بجزيل الشكر والعرفان إلى معالي جمعة الماجد على ما خصّ به هذه الندوة العلمية الدولية الثالثة من رعاية موصولة، وعطاءٍ متجدد، كما نزجى الشكر الخالص لسعادة مدير الكلية الذي أولى أعمال الندوة اهتماماً بالغاً، وشارك معنا عن كذب بالجهد والوقت والرأي في جميع مراحل الإعداد.

والشكر موصول أيضاً إلى الشركات والمؤسسات التي أسهمت في إنجاح أعمال الندوة من خلال الرعاية المادية والمعنوية : مصرف الإمارات الإسلامي ، بنك دبي الإسلامي، داماس، الجداف، دائرة السياحة والتسويق التجاري ومعهد الإمارات لتعليم السياقة وجمعية الاتحاد.

وشكرنا الخالص موصول إلى جميع ضيوف هذه الندوة والأساتذة الباحثين وإلى من تعاون معنا من رجال الإعلام لتغطية فعاليات الندوة وبثها ونشرها، وأعضاء اللجان الفرعية وكل من قدم لنا عوناً من قريب أو بعيد.

اللهم إنا نحمدك ونشكرك على ما أكرمتنا بفضلك وتوفيقك للعمل في توعية الناس بالقيم الحضارية في السنة النبوية ونتضرع إليك أن تقبل منا جميعاً جهدنا وسعينا بقبول حسن.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

كلمة الضيوف

أ. د. محمد المختار ولد أمباله - مستشار رئيس برناسة الجمهورية الإسلامية الموريتانية

الحمد لله حمدًا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، والصلاة والسلام على البشير
النذير، السراج المنير، المبعوث رحمة للعالمين، من تنفرج به الكربة بعد اعتذار
أولي العزم من المرسلين.

وحكمة الإتيان للكرام إظهار فضل سيد الأنام
إذ لو أتوه أولاً ما شعشعا إن سواه لم يكن مشفعا

وعلى عترته الطاهرين، وصحابته الأكرمين، حفظة السنة وحماة الدين.

صاحب المعالي / الأستاذ جمعة الماجد:

أصحاب الفضيلة العلماء:

السادة المدعوين الكرام:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

أيها السادة الكرام:

إن هذا الموقف كساني ثوبي رغبة ورهبة؛ إذ أرغب في أن أتكلم باسم هذه
الكوكبة من صفوة الأمة، في هذا المجلس البهي المهيب الذي أرجو أن تتغشاه
الرحمة وتحفه الملائكة، وهو يغوص في أعماق بحور السنة المطهرة. ولكن تتنابني
الرهبة عندما أفكر فيمن أتكلم أمامهم. إنهم المشائخ والأساتذة وقادة الفكر
وفرسان بيان البلاغة، الذين يستحيي قس بن ساعدة أن يتكلم أمامهم، أخرى من
كان مثلي في الجهل والقصور، ولكن حسن ظن المنظمين بي وعدم معرفتهم إياي
هو الذي أدى بي إلى هذا الموقف، فاستجبت له امتثالاً لأمرهم، وتوكلاً على الله

- سبحانه وتعالى - راجياً منه الستر والتوفيق والتسديد.

وأطلب من إخواني الأعضاء ما طلب خليل بن إسحاق من قراء مختصره، حيث قال: "فما كان من نقص تحمّلوه ومن خطأ أصلحوه"، وما طلب العلامة الموريتاني الحسن بن زين في ختام إحمراره^(١) للامية الأفعال، حيث قال:

وإنني أبتغي ممن رأى خللاً فيما انتدبت له أن يصلح الخللاً

إخواني الأعضاء:

إنني أحمد الله الذي جعلنا مجتمعين لتندارس سنة المصطفى ﷺ لنبرز فضلها، وننهل من معينها، ونحبب إلى الناس العمل بها، في الوقت الذي جعل آخرين يجتمعون لطمسها ويكيدون لأهلها، ويحاربون العمل بها.

وإنني أشكر باسمكم دولة الإمارات العربية المتحدة على ما تبذله في خدمة الإسلام والمسلمين، وأخص منها صاحب السمو حاكم دبي وولي عهده، على رعايتهم الدائمة لهذه الندوة وأمثالها من مواسم العلم والخير.

والشكر موصول إلى صاحب المعالي الأستاذ جمعة الماجد على بذله المتواصل في سبيل نشر العلم والمعرفة وحفظ تراث الأمة الذي امتد حتى وصل إلى ضفاف المحيط الأطلسي في موريتانيا، وأعماق الصحراء في مالي وغيرها؛ فأياديه البيضاء في تيشيت وتنمبكتو ونواكشوط معروفة، وأحرى بها في دولة الإمارات وما قاربها.

والشكر موصول أيضاً للقائمين على هذه الندوة، على ما قاموا به من حسن الاستقبال، وكرم الضيافة، ودقة التنظيم.

(١) الإحمرار في الاصطلاح هو زيادات العلماء اللاحقين على تأليف السابقين. ويرادفه مصطلح الحاشية. هيئة تحرير الإصدار.

إخوتي الأعزاء:

اسمحو لي - ونحن نفتتح هذا الندوة: (القيم الحضارية في السنة النبوية)
- أن أشير بصورة موجزة إلى الأمور التالية:

الأمر الأول: أن القيم الحضارية هي التي تتشرف و تنشد الشرف في وجودها داخل السنة النبوية، وتستمد شرعيتها من ذلك، وليست السنة النبوية هي التي تتشرف بذلك؛ لأن السنة وحي من عند الله: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (سورة النجم، الآيات ٣-٤)، والله - سبحانه وتعالى - خالق الكون وخالق القيم الحضارية، وشرعه مهيمن على كل شيء، وميزان لكل شيء، فيجب أن يوزيه كل شيء، ولا يجوز أن يوزن بشيء، فالحسن ما حسنه، والقبيح ما قبحه، ولكن إبراز محاسن الإسلام وشموليته، يمثل منهجاً من أهم مناهج الدعوة الإسلامية، فهو أمر طيب.

الأمر الثاني: أن حضارة الإسلام أرقى من كل حضارة؛ لشمولها ودقة علومها وصحة أصولها، فهي قائمة على أسس متينة من الوحي الإلهي، حفظتها من التخبط، وعصمتها من الزلل الذي وقعت فيه الحضارات المادية، ولننظر إلى سمتين بارزتين من سماتها، التي تتميز بها، يظهر لك ذلك في:

أ- السعة والشمول: فهي حضارة الروح والجسد، حضارة العقيدة والعمل، حضارة الدنيا والآخرة، حضارة المشاهد والغائب، تؤمن بالغيب، وتعلم علم اليقين ما لم يقع تحت الحس، تعمل لليوم وما بعد اليوم، تبني دنياها لتصلح بها آخرها، تعلم علوم الآخرة فضلاً عن علوم الدنيا؛ لذلك كانت علوم أصحاب الحضارة المادية ضئيلة بالنسبة لعلومنا؛ ولهذا نفى الله - سبحانه وتعالى - عنهم العلم، وقلل من قيمة علومهم، قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الروم، الآيات ٦-٧).

قال أئمتنا المفسرون: إن المرادهم الكفار، وإنهم يعلمون أمور معاشهم

ودنياهم: متى يزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يغرسون، وكيف يبنون، وكيف يصنعون؟

ولكنهم لا يعلمون شيئاً عن الآخرة ولا يعملون لها، ولا يعلمون ما وراء الطبيعة، ولا ما بعد الموت.

ومن البلية أن ترى لك صاحباً في صورة الرجل السميع المبصر فطن بكل مصيبة في ماله وإذا يُصاب بدينه لم يشعر أما المسلم فيعلم كيف يبني؟ وكيف يغرس؟ وكيف يصنع؟ وفي الوقت نفسه يعلم: كيف يصلي، وكيف يصوم وكيف يأكل، وكيف يشرب، وكيف يبيع، وكيف يستاك، وكيف يدخل الحمام، وكيف يموت، وكيف يسأل، وكيف يبعث، وكيف يجازى... وكيف، وكيف؟

فعلومه غزيرة، وفكره مستفيض، وأمله عظيم، وغايته معروفة، ووظيفته مبينة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات، الآية ٥٦) ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (سورة الشورى، الآية ٧) بخلاف أصحاب الحضارة المادية؛ فإن علومهم قليلة وفكرهم قاصر، وغايتهم مجهولة النسبة، لا يعلمون غير المادة، ولا يعملون إلا لها، ولا يؤمنون بسواها، وقد تفوقوا في هذا الجانب حتى سيطروا على الحياة اليوم، فأصبحت حضارتهم المادية تلقي بظلالها على المسلمين، فضعف الإيمان بالغيب، وأصبح كثير من أبناء الأمة الإسلامية يعتبر المغيّيات خرافات وأساطير، وأصبح التفسير المادي سائداً حتى في العبادات، وعند الطيبين من الدعاة، فتجد الواحد يجتهد في فوائد الصوم الصحية وفوائد الحج الاجتماعية، وفوائد الصلاة على البدن، ويتفنن في ذلك؛ لأنه يشعر في داخله بأن المجتمع يعجبه ذلك الشيء!!! فلماذا لا يقال له: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإن الصوم يبعث على التقوى، وإن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وإن الأهم من ذلك كله أنه عبادة لرب العالمين، وإنه سبب لمرضاته، وسأضرب لكم مثلاً بجزئية واحدة يتبين منها الفرق

الشاسع بين المسلمين وغيرهم في سعة العلوم وشمولها.
فنحن لا ننكر تطور الحضارة الغربية وتقدمها في الجانب المادي، ولا
نعارض ذلك، بل ندعو إلى الاستفادة منه، والأخذ من جوانبه الإيجابية، ونرى
ذلك فرضاً على الأمة، بل عليها أن تساميهم، وأن تغالبهم في ذلك.

ومن أهم القضايا العلمية التي يروُن أنهم توصلوا فيها إلى ما لم يكن
يخطر ببال، وأنهم بلغوا فيها الغاية، هي الجنين: تكوينه، ومراحل تطوره،
وحياته، ونحن إذا رجعنا إلى الإشارات الواردة في القرآن والسنة نجد أن هناك
جوانب يعلم المسلم البسيط عنها الكثير لم يشموا لها رائحة، وهي الجوانب
غير المادية، زيادة على ذلك أنهم لم يعلموا هذا إلا في عصور متأخرة جداً،
ونحن علمناه قبل أربعة عشر قرناً، بقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ
أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٢١﴾
(سورة الإنسان، الآيات ٢-٣) فأين هم من هذا المقطع الأخير!!؟

وقوله ﷺ في حديث الصحيحين: "إن أحدكم يُجمعُ خلقه في بطن أمه
أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم
يُرسل إليه الملك فينفخ فيه الرحم، ويؤمر بأربع كلمات: يُكتبُ رزقه وأجله
وعمله، وشقي أو سعيد. فوالله، الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل
الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل
النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا
ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها. فهل الماديون
يعلمون كيف تُنفخُ الروحُ في الجنين؟ وهل يعلمون شيئاً عن تقدير الرزق
والأجل والسعادة والشقاوة ودخول الجنة والنار؟ وهل لهم اهتمام بذلك؟
وهل عندهم وسيلة للتطلع إلى ذلك!!!؟

ب - صحة المعلومات وأخذها من مصادرها الحقيقية: إن القضايا الكبيرة مثل بدء
الكون، ونهايته، وأصل الإنسان سببت للماديين حيرة كبيرة أدت بهم إلى

التخبُّط في نظريات يتكشَّف زيغها المرَّة تلوَ المرَّة، ولا تخرجهم من ورطة الحيرة، كـنظريَّة قدم العالم، ونظريَّة الغيـض والهيولي، ونظريَّة النشوـء والارتقاء، التي تهاوت كلُّها وتبيَّن جهل أصحابها وتهافتهم.

أما المسلمون فعندهم الخبر اليقين عن ذلك كله من عند رب العالمين:

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (سورة الرعد، الآية ١٦)، ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الكهف، سورة ٥١).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (سورة الأعراف، الآية ١٨٩)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (سورة المؤمنون، الآيات ١٢-١٤)، وفي السنة المطهرة: زكلكم لآدم، وآدم من ترابس فلو كان داروين يعلم هذا، أرايته يقع فيما وقع فيه من سخافات، أو يسلك ما سلك من متاهات بحثًا عن شيء لا يمكن أن يهتدي إليه إلا من هذه الطريق.

الأمر الثالث: أن حضارتنا الإسلامية هي حضارة القيم والأخلاق، حضارة العدل والإنصاف، حضارة الحقوق المصانة لأهلها: للضيف فيها حق، وللجار حق، وللمرضى حق، وللكبير حق، وللصغير حق، ولذي الرحم حقه، وللبيهمة حقها، وحتى الطريق لها حقها.

إن قيمنا الحضارية غزيرة وراقية وشاملة، كما تزخر به بحوث هذه الندوة المباركة. والحضارة الغربية أحوج إلى الاقتباس منا في هذا المجال، منا إلى الاقتباس منها، ولا مبالغة إذا قلت: إنها مدينة لحضارتنا في ذلك؛ فالمنصف منهم يقر بذلك. استمع إلى ما قاله الأمير (تشارلس)، ولي العهد البريطاني، في حديث له في جامعة (أكسفورد) بتاريخ ٢٧ / ١٠ / ١٩٩٣ م: «إن كثيرًا من المزايا التي تفخر بها أوروبا العصرية جاءت أصلًا من إسبانيا أثناء الحكم الإسلامي، فالدبلوماسية، وحرية التجارة، والحدود المفتوحة، وأساليب البحث الأكاديمي،

وعلم الأثروبولوجيا، وآداب السلوك، والموضة، والطب البديل، والمستشفيات، جاءت كلها من تلك المدينة العظيمة (يعني قرطبة). وقد كان الإسلام في العصور الوسطى دينًا يتسم بمقدار لافت للنظر من التسامح بالنسبة إلى تلك الحقبة؛ فقد منح اليهود والمسيحيين الحق في ممارسات معتقداتهم الموروثة، وكان بذلك قدوة لم تحتذيها للأسف دول كثيرة في الغرب. والمدهش أيها السادة والسيدات هو مدى تشكيل الإسلام جزءًا من أوروبا لفترة زمنية طويلة: أولاً في إسبانيا، ثم في البلقان، ومدى مساهمته في الحضارة بكاملها. إن الإسلام جزء من ماضينا وحاضرنا في جميع مجالات البحث الإنساني، وقد ساهم في إنشاء أوروبا العصرية، إنه جزء من تراثنا، وليس شيئاً منفصلاً عنّاس أ.هـ.

الأمر الرابع: أن سمو حضارتنا وقيمها يجب أن يكون حافزاً لنا إلى النهوض واقتحام ميادين العلم والعمل، ومزاحمة الأمم في ساحات التطور والتقدم العلمي، حتى نصل ماضينا بحاضرنا، ونؤدي الواجب الذي علينا. ولا يجوز أن نتلهى به عن واقعنا المتسم بالضعف والتخلف وعدم القدرة على المنافسة، الشيء الذي يفرض علينا التبعية وعدم المشاركة في الرأي. إن حالة كهذه لا يرضى عنها الله ولا رسوله، ولا يرضى بها ذو نفس شريفة لأمته ومجتمعه، فالرب - سبحانه وتعالى - أمرنا بإعداد القوة:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ (سورة الأنفال، الآية ٦٠) والحبيب المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - يقول: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير».

وعلمائنا قرروا في باب فروض الكفاية أنه مما يجب على الأمة تحصيل المهارات النافعة التي تتطلبها الحياة، وهي العلوم الدنيوية التي أكسبت المتقدمين فيها القوة والسيطرة على العالم.

ولا أحتاج إلى أن أبين لكم موقف الإسلام من هذا الواقع، ولكنني أحتاج إلى أن أنبهكم إلى أمر يدل على عظمة الإسلام وأهمية التفقه في الدين؛ فهذا عالم موريتاني ولد في البادية، وعاش فيها، ومات فيها، ولم يدخل مدرسة ولا جامعة،

ولم يسكن حضراً قط، بل قرأ في الخيمة وتحت الشجرة، ودرّس ودرّس في البادية، لكنه علم الشريعة، وفهم مقاصدها، وأدرك قيمة النافع من علوم الدنيا وأهميته في حفظ الدين وسياسة الدنيا، فدعا أبناء بلده إلى تعلمها والاستفادة منها، وعاب على الأمة ازورارها عنها، وقال: إن المسلمين أولى بالتفوق فيها من غيرهم. إنه المختار بن أبلول الموريتاني الحاجي المتوفى ١٣٩٥هـ، إذ يقول من قصيدة له طويلة:

<p>على أهله فرض على كلهم كُلاً لحفظ نظام الدين كي يثبت الأصل وفي الكهربا أمر يحارُّ له العقل سلاسل كلما تقدمها تتلو وما استنبطوا من كل علم له فضل مراقبي لم يحلم بها الناس من قبل ولم يرجُ يوماً أن يكون له ذل كل ناس من معارفهم عزل فهل شاركت في الرأي سائسها الإبل كذاك ترقيّ الناس فانتشر العدل بلى كلجان لم أشتاتها حفل سماها، وأعماق البحار لها سُبُل عليه صلاة الله ما نبت البقل معارف يكبو دون غايتها العقل يعبر عن مقدار ما يستر الجهل لعم السلام الأرض وانتظم الشمل</p>	<p>وذا الدين يا هذا وسيلة حفظه وإن علوم العصر أضحت وسيلة ففي علم ذرّي السلاح وغيره وباقى علوم الكون مما أتى الورى إلى ما أتموا من علوم ونقّحوا وما اخترعوا في صالح الناس فارتقوا فذلّ لهم ما أعجز الناس قبلهم فساسوا شعوب الأرض طراً وأذعنت فما الناس دون العلم إلا بهائم ولما ترقيّ العلم في العصر هكذا وصارت شعوب الأرض طراً كأمة تجاوز من أقصى البلاد وتمتطي ونحن بذا أولى لحض نبينا فقد أودع الرحمن في كل ذرة أما كان في الصاروخ أعظم ناطق ولولا ازورار لم تقمه ثقافة</p>
--	---

... إلى آخر تلك القصيدة الطويلة المليئة بالحكم والتوجيه والتفكير البّناء،

واستنهاض الهمم للارتقاء بالأمة نحو المكانة التي يجب أن تسعى جاهدة للوصول إليها.

إخوتي الأعزاء:

إن واقع المسلمين اليوم واقع مُرّ، فهم يقفون موقف العاجز الخائر في وسط هذا البحر المتلاطم، بحر التقدم العلمي الهائل، وما نتج عنه من هيمنة الحضارة الواحدة، وانفرادها بالسيطرة على العالم، محاولةً مسخ الشعوب واجترارها نحو الرضا والتسليم بسيادة حضارة الرجل الأبيض. والمسلمون لم يستطيعوا الإبداع، ولم يحسنوا التقليد، فبقوا على أثر الركب ما بين معجب بهذه الحضارة المتغلبة مشدوه بها، يسلك أثرها شبراً بشبر، وذراعاً بذراع في قشورها، بقسوتها وفجورها، ولم يستطع أن يشم رائحةً لها، ومتباك على ماضٍ قد ولى لم يستطع رده، ولكنه يعوض بالتغني به عن واقع لم يرض عنه ولم يستطع تغييره، والأمة تزداد ضعفاً يوماً بعد يوم، والواجب الديني يقتضي منكم ومن غيركم من قادة الرأي والفكر، التحرك من أجل تغيير هذا الواقع. ولو كان ذلك بوضع مشروع حضاري شامل ومتكامل يضمن للأمة نوعاً من التقدم، ويجعلها على الطريق الذي يمكّنها من المشاركين في تسيير هذا العالم. والله يؤيدنا وإياكم بنصره.

ومضات إيمانية

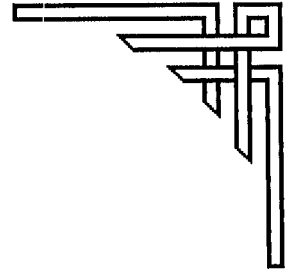
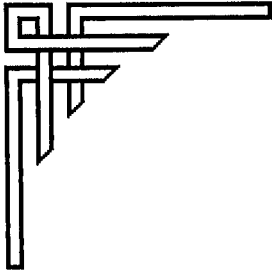
الدكتور قطب الريسوني - كلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي

بسم الله مجراها ومرساها تستأنف كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي ندوتها الثالثة حول الحديث الشريف، فيتصل السعي بالسعي، ويتوالى العطاء غِبَّ العطاء: قبسةً من نور، ورقفةً من ألق، ونهلةً من ضياء.. فطوبى لمنشئ الندوة وراعيها معالي جمعة الماجد بأجر الذاب عن السنة، والداعي إلى الخير، والمنفق في سبيل الله..

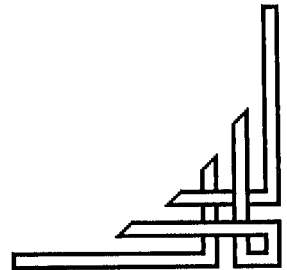
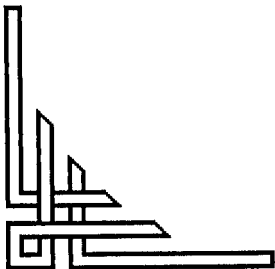
وليدل الشعر بدلوه في مناسبة مضمخة بأريج الوحي، مزر كشة بندي الإيمان:

<p>حيوا معي أهل الحديث وباركوا حيوا معي زمر الهدى يفتادها حيوا معي غرر المدى ونجومه سنن تهادت في المحافل والدنا قد زانها كلم فصيح جامع قد صاغها نور الهداية لائح يشتار منها الواردون حلاوة فسل الحضارة من أقام عمادها وسل المفاخر من يخط وشاءها يأت الجواب: بسنة فذنا المدى وزهت مواكب نصرنا فمغرب وجرت زوراق فجرنا في حلقة وبكل ناد فاتح ومجدد نفسى على لهف لمذح نبينا وقف البيان ببابه مترنما</p>	<p>جمعا به أرج النبوة يعبق وحي ندي، ناضر، متألق هتكت حجاباً من دياج تطبق كعرائس مُحْتالَةٍ تتأنق سجد الجمال لحسنه والرونق ألق البيان، وحكمة تتدفق يزكوبها عمل الجوارح صادق فتناولت فوق السمك تحلق فإذا الغصون سوامق وبواسق فتراقصت أمجادنا وبيارق مستقبل وجه العلاء ومشرق فالتور منشور القلاع موسق أبدأ إلى أوج العطا لأنسبق فالشوق يرقص والقلوب تصفق يشدو على وتر الحنين ويحفق</p>
---	---

فغدوتُ أضفر من بهاهُ قوافياً
 سألتُ على صُحفِ الخواطرِ والرؤى
 رَحْبُ الجَنابِ ، نَدِيَّةُ أَكْناهُ
 ثَبْتُ الجَنانِ ، رَقِيقَةُ أَعْطافُهُ
 بَحْرُ المِكارِمِ والفضائلِ زاحِرُ
 يدعُو إلى ظُلُلِ الحضارةِ هادياً
 فالخطوُ إلا في هُداهُ مَضَلَّةُ
 لَبِيكَ يا خَيْرَ البَرِيَّةِ كُلِّها
 لَبِيكَ يا خَيْرَ الورىِ في نَدْوَةٍ
 قَدْ شادها رَجُلُ المِكارِمِ ما جَدُّ
 فلهُ أَجورُ العامِلينَ بسِنَّةٍ
 وتَحِيَّةُ تَثْرى لَجْمَعِ أَحَبَّةٍ
 فَلها إِلِيهِ تَلْهُفُ وتَشوِّقُ
 بوَحاً يَرِفُ ، ونَفْحَةً تُتَنَسَّقُ
 يَسْخُو وَيَهْمِي كالسحابِ وَيُنْفِقُ
 يَعْفو وَيَرْفُقُ بالضَّعيفِ وَيُعْتِقُ
 عَذْبُ المِواردِ ، فيضُهُ لا يُلْحَقُ
 وَيُجِّ ما هَوَى للديانةِ مُخْلِقُ
 والعَيْشِ إلا في حِمَاهُ مُضَيِّقُ
 فَقرانُ نارِ غَمِّ النوائِبِ مُورِقُ
 تَنْدَى بِذِكْرِكَ ، والمِجامِرُ تَعْبِقُ
 (جَمعَ القلوبِ نِوالُهُ المُتَفَرِّقُ)
 مَوْفورةٌ ، مَوْصولَةٌ ، لا تَحْلِقُ
 مارَفٌ طَيْرٌ أو تَرْنَحٌ وَاِمِيقُ

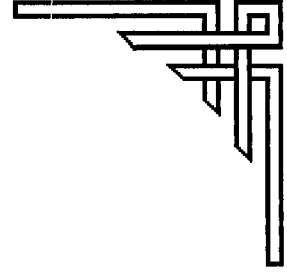
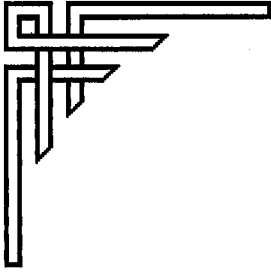


وقائع الجلسات العلمية



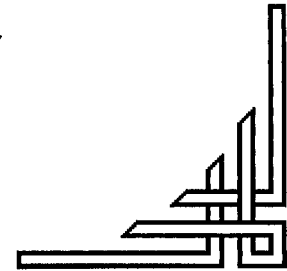
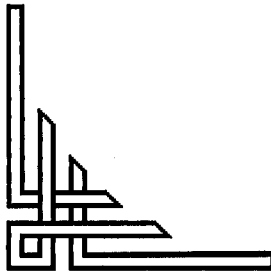
الجلسة الأولى

- السُّنَّة النبويَّة ونِسْبَتها من الثقافة والحضارة الإسلاميَّتين:
أ. د. أبو لبابة الطاهر صالح حسين، جامعة الإمارات العربيَّة المتحدَّة.
- القيم الحضارية في الأحاديث المكية:
د. محمد الوثيق، جامعة القرويين، كلية الشريعة، أكادير.
- شمولية القيم الحضارية وتكاملها في السُّنَّة النبويَّة بخصوص معاملة الأعداء وقت الحرب:
أ. د. أحمد أبو الوفا، جامعة القاهرة، دبلوم أكاديمية القانون الدولي (لاهاي).
- تفعيل القيم الحضاريَّة في السُّنَّة النبويَّة السبل والمعوَّقات:
أ. د. عبَّاس محجوب، جامعة النيلين، الخرطوم.
- القيم الحضارية سبل ومعوَّقات تفعيلها في ضوء السُّنَّة النبويَّة:
د. سعاد صبيح براك الصبيح، جامعة الكويت.
- أثر السُّنَّة النبويَّة في ترسيخ القيم الحضارية في النفوس - أحاديث المسجد أمودجًا -:
د. مازن حسين حريري، قسم الدراسات الإسلاميَّة، كلية الآداب، جامعة تعز، اليمن.



السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ وَنَسَبُهَا
من الثقافة والحضارة الإسلاميَّتين .

أ. د. أبولبابة الطاهر صالح حسين
جامعة الإمارات العربيَّة المتحدَّة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

إنَّ الحديثَ عن الثقافة الإسلاميَّة هو حديث عن هويَّة المسلم وانتمائه إلى عقيدته الإسلاميَّة وقيَمِها وأخلاقها وتشريعاتها ونُظُمِها وتقاليدِها وأعرافها وتاريخها وحضارتها، وأوطانها، فهو حديث عن كينونة المسلم ووجوده .

وتجليَّة موضوع الثقافة من المهامِّ الأَكيدة والواجبة في عصرٍ تتكالبُ فيه قوى التغريب والعلمنة على هويَّة المسلم وتسعى بكلِّ ما أُوتيت من وسائل ضغطٍ وهيمنة لتغييرها وتزييفها لإبطال تَميُّزِها وشلِّ فعلها وفاعليَّتها في نشر الخير وإبلاغ دعوة الإسلام وما تزخر به من قيم إنسانيَّة تدعو إلى الحرِّيَّة والمساواة والأمن والسلم، ونبذ الميز والحيف والاستغلال، وإدانة إرهاب المستضعفين ونهب ثرواتهم واستباحة أوطانهم والدوس على مُقدَّساتهم.

وكما تتعرَّض هويَّة المسلم للاستنقاص والتزييف، فإنَّ حضارته تتعرَّضُ للإغفال والتهوين، وُصولاً إلى طمسها ونسيانها. فقد تملأت قوى التغريب والعلمنة والصهينة والتنصير على حضارة المسلمين، وجعلت من استهدافها غرضاً لسهامهم السامة مستغلِّين - في إنجاز خطَّتهم - خريجي مدارس التغريب من أبناء المسلمين الذين تربَّوا في مَحَاضِنِ التبشير وتخرَّجوا على مناهجٍ تُعادي عقيدة الأُمَّة وشريعَتها وماضيَّها وحاضرَها، فأضحوا ينظرون إلى العالم بعيون غربيَّة غريبة تضطهد كلَّ ما هو مسلم وتشوِّه معالمه وتبشَّعه في عيون أبناء الإسلام، حتَّى يَنقُضُوا أيديهم من دينهم ويتحوَّلوا عنه إلى عالم الغرب عالم النور! والبهجة! وهو عالم فيه الكثير من التقدُّم الماديِّ لأهله إلا أنَّه بناءً على ازدواجيَّة الغرب يعدُّ لغيرهم عالم التبعيَّة والهوان والضياع وإشباع الغرائز المتفلَّته.

ومَّا ساعد هؤلاء المتحاملين على تحقيق بعض أهدافهم سلسلة الإحباطات والنكسات التي عاشتها الأُمَّة وتعيشها في المجال العسكريِّ والسياسيِّ والصناعيِّ

والعلمي والاجتماعي، مما جعل بعضهم يوهّم الناس أن لا حضارة للإسلام ولا تقدّم، وأن سبيل المسلمين الوحيد للنهوض من كبوتهم والحقا بركب التقدّم وغزو الفضاء وتفجير الذرة، هو التنكّب عن دينهم أو على الأقلّ تعديله بما يتيح لهم التحرّر والانعقاد، وصولاً إلى الإقلاع إلى عالم التقدّم الذي يديره الغرب، متناسين أن ثقافة المسلم لا تُدانيها ثقافة فهي التي تحقّق له الأمن النفسي والإشباع الروحي والمادي معاً، وتحميه من الذوبان والضياع. وأن هذه الثقافة حينما توفّر لها المناخ المناسب استطاعت أن تنتج حضارة سامقة تقدّمت بالبشريّة آلاف السنين، وهيأت لقيام حضارة الإنسان المعاصر، وأمدته بأسباب التقدّم على دروب العلم والإبداع على كلّ الأصعدة.

على أننا قبل المضيّ قدماً في بيان ما حقّقه الإسلام وأسهمت به السنّة النبويّة المطهّرة في بناء الإنسان المسلم وصياغته بطريقة إيمانيّة رفيعة ونقيّة فغير وجه العالم وأنقذه مما تردّى فيه من ضلال وظلم وطغيان، واستغلال، وعبد له طريق الانعقاد والحرية وجعله يتمتّع بثمار قيم العدل والمساواة وفجر في كيانه ينابيع الإبداع، فانبجست على يديه حضارة راقية تعكس قيماً أخلاقيّة رفيعة، وأدواً إنسانيّة نظيفة، طبع بها الإسلام أتباعه وحضارته.. قبل بيان كلّ هذا لا بدّ لنا أن نعرّف ماهية الثقافة، وماهيّة الحضارة ونبيّن خصائصهما وميزاتهم.

الثقافة

الثقافة لغة: مصدر مشتقّ من الفعل الثلاثي المجرد ثَقَفَ (بضم وكسر عين الفعل من باب كَرُم و فَرِح)، نقول ثَقُفَ الرجلُ يَثْقُفُ ثَقْفًا وثقافةً: صار حاذقاً فطنا، فهو ثَقُفٌ (بكسر الثاء وسكون القاف)، وثَقُفَ (بفتح الثاء وكسر القاف)، وثقيف (كأمير)، وثَقِيفٌ للمبالغة [كخريّت]، بمعنى حاذق شديد الحذق.

ونقول: ثَقِفْتُ الرجلَ في الحرب أي أدركته وظفرتُ به. وثَقِفْتُ الحديثَ فهمته بسرعة، كما نقول: امرأة ثَقَافٌ (كسحاب) أي فطنة. ونقول: ثَقَفَهُ تَثْقِيفًا أي سوّاه، وثاقفه فثَقِفَهُ أي غالبه فغلبه في الحذق. أمّا الثَّقَافُ فهو ما تُسوَّى به

الرماح^(١).

فالثقافة تعني الشحذ والتسوية والتقويم، وتثقيف الإنسان يُراد به شحذ ذهنه وإزالة ما يحمله أو علق به من عقد أو انحراف في الفهم والتصور والذوق، كي يصبح ثَقْفًا ومثَقَّفًا أي أسرع فهمًا وأوسع إدراكًا وأسلم ذوقًا.

والثقافة في اللغات ذات الأصول اللاتينية لها صلة بمعنى الزراعة [la culture] ، ففي اللغة الفرنسية مثلاً يُطلق على وزارة الثقافة [ministere de la culture] ويُطلق على زراعة الزهور [la culture des fleurs] وتُسمّى تربية النحل [la culture des abeilles] ، فالثقافة في هذه اللغة وثيقة الارتباط بالزراعة والتربية ، حيث إنّ الإنسان - على مَلْحَظِ د. إحسان هندي - لم يبدأ في الاهتمام بثقافته إلا بعد أن استقرّ في الأرض واكتشف الزراعة^(٢)، فتعاظم إنتاج الفكر فأطلق عليه الفرنسيّ مجازًا الزراعة [culture]^(٣).

في حين أنّ عبارة الثقافة في اللغات ذات الأصول الأنغلوسكسونية تعني الحضارة، وهي جملة المنجزات المادية والفكرية والتقنية، ويرجّح د. إحسان هندي المفهوم اللاتيني لأنّ الثقافة في الأساس عناية بالذهن كي يُعطي مردودًا أفضل، والزراعة عناية بالأرض كي تُعطي مردودًا أفضل^(٤).

الثقافة في اصطلاح علماء علم الإنسان [anthropologie |

الثقافة فِكْرَتُهَا حديثة وقد عرفها مفكرو عصر النهضة الأوروبيون بقولهم: "هي مجموع ثمرات الفكر في ميادين الفنّ والفلسفة والعلم والقانون"، وهم يرون في الثقافة ميراثًا من مواريث روما وأثينا، أو هي الإنسانيات الإغريقية اللاتينية، فهي عندهم بتعبير آخر: "عودة إلى التاريخ القديم"^(٥). وفي القرن العشرين تباينت

١ - القاموس المحيط: ٣ / ١٢٥ وانظر المصباح المنير: ١ / ٩١.

٢ - كلمة في الثقافة: ص ٢٦ .

٣ - مشكلة الثقافة: ص ٢٦ . وانظر الموسوعة الفلسفية العربية، الاصطلاحات والمفاهيم ١ / ١٢٣ .

٤ - كلمة في الثقافة: ٢٥ .

٥ - مشكلة الثقافة: ٢٨ ، ٧٠ . وانظر شروط النهضة : ١٢٣

أنظار الرأسماليين والاشتراكيين حول تحديد مفهوم الثقافة، ففي الوقت الذي يراها بعض مفكري الغرب مجموعةً من الأشياء والأفكار، يراها ز ماوتسيتنغ زوالمفكرون الشيوعيون ز انعكاسًا للمجتمع " أو هي " فلسفة المجتمع ^(١) ".

وذكرت الموسوعة الفلسفية العربية أن أوضح التحديدات التي أعطيت للثقافة، ما قاله تايلور ١٨٧١ م: " تُشكّل الثقافة كلاً معقداً يشمل المعارف والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات وكلّ الملكات والعادات التي يكتسبها الإنسان الفرد بصفته عضواً في المجتمع " ^(٧).

وإنني أزعّم أنّ تعريفات مالك بن نبيّ للثقافة تعدّ أعدلّها، ويمكن أن نستخلص منها تعريفاً يكون الأقربَ إلى مفهومها الصحيح، فهي: " مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية والتصورات الغيبية التي يتلقاها الفرد داخل محيطه ويستنشقها كما يستنشق الأوكسجين في مجاله الحيويّ منذ ولادته، فتؤثر فيه، وتصبح لاشعورياً تحدّد سلوكه وردود أفعاله ومواقفه إزاء الأحداث المختلفة. "

فالثقافة هي عصب حياة المجتمع يبعث فيه الحيويّة والحركة، وبدونه يُصبح مجتمعاً خاملاً، وهي المحيط الذي يُغذي إلهام الفرد ويُلمهم عبقريته، ويُمنّي طاقاته الخلاقّة، والرباط العضويّ بينه وبين محيطه، وهي فلسفة الإنسان، وفلسفة الجماعة، واللاشعور هو الأرض التي تمدُّ فيها الثقافة جذورها في أعماق الفرد وفي ذاتيته، فتهمين على عقله ووجدانه، وتحدّد تصوّره لعالمي الغيب والشهادة، كما تحدّد مواقفه وردود أفعاله إزاء الأحداث والنوازل القديمة والحديثة.

الثقافة ثقافتان: إسلامية وغير إسلامية:

والثقافة ثقافتان كما أشار شيخنا العلامة محمد الفاضل ابن عاشور - طيب الله ثراه - في محاضراته " المدخل الديني " بالكلية الزيتونية بتونس: ثقافة إسلامية

٦ - توسّع مالك بن نبيّ - رحمه الله - في الحديث عن هذه المسألة في كتابه مشكلة الثقافة: ٣٠، ٣٩، ٧٠. ١ - ١٢٤ / ٢٨، ٧

وثقافة غير إسلامية. والإسلامية تُظلّ أبناءَ الإسلام على اختلاف أجناسهم وأوطانهم وألسنتهم وأعصارهم، وقد قرّر القرآن أنّهم أمة واحدة ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾ «الأنبياء: ٩٢»، كما نصّ النبي ﷺ على ذلك في وثيقة المودعة "فهم أمة واحدة من دون الناس"^(٨). كما بيّن أنّ المسلمين إخوة: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ «الحجرات: ١٠» وأكدت ذلك السنّة في أكثر من حديث: "المسلم أخو المسلم"^(٩).

أمّا الثقافة غير الإسلامية فتتعدّد بتعدّد الشعوب والأمم التي تنسب إليها فهناك ثقافة فرنسيّة وأخرى بريطانيّة وثالثة ألمانيّة وهكذا ..

الثقافة الواحدة هي التي تجمع بين أفراد المجتمع وتوحّد مواقفهم وسلوكهم:

و أولى ثمار الثقافة الواحدة أنّها تُوحّد وجدان الناس ومشاعرهم وقلوبهم وردود أفعالهم إزاء القضايا المختلفة سواءً كانت سياسيّة أو اجتماعيّة أو أخلاقيّة.. مهما اختلفت حصيلتهم العلميّة وتباينت وظائفهم الاجتماعيّة، أمّا إذا تباينت الثقافات فتتباين تبعاً لذلك ردود أفعال أصحابها مهما جمعت بينهم الشهادات أو الوظائف ونحو ذلك. ويضرب مالك بن نبي أمثلة حيّة على ذلك. منها:

١ - الخليفة المسلم والمواطن العادي المسلم يتّصفان بسلوك واحد لأنّ جذور شخصيّتهما تغور في أرض واحدة هي المجال الروحي للثقافة الإسلاميّة. قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه غداة مبايعته خليفَةً للمسلمين، قولته الشهيرة: "أيّها الناس من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه"، فردّ أحد البدو البسطاء: "والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيفنا". فكان موقفهما انعكاساً للجانب النفسي والاجتماعي، ومجسّداً للصدق والإخلاص، والشفافية التي يتعامل بها أبناء الأمة.

٨ - المصباح المضيء: ٢/١٠٠٥، وانظر سيرة ابن هشام: ١/٥٠١.

٩ - صحيح البخاري - المظالم - باب لا يظلم المسلم المسلم - متن فتح الباري: ١١٦/٥ (٢٤٤٢)، صحيح مسلم - البر والصلة - باب تحريم الظلم: ٤/١٩٩٦، سنن أبي داود - الأدب - باب المؤاخاة: حديث عدد ٤٨٩٣.

وكذلك الطبيب الإنكليزي والراعي الإنكليزي فهما لا يلتقيان في المكوّنات الخاصّة التي تُملئها المهنة، وهما مختلفان كذلك في الظروف الاجتماعيّة، إلا أنّهما يتشابهان في مواقفهما من القضايا المختلفة، فتتجلّى في سلوكهما ملامح الثقافة الإنكليزية.

٢ - بينما الطبيب البريطاني والطبيب المسلم رغم أنّهما متّحداً في الوظيفة، وفي تكوينهما المهنيّ الذي يتمّ في إطار منهج فنيّ واحد، إلا أنّ سلوكهما يختلف لأنّ جذورهما لا تغوصان في نفس الأرض ولا يملكان نفس التصوّر لعالمي الغيب والشهادة، فهما ينتميان لثقافتين مختلفتين، فالتماثل والاختلاف في المواقف وردود الأفعال ناشئ عن الثقافة لا عن العلم^(١٠).

و ثاني هذه الشمار أنّها تحفظ كيانهم، فهي تتحوّل في شعورهم ولا شعورهم وفي عقولهم إلى سمة مميزة تطبع ذواتهم، وإلى قوّة غالبة تمتزج بكيانهم فتحفظه وتحول دون ذوبانهم في التيارات الوافدة والقوى المغيرة على أرضهم وكيانهم. فالدعوة إلى التمسك بالثقافة والهويّة ليست دعوة إلى مخاصمة العصر، والعودة إلى الموروث القديم بكلّ ما يرتبط به من معايب وسلبيّات^(١١)، وإنما هي دعوة إلى إحياء الكيان وإثبات الذات. يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس: "إنّ الشعب الذي لم يفقد ثقافته وعقيدته واعتزازه بماضيه حيّ لا يموت حتّى وإن كان مستعمراً مستعبداً"^(١٢).

السُّنَّةُ ودورها في صياغة هويّة الأمة وبناء ثقافتها

حين أشرقت شمسُ الإسلام كانت الجزيرة العربيّة ترسّفُ في قيود الجاهليّة، وتتخبّط في ظلام أعرافها وعاداتها وأوثانها وضلالاتها، فكان أوّل ما فعله

١٠ - شروط النهضة: ١٢٥.

١١ - في الهويّة: نكون أو لا نكون: ٤١.

١٢ - آفاق جزائريّة للحضارة - للثقافة - للمفهوم: ٩ هامش ٢.

النبي ﷺ هو القضاء على الجاهلية فأمات الوثنية، وأبطل العصبية وهدم الموروثات السقيمة ونقض الأفكار البالية وعالج كل المظاهر السلبية. وفي خط مواز كان طوال الفترة المكية ومنذ فجر الدعوة يبني الرجال ويُعيد صياغتهم على روح الإسلام وثقافته، ففتح العقول وربى الوجدان، وصقل المشاعر وغرس فيهم تصوُّراً واضحاً وعميقاً لعالمي الغيب والشهادة فتوحداً في نفوسهم واثلثوا فيها، وتوازنت عندهم علاقة الفرد بالجماعة والخاص بالعام وصُبغت الدنيا بصبغة طبعت وجودهم كله وهي صبغة الإسلام^(١٣). فكان الإنسان الجديد الذي يتمتع بخصائص نفسية وأخلاقية عالية وقيم رفيعة، تؤهله لحمل رسالة الإسلام وإبلاغها إلى العالمين، ولعل خطبة جعفر بن أبي طالب ﷺ أمام النجاشي تُصوِّر خير تصوير عملية بناء الثقافة باجتثاث العقائد والموروثات الجاهلية وغرس العقيدة والقيم والمثل الإسلامية الإنسانية السامية محلها. قال ﷺ: "كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده.. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات.. وأمرنا بالصلاة والزكاة.." (١٤).

لقد هدم الإسلام عقيدة الشرك السائدة واجتث أنظمتها وأفكارها وأقام على أنقاضها عقيدةً وقيماً وأخلاقاً جديدة: أقام التوحيد بدل الشرك، و التشريع المحكم بدل الأعراف، والوحدانية بدل الفرقة والتشرذم، والدولة بدل القبيلة، والأمة بدل العشيرة، والمنهج بدل الفوضى، والمعرفة بدل الجهل والأمية والخرافة

١٣ - انظر قيم حضارية في القرآن الكريم: ٢ / ٢٤١ - روح الحضارة الإسلامية : ١ .

١٤ - سيرة ابن هشام : ١ / ٣٣٦ .

والهوى.. وصاغ الإنسان المسلم الملتزم بمنظومة القيم الخلقية والسلوكية المتجذرة في عقيدته في مواجهة الجاهلي المتمرس على الفوضى والتسيب وتجاوز الضوابط وكراهية النظام^(١٥).

يجلّل كلّ هذا قيم الحرية والمساواة والعدالة ومحاربة العصبية والعنصرية على اختلاف ألوانها، فقد أعلن الإسلام تساوي الناس فقال - عليه الصلاة والسلام -: "الناس سواء كأسنان المشط"^(١٦) وقال: "إنّ الله قد أذهب عنكم عبية [كبر و نخوة] الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقيّ وفاجر شقيّ، أنتم بنو آدم وأدم من تراب.."^(١٧). وقال: "من قاتل تحت راية عُميّة يغضب لعصبة أو يدعو لعصبة أو ينصر عصبة فقتل فقتله جاهلية".^(١٨). وتجذرت هذه القيم في نفس المسلم وجرت في روحه وشعوره ولا شعوره مجرى الدم في العروق، وأصبحت سمةً وملمحاً يطبع المسلم بطابع خاص يميّزه عن سائر أصحاب العقائد الأخرى، وأصبحت قيم هذه الثقافة تعمل في لاشعور المسلم وتوجّه عقله ومشاعره وحركاته وسكناته.. وهي هوية طبعت أجيال المسلمين وتناقلتها عبر القرون..

ولئن كانت الثقافة ظاهرة ناشئة عن البيئة بكلّ ما تمثله من معالم وأطراف، وليست صادرة عن المدرسة التي تُعتبر عاملاً مساعداً في تحديد ملامح الثقافة على ملحظ مالك بن نبي^(١٩)، إلا أنّ لجهود علماء الأمة دوراً مهماً في إبقاء جذوة الثقافة حيّة متوقّدة في النفوس عبر أدوارهم التثقيفية المتميزة في المساجد والبيوت والمدارس الأهلية والنظامية بعد ذلك، حيث حافظت على "تجانس ثقافة المجتمع، وعلى الوعي الكامل بقيم وأعراف الإسلام وما يختزنه من حقوق وواجبات"^(٢٠).

١٥ - السيرة النبوية مشروعا حضارياً : ٦ .

١٦ - مسند الشهاب - باب الناس كأسنان المشط : ١ / ١٤٥ (١٩٥).

١٧ - سنن أبي داود - الأدب - باب في التفاخر بالأحساب - متن بذل المجهود : ٢٠ / ٥٧ .

١٨ - صحيح مسلم - الإمارة - باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين ٣ : ١٤٧٦ - ١٤٧٧ .

١٩ - آفاق جزائرية - مشكلة الثقافة : ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠١ .

٢٠ - قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي : ١ / ٦٧ ، ٦٩ .

وظيفة الثقافة:

تؤدي الثقافة في حياة الأمة وإثبات وجودها والحفاظ على وحدتها وميولها وأذواقها وظيفة بالغة الأهمية، فهي تشبه وظيفة الدم^(٢١) في تغذية الجسم ليبقى حياً نابضاً بالحياة، فهي تغذي حضارة المجتمع وتحمل أفكاره وتحمي تصوراتِه وميولَه وتحافظ على ملامحه، وتبقي نبض التفرد فيه حياً نشيطاً.

ولإكساب هذه الوظيفة فعاليتها تميزت المجتمعات بوجود حركتين متجاذبتين تضمنان لها الصمود وحسن الأداء:

١ - حركة الضغط الاجتماعي. ٢ - حركة النقد الفردي^(٢٢).

فكل خطأ في السلوك يقع تحت طائلة الضغط الاجتماعي الذي يتحاشى الفرد السوي مناهضته ومخالفته، لأنه سيكلفه سمعته ومكانته داخل المجتمع، وكل خطأ في الأسلوب والمنهج يقع تحت طائلة النقد الفردي أو الجماعي، فهي ثنائية تمثل التزاماً مزدوجاً بين الفرد والمجتمع، وبوساطة هذه الوظيفة الثنائية الجانب يحافظ المجتمع على نقاوته ومميزاته، ولحمته. ومبدأ هذه الثنائية وهذا التجاذب بين الضغط والنقد أرساه القرآن الكريم حين وصف الأمة بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، «آل عمران: من الآية ١١٠» وحينما دعاها النبي ﷺ إلى أن تمارس حق النقد والوقوف بشجاعة إلى جانب الحق والعدل، وهذا جوهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد حذر - عليه الصلاة والسلام - من التهاون أو التخاذل عن القيام بهذا الواجب الاجتماعي بكل حزم وصرامة: "كلاً والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً ولتفصرنه على الحق قصراً"^(٢٣). كما حض

٢١ - شروط النهضة: ١٣١ - مشكلة الثقافة: ٧٥.

٢٢ - آفاق جزائرية - مشكلة الثقافة: ١٠٥.

٢٣ - بذل المجهود: الملاحم - باب الأمر والنهي: ١٧ / ٢٦٣. سنن أبي داود: ٤ / ١٢١ (٤٣٣٦).

الفرد المسلم على النقد فقال: " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " (٢٤). وأيّ تهاون في شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يُؤدّي إلى فقدان المجتمع أمنه وسلامته. وقد ضرب ﷺ على ذلك مثلاً حياً سفينة تمخر البحر بركابها [وهم يمثّلون المجتمع]، فإن هم تعاونوا جميعاً على حمايتها، والحيلولة دون أيّ راكب فيها أن يخرقها ويعطبها، نَجَوْا وَأَنْجُوا الْأَثَمَ، وإلا غرقوا جميعاً (٢٥).

خصائص الثقافة الإسلامية وقيمتها:

القيمة الإيمانية: من أميز ما تميّز به الثقافة الإسلامية الإيمان الوثيق بالله تعالى، والثقة التامة في عدله، والتصديق الجازم برسله وكتبه، وباليوم الآخر وبقضائه وقدره ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ «التوبة: من الآية ٥١»، مع الاعتقاد القاطع بمسؤولية الإنسان عن عمله ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ «الزلزلة: ٧-٨»، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ «الأنعام: من الآية ١٦٤»، وأضحى المسلم يصدّر في حركاته وسكناته عن عقيدته وإيمانه (٢٦). خلافاً للفلسفات المادية التي أهملت علاقتها بالله، حيث قسّمت المعرفة إلى طبيعيةٍ اعترفت بها وما وراء الطبيعة [ميتافيزيقا] أنكرتها، واعتبرتها أساطير وخرافاتٍ ابتدعتها الإنسان في بداية وعيه بالذات والحياة في فجر التاريخ! (٢٧).

وإذا كانت الحضارة الإغريقية أقامت علاقتها بالآلهة التي اخترعتها على الصراع والنزاع للحصول على أسرار الطبيعة، فإن الإسلام جعل علاقة الإنسان

٢٤ - صحيح مسلم: الإيمان - باب كون النهي عن المنكر من الإيمان: ١ / ٦٩ (٤٩).

٢٥ - صحيح البخاري: الشركة - باب هل يُقرع في القسمة - متن فتح الباري: ٥ / ١٥٧ (٢٤٩٣)، وانظر الشهادات - باب القرعة في المشكلات: ٥ / ٣٤٦ (٢٦٨٦).

٢٦ - قيم حضارية في القرآن الكريم: ٢ / ١٩٥ - ١٩٧.

٢٧ - قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي: ١ / ٥٦.

بربه علاقة حبّ وطاعة، وسعي لمرضاته وطلب عونه " اللهم أعني على ذكرك وشكرك وطاعتك وحسن عبادتك" (٢٨)، ودعاه إلى " أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهم" (٢٩).

ولست في حاجة إلى بيان أن هذا الإيمان حرّر المسلم من عبودية الذات، ومن الخضوع المهين للآخرين، أو للكائنات الطبيعية بل وحتى للحيوانات أحياناً، ودعاه إلى حفظ كرامته والدفاع عن نفسه وعرضه وكلّ حقوقه " من قُتل دون ماله فهو شهيد" (٣٠)، ودفعه إلى التوكّل على الله واتخاذ الأسباب، ومعالجة المخاطر بالإعداد والاستعداد فهذا عمّر بن الخطّاب رضي الله عنه عندما أمر الجيش بعدم دخول المدينة المصابة بالطاعون، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله.. (٣١).

القيمة الأخلاقية: ومن ملامح الثقافة الإسلامية البارزة قيمها الأخلاقية العالية، قيمة الرحمة " من لا يرحم لا يُرحم" (٣٢)، والتواصل " لا يدخل الجنة قاطع" (٣٣)، والبرّ والتسامح، وحبّ الخير للآخر " لا يؤمن أحدكم حتى يُحبّ لأخيه ما يُحبّ لنفسه" (٣٤) والتواؤد والتعاون والإيثار " مثلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائرُ الجسد بالسهر والحمي" (٣٥). وبفضل الله تعالى أوجدت هذه الروحُ الإيمانية في نفوس أتباعها الألفة والتماسك ﴿ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ «الأنفال: ٦٣» فتحقق المبدأ الإسلامي

-
- ٢٨ - مستدرک الحاکم: الإمامة وصلاة الجماعة - باب التأمین : ٤٠٧ / ١ (١٠١٠).
- ٢٩ - صحيح البخاري: الإيمان - باب حلاوة الإيمان - متن فتح الباري : ٧٧ / ١ (١٦).
- ٣٠ - صحيح البخاري: المظالم - باب من قاتل دون ماله - متن فتح الباري : ١٤٧ / ٥ (٢٤٨٠).
- ٣١ - صحيح البخاري: الطب - باب ما يُذكر في الطاعون - متن فتح الباري : ١٨٩ / ١٠ (٥٧٢٩).
- ٣٢ - صحيح البخاري: الأدب - باب رحمة الناس والبهائم - متن فتح الباري : ٤٥٢ / ١٠ (٦٠١٣).
- ٣٣ - صحيح البخاري: الأدب - باب إثم القاطع - متن فتح الباري : ٤٢٨ / ١٠ (٥٩٨٤).
- ٣٤ - صحيح البخاري: الإيمان - باب من الإيمان أن .. - متن فتح الباري : ٧٣ / ١ (١٣).
- ٣٥ - صحيح مسلم - البر والصلة - باب تراحم المؤمنين : ١ / ١٩٩٩ . مسند أحمد : ٤ / ٢٧٨.

الخالد "الجميع للفرد والفرد للجميع" (٣٦).

وهي قيم تتَّسِمُ بالثبات والإطلاق والعمق، يطبّقها المسلم داخل بلاده وخارجها، ويتعامل بها مع المسلم ومع غيره، ويستعملها في السلم كما يستعملها في الحرب خلافاً لأخلاقيات دول الغرب فهي نسبيّة وغير ثابتة وتكيل بمكيالين، وتتعامل بوجهين^(٣٧)، فهي تطبّق الحُرِّيَّةَ والديمقراطيَّةَ والعدل والمساواة في بلادها وتصدّر الموتَ والدَّمارَ والقهر والظلم والاستغلال إلى بلاد الله الأخرى التي تُبتلَى بهيمنتهم عليها وعلى مقدراتها.

قيمة حفظ الحياة والعرض والمال وكرامة الإنسان: وهي قيمة تُعدُّ لُحمةَ الثقافة الإسلاميَّة وسداها، فقد حرّم النبي ﷺ على المسلمين دماء بعضهم البعض وأموالهم وأعراضهم إلا بحقّها^(٣٨). وكرامة الإنسان تعدُّ عُنواناً بارزاً لهذه الثقافة حتّى أن الرسول ﷺ اعتبر "سبّ المسلم فسوقاً وقاتله كفراً"^(٣٩)، فلا يجوز التعدي عليه بأيّ لون من ألوان العسف والإهانة، وهذا الإمام البخاريّ يُترجم لهذا المعنى بقوله: "باب ظهور المسلمين حمى إلا في حدود الله"^(٤٠)، وحتّى العبيد أيام كان العالم يُقرّ العبودية يحرم الإسلام قتلهم أو تبشيعهم أو إهانتهم "من قتل عبده قتلناه و من جدّعه جدّناه"^(٤١)، "ومن لطم مملوكه أو ضربه فكفّارته أن يُعتقه"^(٤٢). وبمقارنة بسيطة بين ما لقيه العبد مع سيّده المسلم - الذي يعتبره أحّاله - من رحمةٍ ورعايةٍ "إخوانكم و خولكم [خدمكم وحشمكم] جعلهم الله تحت

٣٦ - شروط النهضة : ٢٣٢.

٣٧ - قيم حضارية في القرآن الكريم : ٢ / ٢٢٥ - ٢٢٦ . قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي : ٨٠ / ١ ، ٨٣ ، ٨٤ .

٣٨ - صحيح البخاري - الحدود - باب ظهر المؤمن حمى - متن فتح الباري : ١٢ / ٨٧ (٦٧٨٥).

٣٩ - صحيح البخاري - الأدب - باب ما يُنهى عن السباب واللعن - متن فتح الباري : ١٠ / ٤٧٩ (٦٠٤٤).

٤٠ - صحيح البخاري - الحدود - باب ظهر المؤمن حمى - متن فتح الباري : ١٢ / ٨٧ .

٤١ - سنن النسائي بالقسامة - باب القود من السيد للمولى - المجتبى : ٨ / ٢٠ - ٢١ (٤٧٣٦) - المستدرک علی

الصحيحين - الحدود : ٤ / ٤٠٨ (٨٠٩٨) ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح علی شرط البخاري ولم

يخرجه .

٤٢ - صحيح مسلم - الأيمان : ٣ / ١٢٧٨ (١٦٥٧) .

أيديكم، فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكلُ وليكسسه مما يلبس، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه" (٤٣)، وبين ما لقيه العبيد في أوروبا وأمريكا من اضطهادٍ وعسف أدى بالآلاف منهم إلى الموت تحت التعذيب والجوع والعُرْيِ والمرض، وهم يعبدون الطرقاتِ ويسُقون الأنفاقَ ويستصلحون الأراضي. بهذه المقارنة ندرك البون الشاسع بين الثقافتين والحضارتين.

قيمة اليُسر والسماحة: ومن ملامح الثقافة الإسلامية اليُسر والسماحة، فقد نهى الرسول ﷺ عن الغلوِّ والتشدد والتكلف والرهبنة ومصادمة الفطرة وحرمان الجسد، ودعا إلى الاعتدال، وتهذيب الفطرة وإشباع حاجات الإنسان. يقول النبي ﷺ: "إنَّ الدين يُسر، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه" (٤٤)، وقال: سأحبَّ الدين إلى الله الحنيفية السمحة" (٤٥)، وحينما اتخذت أمُّ المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها حبلاً تستعينُ به على القيام في الصلاة قال ﷺ: "حلوه، ليُصلَّ أحدُكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد" (٤٦)، واستمدادًا من أنوار النبوة قال سلمان الفارسيُّ لأبي الدرداء رضي الله عنهما: سإنَّ لربِّك عليك حقًّا ولنفسك عليك حقًّا ولأهلك عليك حقًّا فأعط كلَّ ذي حقٍّ حقه" (٤٧).

قيمة المساواة ونبذ العصبية والعنصرية والاستعلاء: فقد سوى الإسلام بين الناس وأبطل دعاوى التمييز العنصريِّ و التفوق العرقيِّ و كلِّ النعرات الأثمة فأعلنها الرسول ﷺ واضحةً مجلجلةً منذ خمسة عشر قرنًا: "أنَّ الناس سواسية كأسنان المشط و أنَّ كلَّ الناس لآدم و آدم من تراب"، وقال: "الأإنَّ ربكم واحد وإنَّ أباكم واحد" (٤٨)، فلا مكان في ثقافة المسلم للعنصرية والصلف والكبرياء

٤٣ - سنن أبي داود : ٥ / ٣٦٠ (٥١٥٨) - صحيح مسلم : ٥ / ١٢٨٢ (١٦٦١).

٤٤ - صحيح البخاري - الإيمان - باب الدين يُسر - متن فتح الباري : ١ / ١١٦ (٣٩).

٤٥ - صحيح البخاري - الإيمان - باب الدين يُسر وقول النبي ﷺ: "أحبَّ الدين إلى الله الحنيفية السمحة - متن فتح الباري : ١ / ١١٦ أخرجه تعليقًا بصيغة الجزم.

٤٦ - صحيح مسلم - صلاة المسافرين - باب أمر من نعى في صلاته : ١ / ٥٤١ (٧٨٤).

٤٧ - صحيح البخاري - الأدب - باب صنع الطعام ... متن فتح الباري : ١٠ / ٥٥٠ (٦١٣٩).

٤٨ - مسند أحمد : ٥ / ٤١١ (٢٣٥٣٦).

والاستعلاء على العباد. أمّا ما يُبديه بعضٌ من يُسمّون بالنُخب المتغرّبة اليوم من استعلاء و استكبار فلا صلة له بالإسلام وأخلاقه، وهي نخب بقدر ما هي ذائبة في تصوّرات الغرب، منبهة بأفكاره ونظمه و متذيلة له، فإنّها تشعر إزاء شعوبها بكبرياء واستكبار كاذب، و تعتبرها غير مؤهلة لقيادة نفسها واختيار قيادتها فتحتمل على إرادتها و تسرق أصواتها و تزور اختياراتها بألوان من المكرّ و الخديعة، ثمّ تتغطرس و تتعالى عليها و تسومها الخسف و تتصرّف معها كما تصرّف فرعون مع شعبه ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ «غافر: من الآية ٢٩». وهي نُخب غريبة عن جسم الأمة وعن ثقافتها هذه الثقافة التي أصل فيها الرسول ﷺ للتواضع و للمساواة. فهذا سوادُ بن غزيرة في معركة بدر يطلب من النبي القوّد، فعرى النبي ﷺ بطنه راضياً وقال: اسْتَقِدْ يا سواد! فاعتنقه سواد و قبل بطنه^(٥٩)، وهذا عمر يقول لجليلة بن الأيهم الملك الغساني الذي لطم أعرابياً فدعاه ليقتنصّ منه ذلك الأعرابي، فامتعض جليلة و رأى نفسه أجلّ من ذلك، يقول له: دعك من هذا! فإنّ الإسلام قد سوّى بينكما^(٥٠).

إنّ هذه النخب انحرفت عن مهيع الأمة الرشيد و تأتي من التصرفات و تعلن من الأفكار ما يُذكر بصنيع المنافقين في عهد الرسول ﷺ^(٥١) وهي لم تنجح إلا في التفريط في مصالح الأمة و ثرواتها و قيمها لصالح الهيمنة الأجنبية كما لم تنجح إلا في توهين الأمة و تثبيط عزيمتها و تأخير نهوضها و انطلاقها، ولهذا فهي في دنيانا منبوذة و مرفوضة من الأمة كما يرفض الجسم السليم العضو الغريب. وفي الآخرة سيُحشرون. كما أخبر الرسول ﷺ - " أمثال الدّرّ في صور رجال يغشاهم الذلّ من كلّ مكان... يُسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال"^(٥٢).

٤٩ - كتاب الطبقات الكبير: ٣/ ٤٧٩ (٢١٤). انظر القصة في السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ٢/ ١٣٩.
 ٥٠ - انظر قصة إسلام جيلة وارتداده و لجوئه إلى القسطنطينية و ندمه في المصباح المضي ٢/ ٢٤٢ - ٢٥٣.
 ٥١ - الليبراليون في عصر النبوة: المختصر - ٤/ ١١ / ١٤٢٧ هـ الموافق ٢٤ / ١١ / ٢٠٠٦ م.
 ٥٢ - الأدب المفرد. باب الكبر: ١ / ١٩٦ (٥٥٧).

قيمة الاعتدال والوسطية وقبول الآخر واحترامه: ومن ملامح الثقافة الإسلامية العميقة، الوسطية والاعتدال ونبد التطرف والغلو في كل مناسط الحياة، بما فيها الأكل والشرب والفرح والحزن والعداوة والصداقة والحب والبغض أحب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما^(٥٣)، بل فحسب العباداة يدعو الرسول ﷺ إلى الاعتدال في أدائها ليحفظ الإنسان توازنه ويضمن ديمومة الطاعة. زعليكم بما تُطيعون، فوالله لا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا^(٥٤).

وهذه السمة جعلت الثقافة الإسلامية تقبل الآخر ولا تُقصيه أو تضطهده، فهي ثقافة تؤمن بالتعددية ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَبِقُوا الْحَيْرَاتِ﴾ «البقرة: من الآية ١٤٨» وتُمكن الآخر غير المسلم من حرية الاعتقاد والعبادة والتملك والتنقل، وشدّد الرسول ﷺ على حماية أهل الذمة ودفع الأذى عنهم فقال: سألنا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسٍ فأنا حجيجه يوم القيامة^(٥٥).

قيمة احترام الحياة ومنع الانتحار: ومما غرسته الثقافة الإسلامية في نفوس أبنائها أن الحياة هبة من الله، تستوجب شكره تعالى عليها وعبادته وتعظيمه وتسيححه، فلا يجوز إهدارها بالقتل ظلماً أو بالانتحار، وقد أخبر النبي ﷺ أن من قتل نفسه حرّمت عليه الجنة^(٥٦)، وعُدّب بحديدته في النار: من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبداً^(٥٧). وهذه

٥٣ - سنن الترمذي - كتاب البرّ والصلة - باب ما جاء في الاقتصاد في الحبّ والبغض: ٤ / ٣٦٠ (١٩٩٧). قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه، وقد روي هذا الحديث عن أيوب بإسناد له عن عليّ عن النبيّ؟، والصحيح عن عليّ موقوف عليه. معجم الطبراني الأوسط: ٣ / ٣٥٧ (٣٣٩٥).

٥٤ - صحيح البخاري - الإيمان - باب أحبّ الدين - متن فتح الباري: ١ / ١٢٤ (٤٣).

٥٥ - سنن أبي داود - كتاب الحجاج والإمارة والفقه - باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات: ٣ / ١٧١ (٣٠٥٢).

٥٦ - صحيح البخاري - الجنائز - باب ما جاء في قاتل النفس - متن فتح الباري: ٣ / ٢٦٨ (١٣٦٤).

٥٧ - صحيح البخاري - الطب - باب شرب السمّ والدواء به - متن فتح الباري: ١٠ / ٢٥٨ (٥٧٧٨).

معانٍ تفتقد لها ثقافة الغرب وحضارته حتى أن الانتحار يكاد يتحوّل إلى ظاهرة، فما بين سنتي ١٩٤٢ و ١٩٨٣ م انتحر عدد كبير من الروائيين والأدباء والكتّاب والشعراء، بل في أواخر السبعينات أقدم قرابة ألف أمريكي من الشبان والشابات على الانتحار الجماعي^(٥٨).

قيمة المراقبة الداخلية: يسري في عقل المسلم وشعوره ولا شعوره أن الله ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ «غافر: ١٩» فهو يخافُ الله في سرّه وعلنه ويخشاه في خلوته بنفسه واختلاطه بالناس، وانطبع في لا شعوره الإحساسُ بالمراقبة الذاتية، فأقام على نفسه رقيباً داخلياً يحميه من الوقوع فيما يُغضبُ الخالقَ ويَزَعُهُ عن ارتكابِ الشرور والآثام وإذابة الغير والعدوان على حقوقهم وخصوصياتهم. وهذا الوازعُ الداخليُّ ضعيفٌ جدّاً في العديد من بلاد الغرب لا سيما تلك التي آثرت العلمانية، ففي سنة ١٩٧٧ م حَدَثَ أن انقطعتِ الكهرباءُ في مدينة نيويورك مدّةً طويلة فتعطلتُ رقابةُ رجال الأمن و الشرطة أو عجزوا عن أداء مهامهم فعمت الأحياء المعتمّة في ظلام الليل جرائمُ السطو والقتل والعنف والتخريب لأن الرادع الداخليّ أو المراقبة الداخلية غير موجودة و الوازع الدينيّ منعدم، ولأن الرادع الخارجي - وهو الشرطة ورجال الأمن - تعطل أداءه في تلك الفترات الاستثنائية، فانفلتت الغرائز الحيوانية تفعل فعلها، وتبيّن أن " الصورة الحضارية للتعايش مع الآخر هي صورة زائفة"^(٥٩).

القيمة الذوقية والجمالية: لقد طبع الإسلام ذوق المسلم بطابع الجمال والنظافة ظاهراً وباطناً، فقال عليه الصلاة والسلام: " إن الله جميل يُحبّ الجمال"^(٦٠)،

٥٨ - المسلمون والبديل الحضاريّ: ٢٣ - ٢٥، وانظر قيم المجتمع الإسلاميّ من منظور إسلاميّ: ١ / ٥٤،

حيث يذكر د. أكرم ضياء العمريّ أن الثقافة اليابانية ربّما تشجّع على الانتحار في ظروف معينة.

٥٩ - المسلمون والبديل الحضاريّ: ٢٥.

٦٠ - صحيح مسلم - الإيمان - باب تحريم الكبر: ١ / ٩٣ - مسند أحمد: ٤ / ١٣٣ - ١٣٤.

وقال: "إنَّ اللهَ يُطَيِّفُ يُحِبُّ النِّظَافَةَ"^(٦١). وكان ﷺ يُحِثُّ أَصْحَابَهُ عَلَى التَّجَمُّلِ، والامْتِشَاطِ وَتَحْسِينِ الْهَيْئَةِ، وَكَانَ يُسَبِّهُ الرَّأْسَ الثَّائِرَةَ الشَّعْثَاءَ بِرَأْسِ الشَّيْطَانِ، وَجَعَلَ الْإِسْلَامَ مِنْ طَهَارَةِ الْبَدَنِ وَنَقَاءِ الثَّوْبِ، وَسَلَامَةِ النَّيَّةِ شَرْطَ قَبُولِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ. وَسَنَّ آدَابًا يَلْتَزِمُهَا الْمُسْلِمُ فِي كُلِّ مَا يَأْتِي وَيَدْعُ فِي عِبَادَاتِهِ، وَمَعَامَلَاتِهِ، فِي أَكْلِهِ وَشُرْبِهِ، وَبَيْعِهِ وَشِرَائِهِ، وَفِي مَعَاشِرَتِهِ زَوْجِهِ وَمَعَامَلَتِهِ أَبْنَاءَهُ وَإِخْوَانَهُ، وَفِي تَعَامُلِهِ مَعَ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ وَمَعَ الْحَيَوَانَ وَالطَّبِيعَةِ، مِمَّا حَفَلَتْ بِهِ السُّنَّةُ الْمُطَهَّرَةُ، وَقَدْ مَحَّضَ الْإِمَامُ الْبَخَارِيُّ كِتَابًا وَسَمَهُ بِالْأَدَبِ الْمَفْرَدِ. وَلَا يَخْلُو كِتَابٌ مِنْ كِتَابِ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ مِنْ كِتَابٍ فِي الْأَدَبِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْمَنَاقِبِ وَفَضَائِلِ الْأَعْمَالِ. "وَتَقَفَ هَذِهِ الذُّوْقِيَّاتُ حَارِسًا أَمِينًا يَصُونُ ذُوقَ الْأُمَّةِ مِنْ كُلِّ ابْتِدَالٍ، وَيَحْرُسُهُ مِنْ كُلِّ تَدَهُّورٍ.. وَيَمُدُّهُ بِالتَّأَلُّقِ وَالضِّيَاءِ"^(٦٢).

مخاطر تهتد الثقافة الإسلامية

إنَّ ما يَهْدِدُ ثِقَاتِنَا هُوَ عَيْنُهُ الَّذِي يَتَهَدَّدُ هَوِيَّتُنَا لِأَنَّهْمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ كَمَا سَبَقَ أَنْ أَلْمَعْنَا، وَلَعَلَّ التَّغْرِيبَ وَاللَهْثَ وَرَاءَ الْحَدَاثَةِ بِمَفْهُومِهَا الْعِلْمَانِيَّ الْمُنْفَسَخَ، وَمَا سَمَّاهُ مَالِكُ بْنُ نَبِيِّ "قَابِلِيَّةَ الْإِسْتِعْمَارِ"، وَمَا أَطْلَقَ عَلَيْهِ فَهْمِي هُوَيْدِي "قَابِلِيَّةَ الْإِسْتِرْقَاقِ"^(٦٣)، وَهَذِهِ الْغَارَاتُ الْمُتَلَحِّقَةُ الَّتِي تَشْتَبِهُ الْقُوَى الْمَعَادِيَةَ لِلْإِسْلَامِ لِتَجْفِيفِ مَنَابِعِ التَّدْيِينِ بِتَمْيِيعِ الْمَنَاهِجِ الدِّرَاسِيَّةِ وَإِفْرَاقِهَا مِنْ مَحْتَوَاهَا الْجَادِّ الرَّصِينِ وَزَرْعِ قِيمِ غَرِيبَةٍ تُسَهِّمُ إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ فِي تَدْجِينِ الْأُمَّةِ وَمَسْخِ هَوِيَّتِهَا، وَالتَّشْجِيعِ عَلَى انْتِشَارِ قِيمِ الْعِمَالَةِ لِلدَّخِيلِ وَالْحِيَانَةِ لِلوَطَنِ وَالدِّينِ، وَالنَّفَاقِ وَإِفْسَادِ الذَّمِّ.. هَذِهِ الْعَوَامِلُ كُلُّهَا تُمَثِّلُ مَخَاطِرَ تُهَدِّدُ حِصُونَ ثِقَاتِنَا وَتَنْذِرُ بِكَوَارِثِ تَزَلْزَلِ أَمْنِ الْأُمَّةِ، وَنَقَاءِ تَصَوُّرِهَا وَخُلُوصِ إِيمَانِهَا وَصَفَاءِ عَقِيدَتِهَا، وَاسْتِقْلَالِ أَوْطَانِهَا.

٦١ - سنن الترمذي - الأدب - باب ما جاء في النظافة: ٥ / ١١٢ (٢٧٩٩). قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث غريب، وخالد بن إلياس [أحد رواة] يَضَعُفُ.

٦٢ - قيم حضارية في القرآن الكريم: ٢ / ٢٦٨ ، ٢٧٠.

٦٣ - في الهوية: نكون أو لا نكون: ٣٧.

لقد كتب طه حسين في الثلاثينات عن مستقبل الثقافة بمصر، ودعا إلى تقليد الغرب في خيره وشره، كما دعا عبد الله العرويّ (المفكر المغربي) في كتابه "العرب و الفكر التاريخي" إلى ضرورة اجتثاث الفكر السلفي، بمعنى التراث الإسلاميّ من محيطنا الثقافي و لم يرَ مانعاً من أن تكون ثقافتنا تابعةً لثقافة الغير إذا كان ذلك شرطاً للتقدّم وطريقاً إلى الخلاص، وتبّت بعضُ دوائر النفوذ واتّخاذ القرار هذه الدعواتِ الموبوءةَ واعتبرتها من الحداثة التي زينَ لهم شياطينُ التغريبِ أنّها البِنْتُ الشرعيّةُ لعصر التنوير والتقدّم. وسارت على خطى أتاتورك في طريق فقدان الهوية والانخلاع عن الجذور و الذوبان في الغير شكلاً ومضموناً، فماذا حدث؟ وهل تقدّمنا؟ إنّ تقليدنا للغرب جعلنا نعيش "الازدواجيّة بل التناقض بين الأصل والصورة.. حتّى صرنا في واقع الأمر مجتمعاتٍ عرجاءٍ تمشي بسايقين مُتَنافِريّين كلٌّ واحدة في اتجاه معاكس للأخرى"^(٦٤).

إنّ أصالة الثقافة الإسلاميّة وتجذّرها في نفوس أبناء الأُمّة و تواصل تجدّدِهَا واستمرار وَهَجِهَا و استمداد قوّتها ممّا يُتلى صباحاً مساءً من أيّ الذكر الحكيم، ويُذكّر به من الهدّي النبويّ الشريف جعل نزعاتِ القطيعةِ مع اللّغة والثقافة العربيّة الإسلاميّة و دعواتِ الانصهار في ثقافة الغرب الدخيل و تبني ثقافته و لغته تُمنّى بالفشل الذريع^(٦٥). ومع ذلك فنحن بحاجة إلى تنقية كتبنا و مناهج تعليمنا من بصمات المسخ الفكريّ، و إلى تطهير أعماقنا من الإحساس بالهزيمة الدائمة حتّى نتمكّن من مقاومة الغاراتِ الوحشيّة المتجدّدة التي تقودها جحافلُ الطغيان الماديّ العسكريّ بمساعدة أسرابٍ من غرَبانِ العمالة و خلايا النفاق الذين يتسترون بأسمال الليبراليّة مرّةً وبمسوح الحداثة و العلمانيّة المتفسّخة أحياناً أخرى. إنّ الحفاظ على ثقافتنا وإبقائها حيّةً فاعلةً في نفوس أبناء الأُمّة هو وحده الذي

٦٤ - المرجع السابق : ٣٩ - ٤٠ .
٦٥ - الثقافة العربيّة : ٢٧ - في الهوية: نكون أو لا نكون : ٣٧ .

يُعْذِي قِيمَ الإِيمَانِ وَيُثَبِّتِي عَلَى جَذْوَةِ الْحَمِيَّةِ وَالْعِزَّةِ مَتَوَقِّدَةً فِي وَجْدَانِهِمْ فَتَسْعَى
الْأُمَّةُ إِلَى الْأَخْذِ بِأَسْبَابِ الْقُوَّةِ وَالْمَنْعَةِ وَالتَّخَلُّصِ مِنْ أَسْبَابِ الانْحِطَاطِ وَ
مَوْجِبَاتِ الْقَابِلِيَّةِ لِلإِسْتِعْمَارِ وَالإِسْتِعْبَادِ ؛ ذَلِكَ أَنَّ الإِسْتِعْمَارَ وَالإِسْتِعْبَادَ لَيْسَ
مُجَرَّدَ عَارِضٍ وَإِنَّمَا هُوَ نَتِيجَةُ حَتْمِيَّةِ لَانْحِطَاطِنَا وَتَدَلِّيْنَا^(٦٦).

مقترحات للحفاظ على حياة ثقافة الأمة :

١- ولن نتجاوز هذا التراجع والضمور إلاّ: بربط الأمة بجذورها الأولى و العودة
إلى ينابيع إيمانها و علمها، وفي مقدمتها القرآن الكريم والسنة المطهرة اللذان
فَتَّحَا عِيُونَ الْأُمَّةِ عَلَى آيَةِ تَغْيِيرِ أَوْضَاعِهَا فَسَادَتْ وَ نَشَرَتْ الْخَيْرَ فِي أَرْجَاءِ
المعمورة.

٢- و تطهير قيمنا و ثقافتنا من كل ما يشوب أصالتها و صفاءها و حركيتها. ولندكر
الراهب توما الإكويني (١٢٢٥- ١٢٧٤م) الذي لم يتورّع عن تزييف الحقّ و
تحريف التاريخ بطمسه كلّ أثر إسلاميّ في النهضة الأوربية حتّى يُقِيمَهَا عَلَى
أسس إغريقية و رومانية؛ إذ يعتبر أوربا امتدادًا للحضارة اللاتينية الإغريقية^(٦٧).

٣- و تصفية عاداتنا و تقاليدنا و محيطنا الخلقّي و الاجتماعيّ من الآثار الوثنية، و
تطهيرها من نُذُوبِ التَّغْرِيْبِ الَّتِي عَرَفَتْ أُمَّتُنَا مَعَهُ التَّحَلُّلَ وَ التَّفْسِخَ وَ الْكَثِيرَ
من العوامل الهدامة^(٦٨).

٤- معالجة الجهل و الأمية و التعالم معًا: ويرى مالك بن نبيّ أنّ عقل المتعالم مريض
لَمْ يَقْتَنِ الْعِلْمَ لِيَصِيرَهُ ضَمِيرًا فَعَالًا، بَلْ لِيَجْعَلَهُ آلَةً لِلْعَيْشِ وَ سُلْمًا يَتَسَلَّقُ بِهِ
مِنْصَةَ الْبِرْلَمَانِ، فَأَصْبَحَ الْعِلْمُ عُمَلَةً زَائِفَةً^(٦٩).

٦٦ - شروط النهضة (مقدمة د. عبد العزيز الخالدي : ٨-٩).

٦٧ - مشكلة الثقافة : ٦٩ .

٦٨ - شروط النهضة : ١٢٠- ١٢١ .

٦٩ - شروط النهضة : ١٢٨ .

٥ - كما ينبغي معالجة داء النُخبِ المتغرِّبة والمتعالية على الأمة التي تنظر إلى الكون بعيون أجنبية غريبة، وينبغي أن لا يُعطى شرفُ النخبوية والتميز إلا لأبناء الأمة الذين يعكسون آمالها وطموحاتها ويحملون ملامحها ويُشكّلون حجرًا صلبًا في جدار هويتها المرصوص.

٦ - تفعيل دور المسجد، وفتح أبوابه على مصاريحها أمام رجال الإصلاح و علماء الأمة لنشر العلم الصحيح ومقاومة الخرافيين والدرأويش والطُرُقِيِّين الجُهلة، وإحياء الروح الدينِيَّة في أبناء الأمة. وليس أدلّ على أهميَّة المسجد في إيقاظ وعي الأمة وتفعيل حمِيَّتِها من تصدِّي قوى الاستعمار للعلماء المصلحين، فأصدرت قوانين تحرّم عليهم المساجد باعتبارهم زُمقلي النوم العامز^(٧٠). بهذه الإجراءات نعيد لثقافتنا دورها في حماية الهوية والحيلولة دون الذوبان والانحلال.

نسبة الثقافة إلى الحضارة:

من الدارسين من لم يفرّق بين الثقافة والحضارة وجعلهما تحت مسمّى واحدٍ هو "الثقافة" إلا أنه قسّمها قسمين قسما أطلق عليه "الثقافة الماديّة" وأدرج تحته مجموع الأشياء وأدوات العمل والثمرات التي يُبدعها وهو ممّا يصلح أن يسمّى الحضارة. والقسم الآخر سماه "الثقافة المتكيفة" وضمّنه العقائد والتقاليد والعادات والأفكار واللغة وسلوك الأفراد وغيرها من القضايا الاجتماعية وهو ممّا يصلح أن يطلق عليه الثقافة^(٧١). ومن الباحثين من جعل بينهما خصوصاً وعموماً، فالثقافة تُطلق على الجانب الروحي المعنوي والفكري والعلمي من الحضارة، بينما تنتظم الحضارة الجانبين الروحي والفكري، والمادي والصنّاعي^(٧٢) فالعلاقة بين

٧٠ - شروط النهضة : ٢٩ - ٣١ .

٧١ - مشكلة الثقافة : ٣١ .

٧٢ - الإسلام والحضارة الغربية : ٩ .

المصطلحين ليست علاقة ترادفٍ وإنما هي علاقةٌ شاملٍ ومشمولٍ حيث تشمل الحضارة الثقافة والعكس غير صحيح^(٧٣).

ولئن كان مفهوم الحضارة مغايراً مفهوم الثقافة إلا أنّ هناك رابطاً وثيقاً يجمع بينهما، فالثقافة هي الجسر الذي يعبره المجتمع للرقى والتمدن وبناء الحضارة، وفي الوقت نفسه هي الحاجز الذي يحفظ بعض أفراده من السقوط من فوق هذا الجسر إلى الهاوية^(٧٤)، وهي التي تُعطي الحضارة سميتها الخاصة وطابعها المميز وهي التي تحدّد قُطبَيْها من عقلية ابن خلدون وروحانية الغزالي أو عقلية ديكارت وروحانية جان دارك^(٧٥)، كما يقول مالك بن نبي^(٧٦). والثقافة الإسلامية بسُميتها الجميل ودوقها الرفيع وروحها الإيمانية المبرّاة عن الشرك والوثنية وأخلاقها الإنسانية العالية أقامت حضارة ذات ملامح فريدة لا تُخطئها العين أنّي التفتّها في مشارق الأرض أو مغاربها تحمل روح الإسلام وتلتحف بوشاحه الأنيق "إنها الحضارة الإسلامية".

الحضارة

الحضارة لغة : مشتقة من: حَضَرَ [يَحْضُرُ: بضمّ عين الفعل] بمعنى أقام في الحَضَر وهو القرى والمدن، خلاف البداوة وهي سكنى البوادي، وقد يُعبر عنها بالمدينة من: مَدَنَ بالمكان أقام فيه واستقرّ ومدّن المدينة بناها ومصرّها. والحضارة والمدينة في اللغة الفرنسية civilization مشتقة من اللفظ اللاتيني civis أو civitas بمعنى المدينة فالحضارة في العربية واللاتينية بمعنى واحد^(٧٧).

٧٣ - كلمات في الحضارة : ٢٣.

٧٤ - شروط النهضة : ١٣٠.

٧٥ - [Janne d Arc] شابة فرنسية تُعرف بعذراء أورليان [La Pucelle d'Orleans] قاومت الاحتلال الإنكليزي ببسالة. ولدت ١٤١٢م وأُحرقت الأُنكليز حيةً بتهمة الردة والإلحاد سنة ١٤٣١م في مدينة روان Rouen. أعادت لها الكنيسة الاعتبار وقُدّمتها لقب قديسة سنة ١٩٢٠م

٧٦ - شروط النهضة : ١٣٠ ، مشكلة الثقافة : ٧٤ .

٧٧ - انظر كلمات في الحضارة : ٢٢ - والحضارة الحضارة: سبقتها حضارات كثيرة : ٦ . ٧.

الحضارة في اصطلاح علماء الاجتماع: " هي جملة الإنجازات التي يُبدِعُهَا مجتمع من المجتمعات أو أمة من الأمم في شتى مظاهر الحياة السياسيّة والاجتماعيّة و العمرانيّة و العلميّة نتيجة تفاعل أبناء المجتمع أو أبناء الأمة مع البيئة التي يعيشون فيها بشكل جيّد ز، أوسهي تراثُ الأمة أو الجماعة الذي بنته عبر عصورها المختلفة ، والذي يميّزُها عن غيرها من الجماعات والأمم".

والحضارة هي كلُّ شكلٍ من أشكال التنظيم للحياة البشريّة، فاكشافُ الآلة البخاريّة و آلةِ الطباعة والنوّل البخاريّ و شبكةِ المواصلِ و الاتّصالات و غيرها من الوقائع الحضاريّة و جميعُ الأسباب التي أنتجت هذه الوقائع و جميع ظروف تكوينها يعدّ حضارة، وهي تتمتع بأليّة تُحقّق لها التواصُل والاستمراريّة فلا تتوقف بتغيّر الحُكُام ولا بتوالي الدول، كما أنّ الانتكاسات السياسيّة لا تُسَلِّطُ فاعليتها^(٧٨).

ميلاد الحضارة ونشوؤها: لقد تباينت آراء علماء التاريخ و الاجتماع في تحديد الأسباب و العوامل التي تنبثق عنها حضارة ما، فذهب الفيلسوف الانكليزي أرنولد توينبي TOYNBEE في كتابه ز دراسة التاريخ " إلى أنّ نشوء الحضارة مرتبط بالتحديّ والاستجابة^(٧٩) أي أنّها تتشكّل و تُصنّف حاسمةً أمام تحدّ رهيب مُرعبٍ سواءً كان هذا التحديّ طبيعيًا كالجفاف و الطوفان و الزلازل، أو تاريخيًا كالغزو و الحرب و التهديد بالاسترقاق^(٨٠). أمّا كارل ماركس Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣) فمن منطلق إيمانه بالجدليّة الماديّة رأى في الضرورات الماديّة الاقتصاديّة و حاجات الإنسان الأساسيّة نقطة انطلاقٍ لتحديد الحضارة و انبعاثها. أمّا المدرسة الهتليريّة على يد روزنبرغ فذهبت إلى أنّ عبقرية جنس معيّن هي التي تبعث

٧٨ - مشكلة الحضارة: ٢٦، ٣٧ - الإسلام و الحضارة الغربيّة: ٨، ٩ - كلمات في الحضارة: ٢٢ - صانعو

الحضارة العربيّة الإسلاميّة: ٥٠.

٧٩ - كلمات في الحضارة: ٢٤ - مشكلة الحضارة: ٦٣ - ٦٤ .

٨٠ - مشكلة الحضارة: ٦٣ .

الحضارة وتنشئها^(٨١). ويرى ابن خلدون في روح العصبية التي تلازم البداوة عادةً دافعاً إلى التوسّع وإنشاء ملك ودولة، الأمر الذي ينتهي إلى انبعاث العمران والحضارة^(٨٢).

أمّا الحضارة الإسلاميّة فأشرقت شمسها من الحقيقة الاعتقاديّة الالهية التي كانت الأساس لكلّ ما بنته من منجزات معنويّة وحسيّة، علماً بأنّ الإسلام لم يأت بموسوعة علميّة ولا بخرائط صناعيّة ولا بقوة ماديّة وإنما فتح بصر الإنسان و عقله على آفاق الكون للتأمّل والاعتبار والمعرفة والإيمان، وأكسبه خلالاً نفسيّة جعلته يُبدع حضارة مطبوعة بطابع الإسلام، طوّع فيها العِلْمَ والصنّاعة والقوّة الماديّة لصالح الإنسان^(٨٣)، وإذا كان بدء ظهور الحضارة مع اكتشاف الزراعة في حدود سنة ٨٠٠٠ قبل الميلاد وارتباط الإنسان بالأرض واشتغاله بالزراعة^(٨٤)، فإنّ بداية انطلاق حضارة الإسلام الفريدة كانت مع نزول كلمة "اقرأ" في غار حراء على قلب الرسول محمد ﷺ، وهي روح أطلقت شرارة انبعاث حضارة متميّزة و " كلمة " أدهشت النبيّ الأميّ و أثارت معه و عليه العالم، ومن تلك اللحظة وثبتت القبائل العربيّة على مسرح التاريخ و ظلت قرونًا طويلاً تحمّل للعالم حضارة جديدةً و تقوده إلى التمدّن والترقيّ"^(٨٥).

الدين ودوره في بناء الحضارات

يُجمَعُ مؤرّخو الحضارات على أنّ جوهر الدين هو العامل الأساسيّ والمؤثّر الصالح في كلّ زمان ومكان لبروز الحضارة وولادتها، فالفكرة الدينيّة كما يقول مالك بن نبيّ: "تولّف بين عوامل نشوء الحضارة وعناصرها الفاعلة: الإنسان

٨١ - شروط النهضة : ٩٤ - ٩٥ .

٨٢ - كلمات في الحضارة : ٢٥ .

٨٣ - روح الحضارة الإسلاميّة : ٤ .

٨٤ - كلمات في الحضارة : ٢٣ .

٨٥ - شروط النهضة : ٧٦ .

والتراب والوقت، لتركب منها كتلة تُسمى في التاريخ "حضارة"^(٨٦). بل فإنه يَجْزَمُ أَنَّ الحضارة خلال التاريخ لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية فالارتباط بينهما ارتباط عضوي لا انفكاك له^(٨٧).

الإسلام يُنشئُ حضارته المتميزة

لقد أحدث الإسلامُ تحوُّلاً تاريخياً جذرياً غير معالِم الكون فأقام منذُ عصر الرسالة دولة كبرى نسج لها تشريعاً خاصاً، وهيئاً الشروط العقلية والخلقية والوجدانية اللازمة والكافية لتأسيس حضارةٍ إيمانية تستمدُّ منهجها ومفرداتها من كتاب الله وهُدْيِ رسوله محمد ﷺ حتى تكون البديل الحضاري المناسب للإنسان ووظيفته التعبديَّة والعمرانية^(٨٨).

وقد نُفِذت العديدُ من حلقات هذه الحضارة في عهده ﷺ فقد وضع - عليه الصلاة والسلام - التُّظْمَ المدنيَّةَ المختلفةَ باعتباره إمامَ الأئمة وقاضيَ القضاة و عالمَ العلماء، فقد فوَّضَ اللهُ إليه كلَّ الوظائف في رسالته الخاتمة وهو أعظمُ من كلِّ من تولَّى منصباً منهم.. إلى يوم القيامة^(٨٩) فلم يترك ﷺ أصلاً من أصول الحضارة والمدنيَّة إلا وفجر ينابيعه ودلَّ على طرق الاستفادة من وِردِهِ الطَّهْوَر، وحذَّر من مَحَاطِرِ التَّيِّهِ في السفسطة والضياع في غياهب الضلال والجدل العقيم، فقد وجَّه العديدُ من صحابته - عليه الصلاة والسلام - المسلمين إلى التفكير في الطبيعة والنظر في أسرار الكون والإنسان، ونهاها عن التفكير في ذات الله " تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا"^(٩٠)، ودعا إلى استخدام العقل

٨٦ - المصدر السابق : ٨٦ - ٨٧.

٨٧ - شروط النهضة : ٧٥ - ٨٣ .

٨٨ - السيرة النبوية مشروعا حضاريا : ١ ، ٣ ، ٤ ، ٧ .

٨٩ - نظام الحكومة النبوية : ١ / ١٩ .

٩٠ - كتاب العرش : ٥٩ حديث ١٦ - العظمة - باب الأمر بالتفكير في آيات الله - عز وجل - وقدرته : ٢١٢ / ١ - ٢١٣ (حديث ٢) - الأسماء والصفات - باب ما ذكر في الذات : ٢ / ٤٦ حديث ٦١٨ . باب قول الله - عز وجل - : " وهو القاهر فوق عباده " ٢ / ٣٢٣ حديث ٨٨٧ . ذكر ابن حجر أنه جاء من حديث ابن عباس موقوفاً عليه بصيغة : " تفكروا في كلِّ شيء ولا تفكروا في ذات الله . " وقال عنه : " سنده جيد " فتح الباري - التوحيد - باب ما يُذكر في الذات والنعوت : ١٣ / ٣٩٤ عند شرحه للحديث ٧٤٠٢ ، وذكره السيوطي في الفتح الكبير بلفظه ولفظ مقارب موقوفاً على ابن عباس وابن عمر وأبي ذر الغفاري : ٢ / ٣٥٣ .

و الحسن في اكتشاف أسرار عالم الشهادة و النأي بهما عن الخوض في عالم الغيب^(٩١) و حذر القرآن الكريم من تعطيل هذه العطاءات الربانية و توعد مُهْمَلَهَا بالنار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ١٠). و تمكنت عبقرية الصحابة من نقل بذور تلك الحضارة و زرعها في كل أرض حلوا بها و استطلت بنور الإسلام، بهمة و اقتدار حتى قال بعض الأصوليين: "لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة إلا أصحابه لكفوه في إثبات نبوته"^(٩٢).

أول من أصل لدور السنة في بناء حضارة الإسلام و ألف في ذلك على استقلال

من أول من ألف على استقلال في تأصيل الحضارة الإسلامية و بيان دور السنة في بنائها:

١- أبو الحسن علي بن ذي الوزارتين محمد بن موسى الخزاعي^(٧١٠-٧٨٩ هـ) فقد ألف كتاب "تخريج الدلالات السميّة على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف و الصنائع و العمالات الشرعية".

٢- العلامة الشيخ عبد الحي بن عبد الكريم الكتاني فقد ألف "نظام الحكومة النبويّة" المسمّى "التراتب الإداريّة" و قد قسمه إلى عشرة أقسام و وضع تحت كل قسم عدداً كبيراً من الأبواب، أتى فيه على زبدة كتاب الخزاعي، و حذف مكرّره و استطراداته و ما لا حاجة أو لا حاجة فيه، و زاد عليه أضعاف ما ذكره من كل قسم من الحرف و الصنائع و الصفات. و قد رجع في تأليفه و جمعه إلى عدد ضخم من أمّهات كتب السنة و السيرة و التاريخ و الرجال و الأدب حتى كاد يأتي عليها جميعاً، فكان كتابه تصويراً شاملاً و دقيقاً لكلّ المعالم الحضاريّة التي أرساها الرسول ﷺ في عهده تشريعاً و تنظيمياً و تعليماً و تأديباً و تدريباً و تسليحاً و

٩١- قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي: ١١٦/١.

٩٢- نظام الحكومة في الإسلام: ١٢/١.

تصنيعاً، و تأسيساً لدعائم حضارة عتيده فريدة تحمل شارة الإسلام و تستمدّ من سمّو أنواره سماتها و من كمالته الخالده خصائصها.

وقد عدّد - رحمه الله - من التراتيب الإداريّة و الأوضاع العلميّة و الصناعيّة و الزراعيّة و التجاريّة و الوظيفيّة وغيرها من المظاهر الحضاريّة ما يجعل الواقفَ عليها يجزم أنّهُ ﷺ في حياته على قصرها لم يترك معلّمًا من معالم بناء الدّولة و إقامة الحضارة إلّا وضع له أسًا و بذر له بذراً. و ممّا أكسبَ هذه المنجزاتِ الفعاليّة و الخصوبةَ و النّجاعةَ أنّها كانت مسندةً للأكفاء من نجباء أصحابه ﷺ و الصّفوة من أعوانه^(٩٣).

و بعد أن أثبت العلامةُ الشّيخ الكتاني أنّ الحضارة الإسلاميّة نبعت من أنوار النبوّة و سُدّدتْ بحكمة توجيّهه ﷺ نَسَبَ إلى الغلط زعمَ من زعم " أنّ المسلمين إنّما أخذوا حضارتهم في عهد الدولة الأمويّة و العباسيّة من اليونان و الفرس! " ... و أنّ التمدّن الإسلاميّ قام على الشريعة و لم يَقم معها! " و اعتبر ذلك " غلطا فادِحًا نتج عن جهل قائله بالسّيرِ و الحديثِ أو من عدم تشخيصه لحقيقة ينباع المدنيّة"^(٩٤)

وقد أخذ عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٤ - ٨١١ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) على ما قاله في مقدّمته: من " أنّ الملة في أولها لم يكن فيها علمٌ ولا صناعة لمقتضى أحوال السّداجة و البداوة، و جرى الأمرُ على ذلك زمن الصحابة و التابعين "، كما أخذ العلامة محمّد صديق خان القنّوجي (١٢٤٨ - ١٣٠٧ هـ / ١٨٣٢ - ١٨٩٠ م) الذي نقل عن ابن خلدون نحو هذا المعنى دون الإشارة إليه^(٩٥).

٩٣ - نظام الحكومة النبوّة المقدّمة : ١ / ١٠ .

٩٤ - نظام الحكومة النبوّة المقدّمة : ١ / ١٠ .

٩٥ - نظام الحكومة النبوّة (المقدّمة) : ١ / ١١ .

خصائص الحضارة الإسلامية ومميزاتها:

إنَّ آيَةَ حضارة تُطبع بطابعٍ مُنشئها و بانيها وتتأثر بروحه و تصوّراته لعالميّ الغيب و الشهادة كما تتلوّن بلون البيئة التي نبتت فيها. وإنّ الحضارة الإسلاميّة وُسِّمتُ بِسِمَاتِ المسلم ذي الثقافة المتميّزة و الهوية المتفرّدة فاكتمت قيماً تميّزها عن غيرها:

١ - القيمة الإيمانيّة: فكانت ربّانية تستمدّ وجودها و تجدّدها من القرآن العزيز و السنّة المطهّرة، و هي سمة أكسبتها الثبات و أبعدها عن أهواء البشر^(٩٦).

٢ - القيمة الإنسانيّة: فهي تعمل لصالح الإنسان حتى أن ثلثي الشريعة نزلت تعالج مسائل المعاملات الدنيويّة و أمّا الثلث الآخر و إن كان يتناول قضايا العبادات إلا أنّه يتضمن العناية بسعادة بدن الإنسان و صحّته و بحياته الروحيّة و النفسية^(٩٧).

٣ - القيم العلميّة: طبع الرسول ﷺ حضارة الإسلام بالعلم فقد حوّل المدينة إلى مدرسةٍ فسيحة الأرجاء لا ترى فيها إلا معلّمًا أو متعلّمًا فقد اتخذ عليه الصلاة و السلام "دارًا للقراء"^(٩٨) و أمر عبد الله بن سعيد بن العاص أن يعلم الناس الكتابة في المدينة و كان كاتبًا مُحسِنًا، و جعل عبادة بن الصّامت يتولّى تعليم أناس من أهل الصّفّة الكتابة و القرآن^(٩٩)، و طلب إلى الشّفاء أمّ سليمان بن أبي حتمّة تعليم أمّ المؤمنين حفصة الكتاب^(١٠٠). و كان عليه الصلاة و السلام يحضّ على تعميم نشر العلم، فحتّى الإماء دعا لتعليمهنّ " ثلاثة يُؤتَوْنَ أجرهم مرتّين: الرجل تكون له الأمة فيعلّمها فيحسن تعليمها ويؤدّبها فيحسن

٩٦ - قيم حضارية في القرآن الكريم: ٢ / ١٢٧.

٩٧ - نظام الحكومة النبوية: ١ / ١٦.

٩٨ - نظام الحكومة النبوية: ١ / ٥٦.

٩٩ - نظام الحكومة النبوية: ١ / ٤٨.

١٠٠ - نظام الحكومة النبوية: ١ / ٥٠.

تأديبها..^(١٠١)، فكيف بالحرائر والقربيات و كان ﷺ يطلب من الرجل أن يعلم أهله " و يطلب من الإمام أو نائبه أن يعلم النساء^(١٠٢)، فالعلم في الإسلام لا ينفصل عن العقيدة فهو موصول باللهم ممتزج بعبادته تعالى، والمسلم يستلهم من بدائع صنعه و روائع خلقه في الكون، معنى العبودية و الإجلال للحق الباري تعالى^(١٠٣).

٤ - القيمة الأخلاقية: فالحضارة الإسلامية تنبع من قيم الإسلام الأخلاقية التي تكررُ الإنسان ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: من الآية ٧٠] خلافاً لبعض الحضارات الأخرى التي صدرت عن قيم تعظيم الذات، فمدافن الفراعنة و أهراماتهم العظيمة والحدائق المعلقة التي شيدها البابليون و غيرها دفع آلاف البشر أرواحهم و كرامتهم ثمناً لها و إرضاءً لكبرياء الحكام و غرور و طغيانهم^(١٠٤).

٥ - قيمة العمل: دعا الرسول ﷺ إلى العمل و رفع من قيمته حتى جعله عبادة و أناط به الأجر العظيم و دعا إلى بذل الوسع في إتقانه فقال: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"^(١٠٥) و كان لشدة حبه العمل يأنف أن يرى أصحابه يعملون و هو جالس: "إني لا أحب أن أجلس و أنتم تعملون"^(١٠٦). و كان قد بصر أجيال المسلمين بقيمة الوقت و دعا إلى وجوب حسن استغلاله لرفع كمية الحصاد العقلي و اليدوي و الروحي و هذه هي الحضارة عينها. يقول النبي ﷺ "ليس من يوم إلا و ينادي يا ابن آدم أنا خلق جديد، أنا فيما تعمل فيّ عليك شهيد، فاغتنم مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة"^(١٠٧). و فريضة العمل و قدسيته

-
- ١٠١ - صحيح البخاري - الجهاد - باب فضل من أسلم من أهل الكتائب - متن فتح الباري : ٦ / ١٦٩ (٣٠١١).
- ١٠٢ - نظام الحكومة النبوية : ١ / ٥٣
- ١٠٣ - قيم حضارية في القرآن الكريم : ٢ / ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٥.
- ١٠٤ - قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي : ١ / ٩٣.
- ١٠٥ - مسند أبي يعلى الموصلي : ٧ / ٣٤٩ (٤٣٨٦).
- ١٠٦ - قيم حضارية في القرآن : ٢ / ٢١٥ - ٢١٦.
- ١٠٧ - كنز العمال (ذكره بالمعنى) : ١٥ / ٣٣٦ (٤٣١٥٩).

لا ينبغي أن تحدد من قيمتها الأحداث. أو تعطّل مسيرتها الملمات، " إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها" (١٠٨). كما دعا ﷺ إلى حفظ حقّ العامل في أجره فقال: " أعطوا الأجير حقه قبل أن يجفّ عرفه" (١٠٩). وأصبحت رفعة الإنسان ومكانته لا ترتبط بشكله ومظهره فحسب، وإنما هي منوطة بعمله، وبذله وإتقانه، يقول عمر بن الخطّاب: سيّئني لأرى الرجلَ فيُعجّبني! فأسأل: أله عمل؟ فإن قالوا لا! سقط من نظري" (١١٠).

٦ - قيمة الجمع بين الدنيا والآخرة: و من أعظم سمات الحضارة الإسلاميّة جمّعها بين الدنيا والآخرة و ملاءمتها بينهما في تناسق وتكامل عجيبين، حتّى أصبح الحصولُ على خيرهما معاً مطلباً يتضرّع المسلم إلى الله كي يُحقّقه له: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ «البقرة: من الآية ٢٠١». وأصبح التفريطُ في أحدهما منقصةً، على المسلم أن يتفادها. يقول النبي ﷺ: "ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه حتى يصيب منهما جميعاً فإن الدنيا بلاغُ الآخرة ولا تكونوا كلاً على الناس" (١١١). ونهى الرسولُ عن الرهبنة، و اعتبر الجهادَ رهبانيّةً هذه الأمة: " لكلّ أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله" (١١٢). فالجمع بين الدنيا والآخرة مدعاة لمرضاة الله، يقول الرسول ﷺ: "من رزق الدنيا على الإخلاص لله وحده و عبادته لا شريك له و أقام الصلاة و أتى الزكاة مات و الله عنه راض" (١١٣). فحضارة

١٠٧ - كنز العمال (ذكره بالمعنى): ١٥ / ٣٣٦ (٤٣١٥٩).

١٠٨ - الأدب المفرد - باب اصطناع المال: ١ / ١٦٨.

١٠٩ - السنن الكبرى للبيهقي: كتاب الإجارة - باب لا تجوز الإجارة حتى... ٦ / ١٢٠.

١١٠ - كنز العمال - كتاب البيوع من قسم الأفعال - باب في الكسب: ٤ / ٥٢.

١١١ - التيسير شرح الجامع الصغير للسيوطي، الذي ذكر أن الحديث رواه ابن عساكر عن أنس، ورمز له بالضعف: [٥/٤٣٠] ٧٥٩٤. تاريخ دمشق: ٦٥ / ١٦٧. كشف الخفا ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: ٢ / ٢٢٠ (٢١٣٩). الفردوس بمأثور الخطاب [نحوه]: ٣ / ٤٠٩ (٥٢٤٩).

١١٢ - الدر المنثور [تفسير ابن كثير]: ٨ / ٦٦.

١١٣ - نظام الحكومة النبوية: ١ / ١٦.

الإسلام تنهض بالدنيا و تخدم الآخرة و هي سِمة لفتت انتباه الملوك و القادة فدخلوا في الإسلام طائعين راضين، فهذا المنذر بن ساوى ملك البحرين حينما قدم عليه العلاء بن الحضرمي الخزرجي و خاطبه في الإسلام و شرائعه أجاب المنذر: " قد نظرتُ في هذا الأمر الذي في يدي فوجدته للدنيا دون الآخرة، و نظرت في دينكم فوجدته للآخرة و الدنيا، فما يمنعني من قبول دين فيه أمانة الحياة و راحة الموت و لقد عجبتُ أمسُ ممّن يقبله و عجبت اليوم ممّن يردّه^(١١٤)". و لما قدم عمرو بنُ العاص على جيفر و عبد ابني الجلندي ملكي عُمان قال لهما: " انظرا في هذا النبي الأمي الذي جاء بالدنيا و الآخرة^(١١٥)".

وهي ميزة لفتت كذلك انتباه الباحثين و أخذت بألبابهم فهذا الباحث الأمريكي مايكل هارت اعتبر محمّدا زاعظم شخصيّة في التاريخ و ذلك لقدرته على تنفيذ إنجاز كبير و متغيرات انقلابية تنطوي على الدين و الدنيا معا^(١١٦)

وكان الصّحابة و تابعوهم يا حسان و من جاء بعدهم من السلف الصالح يمثّلون النموذج الحيّ لهذه الحضارة المتوازنة التي تستجيب لفطرة الإنسان و تجمع بين الدنيا و الآخرة بلا إفراط و لا تفريط . يقول عمر بن قيس (ت ٧٣هـ) "كان عبد الله بن الزبير إذا نظرت إليه في أمر الدنيا قلت: هذا رجل لم يرد الله طرفة عين، و إذا نظرت إليه في أمر آخرته قلت هذا رجل لم يرد الدنيا طرفة عين". و قال عبد الله بن عمّار: "لو كان عندي أحد ذهباً أعلم عدده و أخرج زكاته ما كرهتُ ذلك و ما خَشِيتُ أن يضرّني"، إذ نعم المالُ الصالحُ للعبدِ الصالح^(١١٧).

١١٤ - نظام الحكومة النبوية : ١٧ / ١

١١٥ - نظام الحكومة النبوية : ١٧ / ١

١١٦ - السيرة النبوية مشروعا حضاريا : ٦.

١١٧ - صحيح ابن حبان : باب ذكر الإباحة للرجل الذي يجمع المال من حلّه .. ٦ / ٨

وطلب الكسب الحلال و تحصيلُ الرزق من طرقه المشروعة و إنفاقه في وجوه البرّ و الصّلاح يعدّ من التّعَم التي يصبو المؤمن إلى تحصيلها. يقول التابعي الجليل سعيد بن المسيّب: " لا خير فيمن لا يجمع المالَ فيقضي دينه و يصلَ رَحِمَهُ و يكفّ به عن وجهه"^(١١٨)، و هو ملحظ جعل أبا الدرداء عويمر بن زيد الخزرجي الأنصاري (ت ٣٢ هـ) يقول: "من فقه الرجل استصلاحه معيشتَه"^(١١٩)، كما جعل قيس بن عاصم يحضّ بنيه حينما وافته المنية على اصطناع المال لأنّه: مَبْهَةٌ للكريم، و يُسْتَعْنَى به عن اللئيم"^(١٢٠). وهذا الحرص على إصلاح الدنيا لا يتعارض مع وصف القرآن لها بقوله: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ ﴾ [آل عمران من الآية ١٨٥] فذلك كي لا تستغرق الدنيا كيانَ المسلم و تصبح غايته العظمى فتنسيه نفسه و تنسيه خالقه و تميل به عن الوسطية و الاعتدال في طلبها، و هو ما يفسر دعاءه ﷺ "اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همّنا و لا مبلغ علمنا"^(١٢١).

مُنجزات الحضارة الإسلاميّة

نظراً إلى أنّ الحضارة الإسلاميّة هي أثر من آثار الإسلام، فإنّ الطابعَ الدينيّ واضح جليّ على كلّ ما يصنعه العالمُ و يُنتجه الأديبُ و يُبدعه أصحابُ الفنون " فبرزت مُنجزات علميّة طبيعيّة و رياضيّة و إنسانيّة و معماريّة و وثيقة الصلّة بالعقيدة، يتجانس فيها العقليّ مع التّقليّ"^(١٢٢).

وكانت إبداعاتُ هذه الحضارة متكاملةً و متوازنة و تتناولُ كلّ نشاطاتِ الفكرِ و مشاغلِ الناسِ و حاجياتهم في مختلفِ مجالات حياتهم:

١١٨ - نظام الحكومة النبوية: ١ / ١٦.

١١٩ - الدر المنثور: ٥ / ٢٧٧.

١٢٠ - نظام الحكومة النبوية: ١ / ١٧.

١٢١ - تفسير ابن كثير [الدر المنثور]: ٤ / ٢٥٦.

١٢٢ - روح الحضارة الإسلامية: ٤.

الزراعة: فكانت لها إسهامات بارعة في زراعة الأرض، و توفير المياه و حسن استغلالها^(١٢٣) و نشأ عن ذلك علمُ النبات (الفلاحة) و علم الحيوان (البَيْطَرَة)^(١٢٤) تنفيذًا للأمر الإلهي ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ «هود: من الآية ٦١» أي أَمَرَكُمْ بعمارتها بكلِّ ما يُصْلِحُ أحوالكم المعيشية^(١٢٥).

الطب: و كانت لها مفاخرٌ عديدة في مجال الطب^(١٢٦) كإكتشاف الدورة الدموية، و خيوط الجراحة و أدواتها الدقيقة و النظارة الطبيّة و السبق في إكتشاف مفاهيم علم الصيدلة و تقنين صنع الأدوية و تنظيم ممارسة مهنة الصيدلة^(١٢٧) و هي منجزات أَوْقَدَ فَتِيلَهَا الأَوَّلُ الرسولُ ﷺ حيث دعا الناسَ للعلاج و أعلمهم زانًا لكلِّ داءٍ دواءً^(١٢٨)، و ضرب في المسجد خيمةً تقوم امرأةٌ يُقال لها رفيدة بنت سعيد الأسلمية الأنصارية بمداواة المرضى و الجرحى حِسْبَةً، و تُعِينُهَا في هذه المهمة الإنسانية أَخْتَهَا كَعِيْبَةُ بنت سعيد الأسلمية. كما حذَّرَ عليه الصلاة و السلام- من ادَّعَاءِ الطَّبِّ و التصدِّيِّ لعلاج الناس بدون عِلْمٍ فقال: من تطبَّبَ [تعاطى الطب] ولم يكن بالطبِّ معروفًا، فأصاب نفسًا فما دونها فهو ضامن^(١٢٩)، كما كانت له -عليه الصلاة و السلام- إشارات و وصفات في تصحيح الأبدان البشرية و الأدوية و الأغذية ما جعل الإمام السيوطي يجمع منها كتابًا سماه "المنهج السويُّ و المنهلُ الرويُّ في الطبِّ النبويِّ"^(١٣٠).

الرياضيات: كما حقَّق العلماء المسلمون إكتشافاتٍ بالغة الأهمية: في علم الرياضيات، حيث ابتكروا نظام الكسر العشريِّ و الجبر و المقابلة، و إكتشفوا

١٢٣- تطوّر تقنيات استغلال المياه في الحضارة الإسلامية: ١٥٨-١٦٦ - أمتنا و بعض إنجازاتها الحضارية: ٣-٤.

١٢٤- قيم المجتمع الإسلامي بمنظور تاريخي: ١/١٢١.

١٢٥- دور الوقف في التنمية البشرية: ١٣.

١٢٦- قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي: ١/١١٨-١١٩.

١٢٧- الثقافة الامبريالية: ١٠٠.

١٢٨- صحيح مسلم - باب لِكُلِّ داءٍ دَوَاءٌ وَاسْتِحْبَابِ التَّدَاوِي: ٤/١٧٢٩.

١٢٩- سنن البيهقي الكبير: ما جاء فيمن تطبَّبَ بغير علمٍ فأصاب نفسًا فما. ٨/١٤١.

١٣٠- نظام الحكومة النبوية: ٢/٣٣٩.

الصفير، و كان الأوربيون قد نقلوا الأرقام العربية عن المسلمين مبكراً^(١٣١)، حتى أنهم سمّوا الأرقام في لغتهم باسم الصفير لأهميته [Chiffre]

الكيمياء والفيزياء: وفي الكيمياء اكتشف العلماء المسلمون العديد من الأحماض وأسرار المعادن. وتوصلوا في الفيزياء إلى علم البصريات والمناظر، وتحليل الشعاع وانكساره وانعكاسه على المرايا المستوية والمقعرة والمحدّبة والإسطوانية، وقاسوا سرعة الضوء وقارنوها بسرعة الصوت، وعرفوا الأوزان النوعية لعدد من الأجسام والمعادن والأحجار، واكتشفوا مبدأ الجاذبية وضغط الهواء حتى أنهم اخترعوا الطواحين الهوائية منذ سنة ٢٩ هـ في خلافة عثمان رضي الله عنه^(١٣٣) وعرفوا قوة الماء الدافعة وقاسوا الضغط الجوي. وفي علم الحيل (الميكانيك) اخترعوا المضخة الماصة الكاسبة وهي أساس محركات القطارات والسيارات.

الفلك: كما أنّ للحضارة الإسلامية إبداعات عديدة في مجال علم الفلك، فمهد العلماء المسلمون الطريق إلى النهضة المعاصرة في علم الفضاء، فقد اكتشفوا حركة الأفلاك، والكثير من النجوم، ورسموا خرائط ملوّنة للسماء، و ألفوا في النجوم الثوابت^(١٣٣) كما قاسوا أجرام الشمس والقمر وتوصّلوا إلى معرفة كروية الأرض ودورانها حول نفسها ورسموا خطوط الطول والعرض وقاسوا طول خطّ الاستواء، وحسبوا أيام السنة وطوّروا آلات الرصد من أسطرلابات ومناظير^(١٣٤) يدفعهم إلى هذا ويقوي عزمهم حث الرسول صلى الله عليه وآله على دراسة الأفلاك لضبط مواقيت العبادة وحسن السعي في الأرض والضرب في

١٣١ - يذهب الشيخ الكتاني إلى أنهم نقلوها عن العرب منذ زمن سيّدنا علي بن أبي طالب؟ نظام الحكومة النبوية: ٣١٢ / ٢.

١٣٢ - نظام الحكومة النبوية: ٦٦ / ٢.

١٣٣ - أمتنا وبعض إنجازاتها الحضارية: ١.

١٣٤ - قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي: ١١٧ / ١.

مناكبها، فقد جاء عنه قوله ؟ من حديث ابن أبي أوفى: "خير عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والنجوم والأهلة لذكر الله^(١٣٥)". وعن ابن عمر يرفعه: "تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، و من النجوم ما تهتدون به في الظلمة^(١٣٦)".

البناء والتعمير: و كان للحضارة الإسلامية في مجال البناء المعماري من مُدُنٍ و جوامعٍ و قصور و جسور و حصون و قلاع و رُبَطٍ ما يشهد لبُنَاتِهَا بالعبقريّة و الخبرة العالية حتى أنّهم راعوا في بعض أبنيتهم خطر الاهتزازات الأرضية مثلما هو واضح في قصر الحمراء بقرطبة^(١٣٧).

وعناية المسلمين بالإعمار استمدوها من توجيهات الرسول ﷺ و الصدر الأول في هذا المضمار، حتى أنّ الشيخ عبد الحي الكتاني ترجم لهذا المعنى بقوله: "معرفته ﷺ وأهل الصدر الأول بأمور الهندسة و البناء و إصلاح الطرقات^(١٣٨)" أورد تحتها حديث أبي داود مرفوعا: "أن من ضيق منزلا أو قطع طريقا فلا جهاد له^(١٣٩)س بل فقد كان في عهده ﷺ خبراء في البناء يلجأ إليهم للفصل في النزاعات، و كان من بينهم: حذيفة بن اليمان و العلاء بن عتبة و محرمة بن نوفل و غيرهم^(١٤٠)".

البريد و المواصلات: لقد اعْتَنَى بالبريد منذ عهد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ثمَّ اتَّسَعَتْ هذه العناية باتساع الفتوحات في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى أن أصبح نظامُ البريد على جانب كبير من الترتيب و ضبط المواعيد في عهد معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ^(١٤١) و

١٣٥ - سنن البيهقي الكبرى - باب مراعاة أدلة المواقيت : ١ / ٣٧٩.

١٣٦ - تفسير ابن كثير [الحجرات ١٣ يا أيها الناس: ٢١٨/٤ (١٩٧٩) - شعب الإيمان: باب فصل في فضل العلم و شرف مقداره : ٢ / ٢٦٩ (١٧٢٣).

١٣٧ - أمتنا و بعض إنجازاتها الحضارية : ٢.

١٣٨ - نظام الحكومة النبوية: ١ / ٣١٢.

١٣٩ - سنن أبي داود: باب ما يُؤمَّرُ من انضِمامِ العَسْكَرِ وَسَعَتِهِ : ٣ / ٤١.

١٤٠ - نظام الحكومة النبوية : ١ / ٢٨٠-٢٨١.

١٤١ - نظام الحكومة في الإسلام ١ / ١٩٢-١٩٣.

لنيسير مهمة البريد و تأمين الاتصالات شقّ المسلمون الطرُقَ و وضعوا لها الأميال [إعلامات تحدّد المسافات^(١٤٢)]، و كان عمر الفاروق يشترط على أهل الذمة في البلاد المفتوحة إصلاح الجسور و الطرقات^(١٤٣).

كما أقام المسلمون على طول سواحلهم في البحر المتوسط الحصون و الربطَ بطريقة تمكّن من وصول الأخبار الهامة بإيقاد النار من سبّته إلى الإسكندرية في ليلة واحدة و بينهما مسيرة شهر^(١٤٤).

و في مجال الصناعة: وضع الرسول ﷺ اللبنة الأولى في صرحها لتتطور بعد ذلك مع توسّع الفتوح، فمن الآلات الحربية التي صنّعت في عهده ﷺ دبابة صنعت عندما حاصر رسول الله ﷺ الطائف^(١٤٥). كما أرسل ﷺ من أصحابه من يتعلّم صناعة الآلات القتالية و كيفية استخدامها، فقد أرسل عروة بن مسعود و غيلان إلى جرّش بالأردن يتعلّمان صناعة العرّادات (آلة أصغر من المنجنيق) و المنجنيق و الدبّابات^(١٤٦).

كما أنّ صناعة السفن و بناء الأساطيل التي ازدهرت في العهد الإسلاميّ الأوّل لصدّ عدوان الرّوم^(١٤٧) كانت تستمدّ قوتها و حيويّتها ممّا أخبر به الرسول ﷺ من أنّ ناساً من أمّتي يركبون البحر.. في سبيل الله مثلهم مثل الملوك على الأسرة^(١٤٨).

الوقف و أهميته في خدمة المجتمع: و من إبداعات الحضارة الإسلاميّة الوقف، وهو تحبّيس الأصل و تسبيل المنفعة أخذاً من قوله ﷺ لعمر بن الخطّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "إن شئت حبّست أصلها و تصدّقت بها"^(١٤٩) و عملاً بقوله ﷺ: "إذا مات ابن آدم

١٤٢ - نظام الحكومة النبوية : ٢٨٣ / ١ .

١٤٣ - نظام الحكومة النبوية : ٢٨٣ / ١ .

١٤٤ - نظام الحكومة النبوية : ١٩٤ / ١ .

١٤٥ - نظام الحكومة النبوية : ٣٧٥ / ١ .

١٤٦ - نظام الحكومة النبوية : ٣٧٥ / ١ .

١٤٧ - غزا عبد الله بن سعد بن أبي سرح في البحر لما دهمه قسطنطين بن هرقل ٣٤ هـ في ألف مركب يريد الإسكندرية فسار إليه في مائتي مركب و هزمه في وقعة ذات الصواري (نظام الحكومة النبوية : ٣٧١ - ٣٧٠ / ١)

١٤٨ - صحيح البخاري - الجهاد - باب غزو المرأة في البحر - متن فتح الباري : ٦ / ٨٩ (٢٨٧٧).

١٤٩ - صحيح البخاري - الشروط - باب الشُرُوطِ في الوُقُوفِ - متن فتح الباري : ٥ / ٤١٨ (٢٧٣٧).

انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له
(١٥٠)

و أول من استجاب لهذا الهدى النبويّ الصحابة رضي الله عنهم فأوقف عمر رضي الله عنه أرض نخيل له بخير كانت من أجود أمواله، وأوقف عثمان بن عفان بئرًا يشرب منها عموم المسلمين و هي بئر أرومة و أوقف طلحة بن عبيد الله حائطًا له بيئرحاء صدقة لله.

وقد استفادت الأمة الإسلامية في بناء حضارتها من الأوقاف حين كان يُصَرَفُ ريعها في شقّ الطرقات و مدّ الجسور و بناء المسافي و دور العلم و إقامة المكاتب و إعانة الفقراء و المعوزين و علاج المرضى . . و كان الاستيلاء عليها من بعض المتنفذين أو حلّها تمامًا في بعض البلاد الإسلامية التي تنكّرت قيادتها لدين شعوبها و سلكت سبيل العُلمانيّة، يعدّ من ظلم الأمة و التفريط في مصالحها و العدوان على مقدّساتها و مخالفة أمر نبيّها صلّى الله عليه وآله.

الديمقراطية الإسلامية: و أعظم ما انبجست عنه الحضارة الإسلامية الديمقراطية^(١٥١) و هي سلطة الشعب و سيادته^(١٥٢). و هي ديمقراطية جاءت مع الإسلام و لم تسبقها الديمقراطية العربية كما توهم بعض المستشرقين و بعض الكتاب الأوربيين، و فضل الإسلام في تقرير ديمقراطيته فضل غير مسبوق^(١٥٣) يقول عباس محمود العقاد: " نستطيع . . أن نقرّر أن شريعة الإسلام كانت أسبق الشرائع إلى تقرير الديمقراطية الإنسانية"^(١٥٤). و هي ديمقراطية تقوم على دعائم و أسس أهمها:

١٥٠ - صحيح مسلم: الوصية - باب ما يلحق الإنسان من ثواب بعد وفاته: ٣ / ١٢٥٥ (١٦٣١).

١٥١ - كلمة يونانية مؤلفة من مقطعين (ديموس + كراتوس) تعني سلطة الشعب و سيادته - معجم المصطلحات و الشواهد الفلسفية: ١٩٧.

١٥٢ - من المسلم به أن السلطة في الإسلام للشرع وحده، والمراد بسلطة الشعب وسيادته هنا هي اختيار الشعب حكامه ومراقبتهم ومحاسبتهم، وعزلهم إذا انحرفوا عن شريعة الإسلام. واعتماد الشورى وعدم الاستبداد والتفرد بالحكم، وإقرار مبدأ التداول السلمي على السلطة، وحرية إبداء الرأي، وقبول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٥٣ - الديمقراطية في الإسلام: ٣٧.

١٥٤ - المرجع السابق: ٤٣.

١ - المسؤولية الفردية: أي أن كل فرد من أبناء الأمة مسؤول في تحمّل المسؤولية أمام الله و أمام مجتمعه و أسرته، يقول النبي ﷺ: " كلّمكم راع و كلّمكم مسؤول عن رعيّته"^(١٥٥). و هي ديمقراطية جاءت بكرامة الإنسان: إيمانًا بالحقّ. و كُفْرًا بسلطان المال و الجاه و السلطان، فجدير بها أن تسمّى الديمقراطية الإنسانية^(١٥٦).

٢ - تساوي الجميع في الحقوق و الواجبات: يقول النبي ﷺ: " لا فضل لعربيّ على أعجميّ إلا بالتقوي"^(١٥٧) و يقول: "يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أُغني عنكم من الله شيئاً.."، و يقول: "يا عبّاس ويا صفية عمّة النبيّ، ويا فاطمة بنت محمد إنّي لست أُغني عنكم من الله شيئاً"^(١٥٨).

٣ - الحكم بالشورى: و هو نظام إقامة القرآن ﴿ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾^(١٥٩) «الشورى: من الآية ٣٨»، فأصبح مبدأ و أساساً للحكم، و قد مورست الشورى في عهد النبي ﷺ، كما مورست في نقل السلطة بعد وفاته ﷺ و ذلك في بيعة السقيفة، و قد تركت هذه البيعة طابعها الإجرائيّ في تاريخ الأمة فأضحت البيعة مصدر سلطة الحاكم، و أضحت الأمة هي صاحبة السلطة فلا يجوز الافتئات عليها و لا تجاوز إرادتها. و هي مطابّة بتطبيق الشريعة، فتنبؤ الخليفة عنها في تطبيقها^(١٥٩) كما هي مطابّة بتحقيق أمن البلاد داخلياً و خارجياً و إقامة العدل بين الناس و الحفاظ على كرامة المواطنين^(١٦٠)، و قد اقتضى الحرص على تطبيق العدالة الأخذ بمبدأ الفصل بين السلطات و استقلال القضاء عن

١٥٥ - صحيح البخاري - الجمعة - باب الجمعة في القرى.. متن فتح الباري : ٢ / ٤٤١ (٨٩٣).

١٥٦ - الديمقراطية في الإسلام : ٤٧.

١٥٧ - فتح الباري - كتاب المناقب - باب قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ... ﴾ (٦ / ٦٠٩)

١٥٨ - صحيح مسلم: الإيمان - باب في قوله تعالى وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ: ١ / ١٩٢ (٢٠٦).

١٥٩ - فالخلفاء و الرؤساء في الإسلام هداة و ليسوا جبابة، و أجراء ينوبون عن الأمة في الحفاظ على مصالحها و أداء ما أنيط بها من واجبات، فهي مناصب في الأساس تكليفية لا تشريفية أو تسلطية كما أصبح شأنها في كثير من بلادنا العربية المكتوبة بالحكم الاستبداديّ.

١٦٠ - أنظر قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي: ١ / ٧٥ - ٧٧.

السلطة التنفيذية، فسنَّ عمر رضي الله عنه استقلال القضاء عن كلِّ سلطان حتى سلطان الإمام الأكبر^(١٦١). وإنَّ اختفاء مؤسَّسات الشورى القويَّة أفقد الدولة الحماية الشعبيَّة الضروريَّة، كما أنَّ احتكار السلطة بيدِ الخليفة و حاشيته ولَّد فراغًا في الحياة السياسيَّة فاخفى الرأي العامُّ الحارسُ لقيم الأمة وتسلَّطت الأطماعُ الأجنبية والمغامرون والشذاذُ للاستيلاء على السلطة وإفساد الحرث والنسل، فعلى الأمة إحياء مبدأ الشورى بدون خوفٍ أو وجلٍّ، إذ لا خوفَ من مؤسَّساتٍ تقومُ على الشورى تحاسبُ المستهترين وتردُّعُ المعتدين ولا خوفَ من رأي عامٍ يقظٍ يتحرَّكُ ضدَّ ممارسات القمع والاستبداد، ولا خوفَ من قضاء مستقلٍّ يصدرُ في أحكامه عن العدل والحقِّ وحدهما.

والشورى اعتبرها بعضُ العلماء واجبًا و اعتبرها آخرون سنَّةً مؤكَّدة^(١٦٢) ندب إليها الشرعُ، و سواءً كانت سنَّةً أو واجبًا فهي لازمة وفريضة على الأمة. " و ليس بعد إيجابها على النبي ﷺ إعفاء منها لوالٍ من الولاة^(١٦٣) س أو قائدٍ أو مسؤولٍ أو جيلٍ من أجيالِ الأمة.

٤ - التضامن بين المواطنين على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم: من تمام المسؤولية الفرديَّة تكافلُ الأمة في المسؤولية العامة، لأنَّ الأمة قد تصاب كلُّها بضررٍ يجنيه عليها بعضُ أبنائها، فمن حقِّ كلِّ فردٍ أن يدفع الشرَّ عن نفسه وعن غيره: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ «أنفال: من الآية ٢٥».

حظَّ المواطن الأجنبي (الذميِّ و المعاهد) من الديمقراطية الإسلاميَّة:

و ديمقراطية الإسلام تُطبَّقُ على الجميع بالعدل والسويَّة^(١٦٤) فينعم بخيرها و جنبيِّ

١٦١ - الديمقراطية في الإسلام : ١١٦-١١٥.

١٦٢ - ممَّن ذهب إلى أنَّها سنَّة مؤكَّدة: الشافعي و ابنُ تيمية و البيهقيُّ و الماورديُّ و النوويُّ و ابنُ حجر. و ممن ذهب إلى أنَّها واجب: أبو بكر الجصاص، و ابنُ خُوَيْرِمْندَاد، و ابنُ عَطِيَّة، و فخر الدين الرازي. انظر قيم

المجتمع الإسلاميِّ من منظور تاريخي: ٧٩ / ١.

١٦٣ - الديمقراطية في الإسلام : ٤٥.

١٦٤ - الديمقراطية في الإسلام : ١٢٠.

ثَمَارَهَا الْمُسْلِمُ وَغَيْرُهُ . يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: سَمَنْ آذَى ذِمِّيًّا فَقَدْ آذَانِي . فَقَدْ قَضَتْ هَذِهِ
الْديمقراطية:

- ١ - أَنْ الذَّمِّينَ وَالْمُعَاهِدِينَ لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ .
- ٢ - وَأَنَّ الدَّوْلَةَ تَحْمِيهِمْ كَمَا تَحْمِي جَمِيعَ رَعَايَاهَا .
- ٣ - وَأَنَّهَا لَا تَسْتَبِيحُ عَقُوبَتَهُمْ بِالْحُدُودِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِيمَا لَا يُحَرِّمُونَهُ، وَلَا يُعَاقِبُونَ
أَنْفُسَهُمْ عَلَيْهِ .
- ٤ - وَأَنَّهُمْ لَا يُدْعَوْنَ إِلَى الْقَضَاءِ فِي أَيَّامِ أَعْيَادِهِمْ تَنْفِيذًا لِأَوَامِرِ النَّبِيِّ ﷺ: "عَلَيْكُمْ
خَاصَّةً يَهُودٌ أَنْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ"^(١٦٥) .

دور الحضارة الإسلامية في بناء حضارة الغرب و سعي بعض الكتاب
الغربيين في طمس هذه الحقيقة .

يذكر الباحثُ المهندس مالك بن نبي - طيب الله ثراه - وهو يدرس تاريخَ
الحضاراتِ أَنَّ هناكَ زُهْوَةً كَبِيرَةً تَفْصِلُ حَضَارَةَ أَرِسْطُو [Aristoteles ٣٢٢ -
٣٨٤ ق.م .] [و حضارة ديكارت Descartes] ١٥٩٠ - ١٦٥٠ م] وَأَنَّ تِلْكَ الْهُوَّةَ مِنْ
الْقُرُونِ هِيَ الْحَضَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ هَمزَةَ الْوَصْلِ فِي التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ بَيْنَ
حَضَارَةِ بَارِيْسِ وَأَثِينَا^(١٦٦) س . وَيَقُولُ الْبَاحِثُ فُؤَادُ سَرْكِينِ فِي نَفْسِ الْمَسَاقِ: زَوْلَقْد
تَوَصَّلْتُ خِلَالَ دِرَاسَتِي لِتَّارِيخِ الْعُلُومِ أَنَّ قَضِيَّةَ أَخْذِ اللَّاتِينِيِّينَ عَنِ الْعَالَمِ
الْإِسْلَامِيِّ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ تَسْتَطِيعَ تَبْيَانُهُ وَحَصْرُهُ جَمَاعَةً كَبِيرَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي
عَشْرَاتِ السَّنِينَ " وَيُضِيفُ: " وَكَلَّمَا أَمَعْنِ الْإِنْسَانَ فِي دِرَاسَةِ الْمَصَادِرِ الْأَصْلِيَّةِ
لِلنَّهْضَةِ الْأَوْرُوبِيَّةِ أَزْدَادَ تَصَوُّرُهُ أَنَّ هَذِهِ النَّهْضَةَ الْمَرْعُومَةَ أَشْبَهُ مَا تَكُونُ بِالْوَالِدِ
الَّذِي نُسِبَ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ الْحَقِيقِيِّ"^(١٦٧)

١٦٥ - سنن الترمذي - التفسير - باب ومن سورة بني إسرائيل: ٣٠٦/٥ (٣١٤٤) قال: هذا حديث حسن صحيح . سنن النسائي - تحريم الدم - السحر: ١١١/٧ (٤٠٧٥)

١٦٦ - شروط النهضة: ٢٢٥ .

١٦٧ - محاضرات في تاريخ العلوم: المحاضرة السادسة: أثر الفلك العربي في أوروبا: ٨٦ .

هاتان شهادتان من باحثين موضوعيين تُثبتان أنّ الحضارة الإسلامية قدّمتْ
لِلْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَامَّةً وَاَلْحَضَارَةِ الْأُورُبِيَّةِ خَاصَّةً مِنَ الْعُلُومِ وَالْفَنُونِ وَ
الصَّنَاعَاتِ وَ النَّظْمِ وَ بِذَوْرِ التَّطَوُّرِ مَا مَكَّنَ لَهَا مِنْ هَذَا الصُّعُودِ وَ هَذَا التَّمْيِيزِ
المَادِّيِّ، إِلَّا أَنَّ الْعَدِيدَ مِنَ الْأُورُبِيِّينَ الْعَنْصَرِيِّينَ يَحَاوِلُونَ تَرْزِيفَ الْحَقَائِقِ بَلْ وَ
مَحْوَهَا حَتَّى لَا يَبْقَى لَهَا مِنْ أَثَرِ الْبَتَّةِ، وَ هَذَا عَالِمُ الْاجْتِمَاعِ الْفَرَنْسِيِّ غُوسْتَاڤ
لُوبُون 1841 Gustave Lebon 1931م] الَّذِي يَتَّسِمُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَوْضُوعِيَّةِ وَ
الْإِنْصَافِ يَكْشِفُ هَذِهِ الْخِيَانَةَ لِلْحَقِيقَةِ وَ يَسْتَبْشِعُ هَذَا التُّكْرَانَ لِلْوَاقِعِ التَّارِيخِيِّ: "
إِنَّ جَمِيعَ الْوَسَائِلِ قَدْ أُتْخِذَتْ لِمَحْوِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ سِجْلِ التَّارِيخِ، مِنْ أَجْلِ
ذَلِكَ زَوَّرَ الْكُتَّابُ الْغَرْبِيُّونَ التَّارِيخَ، حَتَّى ظَهَرَ فِي عَيُونِ مَنْ أَخَذَ عَنْهُمْ أَنَّ التَّارِيخَ
البَشَرِيَّ لَيْسَ تِلْكَ السَّلْسَلَةُ الَّتِي تَتَّصِلُ فِيهَا جُهُودُ الْأَجْيَالِ، وَ إِنَّمَا فِي نَظَرِهِمْ تِلْكَ
المَسَافَةُ الْمُخْتَزَلَةُ الَّتِي تَبْتَدِئُ مِنَ الْأَكْرُبُولِ^(١٦٨) فِي أَثِينَا وَ تَنْتَهِي عِنْدَ قَصْرِ شَايُو
بَارِيسِ"^(١٦٩).

والمثير للدهشة و الاشمئزاز معاً أنّ خيانة الأمانة العلمية قد بلغت ببعض
الغربيين المتحضرين المتمدنين!! حدّ الاجترار على ما نُشر و شاع من حقائق حول
تقدّم المسلمين و ما قدّموه للحضارة الإنسانية من خدمات و ما أسدوه لها من أياد
بيضاء، بِمَحْوِهِ فِي طَبَعَاتٍ تَالِيَةٍ، فَهَذِهِ الْمَوْسُوعَةُ الْبَرِيطَانِيَّةُ تَتَعَرَّضُ فِي طَبَعَتِهَا
الحَادِيَةِ عَشْرَةَ إِلَى التَّدْلِيسِ وَ التَّرْزِيفِ بِحَذْفِ مَا لَهُ عِلَاقَةٌ بِتَقَدُّمِ الْمُسْلِمِينَ فِي
الْعُلُومِ^(١٧٠)، إِلَّا أَنَّ هَذَا الْبَاطِلَ لَنْ يَصْمَدَ أَمَامَ الْحَقِيقَةِ التَّارِيخِيَّةِ الثَّابِتَةِ الَّتِي اعْتَرَفَ
بِهَا وَ قَرَّرَهَا وَ أَقْرَأَهَا كِبَارُ عُلَمَاءِ الْغَرْبِ .
فَأَثَارُ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَتَّجْدُرُهَا وَسِمَاتُهَا الْوَاضِحَةُ لَا يَقْوَى عَلَى مَحْوِهَا وَلَا

١٦٨ - الأكروبول: Akropolis حصن في أثينا القديمة فوق تلة صخرية صغيرة ارتفاعها ١٠٠م اشتهر
بهياكله و معابده و قصر شاويو [Palais de chaillot] بباريس تحوّل إلى مركز سياحي يضم مجموعة
متاحف و حدائق.

١٦٩ - شروط النهضة : ٢٢٤.

١٧٠ - قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي : ١٢٢/١.

تجاوَزَهَا أو إغفالها والتهوينِ من شأنها مُحْتَرَفُو التحريف والتزوير من عنصريي
الغرب و أذئابهم .

ضمور الحضارة الإسلامية وانحسار دورها

لقد درس المؤرِّخون و علماء الاجتماع أسبابَ أْفول الحضارات و انهيارها،
فاختلفتْ أنظارُهم حول تحديد تلك الأسباب، فذهب الفيلسوف الألماني أوسفالد
اشبنجلر إلى أن الحضارة عندما تستنفذ مهمتها و دورها و تحقق صُورتها النهائية
تنهار. بينما أرنولد توينبي يرى أن الصراعات الداخلية هي التي تلعب دورا فاعِلا
و حاسِمًا في تحلل الحضارة و انهيارها و قد يُساعد على هذا السقوط غزو و خَارِجِيّ
فيعجِّلُ بتهاوي بنيانها.

و درس المعنيون بشأن الأمة الإسلامية أسبابَ ضُمورِ حضارتها و انْحِسارِها
فكادوا يَتَفَقَّهون على تشخيص العوامل التي أدت إلى هذا الضمور:

- فذهب المؤرِّخُ والفيلسوف الاجتماعي عبد الرحمن بن خلدون [١٣٣٢ -
١٤٠٦م] إلى أن السببَ هو حُلُولُ عصبيةِ الدولة أو الفئة محلَّ عصبيةِ الدين^(١٧١)
ففقَدَتِ الحضارةُ القوَّةَ التي تتدفقُ في شرايينها بفعلِ رُوحِ الإيمانِ وقيمِهِ العاليةِ
فَتَيَبَّسَتْ أطرافُها ثم أصيبت بالشلل.

- و ذهب آخرون إلى أن الانفصامَ بين الأمة و قيمها الدينية هو الذي أدي
و يُؤدِّي إلى تدهور الحضارة و انحسارها^(١٧٢) حيث يَعْمُ الفسادُ البرِّ و البحرُ فتُسبَّحُ
المحارمُ و توتى الأثامُ و تختلط على الناسِ السبلُ فلا يُفرِّقون بين الحلال و الحرام
مُصدِّقًا لِمَا أخبر به النبي ﷺ: " يأتي على الناسِ زمان لا يُبالي المرءُ ما أخذَ منه أمن
الحلال أم من الحرام"^(١٧٣). و يَعْمُ الضلالُ و النفاقُ، و يطفو على السطح مُنظِّرو

١٧٢ - روح الحضارة الإسلامية : ٧.

١٧٣ - قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي : ٥٣ / ١.

الظاهرة الحضارية في القرآن و السنة : ١٧١.

الإنحرف من المترفين و أصحاب الشهوات فينحتون لكل موبقة أسماً موزوراً لتزيينها في عيون الناس و تهوين ارتكابها فإذا بالزنا يسمونه تجارب عاطفية و الخمر مشروبات روحية و الربا فائدة و الرشوة عمولة . . يقول النبي ﷺ: " لِيَكُونَنَّ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَّ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ " (١٧٤).

- وَيُشَخِّصُ الشَّيْخُ مُحَمَّدَ الْفَاضِلِ ابْنَ عَاشُورٍ - طَيِّبَ اللَّهِ ثَرَاهُ - وَضَعَ الْأُمَّةَ وَ حَضَارَتَهَا وَ هَوِيَّتَهَا فَيَقُولُ: "أَصَابَ الْحَضَارَةَ وَ الثَّقَافَةَ مَا عَزَلَهَا عَنْ صِدْقِ الْإِسْتِمْدَادِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَ مَتَيْنِ الْإِعْتِمَادِ عَلَيْهِ حَتَّى مَالَ عِمَادُهَا وَ اضْطَرَبَتْ أَوْتَادُهَا"، وَ تَوْلَدَ عَنْ ذَلِكَ نَظْرِيَّةٌ خَبِيثَةٌ مَسْمُومَةٌ تَدْعُو إِلَى الْفِصْلِ بَيْنَ الدِّينِ وَ الدُّنْيَا (١٧٥) خُضُوعًا لِلْغَارَةِ الْوَحْشِيَّةِ لِلْأَفْكَارِ الْأَجْنِبِيَّةِ الْوَافِدَةِ الَّتِي تَحْمِلُ مَدْنِيَّةً فِيهَا عِلْمٌ وَ صِنَاعَةٌ وَ قُوَّةٌ وَ حِكْمَةٌ تَزْعَمُ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْتَسِبْهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَخَلَّتْ عَنِ الدِّينِ (الْكَنِيسَةِ) وَ تَسَلَّحَتْ بِالْعِلْمَانِيَّةِ. وَ وَقَفَ الْإِنْسَانُ الْمُسْلِمُ عَاجِزًا أَمَامَ هَذِهِ الْمَهْمَةِ فَلَمْ يَجِدْ مِنَ الْإِرَادَةِ الدِّينِيَّةِ مَا يَجْعَلُهُ يَتَعَامَلُ مَعَ تِلْكَ الْمَدْنِيَّةِ الْوَافِدَةِ تَعَامُلَ السَّيِّدِ الْمُهَيِّمِ لَا الْعَبْدِ الْمُنْهَزَمِ (١٧٦). وَ مِمَّا زَادَ فِي هَوْلِ الْخَطَرِ هُوَ اسْتَفْحَالُ التِّيَّارَاتِ الْعِلْمَانِيَّةِ دَاخِلِ الْأَوْطَانِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَ اسْتِقْوَاؤُهَا بِالْأَجْنِبِيِّ الْبَاغِيِّ الَّذِي اسْتَخَفَّ بِالْأُمَّةِ، وَ قَدْ مَدَّ لَهُ أَحْبَابِيلَ الْأَمَلِ فِي الْهَيْمَنَةِ عَلَى مَقْدَرَاتِهَا هَذَا الْاسْتِخْدَاءُ الْمُهَيِّمُ وَ التَّذْيِيلُ الْمَعِيبُ الَّذِي تَوَاجَهَ بِهِ صَلْفُهُ وَ تَعَدِّيُّهُ بَعْضُ السُّلْطَنِ الْحَاكِمَةِ فِي الْأَوْطَانِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَاجْتَرَأَ وَ جُنَّدَ أَتْبَاعَهُ وَ احْتَلَّ الْأَرْضَ وَ اسْتَوْلَى عَلَى الثَّرَوَاتِ وَ نَهَبَ الْخَيْرَاتِ وَ انْتَهَكَ الْأَعْرَاضَ وَ لَوَّثَ الْمَقْدَسَاتِ. وَ فَوْقَ كُلِّ هَذَا يَرِيدُ أَنْ يَغَيِّرَ هَوِيَّةَ الْأُمَّةِ وَ ثِقَافَتَهَا وَ يَطْمَسَ سِمَاتِ حَضَارَتِهَا وَ طَابَعَهَا. وَ قَدْ حَذَّرَ الرَّسُولُ الْأُمَّةَ مِنْ هَذَا الْمَالِ فَقَالَ: زِيُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَّةُ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ عَلَى قِصْعَتِهَا. فَقَالُوا: أَوْ مِنْ قِلَّةِ

١٧٤ - صحيح البخاري - البيوع - باب من لم يُبال من حيث كسب المال - متن فتح الباري : ٤ / ٣٤٧ (٢٠٥٩).

١٧٥ - صحيح البخاري - الأشربة - باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويُسميه بغير اسمه - متن فتح الباري : ٥٣ / ١٠ (٥٥٩٠).

١٧٦ - علمًا بأن المعادلة الصحيحة في هذا المجال هي: الدين = الدنيا + الآخرة.

نَحْنُ يَوْمئذٍ؟ قال: بل أنتم كثير و لكنكم غُثَاء كُغْثَاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن!. فقالوا: وما الوهن يا رسول الله ﷺ! قال: حبُّ الدنيا وكراهية الموت^(١٧٧).

وبعد

إنَّ أهمَّ ما نستخلصُه من هذه الدراسة:

١- أنَّ للسُّنة النبويَّة الدورَ الأساسَ الفاعلَ في بناء ثقافة المسلم وصياغة هويَّته، وتربية وجدانه، وغرس تصوُّراته لعالمِي الغيب والشهادة، وطبع شخصيَّته بصبغة الإسلام. وأنَّ قِيَمَ الثقافةِ الإسلاميَّةِ وخصائصها كلُّها تُستمدُّ من أقواله ﷺ وأفعاله وإقراراته.

٢- لعلماء الأُمَّة الأصفياءِ وأئمَّتها الأعلام دور ملحوظ في الحفاظ على هويَّة الأُمَّة وإبقاء جَذوَّة الثقافة حيَّة متوقِّدة في النفوس تلعب دورها بكفاءة في دفع مخاطر الذوبان والمسح.

٣- التغريب والعلمانيَّة والغاراتُ المتتابعة على أرض الإسلام، وسعْيُ المتغربين المتنفذين لتجفيف منابع التدين، مَخاطر تهتدُّ هويَّة الأُمَّة وثقافتها بل وكيوننتها.

٤- الحضارة الإسلاميَّة ثمرة لروح الإسلام، وُلدت لحظة نزول كلمة "إقرأ" على قلب النبي ﷺ، وهي ذاتُ صبغة إسلاميَّة في كلِّ ملامحها الروحيَّة والماديَّة.

٥- الرسول أقام أسس دولة كبرى ونفَّذ العديدَ من حلقات حضارتها وتمدُّنها في عهده ﷺ، باعتباره إمام الأُمَّة وقاضي القضاة وعالم العلماء، وقد فوَّض الله إليه كلَّ الوظائف في رسالته الخاتمة.

٦- للحضارة الإسلاميَّة نفس خصائص الثقافة الإسلاميَّة وهويَّتها

١٧٧- روح الحضارة الإسلامية : ٦٠٥.

وقيمها (الإيمانية، والإنسانية، والعلمية، والأخلاقية) إلى جانب قيم العمل والبناء والتعمير، والجمع بين الدنيا والآخرة.

٧ - سرّ ازدهار منجزات الحضارة الإسلامية أنها تستند إلى حكم شرعيّ أو أمر نبويّ وتوجيه سديد منه - عليه الصلاة والسلام - [في الزراعة،

الطبّ، الرياضيات، الكيمياء والفيزياء، الفلك، البناء والتعمير، الصناعة...].
٨ - الحضارة الإسلامية هي التي قدّمت للحضارة الغربية المعاصرة بدور نهضتها وتفوّقها، وأنّ كلّ محاولة لإغفال دور الحضارة الإسلامية وتهميش منجزاتها، يُعدّ خيانةً للأمانة العلمية، وتزويراً لحقائق التاريخ.

٩ - ضمور الحضارة الإسلامية وانحسار دورها يعود إلى ضمور الوازع الدينيّ، وإحلال عصبية الدولة والفئة والحزب محلّ عصبية الإيمان، وإلى الانفصام بين الأمة وقيمها الدينية، وسعي الغرب المتقدّم وأذنبه من العلمانيّين والملاحدة إلى فصل الدين عن الدنيا، وتغيير المعادلة الإسلامية الخالدة التي تقوم على حقيقة أن الدين يُساوي وَيَنْتَظِمُ الدنيا والآخرة.

هذا بعض ما نستخلصه من هذا البحث الوجيز، بقي هناك سؤال يفرض نفسه: ما الحلّ للنهوض من هذه الكجوبة و الخروج من هذا التخلف و هذا

الهوان؟ و ما السبيل إلى استئناف مسيرة التقدّم و الإقلاع الحضاري؟
ما انتهى إليه أهلُ الغيرة و الحمية من علماء هذه الأمة و مفكرّيها أنّ الحلّ يتمثّل في وجوب تمّتين صلة المسلم بدينه و إبقاء جذوة الإيمان في نفسه متوقّدة حتى تعود روح الدين الإسلاميّ إلى دور الفعل و التأثير، ولا بدّ من إحياء الحميّة الدينيّة و إحلال عصبية الدين محلّ العصبية الأخرى على اختلافها و التي قال عنها النبيّ ﷺ: زدعوها فإنها منتنة^(١٧٨) و العودة إلى صدق الاستمداد من

الإسلام فيما تأتي الأمة وما تدعُ. فالعودة إلى الروح التي صنعت الحضارة
الوارفة الظلال و الثقافة المتألقة جديرة بأن تُصلح آخر هذه الأمة كما أصلحت
أولها على ملاحظِ إمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس: "لَنْ يُصْلِحَ آخِرَ هَذِهِ
الْأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا"^(١٧٩) وإنما صلح أولها بكتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ.
وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

١٧٩ - صحيح البخاري: التفسير - باب قوله : سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم - متن فتح
الباري ٨/٥١٦ (٤٩٠٥).

قائمة المراجع

- ١ - الإسلام والحضارة الغربية - د. محمد محمد حسين - ط ١ - ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩ م دار الإرشاد - بيروت - لبنان.
- ٢ - الأسماء والصفات - أحمد بن الحسين البيهقي [ت ٤٥٨هـ] - تحقيق عبد الله بن محمد الحاشدي - ط ١ - ١٤١٣هـ / ١٩٩١ م - مكتبة السوادي للتوزيع - جدة - السعودي.
- ٣ - آفاق جزائرية للحضارة - للثقافة - للمفهوم - مالك بن نبي - ط ٢ - ١٣٩١هـ / ١٩٧١ م - مكتبة عمّار للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - مصر.
- ٤ - أمّتنا وبعض إنجازاتها الحضارية - د. غازي التوبة - المختصر ١٨٩٤ م . الخميس ٢٥ / ١٠ / ١٤٢٧هـ الموافق ١٦ / ١١ / ٢٠٠٦ م <http://www.almokhtsar.com/html/news/php6٢٩٨٨./١٨/١٣٦٥>
- ٥ - تاريخ دمشق - أبو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر [ت ٥٧١هـ] - تحقيق محبّ الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري - طبع سنة ١٩٩٥ م - دار الفكر - بيروت.
- ٦ - تطوّر تقنيات استغلال المياه في الحضارة الإسلامية. د. عماد محمد ذياب الحفيظ - آفاق الثقافة عدد ٥٤ يوليو ٢٠٠٦ م.
- ٧ - تنقيح تحقيق أحاديث التعليق - شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي [ت ٧٤٤هـ] - تحقيق أيمن صالح شعبان. ط ١ - ١٩٩٨ م - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- ٨ - التيسير شرح الجامع الصغير - للسيوطي - عبد الرؤوف المناوي [ت ١٠٣١هـ] - تحقيق د. مصطفى محمد الذهبي - ط ١ - ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠ م - دار الحديث - القاهرة.
- ٩ - الثقافة الإمبريالية - العربي عدد ٤٧١ فبراير ١٩٩٨ م.
- ١٠ - الحضارة الحضارة: سبقتها حضارات كثيرة. (العربي عدد ١٨٧ يونيو - حزيران ١٩٧٤ م).
- ١١ - دور الوقف في التنمية البشرية. أ.د. أسامة عبد المجيد العاني - آفاق الثقافة

- و التراث عدد ٥٤ جمادى ٢ - ١٤٢٧ هـ يوليو ٢٠٠٦ م .
- ١٢ - الديمقراطية في الإسلام . عباس محمود العقاد دار المعارف - ط ٦ - (بدون تاريخ) - مصر .
- ١٣ - روح الحضارة الإسلامية - أ.د. محمد عمارة - مجلة حراء - العدد ٤ (يوليو - سبتمبر ٢٠٠٦ م)
- ٤&ISSUE=٧٥http://www.hiramagazine.com/archives_show.php?ID=
- ١٤ - سنن أبي داود - حققه محيي الدين عبد الحميد - دار إحياء التراث العربي [بدون رقم طبعة ولا تاريخ] .
- ١٥ - سيرة ابن هشام - تحقيق السقا - الأبياري - شلبي . ط ٢ - ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م - مصطفى الحلبي - القاهرة .
- ١٦ - السيرة النبوية مشروعاً حضارياً - أ.د. عماد الدين خليل . حراء: مجلة علمية فصلية العدد: ٣ (أبريل - يونيو) ٢٠٠٦ م/ www.hiramagazine.com
- ١٧ - شروط النهضة - مالك بن نبي [١٩٠٥ - ١٩٧٣ م] - ترجمة عمر كامل مسقاوي و عبد الصبور شاهين - ط ٣ - ١٩٦٩ م - دار الفكر - دمشق .
- صحيح البخاري = انظر فتح الباري .
- ١٨ - الطبقات الكبرى - محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠ هـ) - تحقيق د. علي محمد عمر - ط ١ - ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م - الشركة الدولية للطباعة - الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة .
- ١٩ - الظاهرة الحضارية في القرآن والسنة - د. عبد الحليم عويس - مجلة البحوث الإسلامية - الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء - العدد ٢١ - ٤ / ١ / ١٤١٣ هـ .
- ٢٠ - كتاب العرش - أبو جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي [ت ٢٩٧ هـ] - تحقيق محمد بن حمد الحمودي - ط ١ - ١٤٠٦ هـ - مكتبة المعلّى - الكويت .
- ٢١ - العظمة - أبو الشيخ عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبان الإصفهاني (ت ٣٦٩ هـ) - تحقيق رضا الله بن محمد بن إدريس المباركفوري - ط ١ - ١٤٠٨ هـ

- دار العاصمة - الرياض - السعودية.

٢٢ - فتح الباري بشرح صحيح البخاريّ - الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلانيّ (٧٧٣ - ٨٥٢هـ) - قام بإخراجه وتصحيح تجاربه: محب الدين الخطيب رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي ، راجعه: قصي محب الدين الخطيب - ط ١ - ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م - دار الريان للتراث - القاهرة.

٢٣ - في الهوية : نكون أو لا نكون - فهمي هويدي - العربي عدد ٢٥٣ ديسمبر ١٩٧٩.

٢٤ - قيم حضاريّة في القرآن الكريم - توفيق محمد سبع مجمع البحوث الإسلاميّة - السنة الرابعة - العدد ٥٢ (غرة جمادى الآخرة ١٣٩٢هـ / يوليو ١٩٧٢م).

٢٥ - قيم المجتمع الإسلاميّ من منظور تاريخيّ - أكرم ضياء العمريّ - كتاب الأمة - ط ١ - ١٤١٤هـ.

٢٦ - كشف الخفا ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس - إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي العجلونيّ [ت ١١٦٢هـ] - ط ٤ - ١٤٠٥هـ - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٢٧ - كلمات في الحضارة - د. إحسان هندي - العربي عدد ٢٢٤ (رجب ١٣٩٧هـ / يوليو - تموز ١٩٧٧م).

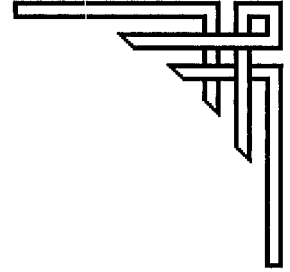
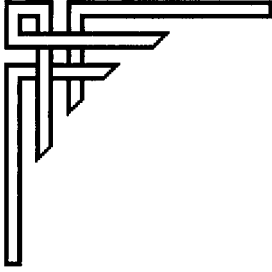
٢٨ - كلمة في الثقافة - د. إحسان هندي - العربي عدد ٢٢٨ (نوفمبر ١٩٧٧م).

٢٩ - كنز العمال - علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي [٨٨٥ - ٩٧٥هـ] - المحقق: محمود عمر الدميّاطيّ - دار الكتب العلميّة - بيروت ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

٣٠ - الليبراليون في عصر النبوة - عبد الملك آل ملفي - المختصر - ٤ / ١١ / ١٤٢٧هـ الموافق ٢٤ / ١١ / ٢٠٠٦م . [http://www.almokhtsar.com]

٣١ - مسند أبي يعلى الموصلي - أحمد بن عليّ بن المثنيّ أبو يعلى الموصلي التميمي [٢١٠ - ٣٠٧هـ] - تحقيق: حسين سليم أسد - ط ١ - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م - دار المأمون للتراث - دمشق.

- ٣٢- المسلمون والبديل الحضاريّ - حيدر عبد الكريم الغدير - ط٣ -
١٤١٣هـ / ١٩٩٢م - نشر وتوزيع الدار العالميّة للكتاب الإسلاميّ - الرياض .
- ٣٣- مسند الشهاب - محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعيّ [ت ٤٥٤هـ] -
المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي . ط٢ - ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م . مؤسّسة
الرسالة - بيروت .
- ٣٤- مشكلة الثقافة - مالك بن نبي - طبع سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م - دار الفكر بدمشق
- سوريا .
- ٣٥- المصباح المضيء - أبو عبد الله أحمد بن عليّ بن حديدة الأنصاري .
عالم الكتب - بيروت .
- ٣٦- معجم المصطلحات و الشواهد الفلسفية - جلال الدين سعيد - دار الجنوب
للنشر - ١٩٩٨م - تونس .
- ٣٧- الموسوعة الفلسفيّة العربيّة، الاصطلاحات والمفاهيم . رئيس تحريرها د. معن
زيادة - معهد الإنماء العربيّ - ط١ - ١٩٨٨م .
- ٣٨- نظام الحكومة النبويّة المسمّى التراتيب الإداريّة - العلامة الشيخ عبد الحيّ بن
عبد الكبير بن محمد الحسينيّ الإدريسيّ الكتّانيّ الفاسيّ - الناشر دار الكتاب
العربيّ - بيروت - لبنان (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) .



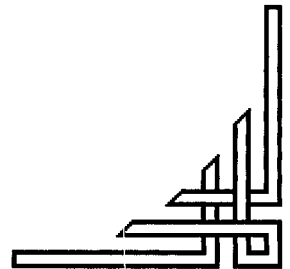
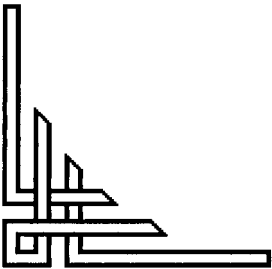
القيم الحضارية في الأحاديث المكية

د. محمد الوثيق

جامعة القرويين

كلية الشريعة

أكادير



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم:

الكتابة في القيم الحضارية في الفترة المكية يعترضه إشكال مركب من عدد من العقبات المنهجية والمعرفية تحول دون رسم معالم صورة هذه الفترة صافية من وجهة حضارية صرفة ...

العقبة الأولى: صعوبة فرز الأحاديث المكية من المدنية؛ لغياب الشواهد والقرائن المفيدة في هذا الاتجاه... وتبعاً لذلك فإن المقطوع بمكيته من الأحاديث محدود من جهة، ومن جهة ثانية لا يخدم هدف هذا البحث بصفة مباشرة؛ إذ لا يؤرخ- في أغلبه- لحركة المجتمع المسلم في مكة بقدر ما يقدم مبادئ الإسلام وقواعده المجردة. ولعل سبب هذا الشح في المعطيات عن هذه الفترة تاريخي أو بشري، لا واقعي؛ إذ إن بناء المجتمع المسلم المكي عقدياً، وتأهيله أخلاقياً، وتكوينه اجتماعياً وسياسياً، تمّ خلال هذا العقد من الزمن، إلا أن أفراد من أوائل الصحابة وأقدمهم إسلاماً، أكثرهم قليلو الرواية للحديث عموماً، وقليلو الحكمي عن المرحلة المكية خصوصاً، مع أن الجدير بما قارن هذه التجربة من معاناة إنسانية أن تستقصى بالرواية وتتداولها الأجيال عبر القرون. ولعل أولئك الفضلاء آثروا الأخرى على المنّ والفخر بالأولى...

قال خباب بن الأرت رضي الله عنه «هاجرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نلتمس وجه الله، فوق أجرتنا على الله، فمننا من مات لم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير رضي الله عنه ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهذبها...»^(١)

فليس بإمكان الباحث أن يُفصّل في حياة المجتمع المسلم في مكة- ومثله في الحبشة- كيف عاش وكيف مارس حياته اليومية وعلاقاته ومعاملته مع محيطه...؟

١ - صحيح البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا لم يجد كفناً إلا ما يوارى رأسه أو قدميه غطى به رأسه، باب رقم ٢٧، حديث رقم ١٢٧٦، جزء ٩٧/٢. ومسلم في كتاب الجنائز باب كفن الميت، الباب: ٢٧ الحديث: ١٢٧٦ الجزء ٩٧/٢. واللفظ للبخاري.

ومن المفارقات ذات العلاقة بهذه العقبة أن أصول قيم المجتمع المسلم عامة شرعت في مكة، وأن المرجعية العليا لهذه القيم تضمّنّها القرآن المكي مفصلة. قال الإمام الشاطبي: «... لما تقرر أن المنزل بمكة من أحكام الشريعة هو ما كان من الأحكام الكلية والقواعد الأصولية في الدين، على غالب الأمر، اقتضى ذلك أن النسخ فيها قليل لا كثير؛ لأن النسخ لا يكون في الكليات وقوعا وإن أمكن عقلا. ويدل على ذلك الاستقراء التام أن الشريعة مبنية على حفظ الضروريات والحاجيات والتحسينيات. وجميع ذلك لم ينسخ منه شيء، بل إنما أتى بالمدينة ما يقويها ويحكمها ويحصنها. وإذا كان كذلك لم يثبت النسخ الكلي البتة. ومن استقرأ كتب الناسخ والمنسوخ تحقق هذا المعنى، فإنما يكون النسخ في الجزئيات منها، والجزئيات المكية قليلة»^(٢).

والخلاصة أن الشواهد من الحديث المكي ضعيفة بالمقارنة إلى الشواهد القرآنية.

العقبة الثانية: مدى إمكان الحديث عن مجتمع أو أمة مسلمة في الفترة المكية، وما إذا كان هذا المجتمع يتمثل القيم الحضارية فعلا؟ فأما عن وجود مجتمع، أو أمة، بالشروط التي يتحدث عنها علماء الاجتماع وعلماء السياسة اليوم فغير متيسر؛ إذ لم يكن المسلمون «على وفرة عددهم نسبيا-أمة، بل كانوا أفرادا متفرقين وأعدادا مبعثرين، ولم يسمّهم النبي ﷺ مجتمعا أو جماعة؛ لأنهم لم يستطيعوا في مكة أن يعيشوا تحت سلطة غير نظام الجاهلية»^(٣).

٢- الموافقات في أصول الأحكام لأبي إسحاق الشاطبي بتحقيق محيي الدين عبد الحميد ٣ / ٧١.
٣- السنن الفاعلة في النهوض الحضاري، للدكتور فاروق حمادة، ضمن بحوث مؤتمر الهدى النبوي في الدعوة والإرشاد ص ٣٧٥.
- في طريق البناء؛ الإنسان والمجتمع للدكتور فاروق حمادة أيضا، مجلة: بصائر الرباط، السنة ١ العدد ١ ص ٣١.
- وقريب من هذا الرأي عند الدكتور محمد أمحزون في: منهج النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة ص ١٥٣.

لكن من وجهة نظر أخرى، تتجوز في الأمر، فإن المجتمع المكي المسلم موجود ومتميز عن المجتمع المشرك «في كثير من مظاهر الحياة، فضلا عن تميزه عنه في معظم أحوال النفس والأخلاق. فكانت للمجتمع يومئذ صورته الخاصة به في العبادات ونظام العائلة وآداب الاجتماع وأحوال المعاملات فيما بين أفرادها، ولكنه لم يكن يمتاز عن مجتمع جيرانهم في أحوال المعاملات العامة التي تماس جيرانهم المشركين كالتجارة والجنایات، وفي المعاملات العائلية من جهة الصهر مع المشركين؛ إذ كان أغلب أهل مكة على غير دين الإسلام، وإذ لم يكن للإسلام يومئذ قانون نظام نافذ في أصول المعاملات...»^(٤)

ويمكن فهم هذا الرأي من وجهة النظر التي لا تسلب الفرد دوره في صناعة التاريخ بالرغم من أن حركة المجتمع هي العنصر المتحكم والموجه الأكبر، لاسيما في هذه الفترة التي استشعر فيها كل فرد ما عليه من أمانة ثقيلة فواجهها وتحملها... وما قيل عن المجتمع قد يصدق على الأمة، فالقول الرائج بأنها جماعة من الناس مختصة بأرض ذات حدود جغرافية وسياسية تمارس سيادتها، قول أفرزته التجربة الغربية المنفصلة بتمایز القوميات، بينما تعني الأمة في التعبير القرآني الجماعة التي يجمعها قصد إقامة الدين ويدفعها ذلك القصد. وقد يكون العدد قليلا دون أن ينفي عنها ذلك معنى الأمة^(٥).

وفي ضوء تصور وجود المجتمع والأمة يأتي الجواب عن مدى تمثل هذه العصابة المهددة في أمنها ووجودها للقيم الحضارية، الفردية والجماعية، في سلوكها اليومي. وإذا كانت الحضارة صنيعة للقيم، وكانت صناعة الحضارة أيضا بحاجة إلى الاستقرار والعلم وال عمران والأخلاق، فإن تمثل هذه القيم لا يكون إلا

٤- أصول النظام الاجتماعي لمحمد الطاهر بن عاشور ص ٨٩.
٥- أصول الفكر السياسي في القرآن المكي للدكتور التيجاني عبد القادر حامد، ص ١٠٨ بتصرف، وقرن ب التاريخ الإسلامي لمحمود شاکر ١ / ١٥-١٦.

نسبياً وجزئياً. وفي هذا الوضع المكّي قد يكون أحياناً فردياً وقد يكون جماعياً بحسب ما يسمح به الظرف، إلا أنه في كل الأحوال فالحضور الإسلامي المتميز المنفصل عن واقع الشرك لا ينكره أحد، بل هو حضور لافت وفاعل. ومن هنا صح الحديث عن القيم الحضارية في السنن المكيّة ولو جزئياً.

هذا مع أن الحضارة ليست هي العمران وحده، فهي - في حقيقتها - بناء روحاني يقوم على دعائم الأخلاق والفضائل، ومحاسن الشيم والشمائل التي شيّد بها كل الأنبياء الحضارة الإنسانية. وقد أكّد النبي محمد ﷺ هذه الحقيقة في أحاديث منها قوله: «إنما بعثت لأتمّ صالح الأخلاق»^(٦). وقوله: «مثلي ومثل الأنبياء كمثلي رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون: لولا موضع اللبنة»^(٧).

وهنا أخلص إلى قضية منهجية أخرى وهي أن هذا البحث سيدرس مجاله بحسب المعطيات التي يسمح بها هذا الظرف التاريخي الخاص، وسيركز على أهم القيم الحضارية التي برزت أكثر من غيرها، وخاصة في المجالات الاجتماعية والإعلامية الدعوية، مع استثمار كل ما أمكن استثماره من النصوص الصحيحة والمعطيات التاريخية، بما في ذلك بعض التشريعات المكيّة ذات البعد الحضاري التي لها إسهام كبير في بناء الشخصية المسلمة المتميزة أخلاقياً وحضارياً؛ إذ

٦- المسند للإمام أحمد ٢ / ٣٨١ عن أبي هريرة بإسناد رجاله رجال الصحيح، ورواه الحاكم في المستدرک: ٢ / ٦٧٠ رقم ٤٢٢١ عن أبي هريرة وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. قال ابن عبد البر: الحديث يتصل من طرق صحاح عن أبي هريرة وغيره، انظر التمهيد: ٢٤ / ٣٣٣. وله شواهد من حديث جابر وغيره، ومنها ما في حديث ابن عباس في قصة إسلام أبي ذر أنه صلى الله عليه وسلم يأمر بمكارم الأخلاق، رواه مسلم في الفضائل باب من فضائل أبي ذر رقم: ٢٨ حديث: ١٣٣ جزء: ٤ / ١٩٢٣، وما عند البزار بلفظ بعثت لأتمم مكارم الأخلاق بإسناد رجاله رجال الصحيح غير محمد بن رزق الله الكلوذاني وهو ثقة، انظر: مجمع الزوائد ١٥٩.

٧- صحيح البخاري كتاب المناقب باب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم باب: ١٨ حديث: ٣٥٣٤ جزء: ٤ / ١٩٦ عن جابر، ومسلم في الفضائل باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين باب ٧ حديث: ٢٢٨٦ جزء: ٤ / ١٩٧٠ عن أبي هريرة، واللفظ للبخاري.

يصعب فهم حركة التاريخ في تلك المرحلة دون فهم روح الإسلام ومبادئه^(٨). وقد يستأنس البحث-دون أن يستشهد-أحياناً بنصوص من قبيل المراسيل، إذا لم يتعلق الأمر بتأسيس قيمة ما وإنما بتعويضها، قياساً على منهج نقاد الحديث وأئمة الفقه فيه. وقد ورد عن غير واحد منهم قوله: «إذا روينا عن النبي ﷺ في الحلال والحرام شدّدنا في الأسانيد وانتقدنا في الرجال، وإذا روينا في الفضائل والثواب والعقاب سهّلنا في الأسانيد وتسامحنا في الرجال»^(٩). وقد يمكن رصد بعض القيم أو آثارها من خلال سلوك المتشبعين بها وتجسدها في مواقفهم وتحليل شخصياتهم... وهذا مشروع يحتاج لجهد ووقت...

مدخل

يجوز وصف التحول الذي شهده القرن السابع الميلادي، في مكة ثم في العالم كله، بالانقلاب القيمي الذي قاده النبي محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي العربي، الذي قدر له أن يعيد التوازن المفقود إلى النفس الإنسانية ويعيد صياغة حياة الناس في ضوء الفطرة التي فطروا عليها؛ لتنسجم مع القوانين التي تحكم هذه الحياة. فإن العالم كان قد فسد، والإنسان كان قد ضاع؛ فرداً وجماعة، «حيثما التفتنا، أنى قلبنا وجوهنا في جهات العالم الأربع... ابتداءً بأعمق أعماق النفس البشرية، وانتهاءً بالعالم في مداه الشامل، مروراً بالتجارب والممارسات الدينية والاجتماعية والسياسية...»^(١٠)

وكان البديل عن كل ذلك «رد الأمر كله إلى الله الحاكم والمشرّع، وتجريد الإنسان فرداً وجماعة- من الخضوع لمقاييسه الجزئية القاصرة واتباع الهوى والظنّ في كل صغيرة وكبيرة.»^(١١)

٨- دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة لعبد الرحمن الشجاع ص ٧، مقدمة الدكتور عماد الدين خليل، وقارن بالسيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري ١ / ١٧-١٨.
٩- الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ١٣٤.
١٠- دراسات في السيرة، عماد الدين خليل ص ٤٥.
١١- المرجع نفسه ص ٨٧.

ومن السهل ملامسة أثر هذا الانقلاب وفعل هذا التغيير في نماذج مجسدة في سير الصحابة الأول؛ كيف كانوا في جاهليتهم وكيف أصبحوا بعد إسلامهم؟ «فكان العامل التربوي الإسلامي الذي كون الفرد - عقلا ونفسا وخلقاً وسلوكاً - هو العامل الأصلي الذي ولّد الحضارة وكون المجتمع الأمثل...»^(١٢)

وقد تطلب الأمر من هذا القائد الرسول سنوات من العمل المضني، من أجل صناعة هذا الجيل الجديد الحامل لقيم هذه الحضارة، «فكما تحتاج العجينة إلى حرارة النار لإنضاجها، فكذلك تحتاج العجينة البشرية إلى حر الابتلاء. وفي حر الابتلاء تثبت العجينة الطرية العصية وتصلب، وتصبح قادرة على الصمود والصدام، وفي حر الابتلاء ترسخ العقيدة وتمتد جذورها في النفس حتى تتمكن منها...»^(١٣)

على أن الحديث عن الانقلاب في مجال القيم لا يعني الرفض المطلق لما كان عليه الناس من خير ومن أخلاق حسنة، لا سيما وقد عرف عن العرب التحلي ببعض الشيم النبيلة، ومنها ما هو من أصول دينية؛ حنيفية أو مسيحية. وحتى لا يتَّهم الإسلام بالانغلاق والسلبية عندما يُتحدث عن بناء الهويات وتشكلها، والفصل بين العناصر الثابتة والمتغيرة ضمنها، فإن هذا الدين يعلن بصريح الخطاب أنه لبنة أخيرة في بناء استغرق الماضي كله، وأسهمت فيه قوافل الأنبياء والمؤمنين السابقين، يتبني فيها كل صحيح صالح بعد أن يغربل تراث النبوات والتجارب البشرية:

«عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! رأيت أشياء كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة وصلة رحم، فهل فيها من أجر؟ فقال النبي ﷺ :

١٢- روح الحضارة الإسلامية لمحمد الفاضل بن عاشور ص ٣٩.
١٣- منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ٢ / ٥٩-٦٠ نقلاً عن: منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية لعلي الحربي ص ٤٠١، وقارن بظلال القرآن لسيد قطب ٦ ٣٣٣٧.

أسلمت على ما سلف من خير....^(١٤) قال حكيم في رواية أخرى: قلت: فوالله لا أدع شيئا صنعتته في الجاهلية إلا فعلت في الإسلام مثله^(١٥).
والحديث- عند ابن بطلال- على ظاهره^(١٦) وأنه إذا أسلم الكافر ومات في الإسلام يثاب على ما فعله من الخير في حالة الكفر؛ لحديث أبي سعيد الخدري مرفوعا: «إذا أسلم العبد فحسن إسلامه يكفر الله عنه كل سيئة كان زلفها، وكان بعد ذلك القصاص؛ الحسنئة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله عنها.»^(١٧)

ومما يستأنس به في هذا الاتجاه قول النبي عليه السلام أيضا: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة»^(١٨). وقال أيضا مقرا مبدأ عاما في هذا الإطار: «بعثت لا تمم مكارم الأخلاق»^(١٩).

نستطيع بعد هذا أن نقرر أن المرحلة المكية شهدت تغيرا جذريا في مفاهيم الحياة البشرية على يد خاتم الأنبياء إلى هذه البشرية، وأن هذه المنظومة العالمية النهائية، كان من عالميتها وشموليتها أن تفتح على سائر التجارب، وأن تضع في اعتبارها الاستجابة لكل التساؤلات المستقبلية. ولذلك فإن قيمها ومفاهيمها خالدة. ثم نقرر أخيرا أن الأسس الكبرى الضابطة لقيم الإنسان وسلوكه وضعت منذ هذا العهد

١٤- صحيح البخاري في كتاب الزكاة باب من تصدق في الشرك ثم أسلم باب: ٢٤ حديث: ١٤٣٦ جزء: ١٤٦/٢ عن حكيم بن حزام، وأخرجه مسلم في الإيمان باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده باب: ٥٥ حديث: ١٩٤ جزء: ١١٣/١، واللفظ للبخاري.

١٥- صحيح مسلم كتاب الإيمان باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده، باب ٣٢ حديث: ١٩٥ جزء: ١١٤/١.

١٦- شرح ابن بطلال للبخاري ٤١٩/٣.

١٧- صحيح البخاري كتاب الإيمان باب حسن إسلام المرء، باب ٣٢ حديث: ١٤١ جزء: ١٨ / ١ عن أبي سعيد. وذكره الدارقطني في غرائب مالك ورواه عنه من تسع طرق. انظر المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي ١/ ١٤٠-١٤١، وفتح الباري لابن حجر ١/ ٩٩-١٠٠. وقارن بحديث هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل عن أبيه عند البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل، باب ٢٤ حديث: ٣٨٢٦ ج ١/ ٢٨١. وانظره في فتح الباري ٧/ ١٤٣.

١٨- صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، باب ٥٠ حديث: ٢٥٣٠ جزء: ٤ / ١٩٦١ عن جبير بن مطعم.

١٩- سبق تخريج الحديث في الصفحة: ٦

المكي، ما دام هو مرحلة البناء والتأسيس للمنظومة الإسلامية الخاتمة، وأن هذه الأصول الموضوعية منذ هذه الفترة لم يمسسها تغيير ولا تعديل ما دامت تتصف بالإطلاق والشمول. قال الشاطبي: «اعلم أن القواعد الكلية هي الموضوعية أولاً والتي نزل بها القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، ثم تبعها أشياء بالمدينة كملت بها تلك القواعد التي وضع أصلها بمكة. وكان أولها الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، ثم تبعه ما هو من الأصول العامة كالصلاة وإنفاق المال وغير ذلك، ونهي عن كل ما هو كفر أو تابع للكفر كالافتراءات التي افتروها من الذبح لغير الله وللشركاء الذين ادعواهم افتراء على الله، وسائر ما حرموه على أنفسهم أو وجبوه من غير أصل مما يخدم أصل عبادة غير الله. وأمر - مع ذلك - بمكارم الأخلاق كلها، كالعدل والإحسان، والوفاء بالعهد، وأخذ العفو والإعراض عن الجاهل، والدفع بالتي هي أحسن، والخوف من الله وحده، والصبر والشكر ونحوها. ونهى عن مساوئ الأخلاق من الفحشاء والمنكر والبغي والقول بغير علم، والتطيف في المكيال والميزان، والفساد في الأرض، والزنا والقتل والوَاد. وغير ذلك مما كان سائراً في دين الجاهلية...»^(٢٠)

وبلغة مقاصد الشريعة التي تؤصل لكل القيم وتدافع عنها وتحفظها من العدوان فإن كل هذه المقاصد تمّ التأكيد عليها في مكة:

- «أما الدين فهو أصل ما دعا إليه القرآن والسنة... وهو أول ما نزل بمكة»^(٢١).

- «وأما النفس فظاهر إنزال حفظها بمكة»^(٢٢).

- «وأما العقل فهو - وإن لم يرد تحريم ما يفسده، وهو الخمر، إلا بالمدينة - فقد ورد في المكيات مجملاً؛ إذ هو داخل في حرمة حفظ النفس كسائر الأعضاء ومنافعها من السمع والبصر وغيرهما، وكذلك منافعهما. فالعقل محفوظ شرعاً

٢٠- الموافقات في أصول الأحكام ٣ / ٧٠ بتحقيق محيي الدين عبد الحميد نشر مكتب ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده القاهرة.

٢١- نفسه ٣ / ٢٩

٢٢- نفسه ٣ / ٢٩.

في الأصول المكية»^(٢٣)

- «وأما النسل فقد ورد المكي من القرآن بتحريم الزنا والأمر بحفظ الفروج...»^(٢٤)

- «وأما المال فورد فيه تحريم الظلم وأكل مال اليتيم والإسراف والبغي ونقص

المكيال والميزان والفساد في الأرض...»^(٢٥)

ولما تقرر أن المنزل بمكة من أحكام الشريعة هو ما كان من الأحكام الكلية والقواعد الأصولية في الدين على غالب الأمر، اقتضى ذلك أن النسخ فيها قليل لا كثير؛ لأن النسخ لا يكون في الكليات وقوعا وإن أمكن عقلا. ويدل على ذلك الاستقراء التام وأن الشريعة مبنية على حفظ الضروريات والحاجيات والتحسينيات...^(٢٦)

إن الاستقراء التام من داخل الشريعة نفسها يؤدي لهذه النتيجة، ويؤكد أصالة هذه القيم والأصول، كما يحيل إمكان التغيير والنسخ فيها مطلقا. وهذا يردّ بكل قوة على دعوى أحد المعاصرين الذي زعم أن القيم المكية أعيد فيها النظر، وأن آيات الأصول المكية سحبت من التداول ونسخت لمّا لم يستجب لها الجاهليون، وظهر ظهورا عمليا أنها فوق طاقتهم، لتعوضها آيات الفروع المدنية^(٢٧) فاعتبرت من ثمّ ناسخة للآيات المكية التي اعتبرت يومئذ أكبر من قامة المجتمع، وأرجئت إلى أن يجيء وقتها...^(٢٨)

وكأن الإمام الشاطبي رحمه الله يردّ هذا الفهم المستغرب إذ يقول: «المشروعات المكية - وهي الأولية - كانت في غالب الأحوال مطلقة غير مقيدة، وجارية على ما

٢٣ - نفسه ٣ / ٢٩.

٢٤ - في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْفَ﴾ (الإسراء، ٣٢)، وقوله عز وجل: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ (الفرقان، ٦٨)، وكذلك وردت به السنن المكية في حديث جعفر بن أبي طالب للنجاشي، وسيأتي تخريج الحديث في الصفحة: ١٣.

٢٥ - في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَدِّرْ تَبْدِيرًا﴾ (الإسراء، ٢٦)، وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ...﴾ (الإسراء، ٣٥)، وحديث بيعة العقبة والنص من الموافقات ٣ / ٢٩.

٢٦ - الموافقات في أصول الأحكام بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ٣ / ٧١.

٢٧ - تطوير شريعة الأحوال الشخصية ضمن كتاب: نحو مشروع مستقبل للإسلام لمحمود محمد طه ص ٣٠٣ بتصرف.

٢٨ - نفسه ص ٢٨٠ وكتابه الآخر: الرسالة الثانية في الإسلام ضمن كتاب: نحو مشروع مستقبل للإسلام ص ٧٥ بتصرف.

تقتضيه مجاري العادات عند أرباب العقول، وعلى ما تحكمه قضايا مكارم الأخلاق من التلبس من كل ما هو معروف في محاسن العادات، والتباعد عن كل ما هو منكر في محاسن العادات، في ما سوى ما العقل معزول عن تقريره جملة، من حدود الصلوات وما أشبهها. فكان أكثر ذلك موكولا إلى أنظار المكلفين في تلك العادات ومصروفا إلى اجتهادهم، ليأخذ كل بما لاق به وما قدر عليه من تلك المحاسن الكليات، وما استطاع من تلك المكارم في التوجه بها للواحد المعبود من إقامة الصلوات... وإنفاق الأموال... وصلة الأرحام... ومراعاة حقوق الجوار... وإصلاح ذات البين... وكذلك الأمر فيما نهى عنه من المنكرات والفواحش على مراتبها في القبح... فكان المسلمون في تلك الأحيان آخذين فيها بأقصى مجهودهم، وعاملين على مقتضاها بغاية وجودهم... [ثم احتاجوا في المدينة] إلى حدود تقتضيها العوارض الطارئة، ومشروعات تكمل لهم تلك المقدمات، وتقييدات تفصل لهم بين الواجبات والمندوبات والمحرمات والمكروهات... ليكون ذلك الباقي المحكم قانونا مطردا وأصلا مستنا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وليكون ذلك تماما لتلك الكليات المقدمة، وبناء على تلك الأصول المحكمة... فالأصول الأولى باقية لم تتبدل ولم تنسخ؛ لأنها في عامة الأمور كليات ضرورية...»^(٢٩)

فلا تناقض-إذن-بين نصوص الشريعة، وإنما هو تكامل وتناسق. ومن أصول الدين المأخوذة من القرآن نفسه الفصل بين الإيمان بالمبدأ وبين بذل الوسع في تنزيله حسب المستطاع- وليس تطبيقه كلية أو تركه كلية. فليست هذه المبادئ المكية «بناء فلسفيا ينتظر التنفيذ في المدينة، وإنما نرى أن تلك المبادئ كانت بناء يتشابه في نسجه المبدأ الموحى به مع الظرف الواقع. ولا انفصال فيه بين المبدأ والفعل إلا حيث تنعدم القدرة والحيلة. وهذا الانفصال حين يقع يعتبر في منطق

٢٩- الموافقات في أصول الأحكام ٤ / ٢٣٣-٢٣٤ بتحقيق عبد الله دراز، طبع المكتبة التجارية الكبرى القاهرة.

الدين حرجا وفتنة ينبغي تكثيف الجهد للخروج منها»^(٣٠).
وخلاصة الكلام أن المرحلة المكية أساس ما بعدها، وأن البحث عن الجذور لا
ينبغي أن يتم بعيدا عن تربتها، وأن بناء الإنسان-إيمانيا وسلوكيا- تم في ضوء هدي
أصولها. وهذا أوان البحث عن تجليات هذا البناء وعن أثر هذه المرحلة في
تأسيس قيم الإسلام في بعض المجالات.

٣٠- أصول الفكر السياسي في القرآن المكي ص ٢٥.

القسم الأول: قيم الإعلام والاتصال

إن طبيعة الرسالة التي يحملها النبي ﷺ إلى قومه- وإلى العالمين جميعا- هي قبل كل شيء كلام وخطاب؛ فأول ما واجه به المدعويين هو أن تصدى لهم بلسانه، ومن هنا تأتي خطورة هذا المدخل والعنوان... وإذا استحضرنا سياق رسالته إلى قومه العرب الذين تكاد تنحصر أهم علومهم في تراثهم الشفوي، ويكاد فكرهم أن يستوعب في شعرهم وخطبهم... عرفنا أن مواجهة القوم بأداة هم أمراؤها وملاك ناصيتها لن تبلغ غايتها إلا إذا كانت بأسلوب أكثر تأثيرا وأبلغ حجة ...

ثم إذا عرفنا أن آلة الإبلاغ والتواصل الشعري عندهم ترشح بكثير من قيم الجاهلية من قذع في الخصم، وهجو للعدو، وسلب المخالف كل فضيلة، وتمريغ شهامته وشهامة قبيلته في التراب... عندما يستحضر الإنسان هذه القيم الزائغة الموجهة للخطاب الجاهلي، وأنها أحيانا أدت إلى معارك أتت على الأخضر واليابس، يعرف كم هي الصعوبات التي ستواجه من يدخل هذا السوق من باب قول القرآن ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ (الأنعام ١٥٢)، وقوله ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (البقرة ٨٣). ليعيد للقول مصداقيته، وللكلمة توازنها، ولأسلوب الخطاب أدبياته، وللإقناع منهجه... وكل هذا تصدى له الخطاب الإعلامي النبوي في الفترة المكية فالتزم به وبلغ، وثبت أركانه ونجح في غرس قيمه. وهذا التميز في أسلوب الخطاب وحمولته كذلك هو القيمة المضافة الأساسية في الإعلام الإسلامي، وهو ما سنحاول استيضاح تجلياته في الشواهد والنصوص المكية المتاحة، دون إغفال أن القرآن المكي قد قعد لهذا الأسلوب بوضوح حين أكد على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة^(٣١) وعلى الجدل بالتي هي أحسن^(٣٢) وسد الذريعة أمام الكفار حتى لا يفحشوا في الخطاب^(٣٣).

٣١- في قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (النحل ١٢٥)

٣٢- في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (المعكوث ٤٦).

٣٣- في قوله عز وجل: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الأنعام ١٠٨).

القيمة الأولى: إقرار مبدأ الحرية في التعبير

لقد صودر حق النبي ﷺ وصحابته في التعبير عما آمنوا به في المرحلة المكية، وجهد المشركون مرارا أن يمنعوا من الصدع بالإسلام والقرآن حتى لا ينساق وراءه الناس ويستأسروا له. وأرغم أبو بكر على رد جوار مجيره ابن الدغنة حتى لا يمنع من بالجهر بالقرآن^(٣٤)، ثم تناصح المشركون بينهم في قولهم كما حكى القرآن: ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ (نصت ٢٦) وكان الناس يوصي بعضهم بعضا: «احذر غلام قريش لا يفتنك»^(٣٥).

ولا يقدر حرية القول حق قدرها -وأكثر من غيره- إلا من عانى فقدانها وجاهد من أجل التمتع بها، وهاهو النبي ﷺ في جلسة حوار مع عتبة بن ربيعة يعامله بأدب، ويفسح له مجال القول، ويصغي إليه ثم يستزيده مما لديه، حتى إذا أفرغ كل ما في جعبته من الباطل يدلي ﷺ له برأيه، ثم يعطيه كل الحرية في أن يأخذ أو يدع؛ قال عتبة: «... اسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضها، فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع، فقال: يا ابن أخي إن جئت إنما تريد بما جئت من هذا القول مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تريد شرفا شرفناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك، وإن كان هذا الذي يأتيك رثيا تراه ولا تستطيع أن تردده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه. فإنه ربما غلب التابع على الرجل

٣٤- صحيح البخاري في كتاب الكفالة باب جوار أبي بكر في عهد النبي وعقده باب ٤ حديث: ٢٢٩٧ ج: ٣/ ٨٠ عن عائشة... وسيأتي الحديث في الصفحة: ٢٣.

٣٥- المسند للإمام أحمد ٣/ ٣٢٢، ٣٣٩ عن جابر، وصححه ابن حبان في صحيحه: ١٤/ ١٧٢ رقم: ٦٢٧٤ والحاكم في المستدرک ٢/ ٦٢٤، طبعة دار الكتب العلمية، ووافقه الذهبي، وذكر ابن كثير في السيرة ٢/ ١٩٦ أن إسناده جيد على شرط مسلم. كما أن رجال أحمد رجال الصحيح، فإسناده حسن، انظر فتح الباري ٧/ ٢٢٢، وقد رواه أبو الزبير عن جابر معنعنا لكنه صرح بالتحديث عند البيهقي في الدلائل ٢/ ٤٤٢.

حتى يداوى منه. ولعل هذا الذي تأتي به شعر جاش به صدرك. فإنكم - لعمرى - يا بني عبد المطلب تقدرّون منه على ما لا يقدر عليه أحد. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه، قال رسول الله ﷺ: «أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاستمع مني. قال: أفعل. فقال رسول الله ﷺ ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢٠﴾ كَتَبْتُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾» (فصلك ٣) فمضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه. فلما سمعها عتبة أنصت له وألقى بيده خلف ظهره معتمدا عليها يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد فيها ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك...»^(٣٦)

وتسعدنا الفترة المكية بشاهد ثان يؤكد سابقه في الإنصات لما لدى الغير قبل تقديم ما لدى النبي ﷺ بإنصاف دون مكابرة، وذلك لما قدم سويد بن الصامت من المدينة حاجا أو معتمرا «تصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به فدعاه إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له رسول الله ﷺ: وما الذي معك؟ قال: مجلة لقمان - يعني حكمة لقمان - فقال له رسول الله ﷺ: اعرضها علي! فعرضها عليه فقال له: إن هذا لكلام حسن! والذي معي أفضل من هذا؛ قرآن أنزله الله تعالى علي، هو هدى ونور! فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام. فلم يبعد منه وقال: «إن هذا لقول حسن»^(٣٧)

والبحت عن حرية الكلام إيذان بالإيمان بها وبتبنيها، وهو ما استنفذ فيه النبي ﷺ سنوات المرحلة المكية، فكان «يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم،

٣٦- سيرة النبي ﷺ لابن هشام ١/ ٣١٣؛ قال ابن إسحاق: «ثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة... وورد موصولا في مسند أبي يعلى ٢/ ٢٠٣ رقم: ١٨١/ ٢ عن جابر، طبع دار الكتب العلمية، وفيه الأجلح الكندي، وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره، انظر التهذيب ١/ ١٨٩، كما أن فيه ذبال بن حرملة وثقه ابن حبان في الثقات: ٤/ ٢٢٢، وباقي رجاله ثقات، انظر مجمع الزوائد: ٦/ ٢٠. وأخرجه الحاكم مختصرا في المستدرک ٢/ ٢٥٣، طبعة دار الكتب العلمية، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، انظر مجمع الزوائد ٢٠٦ وتفسير ابن كثير ٩٠٤.

٣٧- السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٦، ورواه البيهقي في الدلائل ٢/ ٤١٩ من طريق الحاكم، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث في المكانين، فإسناد الحديث حسن، انظر السيرة النبوية الصحيحة ١- ١٩٥.

ويكلم شريف كل قوم، لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤووه ويمنعوه، ويقول: لا أكره أحدا منكم على شيء، من رضي منكم بالذي أدعوه إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه، وإنما أريد أن تحرزوني مما يراد بي من القتل حتى أبلغ رسالات ربي»^(٣٨).

القيمة الثانية : مقاصد الخطاب الإعلامي

إن أهداف البلاغ النبوي عظيمة، ولا يتم بلوغها إلا بوساطة اتصالية بليغة، وقد تصبح الوسائل أهم من مضمون الرسالة... ولذلك استثمر عليه السلام كل وسيلة وسلك كل طريق ممكن؛ ليحقق مقاصد هذا الخطاب الفريد الجديد الذي ينشئ لدى متلقيه حالة من الصراع النفسي والنقاش الداخلي بفعل اسفرازه للأفكار وتشكيكه في المسلمات، ثم يأتي جواب الطرف المتلقي عن الرسالة إما بالرفض أو بالقبول.... وتبرز لنا الوقائع المكية هدفين هامين تميز بهما الخطاب النبوي:

أولا: البلاغ المبين

لظالما نُدب النبي ﷺ إلى أداء رسالته أين ما تكون، بحيث لا نفاق ولا لبس ولا مراوغة، ولا غير ذلك من الأساليب التي تسلب الناس الحقيقة وتوجههم وتصوغهم كما يشاء المتحكمون في الإعلام. وإنما جاء الوضوح في منهج النبوة ليؤمن المؤمن ويكفر الكافر عن بيته^(٣٩)

«فعن أبي هريرة قال: لما أنزلت هذه الآية ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء ٢١٤) دعا رسول الله ﷺ قريشا فاجتمعوا، فعمّ وخصّ فقال: يا بني كعب ابن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار!

٣٨- مغازي موسى بن عقبة ص ٨٦، ورواه أحمد في المسند ٣ / ٣٩٠ بلفظ آخر مختصرا عن جابر. كما رواه أبو داود في كتاب السنة باب في القرآن رقم: ٤٧٣٧ جزء: ٤ / ٢٣٤ عن جابر، والترمذي في فضائل القرآن باب ٢٤ حديث: ٢٩٢٥ جزء: ٥ / ١٦٨. وقال: غريب صحيح وأخرجه البزار في مسنده ١ / ٤٠٤ رقم: ٢٨١ وقال: إسناده حسن. وصححه الحاكم ٦٦٩٢، وقال على شرطهما، ووافقه الذهبي.
٣٩- قارن بالدعوة الإسلامية في عهدنا المكي؛ مناهجها وغايتها للدكتور رؤوف شلبي ١٧٠.

يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار! يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار! فإني لا أملك لكم من الله شيئا، غير أن لكم رحما سألها ببالها»^(٤٠)

ففي هذا الحديث خطاب قوي يهز كيان المتلقي ويضعه وجها لوجه أمام مصيره المنتظر. وزاد من قوته التشخيص والتخصيص، وذكر أسماء المخاطبين وبتونهم، وهو أكثر أثرا وإثارة... وفي روايات أخر أساليب أخرى كجمع الناس وإلقاء خطبة فيهم، وضرب الأمثلة المعبرة، كما في حديث «زهير بن عمرو الهلالي وقبيصة بن المخارق قالا: لما نزلت ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء ٢١٤) انطلق نبي الله ﷺ إلى روضة من جبل، فعلا أعلاها حجرا ثم نادى: يا بني عبد مناف، إني نذير! إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله، فخشى أن يسبقوه فجعل يهتف يا صباحاه!»^(٤١)

وتكاد الواقعة التالية ترسم مدى الوضوح في الهدف والأسلوب: يروي عقيل ابن أبي طالب قال: جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا! فقال: يا عقيل انطلق فأنتي بمحمد. فانطلقت إليه فاستخرجته من كيس - يقول من بيت صغير - فجاء به في الظهيرة في شدة الحر، فجعل يطلب الفياء يمشي فيه من شدة الحر الرخص. فلما أتاهم قال أبو طالب: إن بني عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديتهم ومسجدهم فانت عن أذاهم! فحلّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم.

٤٠ - صحيح مسلم في كتاب الإيمان باب وأنذر عشيرتك الأقربين باب: ٨٩ حديث: ٣٤٨ جزء: ١ / ١٩٢، عن أبي هريرة، كما رواه عن عائشة هناك وفيه زيادات. ورواه البخاري في كتاب المناقب باب من انتسب إلى آباءه في الإسلام والجاهلية باب ١٣ حديث: ٣٥٢٦ جزء: ٤ / ١٩٤ عن ابن عباس مختصرا.
٤١ - صحيح مسلم في كتاب الإيمان باب وأنذر عشيرتك الأقربين باب: ٨٩ حديث: ٣٥٣، جزء: ١ / ١٩٣.

قال: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة! فقال أبو طالب: والله ما كذبتنا ابن أخي قط فارجعوا»^(٤٢).

ووضوح الرسالة والبيان الأكثر تفصيلا تضمنته نصوص أخرى تشرح موضوع الرسالة والمبادئ التي تطرحها وتطلب من الناس الاقتناع بها واعتناقها، وقد يكفي خطاب جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي في بيان جزئيات الرسالة...^(٤٣)

وكان من نتائج هذا البلاغ المبين أن فهم كل المدعويين الرسالة ولم يشك أحدهم من غموض أو التباس أو طلب مزيد بيان. وهكذا هذا الخطاب إلى اليوم؛ بسيط في أسلوبه، واضح في أهدافه، منطقي في أفكاره.

ثانيا: صدق الحديث

الصدق مع النفس ينعكس عنه صدق الخطاب، والخطاب الصادق مطلب عزيز وأساس الحضارة القيم، ويكاد كل إنسان يلمس هذا الصدق وهو يرشح من كلام النبي عليه السلام مع عمه أبي طالب لما شكته إليه قريش...^(٤٤) وقد يما أجمع القرشيون على تحلية محمد بن عبد الله بوسام الصدق فلقبوه بالأمين. كما أجمعوا أمامه على صدقه لما جمعهم أول مرة ليبلغهم رسالة ربه وسألهم: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟»

٤٢- السيرة النبوية لابن إسحاق ص ١٣٦، من زيادات يونس بن بكير، وقد تابعه عبد الواحد بن زياد وهو ثقة فرواه كما في المستدرک ٣/ ٥٧٧، طبعة دار الكتب العلمية. كما رواه البزار في مسنده ٦/ ١٥ رقم: ٢١٧٠ وقال: لا نعلمه يروى عن عقيل إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد من طريق يونس. ورواه أبو يعلى في مسنده ١٢ / ١٧٦ رقم: ٦٨٠٤ من طريق يونس أيضا، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٥٦ رجال أبي يعلى رجال الصحيح.

٤٣- السيرة النبوية لابن إسحاق ١٩٤ عن أم سلمة، ورواه أحمد ٥/ ٢٠٢، والطبراني في الكبير ٢/ ١١٠ رقم: ١٤٧٨، ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق لكنه صرح بالتحديث، فالحديث حسن. انظر مجمع الزوائد ٦/ ٢٤-٢٧.

٤٤- سبق تخريج الحديث في الهامش: ٤٢ من هذه الصفحة.

قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد...» (٤٥)

ولقد سرد جعفر بن أبي طالب في خطبته أمام النجاشي عديدا من مظاهر صدقه عليه السلام في سلوكه وفي توجيهاته لأصحابه، مثل الأمر بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والنهي عن شهادة الزور وقذف المحصنة والفواحش. (٤٦)

وقيمة الصدق هذه هي التي أسعفت جعفرا هذا أمام النجاشي، فلم يكذبه في قول القرآن عن مريم وابنها، ولا جامله أو نافقه، بل قرأ سورة مريم كما هي مع مخالفتها للصورة المعروفة عند النصارى، فما كان من النجاشي إلا تقدير هذا المتحدث باسم المسلمين، بل وأسلم مع المسلمين لله رب العالمين.

ثالثا: أخلاقيات الخطاب الإعلامي

أهم ما يميز المنظومة الدينية هو عدم وقوفها عند حساب الأرقام، وعند ميزان الحقوق والواجبات، وهو منطق السوق والربح والخسارة، وإنما تتميز بالبحث عن المعاملة بالإحسان والإتقان. ومجال الإعلام أحوج إلى هذه القيم النبيلة، فإن غياب الأخلاق الفاضلة عن المشتغلين بتكوين الرأي العام وتوجيهه يقودهم إلى بناء مجتمع على مقاس آرائهم وأفكارهم هم، لا على مقاس القيم الفاضلة. ومعاناة الإنسان اليوم مع الإعلام كبيرة؛ فقد أصبحت قلوب الناس بين أصابع أباطرة صناع الرأي العام... ومن هنا يحتاج الإعلامي الملتزم إلى أن يعود لمرجعية الأمة ليستقي منها قيم الاتصال البانية وأخلاقياتها المميزة. وعندما نعود لفترة تأسيس القيم في مرحلة الدعوة المكية نجد بعض هذه الأخلاقيات:

٤٥- صحيح البخاري كتاب التفسير باب سورة تبت يدا أبي لهب وتب، باب رقم: ١١١ حديث: ٤٩٧١ جزء:

١١٤/٦، ومسلم في الإيمان باب في قوله تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين باب ٨٩ حديث ٣٥٥ جزء:

١٩٤/١ عن ابن عباس.

٤٦- سبق تخريج الحديث في الهامش رقم: ٤٣.

١- الصبر:

لعل خلق الصبر والإلحاح ومعاودة النظر والمحاولة أهم ما يمكن تعلمه من تجربة النبي محمد ﷺ في سبيل أداء رسالته؛ إذ كان عليه السلام «يدعو ويكرر الدعوة ويثلث ويداوم سنة وستين وثلاثا وعشرا... ويستغل الموسم كل سنة وأسواق العرب الموسمية وهو لا يمل»^(٤٧). مصداق ذلك ما تذكره الروايات الآتية:

«عن طارق بن عبد الله المحاربي قال: رأيت رسول الله ﷺ مر بسوق ذي المجاز وأنا في بياعة لي وعليه حلة حمراء فسمعتة يقول: يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه، وهو يقول: يا أيها الناس، لا تطيعوه فإنه كذاب. فقلت: من هذا؟ قالوا: غلام بني عبد المطلب. فقلت: من هذا الذي يتبعه يرميه بالحجارة؟ قالوا: هذا عبد العزى أبو لهب»^(٤٨).

«عن جابر أن النبي ﷺ كان يتبع الحجيج في منازلهم ويقف على القبائل الواحدة تلو الأخرى ويقول: هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربي»^(٤٩).

تبرز هذه الشواهد مستويات من الصبر لا يتحملها إلا الرساليون في الحياة، وإلا المؤيدون بروح الله، مع تحمل المشاق البدنية والنفسية والخطاب الشيطاني والحرب الدعائية والإيذاء الجسدي.

٢- أخلاق الحوار:

يشكل الخطاب الهادئ المتزن وحسن الإنصات للطرف الآخر، وإشعاره

٤٧- فقه السيرة للبوطي ١١٧

٤٨- المسند للإمام أحمد ٤٩٢ / ٣ عن ربيعة الديلي بإسناد حسن، ورواه ابن خزيمة في صحيحه ١ / ٨٢ رقم: ١٥٩ عن طارق المحاربي وهذا لفظه، وابن حبان في الصحيح ١٤ / ٥١٧ رقم: ٦٥٦٢ وصححه الحاكم في المستدرک ٢ / ٦٦٨ رقم: ٤٢١٩ من طريق طارق أيضا، ووافقه الذهبي، ورواه أيضا في ١ / ٦١ رقم: ٣٩ عن ربيعة بن عباد الديلي ووافقه الذهبي على تصحيحه، قال الهيثمي: رواه أحمد وابنه... وأحد أسانيد عبد الله بن أحمد رجاله ثقات، انظر مجمع الزوائد: ٦ / ٢٠.

٤٩- سبق تخريجه في الهامش (٣٨).

بالاعتناء به وبرأيه أهم عناصر المحاور الناجح، هذا لو كان الأمر تصنعاً فكيف إذا كان ذلك عن صدق وصبر وبحث عن الطريق للوصول لقلب المخاطب وعقله، لا إلى دغدغة عواطفه، بل والتضرع إلى الله بأن يهدي المدعو على يد الداعي... وهذا بعينه أسلوب واعتقاد النبي ﷺ وهو يدعو قومه.

لنستحضر جلسة حوارته مع عتبة بن ربيعة^(٥٠) وكيف استعمل عليه السلام هذا الأسلوب الرفيق وتأدب بهذا الأدب الكامل، فيخاطبه ويكنيه مشعراً إياه بالاهتمام بما يقول: «قل يا أبا الوليد أسمع!» حتى إذا انتهى وتأكد من انتهائه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟» ثم يورد هو عليه السلام ما يود أن يقول. ويختم بقوله له: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك!» مشعراً إياه بالحرية في اتخاذ قراره، ومحملاً إياه مسؤولية ذلك^(٥١).

ويتكرر هذا الأسلوب وهذا الأدب الجم مع سويد بن الصامت لما تصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به فدعاه إلى الله وإلى الإسلام فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له رسول الله ﷺ: وما الذي معك؟ قال: مجلة لقمان- يعني حكمة لقمان - فقال له رسول الله ﷺ: اعرضها علي! فعرضها عليه فقال له: إن هذا لكلام حسن! والذي معي أفضل من هذا؛ قرآن أنزله الله تعالى علي هو هدى ونورا! فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه وقال: إن هذا لقول حسن...»^(٥٢)

كما تكرر مع أبي الحيسر أنس بن رافع وأصحابه من بني عبد الأشهل حين قدموا مكة^(٥٣)

٥٠- سبق تخريج الحديث الهامش (٣٦)

٥١- قارن مع المنهج الحركي في السيرة النبوية لمنير الغضبان ج ١ / ١٠٨.

٥٢- سبق تخريج الحديث في الصفحة: ١١.

٥٣- السيرة لابن هشام ٣٦/٢، عن محمود بن لبيد بإسناده حسن، ورواه أحمد في المسند ٤٢٧/٥ والطبراني في الكبير ١/٢٧٦ رقم: ٨٠٥، ورواه الحاكم في المستدرک ٣/١٩٨ رقم: ٤٨٣ وقال: على شرط مسلم. وأعله الذهبي بالإرسال، وحسن الهيثمي إسناده في المجمع ٢/٣٦ أما ابن حجر فصحه في الإصابة ١/١٦٧.

نتائج:

إن هذا الخطاب التواصلية الجديد، الجديد في مرجعيته وفي قواعده الضابطة له، وفي أسلوب ممارسته، قد نجح على أكثر من صعيد، نجح في أن يميز نفسه عن الخطاب الجاهلي، كما نجح في عملية الإبلاغ والتواصل، وفي بلوغ النتائج المأمولة. وهذا النجاح لم يتحقق في مكة وحدها، بل في أطراف الجزيرة العربية وحتى خارجها في الحبشة، بفضل استغلال موسم الحج وأسواق العرب للاتصال بالقبائل والبحث عن المنعة عندها. وما يؤكد هذا النجاح تتبع قريش لحركات النبي عليه السلام بغرض تشويه دعوته، بل ومسابقتها إياه إلى القبائل لتحذيرها من فتى قريش... وهذه نماذج من النجاح:

١- كان النبي عليه السلام حكيما حين تخير سورة فصلت ليرد بها على عتبة بن ربيعة^(٥٤)، فقد كان لهذا الاختيار أثره البالغ على مندوب قريش حتى طلب من النبي عليه السلام أن يتوقف ناشدا إياه بحق الرحم، فانقلب من إنسان يريد إقناع خصمه إلى آخر يطلب من قريش أن تخلي بين محمد وما يريد^(٥٥) فقد هزم نفسيا^(٥٦).

٢- «عن ابن عباس أن ضمادا قدم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يركي من هذه الريح. فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدا مجنون. فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي! قال: فلقية فقال: يا محمد، إنني أركي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من يشاء فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا

٥٤- فقه السيرة للغزالي ص ١١٦، وانظر تحليلا لمحتوى السورة ومناسبتها للواقعة عند محمد الصادق عرجون في: محمد رسول الله ٢ / ١٩٩-٢١٠.

٥٥- في السيرة النبوية؛ قراءة لجوانب الخلد والحماية ص ٨٧، وانظر: محمد رسول الله ٢ / ٢١١-٢١٢.

٥٦- المنهج الحركي في السيرة النبوية ١ / ١٠٩.

عبده ورسوله. أما بعد. قال: فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء! فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات. قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر! قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام! قال: فبايعه. فقال رسول الله ﷺ: وعلى قومك؟ قال: وعلى قومي...^(٥٧)

- ٣- أسلمت غفار كلها على يد أبي ذر ثم أسلمت بإسلامها أختها قبيلة أسلم^(٥٨).
٤- أسلم جل الأنصار بفضل أسلوب النبي ﷺ، وسياسة مصعب بن عمير...^(٥٩)

القسم الثاني: القيم الاجتماعية

إن القيم الحضارية الجديدة المتميزة في مجال الاتصال والإعلام، وهو مجال القول والتعبير عن الذات، تحتاج لأن تجسد في الواقع بما يقنع الناس وينفعهم، وهذا هو المستوى الثاني الذي سيعمل هذا الجزء من البحث على إبرازه وإظهار تميزه. وأكبر ما يجسد هذه القيم العملية هو قيمة العمل بحد ذاتها، فلولاها ما ظهر ذلك النموذج المجتمعي الذي صاغه النبي ﷺ وبلور من خلاله بعض القيم الممكنة؛ لأن الحديث عن نسق كامل من القيم المجتمعية في الفترة المكية منوط بمدى إمكان التعبير عنها وبها، فالقيم البارزة هي تلك التي كان طرحها وممارستها يستهدف بيان خط التميز والمفاصلة، وتجلي بعضها في قيم شخصية مجردة، وما كان منها عمليا قد يصرف بطريقة فردية أو جماعية سلسلة لكنها لا تستفز أو تتصادم المجتمع الغالب.

٥٧- صحيح مسلم في كتاب الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة باب: ١٣ حديث: ٤٦ جزء: ٢/٥٩٣.
٥٨- صحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أبي ذر رقم: ٢٨ حديث: ١٣٢ جزء: ٤/١٩١٩-١٩٢٥ عن أبي ذر.

٥٩- جاء في حديث طويل لجابر... حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام... رواه أحمد ٣/٣٢٢، ٣٣٩، وابن حبان في الصحيح ١٧٢١٤ رقم: ٦٢٧٤، وصححه الحاكم في المستدرک ٦٨١٢ رقم: ٤٢٥١ ووافقه الذهبي، ورجال أحمد رجال الصحيح كما في مجمع الزوائد: ٥٤/٦. وانظر في الموضوع فقه السيرة للغزالي ١٥٥-١٥٦.

إن صاحب الرسالة، ﷺ رغم يقينه بأنه يسير وفق رعاية الله وكنفه، لم يساوره الشك في طريقه، وكلما مضى في طريق ولم يوفق فيه دخل طريقاً آخرًا وإن التخطيط الدقيق في سير حركة الرسول ﷺ يعد قمة في استنفاد كل جوانب التخطيط ثم يأتي التسديد من الوحي^(٦٠) ويمكن بلورة مجموع هذه القيم في محورين أحدهما يقصد إلى بناء داخلي للمجتمع المؤمن، والثاني يظهر للخارج ويخاطب الغير بهذا الخطاب المتحضر حتى يلفت انتباهه ويؤثر فيه.

المحور الأول: القيم البانية للمجتمع

يمكن إدراج هذه القيم مجتمعة تحت عنوان: الاهتمام بالترابط الاجتماعي وبناء مجتمع متماسك متضامن يواجه ضغوط محيطه فيبني لنفسه قيما تحميه، ويتداعى بعضه لبعض بالسهر والحمى؛ إذ العهد المكّي كان عهد قلة ونضال مع أغلبية باغية قوية، وهذا يقضي على الأقلية بالتضامن والتفاني^(٦١). لكن الضغط الخارجي ليس هو المنتج لهذه المبادئ بل إنما جاءت هذه القيم لمعالجة واقع الناس وتوجيهه والتأثير فيه لا أنها تتأثر به. واللافت للنظر أن أبرز القيم التي سيتناولها هذا البحث تلبّي طموحات الإنسان. وهذا يؤكد مرة أخرى أصالة المبادئ المكيّة وتأسيسها وخلودها.

أولا: المساواة

لا تبدو أهمية هذه القيمة إذا قورنت بما عليه المجتمع الجاهلي من ظلم وتمييز وطبقية فحسب، بل تبقى قيمة مطلقة يمتاز بها التشريع الإلهي عن المبادئ الوضعية

٦٠- دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ص ١١٨ بتصرف، وانظر فقه السيرة للبوطي ص ٥٠ وقارن بمنهج

النبي ﷺ في الدعوة ص ١٥٣.

٦١- سيرة الرسول ﷺ؛ صورة مقتبسة من القرآن الكريم لمحمد عزة دروزة ١١١١.

مهما زعمت الاعتناء بالإنسان وتمتيعه بحقوقه؛ لأن فلسفة المساواة ومرجعيتها الدينية تجعل المعتقد بها محايدا كل الحياذ ومستشعرا المحاسبة والمتابعة مهما كانت الأحوال. وهذه نماذج ومشاهد:

١- التمثيل القبلي في المجتمع المكي المسلم:

من تجليات هذه القيمة في المجتمع المكي المسلم تحطيمه لقوانين الجاهلية مع قوة استحكامها واستحالة التخلص منها، فلا حسب ولا نسب ولا قبلية ولا لون ولا مال ولا شيء يقف أمام المبدأ، بل المسلم أخو المسلم ولا شيء بعد ذلك؛ فأبو بكر الصديق من تيم، وعثمان بن عفان من بني أمية، والزيبر بن العوام من بني أسد، ومصعب بن عمير من بني عبد الدار، وعلي بن أبي طالب من بني هاشم، وعمر بن الخطاب من بني عدي، وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة، وعثمان بن مظعون من بني جمح، وغير هذه القبائل والبطون...^(٦٢) وقد سرد موسى بن عقبة تسع عشرة قبيلة في المرحلة العلنية من الدعوة النبوية^(٦٣). وهذا نموذج يبين عن انفتاح مبادئ الإسلام أمام الجميع ونبذه القيم القبلية الجاهلية التي تزن الناس بالموازين الأرضية الزائغة، بل إن الإسلام انتشر في فروع قريش «بصورة متوازنة، دون أن يكون لإحدى عشائرها ثقل كبير في الدعوة الجديدة. وهذه الظاهرة مخالفة لطبيعة الحياة القبلية آنذاك»^(٦٤).

٢- التمثيل الجغرافي في المجتمع المكي المسلم:

بل استوعبت دعوة الإسلام قبائل أخرى بعيدة عن قريش، «فابن مسعود من هذيل، وعتبة بن غزوان من مازن، وعبد الله بن قيس من الأشعرين، وعمار بن ياسر من عنس من مذحج، وزيد بن حارثة من كلب، والطفيل بن عمرو من دوس،

٦٢- التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ١/ ٦١ والمنهج الحركي للسيرة النبوية ١/ ٢٤ بتصرف.

٦٣- المغازي ٧٤-٨١.

٦٤- السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٣٣.

وأبو ذر من غفار، وعمرو بن عبسة من سليم، وعامر بن ربيعة من عنز بن وائل،
وصهيب النمري من بني النمر بن قاسط»^(٦٥).

٣- التمثيل الاجتماعي في المجتمع المكي المسلم:

يفضي استقراء واقع المرحلة السرية إلى ترسخ قيمة المساواة بالدليل الملموس،
فإن واحدا وثلاثين من المسلمين هم من وجهاء قريش، وأربعة عشر هم من
مواليهم وحلفائهم، واثنى عشرة من النساء، وثلاثة من قبائل أخرى.^(٦٦)

٤- التمثيل العالمي في المجتمع المكي المسلم:

قد يصح الحديث عن هذه التمثيلية لكل الأجناس والألوان والأفكار العالمية
المعروفة يومئذ في هذا المجتمع النامي الصغير، فإن المستجيبين لهذه الدعوة
«كانوا يمثلون البشرية على اختلاف أجناسها وألوانها وأقطارها وأديانها، حيث
كان منهم الوثنيون والمشركون والصابئون والنصارى واليهود والمجوس وعبدة
الكواكب، وكان منهم الأشراف والصعاليك، والأغنياء والفقراء، والزعماء
والضعفاء، والأحرار والعييد، والنساء والرجال والشيوخ، والكهول والشباب،
وكان منهم الآسيوي والأفريقي والأوربي، والعربي والشامي، والمصري
والفارسي والعراقي والحبشي والرومي، والأبيض والأسود»^(٦٧).

نتيجة هذا المبدأ تجسدت في واقع الصحابة؛ فلولا الإسلام ما جلس أبو بكر
إلى جانب عتيقه بلال بن رباح في مجلس واحد من رسول الله ﷺ وما كان عمر
بن الخطاب ليعامل سعيد بن زيد بمثل ذلك وهو الذي كان قد أوثقه من قبل وعذبه
على إسلامه^(٦٨) لقد قلب الإسلام تلك المفاهيم في نفوسهم وأشربوا روح

٦٥- السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٣٣، وانظر دراسات في السيرة ٦٦- ٦٧.

٦٦- التاريخ الإسلامي، محمود شاكر ٦٢١- ٦٣.

٦٧- سيرة الرسول لمحمد عزة دروزة ١/ ١٢٦- ١٢٧، مع التحفظ على بعض ما أورده المؤلف - رحمه الله
وقائع ثابتة.

٦٨- صحيح البخاري في كتاب الإكراه باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر باب ١ رقم: ٦٩٤١
جزء: ٨ / ٧٠.

المساواة.

أما المفهوم الجاهلي فيسجله سعد بن أبي وقاص إذ قال «كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي عليه السلام: اطرده هؤلاء لا يجترئون علينا! قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الأنعام: ٥٢)»^(٦٩). ويجسد هذا المبدأ أيضا قصة عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، وهو من ذوي الاحتياجات الخاصة الذي اهتم به الوحي من فوق سبع سموات.^(٧٠)

ثانياً: العدل

العدل قيمة مطلقة يلتقي عندها كل الناس، لكن العبرة بمدى التزامهم بها، وهذا يختلف باختلاف المرجعية مرة أخرى... وبالرجوع لموقف الإسلام من هذه القيمة العظيمة في فترة التأسيس المكية يكفي التأمل والمقارنة بين موقفين، موقف إسلامي وموقف جاهلي:

الموقف الإسلامي قول النبي ﷺ «شهدت غلاما مع عمومتي حلف المطيبين، فما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكته».^(٧١)

أما الموقف الجاهلي فيحكى خباب بن الأرت قال: «كنت قينا في الجاهلية، وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ. فقلت: لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث. قال: دعني حتى أموت وأبعث فسأوتني

٦٩- صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبي وقاص باب: ٥ حديث: ٤٦ جزء: ١٨٧٨ / ٤.

٧٠- سنن الترمذي في تفسير القرآن باب سورة عبس باب: ٧٢ حديث: ٣٣٣١ - ٤٠٢ / ٥ عن عائشة بإسناد رجاله ثقات وقال: غريب، وابن حبان في الصحيح: ٢ / ٢٩٣ رقم: ٥٣٥ والحاكم في المستدرک ٢ / ٥٥٨ رقم: ٣٨٩٦ عن عائشة وقال: صحيح على شرطهما، وذكر إرسال جماعة له، وصوب ابن عبد البر إرساله في التمهيد: ٢٢ / ٣٢٤ والذهبي كذلك.

٧١- مسند أحمد ١ / ١٩٣ عن عبد الرحمن بن عوف، وصحح الحاكم إسناده في المستدرک ٢ / ٢٣٩ رقم: ٢٨٧٠ ووافقه الذهبي.

مالا وولدا فأقضيك...» (٧٢)

فالملاحظ في الموقف النبوي أنه ﷺ تشبث بحلف حضر إبراهيم قبل أن يفارق مجتمعه ويدعوه للدين الذي أوحى به إليه. وكان مما قد يستساغ في حقه ويُتفهَم موقفه فيه أن يرفض الالتزام بعقود الجاهلية. غير أنه لم يفعل؛ لأن «العدل قيمة مطلقة وليست نسبية، وأن الرسول ﷺ يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين، فالقيم الايجابية تستحق الإشادة بها حتى لو صدرت من أهل الجاهلية (٧٣) كيف لا يكون محمد صلى الله عليه وسلم بهذه المثابة وهو الذي تعرفه قريش كلها بأنه الأمين، وتكفي قصة وضعه للحجر الأسود في موضعه إشارة وتمهيدا إلى أن الأمانة والعدالة به ستلقي بجرانها في الأرض إلى قيام الساعة» (٧٤)

والملاحظ في الموقف الجاهلي أن العاصي بن وائل، وهو سيد من سادات قريش المسموعي الكلمة، هذا السيد رفض أداء أجر هذا القين المستضعف. وهكذا نقضت قريش حلفها ولم تنصر هذا المظلوم بعد أقل من عقدين من إبراهيم (٧٥). بل مارست الظلم هي أيضا في حق أمثال خباب من المستضعفين وغيرهم من المسلمين، وهل كانوا حين تقاسموا على الكفر في خيف بني كنانة على مقاطعة المسلمين اقتصاديا واجتماعيا إلا ظلمة ملحدين في البلد الأمين؟ (٧٦)

﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدِقُهُ مِنْ عَذَابِ الْإِيمِ ﴾ (الحج ٢٥).

٧٢- صحيح البخاري كتاب البيوع باب ذكر القين والحداد باب: ٢٩ رقم: ٢٠٩١ جزء: ٣/ ١٨ ومسلم في صفات المنافقين باب سؤال اليهود النبي عن الروح باب: ٤ حديث: ٣٥ جزء: ٤/ ٢١٥٣ عن خباب.
٧٣- السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١١٢. وانظر: رؤية معاصرة لمواقف من السيرة لمحمد بن عبد الله الشيباني ٤٧- ٤٨.

٧٤- حادثة النبوة وأثرها على المجتمع المكّي خاصة وعلى سائر المجتمعات بوجه العموم، ضمن الندوة العلمية الكبرى: مكة عاصمة الثقافة الإسلامية للدكتور الحسين أيت سعيد المحور الأول ج ٢/ ٢٧٥.

٧٥- انظر السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٥٧، دراسات في السيرة ٧١.
٧٦- صحيح البخاري في الحج باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم مكة رقم: ٤٥ حديث: ١٥٨٩ جزء: ٢/ ١٩٢ ومسلم في الحج باب استحباب النزول بالمحصب يوم النفر والصلاة به باب ٥٩ حديث: ٣٤٣ جزء: ٢/ ٩٥٢ عن أبي هريرة.

ثالث: الإحسان

لا يختلف اثنان أن الإحسان من أرقى القيم الإنسانية؛ لأن التعامل به لا يستحضر منطلق الحق والواجب وحساب الأرقام، وإنما يتجاوز مستوى القيام بالواجب ليتنازل عن الحق... وقد لا يختلف اثنان أيضا أن المتشبعين بهذه القيمة ينطلقون في الغالب - من منطلق ديني يستحضر الخلفية الإيمانية والهدف الأخروي. وما يدل على هذه المسلمة في صدر الإسلام أن أبا بكر الصديق كان يعتق المستضعفين من الرقيق المسلم فقال له أبوه، أبو قحافة: أراك تعتق رقابا ضعافا! فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجلا جلدا يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر: يا أبت إنني إنما أريد ما أريد لما نزلت هذه الآيات ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴿١﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٢﴾ ﴾ (الليله) (٧٧). وهذا يدل مرة أخرى على الاختلاف الجذري الذي أحدثه الإسلام في نفوس الناس وعلى التباعد والتباين بين القيم الجاهلية والإسلامية.

ومن بين أبرز مظاهر قيمة الإحسان في الفترة المكية وتجلياتها إنفاق المال في سبيل الله، «فمما يلفت النظر أن الآيات التي تنوه بالمؤمنين الأغنياء وإنفاقهم أكثر من التي تتضمن الإشارة إلى الفقراء منهم. والراجح أن هذا يستهدف التنويه بالعمل الذي هو عادة مما يصعب على النفوس من جهة، وتعظم قيمته في ظروف مثل ظروف العهد المكي وما كان فيه من كثرة الفقراء والمحتاجين بين المسلمين الذين تقتضي تلك الظروف الاهتمام لأمرهم والبر بهم من جهة أخرى» (٧٨).

وتزداد أهمية هذا المبدأ عندما نعرف أن المجتمع القرشي ينكره وهو الذي طغت

٧٧- المستدرك ٢ / ٥٧٢ - ٥٧٣ حديث: ٣٩٤٢ عن الزبير بن العوام وقال: على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي. وإسناده حسن؛ لأن محمد بن عبد الله بن عتيق مقبول، وقد تابعه مصعب بن ثابت بن عامر في تفسير الطبري ٣٠ / ١٤٦، ومصعب مقبول في المتابعات. انظر السيرة النبوية الصحيحة ١٥٦١.

٧٨- سيرة النبي ﷺ لدروزة ١ / ٢٢١.

عليه قيم الاستكبار والطغيان والأنانية والتطيف في الكيل والميزان. من أجمع وأجمل الشواهد المعبرة عن قيمة الإحسان بفروعها قول خديجة رضي الله عنها في حق رسول الله ﷺ بعد أن خبرته فأقسمت بالله أنه لن يخزيه مؤكدة ذلك بلفظ التأييد: «كلا والله لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.»^(٧٩)

وتكرر ورود هذه المكارم في الأحاديث المكية الثابتة، منفردة أو مجتمعة، ومنها ما ورد في خطبة جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي،^(٨٠) وما ذكره عمرو بن عبسة السلمي،^(٨١) ومنها قول النبي عليه السلام لأقاربه: سلوني من مالي ما شئتم^(٨٢)، وقول أسماء بنت عميس لعمر بن الخطاب: «كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم. وكنا في دار- أو في أرض- البعداء البغضاء بالحبشة...»^(٨٣) وتكفي مقولة خديجة: «تعين على نوائب الحق» كلمة جامعة لأفراد ما تقدم من أصول المكارم وما لم يتقدم....^(٨٤) فقد قال العلماء: «إنما كان ما ذكرته أصول المكارم؛ لأن الإحسان إما إلى الأقارب، كما في صلة الرحم وما يتفرع عنها من التعاطف والتراحم، أو إلى الأجانب، وذلك فيما عدا صلة الرحم وفروعها من صدق الحديث وأداء الأمانة وكسب المعدوم لمن يحتاج إلى المعونة من الضعفة، وإما على من يستقل بأمره كما في مكرمة الإعانة على نوائب الحق،

-
- ٧٩- صحيح البخاري كتاب التعبير باب وأول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة رقم: ١ حديث: ٦٩٨٢ جزء: ٨ / ٨٦ ومسلم في كتاب الإيمان باب بدء الوحي باب: ٧٣ حديث: ٢٥٢ جزء: ١ / ١٣٩ وفيه خصلة: «وتكسب المعدوم» عن عائشة.
- ٨٠- سبق تخريج الحديث في الهامش (٤٣).
- ٨١- صحيح مسلم في صلاة المسافرين وقصرها باب إسلام عمرو بن عبسة رقم: ٥٢ حديث: ٢٩٤ جزء: ١ / ٥٦٩ عن عمرو بن عبسة.
- ٨٢- صحيح البخاري في المناقب باب من انتسب إلى آباءه في الإسلام والجاهلية باب ١٣ حديث: ٣٥٢٧ جزء: ٤ / ١٩٤-١٩٥ ومسلم في كتاب الإيمان باب وانذر عشيرتك الأقربين باب رقم: ٨٩ حديث: ٣٥٠ جزء: ١ / ١٩٢ عن عائشة واللفظ له.
- ٨٣- صحيح البخاري في المغازي باب غزوة خيبر ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل جعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس باب: ٤١ حديث: ١٦٩ جزء: ٤ / ١٩٤٦ عن أبي موسى الأشعري.
- ٨٤- فتح الباري ١ / ٢٥.

أو من لا يستقل بأمره كما في حمل الكل عن الضعيف الذي لا يقوم بأمر نفسه»^(٨٥) وليس غريبا أن يشهد سيد القارة، ابن الدغنة، لصديق هذه الأمة أبي بكر بهذه المكارم المجسدة لقيم الإحسان، وذلك لما لقيه مهاجرا من مكة للسياحة في الأرض وعبادة الله فقال له «... إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج؛ إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق...»^(٨٦) فهو نموذج لتمثل هذه القيمة في هذه المرحلة العصيبة على المسلمين؛ لقد اعتق- ممن كان يعذب في الله- سبعة: عامر بن فهيرة، وبلالا، وزنيرة، وأم عبيس، والنهدية وأختها، وجارية بني عمرو بن مؤمل^(٨٧) واحتمل أيضا ماله كله يوم هجرته ولم يترك لأهله شيئا، وكان خمسة آلاف أو ستة آلاف^(٨٨).

وهكذا تكون قيم التضامن والترابط الاجتماعي في هذه المرحلة قد شرعت ومورست وأتت ثمارها في الأنفس وفي الواقع. وكيف يمكن تصور صمود المسلمين المحاصرين في شعبهم لثلاث سنوات لو لم يتضامنوا ويأخذوا بسنة الأشعرين التي أقرها المصطفى ﷺ وأثنى عليها^(٨٩)

٨٥- محمد رسول الله لمحمد الصادق عرجون ١ / ٣٣١.

٨٦- صحيح البخاري كتاب الكفالة باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده باب: ٤ حديث: ٢٢٩٧ جزء: ٣ / ٨٠ وفي كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة باب: ٤٥ حديث: ٣٩٠٥ جزء: ٤ / ٣٠-٣٠٧ عن عائشة.

٨٧- مصنف ابن أبي شيبة ٦ / ٣٤٩ رقم: ٣١٩٣٩ بإسناد صحيح إلى عروة، غير أنه مرسل، والطبراني في الكبير ١ / ٣٣٦-٣٣٧ رقم: ١٠٠٨ من طريق ابن أبي شيبة، قال في مجمع الزوائد: ٩ / ٥٠: رجاله إلى عروة رجال الصحيح، وانفرد الحاكم بوصله ورواه من طريق ابن أبي شيبة عن عائشة في المستدرک ٣ / ٣٢١ رقم: ٥٢٤١ وصححه ووافقه الذهبي. إلا أن قصة عتق بلال رواها البخاري في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باب مناقب بلال بن رباح باب ٢٣ حديث: ٣٧٥٤ جزء: ٤ / ٢٦١ عن جابر.

٨٨- مسند أحمد ٦ / ٣٥٠ عن أسماء، والطبراني في الكبير ٢٤ / ٨٨ رقم: ٢٣٥، والحاكم في المستدرک ٣ / ٦ رقم: ٤٢٦٧، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع كما في مجمع الزوائد ٦ / ٥٩ فالإسناد حسن.

٨٩- صحيح البخاري في كتاب الشركة باب الشركة في الطعام رقم: ١ حديث: ٢٤٨٦ جزء: ٣ / ١٥٠ ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل الأشعرين رقم: ٣٩ حديث: ١٦٧ جزء: ٤ / ١٩٤٤ عن أبي موسى.

نتائج:

إن هذه القيم الاجتماعية التي انبثقت من المجتمع المكي المسلم كانت لها غاية تحققت، وهي إظهار السلوك الإسلامي بالمظهر الأخلاقي الرفيع، ليتبين للناس أن مستوى الإنسانية الفاضل إنما هو في التبعية لهذا الدين.^(٩٠) وهذه القيم ذاتها كانت موضع تنويه من عرب الجاهلية، وأشعارهم مليئة بذلك، وأخبارهم عن حاتم الطائي وإحسانه، وعروة بن الورد ونصرته للمظلوم، معلومة معروفة عندهم، بل إن مبدأ الجوار- وهو شكل من أشكال نصرة المظلوم- كان معمولاً به عندهم، لكن تلك القيم كانت تتمثل في المجتمع الجاهلي على مستوى أفراد، كما لم تكن هناك حوافز حقيقية تنقل تلك القيم من مستوى التنويه إلى مستوى الممارسة، اللهم إلا إشادة قولية في بيت من الشعر، أو ذكر حسن يقال ثم ينتهي. بينما الأمر على خلاف ذلك تماماً في مجتمع الصحابة؛ إذ كانت تلك القيم تمارس على مستوى مجتمع، لا على مستوى أفراد فقط، فالعبد يمكن أن يجد سيده في المجتمع الجاهلي يعامله بإحسان، ولكنه لن يحلم بأن يعامله المجتمع كله بإحسان، بينما هو في مجتمع الصحابة يجد المعاملة بالإحسان على مستوى كافة شرائح المجتمع. والشيء نفسه يقال عن العدل وعن النصرة، ويسمع كيف أن النبي ﷺ يدين كل ممارسة تناقض ذلك. ولعل هذا هو الذي أكسب مجتمع الصحابة في مكة تلك الجاذبية الخاصة التي تجذب الناس إلى الإعجاب به ابتداءً، والانصهار فيه انتهاءً، مروراً بالاستماع إلى طروحاته ومبادئه والاعتناق بها.

أما الدعاوى التي تفسر إقدام المسلمين على هذه الدعوة الجديدة بالبحث عن المصالح المادية فهي متهافة؛ لأن أغلب المسلمين من أهل الطبقة الوسطى ممن

٩٠- الدعوة في عهدنا المكي ٥٢٢.

كانت لهم عشائر تحميمهم، كما سبق الذكر، أما المستضعفون فلم يجدوا في الدين إلا الهوان...»^(٩١) «وسواء أكانت هذه السمة الطبقيّة ناتجة عن تحرك الفقراء ضد الأغنياء كما يرى بعض الباحثين، أم من الأغنياء لكبت ما تحسسوا منه رائحة ثورة شاملة سيقوم بها الفقراء ضد مصالحهم ومراكزهم، كما ارتأى باحثون آخرون، فإن هذه الافتراضات التي ينقض بعضها بعضا تعود لكي تنتقض نهائيا بمجرد عرضها على الواقعة التاريخيّة نفسها إذا ما أردنا البحث الموضوعي الجاد، وإلا فإن التخمين والاستنتاج والإسقاط المعاصر على التاريخ دون روية وارتكاز على أبعاد الواقعة نفسها يقودنا ولا ريب إلى إسرائيليّات من نوع جديد تتدثر بدثار العلم والموضوعية وما هي منها بشيء».^(٩٢)

المحور الثاني: قيم الصراع مع الآخر

لعل من أهم ما نتعلمه من الفترة المكيّة هو المنهج الأمثل في التعامل مع الأزمات والأسلوب الأنفع في إدارة الصراع. وهذا إنما تتيحه هذه المرحلة بحكم طبيعة المواجهة فيها بين قيم الحق وقيم الباطل. وهنا تتميز هذه الفترة مرة أخرى في التأسيس والتأصيل...

لقد كان رسول الله ﷺ شخصا، وكان صحابته كذلك، في أتون حرب نفسية واجتماعية واقتصادية وإعلامية لخصها عليه السلام - في جانبه - بقوله: «لقد أُخِفت في الله عز وجل وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد، ولقد أتت علي ثلاث من بين يوم وليلة وما لي ولا لبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»^(٩٣).

٩١- دراسات في السيرة ٨١، محمد رسول الله ٢ / ٥-٦، التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ١ / ٦٢ بتصرف.
٩٢- دراسات في السيرة ٨٨ وانظر التاريخ الإسلامي ١ / ٦٣-٦٤.
٩٣- مسند أحمد ٣ / ١٢٠، ٢٨٦ عن أنس والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع باب ٣٤ رقم: ٢٤٧٢ جزء: ٤ / ٥٥٦ عن أنس وقال: حسن غريب، وعزأله في تحفة الأشراف ١٢٣١ أنه قال: حسن صحيح، وصححه ابن حبان في الصحيح: ١٤ / ١٥٥ رقم: ٦٥٦٠ كما رواه أبو يعلى في المسند: ٣ / ٢١٥ رقم: ٣٤١٠، طبعة دار الكتب العلميّة.

وفي قوله عليه السلام لعائشة: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلنتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك...»^(٩٤)

ولهذا يحكي جابر بن عبد الله الأنصاري قول الأنصار...: «حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطرد في جبال مكة ويخاف...»^(٩٥)

أما فتنة الصحابة فالروايات بشأنها كثيرة، وقد لقوا من المشركين شدة كما قال خباب بن الأرت^(٩٦) ووصفتها أم سلمة قائلة: «لما ضاقت علينا مكة وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم...»^(٩٧) وأكد ذلك عدد من الصحابة أيضا...^(٩٨)

إن هذا الوضع المأزوم يحتاج إلى قيادة محنكة في التعامل، ويحتاج إلى حكمة في توجيه المؤمنين لنسج شبكة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية مع ذلك المجتمع الظالم، يداخلونه بها ويعاملونه فيما لا مناص لهم منه، مما يحقق لهم هدفهم الدعوي في الوقت الذي هم منفصلون عنه في كيانهم وشعورهم؛ لا

٩٤- صحيح البخاري في بدء الخلق باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء... باب: ٧- حديث: ٣٢٣١ جزء: ٤/ ٩٩، ومسلم في كتاب الجهاد والسير باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين باب ٣٩ حديث: ١١١ جزء: ٣/ ١٤٢٠ عن عائشة.

٩٥- سبق تخريج الحديث في الصفحة: ١٠، وهو جزء من الحديث المذكور فيه قول المشركين: «احذر غلام قریش».

٩٦- صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة رقم: ٢٩ حديث: ٣٨٥٢- جزء: ٤/ ٢٨٨.

٩٧- السيرة لابن إسحاق ١٩٤، وهو عند ابن هشام ١/ ٣٣٤ (بتحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي) بإسناد حسن، انظر السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٧٠.

٩٨- كسعيد بن زيد عند البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب إسلام عمر رقم: ٣٥ حديث: ٣٨٦٧ جزء: ٤/ ٢٩٤، وحديث عائشة عند البخاري أيضا في كتاب المغازي باب غزوة الفتح رقم: ٥٤ حديث: ٤٣١٢ جزء: ٥/ ١١٥، وابن عمر عنده في كتاب التفسير باب: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله» رقم: ٦- حديث: ٤٦٥٠ جزء: ٥/ ٢٣٨.

يأكلون ذبائحهم التي لم يذكروا عليها اسم الله، ولا يسبون الذين يدعون من دون الله، ويصبرون على الأذى، ويواجهون السيئة بالحسنى، ويبينون عن قيمة السماحة والصبر والتقوى...

إن المقاومة السلبية التي ينسب الناس فضلها لزعيم الهند غاندي هي أقدم منه وأسحق في الزمان، ولنبي الإسلام قصب السبق في العمل بها عن دين وإيمان. ومع كل ذلك فإن نبي الرحمة، الداعي بالحكمة والموعظة الحسنة، التزم بالمنهج السليم لم يحد عنه في شيء. وقد تجلّى ذلك في أسلوبه الرزين في السماحة مع قومه، بل وفي انفتاحه عليهم ومعاملته إياهم فيما لا يمس عقيدته، وهو ما يمكن أن يفصل في صورتين:

الأولى: الصفح والسماحة

ومن الصور البارزة في تنزيل هذا المبدأ في السيرة النبوية:

١- رفض العنف والمواجهة المسلحة:

أ- عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابه «أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمننا صرنا أذلة! قال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم...»^(٩٩)

ب- في بيعة العقبة لما قال العباس بن نضلة: «...والذي بعثك بالحق إن شئت

٩٩- المجتبى للنسائي كتاب الجهاد باب وجوب الجهاد ٦/٣، وفي السنن الكبرى كتاب التفسير باب سورة النساء؛ قوله تعالى: ﴿لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ قَبِلْ لَهُمْ كَفْرًا أَيْدِيَكُمْ...﴾ رقم الآية: ٩٣ رقم الحديث: ١١١١٢ جزء: ٦ / ٣٢٥ والحاكم في المستدرک ٧٦ / ٢ رقم: ٢٣٧٧، ثم في: ٢ / ٣٣٦ رقم: ٣٢٠٠ وقال صحيح على شرط البخاري وأقره الذهبي، قال الدكتور أكرم ضياء العمري: الصحيح أنه على شرط مسلم فقط؛ لأن البخاري أخرج للحسين بن واقد تعليقا فقط: انظر السيرة النبوية الصحيحة ١ / ١٥٨. ومن هذا أيضا قوله عليه السلام لياسر: اصبر. رواه احمد في المسند ١ / ٦٢ عن عثمان بإسناد رجاله رجال الصحيح كما في مجمع الزوائد ٢٩٣٩ والطبراني في الأوسط ٢ / ٣٠٥ رقم: ١٥٣١ بإسناد رجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن عبد العزيز المقوم وهو ثقة كما في المجمع أيضا ٩ / ٢٩٣. لكن رواه الحاكم في المستدرک ٣ / ٤٣٨ رقم: ٥٦٦٦ وقال على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

لنميلن على أهل منى غدا بأسيا فإنا! قال له رسول الله ﷺ: لم نؤمر بذلك،
ولكن ارجعوا إلى رحالكم...»^(١٠٠)

وقد تجلّى هذا التوجيه في سلوك الصحابة فعلا، فواجهوا طغيان قريش بالعفو
والصفح، ومن ذلك:

أ- عن خباب بن الأرت أنه « كان يعمل حدادا، فعمل للعاص بن وائل سيفا،
فاجتمع له عنده مال، فذهب يتقاضاه، فقال العاص: لا أقضيك حتى تكفر
بمحمد... الحديث. »^(١٠١)

ب- عن عروة بن الزبير أن أبا بكر « مر بالنهديّة ومولاتها تعذبها؛ تقول: والله لا
أعتقك حتى تعتقك حياتك فقال أبو بكر: فَبِكِّم؟ قالت: بكذا وكذا، فقال: قد
أخذتها وأعتقتها، ثم قال للنهديّة: ردي عليها طحينها، قالت: دعني أطحنه
لها. »^(١٠٢)

وليتأمل المتأمل في هذا الموقف، وليعجب المتعجب من هذا التعامل، وليسبر هذه
النفس المطمئنة بالإيمان الطافحة بالقيم حتى الثمالة، أي رد هذا وأي عدل وأي
إحسان، بل أي إسفاق من هذه المسكينّة التي يرشح قلبها إيمانا على تلك
المريضة المضطرم قلبها حنقا وطغيانا....

٢- فتح باب التوبة والرحمة

وهذا مستوى أعلى وأعمق تفرد به نبي الرحمة، لا يقف عند مستوى الصبر

١٠٠- سيرة ابن هشام ١/ ٤٣٩-٤٤٣، بإسناد حسن، ومسنّد أحمد ٣/ ٤٦٠-٤٦٢ عن كعب بن مالك، كما
رواه الطبراني في الكبير ١٩/ ٨٧-٩١ رقم: ١٧٤، وصححه ابن حبان في صحيحه: ١/ ١١٢، انظر الفتح
٧/ ٢٢١. قال الهيثمي في حق رواية أحمد: إسناده حسن، ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد
صرح بالتحديث، انظر مجمع الزوائد: ٦/ ٤٥.

١٠١- صحيح البخاري في كتاب الإجارة باب هل يؤجر الرجل نفسه من مشرك في أرض الحرب رقم: ١٥٠١
حديث: ٢٢٧٥ جزء: ٣/ ٧١. ومسلم في كتاب صفات المنافقين باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح
باب: ٤ حديث: ٣٥ جزء: ٤/ ٢١٥٣.

١٠٢- السيرة لابن إسحاق ١٧٠ عن عروة مرسلًا، وذكره ابن سعد في الطبقات ٨/ ٢٥٥ دون سند. قال
الدكتور العمري: «الغالب أن أخبار أبي بكر إنما أخذها عروة عن عائشة»، السيرة النبوية الصحيحة
١/ ١٥٥.

على الأذى وتحمل عدوان العادي، وإنما يتمنى له من أعماقه أن يهتدي لسلوك السبيل التي هي أقوم، ويدعو الله أن يشرح صدره للحق وأن يخرج من صلبه ذرية مؤمنة، وهذا ما تثبته الشواهد الآتية:

أ- عن عائشة أنها سألت النبي ﷺ: «هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم! فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد... إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»^(١٠٣)

ب- عن ابن مسعود أن أبا سفيان أتى إلى رسول الله ﷺ- لما أصابهم القحط- فقال: «إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم»^(١٠٤)

الثانية: المعاملة والمداخلة:

من سماحة الإسلام أنه لم يضع حاجزا بين المسلمين وغيرهم، بل هو جاء ليزيل هذه الحواجز. ولم يكن بإمكان المسلمين أن يبلغوا دعوتهم ولا أن يظهروا

١٠٣- سبق تخريجه في الهامش (٩٤).

١٠٤- صحيح البخاري في كتاب التفسير باب سورة حم الدخان رقم: ٢: حديث: ٤٨٢١ جزء: ٦/ ٤٦ وكتاب الاستسقاء باب إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط باب: ١٣: حديث: ١٠٢٠ جزء: ٢/ ٢٤ ومسلم في كتاب صفات المنافقين باب الدخان رقم: ٧: حديث: ٢٧٩٨ جزء: ٤/ ٢١٥٥ واللفظ له. وفي لفظ البخاري في التفسير: «... فاستسقى فسُقوا...»

قيمهم للناس لو انعزلوا وهجروا المجتمع . وقد تجلّى هذا المبدأ كذلك منذ الفترة
المكية على مستويات عدة من المعاملة منها ما هو في المجال المدني من عقد العقود،
ومنها ما هو اجتماعي والتزام للسلوك المطلوب، ومنها ما هو سياسي، ومنها ما
هو أخطر من ذلك عندما يتعلق الأمر بمعاملة الأرحام والأقارب...

أ- عن عائشة رضي الله عنها (في حديث الهجرة الطويل) أن النبي ﷺ وأبا بكر
استأجرا «رجلا من بني الدليل، ثم من بني عبد بن عدي، هاديا خريتنا... قد
غمس يمين حلف في آل العاص بن وائل، وهو على دين كفار قريش، فأمناه
فدفعنا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال فأتاه براحلتيهما صبيحة
ليال ثلاث...»^(١٠٥) ففي ذلك جواز استعمال الكفار في الأعمال التي لا يوجد
من يقوم بها من المسلمين، وائتمانهم على السر والمال إذا عهد منهم الوفاء
والمروءة^(١٠٦).

ب- ومن ذلك أيضا قصة خباب بن الأرت مع العاص بن وائل أيضا، فقد عمل له
سيفا واجتمع له عنده مال فذهب إليه يتقاضاه...^(١٠٧)

ج- وعن أبي موسى الأشعري وذكر حديث هجرته إلى الحبشة- أن جعفر بن أبي
طالب قال له «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا هاهنا وأمرنا بالإقامة
فأقيموا معنا...»^(١٠٨) فهذا إذن وأمر بالدخول في علاقة جوار وحماية غير
مسلمين. ولعل هذا لا يحتاج إلى مزيد استدلال إذا علمنا أن النبي عليه
السلام ظل في حماية عمه المشرك أبي طالب حتى مات، ثم انطلق يطلب

١٠٥- صحيح البخاري كتاب الإجارة باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل
الإسلام... رقم: ٣-حديث: ٢٢٦٣ جزء: ٣/ ٦٦.

١٠٦- أحكام أهل الذمة لابن القيم ١/ ٢٧٥ ، وعمدة القاري ١٢/ ٨٢.

١٠٧- سبق تخريج الحديث في الهامش (٧٢)

١٠٨ - صحيح البخاري في كتاب الخمس باب من الدليل على أن الخمس لنواب المسلمين رقم: ١٥ حديث:
٣١٣٦ جزء: ٤/ ٦٦، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة باب فضل جعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس
وأهل سفينتهم عن أبي موسى باب: ٤١ حديث: ١٦٩ ٤/ ١٩٤٦.

حماية القبائل المختلفة حتى يبلغ رسالة ربه...

أما احترام علاقات القرابة والرحم مع الكفار كالأمهات والآباء فقد نزل بذلك الوحي قديما يرسم خطا فاصلا بين العلاقات الإنسانية الطبيعية وبين المعتقدات الإيمانية التي لا تقبل المساومة. وثبتت ذلك سنن مكية خالصة^(١٠٩).

المرأة والمشاركة في صناعة القيم

هذا وقد يكون من تمام تجلية القيم الحضارية في السنن المكية، بمختلف محاورها، إبراز موقف هذه السنن من المرأة وبيان المكانة التي بوأتها إياها، وكيف أن هذه المرأة، مثلها مثل الرجل، سرعان ما انسلخت من القيم البالية وتمثلت المبادئ الجديدة ونفذتها في واقع حياتها، بل وشاركت الفئة المؤمنة من الرجال في تجلية هذه القيم والتبشير بها.

لقد كانت النساء في فترة ما من فترات الدعوة السرية في مكة يشكلن نحو ربع المسلمين^(١١٠)، وكان معظم الذين أسلموا قد أسلمت معهم أزواجهم، كما أن معظم المهاجرين إلى الحبشة ذكر أن معهم نساءهم^(١١١). وقد سبقت بعض الإشارات إلى ما تحمله النساء المستضعفات من التنكيل، ومنها قول سعيد بن زيد: «لو رأيتني موثقي عمر على الإسلام أنا وأختي وما أسلم»^(١١٢). وكان هذا من أسباب الهجرة إلى الحبشة كما تذكر أم سلمة في قولها: «لما ضاقت علينا مكة وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم...»^(١١٣) ولعل قصة هذه المؤمنة أم المؤمنين أم سلمة- في هجرتها هذه إلى

١٠٩- كقصة سعد بن أبي وقاص مع أمه في صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل سعد بن أبي وقاص، باب: ٥: حديث: ٤٣ جزء: ٤ / ١٨٧٧. وقصة عياش بن أبي ربيعة في سيرة ابن هشام ٢ / ٨٤ وعند البزار في مسنده ١ / ٢٥٨ رقم: ١٥٥ وقال: لا نعلم رواه إلا عمر، ولا نعلم روي عن عمر متصلا إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد، وهذا الإسناد رجاله ثقات كما في مجمع الزوائد ٦ / ٦١.

١١٠- التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ١ / ٦٢، المنهج الحركي ١ / ٢٧.

١١١- السيرة لابن هشام ١ / ٣٤٤، فتح الباري ٧ / ٨٩، المنهج الحركي ١ / ١٢١.

١١٢- سبق تخريج الحديث في الصفحة: ١٩.

١١٣- سبق تخريجه في الهامش (٩٧).

الحبشة ورجوعها ثم في معاناتها العديدة النظير عند هجرتها إلى المدينة ومنع المشركين إياها مع ما قارن ذلك من فراقها لزوجها وابنها مثالا للصبر والثبات والتحدي^(١١٤). وقد يكفي أيضا أن يذكر تاريخ الإسلام باعتزاز «أن أول خلق الله إسلاما امرأة، وأن أول شهيدة في الإسلام امرأة، فلم تكن المرأة إذن- بعيدة عن الساحة، بل تلقت بصبر وبطولة آلام العذاب في سبيل الله، حتى الجواري والإماء»^(١١٥). والنماذج في هذه المعاناة عديدة لكن نكتفي بنموذج المؤمنة الأولى أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، ولنلاحظ كيف تمثلت فيها أهم القيم، فقد آزرت زوجها في «أحرج الأوقات... وشاركته معالم الجهاد المر، وواسته بنفسها ومالها. وإنك لتحس قدر هذه النعمة عندما تعلم أن من زوجات الأنبياء من خن الرسالة وكفرن برجالهن...بقيت ربع قرن معه تحترم قبل الرسالة تأمله وعزلته وشمائله، وتحمل بعد الرسالة كيد الخصوم وآلام الحصار ومتاعب الدعوة»^(١١٦). وهذا الكدح من مسلمات مكة المتكرر في الهجرة وبعدها يبين «المدى الواسع الذي أفسحه الإسلام للمرأة والمكانة العالية التي رفعها إليها، والمسؤوليات الجسيمة التي حملها إياها، بعدما كانت تعانيه من ضيق واحتقار في عهود الجاهلية»^(١١٧).

-
- ١١٤- سيرة ابن هشام ٧٧ / ٢ من رواية ابن إسحاق بإسناد صالح للاعتبار كما ذكر الدكتور أكرم ضياء العمري لا سيما وأنها لا تتعلق بعقيدة أو شريعة، انظر السيرة النبوية الصحيحة ١ / ٢٠٤ كما حسنها الدكتور سليمان العودة في السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق ٣٥٨.
- ١١٥- المنهج الحركي ١ / ١٢١-١٢٢.
- ١١٦- فقه السيرة للغزالي، وانظر: محمد رسول الله لمحمد صادق عرجون ٢ / ٣٠٦-٣١٢.
- ١١٧- دراسات في السيرة ٦٧.

نتائج

إن أسلوب ضبط النفس والمواجهة السلمية كانا يهدفان إلى أن يتمكن كل فرد «من قراءة حساب دقيق، ليس لنفسه كفرد ولا لبعض إخوانه فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى التقدير الجيد المفضي بهم إلى الخروج من ذواتهم إلى الدوران مع مصلحة دعوتهم ومشروعهم الحضاري»^(١١٨).

إن هذه المقاومة السلبية -وإن كانت تبدو في الظاهر استضعافا وامتهانا- غير أن أسلوبها الحضاري في التعبير أكبر طريق للتأثير في الغير وجعله في صراع داخلي قد يفضي به إلى الرضوخ للحق. كما أن هذه القيم أعطت أكثر مما يمكن أن يعطيه العنف لو كان السبيل المختار، فإنه كان سيستأصل أكثر الطرفين في حرم الله الأمن! أما الأسلوب السلمي فقد قلل من الخسائر المادية إلى حد كبير جدا «ولم يستشهد إلا قليل من المستضعفين، وهما ياسر وسمية، وأمكن المحافظة على النواة الصلبة للدعوة إلى حين الهجرة»^(١١٩).

١١٨- منهج النبي صلى الله عليه وسلم في حماية الدعوة للطيب برغوث ص ٣٧١، نقلا عن: منهج النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة لمحمد أمحزون ص ١١٨.
١١٩- التشريعات المكية وأثرها في نفوس معتنقيها للدكتور أكرم ضياء العمري، ضمن ندوة: مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦، المحور الأول الجزء الأول ١١.

خاتمة

منذ البدء ومنذ الكلمة الأولى والخطوة الأولى توالى العقبات والتحديات أمام حامل رسالة القيم وأمام حملة قناديل الإيمان، من أقرب الأقارب فقريش فالطائف... وكانت المعاناة وكانت النوائب والعوائق... لكن كان التوجه والمواجهة بأسلوب التحمل والصفح وإدارة الأزمة بالتي هي أحسن، حتى لا توفر فرصة لإجهاض المشروع للعدو... ثم تحول الانتباه إلى البحث عن آفاق أرحب وعن بدائل تخرج بالمشروع من عنق الزجاجة إلى الفضاء الواسع... فتحققت الهجرة المؤقتة ثم الدائمة...

في هذا الأتون تصهر الشخصيات وتبلور الإرادات وتنضج الأفكار وتعد القيادات، وفي ثنانيا ذلك كله زرع للقيم الحضارية التي ينتظر من هذا الجيل الفريد أن يرحم بها العالم من حوله. وللتعرف على النقلة البعيدة للإنسان من حضيض الجاهلية إلى سمو الحضارة «خذ مثلاً عمر بن الخطاب تجده في الجاهلية رجلاً قبلي الفكر والطبيعة والعاطفة والتصور، محدود الإدراك، همه في الحياة السكر واللهو والبطالة مع أصدقائه. ولولا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعاش عمر ومات عمر وما أحس به أحد، ولكنه ما إن يشرب كأس الإسلام من يد رسول الله ﷺ حتى يصبح عمر المشرع العبقري الفذ، ورجل الدولة العظيم، ورمز العدل الذي لا يكون إلا معه، مع الحزم والرحمة وسعة الأفق وصدق الإدراك...»^(١٢٠) «وانظر إلى تلك النساء اللاتي كاد أن يهلكهن الجزع على الحياة في جاهليتهن، ثم أهلكهن حب التضحية بها والترفع فوقها من بعد إسلامهن...»^(١٢١)

١٢٠- الرسول ﷺ لسعيد حوى ١/ ١٨٢.

١٢١- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ٨١.

ولعل الحديث عن القيم المتجسدة في المجتمع المسلم بعد استقلاله وتحضره في المرحلة المدنية هو في - كثير منه - ثمرة هذا البناء والصبر في المرحلة المكية. وقد تحقق على يد هذا الرعيل «حضارة باسقة الأغصان راسخة الجذور، انبسط سلطانها خلال عشرين عاما فقط على ثلاثة أرباع المعمور آنذاك، وكيف أصبحت المثل الأعلى في نشر القيم الإنسانية والمبادئ الأخلاقية والسمو الفكري والعمق العلمي والاتساع العمراني»^(١٢٣).

بعد هذه الجولة مع مسيرة ومسار التجربة النبوية في مكة المكرمة، هل يحق الاجتزاء ببعض الخلاصات والنتائج المحددة؟ لقد كان الإشكال المحرك لهذا البحث يتمثل في أن المرحلة المكية من الدعوة النبوية، لما كانت مرحلة ابتلاء واستضعاف، وبما أن المسلمين لم يتمكنوا فيها بعد من الاستقلال وبناء المجتمع والمؤسسات الخاصة بهم، بل كل همهم الحفاظ على أنفسهم وأمنهم ومعاشهم اليومي، فإن اعتناءهم بالأخذ بوسائل البناء الحضاري وبتث القيم الحضارية قد لا يتأتى!

غير أن هذا البحث بعد أن طرح هذه الفرضية للاختبار يستطيع أن يجزم ببعض النتائج:

١. أول ما ينبغي تسجيله هو أن قيما حضارية جديدة كبرى قد تأسست في المرحلة المكية، لا سيما في المجال الاجتماعي والإعلامي...
٢. إن القيم الحضارية المكية قيم أصيلة، وقيم مؤسسة وقيم خالدة لا تقبل النسخ...
٣. إن هذه القيم تجاوزت مستوى التأسيس النظري والافتناع الفكري لتبلغ مستوى التجسيد في الواقع العملي بالرغم من الظروف المحيطة بالمسلمين.
٤. لقد أعيد تأسيس القيم على أسس جديدة ثابتة وقوية تعطيها المرجعية الدينية والبعد الأخلاقي والعمق الإنساني.
٥. إن المجتمع المسلم المكي اتسم بأغلب سمات المجتمع المستقل، من الفكر

العقدي والبناء الأخلاقي، والسلوك العملي، إلا فيما لا يسمح له به الظرف الخاص من انعدام الاستقلال وغياب أداة الحكم والسلطان.

٦. لقد تأصلت قيم جديدة في باب الخطاب والتواصل تقطع مع الأسلوب الجاهلي الذي يبطر الحق ويغمط الناس، وقدمت بدائل مثالية كالصدق والإنصاف وحب الخير للناس...

٧. بلور المجتمع المكي المسلم قيما اجتماعية نموذجية وعزيزة مع تنزيلها على واقع حياته في علاقاته الداخلية أو في علاقته مع الآخر، مثل المساواة والعدل والإحسان.

٨. كان أسلوب المقاومة السلمية، والصبر والتحمل من أجل التغيير- دون التفريط في المبادئ- من القيم الإضافية التي أبدعها المنهج النبوي والتي آتت أكلها كطريق للتأثير في الآخر.

وهكذا يمكن القول: إن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته أعطوا المثل الأعلى في التعامل الحضاري مع المخالف الباغي، ومع العدو الطاغوي.

٩. يوصي هذا البحث بإنجاز مشروع الحديث المكي على غرار «القرآن المكي»، ولعل مثل هذا الإنجاز يمكن من تعميق دراسة المرحلة في قضاياها وخصوصياتها. مع العلم أن هذا العمل لن يكون إلا جزئياً. كما يمكن أن ينجز إلى جانبه موسوعة «أسباب ورود الحديث».

لائحة المصادر والمراجع

١. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الطبعة الأولى ١٤١٢-١٩٩٢، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢. أحكام أهل الذمة لابن القيم، بتحقيق صبحي الصالح الطبعة الأولى ١٣٨١-١٩٦١ دار العلم للملايين.
٣. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، بتحقيق محمد علي البجاوي، طبع دار الجليل بيروت الطبعة ١ / ١٤١٢-١٩٩٢.
٤. أصول الفكر السياسي في القرآن المكي للدكتور التيجاني عبد القادر حامد، الطبعة الأولى المعهد العالمي للفكر الإسلامي واشنطن ١٤١٦-١٩٩٥.
٥. أصول النظام الاجتماعي لمحمد الطاهر بن عاشور، نشر الشركة التونسية للتوزيع.
٦. التاريخ الإسلامي محمود شاکر (قسم السيرة)، الطبعة السابعة ١٤١١-١٩٩١ طبع المكتب الإسلامي، بيروت دمشق- عمان.
٧. تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف للمزني، بتصحيح وتعليق عبد الصمد شرف الدين.
٨. تفسير ابن كثير طبع دار المعرفة بيروت ١٤٠٢-١٩٨٢.
٩. تفسير الطبري، طبع دار المعرفة بيروت الطبعة ٣ / ١٣٩٨-١٩٧٨.
١٠. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر، تحقيق جماعي، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب.
١١. تهذيب التهذيب لابن حجر، الطبعة الأولى، دائرة المعارف النظامية بحيدرآباد، الهند ١٣٢٥.
١٢. الثقات لابن حبان، طبعة دائرة المعارف النظامية بحيدرآباد، الهند ١٣٩٨-١٩٧٨.
١٣. دراسات في السيرة لعماد الدين خليل، الطبعة الأولى دار النفائس ١٤١٨-١٩٩٧.
١٤. دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة لعبد الرحمن الشجاع، الطبعة

- الأولى ١٤١٩-١٩٩٩ طبع دار الفكر المعاصر صنعاء.
١٥. الدعوة الإسلامية في عهدنا المكي؛ مناهجها وغاياتها للدكتور رؤوف شلبي الطبعة الثالثة ١٤٠٢-١٩٨٢ دار القلم الكويت.
١٦. دلائل النبوة للبيهقي، تحقيق عبد المعطي قلعجي، الطبعة الأولى ١٤٠٥-١٩٨٥، دار الكتب العلمية بيروت.
١٧. رؤية معاصرة لمواقف من السيرة لمحمد بن عبد الله الشيباني، الطبعة الأولى دار عالم الكتب الرياض ١٤١٢-١٩٩٢.
١٨. الرسول صلى الله عليه وسلم لسعيد حوى، الطبعة الرابعة ١٣٩٩-١٩٧٩ دار الكتب العلمية بيروت.
١٩. روح الحضارة الإسلامية لمحمد الفاضل بن عاشور، ضبطه عمر عبيد حسنة الطبعة الثانية ١٤١٣-١٩٩٢.
٢٠. سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد نشر دار الفكر.
٢١. سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي بيروت.
٢٢. سنن الترمذي، تحقيق كمال يوسف الحوت طبع دار الفكر ١٤٠٨-١٩٨٨.
٢٣. السنن الكبرى للنسائي، بتحقيق عبد الغفار البنداري وسيد كسروي حسن، الطبعة الأولى ١٤١١-١٩٩١ دار الكتب العلمية.
٢٤. سيرة ابن إسحاق، تحقيق محمد حميد الله، نشر معهد الدراسات والأبحاث للتعريب الرباط ١٣٩٦-١٩٧٦.
٢٥. سيرة الرسول ﷺ؛ صورة مقتبسة من القرآن الكريم لمحمد عزة دروزة، عني به عبد الله الأنصاري المكتبة العصرية صيدا لبنان ١٤٠٠.
٢٦. السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري، الطبعة الرابعة ١٤٢١-٢٠٠١ مكتبة العبيكان الرياض
٢٧. السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق للدكتور سليمان بن حمد العودة، الطبعة الأولى ١٤٢٣-٢٠٠٢ دار طيبة الرياض.
٢٨. السيرة النبوية لابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، طبع مطبعة البابي الحلبي ١٣٨٤-١٩٦٤.

٢٩. سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد طبع دار الفكر ١٣٥٦-١٩٣٧.
٣٠. سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام، بتحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، سلسلة تراث الإسلام دون تاريخ ولا مكان للطبع.
٣١. شرح ابن بطال للبخاري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية، الطبعة ١/١٤٢٤-٢٠٠٢.
٣٢. صحيح ابن خزيمة تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، نشر المكتب الإسلامي بيروت الطبعة ٢/١٤١٢-١٩٩٢.
٣٣. صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز، طبعة دار الفكر ١٤١٤-١٩٩٤.
٣٤. صحيح السيرة النبوية للألباني، الطبعة الأولى ١٤٢١ المكتبة الإسلامية عمان.
٣٥. صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى ١٤١٢-١٩٩١ دار الحديث القاهرة.
٣٦. طبقات ابن سعد، طبعة دار صادر.
٣٧. عمدة القاري لبدر الدين العيني طبع دار الفكر دون تاريخ.
٣٨. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر، بتصحيح محب الدين الخطيب وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية.
٣٩. فقه السيرة لمحمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٧٦.
٤٠. فقه السيرة لمحمد سعيد رمضان البوطي، الطبعة الحادية عشرة ١٤١٢-١٩٩١ دار الفكر دمشق.
٤١. في السيرة النبوية؛ قراءة لجوانب الحذر والحماية للدكتور إبراهيم علي محمد أحمد الطبعة الأولى ١٤١٧-١٩٩٦ سلسلة كتاب الأمة طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية دولة قطر.
٤٢. في ظلال القرآن لسيد قطب، الطبعة الشرعية التاسعة ١٤٠٠-١٩٨٠ دار الشروق.
٤٣. الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي، نشر المكتبة العلمية - المدينة

المنورة.

٤٤. مؤتمر الهدي النبوي في الدعوة والإرشاد المنعقد بأبو ظبي برعاية وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات العربية المتحدة من ١١ إلى ١٦ رمضان ١٤٢٥ هـ الموافق ٢٥ إلى ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٤، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ- ٢٠٠٥ م.

٤٥. المجتبي للنسائي، بشرح السيوطي وحاشية السندي الطبعة الأولى ١٣٤٨- ١٩٣٠ طبع دار الفكر.

٤٦. مجلة بصائر الرباط، السنة ١ العدد ١ فبراير ٢٠٠٥.

٤٧. مجمع الزوائد للهيثمي، طبع دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٨-١٩٨٨.

٤٨. محمد رسول الله محمد الصادق عرجون، الطبعة الأولى ١٤٠٥-١٩٨٥ دار القلم دمشق-بيروت.

٤٩. المستدرك للحاكم طبع دار الكتب العلمية.

٥٠. المستدرك للحاكم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا الطبعة ١ / ١٤١١-١٩٩٠ دار الكتب العلمية بيروت.

٥١. مسند أبي يعلى الموصلي تحقيق حسين سليم أسد، الطبعة الأولى دار المأمون للتراث دمشق-بيروت ١٤٠٤-١٩٨٤.

٥٢. مسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق مصطفى عطا، الطبعة الأولى ١٤١٨-١٩٩٨ دار الكتب العلمية بيروت.

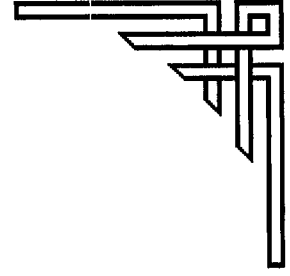
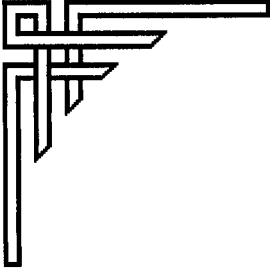
٥٣. مسند الإمام أحمد الطبعة الثانية دار الفكر ١٣٩٨-١٩٧٨ عن المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بيروت.

٥٤. مسند البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، الطبعة الأولى ١٤٠٩-١٩٨٨ مؤسسة علوم القرآن بيروت مكتبة العلوم والحكم بالمدينة.

٥٥. مصنف ابن أبي شيبة تحقيق كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى ١٤٠٩- ١٩٨٩ دار التاج بيروت.

٥٦. المعجم الأوسط للطبراني بتحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٦-١٩٨٦.

٥٧. المعجم الكبير للطبراني، نشر مكتبة العلوم والحكم الموصل الطبعة ١٤٠٤-١٩٨٣ تحقيق حمدي السلفي.
٥٨. المغازي، لموسى بن عقبة، جمع ودراسة وتخريج محمد أبو مالك، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير المغرب ١٩٩٤.
٥٩. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي، نشر دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة ١٣٩٢ / ٢.
٦٠. المنهج الحركي في السيرة النبوية لمنير الغضبان، الطبعة الرابعة ١٤٠٩-١٩٨٩ مكتبة المنار الزرقاء الأردن.
٦١. منهج الحضارة الإنسانية في القرآن للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي طبعة مصورة عن الطبعة الأولى لسنة ١٩٨٢ بتاريخ ١٤٠٧-١٩٨٧ دار الفكر.
٦٢. منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية لعلي الحربي، الطبعة الأولى ١٤٠٦-١٩٨٦ الزهراء للإعلام العربي.
٦٣. منهج النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة للدكتور محمد أمحزون، الطبعة الأولى ١٤٢٣-٢٠٠٢ دار السلام القاهرة.
٦٤. الموافقات في أصول الأحكام للشاطبي، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد نشر مكتب ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده القاهرة.
٦٥. الموافقات في أصول الأحكام للشاطبي، بتحقيق عبد الله دراز، طبع المكتبة التجارية الكبرى القاهرة.
٦٦. نحو مشروع مستقبل للإسلام لمحمود محمد طه، الطبعة الأولى ٢٠٠٢، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، دار قرطاس الكويت.
٦٧. الندوة العلمية الكبرى: مكة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦ ٢٠٠٥ المنعقدة بجامعة أم القرى من ١٣-١٥ / ٨ / ١٤٢٦ الموافق ١٧-١٩ / ٩ / ٢٠٠٥. طبع جامعة أم القرى.



شمولية القيم الحضارية وتكاملها
في السُّنَّة النَّبَوِيَّة
بخصوص معاملة الأعداء
وقت الحرب

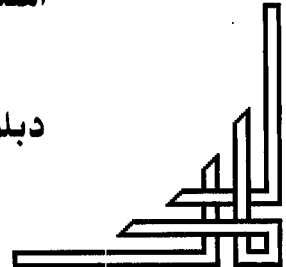
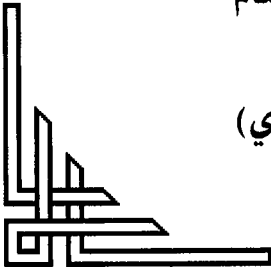
الدكتور

أحمد أبو الوفا

أستاذ ورئيس قسم القانون الدولي العام

كلية الحقوق - جامعة القاهرة

دبلوم أكاديمية القانون الدولي (لاهاي)



تمهيد:

يتعلق موضوع معاملة الأعداء وقت الحرب بفرع من فروع القانون الدولي المعاصر، وهو القانون الدولي الإنساني، والذي يتمثل سبب وجوده - أساساً - في حماية كل الأنفس البشرية المندمجة، بطريقة أو بأخرى، في النزاعات المسلحة، أو الذين يعتبرون من ضحاياها، وذلك بتجنبيهم أوجه المعاناة غير الضرورية.

إن الإسلام - وهو دين الفطرة - وجد أن الحرب تحتاج إلى تهذيب فكرتها في النفوس وحصرها في أضيق الحدود الإنسانية (والمادية) باعتبار ذلك هو غاية ما تحتمل الفطرة البشرية. لذلك فقد قررت السنة النبوية منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً قواعد وأخلاقيات يجب مراعاتها والالتزام بها أثناء الحرب.

كانت الحرب وقت ظهور الإسلام وقبل بزوغ شمسها حرباً غير رحيمة. وقد أدخل الإسلام عنصراً "إنسانياً" في إطار الحروب، الغرض منه احترام الكرامة الإنسانية للمقاتلين وغير المقاتلين بالتطبيق لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ «الأعراف: ٧٠»

وسيتضح من خلال هذه الدراسة أن السنة النبوية المشرفة لها تأثير كبير في إرساء قواعد معاملة الأعداء وقت الحرب. ويمكن إبراز أهم ملامح هذا الدور في الآتي:

الفصل الأول: أساس معاملة الأعداء وقت الحرب في السنة النبوية، وضرورة عدم مخالفة ذلك، لكون ذلك من المحرمات.

الفصل الثاني: حقوق ضحايا الحروب في السنة النبوية:

- أ) حق تقديم العلاج اللازم لضحايا الحروب.
- ب) عدم قتل من لا يقاتل (أو مبدأ التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين).
- ج) النهي عن التمثيل بالأعداء.
- د) حقوق الأسرى في السنة النبوية.
- هـ) حق جمع شمل الأسرة التي سُتتت بسبب الحرب.

و) حقوق الميث وقت الحرب .

الفصل الثالث: ضمانات احترام حقوق ضحايا الحروب .

أ) عدم طاعة أمير الجيش إلا في المعروف .

ب) حرية استخدام السلاح ليست مطلقة .

ج) حظر الغدر أثناء الحرب، مع جواز خدع الحرب .

ونختم كل ما تقدم بخاتمة عامة، نذكر فيها التوصيات التي انتهى إليها البحث .

الفصل الأول

أساس معاملة الأعداء وقت الحرب في السنة النبوية المشرفة

وضرورة عدم مخالفة ذلك، لكون ذلك من المحرمات

نعالج هذه المسألة في مبحثين، نخصص أولهما لأساس القانون الدولي الإنساني في السنة النبوية، ثم نذكر في الثاني ضرورة الالتزام بقواعد ذلك القانون وعدم الخروج عليها.

المبحث الأول

أساس القانون الدولي الإنساني في السنة النبوية المشرفة

قبل أن نشرع في دراسة أساس القانون الدولي الإنساني في السنة النبوية المشرفة، نشير إلى الوضع في القانون الدولي .

أ - في القانون الدولي:

يهدف القانون الدولي الإنساني إلى تحقيق التوازن بين أمرين أساسيين: مقتضيات الإنسانية *the dictates of humanity*، والضرورة الحربية *military necessity*. ويعني هذان الأمران أن الأعمال اللازمة فقط لهزيمة العدو مسموح بها، بينما تلك التي تسبب أوجه معاناة غير لازمة أو ألم غير مبرر تكون محظورة، وهكذا، في بعض الأحوال، يمكن أن تخضع ضرورات الحرب لمقتضيات

الاعتبارات الأولية للإنسانية. (١) humanity Elementary considerations of
ب - في السنة النبوية:

أكدت السنة النبوية المشرفة على هذا الأساس المزدوج الذي استقر عليه القانون الدولي الإنساني: التوفيق بين الاعتبارات الحربية والاعتبارات الإنسانية، في قوله (ﷺ): "أنا نبي الرحمة، أنا نبي الملحمة". وهكذا للحرب في السنة النبوية المشرفة جانبان يقترن كل منهما بالآخر اقتراناً لا يقبل الانفصام وهما جانب الملحمة، وجانب الرحمة. فإذا انتهينا من شرحهما فحقيق بنا أن نتحدث عن أثر ذلك الحديث.

١- جانب الملحمة (الضرورات العسكرية):

وفقاً للسنة النبوية - والقانون الدولي الحالي كما سبق بيانه - تهدف الحرب إلى تحقيق النصر العسكري على العدو، ولذلك لأي طرف اللجوء إلى الوسائل القتالية المشروعة لتحقيق ذلك. وقد أكد ذلك القرآن الكريم. يقول تعالى:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ «الفتح: ٢٩»
﴿فَإِذَا تَقَفَّيْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَسَرِّدْ بِهِمْ مَن خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْعُرُونَ﴾ «الأنفال: ٥٧»
وشدة الحرب والقتال أكرها أيضاً (ﷺ) بقوله: "الآن حمي الوطيس" (٢).

يقول الرافعي: "الوطيس هو التنور ومجتمع النار والوقود، فمهما كانت صفة الحرب، فإن هذه الكلمة بكل ما يقال في صفتها، وكأنما هي نار مشبوبة من البلاغة

١- راجع: Ahmed Abou-el-wafa: Public international law, Dar Al-Nahda al-Arabia, ٢٠٠٢-١٤٢٢ p. ٦٣٨.

انظر أيضاً: النظرية العامة للقانون الدولي الإنساني، د. أحمد أبو الوفا، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١٦ - ٢٠.

٢- سبب الحديث - كما في مسلم - قال العباس: شهدت مع النبي (ﷺ) يوم حنين فلزمته أنا وأبوسفيان بن الحارث فلم نفارقه وهو عليها كالمطاوول إلي قتالهم فقال رسول الله (ﷺ) / الآن، فذكره. وهذه اللفظة من فصيح الكلام وبليغه لم تسمع من أحد قبله (ﷺ). (ابن حمزة الحسيني الحنفى دمشقي: البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٨٥، ج ٢ ص ١٢٧، حديث رقم ٨٧٥).
وقيل إن الحديث قاله (ﷺ) في غزوة هوازن (راجع ابن كثير: صفوة السيرة النبوية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٢ - ٢٠٠٢، ج ٣، ص ٢٧٩).

تأكل الكلام أكلاً، وكأنا هي تمثل لكل دماء نارية أو ناراً دموية" (٣).
 كذلك فشجاعة الرسول (ﷺ) واضحة منذ صغره، فقد حضر حرب الفجار،
 أخرجه أعمامه معهم. يقول (ﷺ): كنت أنبل على أعمامي: أي أرد عليهم نبل
 عدوهم إذا رموهم بها. (٤)

٢- جانب الرحمة (مراعاة حقوق الإنسان وقت الحرب):

يتفق قوله (ﷺ): "أنا نبي الرحمة" مع طبيعة الشريعة الإسلامية. ذلك أن
 الإسلام دين الرحمة، لذا كان التواصل بها بين المؤمنين. يقول تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ
 مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾
 «البلد: ١٧-١٨».

كذلك يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ «الأنبياء: ١٠٧» ويقول
 أيضاً: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ
 حَوْلِكَ﴾ «آل عمران: ١٥٩».

يؤيد ذلك أيضاً قوله (ﷺ):

- "إن الله تعالى جعلني عبداً كريماً ولم يجعلني جباراً عنيداً" (٥)

- "إنما يرحم الله من عباده الرحماء" (٦)

ونحن نعتقد أن مرد قواعد القانون الدولي الإنساني واحترام حقوق الإنسان
 وقت الحرب ترجع إلي مبدأ إسلامي أصيل، هو مبدأ "الرفق في الأمر كله"،
 والذي أكده قوله (ﷺ): "إن الله يحب الرفق في الأمر كله"، وقوله: "إن الرفق لا
 يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه"، وقوله: "إن الله رفيق يحب

٣- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، القاهرة، ص ٣٦٣.

المجازات النبوية، الشريف الرضي، البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٧-١٩٦٧ ص ٤٦-٤٧).

٤- السيرة النبوية لابن هشام، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٧٥-١٩٥٥ ج ١، ص ١٨٦.

٥- البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، ابن حمزة الحسيني الحنفي الدمشقي، المرجع السابق،

ج ١، ص ٢٣٩، ٤٦٢.

٦- المرجع السابق، ج ٢، ص ٧٠، حديث رقم ٧٢٨.

الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف". وفي حديث أبي الدرداء: "من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير"^(٧) ولا شك أن الرفق في الحرب يعني أموراً كثيرة، منها: ١- عدم الانتقام؛ ٢- وعدم استخدام الأسلحة التي تسبب أوجه معاناة غير مفيدة؛ ٣- عدم المثلة؛ ٤- عدم الاعتداء على غير المقاتلين.

وأساس ذلك يرجع إلى قاعدة العدالة التي أمر الإسلام بتطبيقها حتى مع من يبغضه المسلمون، يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ «المائدة: ٨».

٣- أثر قوله (١) "أنا نبي الرحمة أنا نبي الملحمة":

لهذا الحديث، في نظرنا، أثران: إيجابي وسلبي.

(أولاً) الأثر الإيجابي: مراعاة الجوانب الإنسانية في الحروب الإسلامية:

هذا هو الأثر العملي الأول لقوله (ﷺ) أنا نبي الرحمة، أنا نبي الملحمة. إذ حتى إذا حمي الوطيس، فإن جانب الرحمة يجب تطبيقه دائماً. ولعل خير مثال عملي يؤيد ذلك، ما حدث بعد هزيمة قريش، قال الرسول (ﷺ): "ما تظنون أنني فاعل بكم"، قالوا: "أخ كريم وابن أخ كريم". فقال (ﷺ): "أقول" ما قال أخي يوسف: لا تثریب علیکم الیوم یغفر الله لی ولکم وهو أرحم الراحمین اذهبوا فأنتم الطلقاء"^(٨)

وهكذا فقد طبع هذا الحديث أثره علي سلوك المسلمين وقت الحرب أثناء حياته (ﷺ) وبعد وفاته. لدرجة أن أحد كبار مفكري الغرب قال: "فالحق أن الأمم

٧- انظر هذه الأحاديث في المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٤ حديث رقم ٤٩٩، ج ٢ ص ١٢١ حديث رقم ١٤٧٦.
٨- السيرة الحلبية ج ٣ ص ٨٩؛ الثعالبي: الاقتباس من القرآن الكريم، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٩٢، ج ١، ص ٧٨.

لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا ديناً سمحاً مثل دينهم"^(٩)
(ثانياً) الأثر السلبي: منع من لا يراعون الاعتبارات الإنسانية من قيادة الجيوش
الإسلامية: لعل خير مثال علي ذلك ما حدث حينما قال سعد لأبي سفيان:

اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة
فشكا أبو سفيان إلي رسول الله (ﷺ) فعزله عن راية الأنصار وأعطاها الزبير بن
العوام فدخل بها من أعلى مكة، ودخل خالد بن الوليد من أسفل مكة.
يقول ابن كثير أن النبي (ﷺ) أمر بالراية أن تؤخذ من سعد "كالتأديب له"^(١٠)
بينما يذكر الخزاعي التلمساني ما حدث يوم فتح مكة، حينما قال سعد بن عبادة
وهو يحمل الراية: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة". فسمعها عمر بن
الخطاب، فقال يا رسول الله: "أسمع ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن أن يكون له
في قريش صولة"، فقال رسول الله (ﷺ) لعلي بن أبي طالب: "أدرکه فخذ الراية
فكن أنت الذي تدخل بها"^(١١)

المبحث الثاني

ضرورة مراعاة قواعد القانون الدولي الإنساني

الواردة في السنة، لأن مخالفتها من المحرمات

في هذا الخصوص، وتحت باب «فيما ينبغي للملك من سياسة الجيش وتديبير
الجنود»، يقول الإمام الشيزري أن من واجبات الملك: «أن يلزم جيشه بما أوجبه الله

٩- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠،
مقدمة الكتاب. محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة،
١٤٢١ - ٢٠٠٠، ص ٢٨٠.

١٠- صفوة السيرة النبوية، ابن كثير، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٢ - ٢٠٠٢، ج ٣،
ص ٢٣٩-٢٤٤. السيرة النبوية، ابن هشام، المرجع السابق، ج ٢ ص ٤٠٦ - ٤٠٧.

١١- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٨، حديث رقم ٤٢٨٠؛ كتاب تخريج الدلالات السمعية علي ما
كان في عهد رسول الله (ﷺ) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، العلامة
الخزاعي التلمساني، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٥ - ١٩٩٥، ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

تعالى من حقوق وبما أمره الله تعالى من مراعاة حدوده، لأنه من جاهد عن الدين كان أحق الناس بالتزام أحكامه والفصل بين حلاله وحرامه، وقد قال رسول الله (ﷺ) (أنهوا جيوشكم عن الفساد فإنه ما فسد جيش قط إلا قذف الله تعالى في قلوبهم الرعب".^(١٢)

ولا شك أن النهي عن الفساد، وضرورة التزام الجيش بحدود الله تُعدُّ قيوداً أخلاقية وشرعية «يجب علي كل مقاتل أن يراعيها ولا يخرج عليها. كما أن أشد الفساد هو عدم مراعاة قواعد القانون الدولي الإنساني. يقول عقبة بن نافع: "إننا لا ننكل بالأسرى؛ لأن ديننا يمنعنا من ذلك"^(١٣)

يقول الصنعاني: وكان رسول الله (ﷺ): "إذا أمر أميراً علي جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً" ثم يخبره بتحريم الغدر وتحريم المثلة وتحريم قتل الصبيان المشركين، وهذه محرمات بالإجماع.^(١٤) وهكذا يُعدُّ حراماً الاعتداء على هذه الحقوق الإنسانية.

ولعل ذلك يتضح من قول الماوردي أنَّ مما يلزم أمير الجيش في سياستهم: "أنَّ يأخذ جيشه بما أوجبه الله تعالى من حقوقه وأمر به من حدوده حتى لا يكون بينهم تجوز في دين ولا تحيف في حق، فإن من جاهد عن الدين كان أحق الناس بالتزام أحكامه والفصل بين حلاله وحرامه"^(١٥) ويبدو ما قلناه واضحاً جلياً من الواقعة الآتية:

فقد نهى رسول الله (ﷺ) الذين قتلوا ابن أبي الحقيق عن قتل النساء والولدان فكان رجل منهم يقول برحت بنا امرأة ابن أبي الحقيق بالصباح فأرفع السيف

١٢- المنهج المسلوك في سياسة الملوك، الشيزري، مكتبة المنار، الأردن - الزرقاء، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ ص ٦١٢.
١٣- عقبة بن نافع أو فاتح إفريقية، علي الجملاطي وعبد المنعم قنديل، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الإمام الصنعاني، القاهرة، ١٤١٦ - ١٩٩٦ ص ٥٥.
١٤- الموطأ للإمام مالك، كتاب الجهاد، رقم ١١، ص ٢٧٨؛ سبل السلام، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٨هـ، ج ٤ ص ٩٥ - ٩٧.
١٥- الأحكام السلطانية، الإمام الماوردي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٤٦.

عليها ثم أذكر نهى رسول الله (ﷺ) فأكف ولولا ذلك لاسترخنا منها. يقول الباجي: "وهذا يدل على التعليق بالعموم لأنه أجرى نهى رسول الله (ﷺ) على عمومته في سائر الحالات ولم يقصره علي القصد إلى ذلك دون الحاجة إليه"^(١٦) وهكذا يمكن القول أن لقواعد القانون الدولي الإنساني إلزاميتها وفقاً للسنّة النبوية المشرفة، باعتبار أنه يجب مراعاتها وعدم الخروج عليها، فهي سنّة متبعة وفريضة واجبة.

الفصل الثاني

حقوق ضحايا الحرب في السنّة النبوية

لضحايا الحرب في السنّة النبوية المشرفة حقوق ثلاثة، هي: تقديم العلاج لهم، وعدم قتل من لا يقاتل، وتحريم المثلة. فإذا انتهينا من ذلك فحقيق بنا أن نشير إلى حقوق ثلاث فئات من ضحايا الحروب، وهم: الأسرى وجمع شمل الأسر المشتتة، والميت.

أ - حق تقديم العلاج اللازم لضحايا الحروب:

نشير إلى حق تقديم العلاج لضحايا الحروب وفقاً للسنّة النبوية المشرفة، وفي القانون الدولي.

١- في السنّة النبوية:

منذ عهد النبي (ﷺ) تقرر حق تقديم الحاجيات الأساسية لضحايا الحروب، بما فيها حق العلاج للجرحى والمرضى منهم. وشواهد ذلك كثيرة في السنّة النبوية المشرفة:

- فعن الربيع بنت معوذ قالت: كنا نغزو مع رسول الله (ﷺ) نسقي القوم ونخدمهم ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة. رواه أحمد والبخاري.

١٦- الموطأ للإمام مالك، كتاب الجهاد، حديث رقم ٨، ص ٢٧٧؛ كتاب المنتقى شرح موطأ الإمام مالك بن أنس، الإمام الباجي، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، القاهرة، ج ٣، ص ١٦٦.

- وعن أم عطية الأنصارية قالت: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أخلفهم في رحالهم وأصنع لهم الطعام وأداوي الجرحى وأقوم على الزمنى . رواه أحمد ومسلم وابن ماجه .

- وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة معها من الأنصار يسقين الماء ويداوين الجرحى . رواه مسلم والترمذي وصححه .^(١٧)

يقول الإمام الشوكاني أن عبارة "وأداوي الجرحى" فيها: دليل على أنه يجوز للمرأة الأجنبية معالجة الرجل الأجنبي للضرورة. قال ابن بطال ويختص ذلك بذوات المحارم وإن دعت الضرورة فليكن بغير مباشرة ولا مس ويدل على ذلك اتفاقهم على أن المرأة إذا ماتت ولم توجد امرأة تغسلها أن الرجل لا يباشر غسلها بالمس بل يغسلها من وراء حائل في قول بعضهم كالزهري وفي قول الأكثر تيمم . وقال الأوزاعي تدفن كما هي . قال ابن المنير الفرق بين حال المداواة وغسل الميت أن الغسل عبادة والمداواة ضرورة والضرورات تبيح المحظورات وهكذا يكون حال المرأة في ردها القتلى والجرحى فلا تباشر بالمس مع إمكان ما هو دونه^(١٨) كذلك وضعت السنة النبوية اللبنات الأولى للمستشفيات أثناء الحروب ، أو المارستان ، بنتح الرءاء: دار المرضي وهو معرب . عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: أصيب سعد يوم الخندق رماه رجل من قريش: ابن العرقة ، رماه في الأكحل فضرب عليه رسول الله ﷺ خيمة في المسجد يعود به من قريب . وقال ابن اسحاق - رحمه الله تعالى - في السيرة: كان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم يقال لها: ربيعة في مسجده ، كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين ، وكان رسول الله ﷺ

١٧- نيل الأوطار، الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣-١٩٨٣، ج٧، ص٢٣٩-٢٤٠، باب استصحاب النساء لمصلحة المرضى والجرحى، حديث رقم ١-٣؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار المنار، القاهرة، ١٤١٩-١٩٩٩، ج٦، ص٨٦-٨٩، حديث رقم ٢٨٨٣ .
١٨- نيل الأوطار، الإمام الشوكاني، نفس المرجع، ج٧، ص٢٤٠.

قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخدق: "اجعلوه في بيت رفيدة حتى أعوده من قريب" وكانت رفيدة امرأة تداوي الجرحى.^(١٩)

٢- في القانون الدولي:

لعل ما تقدم يظهر أن المسلمين كانوا سابقين في هذا المضمار. إذ أنه من المعروف أنه فقط بعد معركة سولفرينو عام ١٨٥٩، وعلى إثر الفظائع التي رآها بسبب ترك آلاف الجرحى بدون علاج، دعا مواطن سويسري يدعى هنري دونان إلى تأصيل القواعد الإنسانية في الحروب، وكانت دعوته أساس إنشاء حركة الصليب الأحمر في الدول الغربية.^(٢٠)

ب- عدم قتل من لا يقاتل (أو مبدأ التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين):

هذا مبدأ استقر عليه القانون الدولي حالياً، وأكدته السنة النبوية المشرفة منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً.

١- في القانون الدولي:

استقر القانون الدولي الإنساني حديثاً، على ضرورة التمييز بين المحاربين وغير المحاربين عند التحام القتال وبحيث يجنب هؤلاء الأخيرون - بقدر الإمكان - ويلات الحرب وآثارها.^(٢١)

١٩- كتاب تخريج الدلالات السمعية علي ما كان في عهد رسول الله (ﷺ) من الحرف الصنائع والعمالات الشرعية، الخزاعي التلمساني، المرجع السابق، ص٦٧٣؛ الشيخ عبدالحى الكتاني: نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، دار الكتاب العربي، بيروت، ج١، ص٤٥٣-٤٥٤.

٢٠- راجع: H. Dunan: A memory of Solferino, ICRC, Geneva, ١٤٧، ١٩٨٦، p.

٢١- راجع «الوسيط في القانون الدولي»، د. أحمد أبو الوفا، دار النهضة العربية، القاهرة ٢٠٠٤، ص٦٩٣ وما بعدها. انظر أيضاً النظرية العامة للقانون الدولي الإنساني، د. أحمد أبو الوفا، المرجع السابق، ص٧٧-٧٩.

٢- في السنة النبوية:

أكدت السنة النبوية على ضرورة التمييز بين المحاربين وغير المحاربين، بل اعتبرت ذلك عهد الله وسيرة نبيه في المسلمين. من ذلك حينما أمر النبي ﷺ عبدالرحمن بن عوف أن يتجهز لسرية بعثه عليها، فقد قال له: "اغزوا جميعاً في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تملوا، ولا تقتلوا وليداً، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم"^(٢٣) وستحدث عن علة مبدأ التفرقة بين المحاربين وغير المحاربين، وعن حدود تطبيقه. (أولاً) علة المبدأ في السنة النبوية:

لا شك أن علة التفرقة بين المحاربين وغير المحاربين تكمن في أن القتال يوجه إلى من يقاتل لا من لا يقاتل.

وهكذا بخصوص قوله (ﷺ) حينما رأى امرأة مقتولة: "هاه! ما كانت هذه تقاتل". يقول السرخسي:

"ألا ترى أن النبي عليه الصلاة والسلام استعظم قتلها باعتبار أنها لا تقاتل"^(٢٣) وبين ذلك الإمام المازري أيضاً بقوله: "وأما المرأة فلا تقتل أيضاً؛ لأنها من جنس من لا يقاتل لكنها إن قاتلت قُتلت في حال القتال، لأن المعني المبيح لقتل الرجال قد وجد منها". وتعليقاً على قوله (ﷺ): "لا تقتلوا وليداً" يقول: "إنما ذلك لأن الأطفال لا نكاهة فيهم ولا قتال ولا ضرر بأهل الإسلام"^(٢٤) وقال الحكيم الترمذي بخصوص نهيه (ﷺ) عن "قتل الصبيان"، قال إن ذلك علته: "أنهم ذرية، وليس

٢٢- السيرة النبوية، ابن هشام، المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٣٢.

٢٣- شرح كتاب السير الكبير للشيباني، السرخسي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٧١٦ - ٧١٧.

٢٤- كتاب المعلم بفوائد مسلم، المازري، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٩ - ١٩٩٦، ج ٢، ص ١٢٦، ١٢٩.

وهكذا فالقتال، لا الكفر، هو المبيح، في السنة النبوية المشرفة، قتال الأعداء.

(ثانياً) حدود تطبيق المبدأ في السنة النبوية: يتمثل ذلك - خصوصاً - فيما يلي:

١ - توجيه القتال إلى من يقاتل ومنع ذلك بخصوص من لا يقدر على القتال:

يبدو ذلك جلياً في قوله (ﷺ): "أقتلوا شيوخ المشركين، واستحيوا شرخهم"^(٢٦) يقول الإمام البغوي: "قوله: استحيوا: أي اتركوهم أحياء، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي: يتركونهم أحياء، وأراد بالشرخ: الصبيان، وبالشيوخ: الشبان والشرخ: جمع شارخ، وهو الحديث السن، وشرخ الشباب: أوله"^(٢٧)

والسنة النبوية زاخرة بالأحاديث التي تظهر عدم جواز قتل فئات بعينها من الأشخاص، منها قوله (ﷺ):^(٢٨)

١- عن ابن عمر قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي النبي (ﷺ) فنهى رسول الله (ﷺ) عن قتل النساء والصبيان. رواه الجماعة إلا النسائي.

٢- وعن رباح بن ربيع أنه خرج مع رسول الله (ﷺ) في غزوة غزاها وعلى مقدمته خالد بن الوليد فمر رباح وأصحاب رسول الله (ﷺ) على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة فوقفوا ينظرون إليها يعني وهم يتعجبون من خلقها حتى لحقهم رسول الله (ﷺ) على راحلته فأفرجوا عنها فوقف عليها رسول الله (ﷺ) فقال ما كانت هذه لتقاتل فقال لأحدهم ألحق خالداً فقل لهم لا

٢٥- المنهيات، الحكيم الترمذي، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٢٥٣
 ٢٦- سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام، ط دار التراث، ج ٤، ص ٥٠، باب الجهاد رقم ١٧، أخرجه أبو داود، ٣ / ٨٨، باب في قتل النساء، حديث رقم ٢٦٧٠.
 ٢٧- شرح السنة، البغوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢ - ١٩٩٢، ج ٥، ص ٥٧٤؛ كتاب المعلم بفوائد مسلم، الإمام المازي، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٢٩.
 ٢٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٦، حديث رقم ٣٠١٤ - ٣٠١٥؛ صفوة السيرة النبوية، ابن كثير، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٨٢؛ صحيح مسلم بشرح النووي، المرجع السابق، ج ١٢، ص ٤٧ - ٤٩؛ سبل السلام، الصنعاني، المرجع السابق، ج ٤، ص ٩٤ - ٩٧.

تقتلوا ذرية ولا عسيفا. رواه أحمد وأبو داود. (٢٩)

٣- وعن أنس أن رسول الله (ﷺ) قال: انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله (ﷺ) لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين. رواه أبو داود. (٣٠)

٤- وعن ابن كعب بن مالك عن عمه أن النبي (ﷺ) حين بعث إلى ابن الحقيق بخيبر نهى عن قتل النساء والصبيان.

٥- وعن الأسود بن سريع قال قال رسول الله (ﷺ) لا تقتلوا الذرية في الحرب، فقالوا يا رسول الله أو ليس هم أولاد المشركين، قال أو ليس خياركم أولاد المشركين. رواه أحمد.

يتضح من هذه الأحاديث ما يلي:

أولاً- أن السنة النبوية المشرفة أكدت على عدم جواز قتل بعض الأشخاص الذين لا يشاركون في القتال، خصوصاً النساء والأطفال. يقول الإمام النووي إن العلماء أجمعوا على: "تحريم قتل النساء والصبيان إذا لم يقاتلوا"^(٣١) ويقول ابن قيم الجوزية: "لم يشرع رسول الله (ﷺ) قتل النساء والذرية في شيء من مغازيه البتة"^(٣٢) ويقول الإمام الصنعاني إنه يخلص من أحاديث رسول الله (ﷺ): "تحريم الغدر وتحريم المثلة وتحريم قتل صبيان المشركين، وهذه محرّمات بالإجماع"^(٣٣) ثانياً- أن قتل من يقاتل من النساء أو الأطفال أو غيرهم يفترض توافر أمرين: - اشتراكهم فعلاً في القتال على أي وجه من الوجوه.

٢٩- موطأ مالك، ط. دار النفائس، بيروت، ١٤٠٢هـ، رقم ٩٧٢، سبل السلام، المرجع السابق، ج ٤، رقم ١٦، ص ٥٠.

٣٠- المنتقى من أخبار المصطفى لابن تيمية، ج ٢، ص ٧٧٢، رقم ٤٢٧٣، كذا نيل الأوطار، ج ٧، ص ٢٨٠.

٣١- صحيح مسلم بشرح النووي، المرجع السابق، ج ١٢، ص ٤٨، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب.

٣٢- أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية، ج ١، ص ٤٣.

٣٣- سبل السلام، الإمام الصنعاني، المرجع السابق، ج ٤، ص ٩٧، كتاب الجهاد، حديث رقم ١١.

- أن يكون اشتراكهم في القتال باختيارهم وصادراً عن إرادة حرة منهم؛ بعبارة أخرى ألا يكونوا أكرهوا على القتال. فإن ثبت إكراههم فلا يجوز قتلهم.

ومن ذلك أن النبي (ﷺ) نهى عن قتل بعض الأشخاص في غزوة بدر الكبرى، بقوله: "إني قد عرفت أن رجلاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب، عم رسول الله (ﷺ) فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مستكراً" (٣٤)

وهكذا قررت السنة النبوية مبدأ حماية حقوق من لا يقاتلون، الذي أكدته القرآن الكريم أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ «البقرة: ١٩٠». ومعني لا تعتدوا، أي "لا تقتلوا من لم يقاتل" (٣٥)

ثالثاً - يجدر هنا أن نشير إلى الملاحظات الآتية:

قال البعض إن هناك حديثين مختلفين في ذراري المشركين: فقد رويتم أن الصعب بن جثامة قال يا رسول الله ذراري المشركين تطوهم خيلنا في ظلم الليل عند الغارة. قال هم من آبائهم، ثم رويتم أنه بعث سرية فقتلوا النساء والصبيان فأنكر ذلك رسول الله (ﷺ) إنكاراً شديداً. فقالوا يا رسول الله إنهم ذراري المشركين قال أو ليس خياركم ذراري المشركين.

وقد رد على ذلك الإمام ابن قتيبة بقوله:

"إنه ليس بين الحديثين اختلاف لأن الصعب بن جثامة أعلمه أن خيل المسلمين تطوهم في ظلم الليل عند الغارة فقال هم من آبائهم. يريد أن حكمهم في الدنيا حكم آبائهم. فإذا كان الليل وكانت الغارة ووقعت الفرصة في المشركين فلا تكفوا

٣٤- السيرة النبوية لابن هشام، المرجع السابق، ج ١، ص ٦٢٩.
٣٥- أحكام القرآن، ابن العربي، دار الجليل، بيروت، ١٤٠٧ - ١٩٨٧، ج ١، ص ١٠٤.

من أجل الأطفال لأن حكمهم حكم آبائهم من النساء والصبيان لأنهم تعمدوا ذلك لشرك آبائهم فقال أو ليس خياركم ذراري المشركين . يريد فلعل فيهم من يُسلم إذا بلغ ويحسن إسلامه. (٣٦)

ذهب فقهاء المسلمين إلى أنه يمتنع قتل «الرحم» كالأب والأم. (٣٧) ومع التسليم بأنه لا يجوز قتل المرأة أو الصبي أو المجنون أو المقعد أو الشيخ الفاني، فإنه يستثنى من ذلك «أن يكون أحد هؤلاء ملكاً، أو له رأي في الحرب، أو مال يحث به» (٣٨)

٢ - إمكانية توجيه القتال حتى إلى النساء والصبيان في حالة «التبويت»:

"سئل (ﷺ) عن الدار من المشركين يبيتون فيصيبون من نسائهم وذراريهم؛ فقال (ﷺ): "هم منهم" (٣٩)

يقول المازري: "المراد بقوله: "هم منهم" أن أحكام الكفار جارية عليهم في مثل هذا، والدار دار كفر بكل من فيها منهم ومن ذراريهم.. وإن اعترض هذا بالنهي عن قتل النساء والولدان". قلنا: هذا وارد فيهم إذا لم يتميزوا وقتلوا من غير قصد لقتلهم، بل كان القصد قتل الكبار فوقعوا في الذراري من غير عمد ولا معرفة (٤٠). حري بالذكر أن معنى "يبيتون" في الحديث "أن يغار عليهم بالليل بحيث لا يعرف الرجل من المرأة والصبي" (٤١)

وقد علل فقهاء المسلمين ما جاء في حديث رسول الله (ﷺ) حينما سئل عن

٣٦- كتاب تأويل مختلف الحديث، الإمام ابن قتيبة، دار الجليل، بيروت، ١٣٩٣ - ١٩٧٣، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.
٣٧- الوجيز في فقه مذهب الإمام الشافعي، الغزالي، مطبعة الآداب والمؤيد، القاهرة، ١٣١٧، ج ٢، ص ١٨٩.
٣٨- المقرر من كتاب الاختيار لتعليل المختار، عبد الله بن مودود الموصلي الحنفي، الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٧ - ١٩٧٧، ص ٣١٤.

٣٩- سبل السلام، المرجع السابق، ج ٤، كتاب الجهاد، حديث رقم ١٤.
٤٠- كتاب المعلم بفوائد مسلم، الإمام المازري، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٣٠.
٤١- المرجع السابق، صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٢، ص ٥٠؛ الإمام ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، المرجع السابق، ج ٦، ص ١٥٦.

الدار من المشركين يبيتون فيصاب من ذراريهم ونسائهم" فقال هم منهم"، بأمور كثيرة. يقول الإمام الخطابي:

'يريد أنهم منهم في حكم الدين وإباحة الدم، وفيه بيان أن قتلهم في البيات وفي الحرب إذا لم يتميزوا من آبائهم وإذا لم يتوصل إلى الكبار إلا بالإتيان عليهم جائز. وأن النهي عن قتلهم منصرف إلى حال التميز والتفرق فإن الإبقاء عليهم إنما هو من أجل أنهم فيء للمسلمين لا من جهة أنهم على حكم الإسلام'^(٤٢) ويقول الإمام ابن حجر أن قوله "هم منهم" أي "في الحكم وليس المراد إباحة قتلهم بطريق القصد إليهم بل المراد إذا لم يمكن الوصول إلي الآباء إلا بوطء الذرية فإذا أصيبوا لاختلاطهم بهم جاز قتلهم"^(٤٣)

كل ذلك يدل دلالة أكيدة علي أن الراجح في الفقه الإسلامي هو عدم جواز قتل النساء والأطفال والذرية وكذلك كل من لم يقاتل أو يشترك في القتال^(٤٤). بل لقد ذهب الإمام ابن عبد السلام إلي القول أن قتل النساء والأطفال يعتبر «مفسدة» إلا إذا تترس بهم الكفار بحيث لا يجوز دفعهم إلا بقتلهم^(٤٥).

ج - النهي عن التمثيل^(٤٦) بالأعداء:

يمنع الإسلام المثلة: فقد روي سمرة بن جندب قال كان النبي (ﷺ) يحثنا علي

٤٢- معالم السنن، الخطابي، ج٢، ص ٢٨٢.

٤٣- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٢ - ١٩٨٢، ج٦، ص ١١٠؛ سبل السلام، الصنعاني، ج٤، ص ١٠٢، كتاب الجهاد، حديث رقم ١٤؛ أيضاً نيل الأوطار، الشوكاني، ج٧، ص ٢٤٧ - ٢٤٨، باب الكف عن قصد النساء والصبيان، حديث رقم ٦-١.

٤٤- بل يقول ابن الطلاع: ومنع قتل النساء والشيوخ الذين لا يشتركون في القتال: «أمر متفق عليه عند جميع العلماء ولا يعرف له خلاف»، أفضية رسول الله ﷺ، ابن الطلاع (أبو عبد الله محمد بن فرج المالكي): تحقيق د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ثانية، ١٤٠٢ - ١٩٨٢، ص ٦٦٠.

٤٥- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ابن عبد السلام، مكتبة الكليات الأزهرية، ج١، ص ١١١.

٤٦- يعرف الإمام الخطابي المثلة بأنها «تعذيب المقتول بقطع أعضائه وتشويه خلقه قبل أن يقتل أو بعده وذلك مثل أن يجذع أنفه أو أذنه أو يفقأ عينه أو ما أشبه ذلك من أعضائه (معالم السنن، الخطابي، وهو شرح سنن أبو داود، المكتبة العلمية، بيروت، ١٤٠١ - ١٩٨١، ج٢، ص ٢٨٠).

الصدقة وينهانا عن المثلة" (رواه أبو داود).^(٤٧) وقال أيضاً (ﷺ): "إن الله كتب الإحسان علي كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلى وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح"^(٤٨) كذلك روى عبد الله بن عامر أنه قدم علي أبي بكر الصديق برأس البطريق فأنكر ذلك فقال يا خليفة رسول الله فإنهم يفعلون ذلك بنا قال: فاستناب بفارس والروم؟ لا يحمل إلي رأس فإنما يكفي الكتاب والخبر.

وحينما قال عمر بن الخطاب لرسول الله (ﷺ) (بخصوص سهيل بن عمرو): دعني أنزع ثنيتي سهيل، ويدلع لسانه. (أي يخرج)، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، قال قال رسول الله (ﷺ): لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً^(٤٩). ومن ذلك ما قاله الرسول (ﷺ) لعبد الرحمن بن عوف حينما أمره علي غزوة دومة الجندل: "اغزوا جميعاً في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم"^(٥٠)

ولما خرج رسول الله ﷺ بعد غزوة أحد يلتمس حمزة بن عبدالمطلب، فوجده بطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده، ومثل به، فجدع أنفه وأذناه، فقال "لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم". فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب. وحينئذ أنزل الله سبحانه وتعالى - للنهي عن المثلة - قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾. فعفا رسول الله ﷺ وصبر

٤٧-المنتقى من أخبار المصطفى، ج٢، رقم ٤٢٢٦، ص٧٦٣ (باب الدعوة قبل القتال).
٤٨-المنتقى من أخبار المصطفى، ج٢، رقم ٤٦٤١، ص٨٧٦؛ سبل السلام، ج٤، ص ١٨٠، حديث رقم ١١ (باب الصيد والذباح).

٤٩-السيرة النبوية لابن هشام، ط البابي الحلبي، القاهرة، ج١، ص٦٤٩.

٥٠-الموطأ للإمام مالك، كتاب الجهاد، حديث رقم ١١، ص ٢٧٨.

ونهى عن المثلة^(٥١).

ويلاحظ أن فقهاء المسلمين ذهبوا إلى أن النهي عن المثلة يكون حيث لم يفعل العدو بالمسلمين ذلك، فإن مثلوا بالمسلمين جاز التمثيل بهم أيضاً تحقيقاً لغايات محددة؛ كتخويفهم أو ردعهم عن اللجوء إلى المثلة مرة أخرى... إلخ.

يقول الإمام الخطابي (بخصوص النهي عن المثلة):

زوهذا إذا لم يكن الكافر فعل مثل ذلك بالمقتول المسلم فإن مثل بالمقتول جاز أن يمثل به ولذلك قطع رسول الله ﷺ أيدي العرنيين وأرجلهم وسمر أعينهم وكانوا فعلوا ذلك برعاء رسول الله ﷺ وكذلك هذا في القصاص بين المسلمين إذا كان القاتل قطع أعضاء المقتول وعذبه قبل القتل فإنه يعاقب بمثله وقد قال تعالى:

﴿ فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ . (البقرة: ١٩٤) ^(٥٢)

د- حقوق الأسرى في السنة النبوية:

كفل الإسلام للأسير معاملة طيبة بعيدة عن غضب وشطط المقاتلين في لحظات يكون الغضب والشطط ملء القلب يغلي فيه الدم. ولذلك أجم الإسلام هذا الغضب بإلزام المسلم بإكرام الأسارى تمشياً مع أخص خصائص المسلم وهي الرحمة في وقت تكون الرحمة أشد ما تكون بالنسبة لطلبها.

لذلك يقول الله تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً﴾.

(الإنسان: ٨). ويقول الرسول الكريم: "استوصوا بالأسارى خيراً"^(٥٣)

٥١- البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، ابن حمزة الحسيني الحنفي الدمشقي، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٨٠، حديث رقم ١٦٢٣؛ مغازي رسول الله، الواقدي، جماعة نشر الكتب القديمة، القاهرة، ١٣٦٧-١٩٤٨، ص ٢٥٥؛ السيرة النبوية لابن هشام، المرجع السابق، ج ٢، ص ٩٥-٩٦؛ الاعتبار في النسخ والنسخ من الآثار، الإمام أبو بكر الحازمي الهمداني، دار الرعي، حلب، ١٤٠٣ - ١٩٨٢، ص ٢٩٧.

٥٢- معالم السنن، الخطابي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٨٠.

٥٣- أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عزيز رضي الله عنه، قال الهيثمي إسناده حسن؛ راجع أيضاً ابن حمزة الحسيني الحنفي الدمشقي: البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، مكتبة مصر، القاهرة، حديث رقم ٢٢٦ (باب الهمة مع السين المهملة).

وهي لا شك وصية جامعة لكل معاني المعاملات الإنسانية الفاضلة وسواء كان الأسير في البر أو البحر أو من الغرقى أو الجرحى أو المرضى أو كان سليماً معافى . وقد ورد في السنة النبوية العديد من القواعد الخاصة بأسرى الأعداء، نوجزها فيما يلي:

١- توفير الحاجات الضرورية للأسير:

أولاً - في القانون الدولي:

استقرت قواعد القانون الدولي العام - حديثاً - على ضرورة معاملة الأسير كإنسان يستحق الرعاية، رغم وقوعه في الأسر. وقد أكد على ذلك - خصوصاً - القسم الثاني من اتفاقية جنيف الثالثة لعام ١٩٤٩ الخاصة بأسرى الحرب، والتي نصت على ضرورة توفير المأوى والغذاء والملبس والرعاية الصحية والطبية لأسرى الحرب، وكذلك حقهم في ممارسة الأنشطة الدينية والذهنية والبدنية، وعدم مصادرة أموال الأسرى، وحقهم في الاتصال بالعالم الخارجي (تلقي وإرسال خطابات مثلاً)، وما يجب مراعاته عند محاكمتهم وتوقيع الجزاءات التأديبية والقضائية عليهم.^(٥٤)

ثانياً - في السنة النبوية:

من مفاخر الإسلام الكبرى أنه رغم وقوع الأسير في الأسر، فإنه لا يجوز أن يجتمع عليه «ذل الأسر وذنك العيش فيه». لذا اهتم الإسلام - قبل القانون الدولي المعاصر بأربعة عشر قرناً - بتوفير الحاجات الضرورية للأسرى.

٥٤- راجع تفصيلات أكثر في المواد ٢١ - ١٠٨ في: «اتفاقيات جنيف المؤرخة في ١٢ آب / أغسطس ١٩٤٩». اللجنة الدولية للصليب الأحمر، جنيف، ١٩٩٥، ص ١٠٤-١٤٥.

– المبدأ العام:

طبق المسلمون تطبيقاً رائعاً الآية الكريمة: ﴿ وَيُطْعَمُونَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان: ٨). وكذلك قوله (ﷺ) "استوصوا بالأسارى خيراً"^(٥٥) ولم يقصروا ذلك على مجرد الطعام وإنما بسطوه إلى كل الحاجات الضرورية للأسير، واللازمة للحفاظ على تكامله الجسدي وسلامته الصحية، وكذلك تكامله المعنوي.

– أمثلة تؤيد المبدأ السابق من السنة النبوية:

الأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها ما يلي:

– من ذلك حينما أقبل أسارى بدر فرقمهم الرسول (ﷺ) بين أصحابه، وقال: استوصوا بالأسارى خيراً. قال أبو عزيز: وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غذاءهم وعشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها. قال: فأستحيي فأردها على أحدهم فيردها على ما يمسه.^(٥٦)

– كذلك روى البخاري أنه لما كان يوم بدر أتى بالأسارى وأتى بالعباس (ابن عبدالمطلب) ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي (ﷺ) له قميصاً، فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه فكساه النبي (ﷺ) إياه، فلذلك نزع النبي (ﷺ) قميصه الذي ألبسه قال ابن عيينة كانت له عند النبي (ﷺ) يد فأحب أن يكافئه.^(٥٧)

٥٥-البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، ابن حمزة الحسيني الحنفي الدمشقي، المرجع السابق، ج ١ ص ١٣١، حديث رقم ٢٢٦ (أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عزيز رضي الله عنه)؛ السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٦٤٥.

٥٦-البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، ابن حمزة الحسيني الحنفي الدمشقي، المرجع السابق، ج ١ ص ١٣١.

٥٧-فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الإمام ابن حجر العسقلاني، دار المنار، القاهرة، ١٤١٩ - ١٩٩٩، ج ٦، ص ١٥٤، رقم ٣٠٠٨ (باب الكسوة للأسارى).

- وحينما أسر المسلمون ثمامة بن أثال ربطوه بسارية من سواري المسجد وطلب الرسول (ﷺ) منهم أن يحسنوا إيساره، ورجع الرسول إلى أهله، فقال: اجمعوا ما عندكم من طعام، فابعثوا به إلى ثمامة، وأمر بناقته أن يغدى عليه بها ويراح، ثم قال له الرسول (ﷺ): أسلم يا ثمامة، فيقول: يا محمد إن تقتل تقتل ذا دم وإن ترد الفداء فسل ما شئت، فمكث مدة ثم أطلقه الرسول (ﷺ)، وأسلم ثمامة بعد ذلك.^(٥٨)

ثالثاً: الجمع بين الضرورات المادية والمعنوية للأسير:

لم تقتصر السنة النبوية المشرفة على «الجانب المادي» فقط بالنسبة للحاجات الضرورية للأسير، بل وفرت لهم أيضاً «الجانب المعنوي»، فقد قررت السنة كما سنذكره لاحقاً^(٥٩) عدم جواز التفريق بين الأقارب الأسرى خصوصاً قوله (ﷺ): "من فرق بين والدته وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة".

٢ - إمكانية تقييد حرية الأسير وهو في الأسر:

إذا تم الأسر، فمن الطبيعي أن تتخذ الاحتياطات اللازمة لمنع هروب الأسرى.

أولاً: في القانون الدولي:

نصت المادة ٢١ / ١ من اتفاقية جنيف الثالثة لعام ١٩٤٩ بخصوص أسرى الحرب على جواز تقييد حرية الحركة Restriction of liberty of movement للأسرى: إذ يجوز للدولة الحاجزة إخضاعهم للاعتقال Internment، ولها أن تلزمهم بعدم تجاوز حدود معينة في المعسكر المعتقلين فيه، أو بعدم تجاوزه إذا كان مسوراً. كذلك لا يجوز أن يستمر هذا الوضع على أية حال لأكثر مما تتطلبه الظروف التي دعت إليه.

٥٨- السيرة النبوية لابن هشام، المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٣٨.

٥٩- راجع ما ذكرناه لاحقاً.

ثانياً: في السنة النبوية المشرفة:

منذ عهد النبي (ﷺ)، تم اتخاذ كافة الاحتياطات اللازمة لمنع هروب الأسرى من الأماكن التي اعتقلوا فيها.^(٦٠)

٣- مصير أسرى الحرب:

أولاً - في القانون الدولي:

جاء في الباب الرابع من اتفاقية جنيف الثالثة لعام ١٩٤٩ الخاصة بأسرى الحرب، إن انتهاء حالة الأسر يكون للأسباب الثلاثة الآتية: أولاً: إعادة الأسرى مباشرة إلى الوطن (ويكون ذلك بالنسبة للأسرى المصابين بأمراض خطيرة أو جروح خطيرة أو الميئوس من شفائهم أو المصابين بأمراض عقلية مستديمة) أو إيوائهم في بلد محايد. ثانياً: ضرورة الإفراج عن أسرى الحرب وإعادتهم إلى أوطانهم دون إبطاء بعد انتهاء العمليات العدائية. ثالثاً: وفاة أسرى الحرب.

ثانياً - في السنة النبوية:

أكدت السنة النبوية المشرفة بخصوص الأسرى ما يلي:

أولاً: أمر الأسرى متروك إلى الإمام بحسب ما يراه من المصلحة، فالأمر في أسرى الكفرة من الرجال إلى الإمام يفعل ما هو الأحظ للإسلام والمسلمين.^(٦١) لذلك يقول الإمام الخطابي إن اختيار الإمام يكون ضابطه كونه:

٦٠- فعن النبي (ﷺ): "عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل".

يقول الإمام البغوي: «فيه دليل على جواز الاستيثاق من الأسير الكافر بالرباط، والغل والقيد إذا خيف انفلاته، ولم يؤمن شره». راجع شرح السنة، الإمام البغوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢ - ١٩٩٢ ج٥، ص ٥٩٣. وعن أبي هريرة: قال بعث النبي (ﷺ) خيلاً فجاءت برجل فربطوه بسارية من سواري المسجد، في هذا دليل جواز ربط الأسير بالمسجد، وإن كان كافراً. سبل السلام، الصنعاني، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩٩. ومنذ عهد النبي (ﷺ) كان يتم حراسة الأسارى، فعن أسلم الأنصاري قال: جعلني النبي (ﷺ) على أسارى بني قريظة (راجع أمثلة أخرى في نظام الحكومة المدنية المسمى التراتيب الإدارية، الشيخ عبد الحلي الكتاني، المرجع السابق، ج ١، ص ٣١٢).

٦١- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، المرجع السابق، ج ٦، ص ١٦٣، ابن قيم الجوزي: زاد المعاد في هدي خير العباد، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢١٥.

"أصلح ومن أمر الدين وإعزاز الإسلام أوقع"^(٦١) ويقول الماوردي إن اختيار الإمام يكون: "على وجه الأحوط الأصلح"^(٦٢)

ثانياً - الخيارات المتاحة للإمام:^(٦٣) تتمثل هذه الخيارات في الآتي:

١- القتل (إذا كان الأسير قد ارتكب جريمة حرب): يتفق ذلك مع ما هو مستقر في القانون الدولي المعاصر من محاكمة الأسير عن جرائم الحرب التي اقترفها. فإذا لم يرتكب جريمة حرب فلا يجوز محاكمته أو معاقبته. وقد ورد في السنة النبوية ما يؤيد ذلك.

عن سالم عن أبيه أنه حينما بعث النبي (ﷺ) خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا فجعل خالد يقتل منهم ويأسر ودفع إلى كل رجل منا أسيره حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قدمنا على النبي (ﷺ) فذكرناه فرفع يده فقال اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين.

كذلك أتى رسول الله (ﷺ) بأسير يردد فقال ادفؤه يريد ادفؤه من الدفاء ولم يكن من لغته (ﷺ) الهمز فذهبوا به فقتلوه فوداه رسول الله (ﷺ) ولو أراد قتله لقال دافوه ودافوا عليه بالثقل.^(٦٤)

٦٢- معالم السنن، الإمام الخطابي، وهو شرح سنن أبي داود، المكتبة العلمية، بيروت، ١٤٠١ - ١٩٨١، ج ٢، ص ٢٨٩.

٦٣- الأحكام السلطانية، الماوردي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص ١٥٠ وما بعدها.
٦٤- انظر عرضاً لكل الآراء المذكورة هنا في د. أحمد أبو الوفا: كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي والعلاقات الدولية في شريعة الإسلام، ج ١٠: الحرب في الشريعة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٤٢١-٢٠٠١، ص ٢١٩-٢٢٠.

٦٥- أفضية رسول الله ﷺ، الإمام ابن الطلاع، دار الوعي، حلب، ١٤٠٢ - ١٩٨٢، ص ٣٩ (ذكره الخطابي)

٢- المن: طبق النبي (ﷺ) المن على الأسرى. من ذلك ما حدث لثمامة بن أثال. (٦٦)

كذلك جيء بأسير إلى رسول الله (ﷺ) فقال: أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد، فقال (ﷺ): «عرف الحق لأهله»، ثم قال: خلوا سبيله. (٦٧)
ومن ذلك ما حدث بين النبي وأبي جرول يوم حنين. (٦٨)
ولا شك أن المن ثابت أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ

٦٦- عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله (ﷺ) خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بنيحنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة فريطوه بسارية من سواري المسجد فخرج إليه رسول الله (ﷺ) فقال ماذا عندك يا ثمامة؟ قال عندي يا محمد خير أن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم علي شاكراً، وإن كنت تريد المال، فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله (ﷺ) حتى كان بعد الغد، فقال ما عندك يا ثمامة؟ قال عندي ما قلت لك، إن تنعم تنعم علي شاكراً، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله (ﷺ) حتى كان بعد الغد، فقال ما عندك يا ثمامة؟ قال عندي ما قلت لك، إن تنعم تنعم علي شاكراً، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت فتركه رسول الله (ﷺ) حتى كان بعد الغد، فقال ما عندك = يا ثمامة؟ قال عندي ما قلت لك، إن تنعم تنعم علي شاكراً، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت فقال رسول الله (ﷺ) أطلقوا ثمامة، فانطلق إلي نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، يا محمد والله ما كان علي الأرض أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إلي، والله ما كائن بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلي، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا تري؟ فبشره رسول الله (ﷺ) وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل صبوت؟ فقال لا، ولكنني أسلمت مع رسول الله (ﷺ) ولا والله لا تأتكم من ثمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله (ﷺ) «متفق عليه».

نيل الأوطار، الشوكاني، المرجع السابق، ج٧، ص٣٠١ - ٣٠٢، باب المن والفداء في حق الأسارى، حديث رقم ٣؛ صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٢، ص٨٦ - ٨٩.
٦٧- البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، ابن حمزة الحسيني الدمشقي الحنفي، المرجع السابق، ج٣، ص٧، حديث رقم ١١٨١.

٦٨- قال أبو جرول:

أسرنا النبي (ﷺ) يوم حنين، فبينما هو يميز الرجال والنساء، إذ وثبت فوقفت بين يديه وأشدته:
امن علينا رسول الله في حرم
امن علي نسوة قد كنت ترضعها
فإنك المرء نرجوه ومنتظر
يأرجح الناس علماً حين يختبر
وعدنا بعد هذا اليوم مدخر
إنا لنشكر للنعماء إذا كفرت

فذكرته حين نشأ في هوازن وأرضعوه؛ فقال عليه الصلاة والسلام: أما ما كان لي ولبنني عبدالمطلب فهو لله ولكم. فقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لله ولسوله فردت الأنصار ما كان في أيديها من الذراري والأموال. (العقد الفريد دار الكتب العلمية، ابن عبدربه، بيروت، ١٤٠٤ - ١٩٨٣، ج٦، ص١٢٩).

الرَّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَّخِذْتُمُوهُمْ فَسُدُّوا الْوُثَاقَ فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَامًا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ
الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴿٤﴾ «محمد: ٤» .

وقد ذهب اتجاهه في الفقه الإسلامي إلى أن المن كان من خصوصيات
النبي ﷺ دون غيره، وبالتالي لا يجوز لمن بعده من أئمة المسلمين أن يمن على
الأسرى. (٦٩)

٣- الفداء:

كذلك في السنة النبوية ما يدل على جواز فداء الأسري (بمال أو بغيره):
عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمئة. «رواه
أبو داود». وعن عائشة قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب في
فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة كانت لها. وعن عمران بن حصين أن
رسول الله ﷺ فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين من بني عقيل «رواه
أحمد والترمذي وصححه». وعن ابن عباس قال: كان ناس من الأسرى يوم بدر
لم يكن لهم فداء فجعل لهم رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار
الكتابة. (٧٠)

٦٩-رد علي هذا الإتجاه الإمام الخطابي بقوله:

«التخصيص في أحكام الشريعة لا يكون إلا بدليل والنبى (ﷺ) إذا حكم بحكم في زمانه كان ذلك سنة
وشريعة في سائر الأزمان وقد قال سبحانه: (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم
فسدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء.) الآية. وهذا خطاب لجماعة الأمة كلهم ليس فيه تخصيص للنبى
(ﷺ) وإنما كان فعله إمتثالاً للآية، وأما الذين اعتلوا به من تقوية الكفر فإن الإمام إذا رأى أن يعطي كافراً
عطية يستمليه بها إلى الإسلام كان ذلك جائزاً وإن كان في ذلك تقوية لهم فكذلك هذا. وقد أعطي النبي
(ﷺ) رجلاً من الكفار غنماً بين جبلين. حدثنا ابن الأعرابي حدثنا عبدالرحمن بن منصور الحارثي حدثنا
عبدالرحمن بن يحيى بن سعيد العذري عن مالك بن أنس عن أبي الزناد عن خارجة بن زيد بن ثابت عن
أبيه، قال جاء من العرب إلي رسول الله (ﷺ) فسأله شيئاً بين جبلين فكتب له بها فأسلم ثم أتى قومه
فقال جئتكم من عند رجل يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة» (معالم السنن، الإمام الخطابي، المرجع السابق،
ج ٢، ص ٢٩٠).

٧٠-نيل الأوطار، الشوكاني، المرجع السابق، ج ٧، ص ٣٠٥، باب المن والفداء في حق الأسارى، حديث
رقم ٨.

٤- عدم جواز تعذيب الأسير:

لا يجوز تعذيب الأسير بحال. فقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال في بني قريظة:
"لا تجمعوا عليهم حر هذا اليوم وحر السلاح ولا تمثلوا"^(٧١)

والدليل على عدم جواز تعذيب الأسير، ما كان يوم بدر، فقد أسر المسلمون غلاماً في غزوة بدر وأخذوا يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه، فيقول لهم مالي علم بأبي سفيان ولكن أبو جهل وعتبة وشيبة وأمّية بن خلف، فإذا قال ذلك ضربوه مع أنه الصدق، ليكرهوه فيقول: هذا أبو سفيان فإذا قال ذلك تركوه مع أنه يكذب، وكرروا ذلك معه والرسول قائم يصلى. فلما انتهى من صلاته قال لهم: والذي نفسي بيده إنكم لتضربوه إذا صدقكم، وتتركوه إذا كذبكم.^(٧٢)

٥- حق الأسير في إطلاق سراحه بمقتضى عهد منه بعدم القتال مرة أخرى:

هذه المسألة نظمتها أيضاً السنة النبوية المشرفة. وسنجد أن القانون الدولي والقوانين الوطنية انتهت إلى نفس الحلول التي قررتها السنة النبوية منذ أكثر من أربعة عشر قرناً.

- في السنة النبوية:

ورد بخصوص هذه المسألة في السنة النبوية أمران:

أولاً: إمكانية الإفراج عن الأسير بناء على وعد منه بعدم قتال العدو: من ذلك ما حدث حينما أخذ المشركون حذيفة بن اليمان وأباه وأخذوا عليهما العهد أن لا يقاتلنهم يوم بدر، فقال للنبي ﷺ، فقال: "وفوا لهم، ونستعين الله عليهم"^(٧٣)

٧١- شرح كتاب السير الكبير للإمام الشيباني، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٠٢٩.
٧٢- راجع أيضاً الأسس التي قام عليها تشريع الجهاد في الإسلام، حليم السيد عبدالله الصعيدي، رسالة دكتوراة كلية الشريعة والقانون، القاهرة ١٤٠٣ - ١٩٨٣، ص ٢٥٢. ومما يؤيد ذلك أنه لا يجوز تعذيب الأسير لإكراهه علي الإدلاء بمعلومات. فقد سئل مالك أيعذب الأسير إن رجي أن يدل علي عورة العدو؟ فقال: ما سمعت بذلك، راجع معالم الدولة الإسلامية، د. محمد سلام مذكور، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٣ - ١٩٨٣، ص ٢١٨.

معنى ذلك، في رأينا، أمران:

الأول: أن على الأسير الذي يتم الإفراج عنه تحت شرط واجب الوفاء بما وافق عليه، لأن الوفاء بالعهد من الأمور التي يجب احترامها في شريعة الإسلام. يقول تعالى: «وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً».

الثاني: أن على الحاكم أو رئيس الدولة أو القائد العام للجيش ألا يرغم الشخص المعني على الخروج عما اشترطه عليه الأعداء، وذلك مثلاً بتكليفه بالقيام بأعمال عسكرية. وإنما عليه واجب صرفه وعدم التزامه بذلك.

ثانياً: أن الأسير الذي يخالف عهده يستحق أقصى عقوبة:

من ذلك لما أسر أبو عزة الجمحي الشاعر ببدر فشكا عائلة وفقراً، فمن عليه النبي ﷺ وأطلقه بغير فداء، ثم ظفر به في أحد فقال: من عليّ وذكر فقراً وعائلة فقال: لا تمسح عارضيك بمكة تقول: سخرت بمحمد مرتين، وأمر به فقتل، وقال النبي ﷺ حينئذ: "لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين" (٧٤)

٢- في القانون الدولي:

يأخذ القانون الدولي أيضاً بإمكانية منح الأسير الحرية بناء على الكلمة المعطاة منه Liberté sur parole ويتمثل ذلك في تعهده بعدم المشاركة في القتال مرة أخرى أو بعدم مغادرة إقليم الدولة التي يتواجد فوق أراضيها (مثلاً الدولة المحايدة). في هذا المعنى تنص المادة ٢١ من اتفاقية جنيف الثالثة لعام ١٩٤٩ على أنه: «يجوز إطلاق حرية أسرى الحرب بصورة جزئية أو كلية مقابل وعد أو تعهد منهم بقدر ما تسمح بذلك قوانين الدولة التي يتبعونها. ويتخذ هذا الإجراء بصفة خاصة في الأحوال التي يمكن أن يسهم فيها ذلك في تحسين صحة الأسري. ولا

٧٣- البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، ابن حمزة الحسيني الدمشقي، المرجع السابق، ج٣، ص٣٤، ١٨١، حديث رقم ١٢٥١، ١٦٢٦.

٧٤- البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، ابن حمزة الحسيني الدمشقي، المرجع السابق، ج٣، ص٢٣٧، حديث رقم ١٧٨٨.

يرغم أي أسير علي قبول إطلاق سراحه مقابل وعد أو تعهد. علي كل طرف في النزاع أن يخطر الطرف الآخر، عند نشوب الأعمال العدائية، بالقوانين واللوائح التي تسمح لرعاياه أو تمنعهم من قبول الحرية مقابل وعد أو تعهد. ويلتزم أسري الحرب الذين يطلق سراحهم مقابل وعد أو تعهد وفقاً للقوانين واللوائح المبلغة علي هذا النحو بتنفيذ الوعد أو التعهد الذي أعطوه بكل دقة، سواء إزاء الدولة التي يتبعونها، أو الدولة التي أسرتهم. وفي مثل هذه الحالات، تلتزم الدولة التي يتبعها الأسرى بأن لا تطلب إليهم أو تقبل منهم تأدية أية خدمة لا تتفق مع الوعد أو التعهد الذي أعطوه».

٣- في القوانين الوطنية المعاصرة:

تنص القوانين في كثير من دول العالم علي أن الأسير الذي ينقض العهد الذي أفرج بناء عليه يمكن معاقبته بالإعدام، علي سبيل المثال يمكن أن نذكر هنا المادة ١٣٥ من قانون الأحكام العسكرية في مصر (القانون ٢٥ لسنة ١٩٦٦) والتي تنص علي أنه: "يعاقب بالإعدام كل أسير من الأعداء أسر من جديد أو قبض عليه وقد نقض العهد وحمل السلاح علي الجمهورية العربية المتحدة".

يتضح مما تقدم أن القانون الدولي والقوانين الوطنية الحديثة أخذت بنفس ما قرره السنة النبوية المشرفة بخصوص الأمور الآتية:

- إمكانية إطلاق سراح الأسير بناء على وعد منه بعدم الاشتراك في القتال.
- توقيع أقصى عقوبة على الأسير الذي ينقض ذلك الوعد.
- التزام الأسير وكذلك سلطات دولته بالوعد الذي أخذه على نفسه.

هـ- حق جمع شمل الأسرة (عدم التفريق بين الأقارب)

يمكن أن تتأثر الأسرة بويلات الحرب، خصوصاً تشتت وتفرق أفرادها نتيجة اندلاع العمليات الحربية، ونشير هنا إلى ما جاء في القانون الدولي، والسنة النبوية.

أ - في القانون الدولي:

تعرض القانون الدولي حديثاً لهذه المسألة، ويمكن إبراز أهم التطورات في هذا الخصوص، فيما يلي:

١- فقد نصت اتفاقية جنيف الرابعة لعام ١٩٤٩ في المادة ٢٦ منها علي إمكانية أن يقوم أفراد الأسر المشتتة نتيجة للحرب بإعادة اتصال to renew contact to كل فرد منها بالآخر، وبالتلاقي to meet.

٢- بينما نصت المادة ٧٤ من البروتوكول الإضافي الأول لعام ١٩٧٧ والملحق باتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩ علي ما يلي: «تسهل الأطراف السامية المتعاقدة وأطراف النزاع، بكل طريقة ممكنة، اجتماع الأسر المشتتة كنتيجة للنزاع المسلح»^(٧٥)

وسنجد أن السنة النبوية قد وضعت حماية أكبر من تلك التي قررها القانون الدولي المعاصر، والذي يقتصر علي: ١- مجرد إعادة الاتصال أو التلاقي. ٢- التسهيل بقدر الإمكان، لعملية اجتماع الأسر المشتتة. بينما السنة النبوية المشرفة تضع إلزاماً علي عاتق المسلمين بعدم التفريق بين الأقارب وهو ما نبخثه الآن.

ب - في السنة النبوية:

محافظة علي حقوق الأقارب، خصوصاً الصغار منهم، أكدت السنة النبوية علي جمع شملهم وعدم التفريق بينهم، يدل علي ذلك ما يلي: عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من فرق بين والدته وولدها

٧٥- تذكر لك النص باللغة الإنجليزية:

“The High contracting parties and the parties to the conflict shall facilitate in every possible way the reunion of families dispersed as result of armed conflicts” (article 74)

فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة» رواه أحمد وصححه الترمذي.

يقول الإمام الصنعاني أن الحديث: «نص في تحريم التفريق بين والدته وولدها وقيس عليه سائر الأرحام المحارم بجامع الرحامة»^(٧٦)

وعن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أبيع غلامين أخوين فبعتهما ففرقت بينهما فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «أدركما فارتجعهما ولا تبعيهما إلا جميعاً» رواه أحمد ورجاله ثقات وقد صححه ابن خزيمة.^(٧٧)

وعن أبي موسى، قال: لعن رسول الله ﷺ من فرق بين الوالد وولده، وبين الأخ وأخيه، رواه ابن ماجه والدارقطني.^(٧٨)

وروي عن رسول الله ﷺ أنه أتني بسبي فقام فنظر إلي امرأة منهن تبكي، فقال: ما يبكيك؟ فقالت: ابني بيع في بني عبس، فقال رسول الله ﷺ لأبي سعيد الأنصاري: فرقت بينهما فلترجعن ولتأتين به، فرجع فأتي به، وروي عن عمر رضي الله عنه، أنه كتب ألا يفرق بين الأخوين، وبين الأم وولدها، يعني إذا كانا صغيرين، أو كان أحدهما صغيراً والآخر كبيراً.^(٧٩)

كذلك جاء في الأثر عن النبي ﷺ حين رأى جارية والهة في الغنيمة، فقال: ما حالها؟ فقيل: بيع ولدها. قال: لا توله والدته بولدها.^(٨٠)

٧٦- سبل السلام، الصنعاني، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٩٤ - ٤٩٥، كتاب البيوع، حديث رقم ٣٠.

٧٧- يقول الصنعاني:

«والحديث دليل علي بطلان هذا البيع، ودل علي تحريم التفريق كما دل عليه الحديث الأول إلا أن الأول دل علي التفريق بأي وجه من الوجوه وهذا الحديث نص في تحريمه بالبيع، وألحقوا به تحريم التفريق بسائر الإنشاءات، كالهبة والنذر وهو ما كان باختيار المفرق، وأما التفريق بالقسمة فليس باختياره فإن سبب الملك قهري وهو الميراث». (المرجع السابق، ص ٤٩٦)

٧٨- المنتقى من أخبار المصطفي، مجد الدين بن تيمية الحراني، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ج ٢، ص ٣٢٦.

٧٩- شرح كتاب السير الكبير للإمام الشيباني، الإمام السرخسي، المرجع السابق، ج ٥، ص ٢٠٧٣.

٨٠- ذات المرجع، ج ٣، ص ١٠٤٠.

يتضح مما تقدم عدة أمور:

أولاً- أن الأدلة في السنة النبوية المشرفة متظاهرة في النهي عن التفريق بين الأم وولدها، أو بين الصغار والأقارب. بل وصل احترام المسلمين لهذه السنة النبوية المشرفة حد أن قال الإمام الشيباني إنه في حالة العجز عن حمل الأم والولد معاً وكان أخذ الولد بمفرده لا يمكن تغذيته فيجب إما تركهما معاً أو أخذهما معاً^(٨١).

ثانياً- أن الأثر المترتب علي مخالفة قاعدة عدم التفرقة بين الأم وولدها أو بين الصغار واضح جداً في السنة النبوية: ضرورة جمعهما معاً.

ثالثاً- أنه لما كان النهي الوارد عن النبي ﷺ يخص الصغار فقط، فإن معنى ذلك أن التفرقة بين الكبار جائزة. ^(٨٢)

رابعاً- أن العلة من عدم التفريق بين الأقارب جد واضحة: توفير الحاجات المعنوية اللازمة للإنسان كإنسان، وقد قال أحمد: "لا تفرق بين الأم وولدها وإن رضيت وذلك والله أعلم لما فيه من الإضرار بالولد ولأن المرأة قد ترضى بما فيه

٨١- ذات المرجع، ج ٤، ص ١٥٥٩.

٨٢- دليل ذلك: عن سلمة بن الأكوع، قال: خرجنا مع أبي بكر أمره علينا رسول الله (ﷺ) فغزونا فزاره، قال: فلما دنونا من الماء أمرنا أبو بكر، فعرسنا، فلما صلينا الصبح، أمرنا أبو بكر فشننا الغارة فقتلنا على الماء من قتلنا. قال: ثم نظرت إلى عنق من الناس، فيه الذرية والنساء، نحو الجبل، وأنا أعدو في إثرهم، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فرميت بسهم، فوقع بينهم وبين الجبل. قال: فجئت بهم أسوفهم، إلى أبو بكر، وفيهم امرأة من فزاره عليها قشع من أدام، ومعها ابنة لها من أحسن العرب. قال: فنفلني أبو بكر ابنتها، فلم أكشف لها ثوباً، حتى قدمت المدينة.

ثم بت، فلم أكشف لها ثوباً. فلقيني النبي (ﷺ) في السوق، فقال لي زيا سلمة، هب لي المرأة، فقلت: يا رسول الله، لقد أعجبتني: وما كشفت لها ثوباً، فسكت وتركني، حتى إذا كان من الغد، لقيني في السوق، فقال: زيا سلمة، هب لي المرأة، لله أبوكس فقلت: هي لك يا رسول الله، قال: فبعث بها إلى أهل مكة، وفي أيديهم أسارى من المسلمين، ففداهم بتلك المرأة. رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

وهو حجة في جواز التفريق بعد البلوغ، وجواز تقديم القبول بصيغة الطلب على الإيجاب في الهبة ونحوها. وفيه أن ما ملكه المسلمون من الرقيق. يجوز رده إلى الكفار في الفداء.

(المنتقى من أخبار المصطفى، مجد الدين بن تيمية الحراني، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ج ٢، ص ٣٢٧).

ضررها ثم يتغير قلبها بعد ذلك فتندم^(٨٣)

خامساً - أن السنة النبوية المشرفة تكون بذلك قد تفوقت على ما توصل إليه القانون الدولي من ناحيتين: ١- أنها تجعل عدم التفريق إلزام وواجب على عاتق المسلمين، بينما اقتصر القانون الدولي على تجميع الأسرة المشتتة "بقدر الإمكان"، وهو ما يترك فسحة من السلطة التقديرية يمكن أن تسئ الدول، وكذلك الأفراد، استغلالها. ٢- أنها تعتبر التفريق، إن حدث، حراماً، بينما القانون الدولي لا يعتبره كذلك.

و- حقوق الميت وقت الحرب:

نشير أولاً إلى حقوق الميت في القانون الدولي، ثم نذكر بعد ذلك ما ورد في السنة النبوية.

أ- في القانون الدولي:

في إطار قواعد القانون الدولي الإنساني يجب مراعاة ما يلي بخصوص الموتى خلال النزاعات المسلحة:

- أن يسبق دفنهم فحصاً طيباً للتأكد من الوفاة.
- دفن الموتى بكرامة ووفقاً للطقوس الدينية للميت، إن أمكن ذلك.
- احترام مقابر الموتى وحراستها.
- تسهيل عودة رفات الموتى إلى بلدتهم الأصلي. ^(٨٤)

ب- في السنة النبوية:

احتوت السنة النبوية على خمسة أحكام تتعلق بحقوق الموتى أثناء الحروب، هي:

٨٣- المغني والشرح الكبير، ابن قدامة، ج ١٠، ص ٤٦٨ - ٤٧١: البهوتي: كشف القناع عن متن الإقناع، ج ٣، ص ٥٧ - ٥٨.

٨٤- راجع على التوالي المواد ١٧، ٢٠، ١٣، ٦٦، ١٢٠ - ١٢٢، ٩٢١ - ٩٣١، ٧٣١، ١٣١ من اتفاقات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩: انظر أيضاً المادة ٣٤ من البروتوكول الأول (١٩٧٧).

- ١- ضرورة دفن قتلى الحروب: من ذلك ما رواه مالك أنه بلغه أن عمرو بن الجموح وصحابي آخر كانا في قبر واحد وهما ممن استشهد يوم أحد. ^(٨٥)
- ٢- عدم جواز أخذ ثمن لقاء تسليم جثث قتلى الحرب: عن ابن عباس: «أن المشركين أرادوا أن يشتروا جسد رجل من المشركين فأبى النبي (ﷺ) أن يبيعهم» أخرجه الترمذي وغيره. وذكر ابن اسحق في المغازي «إن المشركين سألوا النبي (ﷺ) أن يبيعهم جسد نوفل بن عبدالله بن المغيرة، وكان اقتحم الخندق؛ فقال النبي (ﷺ): لا حاجة لنا بثمنه ولا جسده» فقال ابن هشام: بلغنا عن الزهري أنهم بذلوا فيه عشرة آلاف. ^(٨٦) وفي ذلك دليل لأبي يوسف على أبي حنيفة ومحمد أنه لا يجوز للمسلم بيع الميتة من الحربى في دار الحرب. ^(٨٧)
- ٣- كراهية حمل رؤوس قتلى الأعداء إلى دار الإسلام: احتراماً لحرمة الموتى، يكره حمل رؤوس قتلى الأعداء إلى بلاد الإسلام. يقول الإمام المقرئ: «ويكره نقل رؤوس الكفر إلى بلد الإسلام لنهي أبي بكر (رضي الله عنه) عن ذلك، وقال: ما فعل هذا في عهد النبي (ﷺ). وما روي في حمل رأس أبي جهل فقد

٨٥-الموطأ للإمام مالك، كتاب الجهاد، ص ٢٩٠، حديث رقم ٥٠. يقول الإمام الباجي بخصوص هذه الحادثة:

زود ذلك أنه لما اشتد على المسلمين حفر القبور يوم أحد لكثرة القتلى وكان قد بلغ منهم التعب والنصب وروي أنه (ﷺ) قال لهم احفروا وأعمقوا وأوسعوا وادفنوا الاثني والثلاثة في قبر واحد وقدموا أكثرهم قرأنا فعلى هذا يجوز مثل هذا للضرورة قال مالك وإلا فالسنة أن يدفن كل واحد منهم في قبر وإنما يقدم في القبر أفضلهم وهو من كان أكثرهم قرأنا في ذلك الوقت فيجعل مما يلي القبلة ثم يجعل غيره بعد ذلك مما يليه وهذا يقتضي تفضيل النبي (ﷺ) لأهل القرآن وحض أصحابه على الاستكثار من أخذهم. المنتقى، الإمام الباجي، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٢٥.

٨٦-فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، المرجع السابق، ج ٦، ص ٣٠٦.
٨٧-تحقيق صفوت السقا، مكتبة ربيع، مسند الإمام أبو حنيفة، حلب ١٣٨٢ - ١٩٦٢، ص ١٥٥، المبسوط للسرخسي، دار المعرفة، بيروت، ج ١٠، ص ٢٢.

تكلّموا فيه وعلى تقدير ثبوته فإنما نقل من بقعة إلى بقعة ليتحقق قتله»^(٨٨)
ومما يروى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه حينما بعث إليه برأس يناق بطريق الشام فلما
قدم عليه أنكر ذلك أبو بكر فقال له عقبه يا خليفة رسول الله إنهم يصنعون ذلك
بنا فقال أبو بكر أفاستنان بفارس والروم لا يحملوا إلى رأساً فإنما يكفي لنا الكتاب
والخبر. ^(٨٩)

٤- دفن القتلى في مضاجعهم: فقد قال رضي الله عنه: "ادفنوا القتلى في مصارعهم".
قاله يوم أحد، لكن الحكم عام إذ العبرة هي بعموم اللفظ لا بخصوص
السبب، فيسرى على أي قتيل يقتل في ميدان القتال أن يدفن في المكان الذي
قتل فيه.

وسبب الحديث: أنه قد حمل القتلى يوم أحد ليتم دفنهم (في البقيع)، فجاء

٨٨- إخلاص الناي، المقرئ، تحقيق الشيخ عبد العزيز زلط، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة،
١٤٢١ - ٢٠٠٠، ج ٤، ص ٢١٦ - ٢١٧.

ويذكر الإمام الطحاوي أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب من أحد أصحابه أن يأتيه برأس رجل تزوج امرأة أبيه من
بعده. وعن عبد الله بن الديلمي عن أبيه قالس أتينا رسول الله (١) برأس الأسود العنسي الكذاب.
ونحن نعتقد والله أعلم - أن ذلك لا يناقض ما ذكرناه من كراهة حمل رؤوس قتلى الأعداء، لأن
الحادثتين تتعلقان بأشخاص لم يتم قتلهم أثناء الحرب. يقول الإمام الطحاوي (بخصوص العنسي
الكذاب):

وإذا كان اتيانهم به إليه من اليمن ليقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على نصر الله عز وجل إياه عليه وعلى كفاية
المسلمين شأنه.

وكان كتاب الله عز وجل قد دل على شيء من هذا بقوله: "الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة
جلدة" إلى قوله تعالى "وليشهد عداهما طائفة من المؤمنين" ويقول في آية المحاربين "أن يقتلوا أن يصلبوا"
وكان ذلك عندنا والله أعلم ليشتهر في الناس إقامة إنكار الله إياهم عليهم فكان مثل إظهار رؤوس من قتل
علي ما فعل عليه المحمول رؤوسهم في الآثار التي رويناها في ذلك ليقف الناس على النكال الذي نزل
بهم.

(مشكل الآثار، الطحاوي، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد الدكن، الهند، ١٣٣٣، ج ٤،
ص ١٠٦ - ١٠٧).

٨٩- يقول الإمام الطحاوي أن كراهية أبي بكر لذلك قد يحتمل أن يكون لعني قد وقف عليه في ذلك يعني عن
ذلك الفعل فقد كان لرأيه التوفيق وكان مثل هذا من بعد يرجع فيه إلى رأي الأئمة الذين يحدث مثل هذا
في أيامهم فيفعلون في ذلك ما يرونه صواباً وما يرونه من حاجة المسلمين إليه من استغنائهم به عنه. (مشكل
الآثار، الإمام الطحاوي، المرجع السابق، ج ٤، ص ١٠٨).

منادي رسول الله (ﷺ) أن تدفن القتلى في مضاجعهم.^(٩٠)
وورد في السير الكبير أن دفن القتلى في مضاجعهم: «حسن ليس بواجب: وإنما صنع رسول الله (ﷺ) لأنه كره المشقة عليهم بالنقل مع ما أصابهم من القرح»^(٩١)

٥- دفن القتلى في ثيابهم: فقد قال رسول الله (ﷺ) يوم أحد: «أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة. زملوهم في ثيابهم». كذلك قال عليه السلام في شهداء أحد: «زملوهم بدمائهم فإنهم يبعثون يوم القيامة وأوداجهم تشخب دما، اللون لون الدم والريح ريح المسك» ولهذا لا ينزع عنه جميع ثيابه، على ما روي أن حمزة رضي الله عنه كفن في ثمره كانت عليه حين استشهد، ولكن ينزع عنه السلاح لأنه كان لبسه لدفع البأس فقط انقطع ذلك.

الفصل الثالث

ضمانات احترام حقوق ضحايا الحرب في السنة النبوية

ورد في السنة النبوية، بين أمور أخرى، ضمانات ثلاث بخصوص حقوق الإنسان وقت الحرب، نذكرها تباعاً.

أ- عدم طاعة الجيش للأمر إذا أمرهم انتهاك حقوق الإنسان:

نشير إلى الوضع في القانون الدولي، ونردفه بما جاء في السنة النبوية.

أ- في القانون الدولي:

في إطار القانون الدولي المعاصر يتم بحث هذه المسألة على مستويين.^(٩٢)

٩٠- البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، ابن حمزة الحسيني الدمشقي، ج ١، المرجع السابق، ص ٦٩ - ٧٠، حديث رقم ٨٨.

٩١- شرح كتاب السير الكبير للشيباني، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٣٤.

٩٢- راجع:

Ahmed ABOU-EL-WAFA: Public International Law, Dar Al-Nahda Al-Arabia, Cairo,

١٤٢٢-٢٠٠٢، pp. ٦٥٢ - ٦٥٣.

١- مسؤولية القائد عن الجرائم التي يرتكبها أفراد الجيش الخاضعين له في وحداتهم العسكرية في الحالات الآتية:

- إذا كان قد أصدر الأوامر إليهم بارتكاب تلك الجرائم.
- إذا كان يعلم أو كان من المفترض أن يعلم بارتكابهم لتلك الجرائم ولم يتخذ ما هو لازم لمنعها.

٢- أن ارتكاب جرائم حرب تنفيذاً لأوامر عليا، صادرة عن الحكومة أو عن القائد الأعلى (أو ضابط أعلى) لا يعفى الجاني من المسؤولية. إنما يمكن أن يعتبر ذلك ظرفاً مخففاً *a mitigating circumstance* إلا أنه وفقاً للمادة ٣٣ من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية، يمكن أن يعفى الجاني من المسؤولية الجنائية بالشروط الآتية:

- إذا كان تحت وطأة التزام قانوني بتنفيذ الأمر الصادر إليه.
- إذا كان لا يعلم أن الأمر غير مشروع.
- إذا لم يكن الأمر غير مشروع بطريقة ظاهرة. وتعتبر الأوامر الخاصة بإبادة الجنس أو الجرائم ضد الإنسانية غير مشروعة بطريقة ظاهرة.

ب - في السنة النبوية:

القاعدة في السنة النبوية هي طاعة الجيش لأمرهم، وبالتالي تنفيذ الأوامر الصادرة منه إليهم. دليل ذلك ما يلي: عن أبي هريرة أن النبي (ﷺ) قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله. ومن يطع الأمير فقط أطاعني، ومن يعص الأمير فقط عصاني» متفق عليه. وعن ابن عباس في قوله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي، بعثه النبي (ﷺ) في سرية. رواه أحمد والنسائي. وعن علي قال: بعث رسول الله (ﷺ) سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء، فقال: اجتمعوا لي حطباءً، فجمعوا له. ثم قال: أوقدوا ناراً فأوقدوا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله (ﷺ) أن

تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى . قال: فادخلوها، فنظر بعضهم إلى بعض، وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله (ﷺ) من النار. فكانوا كذلك حتى سكن غضبه، فطفئت النار. فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله (ﷺ)، فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً» وقال «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»^(٩٣) . متفق عليه .

معنى ما تقدم إذن أن أمر القائد الذي ينطوي على انتهاك لقواعد القانون الدولي الإنساني يمكن عدم تنفيذه، لقوله (ﷺ) «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف» يقول الشوكاني أن هذا تقييد لما أطلق من الأحاديث المطلقة القاضية بطاعة أولي الأمر على العموم»^(٩٤)

ومما يؤيد ما قلناه ما حدث حينما دفع خالد بن الوليد - وكان أميراً للجيش - إلى كل مسلم أسيره وطلب منه أن يقتله. ففعل بعض المسلمين ذلك. وحينما علم رسول الله (ﷺ) بتلك الواقعة، قال: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد"^(٩٥) ولا شك أن ذلك دليل على أمرين:

الأول: عدم جواز تنفيذ أمر القائد إذا كان يشكل مخالفة واضحة لحقوق الإنسان وقت الحرب .

الثاني: إعطاء المثل لأي قائد آخر قد يرتكب مثل ما ارتكبه خالد بأن فعله لن يحظى بموافقة حاكم الدولة الإسلامية، ومن ثم فإنه لن يقدم على ذلك أبداً، لذلك قيل إن قوله (ﷺ) "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد": "لينزجر غير خالد بعد ذلك عن مثل فعله"، وقد بحث البخاري هذه المسألة تحت باب "إذا قضى الحاكم بجور أو

٩٣-فتح الباري شرح صحيح البخاري، المرجع السابق، ج ٦، حديث رقم ٢٩٥٥. راجع أيضاً الأحاديث المذكورة في مجلد الدين بن تيمية الحراني: المنتقى من أخبار المصطفى، المرجع السابق، ج ٢، ص ٧٦١ -

٧٦٢ .

٩٤-نيل الأوطار، الإمام الشوكاني، ج ٧، باب لزوم طاعة الجيش لأمرهم ما لم يأمر بمعصية، حديث رقم ٤ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

٩٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المرجع السابق، ج ١٣، ص ٢١٢، حديث رقم ٧١٨٩ .

خلاف أهل العلم فهو رد^(٩٦)

ب - حرية استخدام السلاح للإضرار بالعدو ليست مطلقة:

نذكر ما جاء بخصوص هذه المسألة في كل من القانون الدولي والسنة النبوية المشرفة.

أ - في القانون الدولي: في القانون الدولي المعاصر استقر مبدأ تقييد حرية أطراف النزاع في استخدام أسلحة القتال. فقد نصت عليه اللائحة المتعلقة بقوانين وأعراف الحرب البرية (لاهاي ١٩٠٧) بقولها (م ٢٢): "ليس للمتحاربين حق مطلق في اختيار وسائل إلحاق الضرر بالعدو". ونصت المادة ٢٣ على منع بعض الأمور، مثل: استخدام السم أو الأسلحة السامة، أو الأسلحة التي تحدث إصابات أو آلام لا مبرر لها. وأخذت بذلك أيضاً المادة ٣٥ / ١ من البروتوكول الإضافي رقم ١ لعام ١٩٧٧ الملحق باتفاقات جنيف لعام ١٩٤٩، بقولها أن: "حق أطراف النزاع في اختيار وسائل وأساليب الحرب ليست مطلقة".

(The right of the parties to conflict to choose methods of means of warfare is not unlimited of warfare is not unlimited).

ب - في السنة النبوية: وضعت السنة النبوية أيضاً العديد من القواعد التي تبين أن حرية استخدام السلاح ليست مطلقة، وإنما تحددها حدود معينة تجدد سببها إما في طبيعة العمليات الحربية، أو في الأسلحة المستخدمة أو بالنسبة لمن يوجه إليهم السلاح.

والغرض من ذلك هو - في النهاية - حماية حقوق الإنسان وقت الحرب .
دليل ذلك الأمور الآتية:

٩٦-المرجع السابق، نفس المكان.

١- ذهب فقهاء المسلمين إلى أنه لا يجوز إلقاء السم على العدو، أو استخدام النبل المسموم إلا كرد على استخدام العدو لها^(٩٧). ولا شك أن ذلك ينطبق أيضاً على شبيه السم: كالأسلحة الكيماوية والبكتريولوجية، والأسلحة الذرية وغيرها من الأسلحة التي تسبب آلاماً لا فائدة منها^(٩٨).

ومما يؤيد ذلك أن الرسول (ﷺ) قال فيما رواه عاصم بن ثابت: "من قاتل فليقاتل كما يقاتل". وكذلك ما وصى به أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) خالد بن الوليد حين بعثه لقتال المرتدين: «يا خالد عليك بتقوى الله والرفق بمن معك... والخوف عند أهل اليمامة، فإذا دخلت بلادهم فالخذر الخذر، ثم إذا لاقيت القوم فقاتلهم بالسلح الذي يقاتلونك به. السهم للسهم، والرمح للرمح، والسيف للسيف»^(٩٩)

٢- عن عبيد الله بن معاذ العنبري حدثنا أبي حدثنا كههمس عن ابن بريدة قال: «رأي عبد الله بن المغفل رجلاً من أصحابه يخذف فقال لا تخذف فإن رسول الله (ﷺ) يكرهه أو قال ينهي عن الخذف فإنه لا يصطاد به الصيد ولا ينكأ به العدو ولكنه يكسر السن ويفقأ العين ثم رآه بعد ذلك يخذف فقال له أخبرك أن رسول الله (ﷺ) كان يكرهه أو ينهى عن الخذف ثم أراك تخذف لا أكلمك كلمة كذا وكذا»^(١٠٠)

والحديث يدل، في رأينا، على أمور ثلاثة:

٩٦- المرجع السابق، نفس المكان.
٩٧- قال فقهاء المسلمين إنه "يحرم الرمي بالنبل المسموم... وكره مالك أن يسم النبل والرمح ويرمى بها العدو وقال ما كان هذا فيما مضى وعلل ذلك خشية أن يعاد إلينا" كتاب مواهب الجليل، لشرح مختصر خليل، الإمام الخطاب، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٨هـ، ج ٣، ص ٣٥٢.

٩٨- قيل نهى رسول الله (ﷺ): "أن يلقي السم في بلاد المشركين".
وسائل الشيعة، على تحصيل مسائل الشريعة، الحر العاملي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ١١، ص ٤٦.

٩٩- راجع مقدمة كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، خير الدين التونسي، تحقيق معن زيادة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٨، ص ١١٤.

١٠٠- يقول البغوي: الخذف: رميك الحصاة، أو النواة بين إبهامك والسبابة، أو تجعل لها مخدفة من خشب. شرح السنة، البغوي، المرجع السابق، ج ٥، ص ٤٥١.

الأول: النهي عن إلحاق الأذى غير المبرر أو المعاناة غير المفيدة Unnecessary suffering، وهو مبدأ مستقر الآن في القانون الدولي الإنساني المعاصر، سبقت السنة النبوية إلى الإشارة إليه بما يزيد على أربعة عشر قرناً.

يقول الإمام النووي إن في الحديث: "النهي عن الخذف لأنه لا مصلحة فيه ويخاف مفسدته ويلتحق به كل ما شاركه في هذا وفيه أن ما كان فيه مصلحة أو حاجة في قتل العدو وتحصيل الصيد فهو جائز"^(١٠١)

وعبارة "لا ينكأ به عدو" الواردة في الحديث تدل على ما ذكرناه، إذ معناها "المبالغة في الأذى"، أو كما قال ابن سيده "نكأ العدو نكاية أصاب منه"^(١٠٢)

الثاني: مقاطعة الدول التي تستخدم أسلحة محظورة وعدم الدخول في علاقات معها. دليل ذلك ما ورد في الحديث "أحدثك أن رسول الله (ﷺ) نهى عن الخذف ثم تخذف لا أكلمك أبداً". فيه هجران أهل البدع والفسوق ومنابذي السنة مع العلم وأنه يجوز هجرانه دائماً والنهي عن الهجران فوق ثلاثة أيام إنما هو فيمن هجر لحظ نفسه ومعايش الدنيا وأما أهل البدع ونحوهم فهجرانهم واجب وهذا الحديث مما يؤيده. ^(١٠٣)

الثالث: عدم جواز استخدام الأسلحة التي تصيب بلا تمييز. وهذا أيضاً مبدأ استقر في القانون الدولي المعاصر.

٣- اختلف فقهاء المسلمين حول تحريق العدو بالنار:

فكره قوم تحريقهم بالنار ورميهم بها، وقال بعضهم "إن ابتداء العدو بذلك جاز وإلا فلا. والسبب في اختلافهم معارضة العموم للخصوص، أما العموم فقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ (التوبة: الآية ٥) ولم يستثن قتلاً من

١٠١- صحيح مسلم بشرح النووي، المرجع السابق، ج ١٣، ص ١٠٦.
١٠٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، المرجع السابق، ج ٩، ص ٧١٤.
١٠٣- صحيح مسلم بشرح النووي، نفس المرجع، ج ١٣، ص ١٠٦، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، نفس المرجع، ج ٩، ص ٧١٤.

قتل. وأما الخصوص لقوله (ﷺ) في رجل "إن قدرتم عليه فاقتلوه ولا تحرقوه بالنار فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار".

وتعليقاً على قوله (ﷺ) "لا يعذب بالنار إلا رب النار"، يقول الإمام الخطابي: «هذا إنما يكره إذا كان الكافر أسيراً قد ظفر به وحصل في الكف». ويضيف: «ورخص سفيان الثوري والشافعي في أن يرمي أهل الحصون بالنيران إلا أنه يستحب أن لا يرموا بالنار ما داموا يطاقون إلا أن يخافوا من ناحيتهم الغلبة فيجوز حينئذ أن يقذفوا بالنار»^(١٠٤)

يخلص من رأي فقهاء المسلمين أن القاعدة عندهم كانت عدم جواز استخدام النار في قتال العدو، وأن استخدامها يشكل الاستثناء. ونحن نعتقد أن القاعدة الآن يجب أن تصبح استثناء وأن الاستثناء يصبح هو القاعدة، بمعنى أن استخدام النار هو الأساس في القتال وعدم استخدامه ممكن في أحوال استثنائية إذا أمكن قهر العدو بلا نيران، لاستسلامه المسبق مثلاً. لتأييد رأينا نذكر الحجج الآتية:

أولاً: أن الخلاف الذي كان بين فقهاء المسلمين يرجع إلى وقت لم تكن الأسلحة النارية منتشرة فيه على نطاق واسع، وبالتالي كان لذلك الخلاف محل. أما الآن فقد تغير الوضع تغيراً جذرياً وأصبحت أغلب الأسلحة حالياً نارية، الأمر الذي يجعل سبب الخلاف السابق غير موجود. فقد كانت الأسلحة الشائعة في زمانهم هي السيوف والنبل والدروع ... الخ.

ثانياً: أن هناك قاعدة شرعية مؤداها «تغير الأحكام بتبدل الأزمان والأحوال»، وهي قاعدة طالما أكد عليها فقهاء المسلمين بالنسبة للأمور الدنيوية خصوصاً. وهو ما أكده قوله (ﷺ): "أنتم أعلم بأمور دنياكم".

ثالثاً: مما يؤيد ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ

١٠٤ - معالم السنن، الخطابي، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

رَبَاطِ الْحَيْلِ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴿الأنفال: الآية ٦٠﴾، ولا شك أن القوة - كما هو معلوم - تشمل أية قوة، بما في ذلك الأسلحة النارية.

رابعاً: أن القول بعكس ذلك سيؤدي إلى أن تكون الجيوش الإسلامية في وضع أسوأ من جيوش العدو، بما يؤدي - لا قدر الله - إلى وقوع الهزيمة لا محالة. إذ أغلب الأسلحة الآن أصبحت «نارية»، الأمر الذي يحتم ضرورة محاربة العدو بنفس سلاحه، ولو كان باستخدام النار.

٤- عن ثور بن يزيد أن النبي (ﷺ) نصب المنجنيق على أهل الطائف. ^(١٠٥) يقول الإمام ابن قيم الجوزي: إنه يخلص من غزوة الطائف أحكام منها: «جواز نصب المنجنيق على الكفار ورميهم به وإن أفضى إلى قتل من لم يقاتل من النساء والذرية» ^(١٠٦) ومن المعروف أن قذائف المنجنيق «قد تصيب وتقتل غير المحاربين من النساء والأطفال والشيوخ والرهبان في صوامعهم، والحيوانات والأشجار». يقول الصنعاني: إن ذلك فيه دليل علي أنه «يجوز قتل الكفار إذا تحصنوا بالمنجنيق، ويقاس عليه غيره من المدافع ونحوها» ^(١٠٧)

المبحث الثالث

جواز خدع الحرب وحظر الغدر

للحرب تكتيكاتها ومكايدها، كما أن لها حيلها التي يعرفها من درب الحرب وسلك سبلها.

وقد أجازت السنة النبوية المشرفة حيل الحرب، لكنها حرمت الغدر تماماً لما فيه من انتهاك لحقوق الإنسان، حتى ولو كان من الأعداء.

١٠٥- نيل الأوطار، الشوكاني، المرجع السابق، ج٧، ص ٢٤٥، باب جواز تبييت الكفار ورميهم بالمنجنيق، حديث رقم ٢.

١٠٦- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزي، المرجع السابق، ج٢، ص ١٩٩.

١٠٧- راجع سبل السلام، الصنعاني، المرجع السابق.

أ- جواز اللجوء إلى حيل و خدع الحرب:

نشير إلى الوضع في القانون الدولي، ثم في السنة النبوية:

١- في القانون الدولي: في القانون الدولي ليس هناك ما يمنع من استخدام خدع الحرب. ولعل خير نص يقرر ذلك هو المادة ٣٧ / ٢ من البروتوكول الإضافي رقم (١) لعام ١٩٧٧ والملحق باتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩، والتي قررت: «خدع الحرب ليست محظورة. وتعتبر من خدع الحرب الأفعال التي لا تُعدُّ من أفعال الغدر لأنها لا تستثير ثقة الخصم في الحماية التي يقررها القانون الدولي، والتي تهدف إلى تضليل الخصم أو استدراجه إلى المخاطرة ولكنها لا تخل بأية قاعدة من قواعد ذلك القانون التي تطبق في النزاع المسلح».

وقد ذكر نفس النص كأمثلة علي أفعال تشكل خدع الحرب، ما يلي:

- استخدام أساليب التمويه والإيهام.

- عمليات التضليل.

- ترويع المعلومات الخاطئة.

كذلك نصت اللائحة المتعلقة بقوانين وأعراف الحرب البرية (لاهاي ١٩٠٧) في المادة ٢٤ علي أنه:

«يجوز اللجوء إلى خدع الحرب والوسائل اللازمة لجمع المعلومات عن العدو والميدان».

٢- في السنة النبوية:

استخدام القرآن لفظة يخادعون خصوصاً في قوله تعالى:

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ٩).

وفي السنة النبوية المشرفة، اللجوء إلي خدع الحرب مباح إذ الحرب خدعة، كما قال رسول الله (ﷺ) وعلي ذلك يجوز القيام بكل ما يخدع العدو، كالمناورات الخداعة، والتحرك الاستراتيجي، والتورية والتمويه، والهجوم

الكاذب، ورفع درجات الاستعداد... إلخ. ومن ثم يجوز للقائد المسلم اتخاذ أية خدعة لهزيمة العدو ودحره.

وقد علق فقهاء المسلمين علي قوله (ﷺ) «الحرب خدعة» تعليقات سديدة، منها أنه (ﷺ): "يريد أنها بالمكر والخديعة"^(١٠٨) وأن في الحديث: "إباحة الخداع في الحرب، وإن كان محظوراً في غيرها"^(١٠٩) كما أن فيه دليل علي أنه: "لا بأس للمجاهد أن يخادع قرنه في حالة القتال، وأن ذلك لا يكون غدرًا منه"^(١١٠)

وهناك تطبيقات عملية كثيرة لخدع الحرب في السنة النبوية، منها: أنه كان (ﷺ) إذا أراد غزوة ورى بغيرها. يقول ابن جماعة:

"يستحب للسلطان إذا أراد غزوة أن يوري بغيرها؛ اقتداء برسول الله (ﷺ)، ولأن ذلك من مكاييد الحروب، إلا إذا دعت الحاجة إلى إظهاره لبعث الشقة وكلفة ذلك السفر ونحو ذلك"^(١١١)

- ومن خدع الحرب أن ينشئ إليهم كتباً وأجوبة مزورة وأخباراً مدلسة، ويكتب على السهام ويرمي بها إليهم، ويبث في عسكرهم، ما ينفعه فعله، "وكل ذلك وردت به السنة"^(١١٢).

- من ذلك قوله (ﷺ): "إذا أكتبوكم"^(١١٣)، فارموهم واستبقوا نبلكم". فقد بين النبي (ﷺ) أنه يجب أن يكون العدو في مرمى الرمي لكي يمكن إصابته، لأن فعل غير ذلك فيه فقدان للسلاح، وعدم تحقيق أي هدف عسكري.

- ومن خدع الحرب التي مارسها (ﷺ) أن يقيم رجلاً يوم لقاء العدو بمكانه من

١٠٨- العقد الفريد، ابن عبد ربه، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤ - ١٩٨٣، ج ٣، ص ٦.

١٠٩- شرح السنة، البغوي، المرجع السابق، ج ٥، ص ٥٦٩ - ٥٧٠.

١١٠- شرح كتاب السير الكبير للشيباني، السرخسي، المرجع السابق، ج ١، ص ١١٩.

١١١- تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، ابن جماعة، تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم، دار الثقافة، الدوحة،

١٤٠٨ - ١٩٨٨، ص ١٥٩. انظر أيضاً فتح الباري شرح صحيح البخاري، المرجع السابق، ج ٦، حديث رقم ٢٩٤٧.

١١٢- ذات المرجع، ص ١٥٩ - ١٦٠.

١١٣- شرح كتاب السير الكبير للإمام الشيباني، المرجع السابق، ج ١، ص ٥٨ - ٥٩. وأكتبك الشيء: إذا أمكنك من نفسه (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، المرجع السابق، ج ٤، ص ٣٣٦).

قلب الجيش ويلبس الإمام لامة ويلبس هو لامة الإمام حياة للإمام حتى لا يعرف فيقصد. مثال ذلك يوم أحد فقد لبس كعب بن مالك لامة النبي (ﷺ) ولبس النبي (ﷺ) لامته، ويومها جرح كعب بن مالك أحد عشر جرحاً. (١١٤)

- ومن ذلك أن نعيم بن مسعود أتى رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال رسول الله (ﷺ): "إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة" (١١٥)

- ومن ذلك لجوء النبي (ﷺ) إلى التجسس كوسيلة لجمع معلومات عن العدو. (١١٦)

- ومن ذلك أيضاً الكذب إذ يجوز للمقاتل أن يلجأ إلى الكذب إذا كان ذلك ضرورياً لصيانة أسرار الجيش، أو لتضليل استطلاع العدو، أو لنصب كمين للعدو، أو لإنقاذ نفسه أو كتيبته ... إلخ.

وقد رخصت السنة النبوية الكذب أثناء الحرب:

فعن أم كلثوم بنت عقبة قالت: لم أسمع النبي (ﷺ) يرخص في شيء من الكذب مما تقول الناس إلا في الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها. رواه أحمد ومسلم وأبو داود. يقول الإمام الطحاوي: "عقلنا به أن الكلام الذي يراد به للحرب هو الكلام الذي يكون ظاهره معنى يخيف أهل الحرب وإن كان باطنه مما يريد به المتكلمون خلاف ذلك وإذا كان ذلك كذلك في الحرب (عقلنا) أن المرخص فيه في الآثار المتقدمة في هذا الباب هو

١١٤- نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، الكتاني، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٢٥.

١١٥- صفوة السيرة النبوية، ابن كثير، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٢ - ٢٠٠٢ ج ٣، ص ٨٩-٩١؛ السيرة النبوية، ابن هشام، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٢٩ - ٢٣٩.

١١٦- من ذلك ما حدث في وقعة بدر حيث أرسل (ﷺ) بسيس للتجسس على أبي سفيان، راجع أمثلة أخرى في نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، الشيخ عبد الحي الكتاني، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٦٠-٣٦٣.

المعني بعينه لا ما سواه وإذا كان ذلك كذلك في الحرب كان الذي يصلح به قلب زوجته هو هذا المعنى أيضاً لا الكذب".^(١١٧)
ولا شك أن مشروعية تلك الخدع السابق ذكرها، ترجع إلى أمرين:
الأول- أن سلوك المتحاربين جرى على اتباعها منذ غابر الأزمان.
والثاني- أنها لا تشكل نقضاً لعهد أو غدرًا بخصم، وإنما هي تأتيه من حيث لا يحتسب.

ب - حظر اللجوء إلى الغدر^(١١٨) بالعدو:
١ - في القانون الدولي^(١١٩):

استقرت قواعد القانون الدولي على حظر الغدر وقت الحروب، ويعتبر ذلك من المبادئ الأساسية التي يجب على المحاربين مراعاتها.
وهكذا إذا كانت اللائحة المتعلقة بقوانين وأعراف الحرب البرية (لاهاي ١٩٠٧) تنص في المادة ٢٤ على أنه: "يجوز اللجوء إلى خدع الحرب والوسائل اللازمة لجمع المعلومات عن العدو والميدان"، فإن المادة ٢٣ / ب تنص على أنه من المحظور: "قتل أو جرح أفراد من الدولة المعادية أو الجيش المعادي باللجوء إلى الغدر".
وقد نصت المادة ٣٧ من البروتوكول الإضافي رقم ١ لعام ١٩٧٧ على ذلك

١١٧-فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٦، حديث رقم ٣٠٣١؛ مشكل الآثار، الطحاوي، المرجع السابق، ج ٤، ص ٨٩ - ٩٠. حري بالذكر أن حديث "الحرب خدعة" يخص حديثاً آخر روي عن النبي (ﷺ) ، حيث قال: المؤمن غر (أي ليس بذئ مكر وهو ضد الخب) كريم، والفاجر خب لئيم".
الأدب المفرد، الإمام البخاري، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٧٩، ص ١٢٥.

١١٨-الغدر هو ضد الوفاء (تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين، الإمام الشوكاني، مكتبة الإيمان، المنصورة، ص ٢٣٤).

كذلك قيل: "والغدر هو نقض العهد وترك الوفاء للمشركين وغيرهم وذلك مما لا خلاف في المنع منه" (كتاب المنتقى شرح موطأ الإمام مالك بن أنس، الإمام الباجي، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، ج ٣، ص ١٧١).

١١٩-راجع كتابنا: الوسيط في القانون الدولي العامز، المرجع السابق، ص ٦٩٨ - ٦٩٩.

بقولها: سيحظر قتل الخصم أو إصابته أو أسرته باللجوء إلى الغدر. وتعتبر من قبيل الغدر تلك الأفعال التي تستثير ثقة الخصم مع تعمد خيانة هذه الثقة وتدفع الخصم على الاعتقاد بأن له الحق في أن عليه التزاماً بمنح الحماية طبقاً لقواعد القانون الدولي التي تطبق في النزاعات المسلحة. وتعتبر الأفعال الآتية أمثلة على الغدر:

- (أ) التظاهر بنية التفاوض تحت علم الهدنة أو الاستسلام.
- (ب) التظاهر بعجز من جروح أو مرض.
- (ج) التظاهر بوضع المدني غير المقاتل.
- (د) التظاهر بوضع يكفل الحماية وذلك باستخدام شارات أو علامات أو أزياء محايدة خاصة بالأمم المتحدة أو بإحدى الدول الحامية أو بغيرها من الدول التي ليست طرفاً في النزاع".

٢- في السنة النبوية:

جاءت السنة النبوية لتحرم تحريماً قطعياً الغدر، بالنظر لآثاره المدمرة على حقوق الإنسان، ولو كان من الأعداء، لذلك قيل: "الغدر حرام باتفاق، سواء كان في حق المسلم أو الذمي".^(١٢٠)

دليل ذلك من السنة النبوية المشرفة قوله (ﷺ)، «قال الله عز وجل: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره»^(١٢١)

- "أربع خلال من كن فيه كان منافقاً خالصاً: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه

١٢٠-فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، المرجع السابق، ج ٦، ص ٣٠٣.
١٢١-فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٤، ص ٤٧٧ حديث رقم ٢٢٢٧، باب اثم من باع حراً.

خصلة من النفاق حتى يدعها" (١٢٢)

- أن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال: هذه غدرة فلان ابن فلان" (١٢٣) كذلك جاء في وصية رسول الله (ﷺ) إلى المقاتلين:
"سيروا باسم الله وفي سبيل الله وقاتلوا ولا تغدروا...".
وهكذا تعتبر السنة النبوية المشرفة الغدر من المحرمات، التي لا تقبل أي استثناء. (١٢٤)

وهناك أمثلة عديدة تخص الغدر:

- فمن الغدر المشهور في العهد النبوي ما حدث يوم الرجيع . فقد أرسل النبي (ﷺ) إلى أهل مكة بعض أصحابه مع قوم منهم . فخرجوا مع القوم، حتى إذا كانوا على الرجيع (ماء لهذيل بناحية الحجاز) غدروا بهم . ويهجو حسان الذين غدروا بأصحاب الرجيع بقوله:

إن سرك الغدر صرفاً لا مزاج له
فأت الرجيع فسل عن دار لحيان
قوم تواصلوا بأكل الجار بينهم
فالكلب والقرود والإنسان مثلاًن
لو ينطق التيس يوماً قام يخطبهم
وكان ذا شرف فيهم وذا شان (١٢٥)

- من المعروف أن هرقل سأل أبا سفيان عن رسول الله (ﷺ) العديد من الأسئلة، منها قوله له: فهل يغدر؟ قال: "لا ونحن في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها".

١٢٢- نفس المرجع، ج ٦، حديث رقم ٣١٧٨، ص ٣٠٣، باب إثم من عاهد ثم غدر.

١٢٣- راجع كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ج ٢، ص ٢٠١.

١٢٤- بخصوص قوله (ﷺ)، لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة، يقول ابن دقيق العيد أن الحديث: فيه تعظيم الغدر وذلك في الحروب كل اغتيال ممنوع شرعاً إما لتقدم أمان أو ما يشبهه أو وجوب ما تقدم الدعوة حيث تجب أو يقال بوجوبها... وقد عوقب الغادر بالفضيحة العظمى وقد يكون ذلك من باب مقابلة الذنب بما يناسب ضده في العقوبة فإن الغادر أخفى جهة غدره ومكره فعوقب بنقضه وهو شهرته على رؤوس الأشهاد.

إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد، ج ٤، ص ٢٣٥.

١٢٥- السيرة النبوية لابن هشام، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٧٨ - ١٨٠؛ صفوة السيرة النبوية، ابن كثير، المرجع السابق، ج ٣، ص ٥٣ - ٥٥.

وقد علق هرقل على ذلك بقوله: وكذلك الرسل لا تغدر. (١٢٦)

- ومن ذلك حديث معاوية، فإنه كان بينه وبين الروم عهد فكان يشير نحو بلادهم كأنه يقول: حتى نفي بالعهد ثم نغير عليهم يعني أن العهد كان إلى مدة، ففي آخر المدة سار إليهم ليقرب منهم حتى يغير عليهم مع انقضاء المدة. قال: وإذا شيخ يقول: الله أكبر؛ وفاء لا غدر، وكان هذا الشيخ عمرو بن عنبسة السلمى. تبين له بما قال أن في صنعه معنى الغدر، لأنهم لا يعلمون أنهم يدنون منهم يريد غارتهم، وإنما يظنون أنه يدنو منهم للأمان. فقال معاوية: ما قوله: وفاء لا غدر: قال: سمعت النبي (ﷺ) يقول: أيما رجل بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى يمضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء. يقول الإمام السرخسي: "وفي هذا دليل وجوب التحرز عما يشبه الغدر صورة ومعنى، والله الموفق". (١٢٧)

(١٢٦) ذات المرجع، ص ٢١٨.
(١٢٧) شرح كتاب السير الكبير للشيباني، السرخسي، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٦٥.

خاتمة

يتضح مما تقدم أن قواعد معاملة ضحايا الحروب من الأعداء، في السنة النبوية زاخرة، وهي بها عامرة، كما أن السنة النبوية شاملة لقيم حضارية استقرت فقط في العلاقات الدولية المعاصرة منذ ما لا يزيد على قرنين، مع أنها في السنة موجودة منذ أكثر من أربعة عشر قرناً.

يقول شوقي، مخاطباً النبي (ﷺ):

علمتهم كل شيء يجهلون به حتى القتال وما فيه من الذم
دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم والحرب أس نظام الكون والأمم
لولا له لم نر للدولت في زمن ما طال من عمد أو قر من دعم

ويتحدث العامري عن حروب النبي محمد ﷺ، بقوله إن من خلفه في اعتناق المهتم من أمر السياسة والملك:

"متى أحسن غرضه منه، واقتدى في جميع ما يتعاطاه بسنته: فهو لا محالة يصير إمام أهل زمانه، ومفخرة لكافة أعقابه، بل يصير رحمة للعالمين، وحجة للبشر، وأسوة حسنة، وقدوة حميدة".^(١٢٨)

لذلك فإن أهم ما يوصى به، في هذا الخصوص:

١- ضرورة الالتزام بما ورد عنه ﷺ بخصوص معاملة ضحايا الحروب، احتراماً لأدمية الإنسان وكرامته، ولو كان عدواً. هذه الكرامة التي أكدها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠). وعمومية الآية تعني أن الإنسان يجب المحافظة على كرامته: مسلماً كان أو غير مسلم، صديقاً كان أم عدواً.

١٢٨- كتاب الإعلام بمناقب الإسلام، العامري، تحقيق أحمد غراب، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨٧-١٩٦٧، ص ١٥٧-١٥٨.

- ٢- عدم اللجوء إلى الغدر لأنه محرم في الإسلام، حتى أثناء الحرب، مع جواز اللجوء إلى حيل وخدع الحرب.
- ٣- التعامل بإنسانية مبدأ من المبادئ الراسخة في الشريعة الإسلامية وفقاً لما ورد في السنة. إلا أنه أثناء المعركة يمكن استخدام كل ما هو لازم لقهر العدو، في حدود القواعد الشرعية المقررة في الكتاب والسنة النبوية المشرفة. ولا جرم أن ذلك من أثره اللازم إقامة التوازن بين مقتضيات الحرب والاعتبارات الإنسانية في العمليات القتالية.

قائمة بمراجع ومصادر البحث

- (١) أبو بكر الحازمي الهمداني، الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار، دار الرعي، حلب، ١٤٠٣ - ١٩٨٢
- (٢) أبو حنيفة، مسند الإمام أبو حنيفة، تحقيق صفوت السقا، مكتبة ربيع، حلب ١٣٨٢ - ١٩٦٢.
- (٣) أحمد أبو الوفا، النظرية العامة للقانون الدولي الإنساني، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠٠٦.
- (٤) أحمد أبو الوفا، الوسيط في القانون الدولي، دار النهضة العربية، القاهرة ٢٠٠٤.
- (٥) أحمد أبو الوفا، كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي والعلاقات الدولية في شريعة الإسلام: الحرب في الشريعة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٤٢١ - ٢٠٠١.
- (٦) ابن الطلاع (أبو عبد الله محمد بن فرج المالكي): أفضية رسول الله تحقيق د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ثانية، ١٤٠٢ - ١٩٨٢.
- (٧) ابن الطلاع، أفضية رسول الله ﷺ، دار الوعي، حلب، ١٤٠٢ - ١٩٨٢، ص ٣٩.
- (٨) ابن العربي، أحكام القرآن، دار الجليل، بيروت، ١٤٠٧ - ١٩٨٧
- (٩) ابن جماعة، الأحكام في تدبير أهل الإسلام، تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم، دار الثقافة، الدوحة، ١٤٠٨ - ١٩٨٨.
- (١٠) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٢ - ١٩٨٢.
- (١١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤ - ١٩٩٣.
- (١٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المنار،

القاهرة، ١٤١٩ - ١٩٩٩.

- (١٣) ابن حمزة الحسيني الحنفي الدمشقي: البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٨٥.
- (١٤) ابن دقيق العيد، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام.
- (١٥) ابن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، مكتبة الكليات الأزهرية.
- (١٦) ابن عبد ربه، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤ - ١٩٨٣.
- (١٧) ابن قتيبة، كتاب تأويل مختلف الحديث، دار الجيل، بيروت، ١٣٩٣ - ١٩٧٣.
- (١٨) ابن قدامه، المغني والشرح الكبير، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٣ - ١٩٨٣.
- (١٩) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣.
- (٢٠) ابن كثير، صفوة السيرة النبوية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٢ - ٢٠٠٢.
- (٢١) ابن ماجه، سنن ابن ماجه.
- (٢٢) ابن هشام، السيرة النبوية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٧٥ - ١٩٥٥.
- (٢٣) الباجي، كتاب المنتقى شرح موطأ الإمام مالك بن أنس، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، القاهرة.
- (٢٤) البخاري، صحيح البخاري، دار الشعب، القاهرة.
- (٢٥) البخاري، الأدب المفرد، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٧٩.
- (٢٦) البروتوكول الأول (١٩٧٧) الملحق باتفاقات جنيف لعام ١٩٤٤.
- (٢٧) البهوتي، كشف القناع عن متن الإقناع.
- (٢٨) الحر العاملي، وسائل الشيعة على تحصيل مسائل الشريعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- (٢٩) الحكيم الترمذي، المنهيات، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٧.
- (٣٠) حلیم السيد عبد الله الصعيدي، رسالة دكتوراة كلية الشريعة والقانون، القاهرة ١٤٠٣- ١٩٨٣
- (٣١) (الخطاب، مواهب الجليل، لشرح مختصر خليل، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٨هـ.
- (٣٢) الخطابي، معالم السنن، وهو شرح سنن أبو داود، المكتبة العلمية، بيروت، ١٤٠١- ١٩٨١
- (٣٣) خير الدين التونسي، مقدمة كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق معن زيادة، دار الطليعة، بيروت.
- (٣٤) السرخسي، المبسوط للسرخسي، دار المعرفة، بيروت.
- (٣٥) الشريف الرضي، المجازات النبوية، البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٧- ١٩٦٧
- (٣٦) الشوكاني، نيل الأوطار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣- ١٩٨٣
- (٣٧) الشوكاني، تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين، مكتبة الإيمان، المنصورة.
- (٣٨) عبد الحي الكتاني: نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، دار الكتاب العربي، بيروت.
- (٣٩) الشيزري، المنهج المسلوك في سياسة الملوك، مكتبة المنار، الأردن - الزرقاء، ١٤٠٧- ١٩٨٧
- (٤٠) الصنعاني، سبيل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام، ط دار التراث.
- (٤١) الطحاوي، مشكل الآثار، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٣٣، ج ٤، ص ١٠٦- ١٠٧.
- (٤٢) عبد الله بن مودود الموصللي الحنفي، المقرر من كتاب الاختيار لتعليل المختار، الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٧- ١٩٧٧.
- (٤٣) الخزاعي التلمساني، كتاب تخريج الدلالات السمعية علي ما كان في عهد

- رسول الله (صلي الله عليه وسلم) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٥ - ١٩٩٥.
- (٤٤) علي الجمبلاطي وعبد المنعم قنديل، عقبة بن نافع أو فاتح إفريقية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الإمام الصنعاني، القاهرة، ١٤١٦ - ١٩٩٦.
- (٤٥) الغزالي، الوجيز في فقه مذهب الإمام الشافعي، مطبعة الآداب والمؤيد، القاهرة.
- (٤٦) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، مقدمة الكتاب.
- (٤٧) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢١ - ٢٠٠٠.
- (٤٨) محمد فؤاد عبد الباقي: كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان.
- (٤٩) اللجنة الدولية للصليب الأحمر، «اتفاقيات جنيف المؤرخة في ١٢ آب / أغسطس ١٩٤٩، جنيف، ١٩٩٥.
- (٥٠) المازري، كتاب المعلم بفوائد مسلم، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٩ - ١٩٩٦.
- (٥١) الماوردي، الأحكام السلطانية، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ١٩٧٨.
- (٥٢) مجد الدين بن تيمية الحراني، المنتقى من أخبار المصطفي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.
- (٥٣) محمد سلام مذكور، معالم الدولة الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٣ - ١٩٨٣.
- (٥٤) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، القاهرة.
- (٥٥) المقرئ، إخلاص الناوي، تحقيق الشيخ عبد العزيز زلط، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢١ - ٢٠٠٠.
- (٥٦) الواقدي، مغازي رسول الله، جماعة نشر الكتب القديمة، القاهرة،

. ١٩٤٨-١٣٦٧

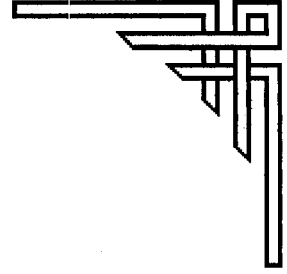
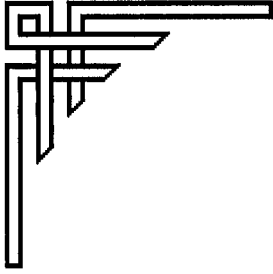
Ahmed Abou-el-wafa: Public international law, Dar Al-Nahda al- (٥٧)

١٤٢٢.-٢٠٠٢ Arabia, Cairo,

) Ahmed Abou-el-wafa: Criminal international law, Dar Al-Nahda(٥٨)

١٤٢٧.-٢٠٠٧ al-Arabia, Cairo,

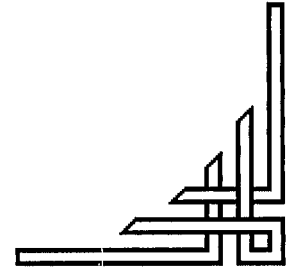
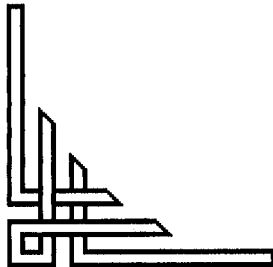
١٩٨٦.H. Dunant:A memory of Solferino,ICRC,Geneva, (٥٩)



تفعيل القيم الحضارية في السُّنة النبويَّة السبل والمعوقات

الأستاذ الدكتور عباس محجوب

جامعة النيلين - الخرطوم



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين، صلواته وسلامه الزاكيات الطيبات، عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد،،

فإن تفعيل القيم الحضارية في السنة النبوية هو مفتاح الولوج إلى المستقبل ووسيلة أداء المسلمين لرسالتهم في عالم يتعرض بسبب العولمة لتغيرات متسارعة قوية لها تأثيرها على المنظومة القيمية في حياة المسلمين وغيرهم، لأن مظاهر الخلل والاضطراب في عالم اليوم يأتي في مقدمة أسبابه فقدان العالم لنسق قيمي يؤطر سلوك البشر ويوجههم، ويحفظ للمجتمعات تماسكها واتزانها وضبط حركتها ومسارها لأن القيم تحتل المكانة الأولى في المجتمع الإنساني، كما أنها تحدد للمجتمع مثله العليا وأهدافه السامية حتى يتحقق مجتمع العدل والكفاية، والجمال والخير، والسلام والأمن، والتنمية التي تحقق السعادة والرفاهية.

والقيم التي تحقق تلك الآمال العريضة هي التي جسدها رسول الله ﷺ في حياته وزرعها في أصحابه ودعا أمته للتمسك بها وتفعيلها في حياتهم، فالدين هو الذي يحقق قيم المجتمع بدءاً بالإيمان بالله الذي هو أساس السلوك، ومرتكز القيم ووسيلة الاستقرار النفسي والعاطفي والاجتماعي الذي يمثل المعوقات الأساسية للبناء الحضاري والعمران هذا إلى جانب قيم الخير والفضائل التي جاء بها الإسلام، وأنماط السلوك التي طالب بها من إشاعة روح التعاون والرحمة والمودة والألفة والاحترام وغير ذلك.

وتفعيل هذه القيم يتطلب معرفة بها وبأهميتها للمجتمع، عقلياً وفكرياً وممارسة وسلوكاً وتدريباً للأفراد عليها وقد ركزت السنة النبوية على تفعيل القيم الإيجابية في الحياة قولاً وسلوكاً، ودعا إلى الالتزام بها في الحياة بادئاً بالعقيدة التي تمثل الأساس للرقابة الذاتية التي تحقق التمثيل الأفضل للقيم والرقابة الذاتية الضامنة لها ليتحقق في ظل ذلك مبدأ الاستخلاف في الأرض والتعمير لها، لأن العقيدة

بالنسبة للمسلم هي البوصلة الموجهة لسلوكه ونشاطاته في مجالات الحياة المختلفة، ثم إن الإسلام قد بين الوسائل التي نفعل بها القيم ونرتقي بها من مرحلة الإسلام إلى الإيمان ثم الإحسان وهما الحكمة والموعظة الحسنة اللتان تحققان عملية التزكية للمجتمع المسلم نفسه .

الرسول ﷺ هو القدوة في تفعيل القيم الخيرة في حياته كلها في مجلسه ومع جلسائه، وأنسه وبسطه، وحيائه وصبره، وتفقدته لأصحابه وسؤاله عنهم، وسهولة خلقه، ولين جانبه... الخ. مما سنوضحه، غير أننا نؤكد على مصدرية القيم في المجتمع المسلم الذي يعتمد على الكتاب والسنة باعتبارهما حياً وكلاماً موثقاً ثابتاً، كما نلاحظ أن السنة النبوية تمثل الجانب التفعيلي للقيم عن طريق القدوة ثم بناء قيم التواصل بحيث تشكل نظرية متكاملة في التفعيل والتواصل، قابلة للممارسة في كل زمان ومكان حيث تتسم بالمرونة والقابلية للاستجابة لمتغيرات الحياة ومستجداتها.

المنظومة القيمية في السنة النبوية مبنية كما ذكرنا على العقيدة الإسلامية التي تجعل من التفعيل عنصر الحركة في الحياة، لأن العقيدة هي التي تحقق الرقابة الذاتية والتوازن والانسجام في أخلاق الناس لأنها تعتمد على التقوى ومراقبة الله - سبحانه وتعالى - كما تظهر أهمية تفعيل القيم في حياة المسلم أنها تشكل المؤثرات المباشرة في سلوكه وشخصيته ونسقه المعرفي، لأن المفهوم الإسلامي يربط بين معرفة القيم من ناحية وتفعيلها في السلوك الإنساني من ناحية، وهذا ما ركزت عليه السنة النبوية. كما أن القيم تهيب الفرد المسلم ليتكيف ويتوافق بصورة إيجابية مع ما هو مطلوب منه في سلوكه وبذلك يحسن بالأمان مع نفسه من ناحية ومجتمعه من ناحية أخرى، وهو بالتزامه القيمي يتوازن مع نفسه نفسياً وخلقياً وارتقاءً في مجال الخير والإحسان والواجب، ومن الناحية الاجتماعية يحافظ المجتمع بتفعيله للقيم على تماسكه وترابطه وتناسقه بعيداً عن السلبيات وما يترتب عليها من آثار اجتماعية وفردية.

وتكمن أهمية التفعيل للقيم أيضاً والعناية بها في أن العالم يتعرض بسبب

العولمة لمتغيرات قوية لها تأثيراتها الواضحة على المنظومة القيمية في حياة المسلمين لأن السنة النبوية تدفع المسلمين إلى تفعيل القيم التي تحقق الحياة الطيبة المسؤولة وتحدد لكل منهم وظيفته في المجالات المختلفة وخاصة في تفعيل قيمة الوقت الذي يعني لدى المسلم العبادة المؤقتة بأوقات والموجهة للمسلم أن يفعل حياته وفق منهج الدين في تفعيل الوقت واستثماره في حياته الدنيوية والأخروية، والمسلم يتمثل في حياته كل القيم البانية للحياتين من صدق وإخلاص وقوة وتجرد وإيثار وتضحية على المستوى الفردي، وتعاون وتكافل وتعرف على مستوى المجتمع والدولة كل ذلك في ظل العقيدة التي توجد التقوى والرقابة الذاتية باعتبارهما قيمتين موجهتين للفعل الإنساني في المجالات كلها مع الاهتمام بالمصالح الدنيوية فردية أو جماعية.

القيم الإسلامية لا تستقر في وجدان المسلم وعقله عن طريق الإلزام بل بالرضا والقبول وهذا كان منهجه ﷺ، في معالجة الأمور وترسيخ القيم الخيرة كالسماح والعفو لكل من أساء أو ظلم أو تعدى عليه، والشواهد كثيرة في السنة على مستوى الأفراد مع الأعراب وعلى مستوى الجماعات كما فعل مع أهل مكة، كما كان يخاطب العقل فيما يقتضي حواراً عقلياً كما فعل مع الشاب الذي جاء يطلب الإذن بالزنا والذي سنعرض قصته. ويخاطب العاطفة كما فعل مع الأنصار عندما وجد الأنصار في أنفسهم حين أعطى العطايا لقريش وقبائل العرب حتى قال قائل منهم: "يغفر الله لرسول الله، يُعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم. قال أنس: فحدّث رسول الله ﷺ بمقاتلتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من آدم، ولم يدع معهم غيرهم، فلما اجتمعوا: قام النبي ﷺ، فقال: "ما حديث بلغني عنكم؟" فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا يارسول الله فلم يقولوا شيئاً وأما ناسٌ منّا حديثه أسنانهم، فقالوا: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال النبي ﷺ: "فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ فو الله لما تنقلبون به، خير مما ينقلبون به قالوا: يارسول

الله: قد رضينا... الخس.^(١) وفي رواية: "أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار... الخس."^(٢)

وبالتأمل في هذه التسمية العظيمة التي حظي بها الأنصار، نجد أيضاً تفعيلاً لقيمة نُصرة الحق. وهو الواقع الذي كان عليه المسلمون من أهل المدينة، الذين أبدوا استعدادهم لنصرته ﷺ، عند أول دعوة وجهها لهم وهو في مكة. فهم قد عاهدوه على النصر، ووفوا بعهدهم، ونالوا ما كانوا يستحقونه من تسمية عظيمة، كان لها وقعها العظيم في نفوسهم، وصدق إيمانهم.

المبحث الأول: مفهوم القيم وترتيب الأولويات.

١- مفهوم القيم

تعددت الآراء في تحديد مفهوم القيم اصطلاحاً غير أنها لا تختلف كثيراً عن المفهوم اللغوي الذي يربط القيم بالاستقامة والاعتدال والاستواء. ويرى بعض الباحثين أن العرب لم يستعملوا هذه الكلمة مفردة أو جمعا بالمفهوم المعاصر؛ لأنها استعملت عند المسلمين بمعنى الخلق أو الأخلاق، حسنة أم سيئة^(٣) فلفظ القيمة تدل على ما يقوم به الشيء ويتكوّن منه ويستدلّ به على هيئته. ويفصل البعض بين القيم والأخلاق باعتبار ارتباط الأخلاق بالصفات الطبيعية في الإنسان فطرة وسجية، والصفات المكتسبة التي تعتبر عادة في سلوك الإنسان،

١ - صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب: (٥٦): غزوة الطائف، ح: (٤٣٣١). ص: (٥٨٨).

٢ - المرجع السابق، ح: (٤٣٣٠). وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب: (٤٦): إعطاء المؤلف قلوبهم على الإسلام، وتصبر من قوي إيمانه، ح: (١٠٦١). ص: (٤٧٢).

٣ - نظرات في لغة المصطلح وفي مضمونه، الدكتور ناصر الدين الأسد، ندوة أزمة القيم ودور الأسرة في تطوير المجتمع المعاصر: (٤٩).

غير أننا لا نستطيع فصل القيم في الإسلام عن مصادرها العقدية والإيمانية والخلقية فطرية كانت أم مكتسبة.

والقيم تمثل حاجة إنسانية يتعامل معها العلماء باختلاف تخصصاتهم وموجهاتهم لأنها في النهاية تمثل الإطار الحضاري الذي يضبط عملية التفاعل بين الفرد والمجتمع ، وتمثل الضوابط والمعايير التي تحكم العلاقات وتؤطرها بين العبد وربّه أو العبد ونفسه أو العبد ومجتمعه ومحيطه؛ لذلك أصبحت القيم هي الأساس المحرك للعملية التربوية في كل مجتمع لأنها تؤثر - كما قلنا- في توجيه النشاط الإنساني سواء على المستوى الديني أم الثقافي وحتى التكنولوجي ، لأن حاجة البشرية ومستقبلها تعتمد على مدى تفعيلها للقيم الخيرة والحرص عليها أكثر من حاجتها إلى التكنولوجيا التي تفقد قيمتها عندما تكون مفرغة من القيم والأخلاق أو بعيدة عنها، لأن عدم التزام المجتمع الإنساني بأنساق قيمية تحدد مساراتها وتضبطها وتتعامل بها هو الذي يؤدي إلى مظاهر الاضطراب وفقدان الأمن الاجتماعي والنفسي للمجتمع الإنساني.

أما على المستوى الفردي فإن القيم هي التي تحدد معالم شخصية الإنسان وتساعد على بناء نفسه وتحديد أهدافه، كما تمثل له الإطار المرجعي الذي يحكم به على سلوكه حتى يصل إلى مستوى البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس^(٤) لأن تفعيل القيم هي التي توجه اختيارات الإنسان وتعصمه من الوقوع في الإثم والانحراف.

أما بالنسبة للمجتمع فإن تفعيلها يحفظ للمجتمع عوامل استقراره النفسي والاجتماعي والأمني من تماسك وتضامن وتعاون وإخاء وتضحية وإيثار وتناسق وتكامل وتنمية وازدهار ومساواة وعدل وبخاصة مع حاجة الإنسان المعاصر إلى الإحساس بالذات والهوية والانتماء والوعي حيث تشابكت المصالح وتلاشت

٤ - مسلم كتاب البر والصلة، باب (٥): تفسير البر والإثم. ح: (٢٥٥٣). ص: (١٢٣٥). رواه النواس بن سميان

الحدود بين الثقافات والحضارات وأصبحت الحاجة مُلحة في المجتمع الإنساني إلى تفعيل القيم الايجابية والمحافظة عليها ومعالجة المعوقات التي تقف في سبيل الإبقاء عليها وتفعيلها في ظل المجتمع الإنساني الذي يواجه كثيراً من النزاعات والحروب ويعاني من التفسخ الخلقي والتفلت الديني والتعصب الطائفي والعرقى في غياب القيم الايجابية وقوة معوقات تفعيلها.

تمثل القيم كل الجوانب الحسنة والخيرة التي يرتقي بها الإنسان في سلم الكمال والصلاح في مقابل ما يفضي إلى الجوانب السلبية. فتفعيل القيم إرادة نفسية وإدراك معرفي يعتمد العقل والشعور في الممارسة والسلوك، فالقيم الخلقية الايجابية تمثل فضائل يسهل التعامل بها لرونتها وتلقائيتها وعفويتها؛ فالقيم في المنظور الإسلامي تترجم لسلوك عملي يكون وسيلة للكمال على مستوى الأفراد والمجتمعات، ووسيلة للإحساس بالوازع الديني المرتبط بقيم الرسالة التي يحملها المسلم المتحرك بتوجيهات الإيمان. والقيم الإسلامية تمثل الثوابت العقديّة التي مصدرها الوحي الإلهي والمتمثلة في منظومة متكاملة في الأخلاق والتشريع والقيم الخلقية هي مصدر الأعمال الخيرة التي يترتب على الالتزام بها السلام الاجتماعي والأمن النفسي والجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، وهي إن كانت كامنة أو ساكنة في الإنسان نفسه كان أثرها فيه وحده غير أنها إذا ترجمت في سلوك عملي واقعي خرجت إلى مجال التفعيل والممارسة لأن العمل الصالح ترجمة لقيمة تعبدية حياتية مرتبطة بالعقيدة وليست مجرد خاصّة شخصيّة ذاتيّة، بل هي سلوك ينعكس على المجتمع لذلك نلاحظ في القرآن الكريم اقتران الإيمان بالعمل ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾^(٥) وليس مجرد عمل ولكنه عمل صالح في مقابل العمل الطالح ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾^(٦) فالقيمة

٥- سورة الأعراف الآية (٤٢)

٦- سورة الأعراف الآية (٥٦)

الخلقية تتحول من صفة في النفس إلى فعل في السلوك.

تعارف الفكر الإنساني على ثلاث قيم هي قيم الجمال والخير والحق، غير أنها في المنظومة القيمية الإسلامية أكثر من ذلك وقد أشار الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الجمال بأن الله جميل يحب الجمال وسنعرض الحديث كاملاً في الحديث عن الجمال وعن الخير ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾^(٧) وعن الحق ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾^(٨) ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾^(٩) والإسلام يطلب تفعيل قيم الخير التي تقوم عليها الحياة مثل العدل والإحسان والأمانة والوفاء والتعاون والتراحم وغيرها من القيم الاجتماعية المحققة لتماسك المجتمع وتألفه. المجتمع المسلم لا يعاني من أزمة في القيم، ولكنه يعاني من أزمة في تفعيل القيم وترجمتها في السلوك اليومي تواملاً وتعبداً وقراباً إلى الله سبحانه وتعالى، فالقيم ليست معايير للسلوك البشري الخلقى فحسب بل هي معايير للتفكير البشري السليم في جوانب الحياة المختلفة، لأنها سلوكيات اعتقادية جاء بها الوحي وحكم بضرورتها لأنها كما ذكرنا قيم متناسقة متكاملة في منظومة عقدية خلقية معرفية لا تخضع للانتقاء والتفكك. ولأنه لا يمكن للعلم والتقدم التقني أن يحددا وجهة الإنسان ومصيره؛ كان ضرورة ارتباط حركة الإنسان بعقيدة تؤطر هذه الحركة وتربطها بالإنسان وتضبطها بضوابط القيم المنبثقة عن تلك العقيدة، لأن القيم في الحقيقة أحكام معيارية ضابطة للعقل الاجتماعي فكراً وممارسة وحركة وفق توجيهات الوحي الإلهي، لذلك نجد في حديث جابر قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فخطَّ خطاً هكذا أمامه فقال: "هذا سبيل الله عز وجل وخط عن يمينه وخط عن شماله قال: هذه سبيل الشيطان ثم وضع يده في الخط الأسود ثم تلا: ﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم

٧- سورة آل عمران الآية (١٠٤)

٨- سورة البقرة الآية (١١٩)

٩- سورة النحل الآية (٣)

عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴿١٠﴾

والفرق بين نظرة الإسلام للقيم والفلسفات الوضعية أن القيم في الإسلام ليست نتاج التفاعلات الاجتماعية، وبالتالي فهي لا تتجدد ولا تتبدل لأن مصدرها الوحي الإلهي الذي يسمها بالثبات والشمول والاستمرارية مدى الحياة، ولأن القيم الإسلامية نابعة من العقيدة فهي قيم مطلقة لا مجال فيها للاجتهاد والتبدل، لأن المطلوب هو التقبل والفهم والتمسك بها ولذلك اتّسمت بالايجابية والمرونة.

٢- ترتيب الأولويات

عملت الرسائل السماوية كلها على ترسيخ النموذج الرابط بين المعرفة والقيم والتحذير من الفصل بينهما. منذ المقاتلة بين ابني آدم حيث ارتقى أحدهما في سلم المعرفة والقيم وربط بينهما، بينما لم يربط بينهما الآخر فسقط في اختبار ترجمة المعرفة إلى قيم سلوكية تحصن بالتربية وتبنى على التقوى وبحيث يترجم العلم والمعرفة قيماً سلوكية وخلقية مبنية على تقوى الله والخوف منه ﴿قال إنما يتقبل الله من المتقين لمن بسطت اليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين﴾^(١١) ولأن المنهج القرآني يربط بين المعرفة والقيم كانت الآيات الأولى للقرآن مؤكدة لهذا المعنى (اقرأ)؛ قراءة مرتبطة بالرب الخالق بحيث لا يكون العلم متفلاً عن القيم التي تسخر العلم للحياة وتحقيق سر الوجود الإنساني فيكون العلم سلطة خير في الحياة لأنه مرتبط بالخالق والخوف منه وبذلك يرقى الإنسان في سلم القيم العليا من الإسلام إلى الإيمان إلى الإحسان الذي يمثل قمة الهرم القيمي.

نظرية المعرفة في الإسلام تدرج من تسخير الكون إلى العلم بخالق الكون و

١٠- مسند الإمام أحمد ج ١٢ ص ١١٤-١١٥ ح ١٥٢١٣ إسناده صحيح.

١١- سورة المائدة الآيات (٢٧-٢٨)

ما يترتب على هذا العلم من خشية تنأى بالعلم عن أن يكون- في غياب القيم المعيارية- سلطنة تسلط وفساد في الأرض ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (١٢) فإذا كان الإفساد على مستوى الأفراد الذين يتوهمون القوة والسيطرة بالفهم الذي قال عنه قارون: ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ (١٣) فإن الرد الإلهي الطبيعي (فحسبنا به وبداره الأرض) (١٤)، وإن كان التوهم على مستوى الأمم الذين قالوا: ﴿ من أشد مئاة قوة ﴾ (١٥) كان الرد الإلهي ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾ (١٦) وكذلك ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيَّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ﴾ (١٧) فإذا انفصل العلم عن القيم ظن أصحابه القدرة المطلقة والسيطرة فانحدروا في سلم القيم بدلاً من الترقى فيه.

فالعلم يكون في خدمة البشرية عندما يكون وسيلة لمعرفة الخالق والامتثال له ووسيلة لإثراء الحياة وتعميرها وتديير شؤونها، ولا تحدث الكوارث والانتكاسات في حياة البشرية إلا عندما تنفصل الوسيلتان. والعالم المعاصر يعاني من كوارث ومشكلات نتيجة الفصام بين المعرفة والقيم لأن العلم كله مسخر لسيطرة أهواء البشر وبحيث أصبح العالم يعاني من أسلحة الدمار التي تجرب في الحروب المفتعلة بدءاً من هيروشيما وناجازاكي وانتهاء بأفغانستان والعراق حيث غابت القيم الأخلاقية للمعرفة البشرية. المعرفة في المنظور الإسلامي هي وسيلة الإنسان لإدراك سنن الله في الكون والأنفس، والسبيل إلى التعارف والتواصل وتبادل التجارب والخبرات بين الأمم لإدارة شؤون الحياة وتحدد أولويات المعرفة حسب

١٢- سورة فاطر الآية (٢٨)

١٣- سورة القصص الآية (٧٨)

١٤- سورة القصص الآية (٨١)

١٥- سورة فصلت الآية (١٥)

١٦- سورة فصلت الآية (١٦)

١٧- سورة يونس الآية (٢٤)

ارتباط العلم بحاجة البشرية في حياتها وبحاجتها إلى الارتقاء القيمي في رحلة الحياة إلى الله ، لأن القيم الإسلامية تمثل الأطر المرجعية التي تصون العلم من الهدر والزيغ والضلال والانحراف والتي تضبط مسيرته لمصلحة الإنسان. وكان رسول الله ﷺ يتعوذ من "علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لا تشبع"^(١٨)

المبحث الثاني: تفعيل قيم الأحكام الشرعية وقيم التعامل .

١ - الأحكام الشرعية والقيم:

بين القيم والأحكام الشرعية علاقة تبادلية لأن المسلم يرقى سلم القيم بمدى التزامه بالأحكام الشرعية لأنه يحقق بذلك الالتزام بالبعد المعرفي للأحكام وتطبيقاتها في واقع الحياة ويمزج بين المعرفة والسلوك. التشريعات الإسلامية كلها وسائل يرتقي بها المسلم في سلم القيم مما يجعل المسلم مقبلاً على أداء الشعائر التعبدية بالرضا والقبول والطاعة والرسول ﷺ يوضح المردود الحضاري القيمي للصوم في الحديث الذي رواه أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: "من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه".^(١٩) فالنفس الإنسانية كأنها تجدد ذاتها وترقى بالقيم الحضارية المتمثلة في المردود السلوكي للشعيرة التعبدية.

والتشريعات الإسلامية هي التي تحمي المنظومة القيمية في مستوياتها المختلفة الفردية والاجتماعية فإذا كان الرسول ﷺ هو الذي جسّد هذه المنظومة القيمية في حياته وسلوكه وكان خلقه القرآن كما ذكرت السيدة عائشة فإن شريعته التي جاء بها جاءت للارتفاع بالناس حين يتخلّقون بالخلق العظيم وجاءت المطالبة بالافتداء برسول الله ﷺ الذي يمثل الأسوة الحسنة، والله سبحانه قد هيا الإنسان ليتخلّق

١٨- مسند الإمام أحمد ج ١١ ص ٣٣١ ح ١٣٩٥٦ إسناده صحيح
١٩- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب: (٨): من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم. ح: (١٩٠٣). ص: (٢٥٣).

بهذه القيم التي مهّدها لها في فطرة مطبوعة على الخير كياناً وطبعاً، ففي حديث أبو هريرة قال رسول الله ﷺ "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرّانه ويمجّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء؟" ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾^(٢٠) ورواية أبو هريرة في البخاري "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء؟"^(٢١).

والتشريعات الإسلامية - بطبعها الاجتماعي - تنظّم كثيراً من جوانب الحياة بقواعد الدين والأخلاق التي تمثّل مجموعة القواعد السلوكية المنظمة لحياة الناس والأفراد ولأنها مستمدة من العقيدة فإنّ الناس يلتزمون بها إتباعاً وتنسيقاً لتصرّفاتهم التي تحكم علاقاتهم الاجتماعية، والقيم التي تحقق التواصل الاجتماعي كثيرة ومتعددة تدفع كلها بالإنسان المسلم إلى الارتقاء في سلّم القيم والسمو الخلقي.

وهذه الأحكام الشرعية يمكن تفعيلها كما جاءت في السنة النبوية لبيان العلاقة الوثيقة بينها وبين القيم وهي علاقة الوسيلة بالهدف، والمعرفة بالتطبيق. والإنسان يسعى للقيم الحياتية كما يسعى للقيم الأخروية مع أن القيمة الإنسانية في بعدها التّسبيّي وسيلة للأخرة والفوز فيها ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب﴾^(٢٢) والأوامر الإلهية كلها تمثّل السّبل الميسّرة لتفعيل القيم الحضاريّة والارتقاء بها حسب التزام المسلم بهذه الأوامر فالذي يكتفي بالفرائض غير الذي يضيف النوافل، التي ترقى

٢٠- صحيح مسلم، كتاب القدر، باب: (٦): معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، ح: (٦٨٤٩). ص: (١٢٧٥).

٢١- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب: (٩٢): ما قيل في أولاد المشركين. ح: (١٣٨٥). ص: (١٨٦).

٢٢- سورة الشورى الآية (٢٠)

بالمسلم في سلّم القيم فيكون قريباً من الله عز وجل. أما الأمور المنهي عنها فتمثل المعوقات في تفعيل القيم الحضارية وهي التي سماها القرآن الكريم بالسبل ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾^(٢٣) الله سبحانه وتعالى نبّه لهذه المعوقات التي تبطئ عملية التفعيل، وتعطل سرعة الارتقاء، فجعل التوبة عودة إلى الصراط المستقيم قبل انتهاء العمر المحدد لعملية الارتقاء القيمي وصولاً إلى الجنة.

في الأمور المنهي عنها لم يترك الله البشر لمسؤولياتهم وعقولهم واختياراتهم بعدما أودع فيهم المشيئة وهداهم النجدين، وإنما نهى عنها ونبّه إليها وأنحى باللوم والوعيد لفاعلها كل ذلك توجيهاً لإزالة المعوقات في الارتقاء القيمي، وتعديلاً لمسيرة الإنسان لأن المعادلة الفكرية تدفعه إلى تجنب هذه المعوقات وتدفعه للسبل الممثلة للصراط المستقيم.

وهذا التصور يقتضي النظر في المعايير التي تقاس بها الأعمال من حيث الصلاح والصلاح والمبنية على القيم المحددة لنوعية العمل وليس كثرة العمل عن عائشة أن رسول الله ﷺ سُئِلَ: أي الأعمال أحب إلى الله قال: أدومها وإن قلّ. وقال: اكلفوا من الأعمال ما تطيقون^(٢٤) فقد يكون العمل بسيطاً ولكنه في موازين القيم يمثل قوة النضج القيمي الحضاري في الإنسان والنضج النفسي والعقلي وقد يكون الفعل البسيط في منظومة النواهي سبباً في إعاقة التفعيل الحضاري للقيم، وسبباً في الانحدار في الهاوية والعودة إلى نقطة البداية، كما أن التفعيل الإيجابي للقيم والارتقاء في سلّمه يتمثل في أفعال.

٢- تفعيل قيم التواصل

وجّه الرسول ﷺ الأمة أن تقوم بمسؤولياتها في أداء رسالتها في جعل

٢٣- سورة الأنعام الآية (١٥٣)

٢٤- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: (١٧): كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتخليهم من الدنيا. ح: (٦٤٦٥). ص: (٨٩٦).

الإسلام منهج حياة للبشر يراعون الأوليات المطلوبة ديناً و عرفاً، وتتدرج هذه الأولويات حسب أهميتها بدءاً بإحسان العلاقة مع الله سبحانه وتعالى عبادة وامثالاً لأوامره ونواهيه وإتباعاً لرسول الله ﷺ ثم التّواصل مع الآخرين وهم باختصار:

١- الوالدان ومن يرتبط بهما من الأطراف المختلفة، والأحاديث النبوية الموجهة لتفعيل هذه العلاقة معروفة نذكر منها حديث الرجل الذي سأل رسول الله ﷺ زمن أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: ثم من؟ قال: ثم أموك^(٢٥) رواه أبو هريرة. وتمتد الصلة من الأبوين إلى أصدقائهم؛ كما فعل عبد الله بن عمر، أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبد الله وحمله على حمار كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه. قال ابن دينار- راوي هذه القصة-: -قلنا أصلحك الله إنهم الأعراب وإنهم يرضون باليسير، فقال: عبد الله إن أبا هذا كان ودّاً لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أبرّ البر صلة الولد أهل وُدّ أبيه."^(٢٦) ويتصل بتفعيل القيم المرتبطة بالوالدين صلة الرحم الناشئة عنهما لأن من فعلها فاز بصلة الله به ومن لم يفعلها قطع الله صلته به إذ لا يدخل الجنة قاطع رحم، فهي قيمة مرتبطة بتفعيل قيم العاجلة لاكتساب جزاء الباقية لأن تفعيلها في الدنيا يكون جزاؤه سعة الرزق وبركة في العمر فقد روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من أحب أن يبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره

٢٥- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: (٢): من أحق الناس بحسن الصحبة، ح: (٥٩٧١)، ص: (٨٣٥).

وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب: (١) بر الوالدين وأنهما أحق به، ح: (٢٥٤٨). ص: (١٢٣٢).

٢٦- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب: (٤): صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما. ح (٢٥٥٢)، ص: (١٢٣٥).

فليصل رحمه" (٢٧)

٢- أما في العلاقات العامة فالمسلم مطالب بتفعيل العلاقة مع الجميع صغاراً وكباراً، شيباً وشباباً، نساءً ورجالاً، مسلمين وغير مسلمين، لذلك كان المسلم مطالباً بحسن الخلق وإحسان المعاملة وحفظ العهد؛ لأنه إنسان. والأحاديث في تفعيل قيم التواصل بين المؤمنين كثيرة ومعروفة ولكن العبرة في تفعيلها لصالح المجتمع المسلم: أمنه وسلامته ودعوته ورسالته، روى أبو هريرة أنه ﷺ قال: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً" (٢٨) ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن كل الممارسات السالبة في المجتمع والمعيقة لتفعيل قيم التواصل؛ مثل الظلم والاحتقار والتكالب على الدنيا والشحناء والتهاجر وغير ذلك، بل إن المسلم مطالب بتفعيل القيم الحضارية حتى مع الحيوان والنبات والزرع فقد روى عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وسقتها، إذ هي حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض". (٢٩) فهذه المرأة قد سقطت في سلم القيم إلى الهاوية فدخلت النار، بينما نجد في المقابل قصة الرجل الذي دخل الجنة بحسن تفعيله لقيم التواصل مع الحيوان وارتقائه في سلم القيم في الحديث الذي رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال: لقد بلغ هذا الكلب من العطش

٢٧- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: (١٢): من بسط له في الرزق بصلة الرحم، ح: (٥٩٨٦). ص: (٨٣٧). وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب: (٦): صلة الرحم وتحريم قطعها، ح: (٢٥٥٧)، ص: (١٢٣٧).

٢٨ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: (٥٨): زيا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا... س ح: (٦٠٦٦)، ص: (٨٤٦). وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب: (٧): النهي عن التباغض والتحاسد والتدابير. ح: (٦٦٢٢)، ص: (١٢٣٨).

٢٩- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب: (٣٧): تحريم تعذيب الهرة ونحوها من الحيوان الذي لا يؤذي، ح: (٦٨٦٨). ص: (١٢٦٠).

مثل الذي كان بلغ بي فنزل البئر فملاً خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له قالوا يا رسول الله: وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال في كل ذات كبد رطبة أجر^(٣٠) وتذكر مثل هذه القصة لمومس سقت كلباً فغفر الله لها وفي ذلك يقول أبو هريرة قال ﷺ: غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركي يلهث قد كاد يقتله العطش فنزعت خفها فأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك^(٣١). بل إن تفعيل قيم الرحمة المطلوبة مع البهائم حتى عند ذبحها فقد روى شداد بن أوس قال: (ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليحد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته^(٣٢)). المسلم مطالب بسباق الزمن تفعيلاً للقيم وارتقاء في الدرج ووصولاً إلى الجنة ونجاة من النار إذ أن العبرة ليست في طبيعة العمل بل في دلالة على أن صاحبه يحسن تفعيل القيم والارتقاء فيها فالمرء الذي يفعل قيم الدين بحيث يحس إحساس ذلك الكلب في الصحراء القاحلة قد ارتقى في درجة الإحسان، وهي أرقى درجات النضج الحضاري المنفعل بقيم الدين لأنه أزال أو تخطى كل المعوقات المعطلة للتفعيل، مثل القسوة والاحتقار للحيوان وبخاصة الكلب وفعل كل قيم الخير المطلوبة في المسلم من رفق ورحمة وإحساس بحاجة كل فم رطبة، بينما نجد تلك المرأة وقد ألغت جوانب الخير وانتكست في سلم القيم وفعلت نزعات الشر من قسوة وغلظة وفقدان للإحساس بمراقبة الله وخشيته في خلقه؛ فالرجل أو المومس في الرواية الأخرى قد كانا كريمين معطاءين بينما كانت المرأة بخيلة ماسكة تعاني خلاً في التعامل مع منظومة القيم الحضارية الإنسانية التي حث عليها السنة النبوية.

٣٠- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: (٢٧): رحمة الناس والبهائم. ح: (٦٠٠٩)، ص: (٨٤٠).
 ٣١- مسند الإمام أحمد ج ٩ ص ٥١٩-٥٢٠ ح ١٠٥٦٩ إسناده صحيح رواه أبو هريرة
 ٣٢- صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح، باب: (١١): الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفر، ح: (٥٠٩٦)، ص: (٩٦٥).

المبحث الثالث: تفعيل القيم الخلقية وقيم التخاطب والحوار .

١- تفعيل القيم الخلقية

أجمل ما وُصف به الرسول ﷺ قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾^(٣٣) والله سبحانه وتعالى جمع لرسوله الكريم ﷺ مكارم الأخلاق في قوله ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣٤). وقد روي عن عقبه بن عامر رضي الله عنه، قال: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال، فقال: "يا عقبه، صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عن ظلمك. وفي رواية: واعف عن ظلمك".^(٣٥) وقد فعل رسول الله ﷺ هذه القيم في حياته وعلمنا كيف نفعلها في حياتنا، عن طريق الصبر الذي يعلم الصابر كيف يحتمل الأذى ويكظم الغيظ ويلتزم بالحلم والأناة والرفق والتريث وعدم التعجل، ولذلك قال ﷺ لأشج عبد القيس: "إن فيك خصلتين يحبهما الله قلت ما هما؟ قال: الحلم والأناة"^(٣٦) وقال مخاطباً زوجته عائشة: "مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله".^(٣٧) وقد أثبت التاريخ أن رقي الأمم وحضاراتها ارتبطت بمدى تفعيل هذه الأمم للجوانب الخلقية وإن انهيار الحضارات ارتبطت بانهيارها في سلم الخلق والسلوك، لأن التفعيل الخلقى للقيم السلوكية يضمن لها الارتقاء في سلم الحضارة والعمران فعندما تختفي قيم الصدق والأمانة تتخلخل الروابط الاجتماعية وتفقد الأمة أمنها واستقرارها وتوازنها.

تفعيل القيم الخلقية في الإسلام ضرورة اجتماعية لأن المجتمعات تقوى بالفضائل وترقى بالقيم لأنها تضبط العلاقات وتوجهها. الشخصية السوية في المجتمع المسلم تحقق وجودها وتسعد مجتمعها حينما تفعل هذه القيم في حياتها

٣٣- سورة القلم الآية (٤)

٣٤- سورة الأعراف الآية (١٩٩)

٣٥- مجمع الزوائد: (١٨٨ / ٨). قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني وأحد إسنادي أحمد رجاله ثقات.

٣٦- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: (٧): الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وشرائع الدين والدعاء إليه، والسؤال عنه، وحفظه وتبليغه من لم يبلغه، ح: (٢٦)، ص: (٣٩).

٣٧- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: (٣٥): الرفق في الأمر كله، ح: (٦٠٢٤)، ص: (٨٤١).

التزاماً وسلوكاً وعبادةً وتقرباً إلى الله ولنا الأسوة في رسول الله ﷺ الذي قال عنه سيدنا أنس: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي أفّ قط . ولا قال لي شيء لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا؟. (٣٨) لذلك وصف سيدنا عبد الله بن مسعود رسول الله ﷺ بأنه: "لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً وقال: قال رسول الله ﷺ -: "إن من أخيركم أحسنكم خلقاً" (٣٩) إلا أنه ﷺ كان يقدم المثل فيقول فيما روى أنس بن مالك: "لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا لعاناً ولا سبّاباً، كان يقول عند المعتبة: ماله تربّ جبينه" (٤٠) والذي يميز الأخلاق في الإسلام أنها مبنية على أسس علمية وفكرية من ناحية، وعلى أسس إيمانية ووجدانية فطرية من ناحية ثانية، لأننا إذا تأملنا حقيقة الإيمان نراه شاملاً لكل الفضائل الإنسانية؛ روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان" (٤١) والإيمان يجعل المسلم ملزماً بمطلوباته عقيدة وخلقاً أما الجانب العقلي الفكري فلأن مكارم الأخلاق مؤيدة عقلاً وفكراً ومستحسنة طبعاً وسجية، والأخلاق السيئة قبيحة عقلاً وفكراً، ومنبوذة طبعاً وسجية، والإنسان له نزوع فطري نحو مكارم الأخلاق ورغبة في الالتزام بها. وصدق الإيمان وسلامة اليقين وترك الرذائل هي مظاهر الإيمان الحقيقي فعندما سئل رسول الله ﷺ "أي المسلمين خير؟ قال من سلم المسلمون من لسانه ويده" (٤٢)

-
- ٣٨ - مسلم، كتاب: الفضائل، باب: (١٣) كان رسول الله أحسن الناس خلقاً. ح: ٣٣٠٩، ص: (٥٩٦). ط: مكتبة الرشد: ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.
- ٣٩ - صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: (٣٨): لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم، فاحشاً ولا متفحشاً، ح: (٦٠٢٩)، ص: (٨٤٢).
- ٤٠ - صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: (٤٤): ما يُنهى من السباب واللعن، ح: (٦٠٤٦)، ص: (٨٤٣).
- ٤١ - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: (١٢): شعب الإيمان، ح: (٦٢)، ص: (٤٨).
- ٤٢ - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: (١٤): بيان تفاضل الإسلام وأي أمره أفضل، ح: (٧٠)، ص: (٤٩).

٢- تفعيل قيم التخاطب والحوار:

كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه الأسس العملية لتفعيل قيم التخاطب مع الآخر مسلماً كان أو غير مسلم وأول ما علم أصحابه منهجية تحديد مصطلح الخطاب مثل: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ما بال رجال يشترطون شروطاً، ما بال العامل نستعمله فيفعل كذا (٥) ومثل قوله في حديث عائشة رضي الله عنها: "صنع النبي ﷺ شيئاً فرخص فيه فتنزهه عنه قوم فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية"^(٤٣) فالحياء في مواجهة الناس بالعتاب قيمة خلقية حضارية بل إن الرسول ﷺ يستأذن طفلاً يجلس بجواره في حديث سهل بن سعد: "أن رسول الله ﷺ أتني بشراب فشرب منه وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: والله يا رسول الله لا أؤثر بنصيبك منك أحداً فتله رسول الله ﷺ في يده"^(٤٤) فهذا تفعيل راق لقيم الخطاب التربوي للصغار بحيث يحس كل واحد بذاتيته وكيونته وأهميته شخصاً له اعتباره في المجتمع ورسالته في مستقبل حياته. وعن تربية رسول الله ﷺ يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال: يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك إحفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف"^(٤٥) ويأتي

٤٣- صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: (٥): ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع، ح: (٧٣٠١)، ص: (١٠٠٣).

٤٤- صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب: (١٢): إذا أذن له أو أحله، ولم يبين كم هو، ح: (٢٤٥١)، ص: (٣٢٤).

٤٥- رواه الترمذي في جامعه، كتاب صفة القيامة، باب: (٥٩)، ح: (٢٥١٦)، ص: (٤٠٩). وقال أبو عيسى: حسن صحيح.

شاب تدفعه طاقاته الشبابية وإيمانه بقيادته الرشيدة التي جعلته يستشيريه في كل أمور حياته فيطلب من الرسول ﷺ أن يأذن له في الزنا ببراءة وعفوية فيقبل عليه القوم يزجرونه فيطلب الرحمة المهداة منه أن يدنو منه فيخاطب عقله فحسب ويدير معه حواراً هادئاً مقنعاً رقيقاً أنجبه لأمك؟ فقال لا والله جعلني الله فداك قال ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ثم ذكر له أخته وعمته وخالته إلى أن ختم الحوار بأن وضع يده الشريفة على صدره ودعا له أن يطهر الله قلبه ويحصن فرجه فما التفت الفتى بعد ذلك إلى شيء^(٤٦). ويلاحظ على هذا الموقف الحكيم ما يلي :

أنه ﷺ:

- ١- استعمل أسلوب الإقناع العقلي المنطقي الذي اقتضاه الموقف.
 - ٢- ترفق به في الحوار وأحسن معه في الحديث لأن الرفق لا يأتي إلا بخير.
 - ٣- علمنا أن بعض القضايا تعالج وفق المعطيات المصاحبة لها.
- وكان الرسول ﷺ يفعل قيم الحوار حتى مع أعدائه، والسيرة النبوية حافلة بأدب الخطاب والحوار نشير منها إلى ما دار بينه وبين عتبة موفد قريش إلى رسول الله ﷺ الذي قال له إنك منا حيث قد علمت من السلطة في العشيرة والمكان في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفّتهم به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكان رسول الله ﷺ يستمع إليه بأدبه وأريحيته السّميحة ويقول: "قل يا أبا الوليد أسمع إلى أن يفرغ من كلامه فيسأله بأدب جم أوقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال : نعم قال: فاستمع مني فقرأ عليه ﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم﴾^(٤٧) وبقيّة القصة معروفة، نلاحظ فيها أنه ﷺ
- ١- استمع إلى عتبة مقبلاً عليه دون أن يقاطعه حتى فرغ من حديثه.
 - ٢- طلب منه أن يستمع إليه، كما استمع إليه بهدوء وعناية.

٤٦ - رواه الهيثمي في المجمع: (٨/ ١٢٩). وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجال الصّحيح.

٤٧ - السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٩٣-٢٩٤

٣- سأله إن كان يريد مزيداً من الوقت وزيادة في الحديث (أفرغت يا أبا الوليد؟).

٤- يناديه بكنيته احتراماً وتقديراً لمجده (يا أبا الوليد).

٥- أسمعته الآيات المناسبة المحققة أهدافه الدعوية وأنه لا يبتغي من دعوته غرضاً دنيوياً.

ونختم هذه الجزئية ببيان تفعيله للقيم في مخاطبة الحكام والملوك باختيار رسالته إلى هرقل ملك الروم حيث كتب إليه من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فاني ادعوك بدعاية الإسلام اسلم تسلم يؤتتك الله أجره مرتين فان توليت فعليك إثم الارييسين ﴿ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾^(٤٨) فالرسول ﷺ

١- عرفه باسمه ورسالته.

٢- خاطبه معترفاً بقدره ومكانته في قومه (عظيم الروم).

٣- أوجز له الخطاب وبلغه الرسالة.

٤- حياها بتحية معلقة بالهداية إن اتبعها.

٥- بين له نتائج ما يصل إليه أجراً حسناً أم إثمًا وعقاباً.

إن النماذج كثيرة في السيرة النبوية والهدي النبوي، لا يتسع المجال لإيرادها لأن ما نتعلمه من هدي رسول الله ﷺ يتجدد ويستجيب لمتغيرات الزمان والمكان لأنه وحي الله وخطابه الأخير الشامل للبشرية.

٤٨- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: (١٠٢): دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، ح: (٢٩٤١)، ص: (٣٩٧).

المبحث الرابع: تفعيل القيم الجمالية

١- القيم الجمالية

يعلي الإسلام القيمة الجمالية خُلُقاً وخلقاً وسلوكاً وشكلاً وصورةً وسمتاً، وينمي الحس الجمالي في المسلم وسيلة للسمو بالذوق والارتقاء بالخلق، وطريقة لتحقيق التوازن والانسجام في الشخصية المسلمة. فالإنسان كما هو محتاج إلى إشباع حاجاته الضرورية المعينة على الحياة فهو محتاج إلى وجدان قادر على تذوق الجمال واستلهامه وتأمله في نفسه أولاً ثم في الكون والخلق الذي أحسن كل شيء خلقه^(٤٩) والإسلام لا يكتفي بتربية الحس الجمالي بل يدعو إلى تفعيله في مجال السلوك ﴿واقصد في مشيك واغضض من صوتك﴾^(٥٠) والرسول ﷺ يعزّز ذلك بقوله في رواية جابر بن عبد الله: رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى^(٥١) وتجليات الجمال في الإسلام لا تقتصر على ما تنقله الحواس أو تنفعل النفس برؤيته بل تشمل مناطق لا يدركها الفكر الفلسفي كجمال الطبيعة وما فيها من أنهار وجبال وأزهار تدفع إلى إثارة الفكر والتأمل في خلق الله، وتعمل على الارتقاء بالذوق والروح والسمو بالنفس. بالإضافة إلى الاستمتاع المباح والمنفعة النابعة من تأمل الإبداع الفني - كل ذلك ليجول الفكر فيما هو أبعد من الجانب الحسي المعرض للزوال والفناء؛ وهو فتح أبواب الإيمان واليقين بالقدرة الخالقة لهذا الجمال ولأن حبّ الجمال والإحساس به فطرة إنسانية روى عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً قال: إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس"^(٥٢).

٤٩- سورة السجدة الآية (٧)

٥٠- سورة لقمان الآية (١٩)

٥١- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب: (١٧): السهولة والسماحة في الشراء والبيع، ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف، ح: (٢٠٧٦)، ص: (٢٧٥).

٥٢- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب (٣٧): تحريم الكبر وبيانه، ح: (١٧٨)، ص: (٦٦).

والله سبحانه أودع في الإنسان أدوات الحس الجمالي الذي يدرك به الجمال في كل شيء مثل الأعرابي الذي يدركه في علاقة سوطه . وأثر الجمال في النفس ليس مقصوراً في اللون والصورة والرائحة بل هو شامل لكل شيء مثل الشكل الجميل والإسم الجميل والصوت الجميل كما قال ﷺ فيما روى أبو هريرة ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن وفي رواية أخرى ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به^(٥٣) بل إن الحيوانات أيضاً تستجيب للصوت الجميل، فالجمل يستحثه صوت الحذاء على السير السريع تأثراً بالصوت الجميل، فقد روى قلابة عن أنس كان رسول الله ﷺ في سفر وكان معه غلام أسود يقال له أنجشة يحدو فقال رسول الله ﷺ ويحك أنجشة رويداً سوقك بالقوارير^(٥٤) ومما يؤكد أهمية قيم الجمال في الحياة أن الله عز وجل ما بعث نبياً ولا رسولاً إلا في صورة حسنة وهيئة جميلة لأنهما وسيلتا الولوج إلى قلوب البشر والتأثير فيهم . ونلاحظ أن العبادات في الإسلام لا تؤدى إلا وفق صور جمالية متعددة تتمثل في طهارة البدن والثوب والمكان والهيئة ولبس الأبيض إن أمكن بل إن الدعوة إلى السواك قبل الصلاة وعند قراءة القرآن وقبل الأكل وبعده تعدّ كلها مقصداً جمالياً يصاحب المسلم في عباداته وفي حياته العادية لولا أن أشقّ على أمّتي أو على الناس لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة^(٥٥) فالانسجام بين جمال المكان وجمال المظهر العبادة مقصد شرعي في تفعيل القيم الجمالية في أنشطة الحياة اليومية للمسلم ومسؤولياته .

إن التذوق الجمالي والفني و تفعيلهما في خدمة المجتمع مرتبط بمسؤولية المسلم تجاه وظيفته الاستخلافية و منظومة القيم الحضارية التي تدفعه لحالة من الرقي الوجداني و السلوكي ارتقاء بالمسلم - عقلاً و روحاً و عاطفة - إلى قيم

٥٣- صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب (٣٤): استحباب تحسين الصوت بالقرآن، ح: (١٧٩٧)، ص: (٣٥٤).

٥٤- مسند الإمام أحمد ج ١١ ص ٣٣٧ ح ١٣٩٧٧ إسناده صحيح
٥٥- صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب: (٨): السواك يوم الجمعة، ح: (٨٨٧)، ص: (١٢٢).

الخير والجمال والحق، تفصيلاً لمنظومة القيم الحضارية المحددة في القرآن والسنة تحت مسميات (الإتيقان - الإحسان - النظافة - الأمانة - المصلحة - الجمال - العفو... الخ.

٢- قيم الإتيقان والإحسان

الإتيقان والإحسان هما أعلى مستويات الجمال في مجال القيم الفاعلة والارتقاء بخلق المسلم ووجدانه إلى درجة الإحسان. يوجه الرسول ﷺ لقيمة تتمثل سمة أساسية في السلوك الايجابي للمسلم في الحياة لأنه مطالب باستيفاء شرائط الخلافة في الأرض سعيًا وعبادة وإعماراً لأن الله يحب إتيقان العمل وليس المطلوب الإتيقان المادي فحسب بل الإتيقان النفسي الداخلي أيضاً الممثل في مراقبة الله من النشاط البشري، والإتيقان ليس مهارة مادية حركية فحسب بل مهارة داخلية تعبر عن نفس قوية تُكسب المسلم الأثران والاطمئنان والثقة والتفرد.

المسلم المعاصر لا يفعل هذه القيمة الحياتية التي تمثل معيار سلامة الشخصية المسلمة وقوتها لأنه مطالب ببذل غاية الجهد في إتيقان كل نشاط في الحياة وعلى أي مستوى من المستويات لذلك وضح رسول الله ﷺ تفصيلاً هذه القيمة في كل فعل إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته^(٥٦) فالإحسان قيمة مرادفة للإتيقان الذي يجعله المسلم عادة في العمل ولو لم يكن للعمل آثار اجتماعية كالذبح الذي ينتهي بالعمل كيفما كان. ولعل أبرز صور قيمة الإتيقان تتمثل في الصلاة التي يُطالب المسلم فيها بإتيقان مهارات كثيرة مادية ومعنوية؛ فهو مطالب بتنمية مهارات إتيقان إقامة الصلاة و خشوع القلب واستحضار عظمة الخالق وطمانينة الجوارح وتسوية الصفوف ومتابعة الإمام وممارسة ذلك خمس مرات

٥٦- صحيح مسلم، كتاب الصيد والذباح، باب: (١١): الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفر، ح: (٥٠٩٦)، ص: (٩٦٥).

في اليوم لأن الالتزام بقيمة الإتقان وتفعيله في الصلاة ينسحب على سائر أعمال المسلم اليومية دنيوية وأخروية. هذه القيمة تُكسب المسلم إخلاصاً في العمل لقوة المراقبة الداخلية عنده، كما أنها تخلصه من مظاهر النفاق والرياء. وقيمة الإتقان هدف تربوي في تربية الجيل المسلم باعتبارها ظاهرة حياتية سلوكية تلازم المسلم في حياته و تفاعله الاجتماعي وإنتاجه وكسبه فلا يكفي الطفل المسلم أن يكتب كلمة صحيحة بل كتابتها متقنة جميلة موجودة حتى تنتقل هذه القيمة إلى سلوكياته كلها. كما تمثل هذه القيمة ظاهرة حضارية تنهض بالمفعل لها رُقيّاً في الحياة وقبولاً في المجتمع الإنساني الذي يسعى لبناء حضارة تعتمد القيم السامية البانية للحياة على تقوى من الله ورضوان لأن هدف المسلم أن يرقى في مرضاة الله في إخلاص وتجرد، لأنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، لعلنا لا نبالغ إذا أرجعنا التخلف الحضاري إلى فقدان المجتمع المسلم بعامة لتفعيل قيمة الإتقان سمة إسلامية ومطلباً نبوياً، إن أهمية هذه القيمة في الحياة الإسلامية جعلت المسلمين الأوائل يطلبون من طالب الطب إتقان الخط وإحسان الكتابة قبل أن يتعلم مهنة الطب ليكون الإتقان سمة خلقية وقيمة إنسانية وصف الله سبحانه وتعالى بها نفسه: ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾^(٥٧) السنة النبوية توجه المسلم إلى تفعيل القيم الجمالية في مجالات متعددة، منها ما يتعلّق باللباس فمع أن رسول الله ﷺ لم يلتزم في لباسه زياً معيناً أو لوناً خاصاً إلا أنه ذكر لبس الأبيض فقد روى أبو ذر رضي الله عنه قال: "أتيت النبي ﷺ، وعليه ثوب أبيض، وهو نائم..."^(٥٨) وقد رغب رسول الله ﷺ في البياض في قوله: "البسوا من

٥٧- سورة النمل الآية (٨٨)

٥٨- صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب: (٢٤): الثياب البيض، ح: (٥٨٢٧)، ص: (٨٢١). وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: (٣٧): من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات مشركاً دخل النار، ح: (١٨٦)، ص: (٦٧).

ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم و كفنوا فيها موتاكم".^(٥٩) و لا يخفى ما للبياض من أثر في النفس، ولأن البعد الجمالي أعمق في النفس الإنسانية من الأمور الحسية، كان استحباب رسول الله ﷺ لتكفين من فارق الحياة باللون الأبيض، ومنها الطعام و الشراب فمن أدبه ﷺ ما ذكره أبو هريرة رضي الله عنه: "ما عاب النبي ﷺ طعاماً قط إن اشتهاه أكله وإن كرهه تركه"^(٦٠) كما كان "يحب الحلواء و العسل"^(٦١) ومنها مجال النظافة العامة لأن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، ومنها تفعيل القيم الجمالية الاجتماعية المتمثلة في إفشاء السلام وإطعام الطعام وصلة الأرحام وغير ذلك مما يحقق الشعور بالموودة والألفة والتراحم والتكافل والترابط الاجتماعي.

المبحث الخامس: تفعيل قيم العمل والبيئة

١- تفعيل قيم العمل

كل عمل مرتبط بمنظومة القيم الإسلامية يُمثل قوّة كبيرة للارتقاء في سلم القيم، والعمل الصالح يرتقي به المسلم لأنه حق واجب على الدولة المسؤولة من توفيره له، تحقيقاً لمبدأ الكفالة والواجب الكفائي لذلك كان من مسؤوليات الأمة تأهيل الكفاءات اللازمة عن طريق التعليم والتدريب ولأن العمل يرقى إلى درجة الفرض لكل قادر عليه حرم الإسلام السؤال للقادر على العمل والإنتاج روى أبو هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به ويستغني به من الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك

٥٩- رواه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في البياض، ح: (٤٠٦١)، ص: (٦٣٩). ورواه الترمذي في جامعه، كتاب الجنائز، باب: (١٨): ما يستحب من الأكفان، ح: (٩٩٤)، ص: (١٧٩). وقال أبو عيسى: حديث ابن عباس حديث حسن صحيح، وهو الذي يستحبه أهل العلم.

٦٠- صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب: (٢١): ما عاب النبي صلى الله عليه وسلم، طعاماً، ح: (٥٤٠٩)، ص: (٧٧٢).

٦١- صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب: (٣٢): الحلواء والعسل، ح: (٥٤٣١)، ص: (٧٧٤).

فان اليد العليا أفضل من اليد السفلى وابدأ بمن تعول^(٦٢) ولأن العمل المبغي به وجه الله عبادة في الإسلام، كان حرص أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون لكل عمله الذي يعيش منه، بل يتصدق على أصحاب الحاجات، وقد فعل جميع الأنبياء هذه القيمة العالية في حياتهم إذ يخبرنا رسول الله ﷺ فيقول فيما روى المقدام بن معديكرب بأن النبي ﷺ قال: "ما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وأن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده"^(٦٣) ولأن الأمة المسلمة مطالبة بتحقيق نهضة حضارية في مستوى رسالتها ودينها كان تفعيل قيمة الإتقان والتجويد في العمل أمراً تعدياً يتبغى به وجه الله أولاً، والإسلام لا يطلب من العامل الأجير وحده الالتزام بقيم العمل وأخلاقياته بل يطلب من رب العمل شخصاً أو هيئة أو حكومة أن تلتزم بذلك فقد روى أبو هريرة أنه - ﷺ قال: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر ورجل باع حراً فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره"^(٦٤) وتوجيهات الرسول ﷺ وأصحابه كثيرة في هذا الجانب، إذ كانوا يحتقرون الرجل الذي لا يكسب من عمله أو يعيش على جهد الآخرين حتى لو فرغ وقته للعبادة لأن من يعمل أفضل منه. والذي يُسهّل للمسلم إحسان التفعيل لقيم العمل هو التزامه الديني والخلقي بقيم الدين من أمانة وصدق وإخلاص في العمل ومراقبة لله وخشية منه مما يحقق مطلوبات الأمن الوظيفي للعامل وصاحب العمل.

٢- تفعيل القيم في مجال البيئة

اعتنى الإسلام كثيراً بالبيئة وأحاطها بمجموعة من القيم التي يمكن للإنسان المسلم أن يفعلها في تعامله معها بمظاهرها المختلفة في الكون والواقع وفق

٦٢- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب: (٣٥): كراهية المسألة، ح: (٢٣٦٤)، ص: (٤٦٢).

٦٣- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب: (١٥): كسب الرجل وعمله بيده، ح: (٢٠٧٢)، ص: (٢٧٤).

٦٤- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب: (١٠٦): إثم من باع حراً، ح: (٢٢٢٧)، ص: (٢٩٢).

توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فالقرآن الكريم يحذّر من الفساد في الأرض بكل أنواعه ويدعو إلى الإصلاح والتعمير كما أن السنة النبوية ركّزت على المحافظة على البيئة عن طريق تنمية الحس البيئي وتفعيل القيم التربوية بها، لأن فقدان هذا الحس جعل الإنسان في الدول الصناعية يتخلص من النفايات في البحار والأنهار فتتلوث بها وتميت الحياة والأحياء فيها، كما فعلَ العالم الغربي حينما تخلّص من النفايات النووية في العالم الثالث مقابل رشاوى للمسؤولين وبعض أصحاب السلطة. عالج الإسلام موضوع الوازع الخلقي في هذا الجانب بالتركيز على الرقابة الذاتية وروح المسؤولية المترقية من مستوى التشريف إلى مستوى التكليف، الذي يشمل كل قطاعات المجتمع كله والأفراد في مواقعهم المختلفة كما في حديث المسؤولية الذي سبق ذكره .

تشمل البيئة المجال الذي يعيش فيه الإنسان الذي يفعل قيمه الحياتية حتى يُحدث التوازن المطلوب بينه وبين بيئته التي يحتاج إلى أن تكون خالية من التلوث في كل المكونات التي يحتاج إليها؛ من جو نظيف وهواء طلق ومياه صافية وثروات غير مُستنزفة بالأنشطة الصناعية والعسكرية التي لا تخلق إلا دماراً وخراباً في غياب القيم التي تحكم الأنشطة الإنسانية كلها. إن المحافظة على البيئة ومقاومة كل أمر يتسبّب في تلوث هذه البيئة مسؤولية الأمة كلها، وإذا كانت الدول تعمل لذلك عن طريق القوانين الدولية والمحلية إلا أن التفعيل الصحيح للقيم هو الذي يُسهّل المحافظة على البيئة وفق معطيات القرآن الكريم الذي يحدّد مسؤولية الإفساد البيئي في قوله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾^(٦٥) فغياب الحس التربوي الإنساني بالبيئة هو سبب الفساد البيئي الذي يدمّر بالنفايات

٦٥- سورة الروم الآية (٤١)

النووية، ومخلفات المصانع . والإسلام يربط علاقة المسلم بالبيئة من خلال منظومته القيمية المرتبطة بالتصوّر العقدي، والعمل العبادي، والطهارة الجسمية التي تصح بها الشعائر التعبدية، لأنها هي التي تحقق حماية البيئة في جانب من جوانبها، والإسلام عالج القضية البيئية من محاور عدة منها:

أ- نظافة المياه، المكوّن الأساسي للحياة والبيئة (وجعلنا من الماء كل شيء حي) ^(٦٦) وقد نهى رسول الله ﷺ عن القيام بأي فعل يلوّث المياه، فقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه" ^(٦٧) وللحديث روايات في هذا المعنى والمقصود بالماء الدائم الذي لا يجري.

ب- تخفيف آثار الحروب وتداعياتها وما يحدث فيها من تدمير للبنى التحتية، والمزارع ومقومات العمران والحضارة، كما نشاهد في البؤر الساخنة والحروب المفتعلة، وهذا ما جعل سيدنا أبي بكر يوصي أسامة بن زيد قائد جيش المسلمين إلى الشام، أن لا يقطعوا شجرة مثمرة، ولا يذبحوا بقرة ولا بغيراً إلا للأكل، لأن الحرب في الإسلام استثناء والسلام أصل.

ج- الممارسات العامة للبشر في الطرق والأسواق لحديث رسول الله ﷺ فيما روى أبو هريرة "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان" ^(٦٨) لأن ذلك من الصدقات، ونحن نلاحظ أن التقدم التقني الذي وصل إليه الغرب من أكبر عوامل التلوّث البيئي لأنه لا يستند على منظومة القيم الحافظة للحياة المحرمة للإضرار بالبيئة المستنزفة لمقدرات الأمة، أما الإسلام فيحكم عملية

٦٦- سورة الانبياء الآية ٣٠

٦٧- صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب: (٢٨): النهي عن البول في الماء الراكد، ح: (٥٨٢)، ص: (١٥١).

٦٨- سبق تخريجه، انظر ص: (١٦).

التنمية والاستعمار في الأرض بمنظومة القيم التي تحفظ الأمة في إطار بيئة صالحة تهيئ الحماية للبيئة التي تنتج وينتج فيها، والملاحظ أن المواثيق الصادرة في الأمم المتحدة والمؤتمرات التي عقدت من أجل البيئة «مؤتمر الأرض في البرازيل» لم تتناول القيم الخلقية الموجهة والحاكمة للبيئة المعتمدة على رقابة الضمير والخلق وليس رقابة القانون.

إن التلوث لا يقتصر على التلوث البيئي ولكنه يشمل التلوث السلوكي الأكثر خطراً منه والمتمثل في الفساد والرشوة وغسل الأموال والصفقات المالية المشبوهة والاتجار بالبشر وتجارة المخدرات، التي يدفع ثمنها الأمم من مدخراتها ومقدراتها في غياب التحصين القيمي وغياب القيم الخلقية السلوكية التي تكفل للأمة حياة طيبة.

الإنسان المسلم مطالب بالاستغلال الأمثل للموارد الطبيعية دون إهدار أو إسراف لأن التفعيل للقيم البيئية يؤدي إلى سيادة المظاهر الحضارية الايجابية من محافظة على الطاقات والموارد الطبيعية كالماء والهواء النظيف والنبات، ويعزز القيم البيئية الدينية في سلوك المسلم على المستويين الفردي والجماعي، لأن التردّي في البيئة ناتج عن غياب تلك القيم التي وجّه إليها رسول الله ﷺ مما أدى إلى شيوع منهج الاستهلاك منهجاً للحياة يُروّج له عن طريق الإشهار والإعلان للسلع وتشجيع صفة الاستهلاك، دون اهتمام بمشكلة النفايات ومراعاة مصادر الطبيعة واتّساع الرقعة العمرانية.

وهنا يوجه الحديث النبوي تفعيل القيم المتعلقة بالبيئة في اتجاهين أحدهما إيجابي وهو الاستعمال الأمثل للمياه ومواردها، بحيث تحقق للمجتمع حاجته، وذلك بالاعتدال في استعمال المياه ولو كان في العبادة مثل الوضوء فقد وجه الرسول ﷺ إلى عدم الإسراف في ماء الوضوء ولو كان المتوضئ على نهر جار، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ مرّ بسعد وهو يتوضأ فقال: "ما هذا السرف؟ فقال أفي الوضوء سرف؟ قال: نعم. وإن

كنت على نهر جار^(٦٩) وهذا توجيه لاستعمال المياه نحتاج إليه في ظل نُذْرُ حرب المياه القادمة في العالم اليوم نتيجة شحّ المياه، وسوء الاستعمال لها، وتلويث الأنهار بمخلفات المصانع وغيرها، وهذه لا تختلف في خطورتها عن نهي الرسول ﷺ، للتبؤ والبراز في الأماكن التي يرتادها الناس كالمساحات العامة وقارة الطريق والفيء، فقد روى أبو هريرة أنه ﷺ قال: "اتقوا اللّعانين. قالوا وما اللّعانين يارسول الله؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلمهم"^(٧٠)

أما الاتجاه الثاني فهو النهي القاطع لكل ما يؤذي البشر مثل قوله ﷺ فيما يرويه ابن عباس أنه ﷺ قال: "اتقوا الملاعن الثلاثة. قيل: ما الملاعن يارسول الله؟ قال: أن يقعد أحدكم في ظل يستظل فيه أو في طريق أو في نقع الماء"^(٧١). وروى أبو هريرة أنه ﷺ "لا تبل في الماء الدائم الذي لا يجري ثم تغتسل منه"^(٧٢). كما حذّر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يمنع أحد استعمال الماء في الشرب، ولو كان الماء له ففي حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: "ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رجل كان له فضل ماء بالطريق فمنعه ابن السبيل، ورجل بايع إمامه لا يبايعه إلا لنديا فإن أعطاه منها رضي وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر فقال: والله الذي لا إله غيره لقد أعطيت فيها كذا وكذا فصدّقه رجل ثم قرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَإِيمَانِهِمْ ثَمًّا قَلِيلًا﴾"^(٧٣).

وتوجّه السنة النبوية إلى قيم عليا في الحياة تتعلق بتعمير البيئة وتزينها حتى تكون

٦٩- الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣ ح ٢١٣. وراه ابن ماجه في سننه: (١٤٧/١). وقال

شعيب الأرنؤوط في حاشيته على مسند أحمد: إسناده ضعيف

٧٠- صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب: (٢٠): النهي عن التخلي في الطرق من التبرّز، ح: (٥٣٩)، ص: (١٤٥).

٧١- الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢٥٦ ح ٩٧، ورواه أبو داوود وابن ماجه والحاكم في مستدرکه، وقال الذهبي: صحيح. وقال الألباني: حديث حسن، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره.

٧٢- صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب: (٢٨): النهي عن البول في الماء الراكد، ح: (٥٨٣)، ص: (١٥١).

٧٣- صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب: (٥): إثم من منع ابن السبيل من الماء، ح: (٢٣٥٨)، ص: (٣١١)

بيئة جميلة مريحة متناسبة مع طبيعة هذا الدين وتوجيهاته الحياتية، فقد روى قتادة عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"^(٧٤). وقد أورد مسلم الحديث بروايات في هذا المعنى غير أن التفصيل قد ورد في رواية جابر قال: قال رسول الله ﷺ "ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدق، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤ - ينقصه أو يأخذ منه - أحد إلا كان له صدقة"^(٧٥). ويذكر في هذا المقام الحديث المشهور المعبر عن عظمة هذا الدين ودعوته الإصلاحية والتعمير في كل الأوقات حتى لو قامت القيامة "إذا قامت الساعة وبِيدِ أحدكم فسيله فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل"^(٧٦).

المبحث السادس: تفعيل القيم في المنهج الدراسي

تفعيل القيم في المنهج الدراسي:

١- العلوم الإسلامية

البشر هم أساس التربية والتنمية ولكي يكون هذا العنصر في مستوى الاستحقاق فإن تأهيله يتم وفق صياغة برنامج تربوي يركز على القيم الدينية الحضارية وتنمية الكفايات ثم تفعيل هذا البرنامج في الواقع . وبناء القيم لا يتم عن طريق علوم التربية الإسلامية والعلوم الشرعية وحدها وإنما يتم عن طريق المواد الدراسية الأخرى في تكامل وتناسق وإدراك هذه العلاقة بين المواد الإسلامية و المواد الأخرى هي التي تؤدي إلى صياغة محتوى دراسي ذي أهداف واضحة ووسائل معروفة وقابلة للقياس.

٧٤- صحيح البخاري، كتاب الوكالة، باب (٤١): الحرث والمزارعة، ح: (٢٣٢٠)، ص: (٣٠٦).

٧٥- صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب: (٢): فضل الغرس والزرع، ح: (٣٩٨٦)، ص: (٧٤٨).

٧٦- مسند الإمام أحمد ج ١١ ص ٥٥ ح ١٢٩١٦ إسناده صحيح رواه البخاري في الأدب المفرد ص ١٦٨ ح ٤٧٩

وإذا نظرنا لمواد العلوم الإسلامية باعتبار الآثار المباشرة لها في عملية التفعيل للبناء القيمي فإننا نحتاج إلى تحديد مفهوم واضح للتربية الإسلامية بمكوناتها وأهدافها وسماتها المميزة لها بما يحقق التنمية القيمية للعقل والجسم والروح وبما يشمل جوانب المعرفة الإنسانية والكونية التي تلبي حاجات الإنسان الأساسية روحية ومادية، فردية واجتماعية، وبذلك تكون العلوم الإسلامية مجسدة لمختلف القيم في مجالات الحياة كلها وأنشطة السلوك الإنساني وتصوراتها. ولا يعني هذا التركيز - كما هو حادث - على الجانب المعرفي في العلوم الإسلامية وتقديمها في مستوى التنظير والنظر، دون التركيز على الجانب التطبيقي التفاعلي الواعي المرتبط بسلوك الطالب الحياتي، وهذا ما يجعل هذه القيم فاعلة ومفعلة في المستوى العملي والتطبيقي وخاصة في المراحل الدراسية الأولى حيث يحتاج الطالب فيها إلى تفعيل وتنمية الجوانب الوجدانية والعاطفية والسلوكية حتى يتحقق وفق المنهاج التعليمي التنمية الحقيقية للكفايات والتفعيل الفاعل للقيم في المجال المعرفي والعاطفي والسلوكي. وبهذا التصور يمكن لمواد العلوم الإسلامية أن تكون الأساس القوي للمنهج التعليمي المبني على القيم الإسلامية وتكون المواد الدراسية الأخرى مكملة لها في وظيفتها.

٢- اللغة العربية واللغات الأخرى:

اللغة ليست وسيلة اتصال فحسب ولكنها وعاء للثقافة ووعاء للقيم التي تعبر عن المضامين التربوية والخلقية والإنسانية التي تحقق للإنسان توازنه مع نفسه وتكيفه مع مجتمعه وأدائه لرسالته، لذا كان من الأهمية بمكان التركيز على البعد التربوي القيمي الذوقي للغة العربية أكثر من الاهتمام بالبعد التقني التراثي لأن اللغة تمثل طرائق التفكير ومناهج الحياة والمحتوى المعرفي للعلوم مما يؤكد أهمية وظيفتها في تدريس المواد الدراسية الأخرى الممثلة للبعد الثقافي والمعرفي لمحتوى المنهج، أما من حيث التوظيف للغة في تفعيل القيم الحضارية في المنهج الدراسي فإن ذلك يتوقف على تقديم النماذج التي تعبر عن القيم العليا في الحياة

مثل قيم الكرامة والحرية والعدل والإحسان، والمنظومة الخلقية التي جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية إلى جانب النصوص المختارة من التراث الإسلامي والمعبرة عن القيم الإيجابية الكاشفة للإبداع الفكري والجمال، والتعرف عليها وتفعيلها في الواقع المعيش ولا يتحقق هدف تنمية الملكات وزيادة المخزون اللغوي إلا عن طريق الاختيار الأمثل للقراءة الذاتية، والنصوص الأدبية المتميزة في مجالات الأدب؛ شعراً وقصة ورواية وأمثالاً.

وإذا كانت اللغة العربية تحقق التواصل مع الذات فإن اللغات الأخرى تحقق التواصل مع الآخر تفعيلاً للقيم وتعزيزاً للقدرات، وانفتاحاً على الثقافات الأخرى في مظاهرها وأصولها، وبما أن أي لغة تحمل المفاهيم والمضامين المحتلة لطبيعة البيئة وصور الثقافة فإن اللغة لا تؤخذ بعيدة عن الثقافة التي تمثلها مما يؤكد أهمية تفعيل القيم الإسلامية في اللغة الأجنبية ومع الثقافة الأصلية التي استقبلت اللغة الوافدة بمعطياتها الثقافية والقيمية دون أن نضع المتعلم في إشكالية ازدواجية الثقافة وازدواجية القيم الحياتية لأنه يتعلم أصول ثقافته وقيمه من لغته الأصلية التي تحقق التوازن والملاءمة بين أهداف التعليم التي تركز على القيم المستمدة من العقيدة والتصورات المأخوذة من القرآن الكريم عن الحياة والإنسان والكون - ومحتوى المواد الدراسية الأخرى، وعالمية الرسالة الإسلامية التي جاء كتابها بلسان عربي مبين يقتضي تعامل أصحابها مع اللغات الأخرى حتى ينقلوا إليها عن طريق التعامل مع المضامين القيمية النبيلة التي تأخذ طابع الرسالة العالمية الإنسانية وحتى تستطيع هذه اللغات عن طريق الترجمة من العربية تفعيل القيم الإسلامية في ثقافتهم وتعزيز القدرات اللغوية والاعتزاز بالقيم الإسلامية امتثالاً لتوجيهات رسول الله ﷺ في أن الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها ففي الثقافة العالمية ما يحمل القيم الأخلاقية والآداب العامة والمضامين الإنسانية والايجابية التي لا تتناقض مع المنظومة القيمية الإسلامية التي تنسجم معها، كما أننا مطالبون بتعريف غيرنا بما في حضارتنا من فكر، وثقافتنا من أصالة، وقيمتنا من ديمومة وواقعية، ولذلك علماؤنا الذين أغنوا المعرفة الإنسانية بإبداعاتهم

وبحوثهم وعطائهم العلمي المميز ومناهجهم الدراسية التي عكست كلها تصورات الإسلام في مجالات الحياة المختلفة، وكل ذلك ينعكس في النهاية على المتعلم تجارب وخبرات، وقدرات ومهارات.

٣- العلوم الاجتماعية:

تهدف العلوم الاجتماعية إلى تنمية مهارات المتعلم على التفاعل والتجانس مع المحيط الذي يعيشه معرفة لتاريخه وسنن الله في خلقه زماناً ومكاناً تاريخاً وجغرافية بما يحقق للطالب التفكير في السنن والاعتبار من التاريخ والمعرفة لأحوال الأمم ليعيد في ضوء ذلك كله تقويم حضارته التي زاوجت بين القيم والعلوم.

إن تعامل الطالب مع المحيط الذي يعيش فيه والقضايا المرتبطة بمحيطه تعزز فيه القدرة على أداء وظيفته في هذه البيئة بالصورة المطلوبة، كما ينمي فيه طاقاته الإبداعية، وقدراته الذهنية في التحليل والاستنتاج وفق المرحلة العمرية التي يعيشها. وتعمل العلوم الاجتماعية في تفعيل القيم على تنمية الاعتزاز بالأصول الحضارية للأمة الإسلامية على المستوى الوطني الإقليمي، والمستوى العالمي الإنساني وعلى إدراك محدودية الحياة ونسبية الزمان والمكان حتى يدرك سنن الله في الحضارات التي سادت ثم بادت وفق سنن الله الكونية في الهداية والضلال والازدهار والدمار، والانحطاط والرقى، والقصاص القرآني حافل بهذه المعاني والسنن. العلوم الاجتماعية أيضاً قيم الإسلام في النظر إلى الآخر والتعامل معه ونظرة الإسلام للبشر المتساويين في الحقوق والواجبات ونظرة الإسلام للتمايز البشري في السحنات والألوان ﴿ومن آياته اختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾^(٧٧) مما يؤدي إلى احترام الآخرين، وقتل مظاهر العنصرية والتفرقة بين الناس وفق

٧٧- سورة الروم الآية (١)

ألوانهم وأعراقهم و ثقافاتهم ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾^(٧٨) الإسلام لا يتعامل مع الأحداث التاريخية على أساس أنها إضافات معرفية أو ظواهر اجتماعية بل يتعامل معها على أساس أن الحادثة التاريخية تجسد قيم الزمان والمكان والعبر المستخلصة منه والظاهرة الاجتماعية تجسد قيم المكان وأثره .

٤- العلوم الكونية

تعامل علماء المسلمين مع العلوم كلها شرعية وكونية من منظور أن هذه العلوم كلها تؤدي إلى معرفة الكون وما فيه من سنن والوحي وما تضمنه من خطاب الله للبشر وصولاً إلى معرفة الخالق عز وجل وإخلاص العبادة له والمفترض في العلوم الكونية: رياضية وطبيعية وفيزيائية وكيميائية، أن تكون الركيزة الأساس في تفعيل القيم في نفوس البشر وتحقيق الأبعاد المختلفة لها في حياة البشر لأنها مبنية على التجربة المباشرة والتفكير العلمي المنطقي التحليلي. إن الربط بين معطيات العلوم الشرعية والعلوم الكونية وتوجيهها إلى عملية التفكير في الخلق وبديع صنع الله والتأمل فيها يحقق التجانس بين معطيات العلوم الشرعية النظرية والعلوم الكونية التطبيقية وبالتالي يعزز مفهوم وحدة الخلق والخالق ويعمق الإيمان في مجاله النظري والتطبيقي، وهذا ما أراده القرآن الكريم في أساسه المعرفي الذي يهدف إلى توجيه العقل البشري إلى التأمل في مكونات الكون المنظور، كما يتأمل القرآن الكريم كتاب الله المقروء ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الأبصار الذين يذكرون الله قياماً وقيوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾^(٧٩) والآيات كثيرة في القرآن الكريم وهذا ما يعزز ويقوي عظمة الله الخالق الواحد في

٧٨- سورة الحجرات الآية (٢)
٧٩- سورة آل عمران الآيات (١٩٠-١٩١)

نفوس الطلاب لأنه يوجهه إلى أن يمتد بفكره إلى ملكوت الله في الأرض والسماء وهذا ما يفعل به الطالب القيم المرتبطة بالإدراك الواعي لعظمة الخالق المبدع المدبر ﴿ألا له الخلق والأمر﴾^(٨٠) وهو إدراك يعمق الإيمان في نفس المتعلم ويجسد مردودها في السلوك، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل إن تكريم الإسلام للعلم والعلماء يؤدي بالمعرفة إلى نتيجتها الطبيعية من خوف ورجاء وإخلاص في العقيدة والعبادة ولا يتم ذلك كله إذا لم يكن المنهج الدراسي قاصداً تنمية التفكير العقلي والحس المنطقي والقدرات الذاتية في مجال توظيف العقل وتفعيله في الإقناع والحوار والتعبير والقدرة على النقد البناء والتواصل والتعاون والوعي بقضايا الحياة ومتعلقاتها، وكل ذلك يتم من خلال الربط بين ما تقدم والتفعيل الفاعل للقيم في المجال الكلي والجزئي.

٥- الفنون والجماليات

الله جميل يحب الجمال وطيب لا يقبل إلا طيباً وما صدر من الله - سبحانه وتعالى - كله جميل ورائع والجماليات في هذا الكون تهدف إلى تعميق صلة الإنسان بخالق الكون بإبداعه وجماله حتى تتعمق الرؤية الجمالية التي تعمق التواصل بالخالق والارتباط بمن صدر عنه هذا الجمال المتمثل في جوانب الكون المنظور كله، والإنسان أجمل مخلوقات الله وأحسنها صورة وأكثرها معجزة داعية إلى التأمل والتفكير ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾^(٨١) كما أن هذا الجمال في الوجود كله دعوة إلى تربية القدرات الحسية لدى الإنسان ودعوة إلى أن يفتح بصره وبصيرته للاستمتاع بالجمال في النبات والحيوان والجبال والدواب

٨٠- سورة الأعراف آية (٥٤)

٨١- سورة الذاريات الآية (٢١)

والأنعام والزينة التي في السماء والنجوم والكواكب وغيرها، ليتناسق الإنسان في شكله وحسّه وعقله مع مظاهر هذا الكون الجميل الذي يمثل مجالاً واسعاً لتفعيل القيم الإسلامية من خلال الإدراك الواعي لمعاني الذوق والجمال. الفنون والجماليات تهدف في المنهج الدراسي إلى إذكاء روح الابتكار والإبداع وتحفيزه لتفعيل قدراته الفائقة التي متعه الله بها سواء على مستوى الحواس من سمع وبصر ولمس وتذوق، أو العقل على مستوى التأمل والإدراك؛ لأن الفنون والجماليات هي التي تنمي قدرات الإنسان المتعددة ليقوم بتفعيلها بإيجابية مع الحياة وما يحيط به من بيئة وبشر وحيوان بل وجماد، كما أنها توجد أشكالاً متعددة من المهارات التي تجعله قادراً على التعامل الإيجابي مع الفنون الجميلة، وهي وسيلة المتعلم في تكوين شخصية منفتحة على الحياة والمحيط المتصل به. فكل المخلوقات تعبر عن الإبداع الإلهي في الكون ودقة صنع الخالق بما يحقق ترسيخ المنظومة القيمية وتجاوز كل أمر يخلُ بهذه القيم في حياة الناس وتربية الحس الجمالي الفني هو الذي يهذب الإنسان خلقاً وسلوكاً وتعاملاً وإحساناً مع البشر والبيئة المحيطة به. والتربية الجمالية بأبعادها القيمية ترسخ جمال الإبداع ورفقي الإحساس وسمو السلوك وجمال النفس والبيئة التي تحيط بالإنسان، ولا بد لهذه التربية الفنية الجمالية أن تحقق في النهاية اكتساب المهارات والأشكال المتعددة للتعامل وإدراك مفاهيم الذوق والجمال في الإسلام.

٦- التربية البدنية

التربية الجسمية والبدنية من الجوانب الأساسية التي تهتم بها التربية الإسلامية تماماً كالتربية العقلية والوجدانية والإيمانية، وبما أن سلامة العقل من سلامة الجسم وأن السلامة تتوافر لها من خلال التفاعل بين قوة الجسم ومناعته، وسلامة العقل وقوته إرادة وتحملاً، وهذا ما يجعل مادة التربية البدنية أو الرياضة متضمنة لكثير من القيم الإسلامية التي عبر عنها الرسول ﷺ فيما رواه أبو هريرة أنه قال: "المؤمن

القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير^(٨٢) كما يقول ألا أن القوة الرمي، ألا أن القوة الرمي، ألا أن القوة الرمي^(٨٣) فالترية البدنية تتجلى في مجموعة من القيم الحضارية التي أوضحها رسول الله ﷺ لأن منطلق التفعيل للقيم في حياة الناس هو الجسم السليم الذي يؤدي إلى التصور السليم وإلى التصرف السليم في مجالات الحياة كلها عبادة لله وعملا للكسب، وإتقانا للمهارات وتجويداً للصناعة كما أن السلامة النفسية من تفاؤل ورضا، ومحبة وعطاء، وتصالح مع الذات وحسن تعامل مع الآخر إنما يتحقق بتفعيل القيم الإسلامية في تلك المجالات على المستوى الفردي، والتعاون والتضامن والإخاء والمودة والصدقة والتعايش والتعارف على المستوى الجماعي لأن مواد التربية الرياضية ممارسة وتطبيقاً تفعل هذه القيم وتجسدها وتعمقها في السلوك الفردي والجماعي حيث يمكن قياس تجلياتها في المتعلمين عن طريق الملاحظة والتجريب والقياس.

فالعناية الرياضية للجسم وتنشيط العناصر المكونة له من تقوية للمناعة وعناية بالأجهزة العصبية والنفسية والعضلية تهدف في النهاية إلى تهيئة الفرد للقيام بمسؤولياته الدينية والاجتماعية وغيرها من خلال منظومة القيم التي تضبط حركة الجسم ومجالاته وحاجاته كما تضبط الأوقات واللباس الرياضي والبيئة الرياضية والفصل بين الإناث والذكور مراعاة للضوابط الشرعية والخصوصية الحركية للرجال والنساء، حتى لا تحرم المرأة من ممارسة الرياضة نتيجة الخلل في ضبط الأمور السابقة وبحيث تهيئ الشروط الضرورية لكل من الجنسين في تنمية قدراتهم الجسمية وبالتالي قدراتهم العقلية والنفسية.

٨٢- صحيح مسلم، كتاب القدر، باب: (٨): الأمر بالقوة وترك العجز، والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، ح: (٦٨٦٨)، ص: (١٢٧٩).

٨٣- صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب: (٥٢): فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، ح: (٤٩٨٤)، ص: (٩٤٧).

المبحث السابع: سبل تفعيل القيم والمعوقات.

السبل:

١- تعميق الإيمان بالله: من حيث الإحساس بالمراقبة الدائمة منه والخوف والرجاء ومعرفة المصير الذي ينتظر الصالحين و الطالحين و الصحبة الصالحة الدالة على الخير و المبعدة عن الشر مع تطبيق شرع الله في الأمة فالتطبيق وسيلة المسلم لتفعيل إيمانه وترجمته واثقاً في سلوكه وضابطاً لأفعاله، وتصديقاً لأقواله بحيث تحقق للمجتمع استقراره وأمنه وسلامته ونقاءه وتربيته وتعاليمه ويحقق التوازن بين الحاجات الروحية والمادية والفطرة السليمة والعقل الراشد الذي يعزز الوازع الإيماني الدافع إلى الخير المبعد من الشر.

الرسول ﷺ يوجه المسلمين كي يفعلوا إيمانهم بممارسات سلوكية فيقول المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده...^(٨٤) ويربط بين الإيمان والاستقامة على أمر الله قل آمنت بالله ثم استقم^(٨٥) وفي أحاديث كثيرة يربط تفعيل القيم الإيمانية بحب الله ورسوله وحب المرء لا يحبه إلا لله، وخوف العودة إلى الكفر. ويأتيه رجل يسأله أي الإسلام خير؟ فيجيب تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف^(٨٦) بل يخبرنا رسول الله ﷺ إن تفعيل قيم الإيمان كما يكون عملاً قد يكون امتناعاً عن الفعل ففي حديث أبو هريرة أنه ﷺ قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر

٨٤ - صحيح مسلم، كتاب الرقاق، باب: (٢٦): الانتهاء عن المعاصي، ح: (٦٤٨٤)، ص: (٨٩٨).

٨٥ - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: (١٣): جامع أوصاف الإسلام، ح: (٦٨)، ص: (٤٩).

٨٦ - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: (١٤): بيان تفاضل الإسلام وأي أمره أفضل، ح: (٦٩)، ص: (٤٩).

فليكرم ضيفه^(٨٧) ومن أهم مجالات تفعيل القيم الإيمانية مجال الإصلاح الاجتماعي والتوعية الدينية في الحديث المشهور من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلمه وذلك أضعف الإيمان^(٨٨) ويخبرنا ﷺ إن ثمرة الإيمان في تفعيله في حياة الناس ومن هذه الأحاديث حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: "لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"^(٨٩) ولأهمية تفعيل قيم الإيمان في الحياة وجه الرسول ﷺ إلى أن الإيمان ليس مجرد الاعتقاد ولكنه عمل، فقد سئل عن أفضل الأعمال فأجاب إيمان بالله يفعله المسلم إيجابا وسلبا أحيانا ففي حديث أبي ذر قال: "قلت يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد في سبيله قال: قلت أي الرقاب أفضل؟ قال: أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنا قال: قلت فإن لم أفعل؟ قال: تعين صناعا أو تصنع لأخرق قال: قلت يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك"^(٩٠) فالرسول ﷺ يوجه المسلم أن يفعل قيم الإيمان أولا في سلوكه وحياته ثم في المجتمع المسلم الذي يعيش فيه ثم في المجتمع الإنساني وفق مسؤولياته في دينه ورسالته.

٢- تقوية الإحساس بالمسؤولية: يمكن أن نضع في وصف المسلم كلمة تحدد هويته ورسالته وهي أنه إنسان مسؤول، والرسول ﷺ في تربيته لأصحابه كان يركز

٨٧- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: (١٩): الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير، ذلك كله من الإيمان، ح: (٨٢)، ص: (٥١).

٨٨- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: (٢٠): بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، ح: (٨٦)، ص: (٥٢).

٨٩- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: (٢٢): بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سبب لحصولهما، ح: (١٠٤)، ص: (٥٤).

٩٠- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: (٣٤): بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، ح: (١٦٣)، ص: (٦٣)

على تقوية الإحساس بالمسؤولية على المستويين الفردي والجماعي وهي في المفهوم الخلقي التزام المرء بما يصدر عنه من أقوال أو أفعال يكون مستعداً لتحمل نتائجها وتبعاتها ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾^(٩١) ﴿إن السمع و البصر و الفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾^(٩٢). وتتفاوت المسؤوليات في مستويات بين المستوى الشخصي والمستوى الاجتماعي و المستوى المدني، وفي كل مجال من هذه المجالات تحتاج إلى تفعيل القيم التي تتعلق به مثل تفعيل قيم الفضيلة والأخلاق وأمانة التكليف على المستوى الفردي وقيم التكافل والتضامن على المستوى الاجتماعي وقيم التكليف الشرعية والقانونية على المستوى المدني. وتتضامن في تفعيل هذه القيم مؤسسات التربية في الإسلام بدءاً من الحاكم ثم الأسرة. روى ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: "كلكم راع فمسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع عليهم، وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"^(٩٣) فهذا يتطلب من كل مسلم أن يقوم بمسؤولياته كلُّ فيما أنيط به، وليس المقصود بالخدام المعنى الشائع له بل المقصود كل إنسان في موضع مسؤولية: عاملاً أو موظفاً أو غير ذلك من الأعمال التي تترتب عليها مسؤوليات وواجبات، حتى المؤسسات التعليمية والثقافية والإرشادية والأمنية والإدارية كل في مجاله ودائرته لأن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع.

بل إن المسؤولية تنتقل إلى المسؤولية عن الجيران. عن أبي شريح أن النبي ﷺ

٩١- سورة الحجر الآيات (٩٢-٩٣)

٩٢ - سورة الإسراء الآية (٣٦٩)

٩٣- صحيح البخاري، كتاب العتق، باب: (١٧): كراهية التناول على الرقيق، وقوله: عبدي أو أمتي. ح: (٢٥٥٤)، ص: (٣٣٨).

قال: "والله لا يؤمن و الله لا يؤمن قيل ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه"^(٩٤). والرسول ﷺ وضح المسؤوليات الأساسية في قوله في حديث تميم الداري أن النبي - ﷺ قال: "الدين النصيحة. قلنا لمن؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"^(٩٥).

مسؤوليات مؤسسات المجتمع المدني:

تدخل مسؤولية مؤسسات المجتمع المدني من أحزاب وجمعيات وهيئات ونقابات ومؤسسات التوجيه كالإعلام من تلفاز وصحافة وإذاعة في تفعيل القيم الخيرة ودرء المجتمعات عن ما يعيقها ويعطلها في قول رسول الله ﷺ من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلاله كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً^(٩٦) وهذا يؤكد على أهمية ناقل الأخبار عالماً أو متعلماً أو إعلامياً أو سياسياً لتعليم الناس وتوجيههم لما فيه خير لهم في دينهم ودنياهم.

٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أنهما يمثلان الضمانة للمجتمع المسلم كي يحقق أمنه وسلامته ونظافته وتطوره لأن تعطيلهما يسبب مشكلات للمجتمع بحيث يتزعزع أمنه واستقراره ويتعطل تطوره ونماؤه، لأن تفعيل القيم يتم حين تمارس الأمة لواجباتها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهما الضمانة لمجتمع الفضيلة والكفاية والأمن، وتعطيلهما يسبب الدمار والتخلف والإجرام بكل أنواعه وأشكاله فيحل غضب الله مكان رضاه، وسخطه مكان عفوه، وحره بدل سلمه، فحضانة المجتمع في تفعيل هاتين

٩٤- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: (٢٩): إثم من لا يأمن جاره بوائقه، ح: (٦٠١٦)، ص: (٨٤٠).
٩٥- صحيح مسلم، باب: (٢٢): بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سبب لحصولها، ح: (١٠٦)، ص: (٥٥).
٩٦- صحيح مسلم، كتاب العلم، باب: (٦): من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، ح: (٦٩٠١)، ص: (١٢٨٥).

الفضيلتين وفق الوسائل المتاحة والهدي النبوي في ممارستهما لأنهما تحققان التعاون على البر والتقوى فقد روى حذيفة بن اليمان عن رسول الله ﷺ "والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه فتدعون فلا يستجاب لكم"^(٩٧) وتفعيل هذه القيمة في الحياة واجب كل مسلم لقوله ﷺ "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"^(٩٨) ويقول فيما روى أبو سعيد الخدري إن رسول الله ﷺ قال: "إياكم والجلوس في الطرقات قالوا يا رسول مالنا بد من مجالسنا نتحدث فيها قال ﷺ فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه قالوا وما حقه؟ قال: غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر."^(٩٩) المجتمع كله مطالب بتفعيل هذه القيم كل حسب قدراته وإمكاناته وموقعه، رجالاً ونساءً، شيباً وشباباً، حكاماً ومحكومين، جماعات وأفراداً، فأضعف أفراد المجتمع يتعاملون بما يستطيعون وهو كثير ومؤثر. فالتجار يقاطعون المنتج التجاري في البلاد المعادية والمروجة للمنكرات، والعلماء والكتّاب ورجال الإعلام عن طريق الكلمة المكتوبة والمنطوقة والمرسومة ثم الحكام بصلاتهم الدبلوماسية وقدراتهم التأثيرية مع استعمال سلطاتهم الشرعية والقانونية إنهما يشكلان الضمانة للمجتمع المسلم ليحقق أمنه وسلامته ونظافته وتطوره كما أن غيابهما يسبب مشكلات المجتمع فيتزعزع أمنه واستقراره، ونقاؤه وتطوره، تسود بممارسة الأمة لواجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهما الضمانة لمجتمع الفضيلة والأمن والكفاية والتقدم وغيابهما سبيل الدمار والتخلف والإجرام بكل أنواعه، فيحل غضب الله مكان رضاه وسخطه مكان عفوه، وحربه

٩٧- رواه الترمذي في جامعه، كتاب الفتن، باب: (٩): ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح: (٢١٦٩)، ص: (٣٦٠). وقال أبو عيسى: حديث حسن.

٩٨- سبق تخريجه، انظر ص: (٣٤).

٩٩- صحيح مسلم، كتاب اللباس، باب: (٣٢): النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه، ح: (٥٦١٤)، ص: (١٠٤٩).

مكان سلمه. فحصانة المجتمع في تفعيل هاتين الفضيلتين وفق الوسائل المتاحة والأدب النبوي في ممارستها لأنهما يحققان التعاون على البر والتقوى، وتفعيل هذه القيمة واجب كل مسلم من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان^(١٠٠)

المعوقات:

الأوامر الإلهية كلها توجه الإنسان المسلم أن يفعل قيم الدين في الحياة اعتقاداً وممارسة حتى يتمكن من تحقيق سر وجوده في الحياة؛ عبادة لله وامثالاً لأوامره البانية لحياته فالمسلم يترقى في سلم القيم وفق الجهد الذي يبذله في عباداته؛ فالذي يتقرب إلى الله بالنوافل يرتقي للدرجات العليا فيحبه الله. وفي القرآن الكريم ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة، وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾^(١٠١) وإذا كانت الأوامر الإلهية تمثل صراط الله فإن النواهي تمثل السبل المؤدية لمفارقة سبيل الله كالانحراف في العقيدة ومظاهر الشرك المختلفة والآثام والموبقات مثل عقوق الوالدين وقطع صلة الأرحام وعدم الرحمة بالبشر والبهائم وسوء الظن بالله وبالناس والشح والبخل وأذى الناس والمخلوقات وخاصة ذوي الأرحام والجيران وتناول أعراض الناس والسخرية منهم فقد روى أبو شريح أن النبي ﷺ قال: "والله لا يؤمن والله لا يؤمن قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه"^(١٠٢) إن عدل الله ورحمته جعلت من النهي عن كل محرّم وامثال المسلم بترك الحرمات وسيلة من وسائل الترقى في سلم القيم لأنها ترقى بالإنسان فوق

١٠٠- سبق تخريجه.
١٠١- سورة النساء الآيات (٩٥-٩٦)

الارتهان للمذاته وشهواته في الأطر المحرمة ولأن من يرهن نفسه لأهوائه يقتل أسباب الترقى القيمي في نفسه ويعيق القوة القائدة والدافعة لتفعيل القيم فالرسول ﷺ يقول فيما روى: "اجتنبوا السبع الموبقات قيل: يا رسول الله: وما هن؟ قال؛ الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات"^(١٠٣) ومن الأمور التي نبه لها رسول الله ﷺ وكلها معيقة لتفعيل القيم البانية للحياة، ما جاء في حديث عبد الله قال: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك قال قلت له: إن ذلك لعظيم قال: قلت ثم أي؟ قال: ثم أن تقتل ولدك مخافة إن يطعم معك قال: قلت ثم أي؟ قال: ثم أن تزاني حليلة جارك^(١٠٤) لأن الأمن الاجتماعي والنفسي للمجتمع مرتبط بالتزام المجتمع بمحاربة السلوكيات المنهي عنها، وتفعيل المرغوب فيها حتى تنعم الأمة بحياة سوية تجعلها تتفرغ لأهدافها العليا وغاياتها الكبرى.

نتائج البحث والتوصيات

يمكن أن تحصر نتائج هذا البحث في النقاط الآتية :

١- تفعيل القيم في المفهوم الإسلامي يعني الترجمة لسلوك عملي يقود إلى الكمال البشري على مستوى الأفراد والمجتمعات يمثل الثوابت العقدية التي مصدرها الوحي الإلهي والمتمثلة في منظومة متكاملة في الأخلاق والتشريع وعندما يترجم إلى هذه المنظومة في سلوك عملي واقعي تكون محققة للتفعيل الحضاري الذي عبّر عنه القرآن الكريم والسنة بالعمل الصالح لأن العمل الصالح ترجمة لقيم تعبدية حياتية مرتبطة بالعقيدة وليست سمة ذاتية أو خاصة

١٠٢ - سبق تخريجه. انظر ص: (٣٦).

١٠٣ - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: (٣٦): بيان الكبائر وأكبرها، ح: (١٧٥)، ص: (٦٥).

١٠٤ - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: (٣٥): (بيان كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده)، ح: (١٧٠)، ص: (٦٤).

نفسية لذلك نجد القرآن يربط دائماً بين الإيمان والعمل ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ والسنة النبوية مليئة بموجهات الربط بين القيم الحضارية والأعمال البشرية.

٢- المعرفة في الإسلام هي التي تجمع بين المعرفة الصادرة من الوحي والمعرفة القائمة على قراءة الكون وهذه المعرفة تستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية وفكر علماء المسلمين والمعرفة لا قيمة لها ما لم تترجم في سلوك يتجه نحو القيم والارتقاء فيها لأن المعرفة المغلوطة معرفة معيقة لا تتجه نحو السلوكيات المؤدية للقيم. فالمعرفة المبنية على المفاهيم المغلوطة لمقاصد الشريعة أو المعاني القرآنية أو الاجتهاد الذي لا يستند على الشروط الموضوعية للاجتهاد لا تؤدي لسلوكيات تدفع نحو التفعيل للقيم.

٣- أن القيم في الإسلام لا تعتمد في مرجعيتها الأفراد أو المجتمع أو العرف أو الإرث لأنها مستمدة من المصدرين الأساسيين للمسلمين كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

٤- تتميز القيم الإسلامية بالثبات والمرونة، لا تتغير لأن مصدرها الوحي الإلهي ولا تتطور ولكن البشر هم الذين يتطورون حولها ممارسة وتفعيلاً وهي ليست نسبية تتكيف بظروف الزمان والمكان لذلك ظل تأثيرها قويا في المسلمين تدخل في حركة المسلم وأنشطته تربية وسياسة واجتماعا واقتصادا.

٥- الأخذ بمنهج الرسول ﷺ في تفعيل القيم وترسيخها في النفوس بأسلوب التدرج في ذلك من مستوى التقبل للقيمة إلى تفعيلها والالتزام بها ديناً وخلقا وذلك عن طريق القدوة والوعظ والتلقين والحوار والترغيب والترهيب والقصص وضرب الأمثال وغير ذلك.

٦- إن مؤسسات التوجيه والإعلام لها تأثيرها القوي في عصرنا على منظومة القيم وعلى الأمة صغاراً وكباراً مما يعظم أثرها في تفعيل القيم ومناهضة الوسائل المعيقة لها مع الأخذ في الاعتبار أن الإسلام له معايير في الحكم الوسائل والأهداف.

٧- إن المجتمع المسلم مطالب بتوظيف التعليم في تفعيل المنظومة القيمية وحمايتها من تغولات العولمة الثقافية الهادفة إلى استغلال التعليم في صناعة اتجاهات جديدة عن طريق تغيير المحتوى المعرفي الذي يقود إلى تغيير السلوك والاتجاهات في القيم.

٨- الانسجام المعرفي مع السلوك هو الذي يحقق التوازن في النظر إلى المسائل من حيث الأولوية في سلم القيم فيقدم ما فيه منفعة الأمة وما يتعلق بحياتها على ما يتعلق بالأفراد فالسنة النبوية المتصلة بالجوانب الاجتماعية مثل التكافل والتآخي والمشكلات البيئية وحقوق العباد مقدمة على السنن المتعلقة بالشعائر التعبدية بحيث يتحقق التناغم والانسجام بين الشعائر التعبدية ومردوداتها السلوكية في مجال الأفراد والأسر والجماعات وبخاصة في القيم الحافظة للحياة كقيمة الانتماء والولاء والوفاء والإيثار.

٩- الممارسة العملية تمثل القوة الفاعلة والدافعة في الترقى في مجال القيم التي تكون مبنية على الإقتداء بالأنموذج المتجسد في شخص رسول الله ﷺ الذي تميزت بالاعتدال والوسطية بعيدا عن الشرك والمغالاة "أما والله إنني لأخشاكم لله وأتقاكم له غير أنني أصوم وأفطر وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني"^(١٠٥) لأن المغالاة في الأمور من السبل المعوقة لتفعيل القيم فضلا عن الترقى فيها.

١٠- تتمثل المنهجية السليمة الموجهة لسلوك المسلم نحو الترقى في سلم القيم إلى مقومات تضمن للجانب التطبيقي بالاستمرار مرتكزا على الطرق السليمة والوسائل الحكيمة والأعمال المتوازية المعتدلة محاطة بسياج من الدوافع النفسية والعاطفية المبنية على المعرفة الصحيحة والوسائل الحكيمة المؤديتين إلى التناسق والتمازج والقناعات الثابتة.

١٠٥- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب: (١): الترغيب في النكاح، ح: (٥٠٦٣)، ص: (٧٢٥).

ولذلك كله يمكن أن نشير إلى بعض التوصيات التي نراها ضرورية في تفعيل الأمل للقيم التي دعت لها السنة النبوية التي شملت القيم الإسلامية لأن هذه القيم هي مفتاح الولوج إلى المستقبل كما ذكرنا

١- التركيز في محتوى المواد الدراسية على الجانب المعرفي في العلوم الإسلامية من ناحية والجانب التطبيقي العملي من ناحية أخرى حتى يمكن تفعيل القيم الإسلامية وبخاصة في مراحل التعليم الأولى التي يحتاج فيها الطالب إلى تنمية قدراته المختلفة عاطفية وعقلية ومهارية وسلوكية.

٢- توظيف المواد التعليمية كلها شرعية وكونية واجتماعية في تفعيل القيم لدى الطلاب في أبعادها المختلفة في المنهج والمحتوى والطرائق والتقويم وكل الأنشطة التعليمية.

٣- تعميق ثقافة الانجاز في مواجهة ثقافة الاستهلاك وتفعيل قيم العمل والإنتاج وأخلاقيتهما وأهدافهما باعتبار ذلك ثقافة الأمة التي تحقق خصائصها الذاتية والإنسانية لأن العمل هو معيار الشرف المهني للإنسان.

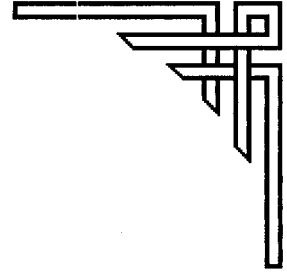
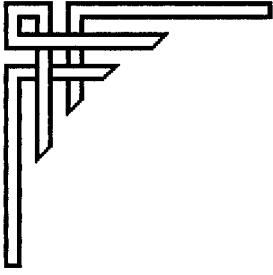
٤- التوظيف الأمثل للطاقات الذهنية والمعرفية عن طريق الانفتاح والتفاعل مع الثقافات الإنسانية وتفعيل قيم المبادرة وتجاوز العقبات وفق رؤى تجديدية تحقق الوفاق النفسي للمسلم في الحياة.

٥- تفعيل قوة الاقتدار المعرفي في الأمة للارتقاء بها من مرحلة الاستفادة من التقنية وآثارها إلى مرحلة إنتاجها وتطويرها الأمر الذي يستوجب التركيز في مناهجنا الدراسية على تنمية المهارات العقلية والتفعيل الحقيقي لقيم المعرفة لتحقيق التميز وفق منظومة القيم الإسلامية.

المراجع:

- ١- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
- ٢- الجامع المختصر من السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل المعروف بـ (جامع الترمذي) أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، (٢٠٩ - ٢٩٠هـ) اعتنى به فريق. بيت الأفكار الدولية، دط. ٢٠٠٤م.
- ٣- رياض الصالحين للإمام أبي زكريا يحيى أبي شرف النووي تحقيق وتخرير عبد العزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق مراجعة الشيخ شعيب الأرنؤوط مكتبة الفجر للتوزيع دمشق الطبعة الثالثة عشر ١٤١٢هـ ١٩٩١م.
- ٤- سنن أبي داوود، الإمام الحافظ أبي داوود، سليمان بن الأشعث السجستاني، ت: (٢٧٥)، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي. منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ٥- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، الطبعة الثانية: ١٣٧٥م ١٩٩٥م.
- ٦- صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد إسماعيل البخاري مراجعة وتحقيق مصطفى البغدادار ابن كثير دمشق الطبعة الخامسة ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.
- ٧- صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد إسماعيل البخاري. أ- دار العلوم طبعة ثانية ١٤١٣هـ ١٩٩٣م. ب- مكتبة الرشد، الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م. اعتنى به: أبو عبد الله عبد السلام بن محمد بن عمر علوش.
- ٨- صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: أ- دار الحديث، القاهرة. إعداد محمد فؤاد عبد الباقي. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م. ب- دار الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

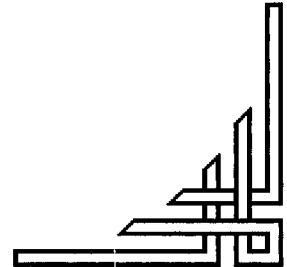
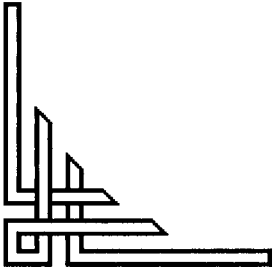
- ٩- فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي داز الفكر والنشر.
- ١٠- الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ترتيب وتأليف
أحمد عبد الرحمن البنا دار الشهاب القاهرة.
- ١١- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي،
المتوفى سنة: ٨٠٧هـ، بتحريه الحافظين الجليلين: العراقي وابن حجر. منشورات
مؤسسة المعارف، بيروت. دط. ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- ١٢- مسند الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، شرحه ووضع فهارسه أحمد محمد
شاكر وحمزة أحمد الزين، دار الحديث، القاهرة: ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
- ١٣- نظرات في لغة المصطلح وفي مضمونه، الدكتور ناصر الدين الأسد، ندوة
أزمة القيم ودور الأسرة في تطوير المجتمع المعاصر. الرباط / إبريل / ٢٠٠١م.



القيم الحضارية
سبل ومعوقات تفعيلها
ضوء السنّة النبويّة

مقدم من

د. سعاد صبيح براك الصبيح
دكتوراه في الحديث وعلومه
جامعة الكويت



المقدمة

بسم الله الذي جعل لنا ديناً قويمًا، والحمد لله الذي هدانا صراطاً مستقيماً،
والصلاة والسلام على من أرسل إلينا هادياً أميناً.

أما بعد فإنني أود أن أبدأ بالشكر والتقدير للقائمين على هذا المؤتمر لاختيارهم
لموضوع القيم كمادة لهذا المؤتمر، ولا أشك في أن ذلك نابع من إحساسهم
كتربيين ومعلمين بأهمية مشاركتهم الفعالة في تفعيل تلك القيم السامية التي
توارثناها من الأجداد، ونقحناها بما الله علينا به جاد، في كتابه وسنة نبيه خير
العباد، ولم أتردد لحظة في المشاركة فيه رغم تواضع قدراتي أمام جهابذة
المشاركين.

وقد اخترت موضوع (سبل ومعوقات تفعيل القيم) باعتباره أهم الأمور التي
تشغلني في مسيرتي التربوية، والتي لا أشك في أنها الشغل الشاغل لكل مرب
فاضل.

وقد جعلت بحثي هذا في تمهيد وثلاثة فصول، وفي كل فصل ثلاثة مباحث،
ثم خاتمة وتوصيات.

وفي مبحثي السبل والمعوقات أبدأ بذكر تلك السبل أو المعوقات ثم بعض
الشواهد التي وردت في السنة النبوية، على الأقسام الثمانية المذكورة في المخطط
وفي تخريج الأحاديث اكتفيت بذكر من أخرجه في الصحيحين البخاري
ومسلم، إن كان في أحدهما أو كليهما، فإن كان في غيرهما ذكرت ثلاثة مصادر،
أخرجته ما أمكنني ذلك، ودرست إسناده، وذكرت حكم علماء الحديث عليه إن
وجد، وأبدأ بالمصدر الذي أخرجه بلفظه، وإن كان متأخراً، ثم اذكر بعض المصادر
التي أخرجته.

هذا، وأرجو من المولى القدير أن يتقبله خالصاً لوجهه، وأن يجعل له دوراً في
المساهمة في إصلاح هذه الأمة وتطويرها لتواكب التقدم الحضاري العالمي.

الفصل الأول

القيم الحضارية في ضوء السنة النبوية دراسة مقارنة

المبحث الأول

التباين في مفهوم القيم وأثرها

مفهوم القيمة:

أ - لغة: جاء في لسان العرب: القيم مصدر كالصغر والكبر، بمعنى الاستقامة^(١).

ب - اصطلاحاً: ذكر للقيمة معان متعددة سأذكر بعضها:

قال الراغب الأصفهاني في قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيمًا﴾^(٢)، أي: ثابتاً مقوماً لأمر معاشهم ومعادهم^(٣).

وقال الإمام الرازي في قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾^(٤)، أي: أحكام قيّمة، أما القيمة ففيها قولان: الأول: قال الزجاج مستقيمة لا عوج فيها تبين الحق من الباطل، والثاني: أن تكون القيمة بمعنى القائمة، أي: المستقلة بالحجة والدلالة^(٥).

ومن أقوال الأساتذة المعاصرين: ما قاله الأستاذ فؤاد البهي: «هي معايير اجتماعية ذات صبغة انفعالية قوية، وعمامة، تتصل من قريب بالمستويات الخلقية التي تقدمها الجماعة، ويمتصها الفرد من بيئته الاجتماعية الخارجية، ويقوم منها موازين يبرر بها أفعاله، ويتخذها هادياً ومرشداً، وتنتشر هذه القيم في حياة الأفراد، فتحدد لكل منهم خلانه وأصحابه وأعداءه»^(٦).

وذكر د. أبو العينين: «أن القيمة تدل على مفهوم يدل على مجموعة من المعايير والأحكام، تتكون لدى الفرد من خلال تفاعله مع المواقف والخبرات

(١) لسان العرب (١٢/٥٠٣).

(٢) الأنعام: ١٦١.

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص ٤١٧).

(٤) البينة: ٥.

(٥) التفسير الكبير (٣٠/٤٢).

(٦) علم النفس الاجتماعي (ص ٢٩٤).

الفردية والاجتماعية، بحيث تمكنه من اختيار أهداف وتوجهات حياته، يراها جديره بتوظيف إمكانياته، وتتجسد خلال الاهتمامات أو الاتجاهات أو السلوك العملي أو اللفظي بطريقة مباشرة وغير مباشرة»^(٧).

ويؤخذ على هذين التعريفين أنهما جعلتا الفرد أو المجتمع مصدرًا للقيم، واعتبرا الإنسان نفسه حكماً على الأفعال حسب منفعتها العاجلة، بغض النظر عما تتضمنه من خير أو شر.

ويمكن تعريف القيم الإسلامية بأنها مجموعة أوامر إلهية تمثل أصولاً لضوابط سلوك الفرد في علاقاته المختلفة، وتمكن المجتمع الذي يلتزم أفرادها بها من التقدم والتطور بسلام وأمان في الدنيا، مع الفوز بالآخرة.

أثر القيم:

للقيم وجوداً وعدمًا أثر كبير في سلوك الفرد الذي يشكل مع غيره من الأفراد جماعة لها أهداف وغايات تطمح للوصول إليها. ولا يمكن أن يتصور وجود مجتمع حضاري لا يتمسك معظم أفرادها بقيم سامية تضبط سلوكهم وانفعالاتهم.

وسأذكر على سبيل الإيجاز بعض آثار القيم على الفرد والمجتمع:

أولاً: أثر القيم على الفرد:

- ١- توجه السلوك الصادر عنه ليتوافق مع المنهج الذي ارتضاه المجتمع فينطلق لتحقيق أهدافه وفق ضوابط ذلك المنهج.
- ٢- تقوي شخصية الفرد وثقته بنفسه، وبالتالي رضاه عنها، مما يجعله أكثر انطلاقة في أداء دوره في المجتمع.
- ٣- تقوّم ما يطرأ على الفرد من انحراف، وتحفز ما تتعرض له همته من ضعف،

(٧) القيم الإسلامية والتربية (ص ٣٤).

- فتكون بمثابة منبه له حين تنتابه نزاعات هوى النفس ومطامعها، فلا يحدد عن الصراط الذي ارتضاه لنفسه، والمنهج الذي اختار التزامه.
- ٤- تعين الفرد على تحديد أهدافه الخاصة وفق معايير صحيحة.
- ٥- تمنحه القدرة على التكيف الإيجابي مع الجماعة وفق تلك القيم، وتمكنه من العطاء والإنتاج ليكون عضواً فعالاً في المجتمع.
- ٦- تكشف للفرد نقاط ضعفه ومواطن قوته، وتدفعه لتطويرها في إطار التنافس الشريف مع أقرانه.

ثانياً: أثر القيم على المجتمع:

- ١- تجعل المجتمع الذي يلتزم منهجاً ذا مبادئ ثابتة أكثر تماسكاً وثباتاً، فلا يسهل على أحد تفكيكه اجتماعياً.
- ٢- تمكنه من مواجهة التحديات والمتغيرات التي تطرأ على المجتمع من خلال اتصاله بالعالم الخارجي.
- ٣- تشكل تناغماً وتكاملاً بين طاقات أفرادها، فيجعله أكثر إنتاجاً وتطوراً.
- ٤- تقلص مظاهر السلوك غير السوي في المجتمع من إسراف وإهمال واعتداء على ممتلكات الآخرين وأنانية وطمع ولا مبالاة.
- ٥- ترفع مستوى التعامل الحضاري بين أفرادها من جهة، وبين أفرادها والمجتمعات الأخرى من جهة أخرى.
- وبهذا لا نكاد نجد حضارة سادت وانتشرت ولا مجتمعات تطورت وتميز إلا وكان وراءه منهج يتضمن قيماً واضحة وسامية، التزمها أفرادها، فحققوا ما يرمون إليه، وذلك من خلال اعتقادهم بتكامل الوظائف، وحرصهم على التعاون المثمر في إطار أخلاقيات عمل منضبطة، إما بقيم ربانية، وإما بقوانين بشرية صارمة، ولا تخلو الأخيرة من القصور والخلل.

المبحث الثاني المصادر والخصائص

تختلف المجتمعات في تحديد المصادر التي تستقي منها قيمها، وبالتالي في خصائص تلك القيم، لذا سأتناولها من خلال مقارنة مصادر تلك المجتمعات وخصائصها مع مصادر المجتمع الإسلامي الرباني وخصائصه.

أولاً: مصادر القيم:

أ- مصادر قيم المجتمعات الأخرى:

بالنظر فيما ذكره علماء المجتمعات المختلفة ومفكروها يمكن تلخيص مصادر قيمهم فيما يلي:

١- اتجاهات الأفراد واهتماماتهم حيال أشياء أو مواقف أو أشخاص ويرى (ثورنديك): «أن القيم الإيجابية منها والسلبية، تكمن في اللذة أو الألم الذي يشعر به الإنسان، فإذا كان حدوث أمر ما لا يؤثر مطلقاً على لذة أو ألم أي فرد أياً كان حالاً أو مستقبلاً فإنه يكون عديم القيمة على الإطلاق، وعلى هذا فلا يكون خيراً أو شراً... والأحكام على القيم ترجع في النهاية إلى اللذة والألم، كما تتوقف على تفضيلاته للأشياء»^(٨).

٢- حاجات الفرد البيولوجية وغيرها: وذلك يظهر في نظرية (ماسلو) في الدافعية، وهي تقوم على أساس افتراض بناء هرمي من الحاجات، تسود فيه على الفرد ضرورة الإشباع ذأي الحاجات البيولوجية - وهي أدنى الحاجات مستوى، وما إن تُشبع هذه الحاجات حتى تظهر قوة دفع حاجات أخرى، وهكذا، وجعل المستوى الأخير هو الرغبة في المعرفة والفهم^(٩).

٣- الظروف الاجتماعية وما يكتسبه الفرد منها من أحكام: فهي تمثل مصادر القيم

(٨) القيم والعادات الاجتماعية (ص ١٦).

(٩) القيم الخاصة لدى المبدعين (ص ٣٧).

الضابطة لسلوكه^(١٠).

٤- ويعتبر آخرون أن مصادر القيم العقل والاجتهادات بتحديد ما هو حسن عقلاً، وقبيح عقلاً، وهذا ما جعل القيم تختلف باختلاف المجتمعات، فنجد قيمة الكسب تقدم في مجتمع انحلاي على قيمة العفة والحياء، بل قد لا يكون لهما أي ترتيب في قيمهم، في حين أنهما يحتلان الصدارة في ترتيب القيم في المجتمع المحافظ - أياً كان معتقده.

ب - مصادر القيم الإسلامية^(١١):

تتلخص مصادر القيم الإسلامية فيما يلي:

١- القرآن الكريم وهو «المكتوب بين دفتي المصحف المنقول إلينا نقلاً متواتراً بالقراءة المشهورة»^(١٢) ويضم قيماً اعتقادية، وقيماً خلقية، وقيماً عملية:

- فالقيم الاعتقادية: تتعلق بما يجب على المكلف اعتقاده من أركان الإيمان.

- والقيم الخلقية: تتعلق بما يجب التحلي به من فضائل، وما على المكلف أن يتخلى عنه من رذائل.

- والقيم العملية: تتعلق بما يصدر عن المكلف من أعمال وأقوال وتصرفات، وتشمل العبادات التي تعبر عن علاقة المسلم بربه، والمعاملات والتي تنظم علاقات المكلفين ببعضهم داخل المجتمع الإسلامي وخارجه.

٢- السنة: «وهي ما صدر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير»^(١٣) ويشترط أن يكون قد نقل بسند صحيح يفيد القطع أو الظن الراجح بصدقه؛ وكان مقصوداً به التشريع والاقتداء، وتعدّ حجة على المسلمين ويجب اتباعه فيها.

٣- الإجماع: «وهو اتفاق مجتهدي أمة الإجابة لدعوة النبي ﷺ في عصر من

(١٠) دراسات في علم النفس لعزير حنا (ص ٦٥).

(١١) القيم الإسلامية والتربية، (ص ٦٣ ٦٧) باختصار وتصرف.

(١٢) تقريب الوصول إلى علم الأصول ص ٢٦٨.

(١٣) تقريب الوصول إلى علم الأصول ص ٢٧٥.

العصور على أمر من الأمور بعد وفاته ﷺ^(١٤) إجماع العلماء المجتهدين مصدرأ هاماً للأحكام التكليفية، وهو لا يقل أهمية في اعتباره ملزماً فيما يتفقون عليه من قيم.

٤- المصلحة المرسله: «وهي التي لم يشرع الشارع حكماً لتحقيقها، ولم يدل دليل شرعي على اعتبارها أو إلغائها»^(١٥).

٥- العرف: وهو ما ألفه المجتمع، وسار عليه الناس، ويقصد العرف الصحيح الموافق للنصوص الشرعية، والمصلحة العامة.

ثانياً: خصائص القيم:

أ - خصائص قيم المجتمعات الأخرى:

تتجلى خصائص قيم تلك المجتمعات فيما يلي:

١- أنها تستمد من متغيرات في الغالب، كالأفكار والآراء الشخصية لجيل من المفكرين.

٢- أنها تقتصر على تحقيق بعض جوانب الحياة حسب أولويات ذلك المجتمع، فإن كان مثلاً يطمح للتميز الصناعي نجد قيمه تتركز في جوانب إتقان العمل وسرعة الانتاج وزيادة ساعات العمل وفنون التسويق وما إلى ذلك، وتهمل جوانب العلاقة مع الله والمصلحة العامة والعلاقات الأسرية، وغيرها من العلاقات، فتجيز تصريف البضاعة الرديئة على من لا يعرف عيوبها.

٣- أنها تتغير بتغير مصالحهم مع الآخرين، فما هو خيانة للعهد اليوم هو ذكاء وحكمة غداً حسب المصلحة المترتبة عليها.

٤- أنها قاصرة على فئة دون أخرى، فما هو رذيلة في حق مجتمع هو فضيلة في حق غيره، فهذا نحن نرى السلام كقيمة عالمية توجب الدول الكبرى الالتزام به

(١٤) حاشية تقريب الوصول ص ٣٢٧ نقلاً عن القاموس المحيط ٣ / ١٥، المصباح المنير ١ / ١٧١.

(١٥) الوجيز في أصول الفقه ص ٢٣٧.

على دول العالم الإسلامي، في حين أنها تتجاوز عن اعتداءات إسرائيل على الأبرياء، وقس على ذلك التسلح النووي، وحرية الرأي، والحرية الدينية، والفرقة العنصرية، وغير ذلك من القيم التي تكاد تتخلى عنها كثير من الأنظمة العالمية حسب مصالحها.

٥- أنها مادية بحتة.

٦- يضبطها القانون ومراقبة الآخرين فقط.

ب - خصائص القيم الإسلامية:

تتبدى خصائص القيم الإسلامية فيما يلي:

- ١- أنها تستمد من أصول ثابتة، فهي نابعة من مصادر التشريع الإلهي.
- ٢- أنها تحقق نفعي الدنيا والآخرة؛ لكونها تتعلق بالأحكام الشرعية، سواء أكانت أوامر أم نواهي، وبالتالي يرتجي المتمسك بها خير الدارين، فإن لم يلق جزاءً وتقديراً لالتزامه بتلك القيم ممن حوله في مجتمعه نجد معتزلاً بها راجياً من المولى عز وجل الثواب على ذلك.
- ٣- أنها شاملة لجميع نواحي الحياة، وجميع أنواع العلاقات، ابتداءً من علاقة المرء بربه ومروراً بالمخلوقات من بشر وحيوانات ونبات وجماد.
- ٤- أنها مستمرة صالحة لكل زمان ومكان، وذلك لموضوعيتها ومناسبتها لجميع البشرية، فقد وضعها الخالق العالم بما يصلح لخلقه من ضوابط ونظم تحفظ لهم منظومة الحياة.
- ٥- أن أصولها ثابتة لا تقبل التغيير أو التبديل، مع المرونة في صور تطبيقها وأساليب ترسيخها لتمكن المربين وولاة الأمر من استنباط قيم تناسب مستجدات الحياة.
- ٦- أنها متوازنة بين الروحانية والمادية بما يتناسب مع الفطرة البشرية في نسق مثالي واقعي.
- ٧- أنها توجه الفرد للمراقبة الذاتية التي تعد من أرقى أنواع الرقابة وأدقها.

المبحث الثالث

أسس تصنيف القيم

من خلال الاطلاع على بعض ما كُتب في القيم نجد تبايناً كبيراً فيما بينها انطلاقاً من الأساس المعتمد في ذلك.

ولكثرة تلك التصنيفات سأقتصر على ذكر بعضها:

- ١- تصنيف على أساس أخلاقي: وينقسم إلى^(١٦):
 - قيم مادية: وهي المتصلة بالمال وسائر اللذات الحسية.
 - قيم روحية: وهي المتصلة بالشرف والمحبة والطاعة، والتقوى والعدل وغيره.
- ٢- وتصنيف باعتبار المقصد وينقسم إلى^(١٧):
 - قيم وسائلية: تشمل ما هو وسيلة لتحقيق غاية.
 - قيم غائية: تشمل الأهداف المرجو تحقيقها.
- ٣- وتصنيف باعتبار بُعد العمومية^(١٨)، وتنقسم إلى:
 - قيم عامة: وهي التي تشمل جميع فئات المجتمع.
 - قيم خاصة: وهي التي تتصل بمواسم معينة، أو يحكمها زمان ومكان.
- ٤- وتصنيف باعتبار وظيفتها، وتنقسم إلى^(١٩):
 - قيم مادية: وهي التي تساعد على الوجود المادي للإنسان.
 - قيم اجتماعية: وهي التي تشبع حاجاته الاجتماعية.
 - قيم أخلاقية: وهي مصدر الشعور بالمسؤولية والالتزام.
 - قيم جمالية: وتعكس الاهتمامات الجمالية.

(١٦) القيم والعادات الاجتماعية، للأستاذة فوزية دياب (ص٧٦).

(١٧) القيم الإسلامية والتربية (ص٣٩).

(١٨) المرجع السابق (ص٤٠).

(١٩) المرجع السابق (ص٤٣).

- قيم روحية دينية: وتشير إلى تعلق الإنسان باللانهايي، أي: الآخرة.

٥- تصنيف خاص للقيم:

من منظور إسلامي أرى أن جميع القيم تندرج تحت قيمة الأمانة، فقد قال تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾^(٢٠)

وذكر المفسرون^(٢١) «أن المراد بالأمانة في الآية كل ما يؤتمن عليه المرء من أمر ونهي في شؤون الدين والدنيا، والمراد بها هنا التكاليف الدينية. وأنها سميت أمانة باعتبارها حقوقاً أوجبها الله على المكلفين وأتمنهم عليها، وأوجب عليهم تلقيها بالطاعة والانقياد، وأمرهم بالمحافظة عليها وأدائها دون الإخلال بشيء منها.

وأما رفض السموات والأرض - مع عظم خلقهن - تحمل الأمانة فلعدم استعدادهن لذلك، وأما الإنسان فعنده ذلك الاستعداد من حيث الخلق، إلا أنه قد تغلب عليه الانفعالات النفسية، كالغضب المؤدي إلى ظلم غيره، كما تنتابه شهوات فطرية، فيميل إليها دون تفكير في عواقبها.

فصارت تلك التكاليف والأوامر بمثابة ضابط لتلك الانفعالات والشهوات. لذا أتبع الله هذه الآية بعقاب التاركين لأوامره باطناً أو ظاهراً، وثواب المؤمنين العاملين بها مع فرصة العفو والمغفرة عما يصدر منهم من تقصير إذا تبعته توبة صادقة.

وبالنظر إلى ما حوته سورة الأحزاب من أمر بطاعة الله، ووجوب اتباع ما

(٢٠) الأحزاب: ٧٢.

(٢١) انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٥٠)، تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٧/٢٤٤)، تفسير غرائب القرآن للنيسابوري (١٠/٣٤، ٣٥)، تفسير المراغي (٨/٣٨ - ٤٤) (باختصار وتصرف).

ينزل به الوحي، وحقوق الزوجين، والنهي عن مخالفة النبي وإيذائه، والأمر بالحجاب، والتذكير بالساعة، وتهديد ضعاف النفوس، والمنافقين بالعذاب، كل ذلك يشير إلى أن الأمانة المعروضة تشمل جميع أمور الحياة الدينية والدنيوية. وبالنظر إلى الأحاديث فقد وردت عدة أحاديث تدل على أهمية الأمانة كقيمة خلقية حضارية لتحفظ المجتمع من الانهيار وتقوي علاقة أفرادهم ببعض، سواء بمعناها الشمولي أم الخاص المندرج تحت حسن الخلق. ومن الأحاديث التي أكدت أهميتها وأشارت إلى ضياعها في آخر الزمان ما جاء في رده على الأعرابي بقوله: أين أراه السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله، قال: فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»^(٢٢).

وما جاء عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين، رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر: بحدثنا أن الأمانة نزلت في جذر^(٢٣) قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة، وحدثنا عن رفعها، قال: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت^(٢٤)، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى فيها أثرها مثل أثر المجل^(٢٥)، كجمر دحرجته على رجلك فنقطة^(٢٦)، فتراه مُتَّبراً^(٢٧) وليس فيه شيء، ويصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل ما أعقله، وما أظرفه! وما أجلدَه! وما في قلبه مثقال حبة خردلٍ من إيمانٍ^(٢٨).

(٢٢) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب فضل العلم، ٣٣/١، ح ٥٩.

(٢٣) جذر: بالفتح والكسر وتعني أصل كل شيء (النهاية ١٤٣).

(٢٤) الوكت: هو الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه (النهاية ص ٩٨٦).

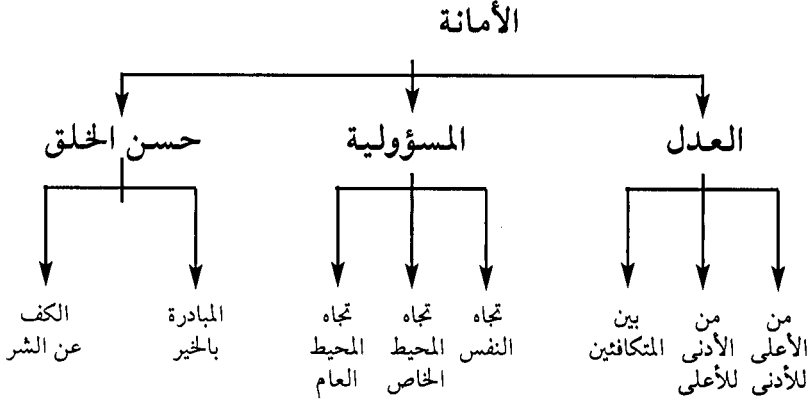
(٢٥) المجل: يقال مجلت يده إذا ثخن جلدها وظهر فيها ما يشبه البثر، من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة (النهاية ص ٨٥٨).

(٢٦) نفض: إذا كان بين الجلد واللحم ماء (لسان العرب ٤١٧/٧).

(٢٧) متبراً: مرتفعاً في جسمه (النهاية ص ٨٩٧، لسان العرب ١٨٩/٥).

(٢٨) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب إذا بقي في حثالة من الناس، ٢٥٩٦/٦، ح ٦٦٧٥. ومسلم، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب، ١/١٢٦، ح ١٤٣.

وبالنظر إلى باقي القيم الحضارية نجدها بصورة أو بأخرى - من وجهة نظري -
تندرج تحت قيمة الأمانة في ثلاث قيم رئيسة تتفرع منها بقية القيم.
وتلك القيم الرئيسية الثلاث هي قيمة العدل، وتحمل المسؤولية، وحسن الخلق
وسأذكر ما يندرج تحتها من قيم وأخلاق، ثم أذكر شواهد من السنة النبوية لكل
من أقسامها الثمانية الموضحة بالمخطط التالي:



أولاً: قيمة العدل:

طلب الشارع منا التمسك بقيمة العدل وحسن أدائها في حالات ثلاث:

الأولى: العدل من الأعلى للأدنى: والذي يجب أن يلتزم به من عليه الحق - وإن كان هو الأقوى أو الأعلى - تجاه من له الحق - والذي قد يكون هو الأضعف أو الأدنى - وتتعدد صورته، كحق الخادم على سيده، والموظف على مديره، والأبناء على الآباء، والزوجة على زوجها، والطلبة على المعلم، وما كان على شاكلته.

الثانية: العدل من الأدنى للأعلى: وذلك بإتقان المرء وإتمام ما عليه من واجبات - حسب الطاقة - تجاه من له الحق، ويشمل ذلك واجب الإتقان في العمل من قبل الخادم لسيده، والعامل لصاحب العمل، والبر والإحسان من الأبناء لوالديهم،

وحسن التبعل من الزوجة لزوجها، وحسن التلقي والاجتهاد من الطلبة مع المعلم، وغيره كثير.

الثالثة: العدل بين المتكافئين: وذلك بمراعاة حقوق الآخرين، ومصالحهم، كعدل التاجر مع المشتري بعدم غشه أو التطفيف عليه، وعدل المشتري بعدم بخس السلعة ثمنها، وعدل المشاركين في مصلحة، وعدل المتفاعلين من الطريق في سيرهم أو جلوسهم بعدم إيذاء غيرهم، وعدل الأقران بعدم وصف بعضهم بسوء غيرة وحسداً، أو التشهير بعيوبهم وأسرارهم من غير ضرورة، وغير ذلك.

ثانياً: قيمة المسؤولية:

وتتضمن مراعاة ثلاث جهات:

الأولى: المسؤولية تجاه النفس: وذلك فيما يتعلق بعلاقة المرء مع ربه، ومراعاة ما يصلح له دينه بإصلاح نفسه، وتوجيهها إلى الخير وحفظها من الانحراف، بالابتعاد عن مزالقه، وما يتعلق بما يصلح له دنياه من استغلال طاقاتها وتطويرها، والاهتمام بالعلم، والعمل، والإنتاج ولتحقيق ذاته وزيادة ثقته بنفسه ويدفع عنه الحقد والحسد تجاه الآخرين، وهما يحولان دون التطوير والإنتاج.

الثانية: المسؤولية تجاه المحيط الخاص: كتحمل المرء مسؤوليته تجاه أسرته من والدين وزوجة وأبناء، ومسؤوليته تجاه عمل ما بتأديته بكل أمانة.

الثالثة المسؤولية تجاه المحيط العام: أي تجاه المجتمع، سواء بإعمار الأرض، أو المحافظة على البيئة، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو التميز بمهنة يفتقر إليها المجتمع المسلم، وغيره مما يندرج تحت هذا القسم.

ثالثاً: قيمة حسن الخلق:

ويندرج تحت هذه القيمة جميع الأخلاق الحميدة التي يطول ذكرها، وهي تشمل العدل، وتحمل المسؤولية، وبالتالي الأمانة بمفهومها العام، إلا أنني أردت بها هنا ما يندرج تحت أمرين: المبادرة بالخير، والكف عن الشر.

الأول: ما يندرج تحت المبادرة بالخير:

ويشمل جميع الأخلاق التي تكون سبباً في انتشار الحب والوحدة بين أفراد المجتمع من مسلمين وغيرهم، مما يساعد على تقدم المجتمع وتطوره في بيئة صحية تعمها الألفة والمودة. ومن تلك القيم: الصدق في القول والعمل، وحسن الظن، والحياء، وإفشاء السلام، والتواضع، كما تشمل التبسم، والثناء، واللين في القول، والكرم، وتنفيس الكرب، والإيثار، والحلم، والزهد، وغيرها.

الثاني: ما يندرج تحت الكف عن الشر:

وتشمل جميع الأخلاق والقيم العالية التي تمنع روح التباغض والحسد وروح الانتقام من أن تنتشر بين أفراد المجتمع، مما يؤدي إلى تراجعها وانشغاله بتحقيق بعضه بعضاً والاعتداء على الأعراض والأموال.

ومن تلك القيم حفظ الأمانات، وتشمل جميع أنواع الأمانات، كأمانة السر بين اثنين، أو ستر العيب، أو أمانة العين، أو الرهن أو الأمانة العلمية بكل أشكالها. وكذلك قيمة احترام الوقت بالالتزام بالمواعيد، والوفاء بالوعد، وعدم تضييع وقت الآخرين بكثرة السؤال والكلام غير المثمر. ومنها مراعاة شعور الآخرين بالبعد عن السخرية والاستهزاء واللمز والتنابز وغيرها مما يثير الأضغان.

(٣٤) السيرة النبوية لابن هشام، المرجع السابق، ج ١، ص ٦٢٩.
(٣٥) أحكام القرآن، ابن العربي، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٧ - ١٩٨٧، ج ١، ص ١٠٤.

الفصل الثاني

سبل تفعيل القيم في ضوء السنة النبوية

لتفعيل القيم في أي مجتمع لابد من الاهتمام بثلاثة محاور لنضمن استمراريته على مرور الزمان، وتغير الأحوال، وأولها ترسيخها في وجدان الأفراد، ثم تطبيقها في ميدان الحياة، ثم وضع أسس لضمان استمراريته عبر الأزمان، وسأتناول كلًا منها بشيء من التفصيل في المباحث الثلاثة التالية:

المبحث الأول

سبل تكوينها في الوجدان

إن القيم الإسلامية تعدّ مكملًا لما كان عند العرب من أخلاق وثوابت، وقد أقر ذلك رسولنا الكريم بقوله: *يأنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق*^(٢٩). وقد حرص العرب قديماً على ترسيخها في نفوس أبنائهم لتمثل جزءاً من شخصيتهم وثوابتهم. وبنظرة سريعة في رياض السنة المطهرة نلمح حرص الرسول المربي ﷺ على تعميق القيم في نفوس أمته قبل أن تظهر على سلوكهم، وذلك بالترغيب تارة والترهيب أخرى، لعلمه أنه متى رسخت هذه القيم في الوجدان فإنها لا بد ستظهر كسلوك عفوي دائم في ميدان التعامل مع الآخرين؛ متبعاً لذلك سبلاً عدة، سأذكر بعضاً منها، ثم أذكر شواهد لاستخدام الرسول لبعض السبل في كل قسم من الأقسام الثمانية للقيم السابق ذكرها^(٣٠):

(٢٩) أخرجه أحمد في مسند أبي هريرة، ٢ / ٣٨١، ح ٨٩٣٩، ورجاله ثقات غير محمد بن عجلان (صدوق إلا أنه اختلطت عليه أحاديث أبي هريرة وقد روى له مسلم متابعة، (التقريب ٣ / ٢٩٠، ت ٦١٣٦)، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٨ / ٣٤٣). كما أخرجه الحاكم في المستدرک، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ٢ / ٦٧٠، ح ٤٢٢١، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي، باب بيان مكارم الأخلاق، ١٠ / ١٩٢، ح ٢٠٥٧.

(٣٠) انظر المخطوط ص ١٥.

أولاً: سبل تكوين القيم في الوجدان في السنة النبوية:

١- اتباع أسلوب الترويب والترهيب في ثواب الآخرة وذلك لأن النفوس البشرية متفاوتة في سرعة الاستجابة للحق، بل إن النفس الواحدة قد يسهل عليها الاستجابة والالتزام بقيمة ما تناسب طبيعتها، ويصعب عليها أخرى.

٢- إبراز ثواب التمسك بتلك القيم في الدنيا: حيث إن الإنسان عجول بطبيعته كما قال عنه تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (الإسراء: ١١) فمراعاة لهذه الطبيعة راعى رسول الله ذلك ببيان ثواب التمسك بتلك القيم في الدنيا كبسط الرزق، وإطالة العمر لو اصل الرحم، وإجابة الدعوة للإمام العادل والمظلوم، وغير ذلك كما سيأتي.

٣- ربط قيمة وجود المرء بمقدار تمسكه بالقيم: كبيانه لأثر معلم الناس الخير، وكما يقال: لكل إنسان وجود وأثر، فوجوده لا يدل على أثره، ولكن أثره يدل على قيمة وجوده.

٤- ربط القيم بأمر من أمور البيئـة: لتحـيي رؤيته له تلك القيم في النفس، كتشبيهه ﷺ لقارئ القرآن بأنواع من الثمار ليـجعل نفوسهم تتوق للعمل بأوامر القرآن التي شملت جميع القيم، وتنفر من مخالفة ما جاء فيه، وكلما رأوا ذلك تذكروا قيمة الالتزام بالتكاليف.

٥- تعظيم أمر مخالفها: كما كان يفعل رسول الله ﷺ حيث يصف فعل ضدها بأكبر الكبائر، وأعظم الذنوب، ويصف فاعلها بالفلس، وغير ذلك.

٦- التوجيه المباشر بالأمر والنهي، وجعلته الأخير لأنه الأكثر استخداماً من المرين اليوم.

ثانياً: الشواهد الواردة من السنة النبوية) (٣١):

١- ما جاء في الحث على العدل من الأعلى تجاه الأدنى:

- عن طريق بيان ثواب العدل وعقاب الظلم يوم القيامة، جاء عن عبدالله بن

(٣١) ولم أذكرها مع السبل لأن بعض الأحاديث تتضمن أكثر من سبيل.

عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن مز عز وجل مز وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» (٣٢).

- وعن طريق بيانه لثواب العدل وعقاب الظلم في الدنيا في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم، الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام» (٣٣)، ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين» (٣٤).

- كذلك باستخدام أسلوب التشبيه بأمر من أمور البيئة لبيان حق المتعلم على العالم: فعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب» (٣٥) أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» (٣٦).

- وبالترهيب حذر من يكتم العلم فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من

(٣١) ولم أذكرها مع السبل لأن بعض الأحاديث تتضمن أكثر من سبيل.

(٣٢) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، ٣/١٤٥٨، ح ١٨٢٧.

(٣٣) الغمام: السحاب (النهاية ص ٦٨٠).

(٣٤) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب في العفو والعافية، ٥/٥٧٨، ح ٣٥٩٨ وقال: حديث حسن، وابن ماجه، كتاب الصيام، باب في الصائم لا ترد دعوته، ١/٥٥٧، ح ١٧٥٢، وابن خزيمة كتاب الجمعة، باب ذكر استجابة الله دعاء الصوام، ٣/١٩٩، ح ١٩٠١، جميعهم من طريق أبو مجاهد سعد الطائي وقال عنه ابن حجر: لا بأس به (التقريب ٢/٢٢٦٢) وذكر المنذري تحسين الترمذي له (الترغيب والترهيب ٢/٨٩).

(٣٥) أجادب: هي صلاب الأرض التي تمسك الماء فلا تشربه سريعاً، وقيل: هي الأرض التي لا نبات بها (النهاية ص ١٤٠).

(٣٦) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، ١/٤٢ ح ٧٩. ومسلم، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى، ٤/١٧٨٧، ح ٢٢٨٢.

سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَجْمَهُ ^(٣٧) اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِلِجَامٍ مِنْ نَارِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ^(٣٨).

٢- ما جاء في العدل من الأدنى إلى الأعلى:

- وذلك بترغيبه للخادم بأن يحسن أداء حق سيده، فعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين، الرجلُ تكون له الأمة، فيعلمها، فيحسن تعليمها، ويؤدبها، فيحسن تأديبها، فله أجران، ومؤمنُ أهل الكتاب الذي كان مؤمناً ثم آمن بالنبي فله أجران، والعبد الذي يؤدِّي حق الله وينصح لسيده» ^(٣٩).

٣- ما جاء في العدل بين المتكافئين:

- كتعظيمه للفحش بالقول والسب بغير حق الذي جاء في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر استطالة» ^(٤٠) المرء في عرض رجل مسلم بغير حق، ومن الكبائر السَّبَّان بالسَّبَّة» ^(٤١).

- وترهيبه لمن أخذ ما ليس بحق من غيره: فعن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «من أخذ شبراً من الأرض ظلماً طوّقه إلى سبع أرضين» ^(٤٢).

٤- ما جاء في بيان أوجه مسؤولية المرء تجاه نفسه:

- وذلك في الترهيب من عدم تحمل الفرد مسؤوليته تجاه وقته وعلمه وماله

(٣٧) أجمه: تشبيه بالليجام الذي يوضع على فم الدابة، والمراد يمنعه من الكلام في المحشر يوم القيامة (النهاية ص ٨٢٨).

(٣٨) أخرجه أحمد في مسند أبي هريرة، ٢/ ٣٤٤، ح ٨٥١٤، ورجاله ثقات. وأبو داود، كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، ٣/ ٣٢١، ح ٣٦٥٨. والترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، ٥/ ٢٩، ح ٢٦٤٩. وروى أبو يعلى نحوه، مسند أبي هريرة، ١١/ ٢٦٨، ح ٦٣٨٣. وفي مسند ابن عباس ٤/ ٤٥٨، ح ٢٥٨٥ قال الهيثمي: رجال أبي يعلى رجال الصحيح (مجمع الزوائد ١/ ٤٠١).

(٣٩) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم من أهل الكتابين، ٣/ ١٠٩٦، ح ٢٨٤٩. ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا، ١/ ١٣٤، ح ١٥٤.

(٤٠) استطالة المرء في عرض الناس: أي استحقارهم، والترفع عليهم، والوقية فيهم (النهاية ص ٥٧١).

(٤١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة، ٤/ ٢٦٩، ح ٤٨٧٧، وذكره المنذري وسكت عنه، قال ابن حجر: أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن (فتح الباري ١٠/ ٤١١). وأخرجه أبو يعلى بنحوه في مسند عائشة، ٨/ ١٤٥، ح ٤٦٨٩. قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٨/ ١٧٤).

(٤٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، ٣/ ١١٦٨، ح ٣٠٢٦. ومسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، ٣/ ١٢٣٠، ح ١٦١٠.

وصحته: فعن أبي برزة الأسلمي^{٤٣} قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه؟ وعن علمه فيم فعل؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟»^(٤٣).

- كما جاء الترغيب في تعلم ما ينفع وبيان ثواب ذلك، فعن أبي هريرة^{٤٤} قال: قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»^(٤٤).

٥- ما جاء في تأكيد أوجه مسؤولية المرء تجاه المحيط الخاص:

- باستخدام الأسلوب المباشر: وذلك ببيان أن تحمل المسؤولية دليل على أثر وجود المرء في محيطه القريب منه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، قال وحسبت أنه قد قال: والرجل راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته»^(٤٥).

٦- ما جاء في بيان أوجه المسؤولية تجاه المحيط العام:

- وذلك باستخدام أسلوب الترغيب: وبيان ثواب من يقدم خدمات لمجتمعه، مع ربطه بحق الله عليه من خلال تذكيره بنعمة من نعم الله على الإنسان، وهي مفاصله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ قال: «إنه خلق كل

(٤٣) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الحساب، ٤/ ٦١٢، ح ٢٤١٧، وقال حسن صحيح. والدارمي، باب من كره الشهرة والمعرفة، ١/ ١٤٤، ح ٥٣٧. وأبو يعلى في مسند أبي برزة، ١٣/ ٤٢٨، ح ٧٤٣٤. والطبراني في الكبير، ٢٠/ ٦٠، ح ١١١، عن معاذ بن جبل، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير صامت وعدي وهما ثقتان (مجمع الزوائد ١٠/ ٦٢٧).

(٤٤) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، ٤/ ٢٠٧٤، ح ٢٦٩٩.

(٤٥) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، ١/ ٣٠٤، ح ٨٥٣. ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، ٣/ ١٤٥٩، ١٨٢٩.

إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل، فمن كبر الله، وحمد الله، وهلل الله، وسبح الله، واستغفر الله، وعزل حجراً عن طريق الناس، أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس، وأمر بمعروف، أو نهى عن منكر، عدد تلك الستين والثلاثمائة السّلامى . فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار»^(٤٦).

٧- ما جاء في أوجه حسن الخلق بالمبادرة بالخير:

مز وذلك بترغيبه في العفو والتجاوز عن الحق ببيان ثوابه في الآخرة، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أُتِيَ اللهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللهُ مَالاً، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا عَمَلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ قَالَ: يَا رَبِّ آتَيْتَنِي مَالَكُ، فَكُنْتُ أَبَايَعِ النَّاسِ، وَكَانَ مِنْ خَلْقِي الْجَوَازِ، فَكُنْتُ أَتَيْسِرُ عَلَى الْمَوْسِرِ، وَأَنْظُرُ الْمَعْسِرَ. فَقَالَ اللهُ: أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِنْكَ، تَجَاوَزُوا عَنِّي عَبْدِي»^(٤٧).

٨- أمثله ما جاء فيما يندرج تحت أوجه حسن الخلق بالكف عن الشر:

- وذلك بالنهي المباشر عن أخلاق تورث التباغض والتنافر بين أفراد المجتمع: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا»^(٤٨)، أو لا تباغضوا، ولا تدابروا»^(٤٩)، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا (ويشير إلى صدره ثلاث مرات) بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضها»^(٥٠).

(٤٦) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، ٢/ ٦٩٨، ح ١٠٠٧.

(٤٧) أخرجه البخاري، كتاب الاستقراض، باب حسن التقاضي، ٢/ ٨٤٣، ح ٢٢٦١. ومسلم، كتاب المساقاة، باب فضل إنظار المعسر، ٣/ ١١٩٥، ح ١٥٦٠.

(٤٨) النجاشي: مدح السلعة لترويجها، أو الزيادة في ثمنها مع عدم الرغبة في شرائها، ليقع غيره فيها (النهاية ص ٩٠٢).

(٤٩) التدابير: أن يعطي كل واحد دبره وقفاه لأخيه، ويعرض عنه ويهجره (النهاية ص ٢٩٦).

(٥٠) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، ٤/ ١٩٨٦، ح ٢٥٦٤.

المبحث الثاني

سبيل تطبيقها في الميدان

إن التوجيه النظري لا يمكن أن يؤتي ثماره ما لم يرادفه تطبيق عملي في ميدان الحياة سواء كان ذلك بفعل المربي والموجه أم بتشجيعه وإقراره لمن فعل الحسن ونهيه لمن فعل القبيح.

ولقد كان رسول الله ﷺ المربي القدوة حريصاً على تأكيد القيم السامية في نفوس أمته، وفي سلوكهم. وفي هذا المبحث سأتناول الأحاديث التي تبرز الدور العملي لقائد الأمة ﷺ في تطبيقه لما يدعو إليه من قيم، وتوجيهاته لمن يراه قد خالف من رعيته، وباعتبار أنه لا مجال للتفصيل في ذلك فسأكتفي بذكر أمثلة محدودة لا تُعدّ إلاّ قطرة في بحر دوره الريادي في تربيته لأصحابه، لممارسة القيم في الواقع الملموس، وذلك بعد أن أسرد سبل التطبيق.

أولاً: سبل التطبيق:

١- وضع قواعد واضحة ومفصلة للتطبيق: لكي يسهل على من أراد الالتزام أن يتبعها كفعله ﷺ مع علي حين ولاه القضاء.

٢- توفير خبرات كل في تخصصه: ليسهل الوصول إليهم لاستشارتهم قبل اتخاذ القرار، حتى لا يلجأ المرء إلى استشارة من لا علم له، أو تنفيذ قرار خاطئ يترتب عليه أحياناً ضياع الفرد ومن حوله، وذلك كثير في السنة، منه تصويبه لقرار النعمان بن بشير في هبته لأحد أولاده دون الآخرين.

٣- المواجهة للمخطئ وبيان خطئه، وتوجيهه إلى الصواب: ويكون ذلك حسب ما يناسب حاله، كما فعل مع من ضرب جاريته وأمره أن يعتقها ليعالج حالة الانفعال غير المتزن عنده، والذي أدى إلى ظلم جاريته، وما فعله مع صاحب الغلول، وصاحب الطعام.

٤- التطبيق العملي للفضائل والحث عليها: كما عرف عن طول قيامه وسجوده وكثرة دعائه.

٥- تشجيع من يطلب المعالي على التزامه بها: إن كان يقوى عليها، كما فعل عليه الصلاة والسلام مع الأنصاري الذي أثر ضيفه على نفسه وأهله.

٦- توسيع فرص تطبيق القيم ومجالاتها لتناسب جميع الناس: فالعلم درجات، والجهاد أنواع، والكرم كذلك، وهما هو رسولنا الرفيق بأمته يوجه إلى قيمة الكرم بإنفاق أحب المال تارة، فيقدم هذا أرضه، وذلك قافلة كاملة، ويجعل تارة أخرى التبسم في وجه الآخرين صدقة، وذلك في أسلوب هادئ تكسوه السماحة، لمناسبة ذلك للمقبلين على الخير.

ثانياً: أمثلة على التطبيق العملي:

١- تطبيقه لأوجه العدل من الأعلى تجاه الأدنى:

- وذلك بوضع قاعدة واضحة للقضاة صارت رمزاً للعدالة فيما بعد، فقد ورد عن علي أنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت: تبعثني إلى قوم ذوي أسنان، وأنا حديث السن، قال: «إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول»، قال علي: فما زلت قاضياً^(٥١).

- ومن خلال فتحه أبوابه للاستشارة في القرارات الخاصة بوجهه ﷺ أصحابه إلى الصواب كما فعل مع النعمان بن بشير بقوله ﷺ: «أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟» قال: لا، قال: فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم، قال: فرجع فرداً عطيته^(٥٢).

- وبمواجهة المخطئ يضع حدود الخصام وضوابطه: كما وجه معاوية القشيري رضي الله عنه في حق زوجته بقوله: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت أو اكتسبت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في

(٥١) أخرجه أحمد، مسند علي بن أبي طالب، ١/ ١١١، ح ٨٨٢. وأبو داود، كتاب الأقضية، باب كيف القضاء، ٣/ ٣٠١، ح ٣٥٨٢. والحاكم، كتاب الأحكام، ٤/ ١٠٥، ح ٧٠٢٥، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٥٢) أخرجه البخاري، كتاب الهبة، باب الإشهاد في الهبة، ٢/ ٩١٤، ح ٢٤٤٧.

البيت» (٥٣).

- وكأسلوب لعلاج الانفعال غير المنضبط من الأعلى تجاه الأدنى بالمواجهة والتوجيه إلى الصواب، فقد ورد عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه أنه حين ذكر ضربه لجاريته عظم عليه الرسول فعله وقال له: «أئتني بها، فأتيته بها، فقال لها: أين الله؟ قالت في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال أعتقها، فإنها مؤمنة» (٥٤).

٢- تطبيقه قيمة العدل من الأدنى تجاه الأعلى:

- وذلك باستخدام التعريض في النهي، أو النهي المباشر لمن يأخذ ما ليس له مما أوثمن عليه، فعن عدي بن عميرة الكندي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد استعملناه منكم على عمل، فكتمنا مخيطاً» (٥٥) فما فوقه، كان غلواً (٥٦) يأتي به يوم القيامة، قال: فقام إليه رجل أسود من الأنصار، كأني أنظر إليه، فقال: يا رسول الله، اقبل عني عملك، قال: وما لك؟ قال سمعتك تقول كذا وكذا، قال: وأنا أقوله الآن، من استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذ، وما نهي عنه انتهى» (٥٧).

٣- تطبيقه العدل بين المتكافئين:

- وذلك بالتوجيه المباشر ومواجهته للمخطئ بخطئه لما فيه من ظلم للمشتري وإخفاء لعب في البضاعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرّ على صبرة (٥٨) طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال: «ما هذا يا صاحب

(٥٣) أخرجه أبو داود، كتاب النكاح، باب في حق المرأة على زوجها، ٢/ ٢٤٤، ح ٢١٤٢. وأحمد في مسند معاوية بن حيدة، ٤/ ٤٤٦، ح ٢٠٠٢٥. والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب النكاح، باب لا يضرب الوجه، ٧/ ٣٠٥، ح ١٤٥٥٦، قال ابن حجر: صححه الدارقطني في العلل (تلخيص الحبير ٤/ ٧).

(٥٤) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ١/ ٣٨١، ح ٥٣٧. (٥٥) مخيط: بكسر الميم هو الإبرة. (النهاية ص ٢٩٢).

(٥٦) الغلول: الخيانة في المغنم والسرعة من الغنيمة قبل القسمة، (النهاية ص ٦٧٦).

(٥٧) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، ٣/ ١٤٦٥، ح ١٨٣٣.

(٥٨) الصبرة: الطعام المجتمع كالكومة (النهاية ص ٥٠٧).

الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش فليس مني»^(٥٩).

٤- تطبيقه لمسؤولية الفرد تجاه نفسه:

- وذلك بتطبيقه العملي للعبادات التي يأمر بها أتباعه، وحثه لأصحاب الهمم على كثرة النوافل لإصلاح أنفسهم والوصول إلى غاياتهم، فعن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال: بكننت أبيت مع رسول الله فأتية بوضوئه وحاجته، فقال لي: سل. فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك، قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود»^(٦٠).

- وبيان أن مسؤولية ضبط النفس تقع على الشخص نفسه، وذلك حين وجه المنفعل، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة»^(٦١)، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب»^(٦٢).

٥- التطبيق العملي لمسؤولية الفرد تجاه المحيط الخاص:

- ومن ذلك توجيهه لأصحابه إلى بر الوالدين، وتقديمه على جهاد العدو، وذلك في بداية نشأة الأمة، فكيف بنا الآن، وذلك في أسلوب حوار هادي، فعن عبد الله بن عمرو قال: بأقبل رجلاً إلى نبي الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله قال: فهل من والديك أحدٌ حيٌّ؟ قال: نعم، بل كلاهما، قال: فتبتغي الأجر من الله؟ قال: نعم. قال: فارجع إلى والديك، فأحسن صحبتهما»^(٦٣).

(٥٩) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا، ١/ ٩٩، ح ١٠٢.

(٦٠) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، ١/ ٣٥٣، ح ٤٨٩.

(٦١) الصرعة: بضم الصاد وفتح الراء وهو المبالغ في الصرّاع الذي لا يُغلب، فنقله إلى الذي يغلب نفسه عند الغضب ويقهرها، فإنه إذا ملكها كان قد قهر أقوى أعدائه وشر خصومه (النهاية ص ٥١٤).

(٦٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ٥/ ٢٢٦٧، ح ٥٧٦٣. ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، ٤/ ٢٠١٤، ح ٢٦٠٩.

(٦٣) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلاة والآداب، باب بر الوالدين، ٤/ ١٩٧٥، ح ٢٥٤٩.

٦- التطبيق العملي لقيم المسؤولية تجاه المحيط العام:

- إن أمثلة كرمه ﷺ وقضائه لحاجات الناس كثيرة، إضافة إلى تشجيعه لأتباعه على ذلك، والثناء على حسن فعالهم، ومنه ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه: بأن رجلاً أتى النبي ﷺ، فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: بمن يضمّ أو يضيف هذا؟ فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ... وفي آخره... فلما أصبح غداً إلى رسول الله ﷺ فقال: ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما»^(٦٤).

٧- تطبيق حسن الخلق في المبادرة بالخير.

- وذلك بالتطبيق المباشر لقيمتي الزهد والكرم، فعن أبي ذرّ قال: بكنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة^(٦٥) المدينة عشاءً، استقبلنا أحد، فقال: يا أبا ذرّ ما أحبُّ أن أحداً ذهباً تأتي علي ليلة أو ثلاث، عندي منه دينار إلا أرصده لِدَيْن، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا»^(٦٦).

٨- تطبيق حسن الخلق في ترك ما هو شر:

- لم يعهد من النبي ﷺ فعل ما نهى عنه، فقد كان خلقه القرآن، كما كان ينكر على من يفعل شيئاً مما نهى عنه وإن كان فاعله أعز الناس إليه، كما فعل مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقد قالت: بقلت للنبي ﷺ حسبك من صفة كذا وكذا - تعني قصيرة - فقال: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»^(٦٧)، وذلك لعلمه بما لهذه الكلمة من أثر في انتشار الضغينة والبغضاء في المجتمع.

(٦٤) أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول الله: ؟ويؤثرون على أنفسهم... ٣/ ١٣٨٢، ح ٣٥٨٧. ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، ١/ ١٦٣، ح ١٨٢.

(٦٥) حرة: بفتح الحاء هي الأرض ذات الحجارة السود. (النهاية ص ١٩٨).

(٦٦) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب ما أدي زكاته فليس بكنز، ٢/ ٥١٠، ح ١٣٤٢. ومسلم، كتاب الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة، ٢/ ٦٨٧، ح ٩٩١.

(٦٧) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة، ٤/ ٢٦٩، ح ٤٨٧٥. والترمذي، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في صفة أواني الخوض، ٤/ ٦٦٠، ح ٢٥٠٢، ٢٥٠٣، وقال: حسن صحيح، ونقله عنه المنذري (الترغيب والترهيب ٧/ ٥٠٥).

المبحث الثالث

سبل بقائها مع اختلاف الزمان

لن نجد منهجاً يصلح للحفاظ على قيمنا وأخلاقنا كمنهج النبوة، وحرصاً من نبي الرحمة على أمته لكي تسير على خطا الهدى التي ترك أثره فيها، فقد وضع توجيهاته التي تمثل استراتيجية لحفظ كيان الأمة مدى الحياة حتى تقوم الساعة، وذلك في إطار من القيم والفضيلة والأخلاق السامية التي تعد ضوابط عامة لكل من اتبع هديه، وانتسب لأمته، وسأذكر السبل مُقَرَّنة كل سبيل منها بشاهد من السنة المطهرة.

ومن تلك السبل التي بينتها السنة النبوية ما يلي:

١- بيان لزوم التزام سنته، ومنع المخالفين عن الاستمرار في انحرافهم:
- فقد بين لأمته ضرورة الالتزام بسنته ﷺ، ونهاها عن مخالفته، وحث على منع المخالفين من ذلك فعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلا كان له من أمته حواريون»^(٦٨) وأصحاب، يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خُلُوف^(٦٩)، يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، من جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»^(٧٠).

٢- بيان فضل نشر الخير والدعوة له والترهيب من نشر الضلال:
- عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى، كان له من

(٦٨) الحواريون: خاصة المرء من أصحابه (النهاية ص ٢٤٠).

(٦٩) خلوف: بضم الخاء واللام، جمع خلف بتحريك اللام وسكونها وهو كل من يجيء بعد من مضى، إلا أنه بالتحريك في الخير، وبالتسكين في الشر (النهاية ص ٢٧٩). والمراد هنا بالتسكين (خلف).

(٧٠) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ١ / ٦٩، ح ٥٠.

الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٧١).

٣- الحث على التعلم والتفقه في الدين:

- وذلك باعتبار أن الجهل أساس ضياع الأمم وسبيل سيطرة المفسدين عليها، فعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، ويعطي الله، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة، أو حتى يأتي أمر الله»^(٧٢).

٤- تشجيع الإنتاج والحث على الحرص على ترك أثر في المجتمع ينتفع به:

- ومن حثه على ذلك حثه على ثلاثة أمور تتصف بالاستمرارية، وذلك فيما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة، إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٧٣).

(٧١) أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة، ٤ / ٢٠٦٠، ح ٢٦٧٤.
(٧٢) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ١ / ٣٩، ح ٧١. ومسلم، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، ٢ / ٧١٩، ح ١٠٣٧.
(٧٣) أخرجه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ٣ / ١٢٥٥، ح ١٦٣١.

الفصل الثالث

معوقات تفعيل القيم في ضوء السنة النبوية

الواقع أننا لا نكاد نجد انطلاقة ينطلق فيها فرد أو مجتمع إلا وتواجهها عوائق تعرقل مسيرتها، وقد أخبر الله تعالى في محكم كتابه عن أكبر معوق لانطلاق الخير في البشرية، وذلك من عدو البشرية إبليس لعنه الله، إلا أنه لا يعتبر المعوق الوحيد فله جنود يستخدمهم لتحقيق غاياته.

ويعلم رسول الله ﷺ - بما علمه ربه - بأن معرفة الخير وحده لا تكفي لحفظ المرء من الانزلاق في الشر استجابة لرغباتها ونزعاتها؛ لذا حرص ﷺ على ذكر ما يعترض المسلم من معوقات، تحول دون التزامه بما أمر به الله ورسوله ليحتاط منها، ويحذرهما قبل أن يقع فيها، وليدعها إن وقع فيها.

ويمكن إجمال تلك المعوقات بثلاث جهات: الأولى ذاتية، والثانية والثالثة خارجيتان، وذلك بالتأثر بالمجتمع المحيط به أو بالعالم الخارجي.

المبحث الأول

معوقات سببها الفرد، والتوجيهات النبوية لضبط ذلك

المعوقات الذاتية لا يكون سببها الشيطان، وإنما سببها الفرد نفسه، إلا أن الشيطان يستغل ضعف الإنسان أمامها، فيستغل قوتها في نفسه لتسيطر على قيمه، ومن تلك المعوقات:

١- الرغبة في متع الحياة وملذاتها:

وذلك بالحرص على التزود منها، لذا نجد الرسول الهادي ﷺ يقلل من شأن الدنيا، ويكون قدوة عملية في التقليل، منها فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله! لو اتخذنا لك وطاء. فقال: مالي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة،

ثم راح وتركها» (٧٤).

٢- الاعتقاد الخاطئ بأن السعادة بكثرة المال والتجارة:

فيسعى إلى تحقيق ذلك بإفراط، فيقع في الرشوة والغش والاعتداء على أموال الآخرين والربا والتحايل والشح، فتأتي التوجيهات النبوية لبيان أن مصدر السعادة والغنى الحقيقي لا يرتبط بكسب خارجي، إنما ينبع من الداخل، وذلك كما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض» (٧٥)، ولكن الغنى غنى النفس» (٧٦).

٣- اتباع الهوى ومخالفة المنهج الرباني:

وهذا من أخطر المعوقات فالهوى يأمر بما هو أقرب إلى النفس من الراحة والنوم والحصول على اللذة والمتعة أيًا كان مصدرها، وقد حذر رسول الله ﷺ من اتباع الهوى، واعتبره بداية النهاية لدين المرء وذلك فيما رواه أبو أمية الشعياني - في حديث طويل - قال سألت أبا ثعلبة الخشني فقلت: يا أبا ثعلبة كيف تقول في هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾؟ قال أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً» (٧٧) مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك - يعني بنفسك - ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر الصبر فيه مثل قبض على الجمر، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً

(٧٤) أخرجه أحمد مسند ابن عباس، ١ / ٣٩٠، ح ٣٧٠٩، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح. والترمذي، كتاب الزهد، باب منه، ٤ / ٥٨٨، ح ٢٣٧٧، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، ٢ / ١٣٧٦، ح ٤١٠٩.

(٧٥) العَرَض: بفتح العين والراء، متاع الدنيا وحطامها. (النهاية ص ٦٠٦).

(٧٦) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، ٥ / ٢٣٦٨، ح ٦٠٨١. ومسلم، كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ٢ / ٧٢٦، ح ١٠٥١.

(٧٧) الشح: أشد البخل، وهو أبلغ في المنع من البخل، وقيل: هو البخل مع الحرص (النهاية ص ٤٦٨).

يعملون مثل عمله»^(٧٨).

٤- الأثرة والإفراط في حب الذات:

وهذا أدى إلى ألا يكتفي المرء بأخذ حقه، بل نراه يطالب بالزيادة، ويأسقاط حق الآخرين عنه، ولا يبالي إن ترتب على ذلك بخس لحق غيره، وهذا يتضح في كل المجالات، فالتاجر يريد أن يحقق أكبر ربح فلا يتقي الله في نوعية البضاعة من طعام ولباس، وما يترتب عليها من ضرر بصحة المشتري، ويسري ذلك المرض ليشمل كثيراً من المعلمين على مختلف مستوياتهم، فتراهم يعرضون للطلاب المعلومة بشكل جاف وممل، هذا إن تم عرضها بصورة صحيحة وكاملة، مما لا يحقق الغاية من التعليم.

وفي المقابل نجد الغرب الذي يتميز علينا بتطوره وحضارته يضع ضوابط ولجاناً لحفظ حق الفرد، كمؤسسة لحماية المستهلك من غش التجار وأضرار البضائع، ومؤسسة لمراقبة مخرجات التعليم وأداء المعلمين، ووضع معايير لتقويم الجامعات من حيث الأداء والمخرجات.

وقد حذرنا رسول الله ﷺ من الاستجابة والاستسلام لهذا المعوق الذي يحول دون الحفاظ على قيم الأخوة والعطاء والمحبة والإيثار؛ وذلك فيما جاء عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون بعدي أثره»^(٧٩) وأمر تنكرونها، قالوا: يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم، وتسالون الله الذي لكم»^(٨٠).

(٧٨) أخرجه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/١٢٣، ح ٤٣٤١، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، ٥/٥٧٧، ح ٣٠٥٨، وقال: حسن غريب. والحاكم، كتاب الرقاق، ٤/٣٨٥، ح ٧٩١٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
(٧٩) أثره: يفتح الهمزة، والناء، أي يُسْتَأْتَرُ عليكم فَيُفْضَلُ غيركم في نصيبه من الفيء والاستئثار: الانفراد بالشيء (النهاية ص ٢٥).
(٨٠) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، ٣/١٤٧٢، ح ١٨٤٣.

المبحث الثاني

معوقات سببها المجتمع، والتحذيرات النبوية للحد من ذلك

إن الإنسان ابن بيئته - كما يقول علماء الاجتماع -، فقد يكون الفرد مستقيماً بفطرته، محباً للطاعات، مجتنباً للمعاصي، إلا أن البيئة المحيطة به من والدَيْن وأصحاب لا يمكن إغفال أثرها في سلوك الفرد؛ لذا نجد رسول الله ﷺ يحذر من الوقوع في تلك المعوقات ومنها:

١- اقتران المسلم أو المسلمة بزواج فاسد أضاع دينه:

وذلك لما لطول العشرة بين الزوجين من تأثير في شخصية الآخر وسلوكه، ومن التوجيهات النبوية التي جاءت للطرفين لتوجيهه لحسن اختيار الزوج والزوجة على حدّ سواء، باعتبار أنهما القطبان الأساسيان في تربية الأجيال القادمة، والحفاظ على قيم الأمة. ومن ذلك:

- ترغيبه بذات الدين من النساء، وذلك فيما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين، تَرَبَّتْ^(٨١) يداك»^(٨٢).

- وبتوجيهه لولي المرأة أن يكون مقياسه لحسن اختيار من يزوجه من يتولى أمرها هو التزامه بأوامر الشرع وتمسكه بأخلاق الدين وقيمه، وذلك فيما رواه أبو حاتم المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد. قالوا يا رسول الله: وإن كان فيه؟ قال: إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، ثلاث مرات»^(٨٣).

(٨١) تَرَبَّتْ يداك: يقال تَرَبَّ الرجل، إذا افتقر، أي لصق بالتراب (النهاية ص ١٠٦).
(٨٢) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، ٥ / ١٩٥٨، ح ٤٨٠٢. ومسلم، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، (٢ / ١٠٨٦)، ح ١٤٦٦. متفق عليه.
(٨٣) أخرجه الترمذي، كتاب النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، ٣ / ٣٩٤، ح ١٠٨٥، وقال: حديث حسن غريب. وابن ماجه، كتاب النكاح، باب الأكفاء ١ / ٦٣٢، ح ١٩٦٧. والطبراني في الكبير، ٢٣ / ٢٩٩، ح ٧٦٢.

وقوله عن تأثير الوالدين إذا أضاعا الدين: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يحدث: قال رسول الله ﷺ: بما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانها^(٨٤).

٢- أصحاب السوء:

فمما طبع الله عليه الإنسان الشعور بالحاجة إلى صديق يشاركه في أفراحه وأحزانه، ويعينه على دنياه، إلا أن ذلك قد يعود سلباً على صاحبه، فكم من صاحب قيم وأخلاق عالية تأثر أو على الأقل قبل سوء خلق صاحبه، وسكت على ما يراه من هدم لقيمه بحجة المحافظة على صاحبه، لذا حذر رسول الله ﷺ من قرناء السوء، لما قد يزينون به الفتن، فهم إن لم يجرؤوا صاحبهم إلى الرذيلة فسيؤذونه بالنظر إليها، وحث بالمقابل على الصاحب الصالح الذي إن لم يتأثر به صاحبه باتباعه في صلاحه فإنه سيرى منه ما يحبب إليه الفضائل، وذلك فيما جاء عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك، وكبير^(٨٥) الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه، أو تجد ريحه، وكبير الحداد يحرق بدنك أو ثوبك، أو تجد منه ريحاً خبيثة»^(٨٦).

٢- التعرض للفتن:

وهي تلك الأساليب التي يستخدمها إبليس وأتباعه في إغواء الناس بتزيين الباطل، لذا حذر من لا ينطق عن الهوى من فتن عظيمة متعددة الأشكال متفاوتة التأثير، تشتبك في الخفاء واللبس على غير اليقظ العارف لدينه، ووجه أتمه ببيان

(٨٤) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلي عليه، ٤٥٦/١، ح ١٢٩٢، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، ٢٠٤٧/٤، ح ٢٦٥٨.

(٨٥) كبير الحداد: بكسر الكاف، وهو المبني من الطين، وقيل الزقّ الذي يُنفخ به النار، والمبني: الكور. (النهاية ص ٨١٩).

(٨٦) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسلك، ٧٤١/٢، ح ١٩٩٥. ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين، ٢٠٢٦/٤، ح ٢٦٢٨.

بعض الفتن كالنساء والدنيا، وحثنا على الثبات على الحق، فإن ضعف المرء عن ذلك فليعتزل مواطن الفتن، وذلك فيما جاء: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يأتي على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شَعَفٌ»^(٨٧) الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن»^(٨٨).

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»^(٨٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»^(٩٠).

(٨٧) شَعَفَ الجبال: رؤوس الجبال، جمع شَعْفَةٍ (النهاية ص ٤٨٣، لسان العرب ٩/ ١٧٧).
(٨٨) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب العزلة راحة من خلاط السوء، ٥/ ٢٣٨٢، ح ٦١٣٠.
(٨٩) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب ما يتقي من شؤم المرأة، ٥/ ١٩٥٩، ح ٤٨٠٨.
(٩٠) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال، ١/ ١١٠، ح ١١٨.

المبحث الثالث

معوقات سببها الاتصال بالعالم الخارجي وسبل تفاديها

نعلم أن الاتصال بالعالم الخارجي الذي يشمل غير المسلمين أمر لا بد منه، وذلك على اختلاف دياناتهم وأجناسهم، وبالتالي قيمهم وثوابتهم. وكون أن الحرص على تفادي شرهم وفتنهم مطلوب شرعاً من الحاكم في الشؤون العامة، والمربي في موقعه، إلا أنه بات صعباً في عصرنا هذا، عصر العولمة والاتصالات السريعة، إلا أن الله يطمئن عباده بأنه سيحفظ هذا الدين، الذي جعل تشريعه صالحاً لكل زمان ومكان.

وها نحن نرى رسولنا الكريم لم يدع أمته لتذوب من بعده باسم الحضارة والتطور والصداقة في غيرها؛ بل وضع لنا قواعد للاتصال بغيرنا من الأمم، وبيّن لنا مخاطر اتصالنا بالعالم الخارجي وأثرها في إعاقة انتشار القيم الحميدة في المجتمع ومن ذلك:

١- التأثير بالأمم الأخرى التي تفتقد ضوابط السلوك القويم ودوافعه: حيث تعتمد مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، وتربي أفرادها على تغليب المصلحة الخاصة على المصلحة العامة، فجاء التحذير النبوي من التقليد الأعمى، والاتباع في كل ما هو مضيعة للمال والوقت، وذلك بقياس المنفعة المترتبة على اتباعهم في أمر ما، ويتضح ذلك المنهج فيما جاء عن: أبي سعيد أن النبي قال: «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا حجر ضب لسلكتموه، قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن»^(٩١).

٢- ضياع الهوية:

وذلك حين لا يعترف الإنسان بمبادئه ويفتخر بها، بل يتبع السائد المنتشر، فلا

(٩١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٣/ ١٢٧٤، ح ٣٢٦٩.

يحافظ عليها بحجة التكيف مع العالم، وقد جاء التحذير من ذلك فيما رواه حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسناً وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»^(٩٢) وأحاديث الفتن تدل على أن ثمرة الوقوع في الفتن هو ضياع الهوية.

الخاتمة

آمل أن تكون لي في هذا الجهد المتواضع يد في المساهمة بإنهاض القيم وتفعيلها، في عصر ضياع الهوية، بتأثير العولمة التي تعدّ سلاحاً ذا حدّين، فإن لم نستغلها إيجابياً ونطور فيها أبناءنا فسيدمر تأثيرها السلبي عقول شبابنا وأخلاقهم. وأرجو أن أكون وفقت إلى تقديم ما ينفع، وألاً أكون رقماً زائداً في مجال الأبحاث، وأود أن أنوه إلى أن هناك إسهامات عدة تسعى إلى تفعيل القيم لدى الشباب وتوجيههم إلى الصواب، إلا أنها تحتاج إلى التخصص لتلافي الازدواجية والتكرار في مجال ما، والإهمال لآخر. كما أن هذه الإسهامات لا تغطي إلا جزءاً يسيراً من ميدان الشباب، فضلاً عن إغفالها الفئات العمرية الأخرى التي بدأ التغريب يغزو قيمها. وأسأل الله قبوله خالصاً لوجهه، فإن أحسنت فمن الله، وإن أسأت فمن نفسي والشيطان، والحمد لله رب العالمين.

التوصيات

أرجو أن يخرج هذا المؤتمر بخطوة إيجابية عملية في تفعيل القيم، حيث ستكون فكرة رائدة غفلت عنها المؤسسات التربوية على اختلاف مستوياتها، واكتفت بالتلقين العلمي، وحفظ المسميات، دون قياس للسلوك بالتالي توجيهه وتقويمه.

(٩٢) أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو، ٤ / ٣٦٤، ح ٢٠٠٧، قال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. والطبراني في الكبير، ٩ / ١٥٢، ح ٨٧٦٥ موقوفاً على ابن مسعود.

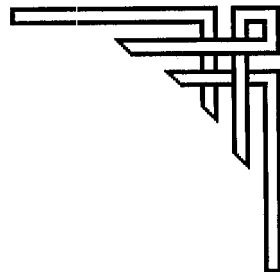
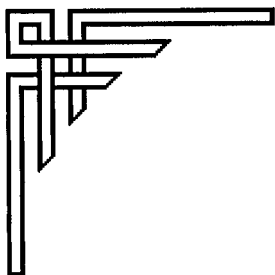
لذا أوصي بأن يكلف المؤتمر مجموعة من الأساتذة الأفاضل بوضع خطة عملية كمشروع لتفعيل القيم في المجتمع ، ويتبنى القائمون على هذا المؤتمر عرضها على جهة أو عدة جهات لرعايتها، بحيث تشمل تلك الخطة تحديد القيم ذات الأولوية، وبرنامجاً عملياً، تثقيفياً، إعلامياً لإحيائها في النفوس، ووسائل لقياس تطبيقها في الميدان كنتائج للمشروع ، والله الموفق
وأتوقع أن يكون لتلك الخطوة صدى أكبر من تأثير المؤسسات الشعبية، لخصوصية جمع هذا الصرح ثلة من المتخصصين من أساتذة ومربين.

ثبت المصادر

- ١- الأخلاق النظرية، للأستاذ عبد الرحمن بدوي، الكويت، ط٨، و١٩٧٥ م.
- ٢- الأدب المفرد، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٩ م، ط٣، تحقيق فؤاد عبد الباقي.
- ٣- الترغيب والترهيب، للإمام عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، دار إحياء التراث العربي، ضبط مصطفى محمد عمارة، ط٣، ١٣٨٨ هـ - ١٩٨٦ م.
- ٤- تفسير البحر المحیط، أبو حبان، ط٢، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٠ م.
- ٥- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تقديم يوسف المعشلي، بيروت، دار المعرفة، ط٢، و١٤٠٧ هـ.
- ٦- التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٧- تفسير المراغي، للأستاذ أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
- ٨- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، بهامش جامع البيان للطبراني، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٩٨٧ م.
- ٩- تقريب التهذيب، للإمام أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق أبو الأشبال صغير أحمد شاغف، دار العاصمة، الرياض، ط١، و١٤١٦ هـ.
- ١٠- تقريب الوصول إلى علم الأصول، للإمام محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي المالكي، تحقيق د. محمد المختار بن محمد الأمين الشنقيطي، نشر المحقق، المدينة المنورة، ط٢، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- ١١- تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تصحيح عبد الله هاشم اليماني، شركة الطباعة الفنية، القاهرة.
- ١٢- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للحافظ يوسف المزي، تحقيق د. بشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، و١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

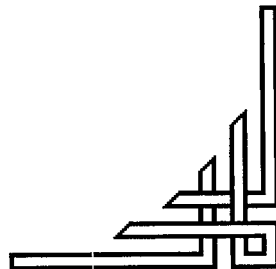
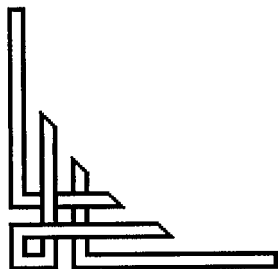
- ١٣- الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، للإمام محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٤- دراسات في علم النفس، للأستاذ عزيز حنا، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٠ م.
- ١٥- سنن أبي داود للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.
- ١٦- سنن ابن ماجه، للإمام محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
- ١٧- سنن البيهقي الكبرى، للإمام أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ط، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- ١٨- سنن الدارمي، للإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت ط ١، ١٤٠٧ هـ.
- ١٩- صحيح ابن خزيمة، للإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٥ م.
- ٢٠- صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، بيروت ١٤٠٧ هـ، - ١٩٨٧ م، ط ٣، تحقيق د. مصطفى ديب البغا.
- ٢١- صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٢٢- علم النفس الاجتماعي، للأستاذ فؤاد البهي السيد، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٤ م.
- ٢٣- فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة - بيروت.
- ٢٤- الفوائد، لابن القيم الجوزية، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ٢٥- القيم الإسلامية والتربية، د. علي خليل أبو العينين، مكتبة إبراهيم حليبي،

- المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ٢٦- القيم الخاصة لدى المبدعين، للأستاذ محي الدين أحمد حسين، دار المعارف القاهرة، ١٩٨١م.
- ٢٧- القيم والعادات الاجتماعية، للأستاذة فوزية دياب، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م.
- ٢٨- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م.
- ٢٩- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- ٣٠- المستدرک على الصحيحین للإمام محمد الحاکم النيسابروي، وبهامشه التلخيص للذهبي، تحقيق ودراسة مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمين، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- ٣١- مسند أبي يعلى، للإمام أحمد بن علي التميمي الموصلي، تحقيق حسين سليم أسد، دار الثقافة العربية، دمشق، ط ٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ٣٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة قرطبة، القاهرة.
- ٣٣- مسند الطيالسي للإمام سليمان بن داود الطيالسي، دار المعرفة، لبنان.
- ٣٤- المعجم الكبير، للإمام سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، نشر مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط ٢، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
- ٣٥- المعجم الرسيط، للأستاذ إبراهيم مصطفى وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٣٦- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، دار المعرفة، بيروت، تحقيق محمد سيد كيلاني.
- ٣٧- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير المبارك بن محمد الجزري، أشرف علي بن حسن عبد الحميد، دار ابن الجوزي، الرياض، ط ٢، ١٤٢٣هـ.
- ٣٨- الوجيز في أصول الفقه، للدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م.



أثر السُّنَّة النَّبَوِيَّة في ترسيخ
القيم الحضارية في النفوس
- أحاديث المسجد أنموذجًا -

إعداد الدكتور مازن حسين حريري
أستاذ الفقه المقارن المساعد
قسم الدراسات الإسلامية
كلية الآداب - جامعة تعز - اليمن



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة، وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد: فإن السنة النبوية الشريفة حرصت على غرس القيم الحضارية في المجتمع المسلم، وعملت على رعايتها وتنميتها وترسيخها في نفوس المسلمين؛ كي تثمر أخلاقاً حسنة، ومناهج رائعة يسلكها المسلمون في شتى مجالات الحياة، والذي يطلع على أحاديث المصطفى ﷺ، ويتمعن فيها يلحظ اعتناء السنة بهذه القيم واهتمامها بترسيخها في النفوس؛ لأن هذا الأمر يسهم في رقي الأمة المسلمة، وبناء حضارتها، فتنحول تلك القيم إلى ممارسات واقعية، وسلوك عام له أثره في نهضتها وعزها، وهذا ما حصل حقيقة واقعة عندما طبق صحابة رسول الله ﷺ ما تعلموه في مدرسة النبوة من قيم انعكست على سلوكهم وأخلاقهم، فكانوا أعظم أمة وأرقى مجتمع، وهكذا من سار على نهجهم ممن جاء بعدهم.

ونظراً لتعدد القيم المستخلصة من أحاديث السنة، وكثرتها واتساع مجالاتها، فإن الاقتصاد على مجال منها وإغناء بحثاً ودراسة أولى وأجدى نفعاً؛ لذلك فإن هذه الدراسة تركز على بيان أثر السنة النبوية الشريفة في غرس القيم الاجتماعية والأخلاقية، وترسيخها في نفوس المسلمين من خلال الأحاديث التي حدثت في المسجد أو قيلت فيه.

ولكن لم الاقتصاد على أحاديث المسجد بالذات؟ وما علاقة المسجد بالقيم الاجتماعية والأخلاقية؟

وللإجابة عن هذا السؤال أقول: إن المسجد يعد أنموذجاً مصغراً للمجتمع المسلم عموماً؛ إذ يرتاده كل شرائح المجتمع كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثاهم، غنيهم وفقيرهم، رئيسهم ومرؤوسهم، كما أن نظام صلاة الجماعة فيه يمثل صورة مصغرة لنظام الحكم في الإسلام، من حيث وجود الإمام، ووجوب الاقتداء به،

وترتيب الصفوف خلفه، وهكذا...، كما أن التعامل اليومي مع المسجد يكسبه أهمية خاصة، لذلك نجد وفرة في الأحاديث التي ذُكرت المسجد أو قيلت فيه، أو نقلت الأحداث التي وقعت فيه، وقد تناولت هذه الأحاديث مختلف المجالات الدينية والدينيوية، وقد تنبه كثير من رواة الحديث إلى أهمية هذه الأحاديث فأفردوا لها أماكن خاصة في كتبهم سموها: كتاب المساجد.

وحيث إن المسجد يعد مؤسسة اجتماعية، ومنبراً روحياً، وساحة أخلاقية، فإن الاختصار على الأحاديث الواردة بشأنه يحقق المطلوب في تتبع القيم الحضارية الاجتماعية والأخلاقية في السنة النبوية المطهرة.

أهمية الموضوع ودوافع اختياره:

ويستمد الموضوع أهميته من أهمية السنة النبوية في الشريعة الإسلامية، ومكانتها العالية في نفوس المسلمين وحياتهم؛ لذلك فإن استنباط القيم الحضارية منها، وتعريف الناس بها، وبيان أثر هذه القيم في نهضة المسلمين ورفي مجتمعهم أمر في غاية الأهمية أيضاً.

كما يستمد الموضوع أهميته من أهمية المسجد ذاته، فبالإضافة لما سبق قوله، فإن للمسجد أثراً بارزاً وأهمية قصوى في حياة المسلمين أفراداً وجماعات، فأثره لا يقتصر على أنه مكان للعبادة فحسب، بل يتعدى ذلك إلى أنه المدرسة المفتوحة التي تعنى بتربية المجتمع وتنشئته النشأة الصحيحة، وتقويم اعوجاجه، وتوجيه سلوكه، فالمساجد مراكز إشعاع فكري وروحي وحضاري في المجتمع الإسلامي؛ لذلك كان من أولويات النبي ﷺ، عندما هاجر إلى المدينة المنورة بناء المسجد، وعلى الرغم من تواضع هذا البنيان بعد إنجازه إلا أنه كان ركيزة أساسية في بناء القيم الحضارية وترسيخها في نفوس الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، فتخرج فيه الدعاة والعلماء وحفظ القرآن والخلفاء والولاة والقادة وغيرهم.

ونظراً لأهمية المسجد وحيويته، وتعلق مصالح المسلمين - الأخروية والدينيوية - به؛ أردت أن تكون دراستي هذه، والتي تبين أثر السنة النبوية في بناء

القيم الحضارية وترسيخها في النفوس مرتبطة به.

ومن دوافع الكتابة في هذا الموضوع، الاستجابة للدعوة الكريمة الموجهة للباحثين من قبل الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، التي تعنى بإبراز محاسن سنة نبينا الكريم محمد ﷺ، وتعرف المسلمين بكنوز السنة النبوية المطهرة، وتدلل غير المسلمين على مكانة الرسول الكريم ﷺ، ورفع رسالته من خلال ما تضمنته سيرته العطرة من قيم حضارية عليا.

وإني لأرجو أن يسهم هذا البحث في بيان ذلك وتجليته بصورة مبسطة ميسرة؛ لعله يكون أحد العوامل المساعدة في علاج واقع المسلمين المتدهور.

منهج الدراسة وطريقة البحث:

وهذا الهدف النبيل يتطلب الرجوع إلى كتب السنة النبوية المطهرة، والتنقيب فيها، والبحث في نصوصها، واستقراء الأحاديث التي ورد فيها ذكر المسجد أو التي حدثت أو قيلت فيه، واختيار ما كان منها حاضاً أو محتوياً على قيمة حضارية اجتماعية أو أخلاقية، أو مشيراً إليها، وجمعها في مكان واحد بحسب القيمة التي يحتويها أو يشير إليها كل حديث منها، ثم دراسة هذه الأحاديث بعد تخريجها، ومن ثم استخلاص تلك القيم الحضارية المعنية، وتجليتها والتدليل عليها من الكتاب الكريم - إن وجد - وبيان ما قاله شراح الأحاديث، وعلماء المسلمين فيما يخدم موضوع الدراسة، وإذا كان للحديث روايات متعددة، أو ألفاظ مختلفة فإني لا أذكرها إلا إذا احتوت على فوائد وإضافات تخدم موضوع الدراسة.

وقد اقتضت طبيعة الدراسة لهذا الموضوع أن تكون مكونة من هذه المقدمة، ومبحثين، وخاتمة على النحو الآتي:

المبحث الأول: أثر السنة النبوية في ترسيخ القيم الاجتماعية في النفوس، وفيه المطالب الآتية:

المطلب الأول: أثر السنة في توجيه السلوك الاجتماعي وضبط التصرفات

الإنسانية

المطلب الثاني: أثر السنة في رعاية المرأة واحترامها والاهتمام بحقوقها
المطلب الثالث: أثر السنة في رعاية الفقراء والمحتاجين والاهتمام بهم
المطلب الرابع: أثر السنة في الترفيه عن المجتمع والترويح عن النفس
المطلب الخامس: أثر السنة في ترسيخ قيمة الحذر والحرص على سلامة المسلمين

المبحث الثاني: أثر السنة النبوية في ترسيخ القيم الأخلاقية في النفوس، وفيه المطالب الآتية:

المطلب الأول: أثر السنة في ترسيخ القيم الذوقية والجمالية
المطلب الثاني: أثر السنة في ترسيخ قيمة الرفق والتيسير
المطلب الثالث: أثر السنة في ضمان حرية الرأي والتعبير
المطلب الرابع: أثر السنة في ترسيخ قيمة العفة والقضاء على سوء الظن
المطلب الخامس: أثر السنة في ترسيخ قيمة الوفاء وتكريم أهل الفضل
الخاتمة: وفيها ملخص الدراسة وأهم نتائجها.

المبحث الأول

أثر السنة النبوية في ترسيخ القيم الاجتماعية في النفوس

المطلب الأول: أثر السنة في توجيه السلوك الاجتماعي وضبط التصرفات الإنسانية غالبًا ما يكون خطاب التكليف في القرآن والسنة موجهاً لمجموع الأمة، وهناك كثير من العبادات تؤدي بصورة جماعية، فالجماعية صفة مهمة تتصف بها الشريعة الإسلامية، وتبرز هذه الصفة بشكل واضح في صلاة الجماعة التي تتكرر خمس مرات في اليوم واللييلة، ومن خلال هذه الصلاة -التي تكون في المساجد غالبًا- وما يتعلق بها من عبادات كالوضوء ونحوه؛ تترسخ قيم حضارية عدة في نفوس من يحافظ عليها، ولذلك فإن السنة النبوية الشريفة حثت على صلاة الجماعة، ورغبت فيها، وحذرت من إهمالها وتركها، وشجعت على ارتياد المساجد. ومن خلال أحاديث صلاة الجماعة وفضلها، وفضل الذهاب إلى المساجد سنتعرف على جملة من القيم الحضارية الاجتماعية، مع الإشارة إلى بعض القيم الأخلاقية المستفادة من تلك الأحاديث؛ التي تسهم في توجيه السلوك وضبط التصرفات، وفيما يأتي بيان هذه القيم:

أولاً: الاجتماعية و الإخاء والمساواة بين المسلمين: فالمسلم ليس انطوائياً أو معزولاً عن مجتمعه، أو راهباً في مكان عبادته، بل هو اجتماعي بفطرته التي فطر الله الخلق عليها، وفي خروجه إلى المسجد لصلاة الجماعة تأكيد لهذا المعنى، وهذا ما يشير إليه الحديث الآتي، ويرغب فيه، إذ تُضَاعَفُ الحسنات لمجرد أداء الفريضة في جماعة، وتزيد الحسنات في كل خطوة يخطوها المصلي إلى المسجد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «صلاة الرجل في الجماعة تُضَعَّفُ على صلاته في بيته، وفي سوقه خمسًا وعشرين ضعفًا، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخطُ خَطْوَةً إلا رفعت له بها درجة، وخطَّ عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تنزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مُصَلَّاهُ،

اللهم صل عليه اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة»^(١). وقد ركزت الأحاديث على فضل الصلاة في جماعة المسجد، وتضعيف الأجر والثواب للمصلين دون حصول ذلك القدر من الأجر للذي يصلي في بيته أو سوقه حتى وإن صلى في جماعة، وذلك إشارة إلى أهمية المسجد وأثره الاجتماعي والأخلاقي في المجتمع المسلم، حيث يتم الاهتمام بتوطيد العلاقة بين أبنائه عن طريق تفقد أحوالهم، والتماس همومهم، ومعرفة احتياجاتهم، وتلبية متطلباتهم بحسب الإمكان، كما أن ذلك يغرس الشعور بالمساواة بين أفراد المجتمع، فالمسلمون سواسية في الصلاة وغيرها، وإن كانت هذه الصفة بارزة في الصلاة بشكل واضح، فكل واحد منهم يقف في مكان واحد وفي صف واحد خلف إمام واحد لا فرق بين غني أو فقير أو أمير أو مأمور أو أبيض أو أسود...، لذلك فقد شجع النبي ﷺ أتباعه على ارتياد المساجد، ووعدهم بالأجر العظيم لفعالهم، فعن أبي هريرة (عن النبي ﷺ) قال: «من غدا إلى المسجد وراح؛ أعد الله له نُزُلَهُ من الجنة كلما غدا أو راح»^(٢). وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات قالوا: بلى يا رسول الله قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»^(٣).

وقد منع النبي ﷺ بني سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد؛ كي لا يحرموا الأجر الوفير المترتب على ذهابهم وإيابهم إليه، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد قال: والباق خالية فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل صلاة الجماعة، رقم (٦٤٧)، ومسلم بألفاظ قريبة: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة، رقم (٦٤٩).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل من غدا إلى المسجد ومن راح، رقم (٦٦٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا وترفع به الدرجات، رقم (٦٦٩).
(٣) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم (٢٥١)، وأحمد (٣٠١ / ٢)، والترمذي: كتاب الطهارة، باب ما جاء في إسباغ الوضوء، رقم (٤٧)، والنسائي: كتاب الطهارة، باب الفضل في ذلك، رقم (١٤٣)، وابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في إسباغ الوضوء، رقم (٤٢٧-٤٢٨).

«يا بني سَلِمَةَ دِيَارِكُمْ تُكْتَبُ أَثَارُكُمْ فَقَالُوا: مَا كَانَ يُسْرُنَا أَنَا كُنَّا تَحَوَّلْنَا»^(٤).

وإن الاختلاط بالناس والاجتماع بهم يورث المصلي في جماعة في المسجد صفات أخلاقية في غاية الأهمية، وهي بذاتها قيم حضارية حقيقية، منها: الصبر وحسن الخلق؛ لأن من يختلط بالناس لا بد أن يصبر على ما يبدر منهم؛ لاختلاف الطباع وتعدد الأمزجة واختلاف المشارب وتنوع الأعراض والأغراض.

ومنها: التواضع والرحمة، فالصلاة ترسخ في نفس المصلي قيمة التواضع، وأن لا يشمخ بأنفه متعالياً على أحد من المسلمين، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ (الفتح: ٢٩).

وفي الحديث الذي يأمر فيه النبي ﷺ أصحابه بإقامة الصلاة؛ يعلمهم ويحثهم على التواضع والتراحم بقوله: «... وَلِيُنُوا فِي أَيْدِي إِخْوَانِكُمْ...»^(٥).
ثانياً: الإخلاص والإتقان وإجادة الأعمال: فالإخلاص قيمة عظيمة أولتها السنة اهتمامها، وعملت على غرسها وترسيخها في النفوس، وتدل على هذه القيمة هنا عبارات: «لا يخرجها إلا الصلاة» أو «لا يريد إلا الصلاة» أو «لا ينهزه إلا الصلاة»، والإخلاص مهم في جميع ما يوكل إلى المسلم من أعمال، وهذا يحتاج إلى تدريب وممارسة، فهنا تغرس السنة في نفوس المصلين أن هذا الأجر الوفير والمضاعفة في الحسنات تكون لمن يخرج من بيته، وقد أتقن وضوءه قاصداً المسجد، ولم يخرج إلا لهذا الأمر، فالخروج إلى الصلاة بهذا الدافع كفيل بتدريب المسلم على الإخلاص، وهكذا تعالج السنة المطهرة قضية الإخلاص على أنها قضية قلبية؛ لتبني فيه الوازع الحقيقي وهو طلب ما عند الله تبارك وتعالى،

(٤) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل كثرة الخطى إلى المساجد، رقم (٦٦٥)، وأحمد (٣٣٢/٣)، وأخرج نحوه الترمذي عن أبي سعيد الخدري، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة يس، رقم (٣١٥٠).

(٥) أخرجه أحمد وأبو داود وسيأتي ذكره كاملاً وتخريجه قريباً، انظر ص ٩ من هذا البحث.

والبعد عن مظاهر الرياء والنفاق .

كما سعت السنة إلى غرس قيمة الإتقان في كل شيء، ودربت أتباعها على ذلك بدءًا من إتقان العبادات المفروضة عليهم، وانتهاءً بكل عمل، ونلاحظ ذلك في أحاديث صلاة الجماعة، والخروج إلى المسجد حيث إن أغلبها فيها النص على عبارات: (فأحسن الوضوء) أو (فأسبغ الوضوء)، وفي هذا لفت انتباه المصلي إلى ضرورة الإتقان والإجادة في كل الأعمال، وتدريبه على ذلك.

وتظهر هذه القيمة أيضًا في حديث الرجل المسيء صلاته، فإن النبي ﷺ لم يقره على صلاته التي خلت من الإتقان وأمره بإعادتها؛ لأن الاطمئنان في الصلاة والإتيان بالأركان جميعها دون تفريط بأحدها، لا بد منه لتكون الصلاة صحيحة، وفي هذا قمة الإتقان. وينبغي على من أتقن صلاته أن يتقن أعماله كلها. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَرَدَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تَصَلِّ، فَصَلَّى ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تَصَلِّ ثَلَاثًا، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ فَمَا أَحْسِنُ غَيْرَهُ فَعَلَّمَنِي. قَالَ: إِذَا قَمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»^(٦).

وفي الحديث الذي يذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِقَاحِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ «البقرة: ٢٦٧» إشارة واضحة إلى ترسيخ قيمة الإتقان والإجادة في أعمال المسلم كلها، فعن البراء

(٦) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب أمر النبي الذي لا يتم ركوعه بالإعادة، رقم (٧٩٣) وفي غير موضع، ومسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٧).

بن عازب رضي الله عنه قال: صلى الله عليه وسلم نزلت - الآية - فينا معشر الأنصار؛ كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقنو^(٧) والقنوين فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط من البسر^(٨) والتمر فيأكل، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو الشيص^(٩) والحشف^(١٠) وبالقنو قد انكسر فيعلقه، فأنزل الله تبارك تعالی ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ قال: «لو أن أحدكم أهدي إليه مثل ما أعطاه لم يأخذه إلا على إغماض أو حياء. قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده»^(١١).

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد، ويده عصا وقد علق رجل قنًا حشفاً فطعن بالعصا في ذلك القنو وقال: «لو شاء رب هذه الصدقة تصدق بأطيب منها، وقال: إن رب هذه الصدقة يأكل الحشف يوم القيامة»^(١٢).

(٧) القنو: العذق والجمع القنوان والأقناء. مختار الصحاح مادة ق ن و (١/ ٢٣١). والعذق بالفتح النخلة وبالکسر العرجون بما فيه من الشماريخ ويجمع على عذاق. النهاية في غريب الحديث والأثر، المبارك بن محمد الجزري (٣/ ١٩٩).

(٨) البسر أوله طلع ثم خلال بالفتح ثم بلح بفتححتين ثم بسر ثم رطب ثم تمر الواحدة بسرة و بسرة والجمع بسرات و بسر بضم السين في الثلاثة، و أسبر النخل صار ما عليه بسرا. مختار الصحاح مادة ب س ر (١/ ٢١).

(٩) الشيص: رديء التمر، وأشاص النخل إشاصة إذا فسد وصار حملة الشيص، ويشيص النخل إذا لم يلقح. انظر: لسان العرب مادة ش ي ص (٧/ ٥١).

(١٠) الحشف اليابس الفاسد من التمر، وقيل: الضعيف الذي لا نوى له كالشيص، والحشف الضرع البالي. لسان العرب مادة ح ش ف (٩/ ٤٧).

(١١) أخرجه الترمذي، وقال عنه: هذا حديث حسن غريب صحيح. كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، باب ومن سورة البقرة، رقم (٢٩١٣)، وابن ماجه: كتاب الزكاة، باب النهي عن أن يخرج في الصدقة شر ماله، رقم (١٨٢٢)، وقال عنه الحاكم في المستدرک (٢/ ٣١٣): حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

(١٢) أخرجه أبو داود: الزكاة، باب ما لا يجوز من الثمرة في الصدقة، رقم (١٦٠٨)، والنسائي: كتاب الزكاة، باب قوله عز وجل: ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون، رقم (٢٤٩٣)، وابن ماجه: كتاب الزكاة، باب النهي عن أن يخرج في الصدقة شر ماله، رقم (١٨٢١)، وقال عنه الحاكم في المستدرک (٤/ ٤٧٢): صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

ثالثاً: الانضباط والنظام: فصلاة الجماعة تعلم الانضباط في الزمان والمكان؛ لأن المعتاد على صلاة الجماعة لا بد له أن يلتزم بوقت كل صلاة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء: ١٠٣). بحيث يكون الانضباط صفة ملازمة له في كل تصرف، وهذا يعينه على تنظيم الوقت والالتزام بالمواعيد، وكما يتعلم المصلي في جماعة الانضباط الزمني فإنه يتعلم الانضباط المكاني، حيث يقف في صف مستو متراس متصل بلا فرجات، ويتم الصف الأول فالأول، فهو لا يقف بلا نظام أو كيفما اتفق، وهذا كله يدرّب المصلي على الانضباط والنظام في شأنه كله.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سَوُّوا صُفُوفَكُمْ؛ فَإِنْ تَسَوَّيْتُ الصُّفُوفَ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ»^(١٣). وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أَقِيمُوا الصُّفُوفَ فَإِنَّمَا تَصُفُّونَ بِصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَحَازُوا بَيْنَ الْمَنَاقِبِ، وَسَدُّوا الْخُلُلَ، وَلِيُنْزِلَ فِي أَيْدِي إِخْوَانِكُمْ، وَلَا تَذَرُوا فُرْجَاتٍ لِلشَّيْطَانِ، وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا وَصَلَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعَهُ اللَّهُ»^(١٤).

ومن كان هذا شأنه في الصلاة، فلا بد أن ينعكس ذلك على سائر تصرفاته في حياته كلها؛ فيكون منضبطاً منظماً يعكس الصورة الحقيقية للمسلم الحق.

رابعاً: وحدة المجتمع وتماسكه: فالذي يصلي في جماعة مدركاً ضرورة رص الصفوف وتسويتها وسد الثغرات في الصف والمحاذاة بين المناكب، مقتدياً بإمام واحد، عالماً أن مخالفته تبطل صلاته، متجهماً مع المصلين إلى قبلة واحدة، بلا فرق بينه وبين غيره من المصلين، كل ذلك يغرس في نفسه قيمة الوحدة وضرورة تماسك المجتمع وتراحم أفرادها، وأن المسلم على ثغرة من ثغرات الإسلام فليحذر

(١٣) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب إقامة الصف من تمام الصلاة، رقم (٧٢٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها، رقم (٤٣٣).
(١٤) أخرجه أحمد (٢/ ٩٧)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، رقم (٦٦٦)، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٢/ ١٩٠).

أن يؤتى الدين من قبله، وقد أشار النبي ﷺ إلى أثر تسوية الصفوف في الصلاة على وحدة المسلمين واجتماع كلمتهم، وأن ذلك لا بد أن ينعكس على تصرفات المسلمين، وأنهم إذا اختلفوا في تسوية الصفوف فإن ذلك يؤدي إلى اختلاف قلوبهم وفرقتهم. فعن النعمان بن بشير قال: قال النبي ﷺ: «لَتُسُونَنَّ صَفُوفَكُمْ أَوْ لِيَخَالَفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وَجُوهِكُمْ»^(١٥).

قال النووي في معنى قوله ﷺ: (لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم): «والأظهر، والله أعلم، أن معناه يوقع بينكم العداوة والبغضاء واختلاف القلوب، كما يقال: تغير وجه فلان علي أي: ظهر لي من وجهه كراهة لي، وتغير قلبه علي؛ لأن مخالفتهم في الصفوف مخالفة في ظواهرهم، واختلاف الظواهر سبب لاختلاف البواطن»^(١٦).

وعن أبي مسعود -عقبة بن عمرو بن ثعلبة- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة، ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم؛ لِيَلِينِي مِنْكُمْ أَوْلُو الْأَحْلَامِ وَالنَّهْيِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»^(١٧).

المطلب الثاني: أثر السنة في رعاية المرأة واحترامها والاهتمام بحقوقها

لا يشك منصف أن الإسلام اهتم بالمرأة وحرص على رعايتها وإعطائها حقوقها بعد أن كانت سلعة تباع وتشترى وتدفن حية...، والأدلة على ذلك كثيرة ومتعددة، إلا أننا سنذكر بعض الأحاديث المتعلقة بالمسجد والتي تشير إلى حرص الإسلام على غرس تلك القيم المتعلقة باحترام المرأة ورعايتها.

عن أبي قتادة الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «أن رسول الله ﷺ كان يصلي، وهو حامل أمانة

(١٥) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب تسوية الصفوف عند الإقامة وبعدها، رقم (٩٧٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها، رقم (٤٣٦).

(١٦) شرح النووي على صحيح مسلم (٤/ ١٥٧).

(١٧) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها، رقم (٤٣٢)، وأحمد (٤/ ١٢٢)، والنسائي: كتاب الإمامة، باب من يلي الإمام ثم الذي يليه، رقم (٨٠٧)، وبرقم (٨١٢)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب من يستحب أن يلي الإمام، رقم (٩٧٦).

بنت زينب بنت رسول الله ﷺ ولأبي العاص بن الربيع بن عبد شمس، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها»^(١٨).

قال في الفتح: «قال الفاكهاني: وكان السر في حمله أمانة في الصلاة دفعا لما كانت العرب تألفه من كراهة البنات وحملهن؛ فخالفهم في ذلك حتى في الصلاة للمبالغة في ردعهم، والبيان بالفعل قد يكون أقوى من القول»^(١٩).

ومع دلالة هذا الفعل على عطفه ﷺ، ورحمته بالأطفال وغيرهم إلا أنه يدل أيضًا على أن رسول الله ﷺ كان حريصًا على تغيير النظرة الدونية إلى الأنثى، وأنها لا تختلف عن الذكر من حيث تكريمها وتقديرها واحترام مكانتها؛ كي تترسخ هذه المعاني في نفوس أصحابه؛ خصوصًا وأن هذا الفعل منه ﷺ كان في صلاة الفريضة كما يدل على ذلك ما رواه مسلم عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه قال: «رأيت النبي ﷺ يوم الناس وأمامة بنت أبي العاص، وهي ابنة زينب بنت النبي (على عاتقه، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع من السجود أعادها»^(٢٠).

وقد كرم الإسلام المرأة واحترمها، ولم يضطهدها أو يحجر عليها، أو يأمر بحبسها في بيتها للخدمة ونحو ذلك كما يدعي أعداء الإسلام، بل جعل لها حرية الخروج، وممارسة النشاط الإنساني، والتمتع بمباهج الحياة من غير فتنة أو ريبة.

فبعض الأحاديث تدل على أن للمرأة أن تخرج إلى المسجد للصلاة فيه في أي وقت، وأنه لا يحق للرجل أن يمنعها حتى ولو بالليل، وفي ذلك إشعار بالمساواة مع الرجل، وأن للمرأة حقوقًا ينبغي أن تراعى وتحترم. فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: كانت امرأة لعمر تشهد صلاة الصبح والعشاء في الجماعة في المسجد، فقيل لها: لم تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟ قالت: وما يمنعني أن ينهاني؟

(١٨) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة، رقم (٤٨٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة، رقم (٨٤٤).

(١٩) فتح الباري (١/٥٩٢).

(٢٠) (٢٠) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة، رقم (٨٤٥).

قال: يمينه قول رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»^(٢١). وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول «إذا استأذنكم نساؤكم بالليل إلى المسجد فأذنوا لهنَّ»^(٢٢).

وها هي السيدة عائشة رضي الله عنها تعود أباهاً وبلالاً - وهو غريب عنها - إثر وعكة أصابتهما، وتسال عن حالهما، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وعك أبو بكر وبلال رضي الله عنهما قالت: فدخلت عليهما قلت: يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟...»^(٢٣)، وقد ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله: «باب عيادة النساء الرجال، وعادت أم الدرداء رجلاً من أهل المسجد من الأنصار»^(٢٤). قال في الفتح: «أي ولو كانوا أجنب بالشرط المعتبر - وهو التستر وأمن الفتنة - ويبيّن أن المراد بالمسجد هنا مسجد رسول الله ﷺ، وقد اعترض عليه بأن ذلك قبل الحجاب قطعاً، وأن في بعض طرقه: وذلك قبل الحجاب، وأجيب بأن ذلك لا يضره فيما ترجم له من عيادة المرأة الرجل، فإنه يجوز بشرط التستر، والذي يجمع بين الأمرين ما قبل الحجاب وما بعده الأيمن من الفتنة»^(٢٥).

وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تنظر إلى لعب الأحباش في المسجد من خلف النبي ﷺ حتى تَمَل. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى الحبسة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا التي

(٢١) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم، رقم (٩٠٠)، ومسلم: كتاب الصلاة: باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة، رقم (٤٤٢).

(٢٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب خروج النساء إلى المساجد بالليل والغسل، رقم (٨٦٥)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة، رقم (٤٤٣).

(٢٣) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب عيادة النساء الرجال...، رقم (٥٦٥٤)، وفي غير موضع، وأحمد (٦/٦٥).

(٢٤) صحيح البخاري (٥/٢١٤٠).

(٢٥) انظر: فتح الباري (١٠/١١٧-١١٨).

أسام، فاقدروا قَدْرَ الجارية الحديثة السن الحريصة على اللّهُو»^(٢٦).
وفي العبارة الأخيرة من الحديث قيمة تربوية رائعة في التعامل مع الأعمار، وأن لكل عمر متطلباته ورغباته، وأنه لا بد من مراعاة ذلك.

ولم يمنع الإسلام من مخالطة المرأة في أي حال من أحوالها حتى وإن كانت حائضًا، في حين كانت المرأة في بعض الأديان تترك وحدها، وتعزل حال حيضها كأنها قدر ينبغي اجتنابه. و الأحاديث تشير إلى أن نساء النبي ﷺ كن يعتنين به ويخالطنه وهن حيض، بل ويكون ذلك وهو معتكف في المسجد ﷺ. فعن عروة بن الزبير أنه «سئل أتخدمني الحائض أو تدنو مني المرأة وهي جنب؟ فقال عروة: كل ذلك عليّ هين، وكل ذلك تخدمني، وليس على أحد في ذلك بأس. أخبرني عائشة رضي الله عنها أنها كانت تُرَجِّلُ تعني رأس رسول الله ﷺ وهي حائض، ورسول الله ﷺ حينئذٍ مجاوزٌ في المسجد يدني لها رأسه، وهي في حُجْرَتِهَا فَتُرَجِّلُهُ وهي حائض»^(٢٧).

وبالإضافة إلى حضور المرأة إلى المسجد للصلاة، فإنها كانت تمارس بعض الأعمال فيه، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «رأى رسول الله ﷺ نُحَامَةً في قِبْلَةِ المسجد فغضب حتى أحمر وجهه، فقامت امرأة من الأنصار فَحَكَّتْهَا، وجعلت في مكانها خَلُوقًا»^(٢٨). قال رسول الله ﷺ: ما أحسن هذا»^(٢٩). فهذا التصرف الذي حصل بحضرة النبي ﷺ واستحسانه له، يدل على مكانة المرأة واحترامها في الإسلام، فالمرأة المضطهدة أو المحجور عليها أو المعزولة عن مجتمعها، لا يمكن أن

(٢٦) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب نظر المرأة إلى الحيش ونحوهم من غير ريبة، رقم (٥٢٣٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم، كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه أيام العيد، رقم (٨٩٢) وفي مواضع أخرى.

(٢٧) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب غسل الحائض رأس زوجها وترجيله، رقم (٢٩٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم بألفاظ قريبة: كتاب الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه، رقم (٢٩٧)

(٢٨) الخلق: كصبور: ضرب من الطيب. القاموس المحيط، مادة خ ل ق، ص. ٧٣١١
(٢٩) أخرجه النسائي: كتاب المساجد، باب تخليق المساجد، رقم (٧٢٨)، وابن ماجه: كتاب المساجد والجماعات، باب كراهية النخامة في المسجد، رقم (٧٦٢). قال محمد بن عبد الواحد المقدسي في الأحاديث المختارة (٥٨ / ٦): إسناده صحيح.

تتصرف مثل هذا التصرف في أكثر الأماكن احتراماً عند المسلمين، وأكثرها ازدحاماً بالرجال إلا إذا كانت محترمة ومقدّرة وذات مكانة رفيعة.

ومما يؤكد على هذا المعنى ويدل عليه بوضوح تلك الروايات التي تذكر أن امرأة من الأنصار هي التي حظيت بشرف عمل المنبر للنبي ﷺ بعد أن كان يخطب إلى جذع نخلة، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما «أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه، فإن لي غلاماً نجاراً قال: إن شئت، قال: فعملت له المنبر، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صنّع، فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت تنشق، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها، فضمها إليه، فجعلت تن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت، قال: بكت على ما كانت تسمع من الذكر»^(٣٠).

وفي الحديث دلالة على المثل العليا والقيم الحضارية الرائعة التي كان يتحلى بها رسول الله ﷺ وتجلّى ذلك في رحمته ﷺ وعطفه حتى على النبات، حيث واساه وضمه إليه لما سمع أنينه، فهدأ وسكن.

كذلك في قصة المرأة التي سُمح لها أن تعيش في المسجد حيث لا مسكن لها، دليل على الاهتمام بالمرأة ورعايتها، خصوصاً مع الفقر والحاجة، وقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها قصة إسلامها في حديث طويل، جاء فيه: «فكان لها خبَاءٌ في المسجد أو حفشٌ، قالت: فكانت تأتيني فتحدث عندي...»^(٣١).

المطلب الثالث: أثر السنة في رعاية الفقراء والمحتاجين والاهتمام بهم

كان رسول الله ﷺ يهتم بأتباعه كلهم غنيهم وفقيرهم، قويهم وضعيفهم، بل

(٣٠) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب النجار، رقم (٢٠٩٥) وفي مواضع أخرى، وأحمد (٣/٣٠٠).
(٣١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب نوم المرأة في المسجد، رقم (٤٣٩)، وكتاب المناقب رقم (٣٨٣٥).
والحفش: وهو كالبیت الصغير وسمي حفشاً لضيقه وانضمامه. غريب الحديث للخطابي (٢/٥٨٤).

اهتمامه بالفقراء والضعفاء منهم أشد حتى نجده يسأل عن الرجل أو المرأة^(٣٢) التي كانت تعني بالمسجد؛ ولما علم أنها ماتت قام فصلي على قبرها إكرامًا لها، واهتمامًا بها. فعن أبي هريرة رضي الله عنه «أن رجلاً أسود أو امرأة سوداء كان يقيم المسجد فمات، فسأل النبي ﷺ عنه فقالوا: مات قال: أفلا كنتم آذنتُموني به؛ دُلوني على قبره أو قال: قبرها، فأتى قبرها فصلّى عليها»^(٣٣). وزاد مسلم: «فكانهم صَغَرُوا أمرها أو أمره، فقال: دلوني على قبره فدَلُّوه فصلّى عليها ثم قال: إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله عز وجل يُنورُها لهم بصلاتي عليهم»^(٣٤). وفي هذا زيادة تأكيد على قيمة الاهتمام بهؤلاء المستضعفين والمساكين، والرفع من معنوياتهم وعدم احتقارهم أو تصغير شأنهم، ورحمتهم والرأفة بهم في حياتهم، وحتى بعد مماتهم، حيث إن رسول الله ﷺ أراد أن ينور الله عليهم قبورهم بصلاته عليها.

ومعلوم أن عددًا من الفقراء والمساكين كانوا يعيشون في مسجد رسول الله ﷺ، وكانوا يعرفون بأهل الصُّفَّة، وكان رسول الله ﷺ يعتني بهم ويتفقد أحوالهم، ويحث أصحابه من الأغنياء على رعايتهم، وهذا من القيم الحضارية الرائعة التي حرصت السنة على ترسيخها في النفوس.

عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه «أن أصحاب الصُّفَّة كانوا أناسًا فقراء، وأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: من كان عنده طعام اثنين فيلذهب بثالث، وإن أربع فخامس أو سادس، وأنَّ أبا بكرٍ جاء بثلاثة فانطلق النَّبِيُّ ﷺ بعشرة...»^(٣٥).

(٣٢) الشك من الراوي كما ورد في روايات الحديث، والراجح والله أعلم - أن تكون امرأة، كما رجح ذلك أبو هريرة رضي الله عنه في رواية أخرى وفيها: «أن امرأة أو رجلاً كانت تقيم المسجد ولا أراه إلا امرأة فذكر حديث النَّبِيِّ ﷺ أنه صلى على قبرها». أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الخدم للمسجد، رقم (٤٦٠)، وفي الفتح أن كنيها أم محجن (١/ ٥٥٣).

(٣٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كنس المسجد والتقاط الخرق والقذى والعيذان، رقم (٤٥٨)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر، رقم (٩٥٦).

(٣٤) التخريج السابق ذاته.

(٣٥) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب السمر مع الضيف والأهل، رقم (٦٠٢)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إياره، رقم (٢٠٥٧).

وكان رسول الله ﷺ يحرض أصحابه على الصدقة، ويغرس في نفوسهم تلك القيم الرائعة في كل مناسبة تسنح له، فعن المنذر بن جرير عن أبيه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار قال: فجاءه قوم حفاة عراة مُجْتَابِي النَّمَارِ^(٣٦) أو العَبَاء متقلدي السيوف عامتهم من مُضَرَّ بل كلهم من مضر، فَتَمَعَّرَ وجه رسول الله (ﷺ) لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى ثم خطب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ والآية التي في الحشر ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تصدق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع بره من صاع تمره حتى قال: ولو بشق تمره، قال: فجاء رجل من الأنصار بِبُصْرَةٍ كادت كفه تعجز عنها بل قد عَجَزَتْ قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كَوْمَيْنِ من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذْهَبَةٌ، فقال رسول الله ﷺ: من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن يَنْقُصَ من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء^(٣٧).

والحقيقة أن السنة النبوية الشريفة حرصت على ترسيخ هذه القيم الحضارية الرائعة في أحاديث ذات موضوعات عدة، إلا أنها تتضح بصورة أكبر في أحاديث المسجد؛ للأثر الاجتماعي الذي يؤديه، فالتكافل الاجتماعي المتمثل في تفقد أحوال المصلين والمجاورين للمسجد والزائرين له، وتلبية متطلباتهم، ورعاية ذوي الاحتياجات كلهم، لهو أثر عظيم لا يستهان به.

(٣٦) أي لابسها خارقين أوساطها، يقال: اجتبت القميص أي دخلت فيه. والنمار جمع نمره، وهي ثياب صوف فيها تمير. وقيل: هي كل شملة مخططة من مآزر الأعراب، كأنها أخذت من لون النمر؛ لما فيها من السواد والبياض. انظر: صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٢/ ٧٠٥).

(٣٧) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمره أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، رقم (١٠١٧)، وأحمد (٤/ ٣٥٨)، والنسائي: كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة، رقم (٢٥٥٤).

المطلب الرابع: أثر السنة في الترفيه عن المجتمع والترويح عن النفس

المجتمع الإسلامي ليس مجتمعًا جامدًا متصلبًا لا يعترف بالمرح أو الترفيه، بل هو مجتمع حيوي ومرن يلبي احتياجات النفس البشرية، ويراعي فطرتها، ويقرُّ الترويح عنها بالمباح، دون أن يمس ذلك بأصول الشريعة وثوابتها، وإن السنة النبوية المطهرة أكدت هذا المعنى في مناسبات مختلفة، وفيما يخص موضوع بحثنا سأذكر فيما يأتي الأحاديث التي تدل على الأثر الترفيهي الذي حرصت السنة على تلييته وتوفيره للمسلمين:

عن عائشة رضي الله عنها «أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه دخل عليها، وعندها جاريتان في أيام منى تغنيان وتُدْفَنان وتضربان، والنبي صلى الله عليه وآله متغش بثوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف النبي صلى الله عليه وآله عن وجهه فقال: دعهما يا أبا بكرٍ فإنها أيام عيدٍ، وقالت عائشة: رأيت النبي صلى الله عليه وآله يسترني وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد، فزجرهم عمر، فقال النبي: (دعهم أمنا بني أرفدة يعني من الأمن)»^(٣٨).

قال ابن حجر العسقلاني: «وفي هذا الحديث من الفوائد: مشروعية التوسعة على العيال في أيام الأعياد بأنواع ما يحصل لهم بسط النفس، وترويح البدن من كلف العبادة، وأن الإعراض عن ذلك أولى، وفيه أن إظهار السرور في الأعياد من شعار الدين»^(٣٩).

وتذكر بعض الأحاديث التي تروي كيفية بناء المسجد أن النبي صلى الله عليه وآله كان يُنشد الأناشيد مع أصحابه وهم يبنون المسجد؛ يُرَوِّح بذلك عنهم ويسليهم، فهذا أنس بن مالك رضي الله عنه يروي قصة بناء المسجد في حديث طويل، فيه: «... فَصَفُّوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه الحجارة، وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون،

(٣٨) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب إذا فاته العيد يصلي ركعتين...، رقم (٩٨٨)، وكتاب المناقب، باب قصة الحيش، رقم (٣٥٣٠)، ومسلم: كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية في أيام العيد، رقم (٨٩٢).
(٣٩) فتح الباري (٢/٤٤٣).

والنبي ﷺ معهم، وهو يقول:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة
فاغفر للأَنْصار والمهاجرة»^(٤١).

كذلك فإن للشعر الهادف مكاناً في مجتمع النبوة، وقد كان ﷺ يحث الشعراء على قول الشعر في مدح الإسلام وأهله، وهجاء المشركين والتحريض على قتالهم، بل كان ذلك في المسجد كما ورد عن أبي هريرة ﷺ «أن عمر مرَّ بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد، فلحظ إليه فقال: قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول أجب عني اللهم أيده بروح القدس قال: اللهم نعم»^(٤٢). قال النووي: «فيه جواز إنشاد الشعر في المسجد إذا كان مباحاً، واستحبابه إذا كان في مباح الإسلام وأهله، أو في هجاء الكفار والتحريض على قتالهم، أو تحقيرهم، ونحو ذلك، وهكذا كان شعر حسان. وروح القدس جبريل عليه السلام»^(٤٣). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد، فيقوم عليه يهجو من قال في رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: إن روح القدس مع حسان ما نافح عن رسول الله ﷺ»^(٤٤).

وينبغي التنبيه هنا إلى أن إباحة إنشاد الشعر في المسجد ليست على إطلاقها، بل لا بد من ضوابط تضبطها، فبالإضافة إلى ما ذكره النووي آنفاً، فإنه ينبغي أن لا يكون الإنشاد غالباً على المسجد حتى يتشاغل به الناس عن الصلاة والذكر ونحو ذلك، وأن لا يكون في أوقات الصلوات بحيث يشوش على المصلين، مع انتقاء

(٤٠) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد، رقم (٤٢٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ابتناء مسجد النبي، رقم (٥٢٤).
(٤١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢١٢)، وفي غير موضع، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت، رقم (٢٤٨٥).
(٤٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦ / ٤٥ - ٤٦).
(٤٣) أخرجه أحمد (٦ / ٧٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب ما جاء في الشعر، رقم (٥٠١٥)، والترمذي: كتاب الأدب عن رسول الله، باب ما جاء في إنشاد الشعر، رقم (٢٧٧٣)، وقال: حسن صحيح غريب. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. المستدرک (٣ / ٥٥٥).

الكلام واختياره بحيث لا يحتوي على قبيح، وغير ذلك مما ذكره الفقهاء تفصيلاً^(٤٤).

وهذه الإباحة المشروطة لا تتعارض مع أحاديث النهي عن تناشد الأشعار في المسجد، التي وردت في بعض كتب الحديث مثل: ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «نهى رسول الله ﷺ عن تناشد الأشعار في المساجد»^(٤٥). قال ابن حجر عن هذا الحديث: «إسناده صحيح إلى عمرو... وفي المعنى عدة أحاديث، لكن في أسانيدنا مقال، فالجمع بينها وبين حديث الباب -حديث حسان- أن يحمل النهي على تناشد أشعار الجاهلية والمبطلين، والمأذون فيه ما سلم من ذلك. وقيل المنهي عنه ما إذا كان التناشد غالباً على المسجد حتى يتشاغل به من فيه»^(٤٦).

و تجدر الإشارة إلى أن المسجد لا ينبغي أن يخرج عن وظيفته المعتادة؛ بحيث يصبح مكاناً للإعلانات أو الخطابات أو الأغراض الشخصية أو الحزبية، وهذا ما يُلمح إليه حديث النهي عن نشد الضالة في المسجد، فعن أبي هريرة روى عنه رسول الله ﷺ: «من سمع رجلاً يَنشُدُ ضالة في المسجد، فليقل لا ردها الله عليك، فإن المساجد لم تبن لهذا»^(٤٧).

وعلى الرغم من أن المسجد مكان مناسب لإعلام أكبر عدد ممكن من الناس عن الغرض المفقود؛ كي يساعدوا صاحبه في العثور عليه، إلا أن النبي ﷺ منع من

(٤٤) راجع: تفسير القرطبي (١٢/ ٢٧١-٢٧٢)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٤٥-٤٦)، حاشية ابن عابدين (١/ ٦٥٩)، مواهب الجليل (٦/ ١٥)، المجموع (٢/ ٢٠٣)، مغني المحتاج (٢/ ٢٠٣)، المحلى (٣/ ١٦٠).

(٤٥) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في كراهية البيع والشراء وإنشاد الضالة والشعر في المسجد، رقم (٢٩٦) وقال عنه: حديث حسن. والنسائي: كتاب المساجد، باب النهي عن تناشد الأشعار في المسجد، رقم (٧١٥)، وابن ماجه: كتاب المساجد والجماعات، باب ما يكره في المساجد، رقم (٧٤٩). (٤٦) فتح الباري (١/ ٥٤٩). وجدير بالذكر هنا القول: إن الكلمات والخواطر التي يلقيها بعض المصلين في المساجد ينبغي أن تضبط بالضوابط السابقة، فإنها إن كانت بما فيه الخير والصلاح والتذكير بالأخرة والحض على الطاعة، وبما لا يشوش على المصلين فإنها جائزة، أما إذا لم تكن كذلك فإنها لا تجوز، والله أعلم.

(٤٧) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد، رقم (٥٦٨)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب كراهية إنشاد الضالة في المسجد، رقم (٤٧٣)، وابن ماجه: كتاب المساجد والجماعات، باب النهي عن إنشاد الضوال في المساجد رقم (٧٦٧).

ذلك - مع أنه ﷺ يأمر بحفظ المال وينهى عن إضاعته-؛ لما فيه من رفع الصوت والتشويش على المصلين^(٤٨)، ولأن الذي ينشد ضالته استغل المسجد في غير ما بني له كما علل النبي ﷺ بذلك؛ وهذا ينسجم مع كون المسجد مكاناً عاماً أعد للنفع العام، وليس منشأة خاصة للنفع الفردي. قال ابن رسلان: «قوله: (لا ردها الله عليك) فيه دليل على جواز الدعاء على الناشد في المسجد بعدم الوجدان؛ معاقبة له في ماله؛ معاملة له بنقيض قصده. ويلحق بذلك من رفع صوته فيه بما يقتضي مصلحة ترجع إلى الرافع صوته»^(٤٩).

ورفع الصوت والتشويش على المصلين ممنوع حتى وإن كان بتلاوة القرآن الكريم، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد، فسمعهم يجهرون بالقراءة، فكشف الستر وقال: «ألا إن كلكم مناج ربه، فلا يؤذین بعضکم بعضاً، ولا يرفع بعضکم على بعض في القراءة، أو قال: في الصلاة»^(٥٠).

وفي هذا تأدبٌ مع الله سبحانه وتعالى الذي يعلم السر وأخفى، وتدريبٌ للمسلمين على الهدوء والسكينة وخفض الأصوات، وعدم إيذاء بعضهم البعض حتى ولو برفع الصوت بتلاوة القرآن.

المطلب الخامس: أثر السنة في ترسيخ قيمة الحذر والحرص على سلامة المسلمين:

اهتمت الشريعة الإسلامية بالإنسان أياً كان، وأمرت بالمحافظة على النفس البشرية،

(٤٨) انظر: تفسير القرطبي (١٢ / ٢٧٢)، تفسير ابن كثير (٣ / ٢٩٤)، المحلى (٣ / ١٦٦). وإذا نهى الشرع عن كل ما من شأنه أن يشوش على المصلين ويلبس عليهم صلاتهم، فإنه ينهى عن أصوات التلفزيونات ونحوها من الأجهزة المخترعة حديثاً، خصوصاً تلك التي تصدر أنواعاً من الموسيقى والتنغيم، وإنه لا ينبغي لذي مروءة وصاحب دين أن يشوش على المصلين بهذه الأجهزة، فعلى المصلي أن يخشع في صلاته ويؤجل اتصالاته.

(٤٩) نيل الأوطار (٢ / ١٧٥).

(٥٠) أخرجه أحمد (٣ / ٩٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب رفع الصوت بالقراءة في الصلاة، رقم (١٣٣٢). قال ابن عبد البر في التمهيد (٢٣ / ٣١٩): صحيح.

وحرمت إراقة الدماء، ولم تبح قتل النفس بلا مبرر يستوجب ذلك، قال تعالى:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ عَلَىٰ آلَا تَشْرِكُوا بِهِمْ شَيْئًا ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقْنَا نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۚ وَلَا تَقْرُبُوا أَلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَنَّمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥١)

وقال جل ثناؤه: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ (المائدة: ٣٢). وكان اهتمامها بالنفس المسلمة أشد، والأمر بالمحافظة عليها، وعدم الاعتداء عليها أكبر وأعظم. فعن عبد الله بن مسعود (قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والشيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة»^(٥١).

ولذلك فقد نهت السنة النبوية إلى ضرورة أخذ الحيطة والحذر عند حمل السلاح أو استخدامه، وفي ذلك أبلغ الأثر في غرس قيمة الحذر والحرص على سلامة المسلمين في النفوس عموماً، ونلاحظ ذلك في حديث الرجل الذي دخل المسجد، ومعه أسهم فأمره النبي ﷺ أن يأخذ بنصولها، وكان التنبيه على الأخذ بنصول الأسهم لداخل المسجد؛ لأنه مكان عام يكثر فيه الناس؛ كيلا يؤدي استهتاره إلى إيذاء أحد منهم، وينسحب ذلك على كل مكان يجتمع فيه الناس

(٥١) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى أن النفس بالنفس والعين بالعين، رقم (٦٨٧٨)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، رقم (١٦٧٦).

كالسوق مثلاً. وهذا ما صرح به مسلم عندما ترجم للحديث الآتي بقوله: «باب أمر من مر بسلاح في مسجد أو سوق أو غيرهما من المواضع الجامعة للناس أن يمسك بنصالها»^(٥٢).

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه «أن رجلاً مرَّ بأُسُهمٍ في المسجد قد أبدى نُصُولَهَا، فأمر أن يأخذ بنصولها؛ كي لا يَخْدِشَ مسلماً»^(٥٣). وإن أثر غرس هذه القيمة في النفوس يبرز من خلال معرفتنا أن الذي يحرص على سلامة إخوانه المسلمين هذا الحرص، فيحذر أن يصيبهم أدنى أذى منه؛ سيحرص على ما هو أكبر من خدشهم، فلا يعتدي على أنفسهم ولا ما دون الأنفس.

(٥٢) صحيح مسلم (٤ / ٢٠١٨).

(٥٣) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب قول النبي من حمل علينا السلاح فليس منا، رقم (٧٠٧٤)، وفي غير موضع، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب أمر من مر بسلاح في مسجد أو سوق أو غيرهما من المواضع الجامعة للناس أن يمسك بنصالها، رقم (٢٦١٤).

المبحث الثاني

أثر السنة النبوية في ترسيخ القيم الأخلاقية في النفوس

المطلب الأول: أثر السنة في ترسيخ القيم الذوقية والجمالية

حرصت السنة النبوية الشريفة على غرس القيم الذوقية والجمالية في نفوس أتباعها، وسعت إلى ترسيخها وتنميتها في شتى المجالات، وفيما يخص موضوع بحثنا يبدو هذا الأمر جلياً في الحض على النظافة والطهارة، وعدم إيذاء الآخرين ولو بالروائح الكريهة خصوصاً لمن يرتاد المساجد، وحيث إن الذهاب إلى المسجد يتكرر خمس مرات في اليوم واللييلة؛ فإن ذلك يقتضي أن يكون المسلم كالزهرة في بستان الحياة، فلا يبدو إلا في أجمل صورة، ولا يُشم منه إلا أطيب ريح، ومن النصوص التي تحض على ذلك ما يأتي:

قال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ حُدُوْا زَيْتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا

إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ﴿﴾ (الأعراف: ٣١)

قال ابن كثير: «ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجميل عند الصلاة ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب؛ لأنه من الزينة، والسواك؛ لأنه من تمام ذلك»^(٥٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه»^(٥٥) شيء قالوا لا يبقى من درنه شيء قال فذلك مثل الصلوات الخمس يحو الله بهن الخطايا»^(٥٦).

وصحيح أن الحديث شبه المعنوي بالحسي؛ لبيان أثر الصلوات في محو

(٥٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢١١).

(٥٥) الدرر: الوسخ، وقد يطلق الدرر على الحب الصغار التي تحصل في بعض الأجساد. فتح الباري (٢/ ١١).

(٥٦) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، رقم (٥٢٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات، رقم (٦٦٧)، واللفظ لمسلم.

الذنوب، حيث «إن المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة في بدنه وثيابه، ويطهره الماء الكثير، فكذلك الصلوات تطهر العبد عن أقذار الذنوب حتى لا تبقي له ذنبًا إلا أسقطته»^(٥٧)، إلا أنه يستفاد من الحديث أيضًا الحث على النظافة والطهارة، وذلك أن المصلي لا بد له من الطهارة إذا أراد الصلاة، ومعلوم أن في فعله هذا نظافة تامة لبدنه كله تقريبًا. بل إن بعض الأحاديث شبهت محو الخطايا وخروجها بتشبيه دقيق ومفصل كما تخرج الأوساخ من الجسد كلما قارب ماء الوضوء العضو المراد غسله أو مسحه، وفي ذلك أبلغ الأثر في الحث على النظافة والطهارة.

فعن عبد الله الصنابحي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من فيه، فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشْفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه، فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه، فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه، ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له»^(٥٨).

«والحقيقة أن المداومة على النظافة والطهارة في الجسد والثوب والمكان تكسب صاحبها ذوقًا رفيعًا ومشاعر سامية واشمئزازًا من النجاسات والقاذورات بخلاف الإنسان الذي لا يعتاد ولا يحرص على نظافة ثوبه وبدنه ومكانه، فإنه يهبط في ذوقه وأحاسيسه ومشاعره، وربما في أخلاقه أيضًا»^(٥٩).

(٥٨) أخرجه: أحمد (٤ / ٣٤٩)، والنسائي: كتاب الطهارة، باب مسح الأذنين مع الرأس وذكر ما يستدل به على أنهما من الرأس، رقم (١٠٣)، وابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ثواب الطهور، رقم (٢٨٢). وأخرج الحاكم نحوه، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، المستدرک (١ / ٢٢٢). ونقل الزيلعي في نصب الراية (١ / ٢١): أن عبد الله الصنابحي لم يلق النبي ﷺ، ولم يعلق هو على الحديث. وذكر ابن حجر في الإصابة (٤ / ٢٧١، ٧ / ٣٠٦): أن عبد الله الصنابحي مختلف في صحبته، ونقل عن يحيى بن معين قوله: يشبه أن يكون له صحبة.

(٥٩) الحياة في محراب الصلاة، مصطفى مشهور: ص ٩٢.

ولحرصه ﷺ على ترسيخ القيم الذوقية في نفوس أصحابه وأتباعه إلى يوم القيامة، فقد حثهم على أمور قد تبدو صغيرة إلا أنها تدل على رقي في الذوق كبير، منها سنته ﷺ في السواك واستعماله في أوقات مختلفة وخصوصاً عند الوضوء والصلاة.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لِأَمْرَتُهُمْ بِالسَّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ» (٦٠).

وفي رواية تبين استحباب السواك عند الوضوء: قال أبو هريرة: «عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي لِأَمْرَتُهُمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ» (٦١).

ويتضح هذا الرقي الذوقي بشكل أكبر في الأحاديث التي تنص على منع أصحاب الروائح الكريهة من القرب من المسجد والاختلاط بالناس، حتى يكون المسلم في أجمل صوزة وأطيب ريح؛ كي لا يؤذي المسلمين ولو برائحة فمه. فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا فَلْيَعْتَزِلْنَا، أَوْ قَالَ: فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ» (٦٢).

وخطب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الجمعة يوماً فكان مما قال: «ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَأْكُلُونَ شَجَرَتَيْنِ لَا أَرَاهُمَا إِلَّا خَبِيثَتَيْنِ، هَذَا الْبَصَلُ وَالثُّومُ لَقَدْ رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا وَجَدَ رِيحَهُمَا مِنَ الرَّجْلِ فِي الْمَسْجِدِ أَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ إِلَى الْبَقِيعِ، فَمَنْ أَكَلَهُمَا فَلْيَمْتِهُمَا طَبْحًا» (٦٣).

(٦٠) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة، رقم (٨٨٧)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب السواك، رقم (٢٥٢).

(٦١) أخرجه البخاري معلقاً: كتاب الصوم، باب سواك الرطب واليابس للصائم... قال في الفتح: وصله النسائي من طريق بشر بن عمر عن مالك عن بن شهاب عن حميد عن أبي هريرة بهذا اللفظ (٤/١٥٩). وأخرجه أحمد (٢/٤٦٠)، والنسائي: كتاب الصيام، باب السواك للصائم بالعداء وذكر اختلاف الناقلين للخبر فيه، رقم (٣٠٤٣).

(٦٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما جاء في الثوم النيء والبصل والكراث، رقم (٨٥٥)، وفي غير موضع، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها مما له رائحة كريهة عن حضور المسجد حتى تذهب تلك الريح وإخراجه من المسجد، رقم (٥٦٤).

(٦٣) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها، رقم (٥٦٧)، والنسائي: كتاب المساجد، باب من يُخرج من المسجد، رقم (٧٠١)، وأحمد (١/٤٨١٥).

وقد ورد هذا المعنى بروايات متعددة، وبعضها يبين سبب المنع من قرب المسجد وهو الإيذاء الحاصل بأكلهما مثل حديث: «من أكل البصل والثوم والكُرَّاث فلا يَقْرَبَنَّ مسجدنا فإنَّ الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم» (٦٤).

قال القرطبي بعد أن ذكر حديث عمر رضي الله عنه السابق: «قال العلماء: إذا كانت العلة في إخراجهم من المسجد أنه يتأذى به؛ ففي القياس أن كل ما يتأذى به جيرانه في المسجد بأن يكون ذَرْبٌ (٦٥) اللسان سفيهاً عليهم، أو كان ذا رائحة قبيحة.. لسوء صناعته، أو عاهة مؤذية كالجذام وشبهه وكل ما يتأذى به الناس، كان لهم إخراجهم ما كانت العلة موجودة به حتى تزول» (٦٦).

وإن في عبارة (فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم) إشارتين تؤكدان على ترسيخ القيم الذوقية الرائعة، فالأولى: أن السنة التي تنبه أتباعها إلى أن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم تريد أن ترشدهم إلى أن تكون رائحتهم طيبة باستمرار وفي أوقاتهم كلها، وليس عند دخولهم المسجد فحسب؛ لأن المسلم يعلم أن الملائكة تلازمه في كل وقت وحين إلا عند الخلاء وعند لقائه أهله.

والأخرى: أن الذي يراعي الملائكة كي لا تتأذى بروائح الكريهة، وهي مخلوقات نورانية غيبية، فإنه سيراغي غيره من بني آدم الذين يرونه ويراهم ويختلط بهم، وهذا من باب أولى.

ومن المؤشرات الدالة على حرص النبي ﷺ على غرس القيم الذوقية والجمالية وترسيخها في نفوس أصحابه تلك الأحاديث التي تدل على أنه لم يُرد أن تقع عين المصلي في المسجد على أي قذر حتى وإن كان يسيراً، فكان أمره ﷺ بدفن النخامة إذا حصلت في المسجد، وقيامه بإزالتها، وتعليمه أصحابه كيفية التعامل

(٦٤) أخرجه مسلم: من حديث جابر بن عبد الله، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها، رقم (٥٦٤)، والنسائي: كتاب المساجد، باب من يُمنع من المسجد، رقم (٧٠٠)، وأحمد (٣/٣٧٤).

(٦٥) ذَرْبُ اللسان: بمعنى: فساد اللسان وبذاؤه. القاموس المحيط: ص ٩٠١ مادة (ذ ر ب).

(٦٦) تفسير القرطبي (١٢/٢٦٧-٢٦٨).

مع مثل ذلك، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «البُزَاقُ في المسجد خِطِيئَةٌ وكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا»^(٦٧). وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ رأى نُحَامَةً في حائط المسجد فنناول رسول الله ﷺ حصاةً فَحَثَّهَا، ثمَّ قال: إذا تَنَحَّمَ أَحَدُكُمْ، فلا يَتَنَحَّمُ قَبْلَ وجهه ولا عن يمينه، وليبصق عن يساره أو تحت قدمه اليسرى»^(٦٨).

بل إن روايات أخرى للحديث ذكرت سبب المنع من التنخم قبل الوجه أو عن يمين المصلي؛ لأن الله حيال وجهه، وفي ذلك فائدة عظيمة تُنمِّي في نفس المسلم الشعور بمعية الله تبارك وتعالى وقربه واستحضار مراقبته جل وعز في كل وقت، وهذا له أثره في تنمية الشعور الذوقي والجمالي لدى المسلم فيحثه ذلك على أن يكون مكان العبادة نظيفاً منزهاً عن الأقدار؛ مراعاة لعظمة المعبود وجلاله تبارك وتعالى، وفي هذا ترسيخ لتلك القيم الرائعة في النفوس. فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَصَلِّي رَأَى فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ نُحَامَةً، فَحَكَّهَا بِيَدِهِ فَتَغَيَّظَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّ اللَّهَ حِيَالَ وَجْهِهِ، فَلَا يَتَنَحَّمَنَّ حِيَالَ وَجْهِهِ فِي الصَّلَاةِ»^(٦٩).

وفي حديث الأذان الذي يرويه عبد الله بن زيد إشارة واضحة إلى تلك القيمة الجمالية التي حرصت السنة على ترسيخها في النفوس، من خلال تدريب الأذن على سماع أندى الأصوات وأجملها بعبارات تعبدية تتكرر خمس مرات في كل يوم وليلة، فعندما أخبر عبد الله بن زيد النبي ﷺ عن الرؤيا التي رأى الأذان فيها، قال له رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ لِرُؤْيَا حَقٍّ، فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَإِنَّهُ أُنْدَى وَأَمْدٌ صَوْتًا

(٦٧) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كفارة البزاق في المسجد، رقم (٤١٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها، رقم (٥٥٢).
(٦٨) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب لا يبصق عن يمينه في الصلاة، رقم (٤١١)، وأخرجه مسلم بالفاظ قريبة: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها، رقم (٥٤٨).

(٦٩) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله، رقم (٦١١١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها، رقم (٥٤٧).

منك، فألقِ عليه ما قيل لك وليُنَادِ بذلك...»^(٧٠). قال في تحفة الأحوذى: «فيه دليل على اتخاذ المؤذن حسن الصوت»^(٧١).

ويتأكد هذا الحس الذوقي والجمالي في الاختبار الذي أجراه النبي (لاختيار مؤذن حسن الصوت من بين عدد من الرجال، كما ورد في سنن الدارمي عن أبي محذورة «أن رسول الله ﷺ أمر نحوًا من عشرين رجلاً فأذّنوا فأعجبه صوت أبي محذورة فعلمه الأذان...»^(٧٢). وفي الحديث دلالة واضحة على ضرورة وضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

فهذه السنة التي تحت على أن يكون المرء نظيفًا في بدنه وثوبه ومكانه، وألا تقع عينه على قبيح، وألا يشم إلا أطيب ريح ولا يُشم منه إلا كذلك، وألا يسمع إلا أحسن الأصوات، في عبادته في المسجد وفي شأنه كله؛ لهي سنة ترسخ أعلى القيم الحضارية في الذوق والجمال.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه القيم إذا ترسخت في النفوس، فإنها وإن كانت ظاهرية إلا أن فوائدها ستنعكس على باطن المرء وجوهره؛ لأنه لا يصح أن يحرص الإنسان على جماله الخارجي، ويكون قلبه وأفعاله بلا ذوق ولا جمال، فمن صفا ظاهره استجابة لأمر الله وسنة نبيه ﷺ ينبغي أن يصفو باطنه وتستقيم تصرفاته وفق منهج الشريعة الإسلامية، وإلا كان منافقًا والعياذ بالله تبارك وتعالى.

(٧٠) أخرجه أحمد (٤٣ / ٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب كيف الأذان، رقم (٤٩٩)، والترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في بدء الأذان، رقم (١٧٤)، وقال: حديث عبد الله بن زيد حديث حسن صحيح. وابن ماجه: كتاب الأذان والسنة فيه، باب بدء الأذان، رقم (٧٠٦)، والدارمي: كتاب الصلاة، باب في بدء الأذان، رقم (١١٨٧).

(٧١) لمحمد عبد الرحمن المباركفوري (١ / ٤٨١).

(٧٢) أخرجه الدارمي: كتاب الصلاة، باب الترجيع في الأذان، رقم (١١٩٦)، وأخرجه برواية مطولة كل من: أحمد برقم (٣ / ٤٠٨)، والنسائي: كتاب الأذان، باب الأذان في السفر، رقم (٦٣٣)، وابن ماجه: كتاب الأذان والسنة فيه، باب الترجيع في الأذان، رقم (٧٠٨). قال في خلاصة البدر المنير، لابن الملتن (١ / ١٠٤): الحديث صححه ابن خزيمة. وتعليم النبي ﷺ أبا محذورة الأذان أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب صفة الأذان، رقم (٥٧٢).

وقد أشار عدد من المفسرين إلى هذا المعنى عندما فسروا قوله تعالى:

﴿وَيَا بَاكَ فَطَهَّرْ﴾ (المدر: ٤٤)، فذهبوا إلى أن في الآية دلالة على ضرورة نظافة الظاهر والباطن^(٧٣).

المطلب الثاني: أثر السنة في ترسيخ قيمة الرفق واليسير:

سبقت الإشارة إلى أن السنة النبوية الشريف حرصت على ترسيخ قيم الرحمة والتواضع ولين الجانب^(٧٤)، وفيما يأتي التأكيد على هذه القيم، مع تناول قيمة الرفق واليسير من خلال الآتي:

لقد كان رسول الله ﷺ رفيقاً بأصحابه، رحيماً بهم قال تعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)، فكان يعينهم في بناء المسجد، ويمسح التراب عنهم، ويواسيهم بنصحه وكلامه العذب، وينشد معهم الأناشيد، وفي كل ذلك تعليم لهذه الأمة على خلق الرفق والرحمة.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان موضع مسجد النبي ﷺ لبني النجار وكان فيه نخل ومقابر للمشركين فقال لهم النبي ﷺ: ثامنوني به قالوا: لا نأخذ له ثمناً أبداً قال: فكان النبي ﷺ يبينه وهم يناولونه والنبي ﷺ يقول: ألا إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة»^(٧٥).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: «جاء رسول الله ﷺ بيت فاطمة، فلم يجد علياً في البيت، فقال: أين ابن عمك؟ قالت: كان بيني وبينه شيء، فغاضبني فخرج، فلم يقل عندي، فقال رسول الله ﷺ: لإنسان انظر أين هو؟ فجاء فقال:

(٧٣) انظر: تفسير الطبري (٢٩ / ١٤٤ - ١٤٧)، تفسير القرطبي (١٩ / ٦٤ - ٦٥)، تفسير ابن كثير (٤ / ٤٤١ - ٤٤٢).

(٧٤) راجع ص ٦ من هذا البحث.

(٧٥) هذه الرواية أخرجهما أحمد (٣ / ١١٨)، وابن ماجه: كتاب المساجد والجماعات، باب أين يجوز بناء المسجد، رقم (٧٤٢). والحديث أخرجه البخاري ومسلم مطولاً وقد سبق تخريجه عندهما، انظر ص ٤١ من هذا البحث.

يا رسول الله هو في المسجد راقد، فجاء رسول الله ﷺ وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه وأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه، ويقول: قم أبا تراب قم أبا تراب»^(٧٦).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كنا نقل لبن المسجد لَبِنَةً لَبِنَةً، وكان عمار ينقل لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ، فمر به النبي ﷺ ومسح عن رأسه الغبار وقال: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية عَمَّارٌ يدعوهم إلى الله ويدعونه إلى النار»^(٧٧). وفي لفظ عند أحمد: «قال فرآه رسول الله ﷺ فجعل ينفض التراب عنه ويقول: يا عمار ألا تحمل لبنة كما يحمل أصحابك قال: إني أريد الأجر من الله، قال: فجعل ينفض التراب عنه...»^(٧٨).

وإن حادثة بول الأعرابي في المسجد مشتهرة بحيث تكاد لا تخفى على أحد، وإن قيمة الرفق والتيسير تبدو ظاهرة في تصرف النبي ﷺ مع الأعرابي؛ حيث لم يعنفه أو يلمه على الرغم من فعلته الشنيعة، وإنما علمه أن المسجد لا يصلح لمثل هذا الفعل، ونهى أصحابه عن إيذائه وعلمهم كيف يزيلون النجاسة وحسب. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «جاء أعرابي فبال في طائفة المسجد فَرَجَرَهُ النَّاسُ فنهاهم النبي ﷺ فلما قضى بوله أمر النبي ﷺ بذنوبٍ من ماء فأهريق عليه»^(٧٩). وتعليم النبي ﷺ الأعرابي أن هذه المساجد لا تصلح لما فعل، ورد في رواية لمسلم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابيٌّ فقام يبول في المسجد، فقال: أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ قال:

(٧٦) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب نوم الرجال في المسجد، رقم (٤٤١)، وفي غير موضع، ومسلم بزوائد أخرى: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب، رقم (٢٤٠٩).

(٧٧) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب مسح الغبار عن الرأس في سبيل الله، رقم (٢٨١٢)، وفي غير موضع، وأحمد (٥ / ٣)، وأبو داود: كتاب الطهارة، باب الأرض يصيبها البول، رقم (٢٨١٢)، وكتاب الصلاة، باب التعاون في بناء المسجد، رقم (٤٤٧).

(٧٨) مسند أحمد (٩٠ / ٣). قال الحاكم في المستدرک (١٦٢ / ٢): صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه بهذه السبابة.

(٧٩) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب يهريق الماء على البول، رقم (٢٢١)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، رقم (٢٨٤).

قال رسول الله ﷺ: لا تَزْرُمُوهُ^(٨٠) دَعُوهُ، فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القدر؛ إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن. أو كما قال رسول الله ﷺ، قال: فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فسنه عليه^(٨١).

وقد نص رسول الله ﷺ على قيمة الرفق والتيسير هذه في روايات أخرى للحديث منها: عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن أعرابياً بال في المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: دعوه وأهريقوا على بوله ذنوباً من ماء أو سجلاً من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين^(٨٢)».

وتظهر قيمة التيسير في كثير من الأحاديث والمناسبات، فقد ترك النبي ﷺ كثيراً من التطوعات خشية أن تفرض على الأمة، كما حصل في تركه (صلاة التراويح جماعة، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ صلى ذات ليلة في المسجد، فصلى بصلاته ناس، ثم صلى من القابلة فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ، فلما أصبح قال: قد رأيت الذي صنعتم، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أنني خشيت أن تفرض عليكم، وذلك في رمضان^(٨٣)».

كما يدل على قيمة الرفق والتيسير أيضاً كراهة النبي ﷺ أن يشدد المرء على

(٨٠) زرم البول بالكسر: انقطع، وأزرمه غيره، وفي الحديث «لا تزرموه» أي لا تقطعوا عليه بوله. انظر: مادة زرم: مختار الصحاح (١/ ١١٤)، ولسان العرب (١٢/ ٢٦٣).
(٨١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، رقم (٢٨٥).

(٨٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول النبي يسروا ولا تعسروا وكان يحب التخفيف، رقم (٦١٢٨)، وفي غير موضع، وأحمد (٢/ ٢٣٩)، وأبو داود: كتاب الطهارة، باب الأرض يصيبها البول، رقم (٢٨٠)، والترمذي: كتاب الطهارة، باب ما جاء في البول يصيب الأرض، رقم (١٣٧)، والنسائي: كتاب الطهارة، باب ترك التوقيت في الماء، رقم (٥٦).

(٨٣) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب تحريض النبي على صلاة الليل والنوافل من غير فرض، رقم (١١٢٩)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح، رقم (٧٦١).

نفسه ولو بالطاعة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فرأى جبلاً ممدوداً بين ساريتين فقال: ما هذا الجبل فقالوا: لزينب تصلي فإذا فترت تعلقت به فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا حُلُوه لِيُصَلَّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ فَإِذَا فَتَرَ فليقعد» ^(٨٤).

ومن رحمته صلى الله عليه وسلم بأصحابه ورفقه بهم أنه كان يتفقدهم ويهتم لأمرهم ويعلمهم ما ينفعهم ويجلوا عنهم همومهم، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم المسجد فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة فقال: يا أبا أمامة مالي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال: هموم لزممتني وديون يا رسول الله قال: أفلا أعلمك كلاماً إذا أنت قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك؟ قال: قلت بلى يا رسول الله قال: قل إذا أصبحت وإذا أمسيت اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال. قال: ففعلت ذلك فأذهب الله عز وجل همي وقضى عني ديني» ^(٨٥).

ومن هذه القيمة يتعلم أولياء الأمور ضرورة الاهتمام لأمر الرعية، والسؤال عن أحوالهم، ومد يد العون لهم؛ حتى وإن كان ذلك عن طريق الدعاء لهم، أو تعليمهم وإرشادهم إلى ما يصلحهم.

المطلب الثالث: أثر السنة في ضمان حرية الرأي والتعبير

إن المتتبع للسيرة العطرة للمصطفى صلى الله عليه وسلم يجد أنه عمل على غرس قيمة الحرية في نفوس أصحابه الكرام، وذلك لعلمه صلى الله عليه وسلم أن المسلم الحر هو الذي يُعوّل عليه في بناء حضارة الأمة وحفظ حقوقها، والسنة النبوية المطهرة مليئة بأحاديث تثبت ذلك وتدلل عليه، فكان صلى الله عليه وسلم يعتمد مبدأ الشورى في أمور كثيرة، وهذا من شأنه أن

(٨٤) أخرجه البخاري: كتاب التهجيد، باب ما يكره من التشديد في العبادة، رقم (١١٥٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد حتى يذهب عنه ذلك، رقم (٧٨٤).

(٨٥) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة، رقم (١٣٣٠). وجاء في عون المعبود (٤/ ٢٨٩): قال المنذري: في إسناد غسان بن عوف وهو بصري وقد ضعف.

يرسخ الحرية كقيمة حضارية في النفوس، كما كان يصغي لكل من يبدي رأيه أو يكلمه في أمر ما، وفيما يخص أحاديث المسجد، فإن في حديث ذي اليمين عندما راجع النبي ﷺ في أمر صلاته، دليلاً على حرية التعبير ومراجعة ولي الأمر.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «صلى بنا النبي ﷺ الظهر ركعتين ثم سلم، ثم قام إلى خشبة في مُقَدِّمِ المسجد فوضع يده عليها، وفي القوم يومئذ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فهابا أن يكلماه، وخرج سرعانُ الناس فقالوا: قَصُرَتِ الصلاة، وفي القوم رجل كان النبي ﷺ يدعوهُ ذا اليمين فقال: يا نبي الله أَنْسَيْتَ أَمْ قَصُرَتْ؟ فقال: لم أنس ولم تقصر قالوا: بل نسيت يا رسول الله قال صدق ذو اليمين، فقام فصلى ركعتين ثم سلم، ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول، ثم رفع رأسه وكبر، ثم وضع مثل سجوده أو أطول، ثم رفع رأسه وكبر»^(٨٦).

كذلك في حديث الرجل الذي كلم النبي ﷺ وهو قائم يخطب؛ كي يستسقي للناس، دليل على غرس تلك القيمة وترسيخها، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «بينما رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ جاءه رجل فقال يا رسول الله فَحَطَّ الْمَطْرُ فَادَعِ اللَّهَ أَنْ يَسْقِينَا، فدعا فَمَطَرْنَا فما كدنا أن نصل إلى منازلنا، فما زلنا نُمَطِّرُ إِلَى الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ. قال: فقام ذلك الرجل أو غيره فقال: يا رسول الله ادع الله أن يصرفه عنا، فقال رسول الله ﷺ: اللَّهُمَّ حَوِّالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا. قال: فلقد رأيت السحاب يتقطع يمينا وشمالاً يُمَطِّرُونَ وَلَا يُمَطِّرُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ»^(٨٧).

المطلب الرابع: أثر السنة في ترسيخ قيمة العفة والقضاء على سوء الظن

إن العفة وسلامة الصدر ونقاء السريرة وحسن الظن بالناس من الأخلاق التي حرصت السنة النبوية على غرسها في النفوس، وشجعت المسلمين على التحلي

(٨٦) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم: الطويل والقصير، رقم (٦٠٥١)، وفي غير موضع، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٣).

(٨٧) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب الاستسقاء على المنبر، رقم (١٠١٤)، وفي غير موضع، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

بها، ولكنها مع ذلك كله حثتهم على سد منافذ الشيطان، وأمرتهم أن يبتعدوا عن مواطن الشبهات. وما أحسن تصرف النبي ﷺ وأعظم دلالة على ذلك عندما كان يمشي مع زوجته صفية رضي الله عنها، ومرَّ بهما رجلان من الصحابة، فأخبرهما ﷺ أنه رسول الله وأن المرأة التي معه صفية؛ وذلك دفعًا لظن السوء، وقد ترجم مسلم للحديث الذي فيه هذه القصة بقوله: «باب بيان أنه يستحب لمن رئي خاليًا بامرأة وكانت زوجته أو محرماً له أن يقول: هذه فلانة ليدفع ظن السوء به» (٨٨)

عن صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ معتكفاً فأتته أزوره ليلاً، فحدثته ثم قمت لأنقلب، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال: النبي ﷺ على رسلكم إنها صفية بنت حيي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله قال: إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًا أو قال شيئاً» (٨٩).

ومن العفة صون اللسان عن التحدث بما ينبغي ستره وعدم إشاعته؛ لما فيه من الخصوصية التي يأبى كل صاحب مروءة وطبع سليم أن يتحدث بها ويكشفها للناس، وهذا ما حث عليه المصطفى ﷺ أصحابه عندما نبههم رجالاً ونساءً إلى عدم الحديث عما يكون بين الرجل وزوجته من علاقة شخصية أثناء الجماع. فقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ صلى بالناس مرة ثم أمرهم أن يبقوا في مجالسهم، ثم أقبل على الرجال فقال: «هل منكم الرجل إذا أتى أهله فأغلق عليه بابه، وألقى عليه ستره، واستتر بستر الله قالوا نعم، قال: ثم يجلس بعد ذلك فيقول فعلت كذا فعلت كذا قال: فسكتوا. قال: فأقبل على النساء فقال هل منكن

(٨٨) صحيح مسلم: كتاب السلام، (٤/١٧١٢).

(٨٩) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب هل يخرج المعتكف لحوادثه إلى باب المسجد، رقم (٣٢٨١)، وفي غير موضع، ومسلم: كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خاليًا بامرأة وكانت زوجته أو محرماً له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به، رقم (٢١٧٥).

من تحدث فسكتن فجئت فتاة كَعَاب^(٩٠). على إحدى ركبتيها وتناولت لرسول الله ﷺ ليراها ويسمع كلامها فقالت: يا رسول الله إنهم ليتحدثون وإنهن ليتحدثنه، فقال: هل تدرون ما مثل ذلك؟ فقال: إنما مثل ذلك مثل شيطانة لقيت شيطاناً في السكة ففضى منها حاجته والناس ينظرون إليه...»^(٩١).

المطلب الخامس: أثر السنة في ترسيخ قيمة الوفاء وتكريم أهل الفضل

لم يُعرَف الوفاء عن أحد من الناس كما عرف عن رسول الله ﷺ، فقد كان مشتهراً بوفائه حتى مع أعدائه، ولن أخوض في تفاصيل ذلك وذكر رواياته المتناثرة في كتب الحديث، بل أكتفي للتدليل عليه بذكر بعض الأحاديث التي تتعلق بالمسجد فقط.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «خطب النبي ﷺ فقال: إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختر ما عند الله، فبكى أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقلت في نفسي: ما يبكي هذا الشيخ إن يكن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختر ما عند الله، فكان رسول الله ﷺ هو العبد وكان أبو بكر أعلمنا. قال: يا أبا بكر لا تبك إن آمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر»^(٩٢).

وقد روى البخاري هذا الحديث من طريق أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما وفيها: أن

(٩٠) الكَعَاب: المرأة حين يبدو ثديها للنهود. انظر: القاموس المحيط ص ٨٦١ مادة (ك ع ب).
(٩١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٤٠)، وأبو داود: كتاب النكاح، باب ما يكره من ذكر الرجل ما يكون من إصابته أهله، رقم (١٨٥٩) وقد ورد تحريم ذلك في حديث أخرجه مسلم وغيره، لكنني ذكرت الحديث الذي في متن البحث؛ لأنه كان في المسجد بعد الصلاة. أما حديث مسلم فنصه: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها»، أخرجه في كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة، رقم (١٤٣٧).
(٩٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، رقم (٤٦٦)، وكتاب المناقب رقم (٣٦٤٥)، وأخرجه مسلم بألفاظ قريبة: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق، رقم (٢٣٨٢).

رسول الله ﷺ قال ما قاله لأبي بكر رضي الله عنه في مرضه الذي مات منه، وهذا يدل على عظيم وفائه ﷺ وحبه لأبي بكر رضي الله عنه واعترافه بفضله ونصرته له ولهذا الدين، فقد تذكر ذلك وصرح به وهو في مرض الموت، ومعلوم أن هذا يغرس في قلب المؤمن قيمة الوفاء والاعتراف بفضل أهل الفضل، فلا يصح أن يكون المؤمن جحودًا منكرًا الجميل مضيعًا المعروف.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصبٌ رأسه بخارقة فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنه ليس من الناس أحد آمن علي في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذًا من الناس خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن خلة الإسلام أفضل سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر»^(٩٣).

وفي السنة أيضًا أن النبي ﷺ ضرب خيمة في المسجد لسعد بن معاذ رضي الله عنه عندما أصيب في غزوة الخندق؛ ليزوره ويطمئن عليه من قريب؛ تقديرًا له واعترافًا بفضله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أصيب سعد يوم الخندق ... فضرب النبي ﷺ خيمة في المسجد؛ ليعوده من قريب»^(٩٤).

(٩٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، رقم (٤٦٧).
(٩٤) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الخيمة في المسجد للمرضى وغيرهم، رقم (٤٦٣)، وكتاب المغازي (٤١٢٢) وكتاب الجهاد والسير (١٧٦٩)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم، رقم (١٧٦٩).

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، صاحب القيم الحضارية والمثل العليا، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد تم عرض جملة من أحاديث المصطفى ﷺ بلغ عددها ستين حديثاً نبوياً شريفاً، معظمها في الصحيحين،؛ حصلت أغلبها في المسجد أو قيلت فيه، ومنها تم استنباط بعض القيم الحضارية الرائعة التي حرصت السنة النبوية الشريفة على غرسها وترسيخها في نفوس أتباع هذا الدين، فاستنبطت القيم الاجتماعية التي توجه السلوك وتضبط التصرفات الإنسانية المختلفة، وتحث على وحدة المجتمع وتماسكه، والتزام أفرادها بالنظام والانضباط، وتقوية روابط الإخاء والمساواة بين المسلمين، وتحرص على دمائهم وأرواحهم، وتأمرهم بالإتقان وإجادة الأعمال كلها، دينية كانت أو دنيوية.

كما برزت القيم التي تحث على رعاية المرأة، واحترامها والاهتمام بحقوقها، والقيم التي تهتم بالفقراء والمساكين والمحتاجين وترعاهم، كما وجدت القيم التي تراعي فطرة الإنسان وتلبي حاجته إلى الترفيه والترويح عن النفس بالمباح المشروع.

واستنبطت القيم الأخلاقية التي تحث على الصبر والإخلاص والتواضع والوفاء والعفة والرفق والتيسير، واستخلصت القيم الذوقية والجمالية التي تحث على أن يكون المرء نظيفاً في بدنه وثوبه ومكانه، وألا تقع عينه على قبيح، وألا يشم إلا أطيب ريح ولا يشم منه إلا كذلك، وألا يسمع إلا أحسن الأصوات، فيصبح حسه الذوقي مرهفاً، فيشمئز من كل قدر وقبيح.

وليس هذا مجرد نظريات فكرية أو تصورات خيالية، فقد ثبت بالدليل القاطع أن جيلاً تربى في مدرسة النبي ﷺ على هذه القيم، وترسخت في نفوس أصحابه، فأتت أكلها وأنتجت ثمارها اليانعة الطيبة، فتحول من جيل أقرب إلى البداوة في قيمه ومثله، وأشبه بمن يعيش حياة الغاب، إلى جيل راقٍ شامخٍ في قيمه

رائع في مثله، فتَوَجَّه سلوكه الاجتماعي إلى كل خير، وضبطت تصرفاته الإنسانية المختلفة بضوابط الشريعة الإسلامية، فبعد أن كان يعيش في مجتمعات متناحرة متفرقة تغلب عليها العشوائية والفوضى، صار مجتمعًا موحدًا منظمًا يتبع منهجًا واحدًا واضحًا، وبعد أن كان يحتقر المرأة ويسلبها حقوقها أصبح يحترمها ويهتم بها ويعطيها حقوقها، وصار يهتم بالفقراء والمساكين والمحتاجين ويحاول أن يحسن أوضاعهم، ويحافظ على أرواح المسلمين ودمائهم، بل يسعى للترفيه والترويح عنهم.

وبعد أن ترسخت القيم الأخلاقية في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم، رأيتَ قَمَمًا في الأخلاق والذوق والجمال، فبعد أن كان الرجل منهم أشعث أغبر لا يهتم بمظهره ولا مخبره، صار عَلمًا في النظافة والطهارة، و صار المجتمع ينبذ كل قبيح ومؤذٍ حتى صاحب الروائح الكريهة، بل يؤمر به فيخرج بعيدًا عن تجمع الناس. وسادت قيم الرحمة والرفق والتسامح، وضُمنت الحريات وصار لكل أحد الحق في التعبير عن رأيه، وله أن يحاور ولي الأمر ويراجعه، كما اتسم هذا المجتمع بالعفة والوفاء وتكريم أهل الفضل والسابقة.

هذا غيُض من فيض - كما يقال - فالسنة النبوية المطهرة بما احتوته من قيم حضارية راقية في مختلف المجالات، وترسيخها لهذه القيم في نفوس الصحابة، جعلت منهم جيلًا رائدًا فتح الدنيا وساد العالم، فإذا كان تأثيرها قد نتج عنه العزة والكرامة والرقي والسؤدد في الدنيا، مع رجاء الأجر والثواب في الآخرة، فما بالنا اليوم لم نحقق شيئًا مما سبق، وحال المسلمين إلى تراجع مستمر؟! مع أن السنة التي بين أيدينا هي السنة لم تتغير، والقيم الحضارية لا تزال موجودة فيها؟! ولا شك أن لهذا التراجع عوامل وأسبابه التي أدت إلى ضعف أو انعدام أثر السنة في تعديل مسار المسلمين، والنهوض بهم إلى مستويات تليق بالدين الذي يحملونه، وتؤهلهم لريادة العالم وبناء حضارته، ويبدو أن هذه العوامل متعددة ومتشعبة، و من أبرزها - حسب رأبي - ما يأتي:

أ- الابتعاد عن العقيدة الصحيحة، فالعقيدة من أبرز العوامل الدافعة للعمل

والإنتاج، ولذلك فإن مساحة شاسعة في القرآن الكريم ركزت على العقيدة، وبالذات الإيمان بالله تبارك وتعالى، وكذلك السنة؛ لأن الإيمان الحقيقي بالله سبحانه يجعل المرء قويًا فاعلاً يخلع عنه كل ارتباط بغيره، مع استحضار معيته ومراقبته في كل وقت وكل عمل، فيتحرى المؤمن أن يكون عمله خالصًا لوجه الله تعالى، فتنطلق أقواله وأفعاله بتلقائية وعفوية متسمة بالرقى الحضاري النابع من تعاليم هذا الدين، ولا حاجة عندئذٍ لرقيب أو حسيب يَعدُّ على المرء حركاته وسكناته؛ فالعقيدة تدفعه إلى مراقبة الله تعالى وحده لا شريك له.

ب- الابتعاد عن القدوة الصالحة، فالصحابه رضوان الله عليهم اقتدوا بالنبي ﷺ، والتابعون اقتدوا بالصحابه وهكذا من بعدهم فنهضوا وسادوا وبنوا حضارة العالم، فالقدوة مهمة في حياة الناس، ومن كانت قدوته صالحة راقية كان كذلك، ومن كانت قدوته تافهة منحطة لا يمكن أن يكون صاحب حضارة أبدًا، وكلما ابتعد المسلم عن الاقتداء برسول الله ﷺ ضل وزل وابتعد عن الحضارة.

ج- عدم الجدية في التغيير إلى الأفضل، فالرغبة في حياة أفضل ومكانة تليق بالأمة المسلمة هي حلم أغلب المسلمين، لكن هذه الرغبة تفتقر إلى المصادقية والجدية في التغيير؛ لأن الأمانى وحدها لا تصنع الحضارات، بل لا بد من الفاعلية والمبادرة، وأن يبدأ كل مسلم بنفسه وأسرته وهكذا، فيتلمس هذه القيم الحضارية ويحولها إلى واقع عملي فتكون أقواله وأفعاله وهيئته كلها قيمًا، وإذا صلح الأفراد صلحت الأمة.

وتحول الأمة من القول إلى الفعل من أهم دلائل الجدية، وكل هذه القيم بحاجة إلى تطبيق وممارسة، ولا يكتفى بالقول أو النصح والإرشاد إليها فحسب، بل لا بد من التطبيق.

د- تراجع أثر العلماء والمثقفين في بيان وتجليه القيم الحضارية في ديننا الإسلامي، حيث اقتصر أثر بعض العلماء والمثقفين على بحث أمور تتعلق بعلم الكلام والحلال والحرام ونحو ذلك، ولم يوضحوا للعامة أو لغير المسلمين تلك القيم المنتشرة في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فبيان هذه القيم يساعد ولا شك على

الرقمي بهذه الأمة واستعادة مجدها وحضارتها.

هـ- إبعاد المسجد عن دوره التربوي والاجتماعي المرجو منه؛ حيث فقد فاعليته وتأثيره، وتحول إلى مكان للصلاة فقط، يُفتح قبل وقت الصلاة ويُقفل بعدها مباشرة، وربما لا يتم الدخول إليه إلا ببطاقة تعريف كما في بعض البلدان الإسلامية، ولا يمكن للقيم الحضارية أن تؤتي أكلها ودور المسجد سطحي هامشي.

و- كما أن لبعض العوامل الخارجية أثرها في تراجع دور الأمة المسلمة، وتخليها عن قيمها الحضارية، مثل تأثير ثقافة الأقوى وسيطرة حضارته وبعض قيمه، وهذه العوامل ليس لها كبير تأثير إذا ما تلافت الأمة العوامل الأخرى، وعادت إلى كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ، وطبقت ما فيهما؛ لأن من خصائص هذا الدين أنه يؤثر ولا يتأثر ويستوعب الأمم الأخرى ولا يستوعب، لكنه بحاجة إلى رجال فعّالين لا قوَّالين.

فأسأل الله سبحانه وتعالى أن يردنا إلى ديننا رداً جميلاً، وأن يرفعنا بهذا الدين، وينفعنا بسنة نبينا ﷺ، فتسود قيم الإسلام وترقى حضارته ويحكم شرعه، وأن يجعلنا من الفعالين لا القوالين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر و المراجع

القرآن الكريم

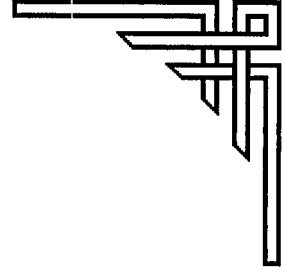
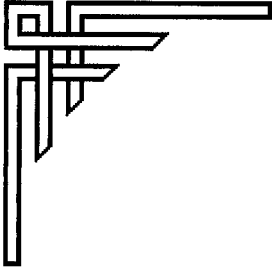
- الأحاديث المختارة، محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي (ت: عبد الملك عبد الله بن دهيش، ط ١ ١٤١٠هـ، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة).
- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: علي محمد البجاوي، ط ١ ١٤١٢هـ / ٢٩٩١م، دار الجليل، بيروت).
- تحفة الأحوذى، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري (د.ت، دار الكتب العلمية، بيروت).
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير (ط ١٤٠١هـ، دار الفكر، بيروت).
- التمهيد، يوسف بن عبد الله بن عبد البر (ت: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، ط ١٣٨٧هـ، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب).
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري (ط ١٤٠٥هـ، دار الفكر، بيروت).
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي (ت: أحمد عبد العليم البردوني، ط ٢ ١٣٧٢هـ، دار الشعب، القاهرة).
- الحياة في محراب الصلاة، مصطفى مشهور (ط ١٤٠٦هـ / ٦٨٩١م، الاتحاد الإسلامي للطلاب، ميونخ ألمانيا).
- خلاصة البدر المنير، عمر بن علي بن الملقن الأنصاري (ت: حمدي عبد الحميد إسماعيل السلفي، ط ١ ١٤١٠هـ، مكتب الرشد، الرياض).
- رد المحتار على الدر المختار، المشهور بحاشية ابن عابدين، محمد أمين بن عابدين (ط ٢ ١٣٨٦هـ، دار الفكر، بيروت).
- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد بن ماجه القزويني (ترقيم: محمد فؤاد عبد

- الباقى، ط ١٩٧٥ م، دار التراث العربى، بيروت).
- سنن أبى داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ترقيم: محمد محيى الدين عبد الحميد، د.ت، المكتبة العصرية، بيروت).
- سنن الترمذى، محمد بن عيسى بن سَورَة (ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، ط ١٤٠٨هـ / ٧٨٩١م، دار الكتب العلمية، بيروت).
- سنن الدارمى، عبد الله بن عبد الرحمن (ت: فواز أحمد زمزلي، وخالد السبع العلمى، ط ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربى، بيروت).
- سنن النسائى، أحمد بن شعيب (ت: عبد الفتاح أبو غدة، ط ٢ ١٤٠٦هـ / ٦٨٩١م، مكتب المطبوعات الإسلامىة، حلب).
- شرح النووى على صحيح مسلم، أبو زكريا يحيى بن شرف النووى (ط ٢ ١٣٩٢هـ، دار إحياء التراث العربى، بيروت).
- صحيح ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة (ت: محمد مصطفى الأعظمى، ط ١٣٩٠هـ / ٠٧٩١م، المكتب الإسلامى، بيروت).
- صحيح البخارى، محمد بن إسماعيل البخارى (مراجعة محمد على القطب وهشام البخارى، والترقيم لمحمد فؤاد عبد الباقي، ط ٢ ١٤١٨هـ / ٧٩٩١م، المكتبة العصرية، بيروت).
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري (ت: محمد فؤاد عبد الباقي، د.ت، دار إحياء التراث العربى، بيروت).
- عون المعبود شرح سنن أبى داود، محمد شمس الحق العظيم أبادى (ط ٢ ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت).
- غريب الحديث، أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابى (ت: عبد الكرىم إبراهيم العزباوى، ط ١٤٠٢هـ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة).
- فتح البارى بشرح صحيح البخارى، أحمد بن حجر العسقلانى (ت: محب الدين الخطيب، د.ت، دار المعرفة، بيروت).
- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز أبادى (ت: مكتب تحقيق التراث فى

- مؤسسة الرسالة، ط ١٤١٦هـ / ٦٩٩١م، مؤسسة الرسالة، بيروت).
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور (ط ١ د.ت، دار صادر، بيروت)
- المجموع شرح المهذب، للإمام النووي (ت: محمود مطرحي، ط ١٤١٧هـ، دار الفكر، بيروت).
- المحلى، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت: عبد الغفار سليمان البنداري، د.ت، دار الفكر، بيروت).
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (د.ت، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت).
- المستدرک علی الصحیحین، محمد عبد الله الحاكم (ت: مصطفى عبد القادر عطا، ط ١٤١١هـ / ١٩٩١م، دار الكتب العلمية، بيروت).
- مسند الإمام أحمد بن حنبل (د.ت، مؤسسة قرطبة، مصر).
- مغني المحتاج شرح المنهاج، محمد الخطيب الشربيني (د.ت، دار الفكر، بيروت).
- مواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبد الرحمن المغربي (ط ٢ ١٣٩٨هـ، دار الفكر، بيروت).
- نصب الراية لأحاديث الهداية، عبد الله بن يوسف الزيلعي (ت: محمد يوسف البنوري، ط ١٣٥٧هـ، دار الحديث، مصر).
- النهاية في غريب الحديث والأثر، المبارك بن محمد بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير (ط ١٣٩٩هـ / ٩٧٩١م دار الفكر، بيروت).
- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، محمد بن علي الشوكاني (الطبعة الأخيرة، د.ت، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت).

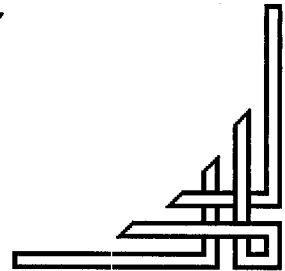
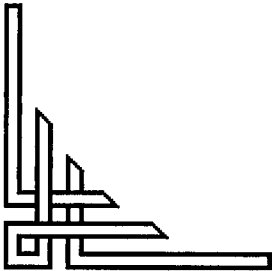
الجلسة الثانية

- قيمة "المستقبلية" في الحديث النبوي:
تأليف: إلياس بلكا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد بن عبد الله - فاس.
- مقاصد العلم والمعرفة في السُّنة النبويَّة:
أ. د. الفاتح الحبر عمر أحمد، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان.
- العلاقة (التفاعلية) بين المعرفة والسلوك من خلال السُّنة النبويَّة المطهرة:
بقلم أ. د. أحمد عثمان رحمان، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دبي
- السُّنة النبويَّة وَالْقِيمُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي الْإِبْدَاعِ الْأَدَبِيِّ
الدكتور بنعيسى أحمد بويوزان، جامعة محمد بن عبد الله، فاس، الكلية المتعددة التخصصات - تازة، المملكة المغربية.
- أصول التعليم والتربية وقيمتها المعرفية من خلال السُّنة النبويَّة:
إعداد: الدكتور عبدالفتاح الزيني، جامعة الحسن الثاني المحمدية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بنمسك الدار البيضاء المغرب.
- قيمة الحوار وأبعادها الحضارية في السُّنة النبويَّة:
د. محمد زرمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة باتنة، الجزائر.



قيمة " المستقبلية "
في الحديث النبوي.

تأليف : إلياس بلكا.
أستاذ الدراسات الإسلامية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد بن عبدالله - فاس



مقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وحده ، عالم الغيب والشهادة ، الكبير المتعال . وأفضل الصلاة وأتم التسليم على النبي الأمي ، خير المعلمين والمرين ، وعلى آله المطهرين وصحبه الكرام البررة أجمعين .

وبعد، فإنَّ حديث رسول الله ﷺ بمعنى ما أضيف إليه - منيع ثر للعلم والحكمة والحضارة. تنقضي الأعمار دون الإحاطة به وبفوائده . ولم يترك النبي الكريم بابا من أبواب الوجود إلا وأشار إليه وبين بعض ما فيه، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: « قد تركنا رسول الله وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما »^(١)

إلا أن عناية العلماء بأبواب الحديث درجات متفاوتة، إذ بالغوا في دراسة بعضها كالعبادات وأكثر المعاملات وكثير من العقائد، بخلاف الأحاديث التي تعرضت لقواعد العمران وسنن الأنفس والمجتمعات وآداب الحضارة... ونحوها. يقول الشيخ محمد عبده: "لم يقصر المصنفون من المتقدمين والمتأخرين في شيء من علم الكتاب والسنة كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن الله تعالى في الأمم، والجمع بين النصوص في ذلك والحث على الاعتبار بها.."^(٢) لكننا لو تتبعنا كلام العلماء في شرح الأحاديث لوجدنا جملة صالحة منه تتعلق بالقيم الحضارية، لذلك فالمطلوب هو استيعاب هذا التراث أولا، ثم البناء عليه وتطوير آفاقه.

لذلك فإن هذا البحث الذي أقدمه مساهمة بسيطة في دراسة الحديث النبوي

١- رواه الإمام أحمد في المسند، ١٥ / ٥٠٣، وهو عن ابن نمير عن الأعمش عن منذر الثوري عن أشياخ من التميم عن أبي ذر. وقال محققه حمزة أحمد الزين - وهو الذي أكمل عمل أحمد شاكر في إخراج المسند -: إسناده ضعيف لجهالة الراوي عن أبي ذر ، ولكنه محمول على أنه صحيح ، لأن الثقة إذا حدث عن كثيرين فهو متصل.. المسند، ١٥ / ٥٠٣ ، حديث رقم ٢١٢٥٨ . وما أظن الحديث يصح بمجرد أن يحدث به الثقة عن جماعة. لكن الحديث رواه الطبراني بطريق آخر في المعجم الكبير، باب من غرائب مسند أبي ذر، رقم ١٦٤٧، ورجاله - كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (كتاب علامات النبوة، باب فيما أوتي من العلم عليه السلام)، ٨ / ٤٧١ رجال الصحيح. وأخرجه أيضا البزار في مسنده عن أبي الطفيل عن أبي ذر، رقم الحديث ٣٨٩٧.

٢- تفسير المنار، للشيخين محمد عبده ورشيد رضا، عند الكلام على آية رقم ٦٨ من سورة الأنعام، ٧ / ٤١٦.

من حيث ما يحتويه من أصول وتوجيهات تخص الاجتماع البشري، خاصة ما يتعلق منها بالقيم المؤسسة للحضارات والثقافات. وقد وقع اختياري على قيمة المستقبل: استشرافا وإعدادا ودراسة... ذلك أن الاهتمام بالمستقبل ليس ترفا فكريا بل هو ضرورة يأمر بها الدين وتفرضها التغيرات المتسارعة التي يعرفها عالمنا المعاصر. ويطلق على هذا الحقل الدراسي الحديث النشأة اسم: "المستقبلية"، أو علم المستقبل.. ويعنون به: مجموعة المناهج والأبحاث حول التطور المستقبلي للإنسانية - أو لقسم منه، أو لقضية من قضاياها.. - تمكن من استخلاص عناصر التوقع.^(٣)

وهذا الجانب بالضبط - من السنة - لم يحظ بما يستحقه من دراسات وبحوث، وإن كتب بعضهم في قضايا قريبة، أهمها "الرسول باعتباره مخبرا عن المستقبل".. وقد توسع في هذا القاضي عياض في كتابه الشفا، وكتب محمد الندوي "نبوءات الرسول: ما تحقق منها وما لم يتحقق"، وصدر مؤخرا لحسام الأسعد "نبوءات الرسول".... واعتنى المحدثون من قديم التأليف في إخبارات الرسول عليه الصلاة والسلام بمستقبلات معينة، أهمها الفتن القادمة وأشراط الساعة، منهم نعيم بن حماد في كتابه "الفتن"، وابن كثير في "النهاية في الفتن والملاحم"، ومحمد البرزنجي في "الإشاعة لأشراط الساعة"، وصديق القنوجي في "الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة".... إن هذه الكتب وقضاياها ليست موضوع بحثي هذا، ذلك لأن إخبارات النبي الكريم بالمستقبل تعتبر جزءاً من وظيفته الرسالية، فهي من الغيب الموحى به، بينما الذي أود دراسته هنا هو - بالدرجة الأولى - تعامل النبي ﷺ مع المستقبل باعتباره إماما وبشرا مجتهدا، ينظر إلى المستقبل ويعد له ويخطط ويفكر فيه دون أن يكون بالضرورة مؤيدا في

٣ - راجع حول مفهوم "المستقبلية": مقال (حاجتنا إلى علوم المستقبل)، لمحمد بريش، بمجلة المستقبل العربي، عدد ١٤٤، ص ٢١ فما بعدها. وانظر في تاريخ الاهتمام البشري بالمستقبل منذ البداية وصولاً إلى ظهور "الدراسات المستقبلية المعاصرة" .. كتاب: نحن والمستقبل، لقسطنطين زريق، خاصة الفصل الأول، ص ١٧ إلى ٣٦.

ذلك بوحى مباشر وصريح يخبره عنه ويوجهه.. والدراسات في هذا المنحى قليلة، أكثرها تهتم بمسائل محددة لا بالرؤية الشاملة للمستقبلية النبوية، مثل كتاب "في السيرة النبوية: قراءة لجوانب الحذر والحماية"، لإبراهيم أحمد.. لذا سيلاحظ القارئ عدم اعتمادي على هذه الكتب وأمثالها. ورغم ذلك فإنني تعرضت أيضا لموضوع الإخبار النبوي بالمستقبل، وذلك بشكل محدود بآخر هذه الدراسة، لما لذلك من أهمية خاصة اليوم، حيث نحتاج إلى فقه صحيح لهذه الإخبارات يمنع ما يمكن أن يسببه سوء فهم بعضها من خطأ أو انحراف.

وقد قسمت هذا البحث إلى ستة مباحث: أولها يؤصل للمستقبلية من السنة الشريفة. والثاني يتعلق بالتفرقة الكبرى التي عقدها الرسول عليه السلام بين طريقتين بشريتين في توقع المستقبل: طريقة علمية منهجية، وأخرى تنبؤية خرافية. ثم تعرضت في المبحث الثالث لأسس الاستعداد النفسي للتعاطي مع مشكلات المستقبل من خلال الحديث. أما الرابع فهو استقراء لبعض أبرز التطبيقات النبوية لقيمة المستقبلية في حياته ﷺ.. بينما خصصت الخامس لأداب التعامل مع شؤون المستقبل، وجاء المبحث الأخير لإثارة ما سميته بـ "فقه السنة المستقبلية". وختمت في النهاية بأهم النتائج والتوصيات.

إن غاية هذا البحث هي الكشف عن "المستقبلية" في السنة النبوية باعتبارها قيمة حضارية كبيرة ومؤثرة في تطور الأفراد والمجتمعات.

المبحث الأول: النبي يؤسس للمستقبلية.

والدارس لسنة الرسول عليه الصلاة والسلام يجد توجيهات واضحة للتعامل مع المستقبل باعتبارها مجالا للنشاط البشري، وليس حقلا مقفلا أمامه. ويشير الحديث النبوي إلى أن الكون يسير وفق نظام صارم من السنن والقواعد، وأن إدراك هذا النظام يسمح بالتوقع الصحيح لكثير من شؤون المستقبل.. لذا نستطيع التأصيل للمستقبلية انطلاقا من السنة النبوية.

أولا - السننية في الحديث:

علم السنن: إن من أهم المداخل لتجديد الدرس الحديثي الاهتمام بهذه السنن والقيم التي تنثر الكلام عليها في عدد كبير من الآيات والأحاديث... لهذا دعا محمد عبده إلى تأسيس علم كفائي جديد سماه "علم السنن"، قال: إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه. فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال وبينها العلماء بالتفصيل - عملا بإرشاده - كالتوحيد والأصول والفقه. والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة^(١).

التوقع فائدة السننية: ومن أهم وظائف علم السنن أو فقه السنن: وظيفة التوقع. لذلك يقول سبحانه عن المشركين: ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۗ وَلَن نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۗ ﴾ (١٣) ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ (فاطر ٢٢)

. أي هل ينتظرون ما سيقع في المستقبل، وكيف غاب عنهم أن المستقبل سيكون كالماضي، ما دامت هناك عادة جارية وما دام أن الحياة تسير على سنن ونظام معلومين... فهل ينتظرون مجرد التحقق، وحينئذ لن ينفعهم الندم.

أهمية السنة في علم السنن: ولقد قطع الفكر الإسلامي المعاصر أشواطاً في طريق تحقيق ما دعا إليه محمد عبده. لكن يؤخذ على هذه الجهود إهمالها دراسة السنة واستثمارها في العلوم الإنسانية وفي مجال الحضارة بشكل عام.. فكاد البحث المعاصر الخاص بهذا الجانب ينحصر في القرآن الكريم دون الحديث

٤ - المنار، ٤ / ١٣٩، آل عمران .

النبوي^(٥). وهذا رغم وعي الدارسين بضرورة الجمع بين النصين، يقول الأستاذ زيدان: سنن الله تعالى التي بينها الله في القرآن الكريم أو بينها الرسول ﷺ جديرة بالدراسة والفهم، بل إن دراستها وفهمها من الأمور المهمة جدا والواجبة ديانة، لأن معرفتها معرفة لبعض الدين^(٦).

ورب قائل يقول: كيف نبحت الحديث النبوي على هذا النهج وندونه ونضبط مسأله فيكون علما مستقلا. وهذا شيء لم يفعله السلف، والصحابة خاصة. وقد رد الشيخ عبده هذا بأن الصحابة لم يدونوا العلوم الشرعية الأخرى، ونقل عنه تلميذه رشيد رضا قوله: إنني لا أشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله من ذكرها. يعني أنهم بمالهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم، ومن التجارب والأخبار في الحرب وغيرها وبما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط، كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم التي استولوا عليها... وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم النظري المحض، وكذلك كانت علومهم كلها. ولما اختلفت حالة العصر اختلافا احتاجت معه الأمة إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد وغيرها كانت محتاجة أيضا إلى تدوين هذا العلم^(٧).

أمثلة من سنن الحديث: وقد أرشدنا النبي عليه السلام إلى وجوب احترام القوانين التي وضعها الله تعالى في الكون، فمن ذلك أنه حين كسفت الشمس واتفق أن مات ذلك اليوم ابنه إبراهيم، وربط الناس بين الأمرين ربطا سببيا... قال: إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فصلوا

٥ - راجع نماذج لهذا في: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، لعبد الكريم زيدان. سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، لمحمد هيشور. منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، أمريكا.

٦ - السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، ص ١٦.

٧ - المنار، ٤ / ١٣٩.

وادعوا الله^(٨). لذلك جاء الحديث النبوي بعدد كبير من هذه القوانين الجزئية التي قدر الله أن يسير عليها العالم. أذكر منها:

أ- سنة الحفاظ على النظام العام: فعن الصديق أن النبي ﷺ قال: إن الناس إذا رأوا المنكر، ولا يغيرونه، أو شك أن يعمهم الله بعقابه.^(٩) قال المناوي: " أفاد الخبر أن من الذنوب ما يعجل الله عقوبته في الدنيا، ومنها ما يمهل إلى الآخرة. والسكوت عن المنكر يتعجل عقوبته في الدنيا بنقص الأموال والأنفس والثمرات وركوب الذل من الظلمة للخلق."^(١٠)

ب- سنة عاقبة الظلم والتفكك الاجتماعي: عن أبي بكره رفعه: ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم^(١١).

ج- سنة فساد الأمم: روى ابن عمر أن النبي ﷺ قال: خمس إذا ابتليت بهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم. ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين وجور السلطان عليهم. ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء. ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدوا من غيرهم. وما

٨- رواه الأئمة الستة والدارمي وأحمد... أكثرهم في الكسوف من كتاب الصلاة، وهذا لفظ البخاري عن المغيرة بن شعبة، باب الصلاة في كسوف الشمس، كتاب الكسوف، حديث رقم ١٤٠٣. وراجع ما كتبه تحت عنوان: "الدين وظاهرة الكسوف" في كتابي: "مقدمة في التنجيم وحكمه في الإسلام"، ص ١٣٧ إلى ١٥٣.

٩- أخرجه أبو داود، ك الملاحم، ب الأمر والنهي، ٤٣٣٨. وابن ماجه، ب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ك الفتن، ٤٠٥. والترمذي وصححه، ب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، ك الفتن، ٢١٦٨. وهو أول أحاديث مسند الإمام أحمد، ١/ ١٦٥، وقد صححه أحمد شاكر. ونقل محمد المناوي في شرحه - المسمى فيض القدير، ٢/ ٥٠٦ - تصحيح النووي للحديث. ورواه كذلك أبو يعلى في مسنده، أحاديث ١٢٣ إلى ١٢٧، في مسند أبي بكر. والبيهقي في السنن الكبرى، ب ما يستدل به على أن القضاء.. من كتاب آداب القاضي، ١٠/ ٩١. غير أن في بعض الروايات: وإذا رأوا الظالم، ولم يأخذوا على يديه.

١٠- فيض القدير، ٢/ ٥٠٥.

١١- رواه أبو داود، ب في النهي عن البغي، ك الأدب، ٤٩٠٢. والترمذي، ب ٥٧، ك صفة القيامة والرقائق، ٢٥١١، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه، ب البغي، ٤٢١١. وأحمد في مسند أبي بكر، ح ٢٠٢٥٢، وصححه أحمد شاكر، ١٥/ ١٩٧. والحاكم، تفسير سورة النحل ٣٣٥٩، البر والصلة ٧٢٨٩-٧٢٩٠، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي في التلخيص. المستدرک، ٢/ ٣٨٨، و ٤/ ١٧٩.

لم تحكم أمتهم بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم^(١٢).

ثانياً - أصل اعتبار المآل:

هذا من أعظم الأصول - في السنة النبوية - التي تدل على لزوم النظر في المستقبل ومراعاته. يقول الشاطبي: "النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة. وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل. فقد يكون مشروعاً لمصلحة فيه تستجلب أو لمفسدة تدرأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه. وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك"^(١٣). وفي جميع هذه الحالات لا يصح إطلاق القول بالمشروعية أو بعدمها إلا بعد مراعاة المآل، قال: "وهو مجال للمجتهد صعب المورد، إلا أنه عذب المذاق، محمود الغب، جار على مقاصد الشريعة."^(١٤)

المآل نظر مستقبلي: إن "اعتبار المآل" هو نوع من الموازنة بين ظاهر الدليل الشرعي ونتائجه من مصالح أو مفسد، فهو الأثر المترتب عن الفعل. لذلك عرف محمود عثمان المآل بأن "يأخذ الفعل حكماً يتفق مع ما يؤول إليه، سواء أكان الفاعل يقصد ذلك الذي آل إليه الفعل أم لا يقصده. فإذا كان الفعل يؤدي إلى مطلوب فهو مطلوب، وإن كان لا يؤدي إلا إلى شر فهو منهي عنه."^(١٥) أما الأستاذ الريسوني فقال: "معناه النظر فيما يمكن أن تؤول إليه الأفعال والتصرفات

١٢ - ذكرت الحديث مختصراً، وقد أخرجه ابن ماجه، ب العقوبات، ك الفتن، ٤٠١٩. و الحاكم في كتابه المستدرک على الصحيحين، ك الفتن والملاحم، ٨٦٢٣، وصحح إسناده، ووافقه شمس الدين الذهبي، ٥٨٣ / ٤. ورواه أيضاً الطبراني عن شيخه عبد الرحمن أبي زرع في المعجم الأوسط (طبعة دارالحرمين)، ٤٦٧١، وصححه السيوطي في الجامع الصغير، ح ٣٩٤٥، ٦٠٢ / ٣. ورواه البزار في مسنده (وهو البحر الزخار)، ١٦٧٦، قال الهيثمي في المجمع، ب ما نهي عن قتله من النساء، ك الجهاد، ٥٧٣ / ٥: رجاله ثقات. كما ذكر له ابن حجر شواهد متعددة في: بذل الماعون، ص ٢٠٩.

١٣ - الموافقات، ١٧٧ / ٥.

١٤ - الموافقات ١٧٨ / ٥، والغب العاقبة. ١٤.

١٥ - القاموس المبين في اصطلاحات الأصوليين، لمحمود حامد عثمان، ص ١٩٢.

والتكاليف موضوع الاجتهاد والإفتاء والتوجيه وإدخال ذلك في الحسبان عند الحكم والفتوى." (١٦) ويبدو لي أن أدق تعريف لاعتبار المآل هو تعريف الأستاذ الأنصاري: "أصل كلي يقتضي اعتباره تنزيل الحكم على الفعل بما يناسب عاقبته المتوقعة استقبالا". (١٧) وإنما وجب اعتبار المآل لأنه لا يتم النظر في الأسباب إلا مع استحضار المسببات، قال الشاطبي: "الأعمال مقدمات لنتائج المصالح، فإنها أسباب لمسببات هي مقصودة للشارع، والمسببات هي مآلات الأسباب، فاعتبارها في جريان الأسباب مطلوب، وهو معنى النظر في المآلات." (١٨)

وقد فرع الشاطبي على هذا الأصل العظيم أربعة قواعد شرعية: الذرائع، والحيل، ومراعاة الخلاف، والاستحسان. (١٩)

ثم اعتبر الشاطبي أن الأدلة الشرعية والاستقراء التام يدلان على أن المآلات معتبرة في أصل المشروعية. (٢٠) وأقتصر من هذه الحجج على حديثين: .

—الحديث الأول: لعائشة رضي الله عنها، قال لها النبي ﷺ: لولا حداثة قومك بكفر- وفي لفظ لولا أن قومك حديث عهدهم بكفر، وفي آخر: بجاهلية - لنقضت الكعبة، فجعلت لها بايين... (٢١).

وقد بوب البخاري على هذا الحديث في كتاب العلم: باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه. قال الكشميري: الاختيارات أي الجائزات، يريد أن العمل بالمرجوح مع العلم بالراجح جائز إذا كانت فيه مصلحة. (٢٢) وفي الفتح: "خشي أن يظنوا لأجل قرب

١٦ - نظرية المقاصد، ص ٦٧.

١٧ - المصطلح الأصولي عند الشاطبي، لفريد الأنصاري، ص ٤٥٧.

١٨ - الموافقات، ١٧٨/٥.

١٩ - راجع التفاصيل في: الموافقات، المسألة العاشرة من مسائل الاجتهاد، ١٨٢/٥ فما بعدها.

٢٠ - الموافقات، ١٧٩/٥.

٢١ - انظر تمام الحديث في: البخاري، ب من ترك بعض الاختيار، ك العلم، ١٢٦. وقد تكرر كثيرا: ١٥٨٣ إلى ١٥٨٦، ٣٣٦٨. مسلم، ب في نقض الكعبة وبنائها، ك الحجج. الترمذي، ما جاء في كسر الكعبة، ٨٧٥. النسائي، ك بناء الكعبة، ٢١٤/٥. ابن ماجه، ب الطواف بالحجر، ٢٩٥٥. كلهم في المناسك، وكذلك أحمد في مسند عائشة، ٢٤١٧٨. والطبراني في الأوسط (طبعة المعارف)، عن شيخه إبراهيم القيسراني، ٢٣٤٥.

٢٢ - فيض الباري، ١/٣١٤.

عهدهم بالإسلام أنه غيّر بناءها لينفرد بالفخر عليهم في ذلك^(٢٣). ولذلك اعتبر القرطبي أن الحديث حجة لمالك على القول بسد الذرائع^(٢٤). إذ في الحديث: ترك بعض الأمور التي يستصوب عملها إذا خيف تولد ما هو أضر من تركه. وفيه استتلاف الناس على الإيمان، وتسهيل الأمور عليهم حتى لا ينفروا، شريطة عدم تعطيل ركن من أركان الشرع^(٢٥). هكذا يعلمنا الرسول عليه السلام أن نحسب للمستقبل حسابه في كل أمورنا الدينية والدنيوية.

—الحديث الثاني: لما صدر من بعض المنافقين انتقاص من النبي الكريم، وقال أبي بن سلول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. طلب عمر أن يقتل من ظهر نفاقه، لكن الرسول أجابه: دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه. وفي لفظ: أخاف أن يتحدث الناس...^(٢٦)

وذكر الشيخ دراز في وجه تعارض اعتبار الحال والمآل هنا: "موجب القتل حاصل، وهو الكفر بعد النطق بالشهادتين، والسعي في إفساد حال المسلمين كافة بما كان يصنعه المنافقون، بل كانوا أضر على الإسلام من المشركين، فقتلهم درء لمفسدة حياتهم. ولكن المآل الآخر - وهو هذه التهمة التي تبعد الطمأنينة عن مريدي الإسلام - أشد ضرراً على الإسلام من بقائهم"^(٢٧).

وقال القاضي عياض في بيان هذا النظر النبوي إلى المستقبل: الحديث "فيه ترك بعض الأمور التي يجب تغييرها، مخافة أن يؤدي تغييرها إلى أكثر منها... وكان النبي عليه الصلاة والسلام يستألف على الإسلام النافرين عنه، فكان يعفو عن

٢٣- فتح الباري، ١ / ٢٧٢.

٢٤- المفهم، ٣ / ٤٣٣.

٢٥- إكمال المعلم، ٤ / ٤٢٨.

٢٦- البخاري: ب ما ينهى من دعوى الجاهلية، ك المناقب، ٣٥١٨. وب قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (الأنفال ٥) ٤٩٠٥، ب ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ﴾ (الأنفال ٧)، ٤٩٠٧. من كتاب التفسير. مسلم، ب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، ك البر والصلة، ٢٥٨٤.

٢٧- تعليقات عبد الله دراز على الموافقات، ٥ / ١٨٠-١٨١.

أشياء كثيرة أول الإسلام لذلك، لئلا يزدادوا نفورا... ولهذا لم يقتل المنافقين.. ولما كانوا معدودين في الظاهر في جملة أنصاره وأصحابه ومن تبعه، وقتلوا معه غيرهم حمية أو طلب دنيا أو عصبية لمن معهم من عشائريهم، وعلمت بذلك العرب، فلو قتلهم لارتاب بذلك من يريد الدخول في الإسلام ونفروه ذلك." (٢٨)

إن الاهتمام بالمستقبل - بما يقتضيه من إعداد وتفكير وتخطيط - يجد دليل مشروعيته في أصل اعتبار المآل، الذي هو أصل مستقل لذاته، لا يغني عنه اعتبار الحال.

المبحث الثاني: التوجيه النبوي للعقل البشري: التمييز بين التنبؤ الفاسد و التوقع السليم:

لما كان من أصول الدين التي جاء بها الرسول الكريم حصر دعوى علم الغيب المطلق - لا الإضافي - في الله سبحانه.. فإنه حرم كثيرا من الأساليب التي اتبعها الأقدمون - ومنهم العرب - في التنبؤ بالمستقبل... لكنه بالمقابل جوز -عليه الصلاة والسلام - الاستشراف الصحيح. وبهذا قدم للبشرية خدمة عظيمة، لأنه وجهها إلى دراسة المستقبل وفق أسس علمية سليمة، ومنع طاقتهما من أن تهدر في الخرافة والخطأ والضلال.. فلا عجب إذن أن يسبق المسلمون إلى اكتشاف المنهج التجريبي في العلوم، وأن يؤسسوا بعضها لأول مرة كعلم الاجتماع وتفسير التاريخ والجغرافيا البشرية. (٢٩)

٢٨ - إكمال المعلم، ٨ / ٥٤-٥٥. ولهذا نظائر كامتناع النبي عن قتل من سحره، انظر القصة في البخاري، ب هل يعفى عن الذمي إذا سحر، ك الجزية، ٣١٧٥. وب السحر من كتاب الطب، ٥٧٦٦. أو في مسلم، ب العين حق والسحر حق، ك الرقى والطب.. وراجع تعليق القرطبي في: المفهم، ٥ / ٥٧٤، وقارنه ب: الفتح

٢٩ - راجع في هذا الإنجاز الكبير للحضارة الإسلامية: مناهج البحث عند مفكري الإسلام، لعلي النشار، خاصة الباب الخامس. أما بالنسبة لتأسيس بعض العلوم الإنسانية فيكفي أن نذكر ابن خلدون ومقدمته الشهيرة.

الكهانة والعرافة: الكهانة عند العرب أضرب، ومنها العرافة. (٣٠) وكل ذلك محرم، فقد سأل معاوية السلمي النبي عليه السلام عن الكهان، فقال: لا تأتوهم. (٣١) وحين قال الصحابة: إن الكهان كانوا يحدثوننا بالشيء فنجده حقا، بين لهم النبي عليه السلام سبب إصابتهم أحيانا في ما يتنبؤون به، قال: تلك الكلمة الحق يخطفها الجنني فيقذفها في أذن وليه، ويزيد فيها مائة كذبة. (٣٢)

ولما كانت الكهانة مجرد تطاول على الغيب بالكذب والتخليط فقد أبطلها الإسلام، ونهى رسوله عن مجرد استشارة الكهنة والعرافين: فعن أبي هريرة رفعه: من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد. (٣٣) ولا يقدر هذا الموقف الإسلامي حق قدره إلا من درس الكهانة قديما وأدرك إلى أي مدى أفست العقل الإنساني وأعقت كل تفكير علمي يخص المستقبل، فأعقت بذلك ظهور الحضارة قرونا. (٣٤)

الاستقسام: هو استعمال قداح أو أزالام أو أعواد... لطلب معرفة المستقبل وتعيين ما يجب عمله (٣٥). وقد حرم القرآن ذلك: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَٰلِكُمْ فَسْقٌ﴾ (المائدة ٣). ويروي ابن عباس أن النبي ﷺ حين دخل بيت الكعبة

-
- ٣٠ - راجع: إكمال العلم، ك السلام، ١٥٣ / ٧.
- ٣١ - رواه مسلم، ك السلام، ب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، ٢٢٢٧. والنسائي، ب الكلام في الصلاة، ك السهو، ١٥ / ٣. وأبو داود، ب تسميت العاطس في الصلاة، ك الصلاة، ٩٣٠.
- ٣٢ - أخرجه مسلم، ح ٢٢٢٨. وهو أيضا عند البخاري في ب الكهانة، ك الطب، ٥٧٦٢.
- ٣٣ - أخرجه أحمد، ٩٥٠٢، وصحح إسناده الشيخ شاكر، ٢٤٠ / ٩. وحسنه السيوطي في الجامع الصغير، ٣١ / ٦. ورواه أيضا الحاكم في ك الإيمان من المستدرک، ح ١٥، وقال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ٤٩ / ١. ورواه أيضا البيهقي في السنن، ب تكفير الساحر من جماع أبواب الحكم في الساحر، ١٣٥ / ٨. والطبراني في المعجمين: الأوسط (طبعة المعارف)، ١٤٧٦، عن شيخه أحمد بن محمد بن صدقة، والكبير، ١٠٠٠٥، في أحاديث ابن مسعود، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: رواية الطبراني في الكبير ثقات، ٤ / ٤٩. وفي الباب أيضا باختلاف يسير عن أبي هريرة في سنن أبي داود، باب في الكهان، من كتاب الكهانة والتطير، ٣٩٠٤. ومثله عن ابن مسعود، رواه البزار في مسنده، ٢٠٦٧، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح خلا هبيرة بن مريم، وهو ثقة. المجمع، ٢٠٣ / ٥.
- ٣٤ - الحديث في الكهانة متشعب الجوانب جدا، خلاف ما قد يتبادر إلى الذهن، وفقني الله تعالى إلى أن ألفت فيه ما أظنه أول دراسة عربية متخصصة في الموضوع، فله الحمد والمنة. وقد صدرت عن مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ٢٠٠٣، بعنوان: النظرية الإسلامية في الكهانة.
- ٣٥ - راجع: أحكام القرآن، المائدة ٣، ٣١ / ٢.

وجد فيها صوراً فأمر بها فمحييت، ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام، فقال: قاتلهم الله، والله إن استقسما بالأزلام قط. (٣٦) وكل تحديد للمستقبل بمجرد الحظ والاتفاق فهو استقسام يدخل تحت الوعيد النبوي: لن ينال الدرجات العلى من تكهن أو استقسام أو رجوع من سفر تطيراً (٣٧). لذا قال ابن تيمية: "كل ما يحدثه الإنسان بحركة من تغيير شيء من الأجسام ليستخرج به علم ما يستقبله فهو من هذا الجنس." (٣٨) يعني الاستقسام.

الخط: الخط أو علم الرمل: علم يعرف به الاستدلال على أحوال المسألة - حين السؤال - بأشكال تخط في الرمل، وهي اثنا عشر شكلاً على عدد البروج... ويبغي من ذلك كشف المغيبات والمستقبل (٣٩). وقد حرّمه النبي الكريم، قال: العيافة والطيرة والطرق من الجبت (٤٠). قال المنذري: الطرق الزجر، والعيافة: الخط، يخط في الأرض (٤١). وليس هذا الخط المحرم هو المقصود بحديث السلمي السابق حين سأل النبي الكريم: ومنا رجال يخطون، فأجاب: كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك. قال ابن رشد الجد: "إن الله خص ذلك النبي بالخط، وجعل له فيه علامات على أشياء من المغيبات وعلى ما يأمره به من العبادات..." (٤٢) أي فكان شيئاً خاصاً به، ولا سبيل للبشر إليه من طريق معتاد.

٣٦- إن هنا نافية. وهذا حديث البخاري، كأحاديث الأنبياء، الباب الثامن، ح ٣٣٥٢، ومثله ح ٣٣٥١. ومثله في سنن أبي داود، ب الصلاة في الكعبة، ك المناسك، ٢٠٢٧.

٣٧- رواه الطبراني، ٢٦٦٣، عن أبي الدرداء بإسنادين، رجال أحدهما ثقات، كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد، ب فيمن أتى عرفاً، ك الطب، ٨٤٨٧، ٥ / ٢٠٣، وكذلك قال المنذري في الترغيب، ب التهيب من السحر، ٣٥ / ٤، و ابن حجر إلا أنه قال: ز أظن أن فيه انقطاعاً، وله شاهد عن عمران بن حصين وأخرجه البزار في أثناء حديث بسند جيد. س الفتوح، ١٠ / ٢٤٠، أول باب الطيرة من الطب.

٣٨- الفتاوى، ٤ / ٨٠.

٣٩- كشف الظنون، ١ / ٩١٢.

٤٠- أخرجه أبو داود في الكهانة والتطير، ب في الخط وزجر الطير، عن قبيصة، ٣٩٠٧. وسكت عنه هو والمنذري في المختصر، ٣٧٣ / ٥. وهو أيضاً في مسند أحمد، ١٥٨٥٨، وقد صححه حمزة الزين، ١٢ / ٣٧٠. والبيهقي، ب العيافة والطيرة، في جماع أبواب الحكم على الساحر، ٨ / ١٣٩. والطبراني في الكبير، فيما رواه قبيصة.

٤١- مختصر السنن، للحافظ المنذري، ٥ / ٣٧٣.

٤٢- الرد على من ذهب إلى تصحيح علم الغيب من جهة الخط، لما روي في ذلك من أحاديث ووجه تأويلها، لأبي الوليد محمد بن رشد، ص ٤٧. وراجع في الرسالة تفاصيل آراء العلماء في الحديث وتخريجها واسعا له للمحقق. وانظر: المنهاج، باب في تحريم الكلام في الصلاة، ٥ / ٢٣.

التنجيم: هو الاستدلال بحركات الكواكب والنجوم وأوضاعها على حوادث الأرض ومستقبلها. وهذا فن قديم، ولا تزال له إلى اليوم سطوة وشهرة.. لكنه فن فاسد، يقوم على أسس واهية، ولا حجة له في ادعائه القدرة على التنبؤ بالمستقبل انطلاقاً من دراسة أوضاع النجوم..^(٤٣).

والمقصود أن نبي الإسلام أبطل التنجيم من أصله، فهو إذن من جملة فنون التوقع الخاطئ: روى ابن عباس أن الرسول الكريم قال: من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد.^(٤٤) قال الشوكاني: "أي زاد من علم النجوم كمثل ما زاد من السحر، والمراد أنه إذا ازداد من علم النجوم فكأنه ازداد من علم السحر"^(٤٥). وقال الخطيب البغدادي: "إن قيل كيف أضاف النبي ﷺ علم النجوم إلى السحر؟ فالجواب لأنهما وقعا من التمويه والخداع والأباطيل موقعا واحداً، إذ النجوم لا فعل لها في خير ولا شر، وإنما الله تعالى الفاعل عند حركتها، وكذلك السحر"^(٤٦).

علم الفلك في الحديث: ولله در نبي الإسلام، فهو قد أبطل التنجيم الخرافي وأقر الفلك العلمي، فأنقذ العقل البشري من التخبط ووجهه إلى ما ينبغي له أن يجتهد فيه... وهذا توجيه معرفي - أو بلغة اليوم ابستمولوجي - عظيم، لم يعرف في الغرب إلا منذ قرون قليلة، إذ من المعروف أن ظهور فن التنجيم عرقل تطور علم

٤٣ - التنجيم اليوم "علم" مستقل، وإشكالاته كثيرة.. درسته بتوسع في كتابي: مقدمة في التنجيم، وحكمه في الإسلام.

٤٤ - رواه أبو داود في الكهانة، ب في النجوم، ٣٩٠٥. وابن ماجه في الأدب، ب تعلم النجوم، ٣٧٢٦. وأحمد في المسند، ح ٢٠٠٠ و ٢٨٤١. والبيهقي في السنن، ب ماجه في كراهية اقتباس علم النجوم، جماع أبواب الساحر، ١٣٨ / ٨. وقد صححه النووي في رياض الصالحين، ٥١٤ / ٤، وأحمد شاكر في تخريجه للمسند، ٤٨٠ / ٢، ٢٥٩ / ٣. ورمز السيوطي لحسنه في الجامع الصغير، ١٠٤ / ٦. وتعقبه المناوي بأن التحسين فقط تقصير، ونقل عن الذهبي أيضاً أنه صححه، فيض القدير، ١٠٤ / ٦. وكذلك صححه علي العزيزي في شرحه على الجامع الصغير، والمسمى السراج المنير، ٣٣٨ / ٣.

٤٥ - نيل الأوطار، باب ما جاء في حد الساحر، ٣٧١ / ٧.

٤٦ - القول في علم النجوم، ص ١٨٠.

الفلك، وكان الفصل بينهما الشرط الأول لتتقدم المعرفة الكونية.^(٤٧) وقد أخذ المسلمون بهذا التوجيه النبوي، فميزوا بين التنجيم - أو علم التأثير - ، وبين الفلك - أو علم التسيير - .^(٤٨) ولما سئل الحافظ البغدادي عن النجوم وضع في ذلك رسالة صدرها بقوله: "إن علم النجوم يشتمل على ضربين: أحدهما مباح وتعلمه فضيلة . والآخر محظور ، والنظر فيه مكروه . فأما الضرب الأول ، فهو العلم بأسماء الكواكب ومناظرها ومطالعها ومساقطها والاهتداء بها..."^(٤٩) وللكثير من المحدثين مثل هذا الكلام، وبعضه نفيس ككلام الخطابي، لولا خشية الطول لنقلته هنا^(٥٠).

ومما جاء عن النبي ﷺ في إقرار علم الفلك: إذا طلع - وفي رواية ارتفع - النجم، ارتفعت العاهة عن كل بلد، وفي لفظ: إذا طلعت الثريا أمن الزرع من العاهة.^(٥١) قال الطحاوي: المقصود برفع العاهة عنه هو ثمار النخل.^(٥٢) وقال ابن

٤٧ - انظر: (ترجمة العنوان: التنجيم) L'Astrologie, par Paul Couderc, p104.

٤٨ - فضل علم السلف على الخلف، لابن رجب، ص ١٠.

٤٩ - القول في علم النجوم، ص ١٢٦.

٥٠ - انظره في: معالم السنن، ٥ / ٣٧١-٣٧٢.

٥١ - الأول رواه الطحاوي في مشكل الآثار، ٣ / ٩١، والخطيب في "القول في علم النجوم"، ص ١٤١، كلاهما عن أبي هريرة . والطبراني في المعجم الصغير عن شيخه أحمد بن محمد بن يعقوب، ح ٩٨، عن أبي هريرة، وفي الأوسط (طبعة الحرمين) عن شيخه أحمد بن عبيد الله بن جبلة، ١٣٠٥، لكن قال الهيثمي: فيه عسل بن سفيان وثقه ابن حبان وقال يخطئ ويخالف وضعفه جماعة، وبقية رجاله رجال الصحيح. المجمع، ٤ / ١٨٥، ب متى ترتفع العاهة، ك البيوع . وأخرج أحمد في المسند، ح ٨٤٧٦، بلفظ: إذا طلع النجم ذات صباح رفعت العاهة، وضعف الشيخ شاكر هذا الإسناد، ٨ / ٣٣٠. أما اللفظ الآخر فقد أخرجه الطبراني في الصغير، وبين شارحي الجامع الصغير اختلاف في تصحيحه أو تضعيفه: فيض القدير، ١ / ٥١١، والسراج المنير ١ / ١٥٦. ويشهد لأصل الحديث أن ابن عمر حدث أن النبي الكريم نهى عن بيع الثمار حتى تذهب العاهة، وقال، أعني ابن عمر: هي طلوع الثريا. وهذا أخرجه أبو داود، ك البيوع، ب بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها، ٣٣٦٨. والبيهقي، ب الوقت الذي يحل فيه بيع الثمار، ٥ / ٣٧٢، ٣٠٠. ورواه أحمد، ح ٥٠١٢، وقد صحح أحمد شاكر إسناده، ٢ / ٤٨٢. فالحديث - إذن - بهذه الطرق المتعددة صالح وله أصل.

٥٢ - مشكل الآثار، ٣ / ٩٢.

عبد البر: "النجم هو الثريا بلا خلاف هاهنا في ذلك، وطلوعها صباحا لاثنتي عشر ليلة تمضي من شهر أيار، وهو شهر ماي"^(٥٣)، فأنداك يبدو صلاح الثمرة في الغالب، فيجوز البيع والادخار.^(٥٤) والمقصود أن الحديث يقر الاستفادة من ظواهر السماء والتعويل عليها في شؤون الناس على الأرض.

بل إن السنة حفظت لنا كلاما عزيزا للنبي الكريم يكشف فيه عن قاعدة من قواعد التوقعات الجوية. فقد أورد الإمام مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ كان يقول: إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت، فتلك عين غديقة. ومعناه -كما قال السيوطي - أنه إذا ظهرت سحابة من ناحية البحر، ثم أخذت اتجاه الشام، فسيكون ماؤها مطرا، أياما لا يقلع^(٥٥). وهذا الحديث هو أحد بلاغات الموطأ الأربعة^(٥٦).

المبحث الثالث: المستقبل والصحة النفسية في الحديث النبوي:

لم يهتم رسول الإسلام فقط بتوجيه الأمة إلى كيفية التعامل مع المستقبل علميا وفكريا... بل إلى ذلك وجه المسلم إلى ضرورة التعاطي مع الزمان - الماضي والآتي - بنفسية إيجابية لا سلبية، ومقبلة لا منهزمة... وهذا من النبي بديع، فالإنسان ليس مجرد آلة مفكرة، بل هو أيضا روح وغريزة... خوف وأمل... والحكمة النبوية لم تغفل هذا الجانب، فلم تعتبر "المستقبلية" مجرد قيمة فكرية ليس لها متعلقاتها النفسية العميقة في حياة الأشخاص والجماعات.

٥٣ - التمهيد، ١٩٣/٢.

٥٤-فيض القدير، ١/٥١١. والأحاديث في هذا كثيرة، راجع بعضها في: كتاب القول في علم النجوم، للبغدادي الحافظ. السنن الكبرى، للبيهقي، باب مراعاة أدلة الواقيت، ك الصلاة، ١/٣٧٩.

٥٥ - تنوير الخوالك بشرح موطأ الإمام مالك، لعبد الرحمن السيوطي، ١/١٥٤.

٥٦ - هذه البلاغات الأربع لم يستطع الحافظ ابن عبد البر وصلها، وقال في حديث إذا أنشأت بحرية: لا أعرفه بوجه من الوجوه، انظر: التمهيد، ٢٤/٣٧٧. وجاء ابن الصلاح ففعل في رسالة مستقلة. وهذا الحديث رواه أبو الشيخ في العظمة عن عائشة بسند متصل، من غير طريق الواقدي، ٧٢٢. وأخرجه الطبراني في الأوسط (طبعة الحرمين) متصلا من طريق الواقدي، قال الهيثمي: فيه كلام، وقد وثقه غير واحد، وبقية رجاله لا بأس بهم، وقد وثقوا. مجمع الزوائد، ٢/٤٦٠. وقد ذكره الخطيب في "القول في علم النجوم"، ص ١٥٧، لكن دون سند.

أولاً - تحريم التطير وإباحة الفأل:

الطيرة هي التشاؤم بالشيء، وأصله التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما^(١).

التطير بشري: إن التطير طبيعة بشرية، لأن الإنسان - كما وصفه كتاب الله - سريع الجزع كثير الهلع، فهو على حذر من المستقبل ويسيء الظن بما يحمله ويأتي به. لذلك حين سأل معاوية بن الحكم السلمي النبي الكريم عن التطير وقال له: منا رجال يتطيرون، أجابه عليه السلام: ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدهم^(٢). قال ابن علان: "أي أمر خلقي بحسب الطبع لا يكلفون برفعه، إنما يكلفون ألا يعملوا بقضيته، كما قال: فلا يصدهم، أي لا يعيقهم ذلك عما خرجوا له"^(٣). وقال المازري: "أي يجدون ذلك ضرورة فلا ملام عليهم فيه، ولكن إنما يكون اللوم على توقفهم عن إمضاء حوائجهم لأجل ذلك، وهو المكتسب، فنهاهم أن يصدهم ذلك عما أرادوا فعله"^(٤). وفي هذا المعنى أيضا جاء عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله: الطيرة من الشرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل^(٥). أي: ما من أحد إلا ويخطر له من جهة الطيرة شيء ما لتعود النفوس عليها، فحذف المستثنى كراهة أن يتلفظ به".

التطير والسببية: والتطير - من ناحية أخرى - هو نوع من التطبيق الخاطئ لمبدأ

١- راجع: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي، ٦ / ٧٩١، ٧٩٨. وتجد في هذا الجزء فصلا خاصا عن عادات العرب في التطير.

٢- سبق في المبحث الثاني.

٣- دليل الفالحين، ٤ / ٥١٥.

٤- المعلم، ١ / ٢٧٥. وراجع: المفهم، ٥ / ٦٢٨.

٥- رواه أبو داود، ب في الطيرة، ك الكهانة والتطير، ٣٩١٠. والترمذي ب ما جاء في الطيرة، ك السير، ح ١٦١٤. وابن ماجه، ب من كان يعجبه الفأل، ك الطب، ٣٥٣٨. والبيهقي في السنن، ب العيافة والطيرة، جماع أبواب الحكم على الساحر، ٨ / ١٣٩. والحاكم، ك الإيمان، ح ٤٤٤، وقال: صحيح سنده ثقات رواه ولم يخرجاه. وأخرجه أيضا أحمد في المسند، ٣٦٨٧، قال أحمد شاكر: إسناده صحيح، ٣ / ٥٤٦. والبزار، ٣٠٤٨، قال الهيثمي: فيه عمرو بن أبي سلمة، وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه شعبة وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح. المجمع، ٥ / ١٨٠. وقال الترمذي عقب إيراد الحديث في سننه: "سمعت محمد بن إسماعيل (يعني البخاري) يقول كان سليمان بن حرب يقول في هذا الحديث: وما منا... هذا عندي قول عبد الله بن مسعود." أي جملة (وما منا).

العلاقة السببية، لأنه إذا سبق للمتطير أن رأى شيئاً سلبياً قارن في الزمان فعلا له - كسفر أو عمل أو خروج من البيت ... - فهو لا يعتبر ذلك اتفاقاً، بل يسرع وينشئ بين الأمرين علاقة مطردة طرفاها سبب ومسبب. لذلك فإن الرسول ﷺ حين يبطل الطيرة فهو - كما يقول ابن عبد البر - " يعرفهم أن ذلك إنما هو شيء من طريق الاتفاق، ليرفع عن المتوقع ما يتوقعه من ذلك كله، ويعلمه أن ذلك ليس يناله منه إلا ما كتب له ".^(٥٧) فكأن المتطير - بوعي منه أو بدون وعي - يظن أن هذه المقارنات الاتفاقية هي أسباب الحوادث وعلل الوقائع، فهو يضيف إليها - لا إلى رب الأسباب - ما يمس من الضر والنفع.

الفرق بين الطيرة والفأل والحكمة من اختلاف أحكامهما: ولكن الإسلام حين حرم الطيرة أباح الفأل، فقد روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: لا طيرة، وخيرها الفأل. قيل: يا رسول الله، وما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم.^(٥٨) واعتبر ابن عبد البر أن هذا أصح حديث في الباب في الإسناد والمعنى^(٥٩).

قال القرافي في الفرق بين التطير والفأل: " التطير هو الظن السيء الكائن في القلب، والطيرة هو الفعل المرتب على هذا الظن من فرار أو غيره، وكلاهما حرام ... أما الفأل فهو ما يظن عنده الخير عكس الطيرة ... مثل الكلمة الحسنة يسمعها الرجل من غير قصد نحو يا فلاح يا مسعود .."^(٦٠) وقال النووي: ذكر العلماء أن النبي عليه السلام " إنما أحب الفأل لأن الإنسان إذا أمل فائدة الله تعالى وفضله عند سبب قوي أو ضعيف فهو على خير في الحال، وإن غلط في جهة الرجاء فالرجاء له خير، وأما إذا قطع رجاءه وأمله من الله تعالى فإن ذلك شر له، والطيرة فيها سوء الظن وتوقع البلاء."^(٦١)

٦ - عون المعبود، ١٠ / ٤٠٦.

٥٧ - التمهيد، ٨ / ٢٨٣. وانظر: عارضة الأحوذى، ٧ / ١١٦ - ١١٧.

٥٨ - رواه البخاري، ب الطيرة، ٥٧٥٤، ب الفأل، ٥٧٥٥، كلاهما في ك الطب. ومسلم، ب الطيرة والفأل، ك السلام، ٢٢٢٣. وأحمد بإسنادين صحيحين، ٧٦٠٧ و ٧٦٠٨، ٧ / ٣٦١. وغيرهم كثير.

٥٩ - التمهيد، ٨ / ٢٨٠.

٦٠ - الفروق، ٤ / ٢٣٨ - ٢٤٠.

٦١ - المنهاج، كتاب السلام، ١٤ / ١٨٤.

إن الإسلام حرم الطيرة لما فيها من التشويش على صفاء التوحيد، ولآثارها النفسية السلبية وما تبعته في أصحابها من التشاؤم والاكتئاب... فالطيرة اختصت " أن تستعمل في الشؤم"^(٦٢) بينما جوز الدين الفأل لأنه يشجع على النظر إلى المستقبل نظرة أمل وتفاؤل لا خوف وتشاؤم، فمنع اليأس الذي طالما نخر الأفراد والشعوب وحطم قدرتهم على المقاومة والنهوض. لذلك قال أبو العباس القرطبي تعليقا على حب الرسول للفال: " إنما كان يعجبه الفأل، لأنه تنشرح له النفس، وتستبشر بقضاء الحاجة وبلوغ الأمل، فيحسن الظن بالله عز وجل، وقد قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي."^(٦٣) وإن البشرية اليوم في أمس الحاجة لهذا التوجيه النبوي، وهي الغارقة في أمراض القلق والتشاؤم والخوف من المستقبل، حتى عد ذلك مشكلة العصر.^(٦٤)

ثانيا - النهي عن اللو :

من عيون الكلام النبوي الذي يوجهنا إلى منهج التعاطي النفسي الإيجابي مع الزمان بأحداثه الواقعة والمحتملة: قول الرسول ﷺ: " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير. احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن "لو تفتح عمل الشيطان"^(٦٥). وفي روايات أخرى: لا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قدر الله وما شاء فعل، أو فقل قدر الله وما شاء الله... وفي بعضها: إياك واللو.^(٦٦)

٦٢ - عمدة القاري، كتاب الطب، ٢١ / ٣٧٤.

٦٣ - المفهم، كتاب الرقى والطب، ٥ / ٦٢٧. والحديث القدسي رواه البخاري ومسلم وغيرهما، لكنه بهذا اللفظ في أول الحديث جاء عن ابن نمير بمسند أحمد، ٧٤١٦، وسنده صحيح. راجع تعليق أحمد شاکر عليه في موضعين: ٧ / ٢٢٥، ٨ / ٢٢٣.

٦٤ - راجع: الاكتئاب، اضطراب العصر الحديث، لعبد الستار إبراهيم، صفحات: ١٣٠ فما بعدها، ١٨٠ فما بعدها.

٦٥ - هذا لفظ مسلم عن أبي هريرة، ب. في الأمر بالقوة وترك العجز، ك القدر، ٢٦٦٤.

٦٦ - الحديث رواه غير مسلم: ابن ماجه، ب التوكل واليقين، ك الزهد، ح ٤١٦٨. وأحمد، ٨٥٧٣. والطحاوي في مشكل الآثار، باب ٣٦، ١ / ١٠٠. والبيهقي، ب فضل المؤمن القوي، ك آداب القاضي، ١٠ / ٨٩... وقال ابن حجر- في الفتح، ١٣ / ٢٦٠ -: أصبح طرقه ما أخرجه مسلم.

الاتفاق على أن ظاهر الحديث غير مراد : قال الطحاوي : لو ليست مكروهة في كل الأشياء، إذ ذكرها الله في كتابه وذكرها رسوله .^(٦٧) وحديث النبي سليمان عليه السلام يدل على ذلك^(٦٨)، لأن الرسول ﷺ قال : فلو قال إن شاء الله لم يحنث . وهذا - كما قال القرطبي - " دليل على جواز قول لو ولولا بعد وقوع المقدور . وقد وقع من ذلك مواضع كثيرة في الكتاب والسنة وكلام السلف ."^(٦٩) جمع البخاري بعضها - من الحديث خاصة - وبوب : باب ما يجوز من اللو .^(٧٠) وأظن هذا إجماعا ، ولو خالف فيه أحد لاشك أنه مخطئ ، إلا أن الأصل - كما يقول ابن حجر - هو المنع ، والجواز استثناء.^(٧١) لذا قال عياض : الذي عندي في هذا الحديث أن النهي فيه على وجهه عموما ، لكن على طريق الندب والتنزيه ."^(٧٢)

متى لا يجوز استعمال لو: والذي تحصل عندي من كلام العلماء حالات:

١- إذا كان القائل ذاهلا عن القدر ومعتمدا على الأسباب فقط، كما حكى الله سبحانه عن المنافقين قولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾^(٧٣) . وذلك أن التوكل واجب على كل مسلم، وإن اختلفت درجاته بين الناس .

٢- إذا جاء في سياق معارضة القدر ، كأنه يقول : لو أني فعلت كذا لاندفع ما قدر علي . قال المحدث الكشميري : لا تستعمل لو إذا أوهمت رد التقدير .^(٧٤) وذكر ابن القيم اعتراضا ثم أجاب عنه جوابا حسنا: إن قيل ليس في هذا رد القدر ولا جحد له ، إذ تلك الأسباب التي تمنها أيضا من القدر ، فهو يقول :

٦٧ - مشكل الآثار ، ١ / ١٠١ .

٦٨ - انظر الحديث بتمامه في بداية المبحث الخامس .

٦٩ - المفهم ، ك النذور والأيمان ٤ / ٦٣٨ . وانظر أيضا : عمدة القاري ، ك الجهاد ، ١٤ / ١١٦ .

٧٠ - وهو الباب التاسع من كتاب التمني . وقد أحصيت ما بدأه النبي الكريم في حديثه ب : لو ، ولولا ، بحسب ما في الجامع الصغير ، ٥ / ٣٨٧ فما بعدها ، فوجدته مائة وسبعة وعشرين قولاً ، في سياقات ومعان مختلفة ، لكن كثيرا منها يتعلق بما نحن فيه .

٧١ - فتح الباري ، ١٣ / ٢٦٠ .

٧٢ - إكمال المعلم ، ٨ / ١٥٨ .

٧٣ - المفهم ، ٤ / ٦٣٨ ، عمدة القاري ، ١٤ / ١١٦ . والآية ١٦٨ من آل عمران .

٧٤ - فيض الباري ، ٦ / ٥٠٤ .

لو وفقت لهذا القدر لاندفع به عني ذلك القدر... قيل: هذا حق، ولكن هذا ينفع قبل وقوع القدر المكروه. أما إذا وقع فلا سبيل إلى دفعه. وإن كان له سبيل إلى دفعه أو تخفيفه بقدر آخر، فهو أولى به من قوله: لو كنت فعلته، بل وظيفته في هذه الحالة أن يستقبل فعله الذي يدفع به أو يخفف أثر ما وقع، ولا يتمنى ما لا مطمع في وقوعه، فإنه عجز محض، والله يلوم على العجز ويحب الكيس...^(٧٥)

٣- إذا تعلق بالماضي، أو بتعبير الطحاوي: بما فات من مصالح ومنافع.^(٧٦) ولذلك قال ابن تيمية: إن التمني على الأفعال الماضية لا يناسب عند الشرع.^(٧٧) ولعل القارئ يلاحظ أن الوجهين الثاني والثالث متقاربان... وقد اجتهدت أن أجمع بينهما في وجه واحد، فوجدت فيما كتبه القاضي عياض ما يمكن اعتباره قاعدة في حصر الحالات التي لا يقال فيها لو.

ضابط ما يجوز وما لا يجوز من اللو: الضابط في ذلك زماني، فما كان من الماضي الذي ذهب الأصل فيه كراهة - أو حرمة - استعمال لو، وما هو من المستقبل وتحت الإمكان فالأصل فيه الجواز. قال عياض: "الذي يفهم من ترجمة البخاري وما أدخل من القرآن والآثار في الباب من لو ولولا أنه يجوز استعماله فيما يكون من الاستقبال وتحت قدرة الإنسان، وهو ما امتنع من فعله لا امتناع غيره، وهو باب لو، أو امتنع من فعله لوجود غيره، وهو باب لولا، لأنه لم يدخل في بابه سوى ما هو للاستقبال من الآي والآثار، وما هو حق وصحيح متيقن."^(٧٨) فإذا تعلق الأمر بالمستقبل، ولم يعترض فيه على القدر، فلا كراهة في استخدام لو، لأن المرء هنا يخبر عما يعتقد أنه كان يفعله لولا المانع له، وما في قدرته فعله. وما انقضى وذهب ليس في القدرة ولا في الإمكان فعله، فلا يلتفت

٧٥- زاد المعاد، ١/ ٣٧٥.

٧٦- مشكل الآثار، ١/ ١٠٢.

٧٧- عن: فيض الباري، ٦/ ٥٠٤.

٧٨- إكمال المعلم، ح ١٦٥٤، ٥/ ٤٢٠. وقد نقل النووي رأي عياض، كأنه أقره، انظر: المنهاج، ١١/ ١٠١.

إليه^(٧٩) . وبعض الآثار التي ظاهرها قول لو عن الماضي .. يمكن - أو يجب - حملها على المستقبل، أي أن الرسول عليه الصلاة والسلام يخبرنا عن الماضي ظاهراً ، ولكنه واقعا يرشدنا إلى ما ينبغي فعله في المستقبل . ومن أحسن أمثلة هذا الباب قوله : لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت ، ولولا أن معي الهدى لأحللت^(٨٠) .

أسلوب السيناريو: من هذا يمكن أن نستنتج جواز طريقة السيناريو (أو المشهد) التي تستعمل بكثرة في الدراسات المستقبلية، فهي تقوم على حصر جميع ما يمكن تصوره من احتمالات المستقبل، أو أبرزها، ثم التفكير في تحديد آثارها... بحيث تكون بين أيدينا مستقبلات متعددة، وهذا مفيد جدا في اتخاذ القرار الأنسب.^(٨١) إن مقصود النهي عن اللو تحرير الإنسان من الماضي وقيوده ، وتوجيه طاقته ونظره إلى المستقبل... لا يريد الإسلام أن يكون المرء أسيرا لزمان انقضى بل يريد مقبلا على المستقبل ووعوده . ويعرف علم النفس الحديث نوعا من الناس يمكن أن أسميهم ب: أسرى الماضي، فحياتهم كلها عبارة عن اللو ومحكومة به.. فكأن الماضي استغرقهم حتى فقدوا الصلة بالحاضر والإحساس بالمستقبل، بل قد يقع هذا للمجتمعات أو مجموعات بشرية بأكملها، وذلك حين تعجز عن التعامل الإيجابي مع الماضي ووقائعه.^(٨٢)

٧٩- إكمال المعلم، ١٥٨ / ٨ . وأنبه القارئ إلى أن هذا المبحث يتعلق ب: لو البشرية، أما من كلام الله فلها مقاصد أخرى، لأن علمه سبحانه يعلو الزمان.

٨٠- رواه البخاري، ب التمتع والقرآن، ك الحج ١٥٦٨ ، ب قول النبي لو استقبلت من أمري ، ك التمني ٧٢٣٠ . ومسلم في ب حجة النبي ﷺ، ١٢١٨ .

٨١- راجع في طريقة السيناريو: مقال "استقراء المستقبل، لعطية أفندي، مجلة منبر الحوار، ص ٩١ . أو اقرأ Why Futures Studies, by Eleonora (ترجمة العنوان: في أهمية الدراسات المستقبلية) Masini, p90 .

٨٢ - تقدم المسيحية نموذجا للارتباط التام بالماضي، وفي الأمة الإسلامية يمكن أن أمثل لهذا الأسر التاريخي بالتشيع .

المبحث الرابع : نماذج التخطيط المستقبلي على العهد النبوي :

لم يكتف الرسول ﷺ بتوجيه عناية المسلمين إلى الاهتمام بالمستقبل، فأمرهم بذلك ويحل لهم من الإشكاليات ما قد يبدو أنها تمنع هذا الاهتمام، كعقيدة القدر .. ولم يكتف أيضا بتهيئة الصحابة نفسيا للتعامل مع المستقبل، بعد أن هياهم فكريا لذلك ... بل أعطى من نفسه ومن سيرته الكريمة أمثلة حية وتطبيقات رائعة لهذه المستقبلية الإسلامية. ولما كان تتبع ذلك يطول، فقد رأيت أن أركز في هذا المبحث على دراسة فكرة التخطيط النبوي في مستويات ثلاثة : الأسرة، والمجتمع، والدولة.

أولا: التخطيط الأسري:

تحتفظ السنة الشريفة بأمثلة كثيرة للتخطيط واعتبار المستقبل داخل الأسرة المسلمة وفي حدودها. وقد اخترت من ذلك نموذجين واضحين في تقرير مبدأ هذا التخطيط وتطبيقه.

١- مثال العزل:

أحاديث العزل: هذه واحدة من أهم الطرق القديمة في اجتناب الحمل. وقد كان العرب يعرفونها ويأخذون بهذا.. ومنهم الصحابة رضوان الله عليهم، حتى قال جابر: كنا نعزل والقرآن ينزل. وفي رواية: كنا نعزل على عهد رسول الله، فبلغه ذلك ولم ينهنا.^(٨٣) ولما تخرج من ذلك بعضهم وخافوا ألا يجوز سألوا الرسول ﷺ فأجابهم: لا عليكم ألا تفعلوا، ما كتب الله خلق نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون.^(٨٤)

٨٣- الرواية الأولى للبخاري، ب العزل، ك النكاح، ٥٢٠٨. وعند أحمد، ١٤٢٥٢. والرواية الثانية عن مسلم، ب حكم العزل، ك النكاح، ١٤٤٠.
٨٤- هذا لفظ مسلم، ح ١٤٣٨. ورواه البخاري أيضا، ح ٥٢١٠. وأبو داود، ب ما جاء في العزل، ك النكاح، ٢١٧٢. وابن ماجه، ب العزل، ١٩٢٦. والطبراني في الأوسط (طبعة المعارف)، ٢٦٥٦، عن شيخه إبراهيم الكشي، وفيها: فإنما هو القدر.

وأحاديث العزل كثيرة ومشهورة، حتى إن عدداً مهماً من دواوين السنة خصصت لها باباً مستقلاً ضمن كتاب النكاح، وبين بعضها تعارض اجتهد العلماء في رفعه، لهذا سيكون كلامي هنا شديد الاختصار^(٨٥).

اختلاف العلماء: ورغم أن أحاديث الإباحة أكثر وأقوى، كما قال البيهقي^(٨٦)، فإن الأخرى صحيحة أيضاً وظاهرها يمنع العزل. من هنا نشأ الخلاف. قال أبو حامد: "إن العزل فقد اختلف العلماء في إباحته وكراهته على أربع مذاهب: فمن مبيح مطلقاً بكل حال. ومن محرم بكل حال. ومن قائل يحل برضاها ولا يحل دون رضاها، وكأن هذا القائل يحرم الإيذاء دون العزل. ومن قائل يباح في المملوكة دون الحرّة."^(٨٧) ثم صحح أن العزل مباح، وفعله من باب ترك الأولى والأفضل فقط، قال: "وإنما قلنا لا كراهة بمعنى التحريم والتنزيه، لأن إثبات النهي إنما يمكن بنص أو قياس على منصوص، ولا نص ولا أصل يقاس عليه. بل ههنا أصل يقاس عليه، وهو ترك النكاح أصلاً، أو ترك الجماع بعد النكاح، أو ترك الإنزال بعد الإيلاج، فكل ذلك ترك للأفضل وليس بارتكاب نهبي، ولا فرق."^(٨٨) وهذا الذي يقوله الغزالي - أعني أن الأصل في العزل الإباحة - هو مذهب الجمهور.

العزل تخطيط: وإنما كان كذلك لأن الزوجين لا يريدان أن يكون لهما ولد في المستقبل القريب. والنبي ﷺ أقر هذا التدبير، إذ حين ذكر العزل عنده سأل الصحابة لم يفعلونه، فقالوا: الرجل تكون له المرأة ترضع فيصيب منها، ويكره أن تحمل منه، والرجل تكون له الأمة ويكره أن تحمل منه^(٨٩) وكان لصحابي آخر غاية

٨٥ - راجع مثلاً: الموطأ، ب ما جاء في العزل، ك الطلاق. أبو داود، ب العزل، ح ٢١٧٠ فما بعده. زاد المعاد، ٦٥ / ٤.

٨٦ - السنن، آخر كتاب النكاح، ٢٣٢ / ٧.

٨٧ - إحياء علوم الدين، ٥٧ / ٢.

٨٨ - إحياء علوم الدين، ٥٨ / ٢.

٨٩ - رواه مسلم، ب العزل، ١٤٣٨، عن أبي سعيد الخدري. والنسائي، ب العزل، ك النكاح، ١٠٧ / ٦ - ١٠٨. وأحمد في مسنده، ح ١١٠٢٠.

أخرى من العزل، قال: أشفق على ولدها، أو على أولادها. فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: لو كان ذلك ضاراً ضر فارس والروم.^(٩١)

إذن فالعزل تخطيط أسري، وراهه بواعث معينة.. وقد ذكر العلماء بعضها، ومنها ما جاء في الأحاديث السابقة، فالزوجان يعزلان إما:

١- خشية علوق الزوجة الأمة، فيصير الولد رقيقاً. وكان في العرب من يأنف أن تحمل منه الإمام.

٢- أو خشية أن تصير الزوجة الأمة أم ولد، وهذه لا يجوز بيعها.

٣- أو مخافة دخول الضرر على الرضيع إذا كانت المرأة حديثة الولادة، وهو وطفء الغيلة فيه أحاديث.

٤- أو خوفاً على المرأة نفسها إذا كان الحمل المتتابع يجهداها، أو حفاظاً على جمالها.

٥- أو فراراً من كثرة العيال، إذا كان الرجل مقلماً، فيرغب عن قلة الولد لئلا يتضرر بتحصيل الكسب.^(٩١) وهذه الدوافع كلها تتعلق بالمستقبل.

لذلك قال الغزالي: "إن قلت: فإن لم يكن العزل مكروهاً من حيث إنه دفع لوجود الولد، فلا يبعد أن يكره لأجل النية الباعثة عليه، إذ لا يبعث عليه إلا نية فاسدة، فيها شيء من شوائب الشرك الخفي. فأقول: النيات الباعثة على العزل خمسة"^(٩٢). وذكر بعض ما تقدم، وأنه ليس جميع النيات منهي عنها، ولذا صحح الغايات: ١، ٤، ٥. وأورد نيتين فاسدتين: أن يعزل كراهة أن يرزق ياناث، أو أن تكون المرأة تبالغ في التحرز من الحمل ولو افاقه.. كمن لا تريد الحمل أصلاً^(٩٣).

النتيجة التي نصل إليها هي: إن العزل تخطيط سليم من حيث المبدأ، إلا إذا

٩٠- مسلم، ب جواز الغيلة، ح ١٤٤٣، عن سعد بن أبي وقاص. وفي الباب عن غيره بألفاظ أخرى.

٩١- استنبطت هذه الغايات من كلام العلماء، كابن حجر في: فتح الباري، ٩/ ٣٥٢. والغزالي في: إحياء

علوم الدين، ٢/ ٥٨٠. وغيرهم

٩٢- إحياء علوم الدين، ٢/ ٥٨.

٩٣- إحياء علوم الدين، ٢/ ٥٩.

كان له غاية لا تحمد في الشرع ، فإن للوسائل حكم مقاصدها .
التخطيط لا يتعارض مع القدر: وقد يعترض على هذا التخطيط الخاص - كما
يمكن ذلك في كل تخطيط بشري - بأنه معاندة للقدر ومضادة له . والحمد لله أن
الرسول الكريم كفانا بنفسه مؤونة الرد على هذا السؤال ، فقد جاءه رجل وقال:
إن لي جارية هي خادمنا وسانيتنا، وأنا أطوف عليها، وأنا أكره أن تحمل . فقال:
اعزل عنها إن شئت ، فإنه سيأتيها ما قدر لها . فلبث الرجل ، ثم أتاه فقال: إن
الجارية قد حبلى ، فقال: قد أخبرتك أنه سيأتيها ما قدر لها .^(٩٤)

إن القدر لا يرده شيء ، وضرب النبي عليه الصلاة والسلام مثلاً لذلك من
باب العزل نفسه ، فقال: لو أن الماء الذي يكون منه الولد أهرقته على صخرة
لأخرج الله منها ولداً .^(٩٥) فالعزل سبب كسائر الأسباب ، ولا يقول أحد: إن
الأسباب ترد القدر . وإنما العزل نفسه من القدر .

وهذا توجيه نبوي كبير ، إذ لا يجوز الاحتجاج بالقدر على ترك الإعداد
والتخطيط . وهذه قاعدة مطردة في شؤون المستقبل وتحدياته: لا ندع العمل تعللاً
بالقدر ، فهو نفسه من القدر . وهذا علاج للجُمود والوهن الحضاريين ، لو أخذت
به الأمة كان لها شأن آخر .

٢- مثال الإدخار:

إذا كان بعد أداء حقوق المال جاز ، وإلا فهو الكنز الذي ذكر الله جل شأنه:

﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ

أليمٍ ﴾ التوبة ٣٤

٩٤ - رواه مسلم ، ح ١٤٣٩ . وأبو داود ، في العزل ، ٢١٧١ . والنسائي ، ب العزل ، ١٠٨ / ٦ . وأحمد في مسنده ، ح ١٤٢٨٢ ، ح ١٥٠٧٨ . والبيهقي ، ب العزل ، ٢٣٠ / ٧ . كلهم في كتاب النكاح ، إلا أحمد ففي مسند جابر .
٩٥ - أخرجه أحمد عن أنس ، ١٢٣٦٠ ، وصحح شاكر إسناده ، ٤٥٢ / ١٠ . وكذا البزار ، والطبراني في
الأوسط ، عن شيخه محمد الرازي ، ٦٨٨٤ . وحسن الهيثمي إسناده وأحمد والبزار ، وقال في طريق الطبراني:
فيه عن لم أعرفه . المجمع ، ب العزل ، ٤ / ٣٥٥ . ورمز السيوطي لحسنه ، الجامع الصغير بشرح العزيري ،
٢ / ٢١١ . واستشهد له ابن حجر بغيره ، وظاهر صنيعة صحة الحديث ، أو حسنه على الأقل . فتح الباري ،
٩ / ٣٥٢ . فهذا الخبر يدور بين الصحة والحسن .

النبي يدخر: ولنا في سيرة الرسول ﷺ بيان شاف في المسألة، فقد روى عمر أن أموال بني النضير كانت مما أفاء الله على رسوله، مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، فكانت للنبي خاصة. فكان ينفق على أهله نفقة سنة، وما بقي يجعله في الكراع والسلاح، عدة في سبيل الله^(٩٦). وفي رواية البخاري: كان عليه السلام يبيع نخل النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم^(٩٧). وهذا صريح في جواز الادخار وأنه لا ينافي التوكل^(٩٨)، وهو غير الاحتكار. قال القرطبي: في الحديث ما يدل على جواز ادخار قوت العيال سنة، ولا خلاف فيه إذا كان من غلة المدخر وأرضه. أما إن ادخر شراء من السوق، فأجازه قوم ومنعه آخرون إذا أضر بالناس. وهو مذهب مالك في الاحتكار مطلقاً^(٩٩).

مدة الادخار ومداه: وقد وقف بعض العلماء عند ظاهر اللفظ، فحددوا زمن الادخار بالسنة. وهو من مفهوم اللقب الذي يضعفه جمهور الأصوليين. لذلك استدل الطبري بالحديث على إباحة الادخار مطلقاً، وقال ابن حجر: هو استدلال قوي لأن "التقييد بالسنة إنما جاء من ضرورة الواقع، لأن الذي كان يدخر لم يكن يحصل إلا من السنة إلى السنة، لأنه كان إما تمرراً وإما شعيراً. فلو قدر أن شيئاً مما يدخر كان لا يحصل إلا من سنتين إلى سنتين لاقتضى الحال جواز الادخار لأجل ذلك"^(١٠٠). (وهذا وجهه، لأن الذي يحدد مدة الادخار هو نوع السلعة أو الشيء الذي يراد ادخاره، فعمل النبي الكريم يشرع لمبدأ جواز الادخار، بل استحبابه. وتفصيل ماذا ادخر وكم.. لا يلتفت إليها لأنها تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال. فهذه عملية تنقيح المناط التي تزيل الأوصاف غير المؤثرة في الحكم.

٩٦ - رواه مسلم، ب حكم الفيء، ك الجهاد، ١٧٥٧. وأبو داود في صفايا رسول الله من الأموال، ك الخراج والإمارة، ٢٩٦٥. والترمذي، ب ما جاء في الفيء، ك الجهاد، ١٧١٩. وأحمد في مسند عمر، ١٧١. والبخاري في رواية مالك بن أوس من مسنده، ٢٥٥، وقال: هذا الحديث لا نعلم رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا عمر بن الخطاب، ولا نعلم له إسناداً عن عمر إلا هذا الإسناد، ٣٧٨ / ١.

٩٧ - باب حبس الرجل قوت سنة على أهله، ك النفقات، ٥٣٥٧. وفي ب فرض الخمس، ٣٠٩٤، مثله.

٩٨ - إكمال المعلم، ٧٦ / ٦.

٩٩ - المفهم، ٥٥٨ / ٣.

١٠٠ - فتح الباري، ٥٧٥ / ٩.

وقد حكى الغزالي أقوال بعض الصوفية في الحد الذي إذا بلغه الادخار قدح في التوكل، فقيل: أربعون يوماً، وقيل أكثر، وقيل أقل... الشاهد عندنا أن الغزالي علق على ذلك بقوله: "هذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار. نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل، فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له"^(١٠١).

ومن هذا أيضاً يستخرج مدى الادخار ومجاله، أعني فيم يكون. إذ الظاهر أن الرسول ادخر تمراً أو شعيراً، لكننا إذا عملنا حكمة الادخار لا صورته فإننا نستنبط أمرين:

١- الأصل عموم الادخار، فكل ما تمس إليه الحاجة يمكن الاحتفاظ به، ولذلك فإن أبواب الادخار كثيرة: من الدواء والغذاء.. إلى الآلات والألبسة.. إلى الماء والهواء.. إن احتيج لذلك.

٢- علمنا النبي الكريم أن ندخر لأسرنا، وفيه تنبيه على الادخار لما هو أكبر منها كالشعب أو الأمة.. لهذا ينبغي للدولة المسلمة أن تكون لها سياسة مدروسة للادخار المستقبلي في جميع المجالات، خاصة تلك التي تتعلق بالنواحي الاستراتيجية في حياة الأمة، أو ما يطلق عليه: الأمن الغذائي، والأمن الدفاعي، والأمن السكاني.. إلخ.

ثانياً - التخطيط الاجتماعي:

أعني بالتخطيط الاجتماعي التخطيط الذي يتعلق بالمجتمع أو بالجماعة لا بالأفراد. ومن أبرز أمثله فكرة الحجر الصحي التي كان أول من أقرها هو الإسلام، وذلك حين دعا إلى نوع من الفصل بين المرضى والأصحاء. لكن هذا المبدأ الاحتياطي الكبير تعارضه ظواهر بعض الأحاديث التي تنفي العدوى. لهذا سألنا فيما يلي هذا التعارض وكيفيات رفعه... ومنه تتضح بعض معالم التخطيط النبوي في مجال الصحة العامة بالخصوص:

١٠١- إحياء علوم الدين، ٤/ ٢٩٣.

أحاديث العدوى :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا عدوى ولا صفر ولا هامة. فقال أعرابي: يا رسول الله، فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيخالطها البعير الأجرب فيجربها كلها؟ فقال عليه السلام: فمن أعدى الأول؟ ^(١) وعن أبي هريرة أيضا أنه ﷺ قال: لا يوردن ممرض على مصح ^(٢). قال أبو سلمة بن عبد الرحمان بن عوف: كان أبو هريرة يحدثهما كليهما عن رسول الله، ثم صمت أبو هريرة بعد ذلك عن قوله: لا عدوى، وأقام على: أن لا يورد ممرض على مصح. فقال الحارث بن أبي ذباب - وهو ابن عم أبي هريرة -: قد كنت أسمعك يا أبا هريرة تحدثنا مع هذا الحديث حديثا آخر قد سكت عنه، كنت تقول: قال رسول الله: لا عدوى. فأبى أبو هريرة أن يعرف ذلك حتى تمارا. قال أبو سلمة: فلا أدري أنسي أبو هريرة، أو نسخ أحد القولين الآخر ^(٣).

آراء العلماء فيها: وقد ذهب العلماء مذاهب شتى في رفع التعارض بين الحديثين - ونحوهما مما يشبههما -، ولهم في ذلك ثلاثة مسالك رئيسة ^(١٠٢):

أولا- مسلك النسخ: حديث " لا يورد ممرض على مصح " منسوخ بحديث لا عدوى. ورد عليه بأن النسخ لا يصار إليه إلا بعد تعذر الجمع ^(١٠٣)

ثانيا- مسلك الترجيح: حديث لا عدوى مرجح على الآخر الذي نسيه راويه

١- هذا حديث مشهور أوردته كثير من دواوين السنة، منها: صحيح البخاري، باب لا هامة، كتاب الطب، ٥٧٧٠. وصحيح مسلم، باب لا عدوى، كتاب السلام، ٢٢٢٠. ومسنند أحمد، حديث رقم ٧٦٠٩، وانظر بهامشه ما كتبه أحمد شاكر في تخريجه وما أحال عليه من أحاديث أخر.

٢- رواه البخاري في الطب، باب لا هامة، ح ٥٧٧١، ب لا عدوى، ٥٧٧٤. ومسلم في كتاب السلام، ب لا عدوى، ح ٢٢٢١. وأبو داود، ب في الطيرة، ك الكهانة والتطير، ح ٣٩١١. وابن ماجه، ب من كان يعجبه الفأل...، ك الطب، ٣٥٤١. وأحمد في المسند، رقم ٩٢٣٥ و ٩٥٧٨. وراجع عامة طرق الحديث في سنن البيهقي، ب لا يورد ممرض على مصح، ٢١٦/٧ فما بعدها.

٣- ممن روى هذا الكلام عن أبي سلمة: مسلم وأبو داود، في المواضع المذكورة بالهامش السابق.

١٠٢ - راجع التفاصيل في: فتح الباري، ١٠/ ١٨١ إلى ١٨٤.

١٠٣ - انظر: إكمال المعلم، ٧/ ١٤٠. فتح الباري، ١٠/ ٢٧٤. السراج الوهاج، ٨/ ٣٨٣. تهذيب السنن، ٥/ ٣٧٥. مفتاح دار السعادة، ص ٥٨٧. إكمال المعلم، ٧/ ١٤٠.

أبو هريرة^(١٠٤). ورد الجمهور هذا المذهب واعتبروا أن أحاديث إثبات العدوى ونفيها صحيحة كلها، ونسيان الراوي للحديث الذي رواه لا يقدح في صحته، خصوصا أن خبر أبي هريرة ثبت من رواية صحابة آخرين^(١٠٥).

ثالثا- مسلك الجمع: فكلا الحديثين - وما في معناهما - صحيح. قال النووي: إن تصحيح الحديثين والجمع بينهما هو الصواب الذي عليه جمهور العلماء^(١٠٦). ثم اختلفوا في طريقة الجمع على آراء، هذه أبرزها:

١- لا عدوى إما نهى عن اعتقادها، أو إخبار بأنها لا تقع بطبعها. ومقصود الحديث حفظ العقيدة وتحقيق صفاء التوحيد. ولذلك نهى عليه الصلاة والسلام عن "إيراد الممرض على المصح مخافة الوقوع فيما وقع فيه أهل الجاهلية من اعتقاد ذلك"^(١٠٧).

٢- حديث لا عدوى على ظاهره، والنهي عن إيراد المريض على الصحيح هو من باب سد الذرائع^(١٠٨). قال أحمد القرطبي: وذلك "مخافة تشويش النفوس، وتأثير الأوهام، وهذا كنعو أمره صلى الله عليه وسلم بالفرار من المجذوم، فإننا وإن كنا نعتقد أن الجذام لا يعدي، فإننا نجد من أنفسنا نفرة، وكراهية لذلك"^(١٠٩).

٣- قول النبي "لا عدوى" إخبار عن ظنه في أمر دنيوي، وليس بالوحي. وقد نقل ابن القيم هذا المذهب، فقال: "وقد سلك بعضهم مسلكا آخر، فقال... إخباره عليه السلام عن عدم العدوى: إخبار عن ظنه، كإخباره عن عدم تأثير التلقيح، لا سيما وأحد البابين قريب من الآخر، بل هو في النوع واحد، فإن اتصال

١٠٤ - فتح الباري، باب الجذام، ١٠ / ١٨١.

١٠٥ - راجع: المنهاج، ١٤ / ١٨١. مفتاح دار السعادة، ص ٥٨٧. المفهم، ٥ / ٦٢٦.

١٠٦ - المنهاج، ١٤ / ١٨٤.

١٠٧ - المفهم، ٥ / ٦٢٤. وانظر التفاصيل في: تهذيب السنن، ٥ / ٣٧٥. السراج الوهاج، ٨ / ٣٨١. عون المعبود، ١٠ / ٤٠٩. بذل الماعون في فضل الطاعون، لابن حجر العسقلاني، ص ٢٩٦. إكمال المعلم، ٧ / ١٤٢.

١٠٨ - وقال بهذا الرأي كثيرون، انظر: فتح الباري، ١٠ / ١٨٢. معارج القبول، ٣ / ٨٢٨.

١٠٩ - المفهم، ٥ / ٦٢٤ - ٦٢٥.

الذكر بالأنثى وتأثره به كاتصال المعدي بالمعدى وتأثره به، ولا ريب أن كليهما من أمور الدنيا لا مما يتعلق به حكم من الشرع، فليس الإخبار به كالإخبار عن الله سبحانه وصفاته وأسمائه وأحكامه.. فلما تبين له عليه السلام من أمر الدنيا - الذي أجرى الله سبحانه عاداته به - ارتباط هذه الأسباب بعضها ببعض وتأثير التلقيح في صلاح الثمار وتأثير إيراد المرض على المصح أقرهم على تأبير النخل ونهاهم أن يورد ممرض على مصح.^(١١٠)

٤- نفي العدوى بمعنى " أن شيئاً لا يعدي بطبعه نفيًا لما كانت الجاهلية تعتقده أن الأمراض تعدي بطبعها من غير إضافة إلى الله، فأبطل النبي ﷺ اعتقادهم.^(١١١) فالعدوى من الأسباب التي أجرى الله العادة بأنها تفضي إلى مسبباتها، لكن لا تستقل بالعمل، بل الله إن شاء سلبها قواها فلا تؤثر شيئاً، وإن شاء أبقاها فأثرت.^(١١٢)

وهذا رأي جماعة كثيرة، منهم البيهقي وابن الصلاح^(١١٣) والدهلوي..^(١١٤) قال ابن القيم في تعارض الحديثين: " هذا إنما يدل على أن إيراد الممرض على المصح قد يكون سببا يخلق الله تعالى به فيه المرض، فيكون إيراده سببا. وقد يصرف الله سبحانه تأثيره بأسباب تضاده، أو تمنعه قوة السببية، وهذا محض التوحيد، بخلاف ما كان عليه أهل الشرك.^(١١٥) ولعل هذا الرأي الأخير أوسط الأقوال وأعدلها.^(١١٦)

١١٠ - مفتاح دار السعادة، ص ٥٩٠ - ٥٩١ .

١١١ - فتح الباري، ١٠ / ١٨٢ .

١١٢ - فتح الباري، ١٠ / ١٨٢ . معارج القبول، ٣ / ٨٢٨ .

١١٣ - السنن الكبرى، باب " لا يورد ممرض على مصح، فقد يجعل الله تعالى بمشيئته مخالطته إياه سببا لمرضه"، ٧ / ٢١٦ . فتح الباري، ١٠ / ١٨٣ . بذل الماعون، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

١١٤ - المسوى شرح الموطأ، ٢ / ٣٨٣ .

١١٥ - تهذيب السنن، لابن القيم، ٥ / ٣٧٥ .

١١٦ - الذي تبين لي أن مناط الاختلاف في هذه القضايا هو ما يعرف في علم الكلام والفكر الإسلامي بـ: مشكلة السببية، ولهذه اتصال وثيق بقضية القدر، ولذلك فهي صعبة جدا ومعقدة. وقد سبق لي بحثها بتفصيل في كتابي: " الوجود بين مبدئي السببية والنظام ". ورأيي الخاص هو أن على الفكر الإسلامي أن يتجاوز ما أمكن هذا الإشكال، فيعترف بما يسمى: العلية المجعولة. وهذا القول الرابع مثال لها.

تخطيط المستقبل الصحي: العدوى إذن واقع ولها حقيقة، لذلك وجدنا عمر وبعض الصحابة يترددون في دخول أرض أصابها الطاعون قبل أن يبلغهم التوجيه النبوي المعجز في الموضوع والذي يؤسس بوضوح لمشروعية - بل أفضلية - التخطيط البشري لشؤون الصحة في الحال والمستقبل. وحين قال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارا من قدر الله؟ أجابه عمر: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله.. فجاء عبد الرحمان بن عوف، وكان متغيبا في بعض حاجته. فقال: إن عندي من هذا علما. سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه. وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فرارا منه. »^(١١٧)

إن هذا الحديث العظيم يؤسس لفكرة الحجر الصحي، فهو يقرر مبدأ الاحتياط لمستقبل صحة الأمة في مجموعها. ولم يكتشف العالم هذا المبدأ إلا بعد أن حصدت الطواعين والأوبئة مئات الملايين في تاريخ الإنسانية. وكنا نعتقد أن ذلك ولى، لولا ظهور ما يسمى بأنفلونزا الطيور، واحتمال تحوله إلى وباء عالمي خطير.

ثالثاً- التخطيط الاستراتيجي: نموذج الإحصاء السكاني:

مما يثير إعجاب القارئ للسنن الشريفة، خصوصا إذا كان غرضه ملاحظة القيم الحضارية التي ترشد إليها، أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر باستخدام أسلوب الإحصاء، بل إنه طبق ذلك عمليا في المدينة. بينما ورد في التوراة لعن العد وتحريمه، وكان لذلك أثر في تأخير ظهور علم الإحصاء بأوروبا.^(١١٨)

١١٧ - رواه مسلم، ب الطاعون، ك السلام. ورواه أيضا البخاري، ب ما يذكر في الطاعون، ك الطب، ٥٧٢٩. ومالك في الموطأ، ب ما جاء في الطاعون، ك الجامع. والبيهقي، ب لا يورد ممرض على مصح، ك النكاح، ٢١٨ / ٧. واقتصر أحمد على ذكر خبر ابن عوف، ١٥٠٨. وكذلك أبو يعلى، مسند سعد بن أبي وقاص، ٦٨٧. والطبراني في الكبير، مسند خالد بن العاص، ٤١٢٠. وانظر تخريجا واسعا جدا للقصة في بذل الماعون، لابن حجر، ص ٢٤١ فما بعدها.

١١٨ - (مدخل إلى العلوم الاجتماعية، لفالاد)، Introduction aux sciences sociales, par B.Valade, .18p

الرسول يأمر بالإحصاء:

روى البخاري قال: حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبي وائل عن حذيفة قال: قال النبي ﷺ: اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس فكتبنا له ألفا وخمسمائة رجل. فقلنا: نخاف ونحن ألف وخمسمائة؟ فقلنا رأيتنا ابتلينا، حتى إن الرجل ليصلي وحده وهو خائف^(١١٩). وروى مسلم قال: حدثنا أبو كريب حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن شقيق عن حذيفة قال: كنا مع رسول الله فقال: احصوا لي كم يلفظ الإسلام. قال: فقلنا: يا رسول الله، أتخاف علينا ونحن ما بين الستمئة إلى السبعمئة؟ قال: إنكم لا تدرُونَ، لعلكم أن تبتلوا. قال: فابتلينا، حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سرا^(١٢٠). وبهذا اللفظ رواه أحمد^(١٢١) والإحصاء هو العد، بينت رواية البخاري أنه كان بالكتب، لذلك بوب على الحديث: باب كتابة الإمام الناس.

وقد ذكر البخاري طريقين آخرين ذكرهما الرواة في نتيجة الإحصاء، فقال عقب الحديث: حدثنا عبدان عن أبي حمزة عن الأعمش: فوجدناهم خمسمائة. قال أبو معاوية: ما بين ستمئة إلى سبعمئة. وعلق على ذلك ابن حجر: "كأن رواية الثوري رجحت عند البخاري فلذلك اعتمدها لكونه أحفظهم مطلقا، وزاد عليهم، وزيادة الثقة الحافظ مقدمة. وأبو معاوية - وإن كان أحفظ أصحاب الأعمش بخصوصه، ولذلك اقتصر مسلم على روايته - لكنه لم يجزم بالعدد، فقدم البخاري رواية الثوري لزيادتها بالنسبة لرواية الاثنين ولجزمها بالنسبة

١١٩ - باب كتابة الإمام الناس، كتاب الجهاد والسير، ٣٠٦٠. وابن يوسف هو الفريابي، وسفيان الثوري، وحذيفة بن اليمان. وأخرجه أيضا البيهقي، ب السنة في كتبه أسامي أهل الفقه، ك قسم الفقه والغنيمه، ٣٦٣/٦ - ٣٦٤.

١٢٠ - باب الاستسار بالإيمان للخائف، كتاب الإيمان، ١٤٩.

١٢١ - المسند، ١٦ / ٥٧١، حديث ٢٣١٥٢. ووقع هذا الحديث لأحمد بسند أعلى من مسلم، لأنه يرويه مباشرة عن أبي معاوية. وأخرجه أيضا ابن ماجه في السنن، ك الفتن، ب الصبر على البلاء، ٤٠٢٩. والبخاري، ما يرويه أبو وائل عن حذيفة، ٢٨٦٩.

لرواية أبي معاوية^(١٢٢). وقد قيل في الجمع بين الروايات:

١- قام الصحابة بأكثر من إحصاء واحد.

٢- المراد بالألف وخمسمائة جميع من أسلم، بما في ذلك النساء والأطفال، وبما بين الستمئة إلى السبعمئة الرجال خاصة، وبالخمسمئة المقاتلون فقط. ويعكّر عليه أن في رواية البخاري: ألف وخمسمئة رجل.

٣- الرواية الأولى في أهل المدينة وما حولها من البادية، والثانية في المدنيين خاصة^(١٢٣). لكن - كما قال الحافظ - "يخشى في وجوه هذه الاحتمالات كلها اتحاد مخرج الحديث ومداره على الأعمش بسنده واختلاف أصحابه عليه في العدد المذكور، والله أعلم"^(١٢٤).

فلعل رواية البخاري أرجح، خصوصاً مع جزمها، والإحصاء لا يترك مجالاً للتردد لأن المقصود منه الضبط ومعرفة الأمور على حقيقتها، بخلاف التقدير تكون الغاية منه إدراك الواقع على وجه التقريب فقط.

زمن الإحصاء: يبقى السؤال: متى كان هذا الإحصاء النبوي؟ فقال ابن حجر: لعله كان عند خروجهم إلى أحد أو غيرها. وجزم ابن التين بأن ذلك عند حفر الخندق. أما الداودي فقد جوز أن يكون ذلك بالحديبية^(١٢٥).

وهذه الأجوبة كلها محتملة، وأبعدها - في نظري - رأي القرطبي حين علق على قول حذيفة: فابتلينا... فقال: "يعني بذلك والله أعلم ما جرى لهم في أول الإسلام بمكة حين كان المشركون يؤذونهم ويمنعونهم من إظهار صلاتهم حتى كانوا يصلون سرا"^(١٢٦). فهذا سهو من الشارح رحمه الله، ذلك:

١- لأن حذيفة مدني لا مكّي، لأن أباه اليمان كان أصاب دما في قومه فهرب إلى

١٢٢ - فتح الباري، ٦ / ١٩٩.

١٢٣ - فتح الباري، ٦ / ١٩٩.

١٢٤ - فتح الباري، ٦ / ١٩٩.

١٢٥ - فتح الباري، ٦ / ١٩٩.

١٢٦ - المفهم، ١ / ٣٦٥.

المدينة.

٢- لأن عدد المسلمين بمكة لم يكن يصل هذا الرقم. هذا معلوم من السيرة.
٣- وفي الحديث قرائن أخرى كاستغراب الصحابة أن يصيبهم خوف، وليس هذا حالهم في مكة.

لهذا ترجم البخاري: باب كتابة الإمام الناس، والنبى لم يكن إماما إلا بالمدينة.

١- تخريج زمن الإحصاء على رواية البخاري: الظاهر أن الإحصاء شمل الرجال، ومن المسلمين والمنافقين أيضا، لأن النبي الكريم قيد الكتابة بالتلفظ بالإسلام، أي بالشهادتين، وكانت سياسته عليه السلام مطردة في اعتبار المنافقين من أهل الإسلام بحسب الظاهر. ونحن نعرف من كتب السيرة أن جيش المسلمين بأحد كان حوالي ألفا، بقي منهم بعد انسحاب المنافقين الثلثان. ونعلم أيضا أن عدد المسلمين بغزوة الخندق حوالي ثلاثة آلاف، وكانت في السنة الخامسة^(١٢٧).

إذن فالإحصاء كان بين هاتين الغزوتين. وقول الصحابة: أنخاف ونحن ألف وخمسمائة، يقتضي أنهم كانوا يشعرون بنوع من القوة والمنعة، كما قالوا يوم حنين: لن نهزم من قلة. وهذا الشعور لا يمكن أن يكون بعد أحد، ولا في السنة الثالثة للهجرة لما وقع فيها من مصيبة يومي الرجيع وبئر معونة حيث قتلت بعض القبائل عشرات القراء، كأنها استهانت بشوكة المسلمين بعد هزيمتهم بأحد. وغالب ظني أن هذا الإحصاء الذي أمر به الرسول عليه الصلاة والسلام كان في السنة الرابعة، ففيها استعاد المسلمون معنوياتهم - كما يقال - بسبب إجلاء بني النضير وغزوة ذات الرقاع... وهما أبرز نجاحات تلك السنة.

٢- تخريج زمن الإحصاء على رواية مسلم: والراجح لدي أنه كان قبل غزوة

١٢٧ - راجع مثلا: الروض الأنف، للسهيلى، ٣/ ٢٦١.

أحد، لأن عدد الرجال الذين كانوا بالمدينة وقتها يفوق ألفا بيقين. لكن إحساس الصحابة بقوة أمرهم يمكن إرجاعه إلى الفترة بعيد بدر، وهذا الانتصار الكبير - حيث كان فيه عددهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا - كان على رأس إحدى وعشرين شهرا من الهجرة، بينما كانت أحد على رأس اثنين وثلاثين شهرا. أما الابتلاء والصلاة خائفا أو سرا، فالأقرب أن ذلك كان بغزوة الخندق، ففيها اشتد الخوف على الصحابة حين تكالبت عليهم الأحزاب.

غاية الإحصاء: والحكمة من هذا الإحصاء أن النبي عليه الصلاة والسلام احتاج إلى معرفة الطاقات والإمكانات التي بحوزته حتى يختار في ضوء ذلك المواجهة من عدمها ويدرس ظروفها وحدودها، إذ من المعلوم أن التخطيط السليم ينبني على المعلومات الدقيقة. قال الحافظ: في الحديث مشروعية كتابة دواوين الجيوش، وقد يتعين ذلك عند الاحتياج إلى تمييز من يصلح للمقاتلة ممن لا يصلح. ونقل عن ابن المنير قوله: موضع الترجمة من الفقه أن لا يتخيل أن كتابة الجيش وإحصاء عدده يكون ذريعة لارتفاع البركة، بل الكتابة المأمور بها لمصلحة دينية، والمؤاخذة التي وقعت في حنين كانت من جهة الإعجاب^(١٢٨). يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ (التوبة ٢٥). تعدده: ويظهر أن هذا الإحصاء المذكور لم يكن الأخير، بل استمر الرسول ﷺ المعلم في استعمال هذا الأسلوب، فعن ابن عباس أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: إني كتبت في غزوة كذا وكذا، وامرأتي حاجة، قال: ارجع فحج مع امرأتك^(١٢٩).

وإذا كان الإحصاء الأول في بداية الإسلام بالمدينة، فإن هذا الاكتتاب كان بآخره، لأن الحج المذكور كان إما في سنة تسع مع أبي بكر الصديق، أو في سنة

١٢٨ - فتح الباري، ٦/ ١٩٩.
١٢٩ - رواه البخاري في الكتاب نفسه: باب كتابة الإمام الناس، ح ٣٠٦١. وقدم الحديث تاما في باب حج النساء، ١٨٦٢.

عشر، وهي حجة الوداع. (١٣٠)

وقد تعود الصحابة أسلوب الإحصاء والعد، فاحتفظوا لنا بأعداد من شارك في الغزوات، ومن استشهد، ومن أسر... حتى ذكروا أعداد الخيول والذبائح.. ونحوها. يكفي لإدراك هذا الأمر الاطلاع على أي كتاب في السيرة النبوية. والحقيقة أنه ليس بمستغرب أن يلجأ الرسول الكريم إلى منهج الإحصاء، فإن المؤمن يتشبه بصفات الله، أو بعضها، وهو يقرأ أن ربه عز وجل يحصي كل شيء ويكتبه ويحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿يس ١٢﴾ ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ ﴿الجن ٢٨﴾ قال المناوي في كلمة احصوا: عدوا واضبطوا، والإحصاء أبلغ من العد في الضبط لما فيه من إعمال الجهد في العد (١٣١).

المبحث الخامس : من آداب المستقبلية في الحديث :

توقع المستقبل والتخطيط له.. أمور لا تتعلق فقط بمجال الاعتقاد والعمل، بل أيضا بالأدب. وهذا وفق منهج الإسلام التكاملي في الربط المحكم بين العقيدة والشريعة والمعاملة. وقد نبهنا نبينا العظيم على مجموعة من الآداب التي ينبغي للمسلم أن يتخلق بها ويراعها في تعامله مع الزمان الآتي، سواء كان باحثا أو عاملا في حقل المستقبلية، أو لم يكن. وأذكر من هذه الآداب ثلاثة:

أولا - الاستثناء في المستقبل :

وهو من أهم آداب المستقبلية، ومعناه أنك حين تتوقع أمورا ما أنها ستكون، فإنك - بقلبك ولسانك - تربط ذلك بمشيئة الله سبحانه... مهما كانت درجة

١٣٠ - فتح الباري، كتاب الحج، ٤ / ٩٠.

١٣١ - فيض القدير، ح ٢٦٠، ١ / ٢٥٠.

الاستشراف وقوته. كأنك تقر بأن تدبيرك - أو تدبير غيرك - مرهون ومشروط بإرادة الباري التي أحاطت بكل شيء. وأدب الاستثناء - كما نبه عليه ابن تيمية - يخص المستقبل لا الماضي.^(١٣٢)

الاستثناء في القرآن: كان المشركون قد سألوا النبي ﷺ عن أهل الكهف وذي القرنين ... فوعدهم بالجواب من الغد، ولم يقل إن شاء الله... فتأخر الوحي مدة، وكان ذلك نوعاً من العتاب الرمزي للرسول الكريم. ثم لما كان اليوم الخامس عشر نزل الوحي ببيان الجواب عما سأله^(١٣٣)، وأرشد الله رسوله إلى أدب هام من آداب التوقع، فقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿١١٠﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۗ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِن هَٰذَا رَشَدًا ﴿١١١﴾﴾ (الكهف). قال الطبري: "هذا تأديب من الله عز ذكره لنبيه ﷺ، عهد إليه أن لا يجزم على ما يحدث من الأمور أنه كائن لا محالة إلا أن يصله بمشيئة الله، لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله"^(١٣٤).

قصة النبي سليمان ودروسها: إن الاستثناء في المستقبل أدب عام لم يخصه الله تعالى بنبيه وأمته، بل أرشد إليه سبحانه من سبقنا بالإيمان. فقد روى الأئمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ز قال: سليمان بن داود نبي الله: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة. كلهن تأتي بسلام يقاتل في سبيل الله. فقال له صاحبه، أو الملك: قل: إن شاء الله. فلم يقل، ونسي. فلم تأت واحدة من نسائه، إلا واحدة جاءت بشق غلام. فقال رسول الله ﷺ: ولو قال: إن شاء الله، لم يحنث، وكان

١٣٢ - الفتاوى، ٤٢٧ / ٨.

١٣٣ - راجع سبب نزول هذه الآيات في: سيرة ابن هشام، ١ / ٣٢١ فما بعدها.

١٣٤ - جامع البيان، ١٥ / ١٤٠. وراجع: أحكام القرآن، ٣ / ٢٢٧.

دركاله في حاجته" (١٣٥).

وقد ذكر ابن أبي جمرة أن "ظاهر الحديث يدل على أن أمور الغيب لا يجوز القطع عليها في نجاح ما يرجى منها إلا مع الاستثناء" (١٣٦) ويدل الحديث كذلك على إباحة التكلم في المستقبل على سبيل الظن، قال البدر العيني: "فيه جواز الإخبار عن الشيء ووقوعه في المستقبل بناء على الظن"، (١٣٧) وذلك أن سليمان عليه السلام ظن أمرا سيقع من أمور المستقبل وتكلم عنه، بل سعى إليه.

واجتهد العلماء في تعليل هذا التوجيه الإلهي والكشف عن بعض من حكمته، فمن ذلك أن الشيخ ابن أبي جمرة قال: "يحتاج المرء أن يحضر أدب الشريعة في الحال والماضي والمستقبل مع تحقيق التعلق بالوحدانية والتوكل عليها والاعتماد على الفضل والمن إن أراد نجاح سعيه. وقد نبه عز وجل على هذه الأحوال الثلاث في كتابه، فقال في الماضي: ﴿ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ (١٣٨) ﴿ الكهف ﴾ وقال في الحال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وقال في المستقبل: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَأْنِي إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ غَدًا ﴾ (١٣٩) ﴿ الْآ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فهذه الأحوال الثلاثة من طريق الاعتقاد ومن طريق التصرف في المحسوس على مقتضى الشريعة في الأمر الذي يكون التصرف فيه بصدق وتصديق، فمن وفق لذلك فقد كملت له دائرة السعادة ونجح سعيه في الدنيا والآخرة" (١٣٨).

ومن أحسن من تحدث في حكمة الاستثناء القاضي أبو بكر، قال: "قال قوم: أي فائدة لهذا الاستثناء وهو تحقيق واقع لا محالة، لأن الدليل قد قام وكل أحد قد علم بأن ما شاء الله كان؟ قلنا: عنه أربعة أجوبة: الأول: أنه تعبد من الله،

١٣٥ - هذا لفظ مسلم عن أبي هريرة، حديث ١٦٥٤، باب الاستثناء من كتاب الأيمان. ورواه البخاري في الجهاد، ب من طلب الولد للجهاد، ٢٨١٩، وفي أحاديث الأنبياء، ب ٤٠، ح ٣٤٢٤، وفي النكاح، ب ١١٩، ح ٥٢٤٢... وقال النووي في المنهاج، ١١/١٠١: كان دركاله: اسم من الإدراك، أي لحاقا.

١٣٦ - بهجة النفوس، ٣/١٠٤.

١٣٧ - عمدة القاري، كتاب الجهاد والسير، ١٤/١١٦.

١٣٨ - بهجة النفوس، حديث المشيئة، ٣/١٠٨.

فامتثاله واجب، لالتزام النبي ﷺ وانقياده إليه، ومواظبته عليه. الثاني: أن المرء قد اشتمل عقده على أنه إن شاء الله كان ما وعد بفعله أو تركه، واتصل بكلامه في ضميره، فينبغي أن يتصل ذلك من قوله في كلامه بلسانه، حتى ينتظم اللسان والقلب على طريقة واحدة. الثالث: أنه شعار أهل السنة، فتعين الإجهار به، ليميز من أهل البدعة. الرابع: أن فيه التنبيه على ما يطرأ في العواقب بدفع أو تأت، ورفع الإيهام المتوقع بقطع العقل المطلق في الاستغناء عن مشيئة الله سبحانه^(١٣٩).

تخريج الحكم الفقهي للاستثناء المتكرر في المستقبل: لكن هل هذا معناه أن على المسلم أن يستثني بالمشيئة في كل أحواله وجميع كلامه وكتابته؟ هذا سؤال وجيه خصوصاً إذا علمنا أن الحديث عن المستقبل والبحث في التوقعات هما محور ما يعرف بـ "الدراسات المستقبلية"، بمعنى أن المتخصص المسلم في هذا الحقل يضطر إلى استعمال صيغة الزمان المستقبل بكثرة، بحرف السين أو بدونه، مثل: سيقع كذا، سيحدث كذا... أو يتوقع كذا، أو ينتظر كذا... الخ. فلو كان عليه أن يستثني في كل مرة لكثير ذلك جداً.

والذي أراه لحل هذا الإشكال هو أن ينبه الباحث أو الكاتب - في مجال المستقبل - على الاستثناء بضع مرات... وفي غيرها يجوز له إطلاق التوقعات بدون تعليقها اللفظي على المشيئة الإلهية. أقول مثلاً: يجب على الإعلامي أو الصحفي الذي يقدم النشرة الجوية أن يذكر الاستثناء ولو مرة واحدة، والأحسن في بداية النشرة أو نهايتها حتى يربط الاستثناء بها جميعاً.. وبعد هذه المرة لا عليه إن لم يستثن، إن شاء الله. ولي في هذا أدلة ثلاثة:

الأول - رفع الحرج، وهذا أصل شرعي عظيم، وتكرار الاستثناء فيه مشقة... بل إذا كثر في كلام قليل بان فيه التكلف ولم يكن جزلاً.

الثاني - الأصل في الاستثناء النذب لا الوجوب، لذلك اعتبر الرازي تركه تركاً للأولى والأفضل، بل قال: إن التلفظ بهذه الكلمة مندوب في عمل يراد تحصيله^(١٤٠). وقال النووي - في تعليقه على حديث سليمان النبي - : " يستحب للإنسان إذا قال سأفعل كذا أن يقول إن شاء الله، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ ۖ وَالْآيَةُ، ولهذا الحديث. " (١٤١)

الثالث - القياس على الرأي الفقهي القاضي بعدم وجوب الصلاة على النبي ﷺ كلما جرى ذكره، وهذه مسألة خلافية، فإن بعض العلماء أوجب التصليّة في كل مرة، ومنهم من أوجبها مرة في المجلس... وآخرون قالوا: تجب مرة في العمر، وما زاد فهو مستحب^(١٤٢).

لكن - فيما يبدو لي - لا يجوز ترك هذا الأدب باطراد حتى يكون عادة، فإنه يسقط في معارضة هذه النصوص من القرآن والسنة التي تقدمت. فأقول - على طريقة الشاطبي في الموافقات -: الاستثناء بالمشيئة مندوب بالجزء واجب بالكل. ثانياً - الاستخارة:

لما ألغى الدين طرق التنبؤ الفاسدة، كالتنجيم والاستقسام... وحرّم أيضاً التعلق بالطيرة... فإنه فتح للناس أبواباً أخرى، منها الاستخارة^(١٤٣). وهي طلب الخيرة في الأمور منه تعالى، وحقيقتها تفويض الاختيار إليه سبحانه^(١٤٤) قال رشيد رضا: " لما كانت الدلائل والبيّنات تتعارض في بعض الأمور، والترجيح بينها يتعذر في بعض الأحيان، فيريد الإنسان الشيء فلا يستبين له الإقدام عليه خير أم تركه، فيقع في الحيرة - جعلت له السنة مخرجاً من ذلك بالاستخارة حتى لا يضطرب

١٤٠ - راجع: مفاتيح الغيب، عند قول أصحاب البقرة: ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ ﴿ البقرة، ٣ / ١٢٩. وكذلك ١٠٩ / ٢١، آيات الكهف.
١٤١ - المنهاج، ٩٩ / ١١.
١٤٢ - فيض القدير، ١٦٧ / ٦، ح ٨٦٧٨، و ٢٨٣ / ٣، ح ٣١٩٤.
١٤٣ - قال ابن كثير في تفسيره: حرم الله الاستقسام وما شابهه، وأمر المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخروه. ١٨ / ٢، المائة، ٣.
١٤٤ - فيض القدير، ٥ / ٥٦٤.

عليه أمره ولا تطول غمته...^(١٤٥)

والاستخارة تتعلق بالمستقبل، فهو سبب التردد ومصدر الحيرة، لذلك جاء في دعائها: اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي. ^(١٤٦) والعاقبة هي المستقبل، سواء تعلق بالدين أم بالدنيا. وكان النبي ﷺ إذا أراد أمرا قال: اللهم خر لي واختر لي. ^(١٤٧) وقال عليه الصلاة والسلام أيضا: من سعادة ابن آدم استخارته الله... ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله. ^(١٤٨)

وظاهر النصوص أن الاستخارة تكون في جميع الأمور. لكن قال ابن أبي جمرة: هو عام أريد به الخصوص، فإن الواجب والمستحب لا يستخار في فعلهما، والحرام والمكروه لا يستخار في تركهما، فانحصر الأمر في المباح وفي المستحب إذا تعارض منه أمران أيهما يبدأ به ويقتصر عليه. ^(١٤٩) وعلق على ذلك

١٤٥ - المنار، ٦ / ١٥٢، المائدة ٣.

١٤٦ - راجع دعاء الاستخارة كاملا في: البخاري، ب الدعاء عند الاستخارة، ٦٣٨٢، ك الدعوات. أبو داود، ب الاستخارة، ك الصلاة، ١٥٣٨. الترمذي، ب ماجاء في صلاة الاستخارة، ٤٨٠. ابن ماجه، ب ماجاء في صلاة الاستخارة، ك إقامة الصلاة، ١٣٨٣. الطبراني في الكبير، ٣٩٠١.

١٤٧ - رواه الترمذي، ب ٨٦، ك الدعوات، ٣٥١٦. وقال: زهدا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث زنفل، وهو ضعيف عند أهل الحديث. وتفرد بهذا الحديث ولا يتابع عليه. س وكذلك قال البزار: مداره على زنفل، ولما لم نحفظ هذا الكلام إلا عنه لم نجد بدا من كتابته. المسند، ح ٥٩، ١ / ١٢٩. وانظر: فتح الباري، ٢٠٧ / ١١. مجمع الزوائد، ب ماجاء في المشاورة، ١٨١ / ٨. الجامع الصغير وشرحه فيض القدير، ٥ / ١٢٤

١٤٨ - أخرجه أحمد في مسند سعد بن أبي وقاص، ١٤٤٤، وقال أحمد شاكر: إسناده ضعيف، ٢ / ٢١٠، بينما حسن ابن حجر سنده في: فتح الباري، ١١ / ٢٠٧، وكذلك فعل السيوطي في الجامع الصغير، ٨٢٥٢، ٦ / ١٩. أما الحاكم فأخرجه في كتاب الدعاء، ١٩٠٣، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. المستدرک، ١ / ٦٩٩. وأصل الحديث عند الترمذي، ك القدر، ب ما جاء في الرضا بالقضاء، ٢١٥١ (غير أنه لم يقل: من سعادة ابن آدم استخارته الله)، ثم قال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن أبي حميد، وليس بالقوي عند أهل الحديث. انتهى. فهذا الراوي - والمقصود به الأنصاري - هو سبب الاختلاف، راجع تهذيب التهذيب، ٩ / ١٣٢. لكنهم قالوا: حديثه مقارب ويكتب. انظر: المجمع، ب الاستخارة، ٢ / ٥٦٦. ولعل حكم ابن حجر والسيوطي أوسط الأقوال في هذا الحديث.

١٤٩ - بهجة النفوس، ٢ / ٨٧.

ابن حجر بقوله: "وتدخل الاستخارة فيما عدا ذلك في الواجب والمستحب المخير، وفيما كان زمنه موسعا. ويتناول العموم العظيم من الأمور والحقير، فرب حقير يترتب عليه الأمر العظيم."^(١٥٠) لكنني لست أرى أن من الفقه غلو المرء في الاستخارة، بحيث يبالي بالرجوع إليها، فهي - بحسب الأصل - تكون عقب التردد وبعد كد النظر واستيفاء الأسباب .. لا قبل ذلك، وإلا أشبهت التواكل. هذا في الصلاة، أما بالذكر والدعاء فلا شك في استحبابهما على الدوام، ما دام مقارنين للعمل والسعي.

وإذا أحدث الله تعالى في قلب المستخير انشراحا، فالظاهر جواز الإقدام. أما إذا لم يجد المرء من نفسه جنوحا لشيء، فهاهنا مسألة قلما ذكرها أهل العلم، تكلم فيها الشيخ الميرتهي بكلام نفيس، خلاصته أن العبد يفعل كما يشاء، والله تعالى يقدره ويكونه خيرا.^(١٥١)

ثالثا - حكم التوقعات المسجوعة :

كان للعرب - بما لهم من عناية بالبيان والفصاحة - حب للسجع وتذوق له. واشتهر عن كهنتهم استعماله، حتى كادوا لا يتكلمون إلا به. يقول ابن عاشور: كانوا " لا يصدرون إلا كلاما مجملا موجهها قابلا للتأويل بعدة احتمالات، بحيث لا يؤخذون بالتكذيب الصريح .. وهم بحيلتهم واطلاعهم على ميادين النفوس ومؤثراتها التزموا أن يصوغوا كلامهم الذي يخبرون به في صيغة خاصة ملتزما فيها فقرات قصيرة مختتمة بأسجاع، لأن الناس يحسبون مزوجة الفقرة لأختها دليلا على مصادفتها الحق والواقع، وأنها أمانة صدق .."^(١٥٢)

لهذا كان الرسول ﷺ يكره الإكثار من السجع وتكلفه، خاصة إذا جاء في معارضة حق. وقد روى أبو هريرة أنه حين اقتتلت امرأتان من هذيل، فأسقطت

١٥٠ - فتح الباري، ١١ / ٢٠٧.

١٥١ - راجعه بتمامه في: البدر الساري إلى فيض الباري، لمحمد بدر الميرتهي، ٢ / ٥٧٩، ح ١١٦٢.

١٥٢ - التحرير والتنوير، ١٤ / ٣٣.

إحداهما جنين الأخرى وقضى فيه عليه السلام بدية غرة، قام أحد الأولياء وقال : يا رسول الله، كيف أغرم من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، فمثل ذلك يطل ؟ فقال النبي الكريم : إنما هذا من إخوان الكهان. قال الراوي : من أجل سجعه الذي سجع . وفي رواية: أسجع الجاهلية وكهانتها.^(١٥٣) وشرحه القرطبي: "يعني بذلك أنه تشبه بالكهان فسجع كما يسجعون حين يخبرون عن المغيبات، كما قد ذكر ابن إسحاق من سجع شق وسطيح وغيرهما. وهي عادة مستمرة في الكهان."^(١٥٤)

لهذا فإن الحديث لا يدل على كراهة السجع لوحده، أعني في ذاته. إذ نقل الرواة عن النبي الكريم جملاً مسجعة، ليست كثيرة - لأن السجع كالشعر، كلاهما لا يليق بالنبوة - ، ولكنها موجودة ومعدودة. فمن دعائه عليه السلام: آيئون تائبون، عابدون ساجدون، لربنا حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده^(١٥٥). وقد استنبط منه القاضي عياض: "جواز السجع في الدعاء والكلام إذا كان بغير تكلف. وإن ما نهى عنه من ذلك ما كان باستعمال وبروية، لأنه يشغل عن الإخلاص، ويقدم في النية. وأما ما ساقه الطبع وقذف به قوة الخاطر دون تكلف ولا استعمال، يباح في كل شيء"^(١٥٦). لهذا استخرج الحافظ أن السجع أربعة أنواع: المحمود، وهو ما جاء عفوفاً في حق. ودونه ما يقع متكلفاً في حق أيضاً. والمذموم عكسهما.^(١٥٧)

والراجح عندي أنه في مجال التوقعات المستقبلية - خاصة - ينبغي أن يكون

١٥٣ - رواه البخاري، ب الكهانة، ك الطب، ح ٥٧٥٨، وتكرر كثيراً. ومسلم، ب دية الجنين، ك القسامة، ١٦٨١. وأبو داود، ب دية الجنين، ك الديات، ٤٥٧٦، وفي حديث ٤٥٧٤: أسجع الجاهلية وكهانتها. ومالك في الموطأ، ب عقل الجنين من كتاب العقول. والنسائي، ب دية جنين المرأة، ك القسامة، ٤٨ / ٨، وفي الباب نفسه للنسائي: أسجع كسجع الأعراب. والمذكور لفظ مسلم.

١٥٤ - المفهم، ٦٤ / ٥. وانظر: إكمال المعلم، ٤٩٢ / ٥. فتح الباري، ٢٤٦ / ١٠.

١٥٥ - مسلم، ب ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره، ك الحج، ١٣٤٤. البخاري، ب ما يقول إذا رجع من الحج، ك العمرة، ١٧٩٧.

١٥٦ - إكمال المعلم، ٤ / ٤٥٥.

١٥٧ - فتح الباري، ١٠ / ٢٤٦.

السجع مكروها، فهذا أقل ما يجب فيه... حتى لو كانت هذه التوقعات صحيحة، أعني قائمة على منهج علمي سليم، كالتوقعات الفلكية أو الاقتصادية. وذلك لأن السجع ارتبط عبر التاريخ بالكهانة، حتى إن أكثر من كان يتنبأ استعمل السجع أو الشعر. ولم يكن هذا في العرب وحدهم. وقد سبق لي أن درست موضوع الكهانة باستفاضة ^(١٥٨)، لذلك أفهم جيدا كراهية الرسول الكريم لهذا السجع، وهو الذي نزل فيه قوله عز من قائل: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (الحاقة).

والخلاصة أن من الآداب المطلوبة من المستقبلي المسلم، أو العالم المسلم الذي يشتغل في علوم التوقع، تجنب السجع وتكلفه، إلا إذا كان قليلا وجاء عفويا... والنادر لا حكم له.

المبحث السادس: نحو وضع قواعد لـ "فقه السنة المستقبلية":

في الأمة - منذ الخلاف الأول في عهد عثمان رضي الله عنه ما يمكن تسميته ب: عقدة الفتن. فهي لم تستطع بعد أن تتجاوز ذلك الاختلاف السياسي وآثاره، وهو أمر معتاد في التاريخ البشري، وفق سنة المدافعة التي كتبها الله سبحانه على الجميع.. وإن كان أهل السنة هم الأقرب إلى تحقيق هذا التجاوز.

من إشكالات أحاديث الفتن: لهذا كانت لأحاديث الفتن والملاحم أهمية خاصة ^(١٥٩) فهي قد تثير في أذهان بعض القراء أسئلة كثيرة، وفي دواخلهم مشاعر متضاربة.. لعل الشيخ الغزالي - رحمه الله - نموذج لذلك. يحكي أنه حين يقرأ

١٥٨ - راجع كتابي: النظرية الإسلامية في الكهانة، خصوصا الفصل الأول: الكهانة عند اليونان، من الباب الأول، والفصل الثالث: عن النبوة والكهانة، في الباب الثاني.
١٥٩ - الفتن أعم، والملاحم تتعلق - في الأكثر - بالقتال، لهذا وضع أبو داود - مثلا - كتاب الفتن ثم كتاب الملاحم، في سننه.

أبواب الفتن يشعر بانزعاج وتشاؤم، فهو يخشى أن يفهمها القارئ غير المتبصر مقطوعة عن ملابساتها القريبة، فتتسرب إلى نفسه أفكار اليأس من ترجيح كفة الخير. ويضرب لذلك مثلاً بحديث البخاري عن الزبير بن عدي، قال: شكونا إلى أنس بن مالك ما نلقى من الحجاج، فقال: «اصْبِرُوا فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقُوا رَبَّكُمْ»، سمعته من نبيكم عليه السلام. فقد يظن السامع أن أمر الأمة في إدبار، وأن بناءها كله إلى انهيار، ولا يستحضر الأحاديث الأخرى التي تحمل مبشرات بظهور الإسلام واتساع دولته.^(١٦٠)

خطر إساءة فهم أحاديث الفتن: وهذا الإطلاق في حديث أنس استشكل من قديم، وذكرت فيه أجوبة.^(١٦١) والحق أن أحاديث الفتن خطيرة، إذا أسيء فهمها. فقد تؤدي إما إلى الانعزال والتشاؤم.. أو إلى الفوضى والهرج. لذلك حين قرأ بعض الناس في عصرنا حديث أبي سعيد الخدري، رفعه: "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن.."^(١٦٢) فإنهم تركوا أمصار المسلمين والتحقوا بالفيافي والجبال.

وقبل هذا اشتكى الأفغاني من بعض المسلمين، ومن فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان أو قرب انتهائه، فهماً يثبط همهم عن السعي وراء الإصلاح والنجاح، مما لا عهد للسلف الصالح به^(١٦٣). صحة أصول أخبار الفتن: لكن هذا لا يجوز أن يدفعا إلى إنكار هذه الأحاديث،

١٦٠ - انظر: قذائف الحق، لمحمد الغزالي، ص ٢٥٦ - ٢٥٧. والحديث رواه البخاري، ب لا يأتي زمان.. ك الفتن، ٧٠٦٨. والترمذي، ب ٣٥، ك الفتن، ٢٢٠٦. وأحمد، ١٢٢٨٧، ١٢٧٥٣. وأبو يعلى في مسند أنس، ٤٠٣٧. والطبراني في الصغير عن شيخه علي بن عبد العزيز، ٥١٩. وفي بعض ألفاظه عام، أو يوم، بدل زمان.

١٦١ - انظر: فتح الباري، ١٣ / ٢٥. فيض القدير، ٦ / ٥٧١.
١٦٢ - ممن رواه: البخاري في مواضع كثيرة منها: ب خير مال المسلم، ٣١٢٤، ب التعرب في الفتنة، ٧٠٨٨. النسائي، ب الفرار بالدين من الفتن، ك الإيمان وشرائعه، ١٢٣ / ٨. ابن ماجه، ب العزلة، ك الفتن، ٣٩٨٠. أبو داود، ب الرخصة في التبدي في الفتنة، ك الفتن والملاحم، ٤٢٦٧. مالك في الموطأ، ب ما جاء في أمر الغنم.

١٦٣ - من كلام جمال الدين الأفغاني، أورده محمد البهي في: الفكر الإسلامي، ص ١٠١.

لأنها من الدين، ومما حدث به الرسول الكريم، ولها أيضاً مقاصدها وغاياتها - كما سيأتي بعد قليل - . . فعن حذيفة، قال: قام فينا رسول الله مقاماً، ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به^(١٦٤). ولم يكن ذلك على سبيل التفصيل الجزئي الدقيق، فالمقام الواحد لا يتسع لذلك، قال القرطبي: عمومات هذه الأحاديث يراد بها الخصوص، وإنما مقصود هذه العمومات الإخبار عن رؤوس الفتن والمحن ورؤسائها^(١٦٥).

إن المشكلة ليست في الأحاديث نفسها، بل في فهمها وفهمها، وفي كيفية تنزيلها على واقع المسلمين. لذا نحتاج إلى قراءات علمية ومقصدية جديدة لهذه الأخبار، تستفيد من الكلام الواسع للعلماء والمحدثين في شرحها والبحث في مشكلتها، وهو كلام تناثر في عدد كبير من الكتب، خاصة الحديثية منها، يحتاج لجمع وترتيب ودراسة.

وقد لاحظ الشيخ رضا هنا أمراً هاماً، وهو أن لأحوال الأمم العامة تأثيراً عظيماً في فهم أفرادها لنصوص الدين. فهي في حال ارتقائها بالعلم والحكمة، وما يثمران من العزة والقوة، تكون أصح أفهاماً وأحسن استفادة وأكثر اعتباراً، وفي حال الضعف والجهل تكون بالضد من ذلك. ثم ضرب لهذا مثلاً من النصوص التي تدم حب المال وزينة الدنيا، كيف أنها لم تكن بصادة للأمة في طور حياتها وارتقائها عن الفتح والكسب والإنفاق والبناء.. في جميع المجالات، وكيف فهم منها الناس آخراً أن الخمول والتواكل والفقر من مقاصد الدين. ثم قال الشيخ: إذا تدبرت هذا المثال فاجعله مرآة لما ورد في الأحاديث النبوية من أنباء مستقبل الأمة الإسلامية، فهي أساءت فهم هذه الأخبار. إذ وطن جماهير المسلمين أنفسهم منذ

١٦٤ - هذا لفظ مسلم، ب إخبار النبي بما يكون إلى قيام الساعة، ك الفتن، ٢٨٩١. ورواه كذلك أبو داود، ب ذكر الفتن ودلائلها، أول كتاب الملاحم والفتن، ٤٢٤٠. وأحمد، ٢٣١٦٧. والبزار، مارواه منصور عن أبي وائل عن حذيفة، ٢٨٦٢. وروى مثله عدد آخر من الصحابة.
١٦٥ - المفهم، ٧ / ٢٢١.

قرون على الرضا بجميع الفتن والشُرور التي أنبأت الأحاديث بوقوعها في المستقبل، فقعدت همهم عن وظائف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدفاع عن الحق.. معتذرين لأنفسهم بأن ذلك قدر، قد ورد بوقوعه الخبر. وتراهم مع هذا قد تركوا السعي والعمل لما وعدوا به في الآيات والأحاديث من الخير والسيادة، كما كان يسعى ويعمل له سلفهم^(١٦٦). وهي الأخبار المبشرة.

أحاديث البشارات: لهذا على الذي يدرس كتب الفتن أن يراعي وجود مبشرات كثيرة في القرآن والسنة. فتجدد الأمة أصل لذاته، كما روى أبو داود عن أبي هريرة: قال الرسول ﷺ: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها^(١٦٧). وفي الأحاديث أيضاً: مثل أمتي مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره^(١٦٨). قال المناوي: ذلك " لتقارب أوصافهم وتشابه أفعالهم، كالعلم والجهاد والذب عن بيضة الإسلام وقرب نعوت بعضهم من بعض في ظواهرهم... فيحكم بالخير لأولهم وآخرهم. ولذا قيل: هم كالحلقة المفرغة، لا يدرى أين طرفاها"^(١٦٩).

أما قول النبي الكريم: بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى

١٦٦ - المنار، ٧/ ٤٩٧ إلى ٥٠١، بتصرف.

١٦٧ - ك الملاحم، ب ما يذكر في قرن المائة.

١٦٨ - أخرجه الترمذي، آخرك الأمثال، ٢٨٦٩، وقال: س في الباب عن عمار وعبد الله بن عمرو وابن عمر. وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ز. وأحمد، في مسند أنس، ١٢٢٦٧، ١٢٤٠٠، حسن شاكر الإسناد الأول وصحح الثاني، ١٠/ ٤٢٢ - ٤٦٤. والبزار، فيما روى سلمان الأغر عن عمار، ١٤١٢. وأبو يعلى فيما رواه أبو سفيان عن أنس، ٣٧٠٥. والطبراني في الأوسط (طبعة الحرمين)، باب من اسمه سيف، ٣٦٦٠، ٤٢٠٦. قال ابن عبد البر: الحديث روي من وجوه حسان. التمهيد، ٢٠/ ٢٥٣. وقال ابن حجر: حديث حسن له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة. فتح الباري، ح ٨/ ٧٣٦٥. وهذا أولى لتعدد طرق الحديث وتنوع مخارجه. وانظر ما جمعه الهيتمي من ذلك في: معجم الزوائد، ب ما جاء في فضل الأمة، ك المناقب، ١٠/ ٥٦ فما بعدها.

١٦٩ - فيض القدير، ٢/ ٢٣٣، في شرحه حديث ابن عساكر في تاريخه: أمتي أمة مباركة، لا يدرى أولها خير أو آخرها.

للغرباء^(١٧٠). فقد فسر بأن الغرباء هم المهاجرون، لأنه في رواية أخرى: قيل من هم الغرباء، قال: النزاع من القبائل^(١٧١). وإذا قلنا بالعموم، فكما قال عياض: ز ظاهر الحديث العموم، وأن الإسلام بدأ في آحاد من الناس وقلة ثم انتشر وظهر، ثم سيلحقه النقص والاختلاف حتى لا يبقى - أيضا - إلا في آحاد وقلة، غريبا كما بدأ^(١٧٢). فهذا يكون في آخر الزمان، وهو من أشراط الساعة، لهذا أورد الإمام مسلم بعد هذا الحديث: باب ذهاب الإيمان آخر الزمان، وفيه حديث أنس: لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله^(١٧٣).

لكن كما قد ينحرف بعض الناس بأخبار الفتن إلى البحث عن مسوغات للقعود والاستسلام والتشاؤم، كذلك يمكن لآخرين أن يأخذوا هذه البشارات مأخذ التواكل والانتظار السلبي، مثل ما جاء في المهدي. فهذا أيضا - كما قال صاحب المنار - من أسباب تقاعد المسلمين عما أوجبه الله تعالى في كل وقت من إعلاء دينه وتعزيز سلطته اتكالا على أمور غيبية مستقبلية لا تسقط عنهم فرائض الحاضر^(١٧٤).

وظيفة أحاديث المستقبل: وهي - بالأساس - وظيفة الإنذار والتحذير، فأحاديث الفتن وأشراط الساعة وإن كان ظاهرها الإخبار عن المستقبلات - ولذلك فهي تؤدي وظيفة عقدية، أعني أنها من مكملات الاعتقاد -، إلا أنها ترمي أيضا إلى

١٧٠ - رواه مسلم، ب بيان أن الإسلام بدأ غريبا، ك الإيمان، ح ١٤٥. وابن ماجه، ب بدأ الإسلام غريبا، ك الفتن، ٣٩٨٦ إلى ٣٩٨٨. وأحمد، ١٦٦٣٦. والبخاري، ٣٢٨٨، ٣٢٨٦. وأبو يعلى، ٧٥٦. والطبراني في الصغير، ب من اسمه أسامة، وهو ابن أحمد التنجيني، ٢٨٢. وفي الأوسط (طبعة المعارف) عن شيخه إبراهيم بن هاشم، ٢٧٩٨. وفي الكبير، في حديث بكر بن سليم عن أبي حازم عن سهل بن سعد، ٥٨٦٧. قال الهيثمي: رجاله ثقات.. ورواه غير هؤلاء، راجع: مجمع الزوائد، ب بدأ الإسلام غريبا، ك الفتن، ٥٤٥ / ٧، فما بعدها.

١٧١ - المفهم، ١ / ٣٦٢. وهي رواية ابن ماجه، ٣٩٨٨.

١٧٢ - إكمال المعلم، ١ / ٤٥٦.

١٧٣ - ك الإيمان، ح ١٤٨.

١٧٤ - المنار، عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة، ١٠ / ٣٩٣.

تحقيق حكمة آنية ، هي تحذير المسلمين من أسباب الفساد ومن عوامل الانحلال التي إذا دبت إلى الأم نخرتها وقوضتها، فهي نذر . وهذه تقريبا نفسها وظيفة القصص القرآني والنبوي عن الماضي وأحداثه. يقول رشيد رضا: "إن النبي عليه الصلاة والسلام لم يخبر أمته بما سيقع فيها من التفرق والشيع ، وركوب سنن أهل الكتاب في الأحداث والبدع، وبغير ذلك من أخبار الفتن ، الخاصة بهم والمشاركة بينهم وبين الأمم، إلا لأجل أن يكونوا على بصيرة في مقاومة ضررها واتقاء تفاقم شرها، لا لأجل أن يتعمدوا إثارة تلك الفتن والاصطلاء بناورها، والاقتراف لأوزارها"^(١٧٥).

ويبدو لي أيضا أن من مقاصد أحاديث الفتن : منع اغترار الأمة بكونها خير أمة أخرجت للناس، والتحذير من الركون السلبي إلى ما وعدها الله به من الانتشار والعز ... حتى تبقى دائما- في كل عصر وجيل - على حذر من نفسها ومن تقلبات الزمن . وإن بني إسرائيل مثال لمأل الأمم المغرورة بنفسها .

وربما أراد النبي الأكرم - بإخباره بهذه الأحاديث - أن ينبهنا على أمر أوتيت منه الأمة كثيرا، ولا تزال، وهو : الخلاف الداخلي ، وذاك معنى الفتنة في الأكثر. فكأن هذا تحذير لعلماء الأمة ومفكرها وقادتها من هذه الثغرة الخطرة ، ولذلك يجب أن تنصب جهود الجميع في البحث عن أفضل الصيغ لإدارة الصراع الداخلي . وقد قيل : إن أضعف شيء في الحضارة الإسلامية هو أنها لم تضع حلولا كافية للاختلاف السياسي .

أما البشارات ، فمن وظائفها إعطاء الأمل للأمة في فترات ضعفها وتقهرها لكي لا تنهزم نفسيا .

من قواعد فقه أحاديث الفتن: أذكر بعضها علما مني أن الموضوع بحاجة لدراسة مستقلة:

١٧٥ - المنار، سورة الأنعام، ٧/ ٤٩٩.

١ - التثبت من صحة الحديث: إذ من المعروف - كما اشتهر عن الإمام أحمد - أن ثلاثة كتب لا أصل لها ، منها الملاحم . ولذلك اعتبر ابن القيم من مظان الوضع أحاديث التواريخ المستقبلية، خاصة إذا كانت محددة^(١٧٦). وأضرب لهذا مثالا من أشهر الكتب المستقلة في الفتن وأهمها ، وهو : الفتن لنعيم بن حماد ، من شيوخ البخاري ، لكنه روى عنه مقرونا بغيره . قال فيه صالح بن محمد الأسدي : " كان نعيم يحدث من حفظه ، وعنده مناكير كثيرة لا يتابع عليها. وقال : سمعت يحيى بن معين سئل عنه، فقال : ليس في الحديث بشيء ، ولكنه صاحب سنة. " وقال النسائي : قد كثر تفرد عن الأئمة المعروفين بأحاديث كثيرة ، فصار في حد من لا يحتج به. وقال مسلمة بن القاسم : كان صدوقا ، وهو كثير الخطأ ، وله أحاديث منكرة في الملاحم انفرد بها. الخلاصة إذن هي كما قال الدارقطني : إمام في السنة ، كثير الوهم^(١٧٧).

فالواجب هو التأكد من صحة هذه الأحاديث ، فإذا ثبتت لا ترد، فلا يليق بالعالم مثلا إنكار أخبار المهدي والدجال ونزول عيسى ونحوها ... لأن أصلها صحيح .

٢ - أرى أن تعتبر أحاديث المستقبلات من باب الفقه والأحكام، لا من باب الرقائق والمواعظ، وبين البابين فروق لا تخفى . لذا لا يجوز في رأيي لغير المجتهد أن يحكم بها ويفسرها، وما يذكر في الفتوى من شروط وأداب يسري على هذا الجانب أيضا من النصوص الشرعية. إذ القول في أحاديث الفتن تتعلق به أحيانا دماء وحقوق ، بل قد يتعلق به مستقبل أمة. وهذا لا ينفي الجانب الوعظي لهذه الأخبار، لكنه ليس وحده .

٣ - من القواعد عدم تبييس الناس بأحاديث الفتن، والأصل العام للشريعة هو

١٧٦ - المنار المنيف، ص: ١٠١
١٧٧ - تهذيب التهذيب، ١٠/ ٤٥٩ إلى ٤٦٣.

التبشير وفتح باب الأمل . وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : إذا قال الرجل هلك الناس، فهو أهلكهم^(١٧٨). قال ابن القيم : وفي معناه : فسد الناس، وفسد الزمان، ونحوه^(١٧٩). وقال القرطبي : " إن الذي يسمعه قد يبأس من رحمة الله فيهلك ، وقد يغلب على القائل رأي الخوارج فيهلك الناس بالخروج عليهم"^(١٨٠).

٤ - من القواعد: الحكمة في التحدث بأخبار الملاحم والفتن. وأذكر مثالا لذلك أن أحد وزراء اليمين بإيطاليا أشار - في سنة ٢٠٠٤ - إلى أن بعض المسلمين ببلادهم يتداولون حديث فتح رومية^(١٨١).

٥ - تجنب تنزيل هذه الأحاديث على وقائع جزئية ، خصوصا إذا كانت من الحاضر أو الماضي القريب .

٦ - وهاهنا تنبيه أخير، وهو أن الكلام في الفتن والملاحم - خصوصا من جهة تطبيق ما ورد فيهما على الحوادث الأرضية - ينبغي على تحديد عمر الدنيا ومدة بقائها، ولو على وجه التقريب . وهذا لا سبيل إليه لتعلقه بعلم الساعة، وكون النبي عليه السلام بعث بقرب الساعة، قال العلماء : هو قرب نسبي ، أي أن الذي بقي من الدنيا قليل بالنسبة إلى ما مضى منها، وإن كان الذي بقي في نفسه كثير. ولم يصح في عمر الدنيا حديث صحيح صريح. لذلك كثير ممن رام توقع بعض الحوادث - من خلال ظواهر بعض النصوص - أخطأ^(١٨٢).

١٧٨ - رواه مسلم، ب النهي عن قول هلك الناس، ك البر والصلة، ٢٦٢٣. وأبو داود، ب ٧٧، ك الأدب، ٤٩٨٣. وأحمد، مسند أبي هريرة، ٧٦٧١، ٨٤٩٥. ومالك، ب ما يكره من الكلام، ك الجامع . وقد أحسن الشيخ شاكر الكلام على رواياته، ٧ / ٤٠٠.

١٧٩ - زاد المعاد، ١ / ٤٢٢.

١٨٠ - المفهم، ٦ / ٦٠٨.

١٨١ - وهو حديث عبد الله بن عمرو أن النبي عليه السلام ذكر أن فتح القسطنطينية سيكون قبل فتح روما. رواه الإمام أحمد في المسند، ٦٦٤٥، وقد صححه أحمد شاكر وأطال في سنده الكلام، ٦ / ٢٠٢. وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح غير أبي قبيل وهو ثقة. المجمع، ب فتح القسطنطينية، ك المغازي، ٦ / ٣٢٣. وأخرجه كذلك الحاكم في أول ك الفتن والملاحم، ٨٣٠١، ثم في موضع آخر، ٨٥٥٠، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، ٤ / ٤٦٨.

١٨٢ - انظر مثالا لهذا الخطأ لمحمد البرزنجي، صاحب كتاب الإشاعة لأشراط الساعة، ص ١٢١، ٣٢٢. وهو في توقع خروج المهدي.

الخاتمة: المستقبلية قيمة حضارية كبرى.

كيف أختتم هذا الموضوع الواسع والشيق.. والرسول الأكرم يفيض بالحكمة، وهو المؤيد بالوحي الرباني، فكيف للبشر أن يحيط بحكم الله في كتابه وسنة نبيه.. لقد كشف هذا البحث عن نتائج هامة في الإرشاد النبوي إلى منهج التعاطي مع قضية المستقبل باعتباره حقلا خصبا للفعل البشري. إن الرسول صلى الله عليه وسلم نبهنا إلى نظام السننية في الوجود، وإمكان استشراف المستقبل بناء على إدراك هذا النظام، وأنه لا بد من مراعاة مآلات الأمور. وميز النبي الكريم بين طرق التنبؤ الخاطئة وعلوم التوقع الصحيحة، وهو تمييز عظيم الشأن لا يقدره قدره إلا أهل الاختصاص. ولم يكتف بهذا، بل أعد المسلم إعدادا نفسيا للتعامل مع المستقبل، فمنع التطير واللو. وقدم عليه السلام أمثلة حية للتخطيط المستقبلي، كما في تشريع الادخار والعزل والحجر الصحي والإحصاء السكاني.. وعلمنا نبينا أيضا أدب التعاطي مع المستقبل، من الاستثناء والاستخارة.. ونحو ذلك. ويمكنني القول: إن السنة الشريفة أصلت للمستقبلية تأصيلا تاما، ورفعتها إلى درجة قيمة حضارية كبرى، وأدمجتها في حياة الفرد والأمة والدولة. لكن هذه السنة غنية جدا، وفي موضوع المستقبل بالذات، لهذا لا بد من مواصلة الجهود في استنباط القيم الحضارية المتعلقة بالمستقبل في الحديث. وهذا يمكن أن يتم عبر مستويين: الأول، من أقوال النبي العظيم ودرر كلامه. والثاني من سيرته، بدءاً من نشر الدعوة بمكة ثم حياته بالمدينة باعتباره إماما وقائدا حربيا.. وانتهاء بعلاقاته بالدولية مع الأمم القريبة من الجزيرة. وفي اعتقادي أن من أهم القضايا المستعجلة والتي يجب بحثها وضبطها الآن: الإخبارات النبوية عن المستقبل، فكثير من الناس يسيئون فهمها وتوظيفها، يكفي أن أذكر من تجربتنا التاريخية مثال استغلال أحاديث المهدي عليه السلام. وقد حاولت وضع بعض القواعد بالمبحث الأخير، إلا أن الموضوع بحاجة لدراسات أوسع يمكن عنوانها بـ "فقه الفتن". ويمكن أيضا البحث من جديد في أحاديث العدوى في كشوفات الطب والأحياء من جهة، وفي ضوء الخطر المتجدد لأوبئة

عالمية من جهة ثانية. أسأل الله تعالى أن يعينني فأطور هذا البحث ، وما أتمناه على ربي هو أن يسهل لي شرح أحد دواوين الحديث شرحا يجمع بين القديم والجديد ، يستفيد من تراثنا وفي الوقت نفسه يخاطب عصرنا، وأركز فيه على إبراز القيم الحضارية والإنسانية اللازمة للأمة.. أسميه : "الفتح الحديث بشرح الحديث" ،
تمنا بفتح ابن -حجر.. إن صاحب هذه السطور كتب في علوم مختلفة وله اهتمامات متنوعة، ولكنه يسأل ربه أن يحشره مع أهل الحديث ، ليس لأنه منهم .. هيهات ذلك، ولكن كما قال القائل: أحب القوم ولست منهم. آمين، والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

- أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي. اعتنى به محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية بيروت. طبعة سنة ١٩٨٨.
- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ٢، ١٤١٤، ١٩٩٢.
- الإشاعة لأشراط الساعة، لمحمد بن رسول البرزنجي. تحقيق أحمد بن علي. دار الحديث بالقاهرة. ٢٠٠٢.
- الاكتتاب، اضطراب العصر الحديث، فهمه وعلاجه، لعبد الستار إبراهيم. سلسلة عالم المعرفة، نوفمبر ١٩٨٨. عدد ٢٩٣. الكويت.
- إكمال المعلم بفوائد مسلم، لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض. حققه يحيى إسماعيل. دار الوفاء، المنصورة، مصر. ط ٢، ٢٠٠٤.
- البحر الزخار المعروف بمسند البزار، لأبي بكر أحمد بن عمرو البزار. تحقيق محفوظ الرحمن زين الله. مكتبة العلوم والحكم، المدينة. ط ١، ١٩٩٥.
- البدر الساري إلى فيض الباري، لمحمد بدر عالم الميرتهي. وهي حاشية على فيض الباري ومطبوعة معه.
- بذل الماعون في فضل الطاعون، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب. دار العاصمة. الرياض. ط ١، ١٤١١هـ.
- بهجة النفوس وتحليلها بمعرفة مالها وما عليها، لأبي محمد عبد الله الأزدي الأندلسي، المعروف بابن أبي جمرة. (شرح مختصر صحيح البخاري). دار الجليل، ط ٢-١٩٧٢-بيروت.
- تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن عاشور. نشر مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة. د. ط. ت.
- الترغيب والترهيب، لعبد العظيم بن عبد القوي المنذري. اعتنى به مصطفى عمارة. دار الفكر، ١٩٨١.
- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير. دار ابن كثير، دمشق. ط ١،

- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، لأبي عمر يوسف بن عبد البر. تحقيق جماعة بإشراف الجهة الناشرة، وهي وزارة الأوقاف بالمغرب. طبع على مدى سنوات متفرقة من الثمانينيات .

- تنوير الحوالك على موطأ الإمام مالك ، لعبد الرحمن السيوطي . مطبوع مع الموطأ.

- تهذيب التهذيب ، لأحمد بن حجر العسقلاني . طبعة دار صادر، بيروت ، ١٩٦٨، عن طبعة المعارف بأباد الدكن بالهند ، ١٣٢٧هـ.

- تهذيب السنن ، لابن قيم الجوزية . مطبوع مع مختصر سنن أبي داود للمنذري -الجامع ، لأبي عيسى بن سورة الترمذي . حققه محمد علي ومحمد عبد الله . دار ابن الهيثم ، بالقاهرة. ط١، ٢٠٠٤.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير الطبري. المطبعة الميمنية بمصر.

-الجامع الصحيح ، لأبي عبد الله محمد البخاري . مطبوع مع شرحه : فتح الباري ، وعمدة القاري .

-الجامع الصحيح ، لمسلم بن الحجاج . مطبوع مع شرحه : الإكمال .

-الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، لعبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي. دار الكتب العلمية، بيروت. ط٣، ٢٠٠٦، مطبوع مع شرحه فيض القدير.

- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، لابن علان محمد الصديقي. دار الفكر ، بيروت .

-الرد على من ذهب إلى تصحيح علم الغيب من جهة الخط لما روي في ذلك من أحاديث ووجه تأويلها ، لمحمد بن أحمد بن رشد الجد . تعليق مشهور سلمان دار ابن حزم ، بيروت . ط١. ١٩٩٢.

-الروض الأنف، شرح سيرة ابن إسحاق، لأبي القاسم عبد الرحمن السهيلي.

- تحقيق طه عبد الرؤوف. مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
- رياض الصالحين ، ليحيى بن شرف النووي (مطبوع مع شرحه دليل الفالحين)
-زاد المعاد في هدي خير العباد ، لشمس الدين بن قيم الجوزية . راجعه وخرج
أحاديثه محمد سيف ومحمد فاروق . دار ابن الهيثم القاهرة . ط ١ . ٢٠٠٥ .
- السراج المنير شرح الجامع الصغير ، لعلي بن أحمد العزيزي . دار الفكر -
السراج الوهاج من كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج ، لأبي الطيب
القنوجي البخاري صديق خان . تحقيق الشيخ عبد التواب هيكل . إصدار
وزارة الأوقاف ، بقطر ١٩٩٤ . المطبعة الأهلية بالدوحة .
- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، في الشريعة الإسلامية، لعبد الكريم
زيدان . مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٩٣ .
- السنن، لأبي داود سليمان بن الأشعث . أخرجته لجنة بإشراف صالح بن عبد
العزيز آل الشيخ . دار السلام بالرياض . ط ١ ، ١٤٢٠ ، ١٩٩٩ .
- السنن، لأبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه . تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد
الباقي . دار إحياء التراث العربي ، ١٩٧٥ .
- السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي . مطبعة دائرة المعارف
العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٥٤هـ . تصوير دار المعرفة ببيروت .
- السيرة النبوية، لعبد الملك بن هشام . حققه مصطفى السقا وآخرون . دار إحياء
التراث العربي، بيروت . ط ٣ ، ١٣٩١ الموافق ١٩٧١ .
- عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي ، لأبي بكر بن العربي . دار الكتب
العلمية .
- العظمة، لأبي محمد عبد الله بن حيان، المشهور بأبي الشيخ، تحقيق رضاء الله
المباركفوري . دار العاصمة، الرياض . ط ١ ، ١٤٠٨ .
- عمدة القاري بشرح صحيح البخاري ، لبدر الدين محمود بن أحمد العيني .
دار الفكر .
- عون المعبود شرح سنن أبي داود، لعبد العظيم الطيب آبادي . ضبطه عبد

- الرحمان عثمان . دار الفكر، ط ٣، ١٩٧٩ .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني . عن الطبعة التي حققها عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ورقمها محمد فؤاد عبد الباقي . دار الحديث، القاهرة . ١٤٢٤هـ . واعتمدت أحيانا : طبعة دار الفكر ، بيروت ، ط ٩٤ - ١٩٩٥ .
- الفروق، لشهاب الدين إدريس القرافي . عالم الكتب ، بيروت .
- فضل علم السلف على الخلف ، لابن رجب الحنبلي . عنى به محمد أغا النقلي . إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة . ط ٢ ، ١٣٤٧ هـ .
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، لمحمد البهي . دار الفكر ، ط ٧ ، ١٩٩١ .
- فيض الباري على صحيح البخاري، لمحمد أنور الكشميري . دارالكتب العلمية، بيروت . ط ١ ، ٢٠٠٥ .
- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، لمحمد عبد الرؤوف المناوي . أخرجه أحمد عبد السلام . دار الكتب العلمية بيروت . ط ٣ . ٢٠٠٦ .
- القاموس المبين في اصطلاحات الأصوليين ، لمحمود حامد عثمان . دار الحديث بالقاهرة . ط ١ ، ١٩٩٦ .
- قذائف الحق ، لمحمد الغزالي . دار القلم ، دمشق . ط ٣ ، ٢٠٠٣ .
- القول في علم النجوم ، لأبي بكر علي بن أحمد الخطيب . حققه يوسف بن محمد السعيد . دار أطلس، الرياض . ط ١ ، ١٩٩٩ .
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لكاتب جلبي حاجي خليفة . تصوير سنة ١٩٩٠ عن طبعة دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٨٢ .
- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، للكرماني . المطبعة البهية المصرية، القاهرة . ط ٢ ، ١٩٣٩ .
- المجتبى من السنن، لأحمد بن شعيب النسائي . دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٧ الموافق ١٩٨٧ .

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي . بتحريр الحافظين: العراقي وابن حجر. دار الكتب العلمية، ط ١٩٨٨. تحقيق عبد الله محمد الدرويش. دار الفكر، بيروت.
- مجموع الفتاوى ، لأحمد تقي الدين بن تيمية . جمع وترتيب عبد الرحمان بن محمد بن قاسم. الناشر : المكتب التعليمي السعودي بالمغرب .
- مختصر سنن أبي داود، للمنذري. تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي. دار المعرفة. بيروت، ١٩٨٠.
- المستدرک على الصحيحين ، لأبي عبد الله محمد الحاکم . ومعه تلخیص الحافظ الذهبي. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ٢٠٠٢، ٢.
- المسند، لأحمد بن حنبل. حققه وأخرجه أحمد شاكر، وأتمه حمزة الزين. دار الحديث، القاهرة. ط ١، ١٩٩٥.
- المسند، لأبي يعلى أحمد بن علي الموصلي. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ١، ١٩٩٨.
- المسوى شرح الموطأ ، لولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ١، ١٩٨٣.
- مشكل الآثار، لأبي جعفر الطحاوي. دار صادر. ط ١. ١٣٣٣ هـ، بيروت .
- المصطلح الأصولي عند الشاطبي ، لفريد الأنصاري . بحث دكتوراه مرقون بمكتبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، بالمحمدية ، بالمغرب .
- معارج القبول في علم الأصول، لحافظ حكيم. دار ابن القيم، الدمام. ط ١، ١٤١٠، ١٩٩٠.
- معالم السنن شرح سنن أبي داود ، لأبي سليمان حمد بن محمد البستي الخطابي . مطبوع مع مختصر المنذري .
- المعجم الأوسط، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق محمود الطحان. مكتبة المعارف، الرياض. ط ١، ١٤٠٧، ١٩٨٧. واعتمدت أيضا على

- النسخة التي حققها طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسني . دار الحرمين ، القاهرة ، ١٤١٥ .
- المعجم الصغير ، للطبراني . ضبطه كمال يوسف الحوت . مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت . ط ١ ، ١٤٠٦ ، ١٩٨٦ .
- المعجم الكبير ، للطبراني . تحقيق حمدي السلفي . نشر وزارة الأوقاف العراقية . مطبعة الزهراء بالموصل . ط ٢ ، ١٤٠٤ ، ١٩٨٤ .
- المعلم بفوائد مسلم ، لأبي عبد الله محمد المازري . حققه محمد الشاذلي النيفر . دار الغرب الإسلامي ، بيروت . ط ٢ ، ١٩٩٢ .
- مفاتيح الغيب (أو التفسير الكبير) ، لمحمد فخر الدين الرازي . دار الفكر . ط ١٩٩٣ . بيروت .
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، لشمس الدين بن القيم . ١٩٩٨ . دار الكتب العلمية .
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، لعلي جواد . دار العلم للملايين ، بيروت . مكتبة النهضة . بغداد . ط ٢ ، ١٩٧٦ .
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، لأحمد أبي العباس القرطبي . تحقيق محيي الدين مستو ، ويوسف بديوي ، وأحمد السيد ، ومحمود بزال . دار ابن كثير ، دار الكلم الطيب ، كلاهما بدمشق . ط ١ ، ١٩٩٦ .
- مقدمة في التنجيم وحكمه في الإسلام ، لإلياس بلكا . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٣ .
- المنار : تفسير القرآن العظيم ، للشيخين محمد عبده ورشيد رضا . دار المعرفة ، بيروت ، ط ٢ .
- المنار المنيف في الصحيح والضعيف ، لابن القيم . صححه أحمد عبد الشافي . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٨ .
- مناهج البحث عند مفكري الإسلام ، واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي ، لعلي سامي النشار . دار النهضة العربية ، بيروت . ط ٣ ، ١٤٠٤ .

١٩٨٤ .

- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، ليحيى بن شرف النووي . اعتنى به محمد فؤاد عبد الباقي . دار الكتب العلمية ، بيروت . طبعة أولى ، ١٩٩٥ .
- الموافقات ، لأبي إسحاق إبراهيم الشاطبي . أخرجه أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان . دار ابن عفان ، السعودية . ط ١ ، ١٩٩٧ .
- الموطأ ، لمالك بن أنس . طبع مصطفى البابي الحلبي بمصر . ١٣٤٨ هـ .
- نحن والمستقبل ، لقسطنطين زريق . دار العلم للملايين ، بيروت . ط ٢ ، ١٩٨٠ .
- النظرية الإسلامية في الكهانة ، لإلياس بلكا . مؤسسة الرسالة ، بيروت . ط ١ ، ٢٠٠٣ .

- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي ، لأحمد الريسوني . نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٩٩١ .

- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ، لمحمد بن علي الشوكاني . دار الفكر ، * المقالات :- استقراء المستقبل ، دراسة أولية في علم وليد ، لعطية حسين أفندي . مجلة منبر الحوار ، العددان ٢١ و٢٢ ، صيف وخريف ١٩٩١ .
- حاجتنا إلى علوم المستقبل ، لمحمد بريش . مجلة المستقبل العربي . عدد ١٤٤ ، فبراير ١٩٩١ .

* مراجع أجنبية:

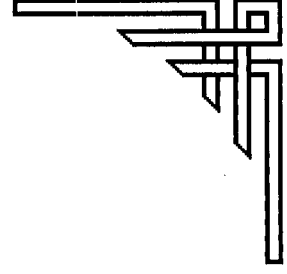
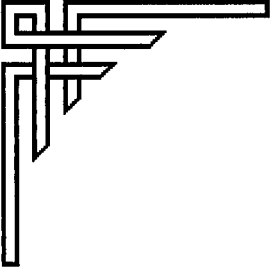
Introduction aux sciences sociales, par Bernard Valade. Presses-
de France,

1996 Paris . 1^{ere} édition,

-Why Futures Studies, by Eleonora Masini. Editions Grey Seal,
1993 . London,

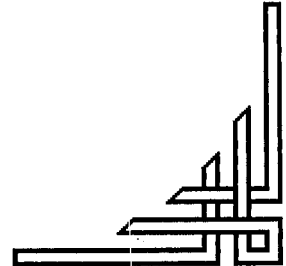
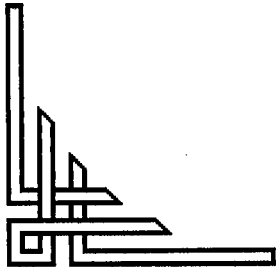
-L'Astrologie, par Paul Couderc. Collection Que Sais-je, Presses de
France, Paris

1953 . 1^{ere} édition,



مقاصد العلم والمعرفة في السُّنة النَّبَوِيَّة

بروفيسور- الفاتح الحبر عمر أحمد
أستاذ الحديث النبوي -
مدير كلية التنمية البشرية - طالبات
جامعة أم درمان الإسلامية - السودان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه تُنال البركات، والصلاة والسلام على سيد السادات، النبي الذي بُعث ليتّم مكارم الأخلاق، ويكْمِل ما ابتدأه إخوانه الأنبياء في بناء الحضارات، عليهم من ربّهم أفضل التسليم، وأكمل الصلوات. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَهْلَ الصَّدَقِ وَالْمَحَبَةِ وَالرَّحْمَاتِ. وبعْدُ....

فإنَّه من المعلوم أن مصدرية السُنَّة النبوية لا تنحصر في الجانب التشريعي فقط، بل فيها من الزيادات الجَمَّة، والفوائد المهمة، ما هو جدير بالبحث والدراسة. فمن هذه الجوانب المتشعبَّة، والفوائد المتنوعة، الجانب الحضاري، الذي ملأ به دُعاة الحضارة والمدنية في هذا العصر - الدنيا صُراخا. وكأنَّهم هم الذين ابتدعوه، أو كان دُرَّةً مكنونة فأخرجوها للناس.

لذا فكان من الواجب التنبُّيه بأننا مطالبون باستخراج هذه الدرر المتعلقة بالقيم الحضارية في السُنَّة النبوية، انطلاقاً من تراثنا المُفعم بالمفاهيم والقيم الحضارية والمدنية. وذلك تعريفاً للمسلمين، وإرشاداً لهم لهذه الكنوز الثمينة، والمنابع الصافية التي تتضمَّن المبادئ العامة، والمنطلقات الأساسية التي تنهض بالأمة، وترقى بها لمدارج الكمال البشري.

وهذا ما تَبَتَّه مشكورة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، بسعيها الجاد والحديث لتنظيم ندوة علمية دولية، هي الثالثة في تسلسلها. حيث تضمَّنت محاور الندوة الخمسة، تلك المبادئ والأفكار المتعلقة بدراسة القيم والمفاهيم الحضارية في ضوء السُنَّة النبوية المطهرة، تحت عنوان رئيس: القيم الحضارية في السُنَّة النبوية.

لذا، فقد رغبتُ بالإسهام في فعاليات هذه الندوة العلمية الدولية الثالثة، من خلال كتابة ورقة علمية في المحوَر الثاني: القيم العملية والمعرفية في السُنَّة

التَّبَوِيَّة، البند الثاني: مقاصد العلم والمعرفة. تحت عنوان: مقاصد العلم والمعرفة في السنة النبوية.

سائلاً المولى عزّ وجلّ، التوفيق والسداد، وصدق النية والاجتهاد في البحث الجادّ. إنه هو وليّ ذلك والقادر عليه بلا تردّد.

إنّ من المعلوم بداهة، أنّ من الممارسات الحضارية في السّنة النبوية، مكانة العلم والمعرفة. ومدى اهتمام السّنة بهما. لذلك تبلورت فكرة البحث في بيان وتوضيح أنّ السّنة النبوية المطهرة، قد سبقت كل النظم الوضعية، المعاصرة منها والقديمة. باهتمامها بزوايا متعددة من العلم والمعرفة، مثل حثّها على طلب العلم وتحصيله، بل أوجبت أن يتعلّم المسلمون ما يكفيهم في فهم المبادئ الأساسية والضرورية من الدين ما يضمن لهم الخروج من الأمية في أمر دينهم، وبيّنت أنّ العلم لا ينافي المفاهيم الدينية للإسلام، فضلاً عن كونه معارضاً لها. كذلك اهتمت بعملية الإحصاء والعدّ، وإنشاء الترجمة والاهتمام باللغات، وفتح مدارس للتعليم ونحو ذلك.

فالباحث يرجو أن تكون هذه الورقة العلمية إسهاماً منه في حدود المستطاع - في الردّ على الشبهات العدائية على السّنة النبوية المطهرة، لا سيّما وقد هاجمها كثيرٌ من الجهّال أو المغرضين، بطرق متباينة ومتعددة. متناسين ما في هذا الدين القيم من الجمال، والخلق الكريم، والطريق المستقيم، ما قد سبق به كل النظم والمبادئ الوضعية المزخرفة. ومن ثمّ خدمة السّنة النبوية المطهرة من هذا الباب. مُضَمِّناً الورقة تمهيداً، عن مفهوم الحضارة اللغوي والاصطلاحي، وأهم ميزات الحضارة الإسلامية. وأربعة مباحث، الأول: وجوب طلب العلم والعمل به وثماره، والثاني: القيم الحضارية في عملية الإفراج عن أسرى بدر مقابل التعليم، والثالث: القيم الحضارية في عملية الإحصاء والعدّ، والرابع: القيم الحضارية في إنشاء الترجمة والاهتمام باللغات. وخاتمة تتضمن نتائج وتوصيات. وفي نهاية الورقة أثبتُ فهرساً للمصادر والمراجع التي استقيتُ منها مادة البحث العلمية.

التمهيد:

المفهوم اللُّغوي والاصطلاحي للحضارة وميزاتها

المفهوم اللُّغوي:

إنَّ كلمة الحضارة تعني السكنى في الحضر والاستقرار في المدينة. والعمل على تنمية الأرض ومحصولاتها. وهي بخلاف البداوة التي تعني التَّنقل والتَّرحال من مكان إلى مكان مع الأهل والمواشي، بحثاً عن العشب والكلأ اللَّذين هما مصدر معيشتهم ومعيشة مواشيهم.

"والحاضرة والحضر هي المدن والقرى والريف، سُمِّي بذلك لأن أهلها حضرٌ وأمصار، ومساكن الدِّيَار التي يكون لهم بها قرار. والبادية يمكن أن يكون اشتقاقها من بدا يبدو، أي برز وظهر، ولكنه اسم لزم ذلك الموضع خاصة دون سواه"^(١)أه.

وبعض العلماء يرى أن: "الحضر خلاف البدو، والحاضر خلاف البادي، والحاضر المقيم في المدن والقرى، والبادي المقيم بالبادية، والحضارة الإقامة في الحضر"^(٢). إذاً كلمة الحضارة في اللغة العربية تقابل البداوة أو الهمجية والتوحش، والحاضرة مقابل البادية والحضر مقابل البدو، وأهل الحضر هم أهل المدن والريف، والبدو أهل الخيام، ولقد اشتهر أهل البادية بالجفاء والخشونة والغلظة وغلبة الجهل والأمية، ولهذا لم يبعث الله رسولاً قط من أهل البادية، إنما بعث رسله جميعاً من أهل القرى والحضر قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾^(٣) (٤).

١- تاج العروس من جواهر القاموس محمد مرتضى الزبيدي، ٣/١٤٦-١٤٨ - مادة (حضر). بتصرف.
٢- لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، ٢/٩٠٦-٩١٠، مادة (حضر). بتصرف.
٣- سورة يوسف الآية (١٠٩).
٤- السنة مصدرأ للمعرفة والحضارة، أ.د. يوسف القرضاوي ص (٢٠١). بتصرف.

أما في اللغات الغربية فهي "مأخوذة عن اللاتينية من فعل culture بمعنى حرث ونمى، وقد كانت في الأصل مقصورة على تنمية الأرض ومحصولاتها، ثم بدأت في أوائل العصور الحديثة تنتقل بمدلولاتها إلى الجانبين العقلي والمادي، ثم تطور المفهوم حتى أصبح يعني مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات"^(٥) أهـ.

المفهوم الاصطلاحي:

إن كلمة الحضارة في الاصطلاح تعني "مجموع ما في مجتمع أو مجتمعات متشابهة، من التقاليد والمبادئ والنظم المادية والمعنوية، وكل ما يتشعب منها من النظم الاقتصادية والثقافية والسياسية. فهي جملة مظاهر الرقى المادي والعلمي والفني والأدبي والاجتماعي في المجتمع"^(٦) أهـ.

فالحضارة نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي. "وهي تتألف من أربعة أركان أو عناصر: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون. وتبدأ من حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء"^(٧) أهـ.

والبعض يرى أن الحضارة في مفهومها الاصطلاحي تعني "التفنن في الترف واستجادة أحواله، وهي تتفاوت بتفاوت العمران، فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل"^(٨) أهـ.

وهذا يعني أن الحضارة أمرٌ زائد على ما يحتاج إليه في حياة المجتمع الإنساني، وهي محسوبة في الأمور التحسينية التي لو لم توجد لا يحدث أي خلل في الحياة

٥- مجلة حولية للجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، باكستان، مقال أ.د. أحمد الفسّال، العدد الثالث ١٤١٦هـ - ص (٥). بتصرف.

٦- السنة مصدرًا للمعرفة والحضارة، أ.د يوسف القرضاوي، ص ٢٠١. بتصرف.

٧- قصة الحضارة، لول وابيريل، ديورانت ترجمة د. زكي نجيب محفوظ، ٣/١. بتصرف.

٨- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ٣٠٨-٣١٠. بتصرف.

الاجتماعية، ذلك أن النواتج المادية للحضارة لم تنشأ من فراغ فكري ثقافي، وإنما تسبقها دائماً الأفكار التي تتبلور فيما بعد، وتتجسّد في شكل مادي. وأن الإبداعات المادية ما هي إلا رموز تحمل أفكار أصحابها وتنقلها للآخرين.

مميزات الحضارة:

بعد بياننا الموجز لمفهوم الحضارة في اللغة والاصطلاح، يجدر بنا أن نتطرق لذكر أهم مميزات الحضارة الإسلامية والتي جعلتها فريدة بين الحضارات الأخرى، من حيث شمولها وتوازنها، ومقدرتها على إسعاد الإنسانية جمعاء:

أ - عقيدة التوحيد^(٩):

إنّ أول وأهم مميّزة تميّزت بها الحضارة الإسلامية، هي عقيدة التوحيد، التي تعتبر قاسماً مشتركاً بين رسل الله أجمعين. وقد كانت أول فاصل بين القيم الجاهلية والقيم الإسلامية الخفيفة في دعوة خاتم الرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ذلك لأن الحضارة الإسلامية بمفهومها الواسع، قد قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة. فهي أول حضارة تنادي بالإله الواحد، الذي لا شريك له في حكمه وملكه، وهو وحده الذي يُعبد ويُقصد.

ولقد كان لهذا السموّ في فهم التوحيد أثر كبير في رفع مستوى الإنسان وتحريره، كما كان له أثر أيضاً في الحضارة الإسلامية، متمثلاً في خلوّها من كل مظاهر الوثنية ونحوها.

ب - الأصالة في البناء^(١٠):

وهذا يعني أن الإسلام، ليس ذا حضارة تلفيقية، مُركّبة من الحضارات

٩- من روائع حضارتنا د. مصطفى حسني السباعي، ص (٦٣-٦٤). بتصرف.
١٠- مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية د. حكمت عبد الكريم فريحات وإبراهيم ياسين الخطيب، ص (١٥٦). بتصرف..

السابقة، بل الإسلام هو الذي بنى حضارته بمرجعية القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهذان الأصلان، هما اللذان يوفران للحضارة الإسلامية على مرّ العصور- أن تتطور وترتقي وتتماشى مع مستجدات الحياة الإنسانية. وليس معنى هذا أن الإسلام يغلق أبوابه عن خيرات وإيجابيات الحضارات والتجارب الإنسانية الأخرى، أن يستفيد منها المسلمون، بل نجد أن في السنة النبوية المطهرة ما يدل على عكس ذلك تماماً فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحقّ بها»^(١١).

فهي حضارة قامت على المبادئ التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، مع الاستئناس بما كان عند العرب من أفكار وآراء في مختلف مجالات الحياة. وهذا يعني أصالتها بالمعنى الحقيقي للأصالة، الذي لا يرفض التجديد والانفتاح على ثقافات الأمم الأخرى، مع المحافظة على الثوابت والمبادئ.

ج- إعطاء الدور المحوري للعقل والعلم^(١٢):

إن الحضارة الإسلامية جعلت العقل والعلم مرتكز الخطاب الشرعي المتوجه للإنسان، باعتباره كائناً عاقلاً مدبراً، بغض النظر عن ملاسبات الزمان والمكان والجنس واللون. بمعنى أنها اعتمدت العقل سنداً للحقيقة الدينية، ووسيلة لإدراكها وإثباتها، كما اعتمدت قناعة الإنسان سبيلها للإيمان، وطريقها لحصول اليقين- فالدين التزام، وليس إلزاماً والتدين اختيار وتحقيق لإنسانية الإنسان، واستجابة لنزوع داخلي وميل فطري. أما العلم فهو ثمرة التّعقل والتّفكير، وقد قَصَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الخشية منه على العلماء العاملين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَخْشَى

اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَلَّمْتُمُوهَا﴾^(١٣).

١١ - خرّجه الترمذي، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، ٤١- كتاب العلم ١٩- باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ١٠٢/٧، ح ٢٦٨٧.

- خرّجه ابن ماجه في سننه بشرح السندي، ٢٩- كتاب الزهد، ١٥- باب الحكمة ٤/٤٥٤ ح ٤١٦٩. كلاً الإسنادين عن أبي هريرة رضى الله عنه. الإسنادان من طريق إبراهيم بن الفضل المدني المخزومي، وقد قال أبو عيسى الترمذي عنه: ضعيف من قبل حفظه، (١٠٢/٧). فالحديث إسناده ضعيف.

١٢- في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢١٧٣ بتصرف.

١٣- سورة فاطر الآية (٢٨).

المبحث الأول

وجوب طلب العلم والعمل به وثماره

من أصول الكمال في الشريعة الإسلامية، فتح باب العلم بالتأكيد على فضله، والتحريض على اكتسابه، وبيان شرف أهله، ويمكن القول بأن من مفاخر الإسلام أنه أكبر مناصر للعلم، وأعظم مُحَرِّض على اكتسابه، بل كانت أول آيات نزلت من القرآن الكريم تتصل بالقراءة والعلم حيث قال الله تعالى: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ﴾^(١٤)

لذلك فإن من أهم ما يُلَفِّت النظر في ممارسات النبي ﷺ الحضارية، اهتمامه البالغ بطلب العلم والمعرفة، وحضه المسلمين بالبحث عنه، وأخذه من أي وعاء كان، فقد ورد عنه ﷺ قوله «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(١٥).

فنجد أن التعبير الذي استخدمه الرسول ﷺ وهو يبحث على العلم، يظل عجباً مع هذا كله، وتظل دلالاته الخاصة، وتوجيهاته التي لا تصدر إلا عن رسولٍ مُعَلِّمٍ. فهذه الكلمة المفردة (فريضة) تشع وحدها أمواجاً من النور، وتفتح وحدها آفاقاً من الحياة. فلننظر ما تعني الفريضة في قلوب المؤمنين، إنها تعني واجباً مفروضاً على الإنسان أن يؤديه، لا يجوز أن تشغله عنه المشاغل، ولا أن تقعه العقبات. وتعني أيضاً واجباً يؤديه الإنسان إلى الله عزّ وجلّ، ويتعبد به

١٤- سورة العلق الآيات (١، ٢، ٣).

١٥- خرجه ابن ماجه في سننه بشرح السندي، المقدمة، ١ كتاب السنة، ١٧- باب في فضل العلماء والحث علي طلب العلم ١/ ١٤٦ ح ٢٢٤. عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١/ ١١٩-١٢٠، الحديث ورد بأربع طرق كلها ضعيفة ولكن تعدد الطرق يرفع الحديث إلي درجة الحسن لغيره أه. وذكره العجلوني في كشف الخفا ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ٢/ ٤٤-٤٥، وقال: قال المزي إن طريقه تبلغ رتبة الحسن. وقال العراقي: قد صحح بعض الأئمة بعض طرقه. وذكر عن ابن حجر العسقلاني قوله بأن الحديث حسنٌ أه. فالخاص: أن الحديث إسناده حسن لغيره.

إليه، ومن ثمَّ فهو يؤدِّيه بأمانة ونظافة وإخلاص. وأيضاً تعني عملاً يقرب العبد إلى الرَّب. فكلما قام الإنسان بهذه الفريضة، أو بهذه العبادة، أحسَّ أنه يقترب من الله عزَّ وجلَّ، فيزداد به إيماناً وتعلُّقاً، ويزداد له خشية وحياء، يزداد إحساساً بالرضى في رحابه، والشكر على عطاياه. تلك هي بعض معاني كلمة (الفريضة) في قلب المؤمن، وتلك هي معاني العلم في نفوس المسلمين^(١٦) أهـ.

وقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «يا أيُّها الناس تعلَّموا، إنَّما العلم بالتعلم والفقهُ بالتفقهِ، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(١٧).

وقوله أيضاً: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»^(١٨). فهذا التوجيه النبوي البليغ جعل أصحابه ﷺ يحرصون على استدراك كل ما يُعلِّمُهُ ﷺ، وأن لا يفوتهم منه شيء حينما يغيبون عن التلقِّي المباشر منه ﷺ في جلساته. فقد روى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «كنت أنا وجارلي من الأنصار في بني أمية بن زيد. وهي من عوالي المدينة. وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك...»^(١٩) الحديث أهـ.

يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني: "... وفيه أن الطالب لا يغفل عن أمر معاشه، ليستعين على طلب العلم وغيره، مع أخذه بالحزم في السؤال عمّا يفوته في غيبته، لما علّم من حال عمر أنه كان يتعاطى التجارة إذ ذاك"^(٢٠) أهـ.

١٦- قياسات من الرسول ﷺ - محمد قطب، ص (٣٥-٣٦) - بتصرف.

١٧- خرّجه البخاري في ٣- كتاب العلم ١٣- باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ص ٣٢ ح ٧١. خرجه مسلم في ١٢- كتاب الزكاة ٣٣- باب النهي عن المسألة ص ٥١٦ ح ١٠٣٧، وكلا الإسنادين عن طريق معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهما.

١٨- خرّجه الترمذي في سننه تحفة الأحوذى لشرح جامع الترمذي ٤١ كتاب العلم، ١٩ باب ما جاء في فضل الفقه علي العبادة ٧/ ١٠٠ ح ٢٦٨٥. عن أبي أمامة الباهلي رضى الله عنه. وقال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسنٌ غريبٌ صحيحٌ أهـ.

١٩- خرّجه البخاري في ٣- كتاب العلم، ٢٧- باب التناوب في العلم ص ٣٧ ح ٨٩.

٢٠- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للقاتل نفسه، ١/ ١٨٦ ح ٨٩. بتصرف.

ويقول الراغب الأصفهاني^(٢١) في بيان شرف العلم وأهميته ومكانته: إنَّ كلَّ حياة انفكت منه فهي غير معتدِّ بها، بل ليست في حكم الوجود، فإنَّ الحياة الحيوانية لا تحصل ما لم يقارنها الإحساس، فيلتذ بما يوافقه ويطلبه، ويتألم بما يخالفه فيهرب منه، وذلك أحسن المعارف، فمقتضى الحياة الإنسانية أنها إذا تعرَّت من المعارف المختصة بها، أن لا يُعتدَّ بها، ولهذا سمَّى الله تعالى الجاهل ميتاً في غير ما موضع من كتابه العزيز، فقال عزَّ من قائل: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾^(٢٢). ولأجل أن الحياة تقارن العلم، سمَّى الله تعالى العلم روحاً في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾^(٢٣) " (٢٤).

وليس العلم المقصود محصوراً في العلوم الشرعية فحسب، بل المراد به كل علم يقرب الإنسان لخشية الله وعبادته وذكره جلَّ شأنه، ويبعث الإنسان على تسبيحه تعالى. أيضاً هو كلُّ علم يدفع العبد إلى التزام الاستقامة في عمله في خاصَّة نفسه، ومع الناس. كذلك هو كل علم ينتفع به صاحبه، ويصلح به أمر غيره، فيما يتعلق بالدنيا أو بالآخرة.

وهذا المعنى تؤيده أحاديث جاءت عن المصطفى ﷺ منها: «... من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة...»^(٢٥) الحديث. فذكر النبي ﷺ العلم نكرةً، فشمَّل كل علم أدى بصاحبه إلى خشية الله تعالى بما يكشف له من أسرار الكون وأثر قدرة الله فيه.

ومنها أيضاً: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٢٦) الحديث. فالعلم في هذا النص النبوي هو كل ما ينتفع به، ولم يُقيد هذا الانتفاع بنوع دون نوع، ولا يوجد علم يكون في

٢٢- سورة الأنعام الآية (١٢٢).

٢٣- سورة الشورى الآية (٥٢).

٢٤- الذريعة إلى مكارم الشريعة للقاتل نفسه ص ١٧٨. بتصرف.

٢٥- خرَّجه مسلم في ٤٨- كتاب الذكر والدعاء والتوبة ١١ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ص ١٤٤٧ ح ٢٦٩٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٦- خرَّجه مسلم في ٢٥- كتاب الوصية ٣- باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ص ١٨٦ ح ١٦٣١ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

جوهره مخالفاً للدين والإيمان، إلا إذا حُرِّف عن موضعه، وأستخدم استخداماً سيئاً. فعلى الإنسان أن يستزيد في كلِّ علم، يسبر أغوار الوجود بلا حدود ولا قيود.

ثم إن العلم منه ما طلبه عيني ومنه ما طلبه كفائي. "أمَّا العيني، فعلى كل أحد طلب ما يلزمه من الاجتهاد لنفسه في تعرّف ما ألزمه الله تعالى إياه، من اعتقاد وفعل وترك، وأن يعرف ما يحل له وما يحرم عليه، فهذا كله لا يسع أحداً جهله، وفرض على كل أحد أن يتعلّم ذلك كله. وأمّا الكفائي، فإن كان من العلوم الدينية، فيتعلم الشخص ما ليس فرض عين عليه، مثل التبحر والغوص في العلوم الشرعية أكثر مما يلزم عليه كفرّد في المجتمع. فإذا كان من يقوم بها في مستوى يكافئ حوائج الأمة فيسقط الإثم عن الجميع، وإلا فكل الأمة أئمة حتى تصلح أمرها"^(٢٧). لذا كان واجباً على المسلمين أن يأخذوا بأحكام الشريعة السمحة تطبيقاً على واقع الحياة، واقتداءً بالمشرع المعلّم. وبعد ذلك فلا غرو في أن المتبع للنبي ﷺ سيجنى ثمار اتباعه هذا. فالله تعالى يقول في تنزيله:

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾^(٢٨).

فالتقوى هي جِماع الخير، ومنبع الفضائل، ومعدن الأخلاق الفاضلة، ولا تتأتى لأحد من الناس إلا باتباع صادقٍ مخلص للنبي ﷺ، وبذلك يتحقق المشروط. فإن الله تعالى: وعد من اتقاه بأن يُعلّمه، أي يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما يُلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداءً فرقاناً، أي فيصلاً يفصل به بين الحق والباطل، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ تَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾^(٢٩) (٣٠).

لذا نلاحظ من منطوق الآيات أن التعليم ليس مقيداً بنوع معين من أنواع العلم،

٢٧- الإحكام في أصول الأحكام علي بن حزم الظاهري، ٥ / ٦٨٩. بتصرف.

٢٨- سورة البقرة الآية (٢٨٢).

٢٩- سورة الأنفال الآية (٢٩).

٣٠- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ذ الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المالكي، ٣ / ٢٦٢. بتصرف.

إنما هو نور يقذفه الله في قلب المؤمن التقي، فيكشف به عن سائر العلوم، بحثاً عمّاً تضمنته من حِكْمٍ ومعارف وأحكام. لذلك تظل الآية من سورة البقرة مطلقة، حثاً للمسلمين، وتحريضاً لهم على التمسك بتقوى الله عزّ وجلّ. فنستنتج من ذلك، الترابط الوثيق بين العلم والعمل به والثمرة المرجوة من ذلك. فلا فهم للعلم إلا بالأدب، ولا صحة للعمل إلا بالعلم، ولا ثمرة للعمل إلا بالإخلاص لله عزّ وجلّ.

فلا خير في علم بلا عمل، لأنه وسيلة بلا غاية، ولا فائدة تُرجى من عمل بلا علم، لأن ذلك كبير جنائية، أمّا العمل بالعلم فتوفيق وهداية "فإن العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل"^(٣١). فالحاصل إذاً. أن توجيه المجتمع نحو العلم والعمل به، أمر ضروري ومطلوب، لأنه الباب الذي يلج منه المجتمع الإنساني من البداوة إلى الحضارة، ومن الفوضى إلى التخطيط والنظام، وكسب الوقت للوصول للإنتاج الوفير، وبناء الصحة، والقضاء على الأمية، ومحاربة العقلية الخرافية التي لا تربط الأسباب بالمسببات، ولا تستفيد من هذا القانون العام في الوجود لرسم المستقبل الحضاري الذي تسوده العقلية العلمية"^(٣٢)

٣١- مختصر إحياء علوم الدين الإمام حجة الإسلام محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، فصل في آفات العمل وبيان علامات علماء الآخرة وعلماء السوء ص ٢٧.
٣٢- منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام د. محسن عبد الحميد، ص ١١٩. بتصرف.

المبحث الثاني

القيم الحضارية في عملية الإفراج عن أسرى بدر مقابل التعليم

بعد أن بيّنا أنه ﷺ ما كان يدع فرصة ملائمة إلا ويحرض على طلب العلم وتحصيله وتطبيقه، نجد أيضاً، وفي موقف حضاري فريد، غير مسبوق منه في عقل العرب وهو في حالة الحرب مع المشركين في غزوة بدر الكبرى، والتي فرّق الله بها بين الحق والباطل، وبعد انتصار جليل عليهم، والظفر بعدد سبعين أسيراً من مقاتليهم يجعل فداء إطلاق سراح ذوي العلم منهم، أن يُعَلِّمَ كلُّ واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين، بتعليمهم القراءة والكتابة، اللتان كانتا يُفتقرُ إليهما في الجزيرة العربية، وبخاصة في المدينة المنورة. فقد جاء في السّنة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يُعَلِّمُوا أولاد الأنصار الكتابة»^(٣٣).

وفي رواية ثانية عن عامر^(٣٤) قال: «أسر رسول الله ﷺ يوم بدر سبعين أسيراً وكان يُفادي بهم على قدر أموالهم، وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن له فداء دُفِعَ إليه عشرة من غلمان المدينة فعَلَّمهم، فإذا حدقوا فهو فداؤه»^(٣٥).

وفي رواية ثالثة عن الشعبي قال: «كان فداء أسارى بدر أربعة آلاف إلي ما دون، فمن لم يكن عنده شيء أمر أن يُعَلِّمَ غلمان الأنصار الكتابة»^(٣٦).

٣٣- خرّجه أحمد بن حنبل في المسند، مسند عبد الله بن عباس ١/ ٢٤٧، وفي إسناده: علي بن عاصم، صدوق يخطئ ويصيب. (انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٥/ ٧٠٥ ترجمة ٤٩٠٣. فالحديث إسناده ضعيف لما تقدّم.

٣٤- هو عامر بن شرحبيل الشعبي، أبو عمرو، علّامة التابعين، اتفق العلماء علي إمامته وثقته. (تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني ١/ ٢٦٩ ترجمة ٣١٧٥.

٣٥- خرّجه ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير ٢/ ٢٢. وفي إسناده: جابر بن يزيد بن الحارث، ضعيف (التهذيب لابن حجر العسقلاني ٢/ ٢١ ترجمة ٩١٨. والشعبي أرسله.

٣٦- خرّجه ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير ٢/ ٢٢، وفي إسناده: مجالد بن سعيد بن عمير، وهو ليس بالقوي. (التهذيب ٨/ ٤٥ ترجمة ٦٧٤/ ٢). والشعبي أرسله.

وفي رواية رابعة: «كان فداء أهل بدر أربعين أوقية. فمن لم يكن عنده، علّم عشرة من المسلمين الكتابة، فكان زيد بن ثابت مِمَّنْ علّم»^(٣٧).

وفي تقديري إنَّ عملية توجيه النبي ﷺ وحثه على أن يكون فداء بعض أسرى بدر مقابل التعليم، مسألة تتوازن تماماً مع مسألة فداء الأسرى لأنفسهم بالمال، وهذا الفداء المالي، كان حكماً شرعياً لا مجاملة ولا تهاون فيه، والشاهد على ذلك ما ورد في السنّة: «أن رجلاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن اختنا عباس فداءه. قال: والله لا تذرّون منه درهماً»^(٣٨). وسبب ذلك كما ذكره الحافظ بن حجر العسقلاني: "أن عمر لما ولي وثاق الأسرى، شدّ وثاق العباس، فسمعه رسول الله ﷺ يئن، فلم يأخذه النوم، فبلغ الأنصار، فأطلقوا العباس. فكأن الأنصار لما فهموا رضا رسول الله ﷺ بفق وثاقه، سألوه أن يترك له الفداء، طلباً لتمام الرضا، فلم يجبهم إلى ذلك"^(٣٩). بل إن العباس حاول أن يأتي بالحجج التي تبين وتؤكد وجوب إعفائه من فداء نفسه، بأن قال رضي الله عنه: أني كنت مسلماً ولكن القوم استكروهوني، قال ﷺ، الله أعلم بما تقول، إن كنت ما تقول حقاً فإنّ الله يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا"^(٤٠).

والحكمة في ذلك أنه ﷺ "خشي أن يكون في ذلك محاباة له لكونه عمه، لا لكونه قريبهم أي الأنصار - من النساء فقط. وفيه إشارة إلى أن القريب لا ينبغي أن يتظاهر بما يؤذي قريبه، وإن كان في الباطن يكره ما يؤذيه. ففي ترك قبول ما يتبرع له الأنصار به من الفداء تأديب لمن يقع له مثل ذلك"^(٤١).

٣٧- خرّجه ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير ٢ / ٢٣، عن الشعبي بالإسناد الذي مرّ في الرواية الثالثة. (الهامش ٤، ص ١٢).

بيان درجة الحديث بتعدد طرقه الأربعة:

بما أن الحديث جاء بإسناد في مسند أحمد، وثلاثة أسانيد في طبقات ابن سعد، وكلها أسانيد ضعيفة لسوء الحفظ والإتقان ولكن مجموع طرقه، يترقى الحديث إلى الحسن لغيره. والله أعلم.

٣٨- خرّجه البخاري في ٦٤ كتاب المغازي ١٢ باب ص ٨٣٩ ح ٤٠١٨ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، بلفظه أعلاه.

٣٩- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٧ / ٢٥٧. بتصرف.

٤٠- المرجع نفسه ٧ / ٢٥٨. بتصرف.

٤١- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الحافظ ابن حجر العسقلاني ٧ / ٢٥٨. بتصرف.

"وفي ذلك من تقدير العلم والمعرفة والتشجيع على تعلّم القراءة والكتابة، والسعي والحرص في طلبها ما لا يحتاج إلى توضيح"^(٤٢). لذا فقد كانت الحكمة النبوية ناجحة من حيث اهتمامها بالبُعد الحضاري فيما يتعلق بالعلم والمعرفة والحث عليهما، فمن نتائج هذا البُعد الحضاري أن أنشأ رجالاً أفذاذاً مثل الصحابي الجليل زيد بن ثابت الأنصاري الخزرجي، الذي كان مِمَّنْ علّم الكتابة، ضِمَّنَ غلمان المدينة، فداءً لبعض أسارى بدر. فاشتهر زيد رضي الله عنه بالعلم والنبوغ فيه، وصار من رؤوس العلم في المدينة، حيث خدم الإسلام والمسلمين بخدمات جليلة، وإن وقائع جمع القرآن العظيم في مصحف لا تُذكر إلاّ ويُذكر معها زيد بن ثابت. فقد قال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه حينما كلّفه بجمع القرآن: «..... إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك.....»^(٤٣) الحديث. فنهض زيد بن ثابت بهذا العمل الذي توقّف عليه مصير الإسلام كله كدين، وأبلى بلاءً عظيماً في إنجاز أشق المهام وأعظمها، فنجح في مهمته، وأُنجز على خير وجه مسؤوليته وواجبه، فأبى بُعد حضاريّ في جانب العلم والمعرفة يمكن أن يفوق هذا الذي وجّه إليه النبي صلى الله عليه وآله. والحاصل يتضح جلياً في مدى اهتمام النبي صلى الله عليه وآله بالعلم والمعرفة، والتي تعتبر من أهم خصائصه صلى الله عليه وآله، وذلك من خلال جعله فداء بعض أسرى بدر تعليم الواحد منهم عشرة من غلمان المدينة المنورة القراءة والكتابة. وبذلك فتح المصطفى صلى الله عليه وآله أول مدرسة للتعليم، ومحو الأمية في الجزيرة العربية.

كما يُستنبط من هذا الموقف الحكيم للمصطفى الأمين، أن المسلم له الحق، وفي بعض الأحيان، يتوجب عليه أن يأخذ العلم من أيّ وعاءٍ كان، ولو كان من غير المسلمين، شرقاً وغرباً. وليس من الحكمة أن نترك أهل الكفر يتقدمون علينا، ونحن نُمْنى أنفسنا بخيالات وأوهام، مثل ألاّ نعتمد على غيرنا في جميع أنواع

٤٢- السيرة النبوية، أبو الحسن علي الحسن الندوي ص ٢٢١. بتصرف.
٤٣- خرّجه البخاري ٦٨- كتاب الأحكام ٣٧- باب يستحب للكاتب أن يكون أميناً عاقلاً ص ١٥١٤ ح ٧١٩١.

العلوم والمعارف . بل علينا أن نأخذ بتجارب الآخرين مع الحيلة والحذر، لنؤسس عليها ونهتدي ببعضها، وصولاً وعوداً لمجدنا التليد، وإرثنا القديم، وحضارتنا الدفينة، وعزنا الضائع، وكل ذلك اعتماداً على ما جاء في الهدى النبوي من القيم الحضارية المتعلقة بهذا الموضوع .

المبحث الثالث القيم الحضارية في عملية الإحصاء والعدّ

توطئة^(٤٤):

الإحصاء علم يبحث في طريقة جمع الحقائق الخاصة بالظواهر العلمية والاجتماعية، التي تتمثل في حالات أو مشاهدات متعددة، وفي كيفية تسجيل هذه الحقائق في صورة قياسية رقمية، وتلخيصها بطريقة يسهل بها معرفة اتجاهات هذه الظواهر، وعلاقات بعضها ببعض. ويبحث أيضاً في دراسة هذه العلاقات والاتجاهات، واستخدامها في تفهّم حقيقة الظواهر، ومعرفة القوانين التي تسير تبعاً لها. وهو فرع من فروع الرياضيات، حيث يشمل النظريات والطرق الموجهة نحو جمع البيانات ووصفها واستقرائها، ومن ثم صنع القرارات منها. وقد كان استخدام الإحصاء في البداية مقصوراً على الأعمال الخاصة بشؤون الدولة، ولكن بعدما تبينّت فائدته كطريقة سليمة من طرق البحث العلمي والتخطيطي، انتشر استخدامها في نواحي مختلفة من نواحي الحياة. اهـ.

إن في السنّة النبوية المطهرة، لنماذج متعددة لاستخدام هذا الأسلوب الحضاري، العلمي التخطيطي الدقيق. وهذه النماذج، تتعدد بحسب نوع الاستخدام المطلوب. فمثلاً حال التخطيطات المستقبلية، التي لا تستغني عن الإحصاءات الدقيقة في تحديد وتحقيق الأهداف، وتقدير الموانع المحتملة، في طريق الوصول إليها. فقد كان النبي ﷺ في هذه الحالة، يأخذ ما يمكن للبشر أخذه، في إنجاح مثل هذه الخطط، والتي تعتبر بعبارة حضارياً راقياً. ولتوضيح هذا البعد الحضاري نورد مثالين:

٤٤- مبادئ الإحصاء عبد المنعم ناصر الشافعي ٣١، الإحصاء والاستقراء د. مصطفى زايد ٢٠١. نقل بتصرف.

المثال الأول: اختياره ﷺ بلاد الحبشة أرضاً للمهجر:

إنَّ دقة التخطيط، تظهر في أن الاختيار جاء نتيجة للمعرفة بالظروف الجغرافية، والدينية، والسياسية للحبشة في ذلك الوقت. "إذ لم يكن من الحكمة، ولا من حُسن الخطة، أن يُوجَّههم لبلدٍ تحت سيطرة الفرس، أو الروم. حيث يحكمها أباطرة، لا يقبلون مثل هذه الدعوة الجديدة. ولم يكن من الحكمة أيضاً، ولا من حُسن الخطة، أن يذهبوا بعيداً، لبلادٍ، مثل الهند والصين، حيث تنقطع أخبارهم، فتكون الهجرة مهلكة لهم. بل كانت بلاد الحبشة، هي المكان المناسب جغرافياً، فهي ليست جَدَّ بعيدة، ولا جَدَّ قريبة، بل بينها وبين قريش بحرٌ فقط. كما أن بلاد الحبشة هي المكان المناسب دينياً، فقد كانوا أهل كتاب، من النصارى، الذين هم أقرب مودة للمسلمين. وكانت أيضاً المكان المناسب سياسياً، حيث كان يحكمها رجلٌ، اشتهر بالعدل والنصفة والتأني في إتخاذ القرار. ولهذا قال النبي ﷺ لأصحابه: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً^(٤٥) لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه^(٤٦) (٤٧) أهـ.

المثال الثاني: هجرته ﷺ للمدينة المنورة:

وفيه يظهر بوضوح تام، التخطيط الدقيق، والتوكل الحق على ربِّ الخلق، فقد ربَّ ﷺ خطة محكمة الحلقات، متقنة التدبير، مقدرة الوقت، حيث لم تُترك فيها فجوة دون مَلئها، واضعاً ﷺ، كل فرد، في دوره المناسب لظروفه وقدراته. اطمنن

٤٥- هو أصحمة النجاشي، والنجاشي لقب من مَلِك الحبشة، أسلم رضي الله عنه وحُسن إسلامه، ووصفه النبي ﷺ بالرجل الصالح، وصلى عليه عندما تُوُفِّي، بعد ما نعاها لأصحابه، كما جاء في صحيح البخاري، ٦ كتاب الجنائز، ٤- باب الصفوف على الجنازة، ص ٢٧٧ ح ١٣١٨، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. يُنظر أيضاً فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١٤٧/٧-١٤٨، بتصرف.

٤٦- السيرة النبوية أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ١/ ٢٨٠. قلت: أورد الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرحه فتح الباري على صحيح البخاري ١٤٨/٧ جزءاً من نصِّ الحديث فقال: وذكر ابن إسحق، أن النبي ﷺ قال لأصحابه لما رأى المشركين يُؤذونهم، ولا يستطيع أن يكفيهم عنهم، أن بالحبشة ملكاً لا يُظلم عنده أحد، فلر خرجتم إليه حتى يجعل الله لكم فرجاً.... الحديث.

٤٧- الرسول والعلم- أ.د يوسف القرضاوي، ص (٤٩-٥٠)، بتصرف.

للفدائي الذي سيبيت على فراشه ليلة خروجه، خادعاً بذلك المشركين الذين تربصوا به لقتله، مطمئناً للخريط الذي سيبدله على الطريق لأرض المهجر، وإلى رفيق دربه وطريقه، أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل لم يترك في إحكام خطته هذه شيئاً، حتى من يُقدّم له صلى الله عليه وسلم خدمات، مثل الزاد، والأخبار من داخل مكة، وكذلك الرواحل اللائي يوصلنهم لمقصدهم. كذلك اطمئنانه للمهجر الذي سينتقل إليه، وإلى الذين سيكونون حوله في المدينة المنورة، حيث يذبون عنه كيد الأعداء وتربص المنافقين وإرجاف المرجفين" ^(٤٨) وهذا يعني أنه صلى الله عليه وسلم قد أحصى وقدر كل العوائق التي يمكن أن تعترضه في مشروعه هذا، فخطط بعد ذلك، لتفادي كل واحدة من هذه العوائق، واحدة تلو الأخرى.

أما إذا دلّفنا لبيان نموذج آخر تتضح فيه بعض الأساليب التي اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بالإحصاء والعدّ، فنجد ذلك واضحاً في مثالين بارزين:

المثال الأول: استعداده لغزوة بدر الكبرى:

وهذا بُعدٌ حضاري، نجده دفيناً في سنّة المصطفى صلى الله عليه وسلم، حيث يظهر في تجهّزه لغزوة بدر وتقديره لقوة العدو، فقد ورد في الحديث: (... ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أدني بدر عشاء ليلة جمعة، لسبع عشرة مضت من شهر رمضان، فبعث صلى الله عليه وسلم، علياً والزبير، وسعد بن أبي وقاص وبسبس، يتحسسون خبر المشركين على الماء، فوجدوا روايا لقريش فيها سقّاؤهم، فأخذوهم، وأتى بالسقاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أين قريش؟ فقالوا: خلف هذا الكثيب الذي ترى. قال: كم هم؟ قالوا: كثير، قال: كم عددهم؟ قالوا: لا ندري. قال: كم ينحرون؟ قالوا: يوماً عشراً، ويوماً تسعاً، فقال صلى الله عليه وسلم: القوم ما بين الألف والتسعمائة، فكانوا تسعمائة وخمسين

٤٨- المرجع السابق نفسه ص(٥٠-٥٢). نقل بتصريف.

إنساناً، وكانت خيلهم مائة فرس^(٤٩).

فانظر إلي هذا التقدير الدقيق، وقبل ذلك كله، انظر لاهتمامه ﷺ، بالتعرف على العدد المتأكد منه، حتى يخطط التخطيط السليم لما هو آتٍ. فقد كان المصطفى ﷺ، حريصاً على معرفة عدد القوم، حتى ولو بالتقريب، ليتم تحليل البيانات بعد ذلك، على رؤية واضحة. وهذا ما حدث، بأن سأل ﷺ عن شيء يُقربهُ من معرفة عدد القوم، عن طريق معرفة عدد الإبل التي تنحر يومياً، لأنه ثبت بالتجربة لديهم، أن كل مائة من الناس، تكفيهم ذبيحة واحدة لطعامهم، ولما قالوا له إنهم ينحرون في اليوم ما بين التسعة والعشرة، قدر النبي ﷺ عدد القوم، ما بين التسعمائة إلي الألف. فهذا تحليل بياني إحصائي في منتهى الدقة والضبط، إذ أن عدد القوم كان حقيقة تسعمائة وخمسين فرداً.

هذا، وبعد التخطيط المناسب، والتحليل المتوازن والإحصاء الدقيق، أي بعد أن تعاطى المصطفى ﷺ الأسباب الظاهرة، لجأ إلي الله عزَّ وجل متوكِّلاً عليه غاية التوكل ومعتمداً عليه غاية الاعتماد، فكان النصر حليفه والتأييد من الله مُلَازمَهُ.

المثال الثاني: إحصاؤه ﷺ وعده للمسلمين:

ويتضح ذلك جلياً في نص حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه وفيه قال النبي ﷺ: «اكتبوا لي مَنْ تَلَفَّظَ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل»

-
- ٤٩- خرَّجه ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير ١٤/٢ عن عروة بن الزبير بن العوام.
- خرَّجه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخ الطبري، (تاريخ الأمم والملوك) ٢٨/٢ قال حدثنا ابن حميد، قال حدثنا سلمة، قال حدثني محمد بن إسحق، كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير ... الحديث.
 - ورد في السيرة النبوية (أيضاً). لابن هشام ١٨٩/٢ قال ابن اسحق الحديث. بتصرف.
 - دراسة إسناد الطبري:
 - ابن حميد: محمد بن حميد اليشكري، أبو سفيان، نزيل بغداد، ثقة. التقريب لابن حجر العسقلاني ٥١١/٢ ترجمة ٦٠٥٠.
 - سلمة: سلمة بن سعيد بن عطية، البصري، صدوق. المرجع نفسه ١/٢٢٠ ترجمة ٢٥٦٦.
 - محمد بن إسحق بن يسار، أبو بكر المطلب، نزيل العراق، صدوق. المرجع نفسه ٥٠٢/٢ ترجمة ٥٩٢٩.
 - يزيد بن رومان أبو روح، مولى آل الزبير، ثقة، المرجع نفسه ٦٧١/٢ ترجمة ٧٩٩١.
 - عروة بن الزبير بن العوام الأسدي، أبو عبد الله المدني ثقة فقيه. المرجع نفسه ٣٩٩/١ ترجمة ٤٦٩٨.
- فالحديث إسناده حسن والله أعلم.

...»^(٥٠) الحديث .

وفي رواية: (... كُتِّمَ مع رسول الله ﷺ فقالوا: أحصوا لي كم يلفظ الإسلام، قال: فقلنا يا رسول الله أتخاف علينا ونحن ما بين الستمئة إلى السبعمئة ...)»^(٥١) الحديث .

تلاحظ أن لفظ الرواية الأولى (اكتبوا) والثانية (أحصوا). فنجد أن ابن حجر العسقلاني علق على ذلك فقال: "... وعند مسلم أحصوا، بدل اكتبوا وهي أعم من اكتبوا، وقد يفسر أحصوا اكتبوا"^(٥٢).

ويقول أيضاً: كأنه وقع عند ترقب ما يُخَاف منه، ولعله عند خروجهم إلي أحدٍ، أو غيرها، وقد رأيتُ في شرح ابن التين^(٥٣)، بأنه وقع عند حفر الخندق. ويروى أيضاً احتمال أن ذلك وقع لما كانوا بالحديبية، لأنه قد اختلف في عددهم، هل كانوا ألفاً وخمسائة أو ألفاً وأربعمائة أو غير ذلك ... وفي الحديث مشروعية كتابة دواوين الجيوش، وقد يتعيّن ذلك عند الاحتياج إلي تمييز من يصلح للمقاتلة ممن لا يصلح، وفيه وقوع العقوبة على الإعجاب بالكثرة^(٥٤).

هذا، وقد جاء في ظاهر بعض الأحاديث النبوية، ما يخالف ما أورده من جواز الإحصاء والعدّ، إذا كان هناك ما يدعو لذلك.

فقد ورد في الصحيحين: (... لا توكي فيوكي عليك)^(٥٥) . وفي

٥١-٥٠ - خرّجه البخاري ٣٢- كتاب الجهاد والسير ١٨١- باب كتابة الإمام الناس ص ٦٤٥ ح ٣٠٦٠ بلفظ (اكتبوا).

- خرّجه مسلم في ١ كتاب الإيمان ٦٧ باب جواز الاستسرار بالإيمان للخائف، ص ٨٨ ح ١٤٩، عن حذيفة أيضاً بلفظ (أحصوا).

٥٢- فتح الباري بشرح صحيح البخاري للقاتل نفسه، ٦ / ١٣٤.

٥٣- هو أبو محمد عبد الواحد بن التين الصفاقسي، المحدث المُفسّر، له اعتناء بالفقّه مزوجاً بكثير من كلام المدونة وشراحيها. اعتمده الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرح البخاري. ت ٦١١هـ. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية الشيخ محمد بن محمد مخلوف، ١ / ١٦٩ ترجمة ٥٢٨. بتصرف.

٥٤- المرجع السابق نفسه لابن حجر العسقلاني ٦ / ١٣٤. بتصرف.

٥٥- خرّجه البخاري ٧ كتاب الزكاة ٢٢ باب الصدقة فيما استطاع ص ٣٠٢، ح ١٤٣٤، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضی الله عنهما.

رواية:)... أنفقي، أو انضحني، أو انفحي، ولا تحصي، فيحصي الله عليك^(٥٦)، وفي الثالثة:)... لا توعي، فيوعي الله عليك^(٥٧).

فالعلماء قد أوضحوا وبيّنوا، المراد من هذه الألفاظ النبوية، مُزيلين اللبس الحاصل عند قراءة ظاهرها. فمثلاً الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني يقول: "..... والإحصاء معرفة قدر الشيء وزناً أو عدداً، وهو من باب المقابلة. والمعنى النهي عن منع الصدقة، خشية النفاد، فإن ذلك من أعظم الأسباب لقطع مادة البركة، لأن الله يثيب على العطاء بغير حساب، ومن لا يحاسب عند الجزاء لا يُحسب عليه عند العطاء، ومَنْ علم أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب فحقه أن يُعطي ولا يحسب، وقيل المراد بالإحصاء، عدُّ الشيء لأن يُدَّخر ولا يُنْفَق منه، وإحصاء الله، قطع البركة عنه"^(٥٨) أهـ.

وقال الإمام النووي: "... ولا تحصي فيحصي الله عليك، ويوعي عليك، هو من باب مقابلة اللفظ باللفظ للتجنيس، كما قال تعالى: ﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ ﴾^(٥٩). ومعناها، يمنحك كما منعت، ويقترب عليك، كما قُتِرْت، ويمسك فضله عنك، كما أمسكته. وقيل معنى لا تحصي أي لا تعديه فتستكثره، فيكون سبباً لانقطاع إنفاقك"^(٦٠).

فمن هذه الأحاديث وبيان شرحها، يتضح جلياً أن النهي عن الإحصاء والعدّ، والمؤاخذه عليه. إنما جاءت من جهة الإعجاب والغرور، وأيضاً من جهة الخشية من نفاد المحصي. وإلّا فإنه مطلوب ومُرغَّبٌ فيه، لِمَا ذكرناه من مواقف للمصطفى ﷺ في هذا الشأن. ويؤيد ما ذكرناه، ما حكاه ابن حجر العسقلاني

٥٦- خرّجه مسلم في ١٢ كتاب الزكاة ٢٨ باب الحث في الإنفاق وكراهة الإحصاء، ص ٥١٣ ح ١٠٢٩، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

٥٧- خرّجه مسلم في ١٢ كتاب الزكاة ٢٨ باب الحث في الإنفاق وكراهة الإحصاء، ص ٥١٣ ح ١٠٣٠، ١٠٣١، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

٥٨- فتح الباري بشرح صحيح البخاري- الحافظ ابن حجر العسقلاني - ٣/ ٢٣٣-٢٣٤. بتصرف.

٥٩- سورة آل عمران الآية (٥٤).

٦٠- شرح النووي علي صحيح مسلم ٧/ ١١٩. بتصرف.

عن ابن المنير^(٦١) قوله: "... موضع الترجمة في الفقه، أن لا يتخيل أن كتابة الجيش، وإحصاء عدده، يكون ذريعة لارتفاع البركة، بل الكتابة المأمور بها لمصلحة دينية، والمؤاخذة التي وقعت في حنين مثلاً - كانت من جهة الإعجاب"^(٦٢).
والحاصل، أن النبي ﷺ، كان مُلمّاً بالطرق العلمية (الإحصائية والتخطيطية) الدقيقة، في كل حياته الحافلة بمثل هذه المواقف المذكورة آنفاً. مما يؤخذ منها، دروس كثيرة لإرشاد المجتمعات الإنسانية إلى حياة أكثر تحضراً ورقياً، باستخدام الوسائل الأكثر دقة في التقديرات والحسابات، وتحليل البيانات، في كل المجالات الاقتصادية منها، والاجتماعية والسياسية، والعسكرية، وما إلى ذلك من الظواهر المتجددة في الحياة البشرية.

٦١- هو عبد الله بن المنير، أبو عبد الرحمن المروزي، الزاهد، الحافظ. قال البخاري: - دثنا عبد الله بن منير ولم أر مثله. ت ٣٤٣هـ. راجع التهذيب لابن حجر العسقلاني ٤٣/٦.
٦٢- فتح الباري بشرح صحيح البخاري الحافظ ابن حجر العسقلاني ١٣٤/٦ بتصرف.

المبحث الرابع

القيم الحضارية في إنشاء الترجمة والاهتمام باللغات

مُدْخَلٌ... .

إنَّ من سنن الله الجارية في خَلْقِهِ، أن يكون الناس مختلفين في أجناسهم، وألوانهم، وفي لغاتهم وأفكارهم. وقد أشار القرآن الكريم لذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّوِينِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾^(٦٣). فعلي الإنسان أن يتعامل مع هذه المسلّمات بطريقة إيجابية مفيدة. فالاختلاف في الخلق، هو سبب نشأة الشعوب والقبائل، فكان لا بدّ من التلاقي والتعارف بين هذه الشعوب والقبائل المتفرقة. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(٦٤) فالتعارف هو المعرفة المتقابلة بين إنسان وصاحبه. ويبقى اختلاف اللسان، وهو العقبة الكؤود أمام هذا التعارف المطلوب، فهل نبقى يا تري، بعيداً من بعضنا، ونكتفي بالتفاهم بالإشارات ونحوها؟ وهل يكفي هذا التفاهم بين اثنين ذوي أفكار ومعارف معنوية كثيرة؟. كلا، بل نحتاج لتجاوز هذه العقبة، وهذا السد المنيع العائق بين أبناء أب واحد. إذاً فالترجمة هي الوسيلة الوحيدة لتبادل المعرفة والعلم والحضارة والآراء والأفكار بين الأمم. ولترجمة أهمية وفوائد جمّة، نظراً لحاجة المجتمع الإنساني لهذا النشاط، طالما أنه متعدد في أجناسه، ومختلف في ألسنته. فلا يمكن الاستغناء عنها، فهي ضرورية للاتصال بين شعوب وقبائل تتكلم لغات مختلفة، وبخاصة في عصرنا هذا. لأنها وسيلة للتخاطب في الإعلانات المتعددة اللغات، والتي ظهرت أخيراً بشكل متزايد، وبجلاء واضح في الأماكن العامة. "ولقد

٦٣- سورة الروم. الآية (٢٢).

٦٤- سورة الحجرات الآية (١٣).

ازدادت الحاجة إليها، مع ظهور وسائل الإعلام وتزايد عدد البلدان المستقلة، والاعتراف المتنامي بأهمية الأقليات اللغوية في بلدان العالم كلها^(٦٥).
 ومما يجدر ذكره أنه لا يوجد توقيت دقيق لتأريخ نشأة هذا العلم، بطريقة علمية مرتبة، ولكن بعض العلماء^(٦٦) يرجحون أن بداية نشأته كعلم، كانت في العالم العربي، وبخاصة في عصر النبوة المبارك. استناداً على الأحاديث والآثار النبوية الواردة، والتي تدلُّ في مجملها، على حثِّ النبي ﷺ لبعض أصحابه، لتعلُّم اللغات الأخرى، غير العربية، حتى يمكن له التفاهم مع أصحاب هذه اللغات بلغاتهم أنفسهم. ففي الصحيح قال خارجه بن زيد بن ثابت عن زيد بن ثابت: (أنَّ النبي ﷺ، أمره أن يتعلَّم كتاب اليهود، حتى كتبتُ للنبي ﷺ كُتبه وأقرأته كُتبهم إذا كتبوا إليه)^(٦٧).

وفي رواية عن ثابت بن عبيد، عن زيد بن ثابت، قال: قال النبي ﷺ لي: «إني أكتب إلي قوم، فأخاف أن يزيدوا عليّ، أو ينقصوا، فتعلَّم السريانية. فتعلَّمتها في سبعة عشر يوماً»^(٦٨). وفي لفظ: (أتُحسن السريانية؟ فإنها تأتيني كتب. قلتُ لا، قال: فتعلَّمها، فتعلَّمتها في سبعة عشر يوماً)^(٦٩).

وفي رواية أخرى عن زيد بن ثابت قال لي رسول الله ﷺ: «إنه تأتيني كتب من أناس، لا أحب أن يقرأها أحد، فهل تستطيع أن تعلم كتاب العبرانية، أو قال السريانية، قلت نعم، قال فتعلَّمتها في سبع عشرة ليلة»^(٧٠).

ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرحه لحديث البخاري: أن المراد بالكتاب، الخط. وقوله: حتى كتبتُ للنبي ﷺ كُتبه، يعني: إليهم، وقوله: أقرأته

٦٥- الجامع في الترجمة أ.د. بيتر نيومارك، تَرْجَمَةٌ وَأَعَدَّهُ د. حسن غزالة، ص ٥. بتصرف.

٦٦- مبادئ الترجمة د. توفيق عزيز، ص (١٦-١٧). بتصرف.

٦٧- خرَّجه البخاري في ٦٨ كتاب الأحكام، ٤٠ باب ترجمة الحكام وهل يجوز ترجمان واحد، ص ١٥١٦، ح ٧١٩٥.

٦٨ و٦٩- خرَّجه ابن عساكر في تاريخ دمشق الكبير مجلد (١١) - ٢١ / ٢١٢ ح ٤٥٥٥، ح ٤٥٥٦.

٧٠- خرَّجه ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير ٥ / ٣٠٨، ٩٧٢ زيد بن ثابت.

كتبهم، أي: التي يكتبونها إليه. وحديث البخاري هذا، قد أورده البخاري تعليقاً، ولكنه وصله مطوّلاً في كتاب التاريخ عن إسماعيل بن أبي أويس: حدثني عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه، عن خارجة بن زيد بن ثابت عن زيد قال: أتى بي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقْدَمَهُ المدينة. فَأُعْجِبَ بِي، فقليل له هذا غلام من بني النَجَّار، قد قرأ فيما أنزل الله عليك بضع عشرة سورة، فاستقرأني فقرأت ق^(٧١) فقال لي تعلّم كتاب يهود، فإني ما آمن يهود على كتابي، فتعلمته في نصف شهر، حتى كتبت له إلهي اليهود، وأقرأ له إذا كتبوا إليه. وقد رواه الأعمش عن ثابت بن عبيد عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ أمره أن يتعلّم السريانية. وفي رواية: إني أكتب إلى قوم، فأخاف أن يزيدوا على وينقصوا، فتعلّم السريانية.

وقصة ثابت بن عبيد، يمكن أن تتحد مع قصة خارجة بن زيد، بأن من لآزم تعلّم كتابة اليهود، تعلّم لسانهم، ولسانهم السريانية، لكن المعروف أن لسانهم العبرانية، فيحتمل أن زيداً تعلّم اللسانين لاحتياجه إلى ذلك^(٧٢).

وفي تقديري، هذا يعني، أنه ﷺ بعد ما خرج من بلده مكة ونحوها حيث كانت وحدة اللغة سائدة عليها، ولم يكن هناك حاجة ماسة للتعامل مع اللغات والأقوام الآخرين - إلى بلدة جديدة ذات قوميات مختلفة، ولغات متباينة، أحسن ﷺ بضرورة الترجمان بينه وبين هؤلاء القوم الآخرين، لسلامة العلاقة، وإمكانية التعارف الصحيح، وكذلك الحيلة والحذر من مكر الماكرين، وحيل المتربّصين، أو تفادي إصدار الأحكام دون معرفة بأقوال المتهمين ولغاتهم. ولقد كان عند النبي ﷺ من أصحابه من يعرف بعض اللغات الأخرى، كسلمان الفارسي، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، فلعله ﷺ، استدرك أن النقص الموجود ربما يكون في جهة اللغة السريانية أو العبرانية التي كان يكتب بها اليهود. فأمر النبي ﷺ، زيد

٧١- أيّ سورة ق.

٧٢- فتح الباري بشرح صحيح البخاري - للقائل نفسه ١٣ / ١٥٨ - ١٥٩.

بن ثابت أن يتعلمها ليكفيه مؤنتها، ويأمن من شرٍ بسبب جهلها وعدم معرفتها.
والجدير بالذكر أن الحافظ بن حجر العسقلاني قال في تفسير قول الله تعالى:
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾^(٧٣).... ويحتمل أن يُقال: لا يستلزم
ذلك نطقه بجميع الألسنة، لإمكان الترجمان الموثوق به عندهم^(٧٤). أيضاً في قوله
تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾^(٧٥).... فلا بدَّ من ترجمة بينه وبين
أرباب اللغات الأخرى، حتى يمكنه تبليغ الدعوة إليهم، وتلقّي الإجابة منهم^(٧٦).
وفي الصحيح أيضاً عن أبي جمرة^(٧٧) قال: «كنت أترجم بين ابن عباس، وبين
الناس. فقال: إنَّ وفد عبد القيس أتوا النبي ﷺ فقال: من القوم أو من
الوفد؟»....^(٧٨).

"... قال ابن الصلاح: أصل الترجمة، التعبير عن لغة بلغة، وهو عندي هنا
أعم من ذلك، وأنه كان يبلغ كلام ابن عباس إلى من خفي عليه، ويبلغه كلامهم،
إما لزحام، أو لقصور فهم، والثاني عندي أظهر، لأنه كان جالساً معه على سرير،
فلا فرق في الزحام بينهما، إلا أن يُحمل على أن ابن عباس كان في صدر السرير،
وكان أبو جمرة في طرفه الذي يلي من يترجم عنهم، وقيل إن أبا جمرة كان يعرف
الفارسية، فكان يترجم لابن عباس بها. قال القرطبي: فيه دليل على أن ابن عباس
كان يكتفي في الترجمة بواحد. واستنبط منه ابن التين جواز أخذ الأجرة على
التعليم لقوله: حتى أجعل لك سهماً من مالي^(٧٩)."

٧٣- سورة إبراهيم الآية (٤).

٧٤- فتح الباري بشرح صحيح البخاري- للقاتل نفسه ٦ / ١٨٤.

٧٥- سورة سبأ الآية (٢٨).

٧٦- الرسول والعلم، أ. د. يوسف القرضاوي، ص ٤٥. بتصرف.

٧٧- هو نصر بن عمران بن نوح بن مخلد الضبي، من بني ضبيعة، وهم بطن من عبد القيس. فتح الباري
لابن حجر العسقلاني ١ / ١٠٦.

٧٨- خرجه البخاري ٣ كتاب العلم، ٢٥ باب تحريض النبي ﷺ وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم،
ويخبروا من وراءهم. ص ٣٦ ح ٨٧، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

٧٩- فتح الباري بشرح صحيح البخاري الحافظ ابن حجر العسقلاني- ١ / ٦٠١. نقل بتصرف.

فالحاصل أن الترجمة مهنة بالغة الأهمية والحساسية، تحكمها قواعد لا بدّ من مراعاتها، ومهنة مستقلة يجب تعلّمها والانصهار في بوتقتها، لإتقان أسسها، ومن ثمّ التقيد بنظمها ومعاييرها المحلية والدولية. لأنها تقوم بدور عالمي مهم وفاعل، في كل المجالات الحياتية، حيث أسهمت بفعالية في نقل وتلاقح الثقافات والآداب والعلوم، عن طريق تبادل المعلومات العلمية والحضارية بشتى أنواعها وأجناسها. مما يعتبر هذا بُعداً حضارياً، نبّهت إليه السنّة النبوية المطهرة، حيث وضعت اللبنة الأولى لهذا البناء، الذي أصبح سامقاً، ومهماً في عصرنا هذا. مما يزيدنا يقيناً واطمئناناً بأن في السنّة النبوية المطهرة من كنوز العلم والمعرفة وما يتعلق بهما من القيم الحضارية، ما يجعلنا نشدُّ المنزر بحثاً عنها لنُعلن للعالم كلّهُ بأنّ الإسلام، دينٌ يصلح لكلِّ زمانٍ ومكان. فما أحرى بنا أن نعود إلى تراثنا الإسلامي وبخاصة في السنة النبوية المطهرة.

الخاتمة

نتائج وتوصيات

أولاً: النتائج:

الآن، وبعد تلك الرحلة، التي قضيناها في رحاب ورياض السنة النبوية المطهرة، حيث تطوّفنا حول شجرة من أشجار تلك الحديقة الغنّاء، الغنية بأزهار وثمار، تشير كل واحدة منها إلى قيم حضارية في منحى من مناحي العلم والمعرفة، توصلنا بسبب هذا التطوف الميمون والقطف المبارك لنتائج منها:

أ- إن السنة النبوية المطهرة منبعٌ غنيٌّ، بكنوز دفينّة في الأعماق، فلا بدّ من استخراج هذه الكنوز، وعدم الاكتفاء بما استخرجه الأوائل جزاهم الله خيراً.
ب- إن السنة النبوية مصدرٌ عظيمٌ وثرٌ، للحضارة الإنسانية، فضلاً عن الحضارة الإسلامية، وذلك باشتغالها على المفاهيم والمعارف الحضارية الإنسانية السامية، من الناحيتين النظرية والسلوكية.

ج- إن للحضارة الإسلامية بمرجعية الكتاب والسنة النبوية المطهرة ميزات عديدة، وخصائص متفردة، منها على سبيل المثال، اهتمامها بعقيدة التوحيد الصحيحة، الأصالة في البناء، إعطاء الدور المحوري للعقل والعلم.

د- إنّ الحضارة الإسلامية قد بدأت منذ بدء الرسالة الإلهية للإنسان، حتى استكملت أخيراً برسالة سيدنا محمد ﷺ، فهي قابلة للتطور، ضمن إطارها الثابت المعين، وذلك تمثيلاً مع متطلبات العصر المقبولة، وتواكباً مع الرقي الحضاري للأمم والشعوب.

هـ- إنّ السنة النبوية، قد سبقت كل النظم الوضعية المعاصرة منها، والقديمة، باهتمامها بزوايا مختلفة من العلم والمعرفة، مثل علم الإحصاء والعدّ، وعلم إنشاء الترجمة والاهتمام باللغات، والحثّ على نشر العلم، ومحو الأمية في القراءة والكتابة، وفتح مدارس للتعليم والتحريض عليها.

و- أهمية ووجوب طلب العلم على كلّ مسلم ومسلمة، بما يكفيه، في فهم المبادئ

الأساسية من الدين، وبما يضمن له الخروج من الأمية في أمر دنياه .
ز- إنَّ من شرف العلم، وسمو مكانته، أن كلَّ حياة خلت عنه، فهي غيرُ مُعْتَدِّ بها،
بل ليست في حكم الموجود، وإن كانت موجودة حساً.

ح- إنَّ العلم ليس محصوراً في العلوم الشرعية فحسب، بل المراد به كل علم يُقَرِّب الإنسان إلى خشية الله تعالى وعبادته وذكره . وكذلك كل علم ينتفع به صاحبه، ويصلح به أمر غيره، فيما يتعلق بالدنيا أو الآخرة.

ط- توجيه المجتمع نحو العلم والعمل به، أمرٌ ضروري ومهم، لأنه الباب الذي يلج منه المجتمع الإنساني من البداوة إلي الحضارة، ومن الفوضى إلى التخطيط والنظام، وكسب الوقت، وصولاً للإنتاج الوفير، وبناء الصحة، والقضاء على الأمية، ومحاربة العقلية الخرافية التي لا تربط الأسباب بالمسببات، معتمدة على التقاليد والعادات السيئة.

ي- إنَّ في فداء بعض أسارى بدر لأنفسهم، مقابل التعليم لغلمان المسلمين، من تقدير العلم والمعرفة، والتشجيع على تعلم القراءة والكتابة، والسعي في طلبها، ما لا يحتاج لتوضيح أو بيان.

ك- في اهتمام النبي ﷺ بالتعليم، قراءة وكتابة، إشارة إلى أنه ﷺ بهذا الصنيع، أوَّل من فتح مدرسة للتعليم المنهجي في الجزيرة العربية.

ل- أنه يجوز للمسلم، وفي بعض الأحيان يجب عليه، أن يأخذ العلم من أيِّ وعاء كان، ولو كان من مُشْرِكٍ . وفي هذا العصر يمكن أن يُقال: ولو كان من بلاد الغرب أو الشرق، مع الحيطة والحذر. وهذا يعتبرُ بعداً حضارياً شامخاً، جاءت به السنة النبوية المطهرة.

م- أن النبي ﷺ كان مُلمّاً بالطرق الإحصائية والتخطيطية الدقيقة، في كل حياته الحافلة بمثل هذه المواقف المذكورة في البحث. مما يؤخذ منها دروس كثيرة، لإرشاد المجتمعات الإنسانية إلى حياة أكثر تحضراً ورفقاً، باستخدام الوسائل الأكثر دقة في التقديرات والحسابات، وتحليل البيانات في كلِّ المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، وما إلي ذلك من

الظواهر المتجددة في الحياة البشرية.

ن- إنَّ عملية الإحصاء والعدِّ المذمومة، والتي عليها المؤاخذة في الشرع، إنما هي التي تأتي من جهة الإعجاب، أو خشية النفاذ بسبب الإنفاق. أما إذا كانت لما ذكر في حيثيات البحث مما يتعلق بفعله ﷺ، فهي لا شك محمودة مرغوب فيها. س- إنَّ الترجمة هي الوسيلة الوحيدة لتبادل المعرفة، والحضارة، والآراء والأفكار بين الأمم والشعوب.

ع- إنَّ المصطفى ﷺ، يعتبر في تقديري- أول مَنْ وضع اللبنة المنهجية الأولي في تعلّم اللغات، والتشجيع عليها. وذلك لآحساسه وشعوره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بضرورة الترجمان بينه وبين غيره من القوم الآخرين، لسلامة العلاقة، وإمكانية التعارف، وأخذ الحيطة والحذر من مكر الماكرين، وحيل المتربصين. ف- إنَّ تَعَلَّمَ اللغات الأخرى، ومعرفة الترجمة، لا بدَّ منه، حتى يمكن للداعي من تبليغ الدعوة لجميع الناس على اختلاف ألوانهم وألسنتهم، بالصورة المثلى، والأسلوب الحكيم، والمنهج الدعوى الأصيل.

ثانياً: التوصيات:

نوصي - بكل أدب واحترام - جميع علماء الأمة، وبخاصة المهتمين بالسنة النبوية المطهرة وعلومها، أن يصبُّوا جهودهم وإمكاناتهم المختلفة، في البحث في متطلبات وفقه الأحاديث النبوية، لاكتشاف، واستخراج ما بقي مخبوءاً فيها وإنه لكثير - من العلوم الإنسانية الراقية، حتى يتأهلوا لمواجهة كلِّ تحديثات الحضارات والفلسفات الإنسانية الأخرى، غير المؤسسة على الوحي الإلهي، والمنهج النبوي. قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾^(٨٠).

هذا، ولقد أحسنت كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي - ووفقت في اختيارها لمحاور الندوة الخمسة بتفصيلها المتعدد. واستكمالاً لهذا الاختيار الموفق، نوصي بأن يكون في الأذهان أيضاً السعي للبحث في محاور أخرى، تصب في ذات الموضوع، استخراجاً للقيم الحضارية في السنة النبوية المطهرة وذلك مثل: محور عن الممارسة الشورية في السنة المطهرة، كمعلم من المعالم الحضارية في الجانب السياسي، محور في العلاقات الدبلوماسية في السنة النبوية المطهرة، ويظهر ذلك جلياً في أسلوب ولغة الرسائل التي بعث بها المصطفى صلى الله عليه وسلم للملوك والأكاسرة والقيصرة، وفي الرسل الذين بعث بهم المصطفى صلى الله عليه وسلم وإليه وسلم إليهم. ومحور في البناء الإداري لحكومة المؤسسات ونحوها. وغير ذلك من المحاور الكثيرة المختلفة.

هذا، وفي نهاية هذا التَّجوال الميمون حول رياض السنة النبوية المطهرة أقول: لقد بذلتُ جُهدِي، وأفرغتُ ما في وُسْعِي، وحاولتُ جاداً الاقترابَ من دائرة إيفاء الموضوع حقه، من ناحيتي، المنهجية، وجمع وصياغة المادة العلمية. فإن وُفِّقْتُ في

٨٠- سورة البقرة الآية (١٤٣).

ذلك، فالشكر لله من قبلُ ومن بعدُ، وله الفضل والمِنَّة. وإنَّ قَصَّرْتُ، أو أخطأتُ
وهذا طبع البشر - فما تجاوزت قدرِي، بسبب قلة بضاعتي، وتَعَثَّرَ بناني، فإنه لا
كمالَ إلا لله تعالى، ولكتابه العزيز، ولا عصمة إلا لأنبيائه صلوات ربِّي وسلامه
عليهم. ولكن عزائي ذلك كلُّه، هو في قصدي ونيتي، في أنني نويت خيراً،
وسعيت في إبرازه، نفعاً للمسلمين وإحياء لِمَا في سنة المصطفى الأمين، من
التراث الحضاري الدفين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

- ١- الإحصاء والاستقراء د. مصطفى زايد الطبعة الثانية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م - الجيزة - مصر .
- ٢- الإحكام في أصول الأحكام الحافظ علي بن حزم الظاهري طبعة مطبعة الشام مصر مقابلة على نسخة أشرف على طبعتها الشيخ أحمد محمد شاكر.
- ٣- الأعلام خير الدين الزركلي - الطبعة السادسة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م دار العلم للملايين - بيروت - لبنان.
- ٤- الجامع في الترجمة أ.د. بيتر نيومارك - تَرْجَمَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ وَأَعَدَّهُ / د. حسن غزالة بدون ذِكْرِ رَقْمِ الطَّبْعَةِ.
- ٥- الذريعة إلى مكارم الشريعة الإمام الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن حمد بن المفضل تحقيق د. أبو اليزيد العجمي - الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - دار الوفاء المنصورة مصر.
- ٦- الرسول والعلم - أ.د. يوسف القرضاوي الطبعة السابعة ١٤٢٠هـ - مطبعة المدني للمؤسسة السعودية مصر.
- ٧- السُّنَّةُ مصدرًا للمعرفة والحضارة أ.د. يوسف القرضاوي الطبعة الثانية ١٤١٨هـ - دار الشروق - القاهرة مصر.
- ٨- السيرة النبوية أبو الحسن علي الحسن الندوي الطبعة الثامنة ١٤١٠هـ - دار الشروق جدة - السعودية.
- ٩- السيرة النبوية أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري تقديم وتعليق / طه عبد الرؤوف سعد طبعة جديدة مضبوطة ومُنَقَّحة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ١٠- المسند الإمام أحمد بن حنبل دار صادر بيروت - لبنان.
- ١١- المعجم الفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف وَضَعَهُ / محمد فؤاد عبد الباقي الطبعة الثالثة ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ١٢- تاج العروس من جواهر القاموس محمد مرتضي الزبيدي منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان.

- ١٣- تأريخ الطبري (تأريخ الأمم والملوك) - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري
الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
- ١٤- تأريخ دمشق الكبير - الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله
الشافعي المعروف بابن عساكر تحقيق العلامة / أبو عبد الله علي عاشور
الجنوبي الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م دار إحياء التراث العربي.
- ١٥- تحفة الأحوذى الإمام الحافظ محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم
المباركفوري / بشرح جامع الترمذي ومعه شفاء العليل من شرح العليل - خرّج
أحاديثه عصام الضبابطي الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م - دار الحديث
القاهرة مصر.
- ١٦- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) أبو عبد الله محمد بن أحمد
الأنصاري القرطبي - تحقيق سالم مصطفى البدرى - الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ -
٢٠٠٠م - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
- ١٧- تقريب التهذيب الحافظ أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني ضبطه
وراجعه / صدقي جميل العطار الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع .
- ١٨- تهذيب التهذيب الحافظ أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني
الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ - مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية دار صادر.
- ١٩- سنن ابن ماجه بشرح الإمام أبي الحسن الحنفي المعروف بالسندي بحاشية
تعليقات مصباح الزجاجه في زوائد ابن ماجه للإمام البوصيري تحقيق /
الشيخ خليل مأمون شيحا - الطبعة الثانية دار المعرفة بيروت لبنان.
- ٢٠- سنن الدارمي الإمام أبو محمد عبد الله بن بهرام الدارمي دار الفكر بيروت
لبنان.
- ٢١- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية الشيخ / محمد بن محمد مخلوف
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان.
- ٢٢- صحيح البخاري الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ترقيم

وفهرسة / محمد وهيثم ابنا نزار تميم شركة دار الأرقم ابن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان.

٢٣- صحيح مسلم الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري الطبعة الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩١م - دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان- دار المغني للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية.

٢٤- صحيح مسلم بشرح الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي الطبعة ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م) بدون رقم الطبعة (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٢٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري الحافظ أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان.

٢٦- في ظلال القرآن سيد قطب الطبعة العاشرة ١٤٢٠هـ دار الشروق القاهرة مصر.

٢٧- قبسات من الرسول ﷺ محمد قطب الطبعة الخامسة ١٤١٥هـ - دار الشروق القاهرة مصر.

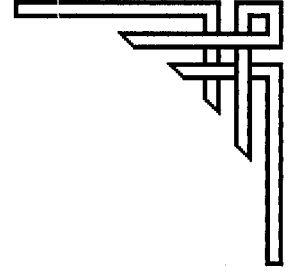
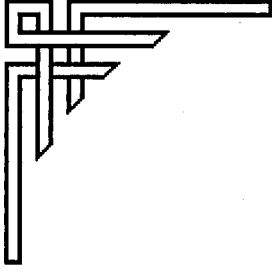
٢٨- قصة الحضارة لول وإبيريل، ديورانت ترجمة د. ذكي نجيب محمود الطبعة الثانية ١٩٦٥م - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر والتوزيع القاهرة مصر.

٢٩- كتاب الطبقات الكبير محمد بن سعد بن منيع الزهري تحقيق د. علي محمد عمر الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م - الشركة الدولية للطباعة القاهرة مصر.

٣٠- كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي طبعة مؤسسة مناهل العرفان بيروت لبنان / مكتبة الغزالي دمشق - سورية.

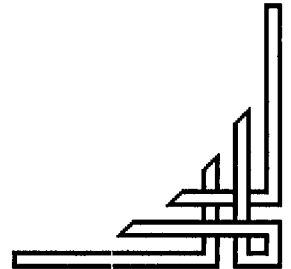
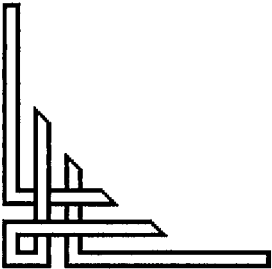
٣١- لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور الأفيقي - تحقيق عبد الله علي

- الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي طبعة دار المعارف .
- ٣٢- مبادئ الإحصاء عبد المنعم ناصر الدمشقي - الطبعة الخامسة ١٩٦٧ م دار الكتاب العربي القاهرة مصر .
- ٣٣- مبادئ الترجمة د. توفيق عزيز عبد الله / د. حبيب إلياس حديد أعدّ المرحلة الثالثة / قسم الفرنسية من وزارة التعليم والبحث العلمي جامعة الموصل العراق - الطبعة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩ م (بدون ذكر رقم الطبعة).
- ٣٤- مجلة حولية الجامعة الإسلامية بإسلام آباد باكستان الصادرة ١٤١٦هـ .
- ٣٥- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد علي بن أبي بكر الهيثمي الطبعة ١٤٠٧هـ - دار الريان للتراث دار الكتاب العربي القاهرة مصر / بيروت لبنان .
- ٣٦- مختصر إحياء علوم الدين حجة الإسلام محمد بن محمد أبو حامد الغزالي الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان .
- ٣٧- مدخل إلى تأريخ الحضارة العربية والإسلامية د. حكمت عبد الكريم فريحات، إبراهيم ياسين الخطيب - الطبعة الأولى - دار الشروق .
- ٣٨- مقدمة ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) - عبدالرحمن بن محمد بن خلدون - طبعة دار الفكر - بيروت - لبنان .
- ٣٩- من روائع حضارتنا د. مصطفى حسني السباعي طبعة المركز العالمي للكتاب الإسلامي الكويت .
- ٤٠- منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام د. محسن عبد الحميد طبعة مكتبة القدس ١٤٠٢هـ - بغداد - العراق .



العلاقة (التفاعلية) بين المعرفة والسلوك
من خلال السُّنة النَّبَوِيَّة المطهرة

بقلم أ. د . أحمد عثمان رحمانى
كلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل الكتاب تبياناً لكل شيء وفقه نبيه ﷺ بالسنة بياناً له وتفصيلاً لقضاياه وتأسيساً لمنهج الحكمة النبوية الكريمة فكان كل ذلك الجمع بين القرآن والسنة تطويماً للإنسان وتربية له وتوجيهاً لسلوكه وتقويماً لأخلاقه، فذلك هو الذي أرشد الأولين والآخرين ولمّا سمعه الجن لم يلبثوا أن ولوا إلى قومهم منذرين فقالوا ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾^(١) من آمن به وفق، ومن قال به صدق، ومن تمسك به هدي، ومن عمل به فاز، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وبعد:

مقدمة:

عمدنا إلى هذا الموضوع الموسوم:

"العلاقة (التفاعلية) بين المعرفة والسلوك من خلال السنة النبوية المطهرة"

لخطورته في حياة الناس العملية، باعتبارها الصورة التطبيقية للقيم الحضارية للأمة لأنها تتوقف على فهم الناس لقوانين المعرفة وحقيقتها، وفعاليتها في المجتمع، لذلك كان الهدف الأساسي من البحث هو بيان العلاقة بين العلم النظري والسلوك العملي، وهو الأمر الذي عقد له البخاري باب العلم قبل القول والعمل^(٢) أي المعرفة قبل السلوك، بل إن الحديث يبين أن من طلب العلم سهل طريقه إلى النتائج المحمودة التي يأتي على رأسها في الدنيا الصورة الحضارية للأمة وفي الآخرة الجنة فقال ﷺ: «ومن سلك طريقاً يطلب به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة»^(٣).

وقد صور القرآن الكريم بني إسرائيل بهذا الصدد فبين أنهم بتضييع العلم

١- سورة الجن: ١

٢- صحيح البخاري: ١ / ٣٧

٣- صحيح البخاري: ١ / ٣٧

ضيعوا الهدى الذي هو القاعدة الأساسية التي تسم الحضارة بمبسمها، فقال ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى﴾ (سورة البقرة الآية ١٦) قال وهب في شرحها: «تفقهون لغير الدين وتعلمون لغير العمل وتبتاعون الدنيا بعمل الآخرة»^(٤). قال الزمخشري: فإن قلت: كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى قلت: جعلوا لتمكنهم منه وإعراضه لهم كأنه في أيديهم فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوها به ولأن الدين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها فكل من ضل فهو مستبدل خلاف الفطرة^(٥)، فالتطبيق امر أساسي في الحياة، والدين معرفة عملية تطبيقية، ولكن لا تطبيق بغير معرفة وعلم.

على أن المعرفة ينبغي أن تكون صحيحة لا لبس فيها حتى تحقق أهدافها، فعن عبدالله بن عمرو قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً قال فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب فقال إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب^(٦) إن هذا الحديث يكشف عن حقيقة هامة في مسألة المعرفة وهي (الصحة)، فصحة المعلومات التي تنتقل إلى البشرية عن طريق الرواية هي السبيل السليم لصالح منهج البشرية في تفعيل الشريعة في نظام الحياة، لذلك كان أحسن تعريف لعلم التفسير هو قولهم: التفسير هو: تبين مراد الله من كلامه^(٧)؛ لأن عدم الصحة يفسد الفهم والبال وفسادهما يفسد ما ينتج عنهما من سلوك وعمل لذلك قال تعالى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿١٠﴾ ﴿٨﴾ فربط بين العمل وبين صحة البال والتفكير ربطاً محكماً في حالي الصحة والفساد قال ابن عاشور: وإصلاح

٤ - الكشاف للزمخشري: ج ١ ص ٣٣

٥ - الكشاف: ج ١ ص ٣٣

٦ - صحيح مسلم ٤ / ٢٠٣٥ رقم: ٢٦٦٦

٧ - مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢ / ٩ / ٢٠٠٥، محمد عبدالعظيم الزرقاني: الناشر: دار الفكر -

بيروت: الطبعة الأولى، ١٩٩٦ تحقيق: مكتب البحوث والدراسات

٨ - سورة محمد: الآية ١-٢

البال يجمع إصلاح الأمور كلها لأن تصرفات الإنسان تأتي على حسب رأيه، فالتوحيد أصل صلاح بال المؤمن ومنه تنبعث القوى المقاومة للأخطاء والأوهام التي تلبس بها أهل الشرك وحكاها عنهم القرآن في مواضع كثيرة والمعنى: أقام أنظارهم وعقولهم فلا يفكرون إلا صالحا ولا يتدبرون إلا ناجحا^(٩) وقد عللت الآية بعد ذلك فساد الأعمال وصلاحها بطبيعة المعرفة التي ينطلق منها كل واحد من الشخصين في تفكيره فردته إلى صلاح المعرفة وفسادها فقال تعالى معقبا على ما سبق: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال ابن عاشور: فهذا تبيين للسبب الأصيل في إضلال أعمال الكافرين وإصلاح بال المؤمنين، والإتيان باسم الإشارة لتمييز المشار إليه أكمل تمييز تنويها به. وقد ذكرت هذه الإشارة أربع مرات في هذه الآيات المتتابعة للغرض الذي ذكرناه، والإشارة إلى ما تقدم من الخبرين المتقدمين وهما (أضل أعمالهم) (وكفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) مع اعتبار علتي الخبرين المستفادتين من اسمي الموصول والصلتين وما عطف على كليهما^(١٠)

فالعلم الصحيح إذن أساس الحياة البشرية لذلك قال تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١١) فبدأ بالعلم، وقدمه على كل شيء بل لم يطلب الله تعالى منا في واقع الأمر شيئا غير أن نعرفه حق المعرفة وأن نعبده حق العبادة، لأنه بالمعرفة الحققة يكون كل شيء على سمته؛ الخوف الحقيقي، والتقوى، والعبادة والخشية، لذلك قال ﴿إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(١٢) فجعل الخشية التي هي منطلق الإنسان إلى التقوى لا تحصل إلا بالعلم والمعرفة الحققة، لأن المعرفة المزيفة لا تورث الخوف بل تورث الغرور، ولا تحصل بواسطتها التقوى، بل هي مدعاة إلى

٩- التحرير والتنوير: ٤٠٢٣-٤٠٢٤

١٠- التحرير والتنوير: : ٤٠٢٤

١١- سورة محمد: ١٩

١٢- سورة: فاطر: ٢٨

الفوضى، كما يتبين لنا في الحياة مع أنصاف المتعلمين، وبعض المستشرقين، وقريبا منا في هذه المدينة دعي أحد المستشرقين لإلقاء محاضرة في أساليب تحقيق المخطوطات فسئل من طرف بعض الحاضرين كيف لم تدخل الإسلام وأنت على ما أنت عليه من علم، فأجاب فوراً هل إن قرأت عن الهندوسية شيئاً أدخل دين الهندوس؟.

لذلك كان القصد بالعلماء الذين يخشون الله علماء المعرفة الدينية الحقة، قال ابن عاشور: والمراد بالعلماء: العلماء بالله وبالشريعة وعلى حسب مقدار العلم في ذلك تقوى الخشية فأما العلماء بعلوم لا تتعلق بمعرفة الله وثوابه وعقابه معرفة على وجهها فليست علومهم بمقربة لهم من خشية الله؛ ذلك لأن العالم بالشريعة لا تلبس عليه حقائق الأسماء الشرعية فهو يفهم مواقعها حق الفهم ويرعاها في مواقعها ويعلم عواقبها من خير أو شر فهو يأتي ويدع من الأعمال ما فيه مراد الله ومقصد شرعه فإن هو خالف ما دعت إليه الشريعة في بعض الأحوال أو في بعض الأوقات لداعي شهوة أو هوى أو تعجل نفع دنيوي كان في حال المخالفة موقناً أنه مورط فيما لا تحمد عقباه فذلك الإيقان لا يلبث أن ينصرف به عن الاسترسال في المخالفة بالإقلاع أو الإقلال، وغير العالم إن اهتدى بالعلماء فسعيه مثل سعي العلماء وخشيته متولدة عن خشية العلماء^(١٣). قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد والعلم دليل على الخيرات وقائد إليها وأقرب العلماء إلى الله أولاهم به وأكثرهم له خشية وفيما عنده رغبة^(١٤)

أقول هذا لأبين أن العلاقة بين المعرفة والسلوك علاقة متينة ودقيقة بحيث لا تقبل التزييف ولا التحريف سواء في النوع أو الكم أو جهاز الاستقبال. وسأعرض هذه المسألة من خلال خمسة مباحث، تتناول:

١٣. التحرير والتنوير: بن عاشور: ١/ ٣٤٨٦

١٤. التحرير والتنوير: ابن عاشور: ١/ ٣٤٨٦

المبحث الأول: طبيعة العلاقة بين المعرفة والسلوك من خلال السنة المطهرة،
والمبحث الثاني: المستويات الأساسية للمعرفة الإسلامية كما تحددها الأحاديث
والمبحث الثالث: طبيعة فاعلية المعرفة الإسلامية كما يصورها الحديث
والمبحث الرابع: الأسباب التي تعوق فاعلية المعرفة في الحياة والعوامل المثبتة
لها

والمبحث الخامس: يقدم نوعين من أساليب التفاعل مع المعرفة الإسلامية وتأتي
الخاتمة: لتسجل النتائج

المبحث الأول: طبيعة العلاقة بين المعرفة والسلوك من خلال السنة المطهرة:
إن علاقة المعرفة بالسلوك علاقة تفاعل كبير جدا، إذ هما العاملان الأساسيان في
إنشاء الحضارات، فالأول يمدها بالتصور والثاني يحول التصور المعرفي إلى
إنجازات عملية، يعبر عنها ما جاء في الموطأ في باب العلم عن مالك: أنه بلغه أن
لقمان الحكيم أوصى ابنه فقال يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن الله
يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الله الأرض الميتة بوابل السماء^(١٥)، فحياة
القلوب، واستقامة العقول، وهما ركنان أساسيان في إقامة الحضارة متوقفة على
طلب العلم الصحيح، كما يتوقف النبات على غيث السماء، ولما كانت الحكمة
هنا تعني العلم والمعرفة العملية، فإن المعنى يوجه إلى أن قوة الإيمان والهدى،
مترتبة على قوة المعرفة ونوعها، ولا شك أن سلوك الإنسان مترتب على معتقده،
وهكذا يصير الأمر إلى أن السلوك البشري وهو الأساس في ترجمة الفكر إلى
حضارة متعلق بطبيعة المعرفة التي يتلقاها في مجتمعه إذ كل يعمل على
شاكلته. بمعنى أن الفكرة الدينية تحدث تغييرها حتى في سمت الفرد ومظاهره حين
تغير في نفسه وبذلك يكون المنهج التربوية الاجتماعية أثره في تجميل ملامح الفرد،
أي أن مجموعة من الانعكاسات تؤدي إلى خلق صورة جديدة كأنها تتمثل في

١٥ - الموطأ: ص ١٠٠٣ باب العلم ورقم الحديث هو: ١٨٢١

والقرآن يؤكد أن الخير كله ماديا كان أو معنويا دنيويا أو أخرويا، كله متوقف على العلم فقال تعالى ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾^(١٧) فجعل الخير مرهونا بالحكمة وحصول المعرفة. ومعناه أن السلوك الذي هو سبيل الإنسان إلى تحقيق أهدافه في الحياة، والخروج من العطالة إلى الحركة والنشاط المنتج متوقف على نمط المعرفة التي يخترنها في ذهنه.

وفي القرآن الكريم ما يؤكد طبيعة العلاقة بين المعرفة الدينية والسلوك وما يترتب عليه من إنجازات قولية وعملية، فنقرأ قول الله تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾^(١٨) فالذي يحيي القلوب إنما هو الاستجابة للقرآن والسنة معا، وهما مصدران أساسيان للمعرفة الإسلامية، لذلك أكد ذكر الاستجابة لله وللرسول معا أي للقرآن والسنة فقال ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ قال ابن عاشور: فان في دعوته إياهم إحياء لنفوسهم وأعلمهم أن الله يكسب قلوبهم بتلك الاستجابة قوى قدسية^(١٩)، ثم أضاف والإحياء هذا مستعار لما يشبه إحياء الميت وهو إعطاء الإنسان ما به كمال الإنسان فيعم كل ما به ذلك الكمال من إنارة العقول بالاعتقاد الصحيح والخلق الكريم والدلالة على الأعمال الصالحة وإصلاح الفرد والمجتمع وما يتقوم به ذلك من الخلال الشريفة العظيمة فالشجاعة حياة للنفس والاستقلال حياة والحرية حياة واستقامة أحوال العيش حياة^(٢٠)

ويؤكد القرآن في موضع آخر طبيعة العلاقة بين العلم والسلوك وترابطهما المحكم في الخير والشر فيقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا

١٦ - ميلاد مجتمع ص ٨٠، مالك بن نبي

١٧ - سورة: البقرة ٢٦٩

١٨ - الأنفال ٢٤

١٩ - التحرير والتنوير: ١ / ١٧٤٢

٢٠ - التحرير والتنوير: ١ / ١٧٤٣

بِأَنْفُسِهِمْ^(٢١) ﴿ أي أن تغيير المعارف التي تشكل البنية النفسية للإنسان هي التي تتحكم في تغيير سلوكه الذي عليه يقوم تغيير الحياة كلها، وبتعبير مالك بن نبي: فإن عجلة المجتمع تدور بفضل شبكة علاقاته وأن هذا النشاط هو الذي ينشأ عنه تغيير صورته بيد أننا رأينا نوعاً من التعادل بين شبكة العلاقات في مجتمع ما ونظام الاستجابة أو رد الفعل لدى الفرد المكيف فالمشكلة على هذا واحدة ولكنها متصورة بمستويين أو في نطاقين مختلفين: نطاق النفس الإنسانية من ناحية ونطاق الزمن الاجتماعي من ناحية أخرى^(٢٢) ثم يضيف: ويمكننا أن نفسر هذه المرحلة (الروحية) بلغة علم النفس حين نقول إنها تتفق مع المرحلة التي يكون الفرد خلالها في أحسن ظروفه أعني الظروف التي يكون فيها نظام أفعاله المنعكسة في أقصى فاعليته الاجتماعية وتكون طاقته الحيوية أيضاً في أتم حالات تنظيمها^(٢٣)

ويؤكد القرآن ذلك فيقول: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾^(٢٤) فيجعل تغيير الأوضاع الخارجية للإنسان مرهونة بتغيير نفسه وفكره وعقيدته ومعارفه. ولذلك يرسل الرسل ليعلموا الناس أصول الحياة قال ابن عاشور: إن الأمم تكون صالحة ثم تتغير أحوالها ببطر النعمة فيعظم فسادها فذلك تغيير ما كانوا عليه ؛ فإذا أراد الله إصلاحهم أرسل إليهم هداة لهم فإذا أصلحوا استمرت عليهم النعم مثل قوم يونس وهم أهل نينوى وإذا كذبوا وبطروا النعمة غير الله ما بهم من النعمة إلى عذاب ونقمة^(٢٥)

إننا بهذا المعنى نعتقد أن الإنسان تكتمل تربيته وتستقيم ويحسن سلوكه ويصح عن طريق إمامه بالمعرفة، وتنمو بنموها، فكلما زاد الاهتمام بالمعرفة لدى أمة أو فرد كان دليلاً قويا ومؤشراً طبيعياً على زيادة اهتمام بالتربية الصحيحة التي تنشئ في

٢١ - سورة: الرعد ١١

٢٢ - ميلاد مجتمع ص ٧٦-٧٧ مالك بن نبي: دار الفكر المعاصر لبنان بيروت ودار الفكر دمشق سوريا ط ٣، س ٢٠٠٢

٢٣ - ميلاد مجتمع ص ٧٦-٧٧ مالك بن نبي

٢٤ - الأنفال ٥٣

٢٥ - التحرير والتنوير: ١ / ١٧٨٠

النفوس القوة الفعالة في دنيا الناس، وقد ترتب على ذلك أن أصبح المنهج المدرسي لدى جميع الأمم يعنى بإعطاء التلميذ أكبر قدر ممكن من الحقائق والمعلومات الفاعلة، إننا نرى من هذه الزاوية أن العناية بالحفظ والمعرفة وتنمية الجانب الذهني عموما هو المخرج الصحيح لتكوين سلوك صحيح فهل هو كذلك فعلا؟

لا شك أن النص - قرآنا وحديثا - كان يتحدث عن العلاقة بين المعرفة والسلوك، بحيث يكون أحدهما متغيرا تابعا، والأخر متغيرا متبوعا، وقد انتبه البخاري إلى هذه النقطة فجعل بابا بعنوان: (باب العلم قبل القول والعمل)، فحين قال البخاري ذلك كان يعي تماما شدة الترابط بين طبيعة العلم وطبيعة السلوك القولية والعملية الناجمين عنه تحكما وتوجيها.

فالعلاقة بين المعرفة والسلوك واضحة، والتفاعل بينهما أوضح، ولكن المشكلة ليست في وجود العلاقة أو التفاعل، لأن ذلك صار من المعروف بالبداهة، وإنما هي في طبيعة المعرفة؛ لأن نوع السلوك تابع للنوع المعرفي، ينفعل به سلبا وإيجابا، وهو الذي قال الله فيه: ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرِيكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾^(٢٦) وهو الذي أشار إليه أيضا الرسول فيما روي عن أبي هريرة أن الرسول قال: كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه كما نتاج الإبل من بهيمة جمعاء هل تحس فيها من جدعاء^(٢٧)، ومعناه أن المعرفة هي التي تصوغ شخصية الإنسان، ومن الجميل جدا هذا التشبيه إذ معناه كما تلد البهيمة بهيمة مجتمعة الأعضاء سليمة من نقص لا توجد فيها جدعاء وهي مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء، كذلك حال الإنسان حين يولد صافي العقيدة، وبمعنى آخر إن البهيمة تلد بهيمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها وإنما يحدث فيها الجذع والنقص

٢٦ - سورة: الإسراء ٨٤

٢٧ - الموطأ: ١ / ٢٤١ وورد في صحيح البخاري: ١ / ٤٥٦ وصحيح مسلم: ٤ / ٢٠٤٧ دون كلمة « قالوا يا رسول الله »

بعد ولادتها بسبب تدخل الناس في شخصيتها، فكذلك الإنسان تفسد عقيدته بحكم ما يتلقاه من معارف منحرفة^(٢٨)، وهكذا يحدث التفاعل بين المجتمع وأفراده، فيؤثر فيهم ويؤثرون فيه. ولما كانت المعارف التي يتلقاها تهدف إلى أن تكون منه يهوديا أو نصرانيا بسبب تفعيل ثقافته ومعارفه في الحياة وفق ما يتلقاه، قال النووي: الاصح أن معناه أن كل مولود يولد متهيئا للإسلام فمن كان أبواه أو أحدهما مسلما استمر على الإسلام في أحكام الآخرة والدنيا وإن كان أبواه كافرين جرى عليه حكمهما في أحكام الدنيا وهذا معنى يهودانه وينصرانه ويمجسانه^(٢٩).

فبين رسول الله ﷺ دور الثقافة التي يتلقاها الطفل في صياغة عقيدته وسلوكه جملة وتفصيلا، بل بين نوع الثقافة في صياغة شخصية الطفل، وحتى الحيوان، فمن تلقى اليهودية تهود ومن تلقى النصرانية تنصر ومن تلقى المجوسية كان وفق ما تلقى .

لذلك لا بد من أن نتساءل ما نوع المعرفة العملية التي تحقق التغير التابع للنمط المعرفي والثقافي الذي أوحى الله سبحانه به إلى نبينا من أجل العمل به؟ هنا بالضبط تدخل مستويات المعرفة الإسلامية باعتبار مصادرها من القرآن والسنة المطهرة إلى عصر الرواية ثم عصر الفقه ثم فاعلية التطبيقات الناجمة عن طبيعة الفقه والفهم جملة وتفصيلا لأنها ذات طبيعة عملية تطبيقية بالدرجة الأولى، وهو ما سنتحدث عنه في المبحث الموالي بإذن الله.

المبحث الثاني: المستويات الأساسية للمعرفة الإسلامية من خلال الحديث الشريف:

للقوف على المعرفة التي بنى بها الرسول ﷺ المجتمع النموذجي متمثلا في

٢٨ - شرح النووي على صحيح مسلم: ١٦ / ٢٠٩ وأيضا هامش صحيح مسلم ٤ / ٢٠٤٧

٢٩ - شرح النووي على صحيح مسلم ١٦ / ٢٠٨

الرعييل الأول من بناء الحضارة الإسلامية، جيل الصحابة النقي، والثلة الأولى الرفيعة، لابد من حصر مستويات المعرفة الإسلامية، حصرا دقيقا يبين ما هو معرفة إسلامية حقيقية وما هو معرفة ظنية، تتطلب التمحيص، وما هو معرفة مزيفة ينبغي الاحتياط من آثارها السلبية. ولا شك أن تحديد المستويات الأساسية للمعرفة الإسلامية من خلال السنة النبوية المطهرة، يعني تحديد نمط الفاعلية في القيم الحضارية. إذ تمر المعرفة الإسلامية - كما يبينها الحديث الشريف - في طريقها إلى التفاعل مع السلوك لصنع حضارة ما خلال خمسة مستويات متدرجة في الصحة من أعلى إلى أسفل، ومن اللوح المحفوظ إلى التطبيق العملي، وهي:

المستوى الأول: (القرآن الكريم: المحفوظ والمنزل من عند الله)

تبين السنة المطهرة أن أول مصدر للمعرفة الإسلامية النقية مطلقا هو القرآن الكريم، فقد جاء في صحيح مسلم: قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله^(٣٠)، هكذا بلفظ صريح لا يدع مجالاً للشك يأتي نص من الحديث الصحيح ليرز حقيقة أساسية في دورة الحياة البشرية كلها وهي بصدد تفعيل المعرفة والسلوك لتصنع حضارة، نص يقرر حقيقة هامة في علاقة المعرفة بالسلوك في صورتيه الهدى والضلال، فاهتداء الإنسان إلى الطريق الصحيح والمنهج القويم يتوقف على مدى اعتصامه بكتاب الله، فها هنا كتاب من عند الله هو وحده الذي يحمل الحقيقة المطلقة التي لا يأتيها من بين يديها ولا من خلفها زيغ ولا باطل، فمن اعتصم به هدي إلى الطريق المستقيم، ومن حاد عنه ضل ضلالاً مبيناً.

والسبب في ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد تولى بنفسه حفظ هذا الكتاب من أي زيغ أو تحريف، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٣١)

٣٠ - صحيح مسلم ص: ٢/ ٨٨٦ رقم: ١٢١٨

٣١ - سورة: الحجر : ٩

فهذا الكتاب الذي تولاه الله بحفظه حتى يحافظ على نقائه ليجنبه ما لحق بالكتب السماوية السابقة من تحريف وتزييف، هلكت بسببه الأمم والممالك، هو الذي ينبغي الاعتصام به حتى ننجو من التهلكة التي وقعت فيها اليهود والنصارى.

وقد يكون من المفيد هنا أن نشير لقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٣٢) لنين أن العبادة طريق أساسي لتفعيل السلوك تفعيلاً صحيحاً يمكنه من أن يحقق الأغراض البناءة في حياة البشرية يقول ابن نبي: إننا نعلم أن أول شيء في هذه الطريق هو تكوين نظام الانعكاسات الذي غير سلوك الفرد، وهذا التغيير النفسي هو الذي يستهل حياة المجتمع، وهو أيضاً الشرط النفسي في كل تغيير اجتماعي، أليس ذلك وارداً بوضوح في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٣٣) وهكذا نرى أن كل ما يغير النفس يغير المجتمع، ومن المعلوم أن أعظم التغييرات وأعمقها في النفس قد وقعت في مراحل التاريخ مع ازدهار فكرة دينية^(٣٤)

٢- المستوى الثاني: (مستوى التبليغ):

وهنا يأتي المستوى الثاني هو مستوى النبوة الذي تتعاقب فيه السنة مع القرآن، ذلك لأن السنة أصل في الدين وأمرها عظيم وخطبها جسيم^(٣٥) وقد جاء في المستدرک عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: إني قد تركت فيكم شيئاً لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض^(٣٦)، فالحديث هنا يجمع بين المصدرين الأساسيين في المعرفة الإسلامية (الكتاب والسنة) التي هي الأساس في صياغة الشخصية الإسلامية

٣٢- سورة الذاريات الآية: ٥٦

٣٣- سورة الرعد: ١١

٣٤- ميلاد مجتمع: ٧٩- ٨٠ م س

٣٥- أصول البزدي م س ١ / ١٨٥

٣٦- المستدرک على الصحيحين ج ١ ص ١٧٢

بحيث يصدر عنها سلوك يتناسب معها قلبا وقالبا.

وهذا المستوى هو مستوى التبليغ الذي أمر به الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ﴾^(٣٧) فأمر بتبليغ الرسالة كلها دون خوف من أي قوى من قوى الضغط التي كانت تقاوم الرسالة، وإن لم يفعل في بعض فكأنما ترك الكل قال الزمخشري: ذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض وإن لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها لإدلاء كل منها بما يدل عليه غيرها . . . وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن كتبت آية لم تبلغ رسالتي^(٣٨).

هذا المستوى يتجمع فيه نصاب من نصوص المعرفة الإسلامية هما: القرآن المعجز، والسنة النبوية المطهرة، التي تمثل أقوال الرسول ﷺ، وأفعاله وتقريره^(٣٩) بما في ذلك الحديث القدسي^(٤٠)،

وقد بين القرآن ذلك الترابط بين القرآن والسنة بيانا شافيا فقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٤١) وبذلك يكون قد وضع معيارا أساسيا لأصول المعرفة الإسلامية بحيث يتحكم فيها ما جاءنا عن طريق الرسول ﷺ من القرآن والسنة، ولاشك أن عبارة ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٤٢) تكشف عن أهمية التدقيق في ما نأخذ وما نترك في صياغة السلوك، لأن أي خلط بالزيادة أو النقصان يؤدي حتما إلى الخلل بسبب تفعيل

٣٧ - سورة: المائدة: ٦٧

٣٨ - الكشاف: الزمخشري: ص ١ / ٣٢٨ قال الزمخشري: وروي عن رسول الله ﷺ: بعثني الله برسالاته فضقت بها ذرعا فأوحى الله إلي إن لم تبلغ رسالتي عذبتك . وضمن لي العصمة فقويت لم أجد له أصلا في المتن

٣٩ - أصول الفقه المسمى إجابة السائل شرح بغية الأمل: محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني: مؤسسة الرسالة بيروت: الطبعة الأولى، ١٩٨٦ تحقيق: القاضي حسين بن أحمد السياغي و الدكتور حسن محمد مقبولي الأهدل، وانظر حاشية التلويح للسعد التفتزاني: ٢ / ٢

٤٠ - الحديث القدسي هو ما أضيف إلى رسول الله ﷺ وأسنده إلى ربه عز وجل، فمعناه إلهام من الله ولفظه من عند الرسول، وهو خلاف القرآن الذي هو من عند الله لفظا ومعنى وقد يصل عددها إلى ٢٧٢ حديثا قدسيا (نور الدين عتر: منهج النقد في علوم الحديث: ص: ٣٢٥

٤١ - سورة: الحشر: ٧

٤٢ - سورة: الحشر: ٧

المعرفة بغير الصورة التي أرادها الله نظاما لعباده

هكذا يتبين أن المعرفة التي ارتضاها الله لعباده، هي تلك التي يحكمها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والقرآن هو الكتاب المحفوظ من الله جل جلاله، والسنة هي تطبيقات الرسول ﷺ، وهما إذن متلازمان، ولذلك في اعتقادي سميت الحكمة، وسميت السيرة، وبالاقتداء بها يكون الفلاح، وهذا سر نجاح المعرفة الإسلامية في عهد الصحابة بحيث تجلت في سلوك أهل عصرهم أكثر منها في أي عصر كما سنبين من بعد، وهو مصداق قول الرسول ﷺ حيث جاء في صحيح البخاري: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته»^(٤٣)، والسبب في اختلاف اللاحق عن السابق هو طريق انتقال المعرفة من النظر إلى السلوك والعمل، ذلك لأن المعرفة النظرية التي تعنى بالذهن وحده بعيدا عن التطبيق هي معرفة لم تنتقل إلى العارف عن طريق السلوك الحركي والجانب الوجداني وهما أساسيان في نشئة الفرد وإدماجه في المجتمع كي يكون فعالا في صنع القيم الحضارية..

المستوى الثالث: (الرواية ومستوى صيانة النص):

هذا المستوى من أعقد المستويات، وأشدّها خطورة، لأنه المستوى الذي بدأت فيه المعرفة تنتقل بطرق متعددة، لذلك بادر الرسول ﷺ إلى بيان خطورة المرحلة المقبلة، فقد روى أحمد في المسند أن العرباض بن سارية قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب قلنا يا رسول الله ان هذه

٤٣ - صحيح البخاري: ٢ / ٩٣٢ ، ورقمه: ٢٥٠٩ وأخرجه مسلم في باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم رقم ٢٥٣٢

لموعظة مودع فماذا تعهد إلينا قال قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي الا هالك ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين وعليكم بالطاعة وان عبدا حبشيا عضوا عليها بالنواجذ فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما انقيد انقاد^(٤٤)

إذن كان قد بين في خطبته الأخيرة أربعة أحوال من أمور المعرفة لها دورها الأساسي في الفعالية الحضارية:

١- ما ترك عليه الأمة من صفاء المعرفة الدينية
٢- ما يتوقعه من زيغ في الرواية لهذه المعرفة
٣- ما يتوقعه من خلاف ينشب نتيجة لذلك الزيغ في رواية المعرفة، خاصة على المستوى السياسي الذي يقتضي الطاعة، التي ستستغل - بكل أسف - إديولوجيا استغلالية فاحشا

٤- العلاج المتمثل في التمسك بالقرآن والسنة، ونماذج القدوة الصالحة وإنما شدد على صفاء المعرفة ليقى الأمة شر تزييفها وشر ما يترتب على ذلك ففي الحديث اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم، فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار^(٤٥)

وقد استوعب بعض الصحابة ذلك فعملوا على تحذير الناس بعد الرسول ﷺ من خطورة التساهل في نقل النصوص المعرفية بغير تحقيق.

وبهذا الصدد ذكر الذهبي من مراسيل ابن أبي مليكة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان قد انتبه لخطورة هذا المستوى؛ لأن الرواية فيها تعني وضع الأسس الأولى للمعرفة الإسلامية، وأن الاختلاف في الرواية يعني تقديم أكثر من وجه للأمر مما يؤدي إلى اختلاف التطبيقات وما ينجر عنها من خصومات فقال: إنكم تحدثون

٤٤- أحمد ابن حنبل المسند ٤ / ١٢٦ رقم ١٧١٨٢ ، تعليق شعيب الأرنؤوط : حديث صحيح بطريقة وشواهد وهذا إسناد حسن ، مسند ابن حنبل ٤ / ١٢٦

٤٥- صحيح مسلم: ١٠ / ١ / حديث رقم ٣

عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافًا فلا تحدثوا عن رسول الله شيئًا فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرّموا حرامه^(٤٦) ولئن قال الذهبي معلقًا على الخبر: ومراد الصديق التثبت في الأخبار والتحري لاسد باب الرواية^(٤٧)، فعبارة والناس بعدكم أشد اختلافًا تكشف عن الرؤية المستقبلية التي تحدد منطقيًا ما سيؤول إليه الأمر إن انتقلت المعرفة بصور غير متطابقة، بحيث يزداد الخلاف توسعًا كلما قدّم الأمر، لذلك أحال على المعرفة اليقينية (كتاب الله)، من أجل أن يبقى ما ليس محفوظًا للحفاظ من أهل التخصص.

ويعجبني كثيرًا احتياط الشافعي في حديثه عن العلاقة بين عمل الصحابة وأقوالهم وبين أقوال الرسول ﷺ فبين أن عمل الصحابة لا يعد شيئًا أمام نص الحديث يقول: ويعلم أن الحديث إذا رواه الثقات عن رسول الله ﷺ فذلك ثبوته وأن لا نعول على حديث ليثبت إن وافقه بعض أصحاب النبي ﷺ ولا يرد إن عمل بعض أصحاب النبي ﷺ عملاً خالفه لأن لأصحاب النبي ﷺ والمسلمين كلهم حاجة إلى أمر رسول الله ﷺ، وعليهم اتباعه، لا أن شيئًا من أقوالهم تبع ما روى عنه ووافق يزيد قوله شدة ولا شيئًا خالفه من أقوالهم يوهن ما روى عنه الثقة لأن قوله المفروض اتباعه عليهم وعلى الناس^(٤٨)

وفي الواقع هذه كانت هي مرحلة الرواية، وقد انتبه المحدثون بتوفيق من الله لخطورة الأمر فعملوا على تصفية الأجواء فظهرت عندهم من أجل ذلك مجموعة من المصطلحات تؤيد ما ذهبت إليه مثل قولهم: (الضعيف، والمتروك، والمطروح...)، هذه المصطلحات عملت على تصفية السنة المطهرة، كما جاء في

٤٦ - تذكرة الحفاظ للذهبي: ج ١ ص ٢-٣ وانظر تذكرة الحفاظ: محمد بن طاهر بن القيسراني / ١ / ٣ : دار الصميعي / الرياض: سنة ١٤١٥ ط ١ تحقيق حمد بن عبد الحميد السلفي، وقال القيسراني: ومراد الصديق التثبت في الأخبار والتحري لاسد باب الرواية ١ ص ٣ وانظر الاجتهاد بالرأي في مدرسة الحجاز الفقهية ص ١٣٢ د: خليفة بابكر الحسن مكتبة الزهراء القاهرة ١٩٩٧
٤٧ - تذكرة الحفاظ: ج ١ ص ٣ دار إحياء التراث العربي
٤٨ - ت الأم ١ / ١٦٩

الصحيحين والموطأ حتى قال العلماء : بشأن البخاري ومسلم وكتابهما أصح الكتب بعد كتاب الله العزيز . وذكر عن (الشافعي) رحمته الله أنه قال : ما أعلم في الأرض كتاباً في العلم أكثر صواباً من كتاب (مالك)^(٤٩) قال في التذكرة: وفي العدة أعلم أن الأحاديث التي لا أصل لها لا تقبل والتي لا إسناد لها لا يروى بها^(٥٠)،

لقد كان الصفاء الذي ترك الرسول ﷺ صحابته قد أثمر ثمرة رائعة في ذلك تجلّى في السلوك فقد روي أن الحافظ أبا القاسم الطبراني قال: فيما روي عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله ﷺ فقال له : كيف أصبحت يا حارث؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً قال : انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ فقال: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها فقال : يا حارث عرفت فالزم ثلاثاً^(٥١)

وقد انتبه العلماء لمشكلة أخرى في صميم الرواية وبينوا خطورتها على فاعلية النص في الحياة تلك هي مشكلة الرواية بالمعنى قال الشافعي في الرسالة: ولا تقوم الحجة بخبر الخاصة حتى يجمع أموراً :

- منها أن يكون من حدث به ثقة في دينه معروفاً بالصدق في حديثه عاقلاً لما يُحدثُ به عالماً بما يُحيل معاني الحديث من اللفظ وأن يكون ممن يُؤدّي الحديث بحروفه كما سمع لا يحدث به على المعنى لأنه إذا حدث على المعنى وهو غير عالم بما يُحيلُ به معناه : لم يدرك لعلّه يُحيل الحلال إلى الحرام وإذا أذاه بحروفه فلم يبق وجه يُخاف فيه إحالته الحديث حافظاً إن حدث به من حفظه حافظاً لكتابه إن

٤٨-ت الأم ١ / ١٦٩

٤٩ - مقدمة ابن الصلاح: ١ / ١٠

٥٠ - تذكرة الموضوعات ١ / ١٠، محمد بن طاهر بن علي الفتنى الهندي مسكنا ونسبا والحنفي مذهبا

٥١ - المعجم الكبير: ورقمه ٣٣٦٧، ومصنف ابن أبي شيبة: ٦ / ١٧٠ ورقمه: ٣٠٤٢٥ بلفظ مختلف، تفسير ابن

كثير ٢ / ٣٧٩ وإن كثرت طرقه والدر المنثور ٤ / ١٣، قال ابن عاشور في التحرير وهو حديث ضعيف

حدّث من كتابه^(٥٢)،

وهكذا كان واجبا على العلماء النقاد أن يصونوا السنة من التزييف، اعتمادا على الأساليب العلمية التي تصحح وتحسن وتكذب، قال حمزة المليباري: وبقدر ما يتوافر لدى الناقد من القرائن يتقوى شعوره حتى يصل إلى العلم بأن الحديث ثابت عن مصدره، وأنه تم نقله عنه عبر رواته من غير وهم ولا خطأ مع كونه من خبر الآحاد، ولا يتوقف الجزم بذلك أبدا على تواتره، كما هو الشائع لدى كثير من المثقفين الذين ينظرون في الحديث من زاوية ثقافتهم دون احترام أهله من النقاد القدامى.. وبما أن هذا العلم من علم الخاصة فإنه لا يمكن أن يكون للجميع شعور النقاد وإحساسهم تجاه الحديث ومدى إفادته اليقين والعلم، ولذا يتعين على غيرهم التسليم بذلك سواء أفاد ذلك عندهم الظن أم لا^(٥٣)

المستوى الرابع: مستوى التلقي والعمل العقلي: أي (الفقه الأكبر والأصغر) ودورهما في صياغة القيم الحضارية وتفاعلها مع السلوك: نريد هنا أن نتحدث عن الفقه بنوعيه الأصغر والأكبر باعتباره واسطة التفاعل بين المعرفة الدينية والسلوك الحضاري، إذ الفقهاء بنوعيهما، هم الذين تصدوا لهذه المهمة كما تصدى الرواة وعلماء الحديث لمهمة صيانة النص وحفظه.

قال النبي ﷺ من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين^(٥٤)، والفقه هو الفهم، والفهم هو أعمال العقل في المعرفة، من أجل استخدامها وتوظيفها في شؤون الحياة، الفقه هنا عبارة عن الفهم في الدين جملة، لذلك قالوا الفقه الأصغر والفقه الأكبر،

٥٢- الرسالة: الشافعي ص ١ / ٣٦٩

٥٣- علوم الحديث في ضوء تطبيقات المحدثين النقاد: حمزة عبد الله المليباري: دار ابن حزم ص ٤١-٤٢
٥٤- صحيح البخاري ٣٩١، وفي صحيح مسلم سمعت معاوية خطيبا يقول: سمعت النبي ﷺ يقول «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله: [٢٩٤٨]، ٣٤٤٢، ٦٨٨٢، [٧٠٢٢] أخرجه مسلم في الزكاة باب النهي عن المسألة رقم ١٠٣٧

يعنون الشريعة والعقيدة، ومن الواضح أن صيغة الحديث هنا تربط بإحكام شديد عن طريق الجملة الشرطية بين المعرفة الفقهية وتحقق الخيرات، وكأننا بمفهوم المخالفة نفتقد الخير كلما كنا بعيدين عن المعرفة.

فقد كلف هؤلاء الفقهاء أنفسهم مشقة الفهم والعمل على تنزيل النص على الواقع البشري، لينتظم حال الخلق ويستوي أمر معيشتهم، ويشاركهم في هذا الأمر أصحاب الفقه الأكبر الذي هو العقائد التي تشكل مرجعية المعتقدات، لينتظم حال عقول الناس ويستقيم تفكيرهم.

ومن هنا وجب أن يتصف الفقيه بخصوصيات ينبغي أن تحترم، ومنها المعرفة بأصول الاستنباط، ومنها اللغة والبلاغة، إذ أن النص قرآنا كان أو سنة، قد صيغ بصيغة بلاغية قوية وكل صيغة بلاغية تتميز بالدقة لأن معانيها لا تفهم من دلالة اللفظ بقدر ما تفهم من طبيعة الصيغ، وعلى هذا الأساس وجب على الفقيه أن يكون ملما بعلوم اللغة.

وكم يعجبني قول الإمام أحمد وقد سئل عن غريب الحديث فقال: سلوا أصحاب الغريب فإني أكره أن أتكلم في قول رسول الله ﷺ بالظن فأخطئ^(٥٥) وروي عن أنس بن مالك قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب البيت وهو يريد الحجرة فسمع ناسا يختصمون في القدر، يقول أحدهم ألم يقل الله في آية كذا وكذا ويقول الآخر ألم يقل الله في آية كذا وكذا فخرج رسول الله ﷺ من باب الحجرة كأنما فقيء في وجهه مثل حب الرمان فقال أبهذا أمرتم أو بهذا بعثتم إنما هلك من كان قبلكم بأشباه هذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض أمركم الله بأمر فاقبلوه ونهاكم عن شيء فانتهاوا عنه فما سمع الناس أحدا بعد ذلك تكلم في القدر حتى كان ليالي الحجاج فكان أول من تكلم في القدر معبد الجهني فقتله

٥٥ - الشذا الفياح : ج / ٢ ص ٤٥١ ومقدمة ابن الصلاح : ج ١ ص ٢٧٢ / دار الفكر المعاصر تحقيق نور الدين عتر ١٩٧٧

معنى هذا الحديث أن مسألة الغموض قائمة في نص الوحي، ومن ثم كان الاختلاف محتملاً وقد يصل إلى درجة كبيرة يتضارب فيها معاني الكلام في أذهان الناس في النصوص الصحيحة نفسها بسبب تدخل حظوظ النفس والأهواء، لاسيما في فقه السياسة الشرعية، وعليه فلا بد من وقفة عند مشكلة طبيعة التفقه واثره في الاختلاف.

في هذا المستوى من المعرفة نجد العلماء يتوسعون في نطاق مصادر المعرفة مع شيء من الضوابط فقال الشافعي في الأم: والمعلم من وجهين: اتباع أو استنباط والاتباع اتباع كتاب فإن لم يكن فسنة فإن لم تكن فقول عامة من سلفنا لا نعلم له مخالفاً فإن لم يكن فقياس على كتاب الله جل وعز فإن لم يكن فقياس على سنة رسول الله (فإن لم يكن فقياس على قول عامة من سلف لا مخالفة له ولا يجوز القول إلا بالقياس وإذا قاس من له القياس فاختلفوا وسع كلا أن يقول بمبلغ اجتهاده ولم يسعه اتباع غيره فيما أدى إليه اجتهاده بخلافه والله أعلم^(٥٧)

ومن الواضح أن الشافعي يحدد مصادر الأحكام الفقهية، بناء على حديث معاذ: عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال أقضي بكتاب الله قال فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال فبسنة رسول الله (قال فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله؟ قال أجتهد رأيي ولا آلو) لا أقصر في الإجتهد (فضرب رسول الله) صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله^(٥٨)

وعلى هذا نبه علماء الحديث على ضرورة تحمل المسؤولية إزاء استخدام الحديث بدون تأكيد من صحته فقال: ابن حجر: أكثر المحدثين من سنة مائتين إلى

٥٦ - المعجم الأوسط: ٧: ١٢٤، مصنف عبد الرزاق: ١١ / ٢١٦، مسند أحمد بن حنبل: ٢ / ١٨٥، ٥٩١

٥٧ - الأم ١ / ٢٦٩

٥٨ - سنن أبي داود: ٢ / ٣٢٧ ورقمه ٣٥٩٢ وقد ضعفه الشيخ الألباني

الآن إذا ساقوا الحديث بإسناده اعتقدوا أنهم برئوا من عهده^(٥٩)
ولا شك أن توسيع نطاق مصادر المعرفة سيؤدي إلى تعدد أوجه السلوك،
وهذا الذي جعل مذاهب الفقه تتعدد تبعاً لأمرين أساسيين:

١- إعمال العقل من أجل الاستنباط، وفي هذه الحال ينبغي عزل العقل أو ضبطه
بقدر المستطاع حتى لا يذهب في التأويل بعيداً

٢- انتخاب النصوص طبقاً لقواعد منهجية فيها أحياناً شيء من التعصب، يقول
أحد الباحثين: فاختلاف مدرستي الكوفة والمدينة في الأساس اختلاف في
التلقي، ونوع الأساتذة الذين أخذ عنهم كل قبيل، ومعلوم أن الصحابة
رضوان الله عليهم كانوا يختلفون وكانت أسباب الاختلاف بينهم كثيرة
متعددة، وقد انتقلت هذه الاختلافات إلى التابعين - من الفريقين - لأن كل فريق
اعتمد فتاوى شيوخه من الصحابة^(٦٠).

وقد بين الشافعي في الأم أن توسيع النطاق يتطلب قواعد ضابطة، لأن
الصحابي نفسه قد يعزب عنه شيء من السنة يعلمه من بعده عن طريق البحث
والتنقيب فقال: إن من متقدمي الصحبة وأهل الفضل والدين والأمانة من يعزب
عنه من سنن رسول الله ﷺ شيء علمه غيره ممن لعله لا يقاربه في تقدم صحبته
وعلمه، ويعلم أن علم خاص السنن إنما هو: علم خاص لمن فتح الله عز وجل له
علمه لا أنه عام مشهور شهرة الصلاة وجمل الفرائض التي كلفتها العامة ولو كان
مشهوراً شهرة جمل الفرائض ما كان الأمر فيما وصفت من هذا وأشباهه كما
وصفت^(٦١)

٥٩ - تذكرة الضعفاء: ١ / ١٢

٦٠ - الاجتهاد بالرأي: بابكر خليفة ص ٢٥٥

٦١ - الأم ١ / ٢٦٩

الفقه الأصغر والفقه الأكبر وأثرهما في اختلاف السلوك تبعا لاختلاف التأويلات:

من يتدبر الترخيصات الفقهية يدرك بعمق دور المعرفة المنتشرة في مجتمع من المجتمعات في السلوك كله حتى التعبدية، فنحن نلاحظ مثلا في الصلاة سلوكا تعبديا يتغير من مجتمع إلى آخر، وعلى سبيل المثال نذكر:

أولا: رفع اليدين في الصلاة، ولكي يتبين وجه الكلام لنقرأ هذا النص الذي ينقل لنا مشهد خلاف بين الأوزاعي وهو من أصحاب منهج المدينة، وأبي حنيفة وهو من أصحاب منهج الكوفة، فقد اجتمعا في مناقشة حادة، فقال الأوزاعي لأبي حنيفة مبالكم لا ترفعون أيديكم عند الركوع والرفع منه، فقال أبو حنيفة لم يصح في ذلك عن رسول الله ﷺ شيء، فقال الأوزاعي كيف وقد حدثني الزهري عن سالم عن أبيه عن رسول الله ﷺ، أنه كان يرفع يديه وعند الركوع وعند الرفع منه، فقال أبو حنيفة: حدثنا حماد عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان لا يرفع يديه إلا إذا افتتح الصلاة ولا يعود لشيء من ذلك، فقال الأوزاعي أحدثك عن الزهري عن سالم عن أبيه وتقول حدثني حماد عن إبراهيم فقال له أبو حنيفة حماد أفقه من الزهري وكان إبراهيم أفقه من سالم، وعلقمة ليس بدون ابن عمر وإن كان لابن عمر صحبة أو له فضل صحبة فالأسود له فضل كثير وعبد الله هو عبد الله^(١٢)

فمن الواضح أن الخلاف بين الفقيهين لم يكن بسبب اختلاف ما وصلهم من الروايات، ولكن بسبب التصلب أيضا، والتصلب غير التعصب، إذ كان يكفي أن يتأكد كل منهما من صحة الروايتين، ويصبح الأمر بعد ذلك مقبولا في الحالين، إلا إذا تأكد لأحدهما علة حقيقية في إحدى الروايتين فعندئذ ينتهي الجدل ويصبح الأمر واضحا،

٦٢ - : الحجة للإمام محمد بن الحسن: ص ٣٢-٣٣ ، نقلا عن الاجتهاد بالرأي : بابكر خليفة ص ٢٥٩

ثالثاً: الفقه الأكبر: وكان طبيعياً أن يتدخل الفقه الأكبر وهو ذو فعالية جبارة في الحياة، لأن مسكنه العقل والقلب وهما مصدر تفعيل السلوك يصلح بصلاحتهم ويفسد بفسادهم وقد قال ﷺ: الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في المشبهات كراع يرعى حول الحمى أوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب^(٦٣) فالحلال والحرام واضحا المعالم بما أننا على السيرة البيضاء وبما وصلنا من معرفة صحيحة، ولكن المشبهات التي وجد فيها الهوى دورا حساسا له هي التي كانت مرتعا خصبا للخيال لينتج ما أنتج في بعض الأحوال السياسية خاصة، فمن اتقاها وحذرنا وابتعد عنها استبرأ في دينه من النقص، وعرضه من الطعن فسلم عقله واستقامت حياته، ومن اشتغل بالمشبهات خسر خسرا يتناسب تناسباً طردياً مع كم المشبهات وكيفها.

ولعل من أبرز الأحاديث التي بينت ذلك حديثين:

أما الأول فقد روي عن سفينة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك قال سفينة أمسك خلافة أبي بكر ﷺ سنتين وخلافة عمر ﷺ عشر سنين وخلافة عثمان ﷺ اثني عشر سنة وخلافة علي رضي الله عنه ست سنين رضي الله عنهم^(٦٤)

أما الثاني فهو ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا وتجدون خير الناس في هذا الشأن أشد له كراهية وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه^(٦٥)، فهذا الحديث يصف حال الناس ومواقفهم إزاء شأن عظيم هو

٦٣ - صحيح البخاري ١ / ٢٨ رقم ١٩٤٦ وأخرجه مسلم في المساقاة باب أخذ الحلال وترك المشبهات رقم ١٥٩٩

٦٤ - مسند أحمد ابن حنبل: ٥ / ٢٥٠، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن رجاله ثقات رجال الصحيح غير سعيد بن جمهان ٢١٩٦٩

٦٥ - صحيح البخاري: ٣ / ١٢٨٨

الخلافة والملك، فيبين أنهم فئتان فئة تجري إلى الملك وهؤلاء هم الذين لا يعرفون خطورة المسؤولية وفئة تهرب منه وتكرهه لما تعرفه من ثقل المسؤولية.

وفي هذا الباب دب الخلاف الكبير حول الإمامة ذلك الذي ظل ينهش جسم الأمة إلى يومنا هذا وهو الذي سماه صاحب الملل الخلاف الأعظم قال صاحب الملل والنحل: أعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان... (٦٦) فهذا المستوى إذن يعد مرحلة خطيرة عليها يتوقف ترجمة الكتاب والسنة إلى واقع متغير بطبعه هو الذي يسم الحضارة بميسمه، وعلى الفقيه في الحالين، أن يفهم النص ويفهم الواقع لينزل هذا على ذلك، وهنا ممكن الخطر، إذ الفقيه بمثابة الطبيب الذي يحدد العلاج.

المستوى الخامس: مستوى التفاعل بين المعرفة والسلوك في ضوء الفقه السائد:

وهذا المستوى يمثل حلقة تابعة للمتغير الثقافي والمعرفي الذي يصنعه الفقهاء، إذ هم قادة صناعة النموذج العملي الذي تتفاعل فيه النصوص لتصنع معرفة عملية عليها يقوم المجتمع في كل شؤونه، لذلك يفترض أن تحافظ المعرفة على النموذج الذي تركه الرسول ﷺ، من أجل أن يتفاعل بواسطتها السلوك مع النص بحسب الفقه السائد، في المجتمع، فالفقهاء هم الذين يتحملون مسؤولية ترجمة الأفكار إلى واقع عملي عليه العمدة في أمر ديننا ودياننا، وقد لاحظنا كيف أدى الاختلاف في فهم النصوص إلى اختلاف واضح في أمر رفع اليدين وفي أمر وقت الصلاة.

وقد قال الدهلوي والذي روى عن السلف من تأكيد الأخذ بمذاهب أصحابهم، وألا يخرج منها بحال فإن كل إنسان يحب ما اختار أصحابه وقومه حتى في الزبي والمطاعم أو لصولة ناشئة من ملاحظة الدليل ونحو ذلك (٦٧)

٦٦- الملل والتحلل ٢٣ / ١ - ٢٤.

٦٧- الإنصاف في بيان الأسباب التي أوجبت الاختلاف للدهلوي ص ٢٨

وقد جاء في حلية الأولياء: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال ليالي قدم من اليمن سأله النبي ﷺ كيف تركت الناس بعدك قال تركتهم لا هم لهم إلا هم البهائم فقال النبي ﷺ كيف أنت إذا بقيت في قوم علموا ما جهل هؤلاء وهمهم مثل هم هؤلاء^(٦٨)

من الواضح أن الحديث يكشف عن الأسباب الأساسية التي تجعل مستوى التفعيل الثقافي في صنع الحضارة خطيرة ليس بسبب الجهل وحسب، ولكن بسبب التجاهل الناجم عن الانهماك في الشهوات.

والواقع أن هذا المستوى هو المرحلة الخطيرة في حياة المسلمين وستظل أخطر مرحلة، من عدة وجوه منها: التنافس على المادة، ومنها الاختلاف، ومنها التناحر، ومنها الاتباع للكفار وتقليدهم، وهي الأمور الذي حذر منه الرسول ﷺ

١- التنافس على المادة: ويتبين ذلك من حديث شريف يكشف عن جانب من جوانب الطبيعة البشرية حين تكون أمام بريق النعيم الدنيوي، فقد روى ابن ماجة عن أبي الدرداء قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نذكر الفقراء ونتخوفه فقال (أَلْفَقْر تخافون؟ والذي نفسي بيده لتصبن عليكم الدنيا صبا حتى لا يزيغ قلب أحدكم إزاغة إلهيه. وأيم الله لقد تركتم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء^(٦٩)

٢- الاختلاف: قال (قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك ومن يعيش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين وعليكم بالطاعة وان عبدا حبشيا عضوا عليها بالنواجذ فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما انقيد انقاد)^(٧٠)

٦٨- حلية الأولياء / ١ / ٢٤٢

٦٩- ابن ماجة ٤١ الحديث رقم ٥ ومعنى (نتخوفه) أي نظهر الخوف . (أَلْفَقْر) ببد الهمزة على الاستفهام . وهو مفعول مقدم . (إلهيه) هي ضمير الدنيا . والهاء في آخره للسكت . أي لا يميل قلب أحدكم إلا الدنيا . (على مثل البيضاء) المعنى على قلوب بيضاء نقية عن الميل إلى الباطل لا يميلها عن الإقبال على الله تعالى السراء والضراء

٧٠- أحمد ابن حنبل المسند ٤ / ١٢٦ رقم ١٧١٨٢

ومع ذلك فقد بدأ الخلاف الأعظم بعد وفاته ﷺ ولولا الحديث «الأئمة من قريش» لدب الخلاف مع مطلع عصر الخلافة ولكن مع ذلك فقد شب الخلاف بعد ذلك في الأمة ولا يزال.

٣- التناحر السياسي: قال في حجة الوداع: «ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا وإن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون ولكنه في التحريش بينكم»^(٧١)

٤- تقليد الكفار: فقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال فمن؟»^(٧٢)

فالأصل في المعرفة الإسلامية أنها ثقافة عملية، أي أنها جعلت للتفاعل بين المخزون الذهني والسلوك العملي، وهذا سر كون المسلم لا يكون مسلماً إلا إذا كان مدركاً للتكليف الشرعي، ولنا في ذلك الأسوة الحسنة من رسول الله ﷺ فعن سعد بن هشام بن عامر قال: أتيت عائشة فقلت يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قلت فإني أريد أن أتبتل قالت لا تفعل أما تقرأ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فقد تزوج رسول الله ﷺ وقد ولد له^(٧٣) أي كان متمسكاً بأدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطف^(٧٤)، أي أن المعرفة التي لقنها الله له تحولت بفعل الإيمان إلى سلوك عقدي وسلوك تعبدي وسلوك أدبي، وسلوك اجتماعي، وهكذا كان خلقه القرآن.

ولم تكن تلك الثقافة ثقافة عملية وحسب بل كانت تعد العمل وسيلة أساسية

٧١- أحمد: المسند: ٥ / ٧٣

٧٢- صحيح مسلم: ٤ / ٢٠٥٤ (٦) - (٢٦٦٩)

٧٣- مسند أحمد بن حنبل: ٦: ٩١ تعليق شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح، والحديث ورد في: النهاية في غريب الأثر: ٢ / ٧٠

٧٤- النهاية في غريب الأثر ٢ / ٧٠،

في التحصيل العلمي الصحيح فقد ورد عن أنس بن مالك الأنصاري: أن رسول الله ﷺ ركب فرسا فجش شقه الأيمن. قال أنس رضي الله عنه فصلى لنا يومئذ صلاة من الصلوات وهو قاعد فصلينا وراءه قعودا ثم قال لما سلم: إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا صلى قائما فصلوا قياما وإذا ركع فاركعوا وإذا رفع فارفعوا وإذا سجد فاسجدوا وإذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا ولك الحمد^(٧٥)

المبحث الثالث: طبيعة فاعلية المعرفة الإسلامية كما يصورها الحديث: من الطبيعي أن تتحقق بين أي معرفة وسلوك صاحبها صورة من صور التفاعل، وقد يؤدي ذلك إلى التأكيد على مقولة (مؤمن مطبق ومؤمن غير مطبق) التي تنتشر كثيرا في الغرب، بل وقد يطرح ذلك تساؤلات عديدة بخصوص طرق التفاعل مع الدين تبعا لعمق الإيمان، وهذا ما نود التعرف عليه من خلال السنة الشريفة في هذا المبحث.

إن الحديث النبوي الشريف يبين بما لا يدع مجالا للشك، أن الارتباط بين المعرفة والسلوك قائم بقوة، وأن النتائج المترتبة عن النظر في العلم ثابتة وموافقة لطبائع العلاقة بين المعرفة والسلوك، فقد يصل الأمر إلى أن تظهر آثار التفاعل بين المعرفة الإسلامية والسلوك قوية لدرجة تتغير معها طبائع المجتمع وقد تتغير نتيجة لذلك البيئة بأكملها.

وهذا حديث للرسول ﷺ يبين بوضوح درجة التفاعل بين المعرفة والسلوك، بحيث يصبح من يعكفون على كتاب الله سبحانه وتعالى ويتدارسونه فيما بينهم يتغيرون تغيرا جذريا إيجابيا عما كانوا عليه قبل ذلك، ومن ثم يصبح المتلقي إنسانا آخر مختلفا عن جاره الذي لم يتفاعل مع كتاب الله.

٧٥ - صحيح البخاري: كتاب: صفة الصلاة: ١ / ٣٧٥: ش (فجشت) خدش جلدها وقد أصابه ﷺ مع ذلك رض في الأعضاء وتوجع من القيام في الصلاة. (آلى) حلف ألا يدخل عليهن. (مشربة) غرفة (جذوع) جمع جذع وهي ساق النخل. (ليؤتم به) يقتدى به وتتبع أفعاله ١ / ١٤٩

١- فقد جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ قال وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده^(٧٦)، فانظر إلى قوة النتائج الناجمة عن طبيعة المعرفة القرآنية حين تتلى حق تلاوتها وتدرس حق الدراسة، إنها تحقق ما يلي :

أ- نزول السكينة على الإنسان

ب - تحقق الرحمة وغشيانها عموم المجتمع وانتشار فضيلة التراحم بين الناس
ج - رعاية الملائكة لهم، وهذا له معنى عميق؛ ذلك لأن كون المعرفة تستحضر الملائكة يعني أنها تطرد الشياطين مما يهيئ المجتمع لحياة مطمئنة تسودها السعادة وعناصر الطيبة ...

د- ارتفاع أقدارهم عند الله وناهيك من قدر مكتسب

٢- وانظر الآن في هذا الحديث الذي يحدد دور العلم في تيسير المسالك الدنيوية والأخروية قال ﷺ : ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة^(٧٧) فقد يكون المعنى الجزاء المتعلق بالعلم، ولكن منطق الحياة يفرض أن يفهم الحديث فهما أعمق يكشف عن العلاقة بين مسالك المعرفة ومسالك النجاة، ففي الحديث تأكيد على الترابط بين الطريقتين، ولا شك أن واقع الحياة يكشف عن هذه الحقيقة، فقد اتضح أن أكثر الشعوب تطورا في مجال من مجالات الحياة أكثرها تمسكا بالمعرفة المؤدية إلى ذلك، وفي الواقع ليست الحكمة إلا العمل في ضوء معرفة محصنة من الزيف.

وأعتقد أن للسنة أهمية كبرى في توريث السلوك الصحيح لأن السنة عمل تطبيقي في الأساس، والتطبيق دائما أكثر نجاعة من النظر لذلك قيل: وأما السنة

٧٦ - صحيح مسلم: ٤ / ٢٠٧٤ وسنن أبي داود: حديث رقم: ١٤٥٥

٧٧ - صحيح مسلم ٤ / ٢٠٧٤ وصحيح البخاري: باب العلم

فهي الطريقة المسلوكة في الدين مأخوذة من سنن الطريق ومن قول القائل سن الماء إذا صبه حتى جرى في طريقه وهو اشتقاق معروف والمراد به شرعا ما سنه رسول الله ﷺ والصحابة بعده^(٧٨)

٣- علاقة العلم بالخير المطلق: قال النبي ﷺ من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين^(٧٩). ومعنى (يفقهه) يجعله فقيها والفقهاء الفهم، ومعنى ذلك أن الخير مطلقا مرتبط بالفهم العلمي للمجال الصناعي والمهني، ولكن تحديد الخير هنا وربطه بالدين من جهة تعيين الخير بالمعنى المطلق إذ هو مرتبط بالفهم الصحيح لما يجب على الإنسان فعله حتى ينال الخيرات. يدل على ذلك ورود الحديث بزيادة كما يلي: قال ﷺ يا أيها الناس تعلموا إنما العلم بالتعلم والفقهاء بالثقة ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين^(٨٠).

٤- ندامة من يتجاهل المعرفة: قال الإمام أحمد إخبارا عن سمع من رسول الله ﷺ أنه قال: لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم^(٨١)، وفي حديث آخر لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة^(٨٢) وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠٠﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠١﴾ ﴾^(٨٣) قال في الفتح وهذه أوصاف أهل العلم فالمعنى لو كنا من أهل العلم لعلمنا ما يجب علينا فعملنا به فنجونا، وقال

٧٨ - أصول السرخسي: ١ / ١١٣ لمحمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي أبو بكر

٧٩ - صحيح مسلم والنص الكامل هو سمعت معاوية خطيبا يقول

: سمعت النبي ﷺ يقول (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله)

[٢٩٤٨ ، ٣٤٤٢ ، ٦٨٨٢ ، ٧٠٢٢] [وأخرجه مسلم في الزكاة باب النهي عن المسألة رقم ١٠٣٧ والبخاري: ٦ / ٢٦٦٧]

٨٠ - مسند الشاميين ك ٤٤١١ وفي الفتح هو حديث مرفوع أورده ابن أبي عاصم والطبراني من حديث معاوية - رضي الله عنه ، وقال حديث حسن

٨١ - مسند أحمد حديث رقم ١٨٣١٥ ، تعليق شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابه

٨٢ - تفسير ابن كثير: ٤ / ٥١٠

٨٣ - سورة الملك: ١٠

ابن كثير (عادوا على أنفسهم بالملامة وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا :
﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ﴿٨٤﴾ أي لو كانت لنا
عقول نتتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحق لما كنا على ما كنا عليه من الكفر
بالله والاعتزاز به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل ولا كان لنا
عقل يرشدنا إلى اتباعهم ﴿٨٥﴾

٥- التفاوت في المكانة بين أهل العلم وأهل الجهل: قال تعالى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي
الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿الزمر ٩﴾

٦- الخشية التي هي أساس التقوى: قال جل ذكره ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
الْعُلَمَاءُ ﴾ ﴿فاطر ٢٨﴾

٧- قوة الإدراك لمشكلات الحياة الإنسانية وما تتطلبه من أساليب لطرح الحلول .
قال ﴿ وَمَا يَفْقَهُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ ﴿العنكبوت ٤٣﴾

٨- إثبات بحث، تجريبي ميداني عند غير المسلمين: أجرى أحد الباحثين دراسة
إحصائية دقيقة في أوروبا عن ظاهرة الانتحار كسلوك يستخدمه بعض الناس
الفاشلين في الحياة مخرجاً في اعتقادهم من مشاق الحياة، وقد سجل العلاقة
بين المعرفة والسلوك منتهياً إلى النتائج التالية: قال: ومن الغريب أن أكثر
حوادث الانتحار تقع في انكلترا بين أصحاب المهن الحرة وخاصة الأطباء
وأطباء الأسنان والمحامين على حين أنها قليلة جداً بين المعلمين ورجال الدين
ولم تر حادثة انتحار واحدة بين رجال الدين الكاثوليك مع أن متوسط
الانتحار بين رجال المذهب الانجليكاني مثل متوسط العام وبين رجال المذهب
البروتستنتي فوق المتوسط العام ومما ثبت أيضاً أن الانتحار كثير جداً بين
وكلاء شركات التأمين وتجار المشروبات الكحولية وأصحاب الحانات ..
فالإحصاءات البريطانية تؤيد القول بأن الانتحار أكثر بين الطبقات الغنية منه

٨٤- سورة الملك: ١٠

٨٥- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج ٤ / ص ٢٦٠

بين الطبقات الفقيرة^(٨٦)، ثم يعلق قائلاً: فإذا كان الفرد يسلم بتعاليم الكنيسة تسليمًا حرفيًا ويخضع لسلطتها ويأخذ بما ترسمه له من واجبات فالميل إلى الانتحار قليل أما إذا كان نظام الكنيسة غير محكم وسلطانها مبهما وكانت للفرد الحرية المطلقة في توجيه حياته فالراجح أن الميل إلى الانتحار يكون قويًا، وهذا يعلل إلى حد ما قلة الانتحار في البلدان الكاثوليكية^(٨٧)

ويمكن أن نلخص فاعلية المعرفة في الحياة في قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٨٨) فقد جاء في التحرير والتنوير: ووقوع فعل (يستوي) في حيز النفي يكسبه عموم النفي لجميع جهات الاستواء. وإذا قد كان نفي الاستواء كناية عن الفضل آل إلى إثبات الفضل للذين يعلمون على وجه العموم فإنك ما تأملت مقاما اقتحم فيه عالم وجاهل إلا وجدت للعالم فيه من السعادة ما لا تجده ولنضرب لذلك مثلا بمقامات ستة هي جل وظائف الحياة الاجتماعية

المقام الأول: الاهتمام إلى الشيء المقصود نواله بالعمل به وهو مقام العمل فالعالم بالشيء يهتدي إلى طريقه فيبلغ المقصود بيسر وفي قرب ويعلم ما هو من العمل أولى بالإقبال عنه وغير العالم به يضل مسالكه ويضيع زمانه في طلبه فإما أن يخيب في سعيه وإما أن يناله بعد أن تتقاذفه الأرزاء وتتتابه النوائب وتختلط عليه الحقائق فرمما يتوهم أنه بلغ المقصود حتى إذا انتبه وجد نفسه في غير مراده ومثله قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ تَحْسَبُهُ الْأَطْمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾^(٨٩) ومن أجل هذا شاع تشبيه العلم بالنور والجهل بالظلمة

والمقام الثاني: ناشئ عن الأول وهو مقام السلامة من نوائب الخطأ ومزلات المذلات فالعالم يعصمه علمه من ذلك والجاهل يريد السلامة فيقع في الهلكة فإن الخطأ قد يوقع في الهلاك من حيث طلب الفوز ومثله قوله تعالى ﴿فَمَا رَیْحَتِ تَجْرِتُهُمْ﴾^(٩٠)

٨٦- المقتطف: ديسمبر: ١٩٤٠ ص ٤٦٦

٨٧- المقتطف: ديسمبر: ١٩٤٠ ص ٤٦٦-٤٦٧

٨٨- الزمر: ٩

٨٩- سورة النور: ٣٩

٩٠- البقرة: ١٦

إذ مثلهم بالتاجر خرج يطلب فوائد الربح من تجارته فأب بالخسران ولذلك يشبه سعي الجاهل بخبط العشواء ولذلك لم يزل أهل النصح يسهلون لطلبة العلم الوسائل التي تقيهم الوقوع فيما لا طائل تحته من أعمالهم

المقام الثالث : مقام أنس الانكشاف للعالم تتميز عنده المنافع والمضار وتنكشف له الحقائق فيكون مأنوسا بها واثقا بصحة إدراكه وكلما انكشفت له حقيقة كان كمن لقي أنيسا بخلاف غير العالم بالأشياء فإنه في حيرة من أمره حين تختلط عليه المتشابهات فلا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع فإن اجتهد لنفسه خشي الزلل وإن قلد خشي زلل مقلده وهذا المعنى يدخل تحت قوله تعالى ﴿ كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾^(٩١)

المقام الرابع : مقام الغنى عن الناس بمقدار العلم والمعلومات فكلما ازداد علم العالم قوي غناه عن الناس في دينه ودنياه

المقام الخامس : الالتذاذ بالمعرفة وقد حصر فخر الدين الرازي اللذة في المعارف وهي لذة لا تقطعها الكثرة . وقد ضرب الله مثلا بالظل إذ قال ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ وَلَا أَظْلَمْتُ وَلَا النُّورُ ﴿ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴾^(٩٢) فإن الجلوس في الظل يلتذ به أهل البلاد الحارة،

المقام السادس : صدور الآثار النافعة في مدى العمر مما يكسب ثناء الناس في العاجل وثواب الله في الآجل . فإن العالم مصدر الإرشاد والعلم دليل على الخير وقائد إليه قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(٩٣) والعلم على مزاولته ثواب جزيا قال النبي ﷺ ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده . وعلى بثه مثل ذلك قال النبي ﷺ إذا مات ابن آدم انقطع عمله

٩١ - البقرة: ٢٠

٩٢ - فاطر: ١٩-٢١

٩٣ - فاطر: ٢٨

إلا من ثلاث : صدقة جارية وعلم بثه في الصدور وولد صالح يدعو له بخير
فهذا التفاوت بين العالم والجاهل في صورته التي ذكرناها مشمول لنفي
الاستواء الذي في قوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٩٤)
وتشعب من هذه المقامات فروع جمّة وهي على كثرتها تنضوي تحت معنى هذه
الآية، وقوله ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾^(٩٥) واقع موقع التعليل لنفي الاستواء
بين العالم وغيره المقصود منه تفضيل العالم والعلم^(٩٦)

المبحث الرابع: الأسباب التي تعوق فاعلية المعرفة في الحياة والعوامل المثبتة
لها:

لكي تحقق المعرفة فاعليتها في الحياة ينبغي أن تمر من الذهن إلى القلب الذي
هو مصدر الميول التي تحدد طريق السلوك صافية طاهرة لا كدر فيها من النشاط
المزيف للحقيقة الدينية تأويلا أو تحريفا، لذلك أكد الرسول ﷺ في حجة الوداع
بأنه قد ترك أمته في زمن الوفاء للحق والإخلاص له على (البيضاء ليلها كنهارها
لا يزيغ عنها إلا هالك)، وهذا الصفاء الذي ترك عليه الرعيل الأول من المسلمين،
ما كان ليكون بهذا الصفاء لولا تمكن العوامل المثبتة للفاعلية في النفوس كما أن
الانحراف الذي يحدث دائما بعد الرسل ما كان ليحدث لولا أسباب الإعاقة
للفاعلية

ومن هنا كان لزاما أن نتحدث عن الأسباب التي تعوق فاعلية المعرفة في الحياة
والعوامل المثبتة لها بحثا عن السبب الذي يوجهها نحو الفاعلية والإيجابية أو ذلك
الذي يدفعها نحو الركود والسلبية. لتساءل عن الأسباب أين تكمن:
أ- أهي في الباحث؟ أم في المنهج؟ أم في سوء الفهم؟

٩٤ - الزمر: ٩

٩٥ - الزمر: ٩

٩٦ - التحرير والتنوير : ١ / ٣٦٧٠

ب - أم في التخصير في تناول القضايا وتطبيقها وتفعيلها في واقعنا؟

ج - أم في الواقع الحضاري نفسه؟

د - أم في الفصل بين النظر والعمل الذي ابتلي به العالم المعاصر عمدا؟

هـ - أم في وسائل التفعيل والمنظومة التربوية وافتقارها إلى وسائل لفت الانتباه؟

أولا: الأسباب التي تعوق فاعلية المعرفة في الحياة :

لقد جاء في صحيح مسلم: عن عائشة رضي الله عنها قالت : صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرا فترخص فيه فبلغ ذلك ناسا من أصحابه فكأنهم كرهوه وتنزهوا عنه فبلغه ذلك فقام خطيبا فقال ما بال رجال بلغهم عني أمر ترخصت فيه فكرهوه وتنزهوا عنه فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية^(٩٧)

فهذا الحديث، بقدر ما يبين معاتبة الرجل في نظرتة للرخصة بقدر ما يكشف عن ضرورة الفهم المعمق لمسائل الشرع حتى نحافظ على السلوك السوي بعيدا عن طرفي النقيض (الافراط والتفريط، أو المغالاة والتقصير)، وبعيدا عن الغرور الذي يوهمنا به نشاط العقل في كثير من الأحيان مادام العقل ليس سوى نشاط للمكتسبات المعرفية، وللخميرة الثقافية التي يملها المجتمع على الفرد.

من هنا يتبين لنا أن الأسباب التي تعوق فاعلية المعرفة في الحياة كثيرة منها:

١- سوء الفهم: وهو سبب ليس أقل فداحة من الجهل، لأن الهدف من النص قد يضع في متاهة التأويل غير الصحيح، فهذا المتردد في الرخصة ما دفعه ليرتد في أخذ الرخصة إلا سوء الفهم للمقاصد الشرعية لذلك غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الحليم وصعد المنبر من أجل بيان الحقيقة الدينية بعيدا عن التطرف في التعامل معها، لأن التطرف لا يأتي بخير.

وقد ورد في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول جاء ثلاث رهط إلى بيوت

٩٧ - صحيح مسلم حديث: رقم: ٢٣٥٦

أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا
 أين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم
 أما أنا فإنني أصلي الليل أبدا وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر أنا
 أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا فهم يسألون من أجل تفعيل هذه القيم الثلاثة
 على مستوى السلوك فهم يريدون أن يفعلوا ففكرتهم عن بعض جوانب الحياة
 هي الصوم والزواج وقيام الليل، فلما عرضوا ففكرتهم جاء رسول الله
 صلى الله عليه وسلم وصحح طريقة التفعيل وقال لهم مشددا على ذلك مبينا
 أن من عدل عن سنته ليس من المسلمين فقال: « أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟
 أما والله إنني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد
 وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٩٨)،

وقد قيل في شرح ذلك إن هؤلاء الرهط الثلاثة هم علي بن أبي طالب وعبد الله
 بن عمرو بن العاص . وعثمان بن مظعون رضي الله عنهم وأنهم قد استقالوا
 أعمالهم إلى أعمال الرسول وعدوها قليلة بالنظر إلى مكانته عند الله . فقرروا
 تفعيل القيم حسب هواهم فتشددوا فردهم الرسول إلى جادة الدين مبينا أن
 الدين وسط بلا إفراط ولا تفريط فهو أخشاهم لله واتقاهم له وأكثرهم خوفا
 منه وأشدهم تقوى . ومع ذلك يرقد ويتزوج ويفطر، وتلك سنته فمن رغب
 عن سنته ومال عن طريقته وأعرض عنها، فليس منه أي ليس بمسلم إن كان
 ميله عنها كرها لها أو عن عدم اعتقاد بها، وإن كان غير ذلك فإنه مخالف
 لطريقته السهلة السمحة التي لا تشدد فيها ولا عنت^(٩٩).

٢- تعطيل المعرفة: السبب الثاني في سوء تفعيل الدين في واقع الناس هو تعطيل
 المعرفة الإسلامية كليا أو جزئيا، وقد يكون هذا مقصودا أحيانا كما يبين الله
 تعالى بقوله: ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا

٩٨- صحيح البخاري: ص ٥ / ١٩٤٩ حديث رقم: ٤٧٧٦، وأخرجه مسلم في باب النكاح: برقم: ١٤٠١
 ٩٩- هامش صحيح البخاري: ش ص ١٩٤٩٥

من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق^(١٠٠) ولذلك حثنا رسول الله ﷺ عن الاعتصام بكتاب الله، فقال فيما روي عن مسلم: «قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله»^(١٠١)، فالاعتصام لا يعني مجرد الحفظ النظري بل يعني إطلاق فاعلية القرآن في الحياة إلى أقصى حد الاستطاعة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(١٠٢) إذ لا حد لهذه الفاعلية، كما لا حد لخيرها، حيث تتطور الحياة من جميع الوجوه تبعاً لتفعيل القرآن والسنة في الحياة، لذلك قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٠٢﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٠٣﴾﴾^(١٠٣) فجعل إرسال الخيرات وإطلاقها من القيد متوقفاً على إطلاق قيد النص وتحريره من القيود الوضعية، فمن ترك الاعتصام بكتاب الله تطرق لعقله الضلال بكل وسائله؛ لأنه فقد الحماية العقلية والمرجعية المحققة للتوازن العقلي، ومن ثم يكون قد عرقل حركة النص في الحياة ومنعه من الفاعلية، وعطل الحضارة لأنها حضارة نص لا تستقيم إلا بنصوصها.

وقد ورد أن الرسول ﷺ بين بشأن تفعيل الآية: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(١٠٤) وهو يخاطب أبا ذر فيما رواه ابن حبان وأحمد بيانا شافيا: قال: قال أبو ذر: جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴿قال: فجعل يرددها علي حتى نعست فقال: «يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم» ثم قال: «يا أبا ذر كيف تصنع إذا أخرجت من المدينة؟ قلت: إلى السعة والدعة أكون حماما من حمام مكة

١٠٠ - البقرة: ١٠٨

١٠١ - صحيح مسلم ص: ٢ / ٨٨٦ رقم: ١٢١٨

١٠٢ - التغابن: ١٦

١٠٣ - سورة نوح: ١٠-١٢

١٠٤ - سورة الطلاق: ٢

قال : « كيف تصنع إذا أخرجت من مكة » ؟ قلت : الى السعة والدعة الى أرض الشام والأرض المقدسة قال : « فكيف تصنع إذا أخرجت منها » ؟ قلت : إذا والذي بعثك بالحق أخذ سيفي فأضعه على عاتقي فقال ﷺ : « أو خير من ذلك تسمع وتطيع لعبد حبشي مجدع ^(١٠٥) »

فالتربية هنا قائمة على طريقة تفعيل الإنسان لسلوكه في حالين :

أ - حال عامة تتعلق بعلاقة حسن السلوك متمثلا في (التقوى) وعلاقته بالمخارج ، بحيث لو أن الناس اتقوا كلهم مع التشديد على (كلهم) لعم الخير وارتفعت أسباب الشقاء . لذلك قال : « يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم »
ب - حال خاصة وهي المشكل السياسي متمثلا في أصول التصرف مع عصر الفتن بحيث نجد أن أبا ذر يطرح حلولا هي : (الهجرة أو المقاومة بالسيف) لكن الرسول ﷺ ، يرشده إلى أسلوب آخر لتفعيل الشرع في هذا الجانب هو : (السمع والطاعة)

٣- التقصير في حق المعرفة: روى البخاري عن أبي واقد الليثي: أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد قال فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبا فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: (ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه) ^(١٠٦)

موضوع الحديث هو حب المعرفة وطلب العلم، وهو صورة لموقف ثلاثة أنماط من الناس في طلب المعرفة؛ فالأول وجد (فرجة) وفراغا في (الحلقة) المعرفية النبوية فانضم إليها فكان كمن آوى إلى ركن شديد (فأوى إلى الله) (فأواه

١٠٥ - مسند أحمد: ١٧٨ / ٥ ، صحيح ابن حبان ٥٣ / ١٥ قال شعيب الأرئوط إسناده ضعيف، لانقطاعه
١٠٦ - صحيح البخاري : الحديث رقم ٤٦٢ ومسلم رقم: ١٧٦٦ باب من أتى مجلسا فوجد فرجة فجلس فيها

الله) وضمه إلى رحمته بما عرف من الحق وعمل به. وأما الثاني (فاستحيا) من المزاحمة فتركها وجلس بحيث يستفيد ببعض ما سمع ، (فاستحيا الله منه) وقبله ورحمه بقدر ما سمع ، لأن الفائدة المعرفية هي التي تحدد مستوى الاستفادة العملية، وأما الثالث) فأعرض (وترك مجلس النبي ﷺ من غير عذر، فلم يستفد من المعرفة) فأعرض الله عنه (لأن خطاب الرسول هو خطاب الله إلى الناس وهدفه دوما هو تحقيق الفائدة فمن أعرض عنه فقد جلب لنفسه بسبب الجهل السخط، كما يجلب المقبل عليه الفائدة بقدر الإنصات.

٤- التقليد الأعمى: التقليد الأعمى صورة من صور طلب المعرفة المذمومة، ومن هنا جاء التنبيه على خطورة الاتباع العلمي غير المحقق:

فقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: لتبتعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم قلنا يا رسول الله آلهود والنصارى؟ قال فمن؟^(١٠٧)

قال الشراح: (والسنن هو الطريق والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم والمراد الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر) ولا شك أن تاريخ الحضارة الإسلامية لم يقدم لنا نموذجا حيا عن هذا الحديث كما قدمه القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين، فقد انبهر الناس بما قدمته المدنية الغربية من تقدم في عالم الأشياء من صناعات وفي عالم الأفكار من مناهج، وظنوا أن الفكرة الجوهرية للحياة هي هذه فانصرفوا إليهم يتبعون مناهجهم ويترسمون خطى جامعاتهم، والغرب يمينهم دون أن يمكنهم من شيء مما تحقق، وهكذا صار المجتمع العربي بل والإسلامي كله إلى اتباع خال من المعنى وهو التقليد الأعمى الذي تجلى أكثر ما تجلى في النمط الاشتراكي المهزوم، وسيلحقه النمط البرجوازي قريبا.

١٠٧- صحيح مسلم : حديث رقم : ٢٦٦٩

هـ- العمل بالموضوعات

جاء في الفوائد المجموعة: قيل وضع الجويباري وابن عكاشة ومحمد بن تميم الفارقاني أكثر من عشرة آلاف حديث فخلق الله علماء يذبون ويوضحون الصحيح ويفضحون القبيح فهم حراس الأرض وفرسان الدين كثرة الله إلى يوم القيامة قال ابن الجوزي رحمه الله إن من وقع في حديثه الموضوع والكذب والقلب أنواع منهم من غلب عليهم الزهد فغفلوا عن الحفظ ومنهم من ضاعت كتبه فحدث من حفظه غلط ومنهم قوم ثقات لكن اختلطت عقولهم في آخر أعمارهم ومنهم من روى الخطأ سهوا فلما تبين الصواب لم يرجع أنفة من أن ينسب إلى الغلط ومنهم زنادقة وضعوا لقصده إفساد الشريعة وإيقاع الشك والتلاعب بالدين قال حماد بن زيد وضعت الزنادقة أربعة آلاف حديث^(١٠٨)

لاشك أن ما صنعه رجال الحديث بخصوص صيانة المعرفة من الزيف أمر عظيم، ولكن المشكل لا يزال قائما ذلك أن الناس لم يدركوا بعد خطورة توظيف الحديث الموضوع في نسج شبكة السلوك الاجتماعي، ومن ثم بقيت المشكلة مطروحة حتى على مستوى المثقفين، مما يتطلب - بعد الصيانة - نشر الوعي بخطورة العمل بالحديث الموضوع في خرق شبكة السلوك الاجتماعي والحضاري للأمة.

ولا شك أن هذا الجانب خطير جدا في الحياة الثقافية لما له من علاقة بالسلوك العملي كله قلبا وجوارح، لذلك نهت الآيات القرآنية عنه بشدة فقال تعالى:

﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾^(١٠٩) وبين استحالة

١٠٨- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعية: المؤلف : محمد بن علي بن محمد الشوكاني المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ تحقيق : عبد الرحمن يحيى المعلمي
١٠٩- البقرة ٧٩

النجاح في التطبيق على من يحرف فقال: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ تُحَرَّفُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١١٠) وربطه بالجهل فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (١١١)

ثانيا: العوامل الثقافية المثبتة للفترة والمفعلة للمعرفة في الحياة الحضارية: بعد أن وقفنا على الأسباب التي تعوق فاعلية المعرفة في الحياة يمكننا أن نقف الآن على العوامل التي تحرر فاعلية المعرفة في الحياة الحضارية وتعينها على النشاط، ويأتي على رأسها الاعتصام بكتاب الله، والتمسك بسنة رسول الله ﷺ، وملازمة حلقات العلم الصحيح.

١- الاعتصام بكتاب الله: وقد جاء في صحيح مسلم: قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله (١١٢)

٢- والتمسك بسنة رسول الله، فقد جاء في سنن الدارقطني: عن ابي صالح مولى أم حبيبة زوج النبي ﷺ عن ابي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ إني قد خلفت فيكم شيئين لن تضلوا أبدا ما أخذتم بهما وعملتما بما فيهما كتاب الله وسنتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض (١١٣)

٣- ملازمة حلقات العلم الصحيح: جاء في صحيح مسلم: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله في من عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه (١١٤)

١١٠ - البقرة: ٧٥

١١١- البقرة- ٧٨

١١٢ - (صحيح مسلم ص: ٢ / ٨٨٦ رقم: ١٢١٨)

١١٣ - سنن الدارقطني : ٤ / ٢٤٥ والنص فيه رواية أخرى: عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: خلفت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض

١١٤ - صحيح مسلم : ٤ : ٢٠٧٤ / صحيح ابن حبان / ١ / ٤٥ وفي سنن أبي داود بلفظ: ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده (قال الشيخ الألباني: صحيح)

فكل هذه الأحاديث تبين أن الاعتكاف على مدارسة كتاب الله وسنة رسوله في حلقات المعرفة والعلم هي السبيل الصحيح إلى تفعيل الثقافة الإسلامية في الحياة البشرية وتوجيه السلوك بناء عليها، وذلك لأن الأصل في الإنسان الخير ومعرفة الحق حتى إذا طرأ على فطرته ما يفسدها تعطلت أو عملت على الفساد، وقد بين الرسول (ذلك فيما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.. (١١٥) الحديث . زاد في رواية مسلم ثم يقول أي أبو هريرة اقرأوا ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ (سورة الروم الآية -٣٠) فيقتضي أنهم يولدون على فطرة الإسلام حتى يدخل عليه من أبويه أو قريبه أو قرينه ما يغيره عن ذلك وهذا أظهر ما يستدل به في هذه المسألة، ومن المعروف في العصر الحديث أن تنشئة الحيوان في ظروف تربوية معينة تصوغ سلوكه وتتحكم فيه وهو ما يسمى بترويض الحيوان فما بالك في الإنسان.

بيان دور الملازمة لحلقات المعرفة في ترقية السلوك:

النفس الإنسانية معرضة للنسيان بسبب الاشتغال بأمور الدنيا وهي ذات طبيعة حسية أقدر على التأثير وألزم للإنسان بسبب ارتباطها بالحاجات التي هي ناشطة بفعل دافع الغريزة، ولذلك كان من الطبيعي أن يكون الإنسان بحاجة ماسة إلى التذكير المستمر وإلضاع وضاعت حياته سدى، لذلك قال رسول الله ﷺ يبين دور الملازمة لطلب المعرفة في ترقية السلوك : فيما رواه مسلم بباب دوام الذكر والفكر والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات (١١٦)

١١٥-الموطأ ١/ ٢٤٠، ومسلم: ٤/ ٢٠٤٦
١١٦-الصحيحان: مسلم ج ٤ ص ٢١٠٦ باب فضل دوام الذكر حديث رقم ٢٧٠٥٠ والبخاري

إن قسم رسول الله ﷺ هنا ليس بالكلام العادي إنما هو هادف بحق ليغرس في أذهاننا فكرة تجديد العلاقة بين الفكر والعمل وبين النظر والتطبيق، وبين المعرفة والسلوك، ولكي يكشف عن أهمية ذلك بين شيئين:

- ١- قيمة الحلقات العلمية في السنة، ودوام ذكر الله
- ٢- طبيعة الأثر الناجم عن دوام الاطلاع والتفكير وتجديد المعرفة بحيث يرفع الانسان إلى مجال الروحانيات الخالصة حيث تصافحه الملائكة في الطرقات لصفاء روحه وسمو نفسه.

ولاشك أن تمام قصة الحديث وأجواء الرواية تكشف أكثر عن الهدف فلنقرأ الحديث الآن وقد أصاب مسلم إذ جعله تحت عنوان: باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا

وروي في الصحيحين عن حنظلة الأسيدي قال: وكان من كتّاب رسول الله ﷺ قال لقيني أبو بكر، فقال كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت نافق حنظلة، قال سبحانه الله ما تقول قال قلت نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأننا رأى عين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرا، قال أبو بكر فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت نافق حنظلة يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ وما ذاك قلت يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأننا رأى عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا فقال رسول الله (والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات^(١١٧) .

١١٧- الصحيحان: مسلم ج ٤ ص ٢١٠٦ باب فضل دوام الذكر حديث رقم ٢٧٠٥٠ والبخاري

والحق أن الروايات تؤكد هذا الأمر بصور مختلفة؛ منها ما يبين أن مداومة طلب المعرفة عن رسول الله ﷺ يجعل الملائكة تحب طلاب المعرفة حتى لتهم أن تصافحهم مباشرة، ومنها ما يبين أنها تصافحهم حتى تظلمهم بأجنحتها، كما تكشف عن الأسباب المختلفة التي تؤدي إلى النسيان والغفلة كمخالطة الأهل والانقطاع لهم قال ابن الجوزي: قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت القساوة والغفلة! فتدبرت السبب في ذلك فعرفته، ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك فالحالة العامة أن القلب لا يكون على صفته من اليقظة عند سماع المواعظة وبعدها لسببين :

أحدهما : أن المواعظ كالسياط و السياط لا تؤلم بعد انقضائها إيلامها وقت و قوعها

و الثاني : أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مزاج العلة قد تخلى بجسمه و فكره عن أسباب الدنيا وأنصت بحضور قلبه فإذا عاد إلى الشواغل اجتذبتة بأفاتها وكيف يصح أن يكون كما كان ؟

و هذه حالة تعم الخلق إلا أن أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر :

فمنهم من يعزم بلا تردد و يمضي من غير التفات فلو توقف بهم ركب الطبع لضجوا كما قال حنظلة عن نفسه : نافق حنظلة! و منهم أقوام يميل بهم الطبع إلى الغفلة أحيانا و يدعوهم ما تقدم من المواعظ إلى العمل أحيانا فهم كالسنبله تيملها الرياح ! و أقوام لا يؤثر فيهم إلا بمقدار سماعه كماء دحرجته على صفوان^(١١٨) و من الواضح أن هذا السؤال وغيره من الأسئلة المعرفية في عهد الرسول ﷺ كانت تستهدف التطبيق وذلك أمر له دلالة القوية في مجال الحديث عن فاعلية المعرفة، وانظر هذا الحديث: ففي البخاري: عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر أنه سمع أنس بن مالك يقول: بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال لهم أيكم محمد؟ والنبي

ﷺ متكىء بين ظهرانيهم فقلنا هذا الرجل الأبيض المتكىء . فقال له الرجل ابن عبد المطلب ؟ فقال له النبي ﷺ (قد أجبتك) . فقال الرجل للنبي (إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك . فقال : سل عما بدا لك . فقال أسألك بربك ورب من قبلك آله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ فقال : اللهم نعم . قال أنشدك بالله ، آله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم واللييلة ؟ قال اللهم نعم . قال أنشدك بالله ، آله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة ؟ قال : اللهم نعم . قال أنشدك بالله ، آله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ فقال النبي ﷺ اللهم نعم . فقال الرجل : آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورثي من قومي وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر ^(١١٩)

فلو تأملنا أسئلة الرجل ، وما آل إليه أمره من العزم على التطبيق لفهمنا بعمق دلالة الترابط بين السؤال المعرفي والتطبيق العملي ، ولتبين لكل عاقل مدى تظافر الجهود من أجل تفعيل المعرفة في السلوك . كما سيتبين أكثر في الفصل القادم .

المبحث الخامس : نموذجان من أساليب التفاعل مع المعرفة الإسلامية إزاء تشكيل أسس الحضارة :

من نصوص السنة ما يعالج أساليب التعامل مع المعرفة ويصنفها باعتبار أثرها في تشكيل الحضارة ، فيكشف عن نوعين من الأساليب ، ويقدم نموذجين للسياق الحضاري ، باعتبار الفروق الزمانية وما يترتب عليها من تغير في العقلية التي تتعامل مع النصوص الدينية ، من جهة الفهم والتأويل والتنزيل على الواقع ، ففي حديث رواه أحمد في مسنده فرق فيه بين الزمانين باعتبار هام هو الفرق بين علم الخطابة وعلم العمل هو حديث الرسول ﷺ : إنكم في زمان علمائهم كثير ، خطبائهم قليل من ترك فيه عشر ما يعلم هوى ، أو قال هلك ، وسيأتي على الناس

زمان يقل علماءه ويكثر خطبأؤه من تمسك فيه بعشر ما يعلم نجا^(١٢٠) فالحديث يشير إلى موقف فئتين من الناس إزاء المعرفة، موقف أهل العلم وموقف أهل الخطابة، ومن الواضح أن الموقفين متباينان:

أما الأول فيكثر في زمان التلقي عن الرسول ﷺ، وهو الوقت الذي كان طلب العلم فيه من أجل العمل به، ويقل في الزمان المتأخر حين تصبح السمة الغالبة على طلاب العلم هي التظاهر.

وأما الثاني فيقل في زمن العمل ويكثر في زمن التظاهر.

ويعزز ذلك الحديث أثر صحيح رواه مالك في الموطأ أعتقد أنه شرح للحديث ومبين للفرق بين زمانين حضاريين باعتبار طريقة التعلم التي تتحكم تحكما أساسيا في أساليب التفاعل مع المعرفة الإسلامية فجاء عن مالك عن يحيى بن سعيد: أن عبد الله بن مسعود قال لإنسان إنك في زمان كثير فقهاؤه^(١٢١) قليل قراؤه تحفظ فيه حدود القرآن وتضيع حروفه قليل من يسأل كثير من يعطي يطيلون فيه الصلاة ويقصرون الخطبة يبدون أعمالهم قبل أهوائهم وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير قراؤه يحفظ فيه حروف القرآن وتضيع حدوده كثير من يسأل قليل من يعطي يطيلون فيه الخطبة ويقصرون الصلاة يبدون فيه أهواءهم قبل أعمالهم^(١٢٢).

وبذلك كشف عن (الفرق بين زمان طلب العلم للتظاهر، وزمان طلب العلم للتفقه)، أي زمان التفاعل المعرفي (أي المعرفة العملية) وهو زمان مراعاة الحدود

١٢٠- مسند الإمام أحمد: ج ٥ ص ١٥٥.

١٢١ ورد بخصوص معنى الفقه والفرق بينه وبين الحكمة في شرح الحديث: (٥٢) حدثنا أبو الربيع الزهراني أنبأنا حماد حدثنا أيوب حدثنا محمد عن أبي هريرة قال

: قال رسول الله ﷺ: جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة الإيمان بمان والفقه بمان والحكمة بمانية (الإيمان بمان) بمان وبمانية هو بتخفيف الياء عند جماهير أهل العربية لأن الألف الزائدة فيه عوض من ياء النسب المشددة فلا يجمع بينهما (والفقه) الفقه هنا عبارة عن الفهم في الدين واصطلح بعد ذلك الفقهاء وأصحاب الأصول على تخصيص الفقه بإدراك الأحكام الشرعية العملية بالاستدلال على أعيانها (والحكمة) الحكمة عبارة عن العلم المتصف بالأحكام المشتمل على المعرفة بالله تبارك وتعالى المصحوب بنفاذ البصيرة وتهذيب النفس وتحقيق الحق والعمل به والصد عن أتباع الهوى والباطل [

١٢٢- الموطأ: رواية يحيى بن الليثي الحديث رقم: ٤١٧ وانظر الموافقات ١٧٣/٢

التي وضعها الله لعباده، وهو (زمان تحفظ فيه حدود القرآن) وزمان الثقافة والمعرفة (النظرية) غير العملية، وهي ثقافة زمان (يحفظ فيه حروف القرآن وتضيع حدوده) فنحن إذن بين ثقافتين أو معرفتين؛ ثقافة العمل وثقافة الجدل، ولا شك أن المجتمع الإسلامي يقوم على ثقافة العمل لا ثقافة الجدل، ومن هنا وجدنا أحاديث تنفر من الجدل، وأحاديث ترغب في العمل بما نعلم.

ففي النصين إشارة هامة جدا بخصوص زمان قلة الفقهاء وزمان كثرة الفقهاء، وعلاقة ذلك بزمان كثرة القراءة والتفوه الخطابى وزمان قلتهم، بحيث نرى نمودجين:

أ- نمودج يتقنون فقه ما يقرؤون وهؤلاء هم النمط الذي تتفاعل ثقافته مع واقعه، وهم النمودج الأول الذي يكثرفيه الفقهاء العاملون، ويحدث في زمن الرسول ﷺ، ومعنى ذلك أن الفقه يحدث نتيجة التلقي المباشر عن المعلم الأول للبشرية، هذا المعلم الذي يتلقى بدوره مباشرة عن جبريل عن الحق تبارك وتعالى، فحالة تعليمية كهذه تعتبر حالة علم الفقه والفهم الذي يتجاوز مجرد القراءة السطحية إلى طلب العلم من مصادره، مما يورث المعرفة اليقينية بشؤون الحياة الدنيا والآخرة، ويؤدي في النهاية إلى التطبيق، وهذا تعليم حدث فقط في زمن الرسول ﷺ، لذلك كثر فقهاؤه وقل قراؤه: إنك في زمان كثير فقهاؤه، قليل قراؤه تحفظ فيه حدود القرآن وتضيع حروفه. كما كثر فقهاؤه وقل خطباؤه إنكم في زمان علماؤه كثير، خطباؤه قليل

وهكذا يتجاوز المجتمع النبوي مرحلة الوعي المزيف إلى مرحلة الوعي الحقيقي الذي أطلق عليه مصطلح الفقه، وقد أشرنا في أكثر من موضع إلى آثار الوعي الفقهي في مقابل الوعي المزيف^(١٢٣)

واقراً معي هذه الأمثلة في سياق ما نحن بصدده: فقد روى مسلم عن أنس بن مالك قال: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء

١٢٣- انظر الحقيقة الجوهرية ص: ١٧٧ أحمد عثمان رحمانى مكتبة وهبة القاهرة

الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع فجاء رجل من أهل البادية فقال يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟ قال صدق قال فمن خلق السماء؟ قال فمن خلق الأرض؟ قال: الله، قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل، قال: الله، قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آله أرسلك؟ قال: نعم، قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا، قال: صدق، قال: فبالذي أرسلك آله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة أموالنا، قال: صدق، قال: فبالذي أرسلك آله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قال وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا قال: صدق، قال: فبالذي أرسلك آله أمرك بهذا؟ قال نعم، قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا، قال: صدق، قال: ثم ولى، قال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن فقال النبي ﷺ لئن صدق ليدخلن الجنة (١٢٤)

فانظر خاتمة الحديث كيف يشدد على المعرفة العملية والدقة في التطبيق «لا أزيد ولا أنقص منهن، ثم انظر إلى النتيجة لئن صدق ليدخلن الجنة» وتأمل معي هذا الحديث الذي يقرر حقيقة أخرى في تفاعل المعرفة الإسلامية مع الحياة، فقد جاء في صحيح البخاري: عن أنس عن النبي ﷺ قال: ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار (١٢٥) قال العلماء رحمهم الله معنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات في رضى الله عز وجل ورسوله ﷺ وإيثار ذلك على عرض الدنيا ومحبة العبد ربه

١٢٤ - صحيح مسلم: ١/ ٤١ سنن النسائي: ٣/ ١٤٣، ١٩٣ قال الألباني: صحيح، صحيح بن حبان: ١/ ٣٦٨
قال الأرئؤوط: إسناده صحيح، مسند أحمد بن حنبل، قال شعيب الأرئؤوط، إسناده صحيح على شرط مسلم
١٢٥ - صحيح البخاري: ١/ ١٤، ٤١، وسنن النسائي: ٨/ ٩٦ مسند أحمد: ٣: ٢٤٨، ٢٨٨ صححه الأرئؤوطي بشرط الصحيحين، صحيح ابن حبان: ١/ ٤٧٣،

سبحانه وتعالى بفعل طاعته وترك مخالفته، وكذلك محبة رسول الله ﷺ، ومعنى ذلك أن الإيمان ليس فكرة مجردة إنما هو شعور صادق وإرادة فاعلة يتبعها سلوك عملي مطابق للحقيقة القلبية، معززة بالأفعال والأقوال المنبثقة عنه تجاه الله ورسوله وأمته.

ويعزز ذلك ما روي عن شعبة قال سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه (أو قال لجاره) ما يحب لنفسه^(١٢٦)

قال العلماء رحمهم الله معناه لا يؤمن أحدكم الإيمان التام وإلا فأصل الإيمان يحصل لمن لم يكن بهذه الصفة، ولكن الهدف من هذا الحديث هو بيان أهمية العلاقة التفاعلية بين الإيمان والسلوك أي بين المعرفة النظرية والسلوك العملي. ب- نموذج يتقنون الحروف والنظر فقط، وهؤلاء لا يتفاعلون مع الواقع بثقافتهم، ولذلك يكونون معرضين للهلاك وهو الذي أشار إليه الحديث السابق بقوله: (من ترك فيه عشر ما يعلم هوى أو قال هلك)

وهم النموذج الثاني الذي يتضمنه الحديث، أي أهل الزمن الذي يكثر فيه طلاب المعرفة النظرية، لكنها معرفة بدون فقه في الغالب، معرفة الجدل والنظر والخطابة، لا معرفة الإيمان والعمل فقال (بشأنه: ، فقال وسيأتي على الناس زمان يقل علماؤه ويكثر خطباؤه من تمسك فيه بعشر ما يعلم نجا

وقال السلف: وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير قراؤه تحفظ فيه حروف القرآن وتضيع حدوده، وهو أيضا زمان الخطابة الجوفاء هذا النموذج يشكل نسبة كبيرة من القراء الذين لا يطلبون العلم من أجل الفقه والعمل، ولكن يطلبونه من أجل أمور أخرى ذات طابع مذهبي في الغالب، كما يشكل نسبة كبيرة من الخطباء المتفهبين، ولذلك لا يهمهم حصول الفقه بقدر ما يهمهم حصول المظهر.

١٢٦ ، صحيح مسلم: ٦٧، ٣١ م ١٢١٩ - البخاري: ١ / ١٤ الترمذي: ٤ / ٦٦٧ والنسائي: ٨ / ١١٥

ولهذا السبب كان الرسول ﷺ ينفردنا من ثقافة الجدل، فقد روى مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(١٢٧) و (الألد) شديد الخصومة مأخوذ من لذيدي الوادي وهما جانباه لأنه كلما احتج عليه بحجة أخذ في جانب آخر و(الخصم) الحاذق بالخصومة، والمذموم هو الخصومة بالباطل في رفع حق أو إثبات باطل.

والفرق الجوهرى بين النموذجين يكمن في الهدف الذي يتم من أجله طلب العلم، وإلقاء الخطب، فحين يكون العلم للتطبيق، والخطابة للإصلاح، فإنه لا يتم إلا بحصول الفقه، لذلك يكون أكثر إفادة حين يكون من مصادره التي تطبقه قبل أن تعلمه، لأنه القدوة في التطبيق، لذلك يتم التعلم مرتباً بالفقه. وهو المشار إليه في الحديث السابق بقوله تحفظ فيه حدود القرآن وتضع حروفه، يبدءون أعمالهم قبل أهوائهم وقوله: من ترك فيه عشر ما يعلم هوى، أو قال هلك

أما حين يكون العلم للنظر فإن طالبه لا يهتم المصدر والأثر إنما يهتم المظهر وهذا صفة هي: كثير قراؤه تحفظ فيه حروف القرآن وتضع حدوده، يبدءون فيه أهواءهم قبل أعمالهم، وفي هذه الحال يصبح من تمسك بعشر ما يعلم نجا فالعامل الأساس الذي يحول دون الترابط الوثيق بين المعرفة النظرية والمعرفة العملية هي تدخل الأهواء والأنانية وحب الذات هنا بشكل سافر لتملي نفسها في الواقع على حساب الحقيقة العلمية مما يؤدي إلى آثار سلبية، تتمثل في التطبيق غير السليم الذي يعد غيابه أحيانا أفضل منه لأنه يشوه الحقيقة، لذلك كان الشيخ الغزالي رحمه الله يقول: نحن الآن شوهنا الإسلام فلا نحن أحسنًا تطبيقه ليكون مثلا للقدوة، ولا نحن تركناه ليكون موضع بحث الجادين من الخلق ليكتشفوا من جديد قوة تأثيره في الحياة فيأخذوا به.

١٢٧ - صحيح مسلم: ٤: ٢٠٥٤، صحيح البخاري: ٢: ٨٦، ٦: ٢٦٢٨، ٤: ١٦٤٤، سنن الترمذي: ٥/ ٢١٤
ومسند أحمد: ٦: ٢٠٥

من أجل هذا ظلت البشرية تعاني من ضعف المردودية في المجال التعليمي والتربوي عامة، فرجال التعليم والدعاة قد بذلوا جهودا كبيرة ولا يزالون يجهدون أنفسهم لغرس قيم حضارية مختلفة مثل الإيمان والصدق والأمانة والصبر والتكافل الاجتماعي والتعاون على الحق، ولكن ظلت هذه مثلا نظرية يفتقر واقع المجتمعات إليها نتيجة للأسلوب التربوي البسيط الذي لا يعنى بالجوانب العملية المرتبطة بالجوانب النفسية والاجتماعية والتي موضعها في السلوك وهو ما اعتنت به السنة الشريفة كما يتبين في الفقرة الموالية

نتيجة الربط بين النظر والعمل: و الأحاديث النبوية الشريفة كثيرا ما تبين نتيجة الربط بين المعرفة النظرية والمعرفة السلوكية، ففي حديث النخلة الذي أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم) باب مثل المؤمن مثل النخلة الذي أخرجه قال: قال رسول الله ﷺ إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنما مثل المسلم فحدثوني ما هي. فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال هي النخلة^(١٢٨)

قال الشراح الشجرة مثل المسلم من حيث كثرة النفع واستمرار الخير أي حاله العجيب الغريب وصفته كصفة تلك الشجرة ووجه الشبه أنه كما لا يسقط ورقها كذلك لا يذهب نور إيمانه ولا تسقط دعوته، ويستمر الخير فيه فهو بسبب تمسكه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ سيكون مصدر خير وبركة، وينبوع حياة حضارية سامية، ومجتمع متطور على الدوام متى كان معتصما بهما.

نتائج المعرفة الإسلامية الصحيحة وبيان أثرها في فاعلية السلوك الإيجابي البناء في الحضارة

وهذا يعني بالصورة العلمية التي هي ترجمة للمفهوم المجازي الذي أشار إليه الحديث النبوي الشريف، أن المعرفة الإسلامية من شأنها أن تعطينا نماذج بشرية

١٢٨- صحيح البخاري: ١/ ٣٤١٦- صحيح مسلم: ٤/ ٢١٦٤ رقم ٢٨١١

غاية في السلوك يمكن ملاحظة أثرها المنبثق عن الكتاب والسنة في المقولات التالية:

- ١- للسنة دور كبير في إصلاح السلوك، لأنها تزوده بنماذج عملية
 - ٢- للسنة أثر عميق في تربية المجتمع على القيم الحضارية وآدابها
 - ٣- السنة هي المرجع الذي يحتوي على الثقافة العملية التي تعمل على تكوين النموذج البشري الصالح للقدوة
 - ٤- السنة هي الصورة المثلى للثقافة التي تعمل على تنمية شبكة العلاقات الاجتماعية ونمط الحياة الأسرية
 - ٥- السنة هي الصورة المثلى للتطبيقات القرآنية لذلك أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بالتمسك بسنته وسنة آل بيته وسنة الصحابة من بعده فقال: ومن يعيش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ... عضوا عليها بالنواجذ...^(١٢٩)
- البعد العميق للتفاعل بين الفقه والأبعاد الحضارية الخيرية من خلال السنة النبوية:

كل ذلك يكشف عن البعد العميق لمعنى الأحاديث التي ركزت بعمق على دلالة العلاقة بين الفقه والتطبيق متمثلا في صورته المثلى (التقوى)، فتكشف عن البعد العميق لمعنى ثلاث صيغ معرفية تسهم في صنع الفعل الحضاري كما تبينها الأحاديث الشريفة تتعلق الأولى بالتفاعل بين المعدن والفقه، والثانية بالتفاعل بين الخلق الحسن والفقه، والثالثة بين العمل المتقن والفقه، هي:

الأولى: التفاعل بين المعدن(الهوية) والفقه :

فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه: قيل يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال (أتقاهم). فقالوا ليس عن هذا نسألك قال (فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن

١٢٩- أحمد ابن حنبل المسند ١٢٦٤ / رقم ١٧١٨٢ ، تعليق شعيب الأرنؤوط : حديث صحيح بطرقه وشواهدة وهذا إسناد حسن ، مسند ابن حنبل ١٢٦ / ٤

نبي الله ابن خليل الله) . قالوا ليس عن هذا نسألك قال (فعن معادن العرب تسألون ؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا^(١٣٠)

فجعل الفقه ومعناه الفهم العميق للدين وأبعاده الحضارية كلها شرطا في الخيرية والتنافس والتفاضل بين الناس إذا تفاضلوا بالمعادن والأصول .

أي : المعدن الطيب + الفقه = الخيرية

الثانية: التفاعل بين الخلق الحسن والفقه : وعن أبي هريرة قال : سمعت أبا القاسم (يقول : خيركم أحاسنكم أخلاقا إذا فقهوا^(١٣١) فجعل الفقه بابا يتمم الأخلاق ليرفع الإنسان إلى مستوى الخيرية وتفعيل العمل الحضاري .

أي : الخلق الحسن + الفقه = الخيرية

٣- الثالثة بين العمل المتقن والفقه: وجاء في المستدرک: يا عبد الله بن مسعود قلت : لبيك يا رسول الله ثلاث مرار قال : هل تدري أي الناس أفضل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال : فإن أفضل الناس أفضلهم عملا إذا فقهوا في دينهم^(١٣٢) فجعل الفقه عنصرا أساسيا في المعادلة بعد العمل، فلا أفضلية بالعمل بدون فقه، فالحضارة حضارة فقه النص

أي : العمل المتقن + الفقه = الخيرية

وقد جاء في القرآن ما يجمع تلك الصفات الثلاث: فقال عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾^(١٣٣)

فهناك ثلاثة عناصر للتفاضل لا قيمة لها بغير الفقه: المعدن الطيب، والخلق

الحسن، والعمل المتقن

وهكذا نجمل المعادلات الثلاث لعناصر التفاضل فيما يلي:

١- المعدن الطيب + الفقه = الخيرية

٢- الخلق الحسن + الفقه = الخيرية

٣- العمل المتقن + الفقه = الخيرية

١٣٠- صحيح البخاري: ٣/ ١٢٢٣ صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٦
١٣١- صحيح ابن حبان: ١/ ٢٩٣ ، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم
١٣٢- المستدرک: ٢/ ٥٢٢

الخاتمة:

يتبين لنا من خلال دراسة نصوص السنة المطهرة ما يلي:
لاعمل على الوجه الصحيح إلا بالمعرفة الصحيحة، ولا مجال للمعرفة
الإسلامية الصحيحة إلا من مصادرها الموثقة، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ
فعلى حسب مقدار العلم بالله وشريعته تقوى الخشية فأما العلماء بعلوم لا
تتعلق بمعرفة الله وثوابه وعقابه معرفة على وجهها الصحيح فليست علومهم بمقربة
لهم من خشية الله ولا من حصول التقوى، والسلوك المستقيم.

والأميون من الناس يعملون بالقدوة فمن تعرف على العلم من خلالهم فسعيه
مثل سعي العلماء وخشيته متولدة عن خشية العلماء لأن العلم دليل على الخيرات
وقائد إليها وأقرب العلماء إلى الله أولاهم بتقوى الله وأكثرهم له خشية، فقد
قضى الله أن يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض بما ينزل من السماء.
وعلى هذا فإن العلاقة بين المعرفة والسلوك علاقة متينة ودقيقة لأن نوع
السلوك تابع للنوع المعرفي، ينفعل به سلبا وإيجابا فكل يعمل على شاكلته، لذلك
كانت المعرفة لاتقبل التزييف ولا التحريف سواء في نوعها أو كمها، لأن ذلك
من شأنه التضليل على جهاز الاستقبال، وذلك ما حدث لأهل الكتاب من قبلنا،
وحذرنا القرآن والسنة من عواقبه تحذيرا شديدا

وقد تبين فعلا أن للمعرفة الإسلامية خمس مستويات، هي التي تحدد درجة
اليقين والصحيح من المظنون والمزيف، بحيث تكون صافية نقية في مصدرها
الأول وهو القرآن، وتأخذ شكلها التطبيقي النقي في سلوك الرسول صلى الله
عليه وسلم، ثم تأخذ في التدرج فيما عدا ذلك بسبب بعض الأخطاء التي حدثت
في مستوى الرواية من جهة أولى وفي مستوى الفهم والتأويل عند الفقهاء ثانيا،
ثم في مرحلة الفعالية العملية في المستوى التطبيقي ثالثا، وقد نص الحديث على
هذا التدرج: فقال ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم

يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته» (١٣٤)،

والسبب في تحذير الرسول ﷺ من سلسلة التدرج في الخيرية يعود إلى ما يهدد المعرفة الإسلامية من تحريف، وقد انتبه المحدثون بتوفيق من الله لخطورة الأمر فعملوا على تصفية الأجواء الحديثية فظهرت عندهم من أجل ذلك مجموعة من المصطلحات عملت على تصفية السنة المطهرة، كما جاء في الصحيحين والموطأ حتى قال العلماء: بشأن البخاري ومسلم وكتابهما أصح الكتب بعد كتاب الله العزيز. وروي عن (الشافعي) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: ما أعلم في الأرض كتابا في العلم أكثر صوابا من كتاب (مالك) (١٣٥)

غير أن هناك مشكلا آخر بعد الرواية وهو الاستنباط من الحديث، وشروحه وتأويلات الفقهاء من بعد، وأساليب توظيف الحديث، كل ذلك كان له فعله في التأثير على المعرفة الدينية، مما أدى إلى نتائج غير محمودة في بعض الجوانب لاسيما السياسية.

فعلى الرغم من احتياطات كبار الفقهاء حتى قال أحدهم: سلوا أصحاب الغريب فإنني أكره أن أتكلم في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بالظن فأخطئ (١٣٦)

فإن المحذور قد وقع، وأدى إلى تفعيل النصوص تفعيلا بشعا على مستوى السياسة مما جعل الأمة تدخل في فتن لا أول لها ولا آخر.

ولهذا السبب يوعز بعض العلماء الخلاف الفقهي إلى طرق التلقي وطرق الفهم، ولئن كانت مرحلة التنظير الفقهي قد أنتجت ما أنتجت من كتب يسرت التفاعل مع كتاب الله وسنة رسوله فإن التعصب أدى إلى تنوع العامة وبدا

١٣٤ - صحيح البخاري: ٩٣٢ / ٢ ، ورقمه: ٢٥٠٩ وأخرجه مسلم في باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم

ثم الذين يلونهم رقم ٢٥٣٢

١٣٥ - مقدمة ابن الصلاح: ١ / ١٠

١٣٦ - الشذا الفياح: ج / ٢ ص ٤٥١ ومقدمة ابن الصلاح: ج ١ ص ٢٧٢ / دار الفكر المعاصر تحقيق نور الدين عتر ١٩٧٧

السلوك الإسلامي مختلفا بغير مبرر مقنع سوى أن بعض الفقهاء تعصب لحديث وآخر لغيره في قضية واحدة، كان من الممكن تفادي الاختلاف فيها بمجرد توظيف الروایتين مادامتا صحيحتين.

وقد كان من الممكن أن تُفَعَلَ الثقافة الإسلامية كلها تفعيلا أكثر تأثيرا في النفوس، مما يثمر سلوكا جديرا برفع الأمة إلى ما كانت عليه حين وصفت بأنها خير أمة أخرجت للناس لو أن الأمة سارت في مدارس الدين بطريق الصحابة مع رسول الله ﷺ حين كانوا يستعينون على حفظ القرآن بالعمل به.

ومن الواضح أن طبيعة العلاقة بين المعرفة والسلوك هي التي تحدد نتائج العمل ووجهته، لذلك كان الرسول ﷺ يشير إلى العلاقة القائمة بين الخير بمعناه المطلق وبين نوع السلوك الناجم عن طبيعة المعرفة كما في قوله: «من يرد الله به خيرا يفقهه»^(١٣٧) أي يعطيه المعرفة الصحيحة فتؤدي إلى السلوك السليم فيؤدي إلى تحقيق الخيرات.

وعليه نستنتج الدالة التالية:

المعرفة الصحيحة ← السلوك السليم ← الخيرات الحضارية
المعرفة الصحيحة + السلوك السليم = الخيرات الحضارية

ولكن هناك معوقات تعوق تلك الفاعلية وهي تلك الأسباب التي تحول دون بقاء الأمة على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، ومنها: العمل بالموضوعات، وسوء الفهم لمقاصد النص، وتعطيل النصوص، والتفريط فيها حينما والتنطع ثانية والمغالاة أخرى، لذلك اشترط الرسول في الثبات على البيضاء الاعتصام بالنص فقال قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب

١٣٧ - حدثنا سعيد بن عفير قال حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب قال قال حميد بن عبد الرحمن سمعت معاوية خطيبا يقول

: سمعت النبي ﷺ يقول « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله »

[٢٩٤٨، ٣٤٤٢، ٦٨٨٢، ٧٠٢٢] ش أخرجه مسلم في الزكاة باب النهي عن المسألة رقم ١٠٣٧

الله^(١٣٨) فهذه الحضارة حضارة نص لا تستقيم حالها إلا بالنص، ومن هنا نفهم دلالة الحديث: قال (ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه)^(١٣٩) فالأمة التي تعرض عن النص يعرض الله عنها ويدعها تتخبط في ظلمات بعضها فوق بعض حتى تهلك أو تعود إلى البيضاء ولن تعود إليها إلا بالاعتصام بالنص

وقد بينت الأحاديث أن الناس يتفاعلون مع النص بطريقتين، إحداهما نافعة والثانية أقل نفعاً، أما الأولى فهي التي يكثر فيه العلم من أجل العمل وهو علم التقوى، وأما الثانية فهي التي يطلب فيها العلم من أجل النظر وهو علم التظاهر، وهي مرحلة العلم المزيف

والعوامل الأساسية - التي تحول دون الترابط الوثيق بين المعرفة النظرية والمعرفة العملية - هي تدخل الأهواء والأنانية وحب الذات بشكل سافر لتملي نفسها في الواقع على حساب الحقيقة العلمية مما يؤدي إلى آثار سلبية، وإلا فإن الأصل في المعرفة الإسلامية أن تحقق حديث مثل المؤمن مثل النخلة وحديث لئن صدق ليدخلن الجنة

وعلى هذا كان الحديث يصوغ المعادلة التالية:

فإن أفضل الناس أفضلهم عملاً إذا فقهوا في دينهم^(١٤٠)

أي : العمل المتقن + الفقه = الخيرية

وهو تحقيق الآية ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾^(١٤١)

١٣٨- صحيح مسلم ص: ٢/ ٨٨٦ رقم: ١٢١٨
 ١٣٩ - صحيح البخاري : الحديث رقم ٤٦٢ ومسلم رقم: ٢١٧٦ باب من أتى مجلساً فوجد فرجة فجلس فيها
 ١٤٠ - المستدرک: ٢/ ٥٢٢
 ١٤١- آل عمران : ١١٠

وهذه الخيرية لاحد لها ، فالاعتصام بكتاب الله لايعني مجرد الحفظ النظري بل يعني إطلاق فاعلية القرآن في الحياة إلى أقصى حد الاستطاعة ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾^(١٤٢) إذ لا حد لهذه الفاعلية، كما لا حد لخيرها، حيث تتطور الحياة من جميع الوجوه تبعاً لتفعيل القرآن والسنة في الحياة. والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

دبي في: شوال

الموافق: ٢٨ / ١١ / ٢٠٠٦

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- ١- الإحكام في أصول الأحكام: علي بن محمد الأمدي أبو الحسن: دار الكتاب العربي: - بيروت: الطبعة الأولى ، ١٤٠٤ تحقيق : د. سيد الجميلي
- ٢- أصول البزدوي: أصول البزدوي - كنز الوصول الى معرفة الأصول: علي بن محمد البزدوي الحنفي: مطبعة جاويد بريس كراتشي
- ٣- أصول الفقه المسمى إجابة السائل شرح بغية الأمل: محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني: مؤسسة الرسالة بيروت: الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ تحقيق : القاضي حسين بن أحمد السياغي و الدكتور حسن محمد مقبولي الأهدل.
- ٤- أصول السرخسي: محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي أبو بكر
- ٥- الأم : محمد بن إدريس الشافعي:
- ٦- الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف: أحمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي: دار النفائس بيروت: الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ : تحقيق : عبد الفتاح أبو غدة
- ٧- إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل: محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة: دار السلام: الطبعة الأولى ، ١٩٩٠ تحقيق : وهبي سليمان غاوجي الألباني
- ٨- البحر المحيط في أصول الفقه: ج ٣ بدر الدين محمد الزركشي دار الكتب العلمية بيروت ط ١ سنة ٢٠٠٠ تحقيق محمد محمد تامر
- ٩- التحرير شرح التحرير في أصول الفقه تأليف علاء الدين علي بن سليمان المرداوي الحنبلي دار النشر مكتبة الرشد الرياض ط ١ / ٢٠٠٠ تحقيق عبد الرحمن الجبرين و عوض القرني وأحمد السراح
- ١٠- التحرير والتنوير - ابن عاشور: الدار التونسية والمؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - ١٩٨٤
- ١١- تذكرة الحفاظ للذهبي: شمس الدين محمد الذهبي دار إحياء التراث العربي

تصحیح عبد الرحمن بن یحیی المعلمی د ت

۱۱- تذکرة الحفاظ: محمد بن طاهر بن القیسرانی: دار الصمیعی / الرياض: سنة

۱۴۱۵ ط ۱ ص ۳ تحقیق حمد بن عبد الحمید السلفی

۱۲- تذکرة الموضوعات: محمد بن طاهر بن علی الفتنی الهندی إدارة الطباعة

المیریة / القاهرة س ۱۹۲۴

۱۳- تفسیر القرآن العظیم: ابن کثیر: دار الفکر المصری، مطبعة الحلبي، د ت.

۱۴- تفسیر الجلالین: جلال الدین محمد بن أحمد المحلي: و جلال الدین

عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: دار الحديث - القاهرة

۱۵- الاجتهاد بالرأي في مدرسة الحجاز الفقهية د: خليفة بابكر الحسن مكتبة

الزهراء القاهرة ۱۹۹۷

۱۶- الحقيقة الجوهرية - أحمد عثمان رحمانی - مكتبة وهبة - القاهرة

۱۷- الدر المنثور: عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، الناشر: دار

الفکر - بيروت، ۱۹۹۳

۱۸- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعية: محمد بن علي بن محمد

الشوكاني المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثالثة، ۱۴۰۷ تحقيق: عبد

الرحمن يحيى المعلمي

۱۹- سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني: ت: ۲۷۵: دار

الفکر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله

الأصبهاني

الناشر: دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الرابعة، ۱۴۰۵

۲۰- سنن ابن ماجة الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني ت:

۲۷۳هـ، دار الفكر بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي

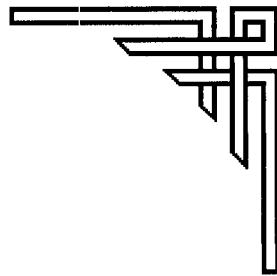
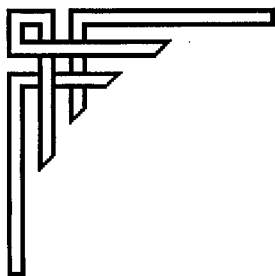
۲۱- سنن الترمذي لمحمد بن عيسى الترمذي: دار إحياء التراث العربي - بيروت

تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون

- ٢٢ - سنن الدار قطني : دار المعرفة - بيروت ، ١٣٨٦ - ١٩٦٦
- تحقيق : السيد عبد الله هاشم يماني المدني
- ٢٣ - سنن الدارمي محمد عبد الله الدارمي ت : ٢٥٥هـ : دار الكتاب العربي بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ ، تحقيق : فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي
- ٢٤ - سنن النسائي : ، مكتب المطبوعات الإسلامية حلب : الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ ، ١٩٨٦ ، تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة
- ٢٥ - سنن النسائي الكبرى : : أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي : دار الكتب العلمية بيروت : الطبعة الأولى ، ١٤١١ ، ١٩٩١ : تحقيق د. عبد الغفار سليمان البنداري سيد كسروي حسن
- ٢٦ - الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح : إبراهيم بن موسى بن أيوب البرهان الأبناسي : مكتبة الرشد - الرياض ط الأولى ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م : تحقيق : صلاح فتحي همل
- ٢٧ - صحيح البخاري : الإمام ابو عبد الله بن إسماعيل البخاري ت : ٢٥٦ هـ دار ابن كثير ، اليمامة ، بيروت ت : مصطفى ديب البغا ط ١٩٨٧ ، ١٤٠٧ هـ
- ٢٨ - صحيح مسلم للإمام أبي الحسين بن حجاج القشيري / ت : ٢٦١ هـ : دار إحياء التراث العربي بيروت ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي
- ٢٩ - صحيح ابن حبان ترتيب ابن اللبان / مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤١٤ ، ١٩٩٣ تحقيق : شعيب الأرنؤوط
- ٣٠ - صيد الخاطر : عبد الرحمن ابن الجوزي (٥١٠ - ٥٩٧ دار الكتب العلمية بيروت دت
- ٣١ - علوم الحديث في ضوء تطبيقات المحدثين النقاد : حمزة عبد الله المليباري : دار ابن حزم بيروت
- ٣٢ - في ظلال القرآن : سيد قطب : دار الشروق لبنان
- ٣٣ - الكشف في حقائق التنزيل - الزمخشري : دار المعرفة / بيروت دت

- ٣٤- المستدرك على الصحيحين : محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري
دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤١١ ١٩٩٠ تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا
- ٣٥- مسند أحمد ابن حنبل: مؤسسة قرطبة القاهرة، الأحاديث مزيلة بأحكام شعيب الأرناؤوط عليها
- ٣٦- مسند البزار: مؤسسة علوم القرآن مكتبة العلوم والحكم بيروت ط: ١ / ١٤٠٩
- ٣٧- منهج النقد في علوم الحديث - نور الدين عتر: دار الفكر المعاصر بيروت لبنان / دار الفكر دمشق سورية.
- ٣٨- مصنف ابن ابي شيبة: مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ تحقيق : كمال يوسف الحوت
- ٣٩- مصنف عبد الزاق أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني: المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي
- ٤٠- المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني: مكتبة العلوم والحكم الموصل: الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ ١٩٨٣ تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي
- ٤١- مقدمة ابن الصلاح: دار الفكر المعاصر تحقيق نور الدين عتر: ط ١٩٧٧
- ٤٢- (المقتطف) مجلة (ديسمبر: ١٩٤٠
- ٤٣- الملل والنحل: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني: دار المعرفة - بيروت ، ١٤٠٤ تحقيق : محمد سيد كيلاني
- ٤٤- مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبدالعظيم الزرقاني: الناشر : دار الفكر - بيروت: الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ تحقيق : مكتب البحوث والدراسات
- ٤٥ - الموطأ: للإمام مالك بن أنس / دار إحياء التراث العربي مصر / ت: محمد فؤاد عبد الباقي

- ٤٦- الموافقات في أصول الفقه: إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي : دار
المعرفة بيروت : تحقيق : عبد الله دراز
- ٤٧- ميلاد مجتمع ص ٧٦-٧٧ مالك بن نبي: دار الفكر المعاصر لبنان بيروت ودار
الفكر دمشق سوريا ط ٣، س ٢٠٠٢
- ٤٨- النهاية في غريب الأثر: النهاية في غريب الحديث والأثر: أبو السعادات
المبارك بن محمد الجزري: المكتبة العلمية - بيروت ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م: تحقيق
: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي



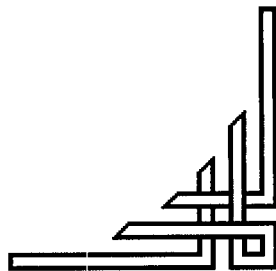
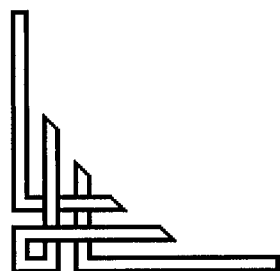
السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ وَالْقِيَمُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي الْإِبْدَاعِ الْأَدَبِيِّ

الدكتور بنعيسى أحمد بويوزان

جامعة محمد بن عبد الله - فاس

الكلية المتعددة التخصصات - تازة

المملكة المغربية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

توطئة :

إن للكلمة في الإسلام أهمية خاصة و مكانة متميزة ، فكل ما ينطق به الإنسان إما أن يحسب له أو عليه ، فلسانه مراقب ، و كلامه محفوظ ، فلا يضيع سُدى ولا يذهب هدرًا ، لقوله جل و علا : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (سورة ق: ١٨) ، و لما صح عن النبي ﷺ أنه قال : « إن العبدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكلمة من رضوان الله لا يُلقِي لها بآلاً ، يرفعه الله بها درجاتٍ ، و إن العبدَ ليتكلم بالكلمة من سَخَطِ الله لا يُلقِي لها بآلاً يَهْوِي بها في جهنم. »^(١)

وَلَعَلَّهُ من الواضح أن لفظة "قول" في الآية الكريمة ، و لفظة "الكلمة" في الحديث الشريف ، تحيلان على مدلول القول و الكلام في أوسع مجالَيْهِمَا ، فلا تنسحبان على مجال دون آخر أو على قول دون قول ، فكل ما يَتَلَفَّظُ به الإنسان - أي إنسان .. لا يخرج عن أحد الإطارين المذكورين في الحديث الشريف : رِضْوَانِ الله عز و جل أو سَخَطِهِ سبحانه ، سواء كان ذلك الكلام في الأحاديث الخاصة أو العامة ، في جِدٍّ أو هَزَلٍ أو حالة انبساط أو حالة غضب ، أو غيرها من الأحوال الإنسانية المتعددة التي تَعَجُّ بها حياة الناس ، و لهذا صح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : « مَنْ وَقَاهُ اللهُ شَرَّ اثْنَيْنِ وَلَجَّ الْجَنَّةَ : مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ ، مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ ، مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ »^(٢) ، فقد تَهَرَّجُ الإنسان نشوةً فيتلفظ بغير ما كان ينبغي له التلفظ به ، أو تتنابه غَضَبَةٌ فيزلُّ لسانه إلى حد هو في غِنَى عن الوصول إليه ، بله تجاوزه ، و قسُ هذا على كل متحدث

١ - صحيح البخاري ، كتاب "الرقاق" ، بإحفظ اللسان " ١١ / ٣٧٣ " مع فتح الباري لابن حجر العسقلاني ، وصحيح مسلم في كتاب "الزهد و الرقاق" ، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار " ٨ / ٢٢٣ - ٢٢٤ ، والموطأ للإمام مالك في كتاب الكلام ، باب ما يؤمر به من التحفظ في الكلام ، ٢ / ٩٨٥ .
٢ - الموطأ ، للإمام مالك ، كتاب "الكلام" ، باب "ما جاء فيما يخاف من اللسان" ٢ / ٩٨٧ - ٩٨٨ ، وصحيح البخاري ، كتاب "الرقاق" ، باب "حفظ اللسان" ١١ / ٣٧٣ .

أو خطيب أو كاتب أو شاعر أو حتى على متكلم عادي بسيط ليس لا من هؤلاء ولا من أولئك .

و ما دام حديثنا في هذه المداخلة عن السنة النبوية الشريفة و القيم الإنسانية في الإبداع الأدبي شعره و نثره - والشعر منه بوجه خاص - فإننا سنَحْصُرُ حديثنا في النظرة النبوية الشَّرِيفَةَ إِلَى الكلمة المكتوبة ، وإلى القول المُعَبَّرِ عن عواطف الإنسان العربي يومئذ - و من خلاله الإنسان كله في كل زمان و مكان - و هو يَشْهَدُ نَفْحًا جديدًا في لغته التي أَلِفَ الحديث بها دهرًا طويلًا ، و هي تقتبس من القرآن الكريم بهاء و ضياءه و بيانه المعجز في التأليف و التعبير ، مما مَلَكَ عليه لُبُّه و كيانه ، حتى أدرك بأن إبداعه لم يَعُدْ نَمَطًا من أنماط الغَوَايَةِ ، أو ضَرْبًا من الهَيَمَانِ على غير هدى ، و إنما أصبح إبداعًا مسؤولًا أمام الله جل و علا ، ثم أمام ما تُمَلِّيه عليه إنسانيته باعتباره إنسانًا مُكْرَمًا تَحْمَلُ مسؤولية الخلافة في الأرض .

و قد وَزَعْتُ هذا البحث على محاورٍ أربعةٍ يأخذ بعضها بِرِقَابِ بعض ، لأن العلاقة بينها هي علاقة الخاص بالعام ، و كل محور منها عبارة عن بُعْدٍ له خصائصه و مُمَيِّزَاتُهُ التي يتكامل من خلالها مع الأبعاد الأخرى ، مما يعكس على نَحْوٍ وَاضِحٍ و عَمِيقٍ تلك القيم الإنسانية النبيلة في السنة النبوية الشريفة في نظرتها إلى الإبداع الأدبي ، وهذه الأبعاد هي :

أ - البعد الإنساني .

ب - البعد الفطري .

ج - البعد الأخلاقي .

د - البعد الجمالي .

و تفصيل الحديث عن هذه الأبعاد بما تتضمنه من عناصر و مباحث ، بعد التوكل على الله جل و علا ، يظهر من خلال ما يلي :

أ - البعد الإنساني : و يتجلى في عنصرين أساسيين هما :

١ - في التعامل النبوي مع الموروث الشعري العربي :

من المعلوم أن الإنسان العربي كان مَجْبُولاً على قول الشعر ، يجري على لسانه في كل شؤون حياته الخاصة و العامة ، و في كل ما يَعْنُ له أو يعترضه في حَلِّهِ و تَرْحَالِهِ المستمر ، فقد كان الشعرُ ثقافته و عِلْمُهُ بكل المقاييس ، حتى إن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال : « كان الشعرُ عِلْمَ قَوْمٍ لم يكن لهم عِلْمٌ أَصَحُّ مِنْهُ . » ^(٣) وهذا يعني أن العرب مع البعثة النبوية كانوا قد ورثوا كَمًّا هائلاً من الشعر عن أجدادهم الذين خَلَدُوا به مآثر كل قبيلة على حدة أيام الوثنية الجاهلية ، به يَتَبَاهُونَ و يتفاخرون ، و به يخاصمون و ينتصرون لهذا الطرف أو ذاك ، و لكنّ أمّا و قد جاءت مِلَّةُ التوحيد و أَدْنَى الله عز و جل بميلاد دين جديد يدعو إلى التوحيد و يَبْذُ الوثنية ، و يؤلف بين القلوب و يجمع الشمل و الكلمة ، فقد كان لزاماً أن تنشأ نظرة جديدة إلى هذا الموروث الشعري الجاهلي أو قُلْ - إن صح التعبير - إلى هذه الثقافة الجاهلية ، تنبع من النظرة الإسلامية الشاملة إلى الحياة الإنسانية عقيدةً و شريعةً و فكراً و ثقافةً .

وهنا تكمن عظمة الإسلام ، و نلمس العمق الإنساني في نظرتة إلى الموروث الشعري العربي أيام الجاهلية ، فالنظر العميق فيما صح عن النبي صلى الله عليه و آله من أحاديث شريفة ، و من أقوال كبار الصحابة رضوان الله عليهم ، يجد أنهم تعاملوا مع هذا الموروث الشعري على أساس أنه إبداعٌ إنسانيٌّ ، لكنه لطخته الوثنية الجاهلية بشركها و عاداتها و تقاليدها المختلفة ، فَتَتَجَّ عن ذلك أن مَيَّزُوا في هذا الإبداع بين نمطين كبيرين من الشعر؛ فالشعر الذي يعبر عن الإنسان القلق الحائر ، و الخائف على مصيره ، و المتسائل عن الغاية من وجوده ، و الباحث عن الحقيقة في كُتُبِ أهل الكتاب مما كان يتسرب إلى جزيرة العرب ، و المنقَّب عن بقايا الحنيفية الإبراهيمية

٣ - طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ١ / ٢٤ .

التي تشكل مكة المكرمة - حاضرة العرب - عُمَدَتَهَا ، كل هذا الشعر يختلف اختلافاً كُلياً عن ذلك الشعر الذي مجَّد الدم والثَّار ، وقَدَّس الشهوة والخطيئة ، وتَغَنَّى بعبادة الحجر والشجر . وبين هذين الطرفين خَيْطٌ رفيع ولكنّه واضحُ المعالم ، إنه خيط الفطرة التي تجمع الوجدان الإنساني في كل زمان ومكان ، فَيَسْتَقُّ به دِيَا حَيْرَ الجاهلية في كل زمان ومكان أيضاً .

فقد روى الإمام البخاري فقال : « حدثنا إسحق قال : حدثنا محمد بن الفضيل عن الوليد بن جميع عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، قال : لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ مُنْحَرَفِينَ ولا مُتَمَاوِتِينَ ، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم ، ويذكرون أُمْرَ جاهليتهم ، فإذا أُريدَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الله دَارَتْ حَمَالِقُ عَيْنِيهِ كَأَنَّهُ مَجْتُونٌ . » (٤) ، و روى الإمام الترمذي قال : « حدثنا علي بن حُجْر ، أَنبَأَنَا شَرِيكٌ ، عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : جالست رسول الله ﷺ أكثر من مائة مرة ، وكان أصحابه يتناشدون الشعرَ ويتذاكرون أشياء مِنْ أَمْرِ الجاهلية ، وهو ساكِتٌ ، وربما تَبَسَّمَ مَعَهُمْ . » (٥) .

فهذه المجالس تضم أكمل الخلق ، محمداً ﷺ ، وأفضَلَ ما في هذه الأمة ، صحابته رضي الله عنهم ، وهم أعلم الناس بكلام العرب ، وبالضوابط الشرعية التي عَلَّمَهُمْ إياها رسول الله ﷺ ، وبالتالي فَلَغَةُ المجلس أَنْظَفُ لغة وأصفاها وأضبطها ، ومع ذلك ، فهم يتكلمون في أمر الجاهلية ويتناشدون أشعارها ورسول الله ﷺ يتابع بحرص المعلم الأمين ما يَتَفَوَّهُ به أصحابه ، لأن أقوالهم وأفعالهم في حضرته ﷺ تشريعٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ في هذه الأمة ، وربما يعجبه ﷺ هذا

٤ - الأدب المفرد ، باب الكبُر ، ص ١٢٢ ، ورواه مسلم بمعناه في صحيحه ، كتاب الصلاة ، باب فضل الجلوس في مُصَلَاةٍ بعد الصبح وفضل المساجد ، ١٣٢ / ٢ ، ورواه ابن أبي شيبة في الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار ، ٢٧٨ / ٥ ، وهو حديث صحيح أورده الشيخ الألباني في الأحاديث الصحيحة المجلد ١ القسم ٢ ص ٧٩٦-٧٩٧ برقم ٤٣٤ .

٥ - الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية ، باب ما جاء في صفة رسول الله ﷺ في الشعر ، ص ٢٠٤-٢٠٥ وقال حديث حسن صحيح ، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف ٢٧٨٥-٢٧٩ و أورده الألباني في الأحاديث الصحيحة المجلد ١ القسم ٢ ص ٧٩٦-٧٩٧ برقم ٤٣٤ .

البيت ، أو تلك الحادثة، فيتبسم ﷺ ؛ إنه حقاً لفرق كبير بين هذا المجلس الزكي الطاهر ، وبين مجالس اللهو والقصف والخلاعة التي تُتناشَدُ فيها الأشعار الجاهلية وأحاديثها بما فيها من فسقٍ ومجون ، و بالتالي شتان بين شعر جاهلي يُنشَدُ في ذلك المجلس الطاهر ، وبين هذا الذي يُنشَدُ في هذا المجلس الفاجر .

وهذا يجسد بوضوح ذلك البعد الإنساني العميق في النظرة النبوية الشريفة إلى الشعر ، فهي تأخذ من الإبداع الجاهلي ما يعبر عن الإنسان البريء ، الناطق بالحكمة المعبرة عن مشاعر الإنسان و خَلَجَاتِهِ بما هو إنسان ، وليس بالكلام البذيء الذي يحط من هذه الإنسانية ذاتها إلى مدارك الحيوان الممجَّدِ للشذوذ واللذَّةِ والخَطِيئَةِ ، أو التي تقدس الحجر فتعْبُدُهُ من دون الله عز وجل ؛ و كأنى بمجلس رسول الله ﷺ وهو يقوم بعملية التصفية للإرث الشعري العربي ، فيأخذ منه ما يتلاءم مع الشعور الإنساني النبيل و ذوقه الفطري السليم ، و ينبذ ما يتعارض مع دينه وإنسانيته ، وهذا ما يحيل عليه قول جابر بن سمرة رضي الله عنه « فإذا أُريدَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ دَارَتْ حَمَالِيْقُ عَيْنَيْهِ كَأَنَّهُ مَجْنُونٌ . » ، فكل ما يتعارض مع دين المسلم أو يطعن فيه من إبداع مهما كانت طبيعته ، يظل إبداعاً مرفوضاً ، حتى وإن صدر عن يدعي بأنه مسلم فضلاً عن سواه ، لأن ما يعارض الدين الإسلامي ، يعارض بالضرورة الفطرة الإنسانية ﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِن ۚ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم ٣٠) .

فالإبداع العربي قبل الإسلام هو إنتاج إنساني ، فيه الغثُّ و السمين و الطَّيِّبُ و الرديء ، فليس من العدل أن يقاس كله بمقياس واحد ، وأن يُهْمَلَ كُلُّهُ بحجة أن قائله ليس بمسلم ، لا ، لأن عظمة الإسلام تكمن في تهذيب الإنسان وإصلاحه وتكريمه ، وليس في هدمه و تحطيمه ، وأولى هذه الجوانب استدعاءً لهذا الإصلاح وذاك التهذيب ، بعد تصحيح عقيدته و تنقيتها ، هو فكره و ثقافته ، فما كان من إبداعه فطرياً وإنسانياً لا يصادم الحق ولا يضاد العقيدة الإسلامية ، و جَبَّ احتضانه و تزكيتته مهما كان قائله ، لأنه أولاً و قبل كل شيء هو إنسان له أحاسيسه و عواطفه

التي أودعها الله عز وجل فيه، ليعبر بها عن فطرته وإنسانيته في إبداع يُؤخذُ منه ويُتركُ، ويُقبلُ منه ويُردُّ، وهذا هو هَدْيُ محمد ﷺ، و هَدْيُ صحابته رضي الله عنهم، وهَدْيُ من تبعهم بإحسان، ففي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أَصْدَقُ كَلِمَةً قَالَهَا الشَّاعِرُ، كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ» وكاد أُمِيَّةُ بِنْتُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسَلِّمَ. (٦). فشهادة النبي ﷺ في هذه الكلمة التي أبدعها الشاعر لبيد بن ربيعة في جاهليته أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ دون سواها، و وصفها بأنها أَصْدَقُ كَلِمَةً قَالَهَا الشَّاعِرُ الْعَرَبِيُّ، لدليل واضح على تلك النظرة الإنسانية العميقة التي أرادها الرسول ﷺ أن تكون لدى كل المسلمين في التعامل مع الإبداع الإنساني كله، فما وافق عقيدتنا زَكَيْنَاهُ لِصِدْقِهِ وَعَدَلِهِ، وما ضَادَّهَا وَجَبَ الْإِعْرَاضُ عَنْهُ وَإِهْمَالُهُ جَمَلَةٌ وَتَفْصِيلًا، و ما هاجمها وجب الرَّدُّ عليه وفق ما أمر به النبي ﷺ، كما سيأتي بيانه في حينه إن شاء الله.

و هذا ما يتجلى بكل وضوح في قصة الصحابي الجليل عثمان بن مظعون مع لبيد بن ربيعة بشأن البيت الذي ورد فيه هذا الشطر الذي استشهد به النبي صلى الله عليه وسلم؛ فَبَعْدَ أَنْ رَدَّ عُثْمَانُ جَوَارَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ فِي مَكَّةَ، جَلَسَ فِي حَلْقَةٍ مَعَ فِتْيَةٍ قَرِيْشٍ يَسْتَمِعُ إِلَى لَبِيدٍ قَبْلَ إِسْلَامِهِ وَهُوَ يَنْشُدُ أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ، فَقَالَ عُثْمَانُ: صَدَقْتَ، فَقَالَ لَبِيدٌ: وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ، فَقَالَ عُثْمَانُ: كَذِبْتَ، نَعِيمُ الْجَنَّةِ لَا يَزُولُ. فَقَامَ إِلَيْهِ سَفِيَهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ الْفِتْيَةِ فَلَطَمَ عَيْنَهُ فَاخْضَرَّتْ. (٧).

و في هذا شاهد قوي على ما نذهب إليه، فَبَيَّتْ وَاحِدٌ مِنَ الشُّعْرِ، فِيهِ مَا يُؤْخَذُ

٦- صحيح البخاري، كتاب "الأدب" باب "ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه" ١٠/ ٦٥٨ مع فتح الباري، و صحيح مسلم في كتاب الشعر ٧/ ٤٩، وقال ابن حجر أن النبي ﷺ قال هذا الحديث على المنبر، الإصابة في تمييز الصحابة ٥/ ٦٧٨.

٧- راجع ذلك مفصلاً في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٧٠، وفي الإصابة ٤/ ٤٦١، و الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ١٥/ ٣٦٣-٣٦٤.

منه و ما يُرَدُّ ، فالصَدْرُ صِدْقٌ لا مَرِيَّةَ فيه كما قال النبي ﷺ ، بينما العَجْزُ مردود ، لأنه لا يتوافق و الرؤية الإسلامية التي تنظر إلى الحياة الدنيا على أنها مرحلة زائلة ، تتلوها الدار الآخرة التي لا زوال لها ، و ما دام لبيد قبل إسلامه كان ينظر إلى مفهوم النعيم وفق التصور الجاهلي المبني على أن الدنيا لَذَّةٌ و نعيمٌ يزول نهائياً بموت الإنسان ، فإن الرد من عثمان رضي الله عنه كان حاسماً ، فقبِلَ الشطر الأول و رفض الثاني ؛ و كأني بهذه الحادثة تؤسس للبدايات الأولى لما ينبغي أن يكون عليه الإبداع وفق التصور الإسلامي ، فعثمان لم يمنعه إسلامه من الشهادة بالصدق للبيد و هو مشرك يومئذ حين قال صدقاً ، و لا بالشهادة عليه أمام الملاء بالكذب حين قال باطلاً ، أي أن عثمان رضي الله عنه أسس في مراحل مبكرة من الإسلام لضرورة النظر إلى الإبداع و المعرفة عموماً وفق التصور الإسلامي الشامل ، فما وافق عقيدتنا أخذنا به ، و سلّمنا بصدقه بلا تردد ، و ما تعارض معها نبذناه أيضاً بلا تردد ، كما فعل عثمان بن مظعون رضي الله عنه هنا ، لأن الصمت في مثل هذه المواقف إقرارٌ بما يعارض العقيدة الإسلامية و الفطرة الإنسانية ، و هذا ليس من هدي الصحابة رضي الله عنهم .

ثم إن شهادة النبي ﷺ بصدق هذا الشطر من كلام لبيد ، هي أسٌّ من أسس التمييز في التعامل ليس مع إبداع لبيد فقط ، و إنما مع كل الإبداع الجاهلي و الإنساني بعامة ، خاصة و أن لبيد و هو الشاعر الجاهلي المُفْلِقُ ، كان كثير التأمّل في شعره ، و لا يُسْتَبَعَدُ أن يكون ممن كانوا يتأملون في صُحُفِ أهل الكتاب ، مما كان يَروُجُ بين اليهود بخاصة في جزيرة العرب ، أو مما كانت تَسْمَعُ به العرب في رحلاتها إلى الشام و اليمن صيفاً و شتاءً ، بل إنه كان كثيراً ما يذكر اسم الله في شعره الذي صحت نسبته إليه ، ففي معلقته الشهيرة قال :

فَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَ الْمَلِكُ فَإِنَّمَا قَسَمَ الْخَلَاتِقُ بَيْنَنَا عَلامَها
وَإِذَا الْأَمَانَةُ قُسِّمَتْ فِي مِعْشَرٍ أَوْفَى بِأَعْظَمِ حَظَّنَا قَسَامَها

قال الخطيب التبريزي في شرحه : « الخلائق : الأخلاق الحسنة ، و الضمير من علامَها يعود إلى الخلائق ، و العلام هو الله سبحانه ، و يريد بقوله أَوْفَى بِأَعْظَمِ

حَظَّنَا قَسَامُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .^(٨)

و هذا يعني ، أن شعر لبيد في الجاهلية لم يكن بعيدا كل البعد عن الفطرة الإنسانية التي تنطق بمثل هذا الكلام المعبر في لحظات التفكير و التأمل في هذا الوجود المتقن في كل شيء ، حيث تستيقظ هذه الفطرة أمام هذه العظمة التي تأسرُ لبَّ المبدع و كيانه ، فينطق لسانه بالصدق رغما عنه ، مما يجعل إبداعه ذاك لا يعبر عن نفسه فقط ، وإنما يعبر عن كل إنسان في كل زمان و مكان .

و إلى جانب لبيد بن ربيعة ، ذكر رسول الله ﷺ في هذا الحديث الشريف الذي نحن بصدهه الشاعر الجاهلي المفلق أمية بن أبي الصلت ،^(٩) و قد وردت أحاديث صحاح بشأنه ، من بينها ما رواه مسلم عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : « رَدِفْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَا فَقَالَ : هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمِيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْءٌ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : هَيْه ، فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتًا ، فَقَالَ : هَيْه ، ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتًا ، فَقَالَ : هَيْه ، حَتَّى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ . »^(١٠) ، وأمие بن أبي الصلت ، هو الشاعر الوحيد الذي ثبت أن النبي ﷺ استزاد من شعره حتى بلغ المنشدُ مائة بيت .

و إذا جمعنا هذا الحديث الخاص بأمية بن أبي الصلت ، و الحديث الذي جمع فيه النبي ﷺ بينه وبين لبيد ، حيث قال : « وَ كَادَ أُمِيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسَلِّمَ » ندرك بأن أمية هذا مات كافرا ، و مع ذلك سمع النبي ﷺ مائة بيت من شعره في جلسة واحدة ، و حاشى أن يُنْفِقَ النبي ﷺ وقته الثمين في سماع شعر يتنافى مع الفطرة الإنسانية ، أو مع القيم الإنسانية النبيلة التي كان يطفح بها شعر هذا الشاعر الذي عاش كافرا و مات على كفره ، و قبل ذلك و بعده ، حاشى أن يستمع النبي ﷺ إلى ما يتنافى مع العقيدة الإسلامية التي بعث بها نبيا و رسولا .

٨- شرح المعلقات العشر ص ٢٥٩ ، وراجع شواهد عديدة من شعر لبيد في مثل هذا المقام في الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ١٩٩ و ما بعدها .

٩- ترجمته في طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٦٢ والشعر والشعراء ١/ ٣٦٩ والأغاني ١٢٧٤ والإصابة ١/ ٢٤٩ .

١٠- صحيح مسلم كتاب الشعر ٤٨٧ و الأدب المفرد للبخاري ، باب من استنشد شعرا ص ١٨٦ .

وربما لا يخفى عن اللبيب وَقَعُ الفعل كَادَ أَنْ يُسْلِمَ ، فقد قارب هذا الشاعر أن يسلم، ولكنه أخلد إلى الأرض و اتبع هواه ، فَشِعْرُهُ شعرٌ من عرف الحقيقة لكنه أَعْرَضَ عنها ، وعرف الحق و عَبَّرَ عنه ، لكنه ظل يحوم حوله و لم يَلِجْهُ حتى هَلَكَ ، فقد قال عنه ابن سلام الجمحي : «وكان أمية بن أبي الصلت كثيرَ العجائب ، يذكر في شعره خلق السماوات و الأرض و يذكر الملائكة و يذكر من ذلك ما لم يذكره أحدٌ من الشعراء و كان قد شامَ أهلَ الكتاب .»^(١١) ، و زاد عن ذلك ابن قتيبة فقال : « و قد كان قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله جَلَّ وَ عَزَّ ، وَ رَغِبَ عن عبادة الأوثان ، و كان يُخْبِرُ بأن نبيًّا يُبعث قد أظل زمانه و يؤمل أن يكون ذلك النبي ، فلما بلغه خروجُ النبي ﷺ و قصته كَفَرَ حَسَدًا ، و لما أنشد رسول الله ﷺ شعره قال : آمن لسانه و كفر قلبه : و كان يحكي في شعره قصص الأنبياء و يأتي بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب يأخذها من الكتب المتقدمة .»^(١٢) ، و بالغ بدر الدين العيني فقال : « و قيل إنه كان صالحا .»^(١٣)

و هذا يعني أن النبي ﷺ لَمَسَ في شعر أمية إحساسا فطريا إنسانيا قريبا جدا من مشكاة الإسلام ، لذلك فهو حَرِيٌّ بأن يُسمع شعرُهُ و يُستزاد منه ، لأنه شعر يلامس الفطرة الإنسانية و هي تشاق إلى الحقيقة ، و تطمئن إليها حين تغشاها و تعيش في رحابها ، و لو أنه أسلم لَبَلَّغَ المدى ، خاصة و أنه شام أهل الكتاب كما قال ابن سلام ، و عدَّهُ لويس شيخو من خواص شعراء النصرانية في الجاهلية .^(١٤) و بالتالي فإنه كان أقرب إلى التوحيد منه إلى أي شيء آخر ، حتى إن شهاب الدين القسطلاني عَبَّرَ عن هذا المعنى فقال عنه : «لَمْ يُوفِّقْ للإيمان برسول الله ﷺ ، و كان يتعبد في الجاهلية و أكثرَ في شعره من التوحيد ، و كان غَوَّاصاً على المعاني مُعْتَبِياً بالحقائق ، و لذا اسْتَحْسَنَ ﷺ شعره و استزاد من إنشاده .»^(١٥)

١١ - طبقات فحول الشعراء ٢٦٢١-٢٦٣ .

١٢ - الشعر و الشعراء ٣٦٩١ ، و نقل عنه هذا الكلام صاحب الأغاني ١٢٧٤-١٢٨ .

١٣ - عمدة القارئ شرح صحيح البخاري ٢١ / ١٨٢ .

١٤ - شعراء النصرانية قبل الإسلام ، ٢١٩١ .

١٥ - إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٩ / ٩٠ .

وذهب ابن حجر العسقلاني إلى أن أمية « تَعَبَّدَ بِذِكْرِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَ الْحَنِيفِيَّةِ ، وَحَرَّمَ الْخَمْرَ وَتَجَنَّبَ الْأَوْثَانَ . »^(١٦) ، فكل هذا جعل من شعره حَدًّا مشتركاً بَيْنَ بَنِي الْإِنْسَانِ ، يترفع فيه عن دنيا الأمور، وعن عبادة الحجر، و يتلمس الطريق إلى الحنيفية الإبراهيمية ، لذلك لا عجب في أن نقرأ في شعره :

كُلُّ دِينٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ
إِلَّا دِينَ الْحَنِيفَةِ زَوْراً
أَوْ قَوْلُهُ : يَا رَبِّ لَا تَجْعَلْنِي كَافِراً أَبَداً
وَاجْعَلْ سَرِيرَةَ قَلْبِي الدَّهْرَ إِيمَانًا^(١٧)

فالشاعر الذي يتحدث عن يوم القيامة ، وعن الله تبارك و تعالی ، و الحنيفية ، و يناجي ربه ، و يهرب من الكفر ، و يتمنى الإيمان ، هو جدير بشعره أن يُسْمَعَ و يُنْشَدَ ، بل إن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال بأن « النبي ﷺ صَدَقَ أُمِيَّةٌ فِي شَيْءٍ مِنْ شِعْرِهِ ، فَقَالَ :

زُحَلٌ وَ ثَوْرٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ
وَ النَّسْرُ لِلْآخِرَى وَ لَيْثٌ مُرْصَدٌ
فقال النبي ﷺ : صَدَقَ ، وَقَالَ :

وَ السَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ
تَأْتِي فَمَا تَطْلُعُ لَنَا فِي رَسُولِهَا
فقال النبي ﷺ : صَدَقَ «^(١٨) .

وجملة القول ، فإن كفر أمية بن أبي الصلت وموته على ذلك ، لم يمنع النبي ﷺ من سماع شعره ، ولا من الاستزادة منه ، ولا من تصديقه أيضا في بعض منه ، لأنه ﷺ لَمَسَ فِي شِعْرِهِ نَزْوَعًا نَحْوَ الْحَقِيقَةِ ، وَ تَطْلُعًا ظَاهِرًا نَحْوَ رِحَابِ الْإِيمَانِ ، وَ هَذَا دَيْدَنُ كُلِّ إِنْسَانٍ يَنْتَابُهُ الْقَلْقُ ، عَاشَ فِي مِثْلِ الْبَيْئَةِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي عَاشَ فِيهَا ، تَتَقَاذَفُهُ أَمْوَاجُ الْحَيْرَةِ وَ التَّرْدَدِ ، وَهُوَ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ أَوْهَامِ جَزِيرَةِ

١٦ - الإصابة ٢٥٠ / ١ .

١٧ - جمع شعره الذي يتعبد فيه بهذه الطريقة لويس شيخو في شعراء النصرانية ٢١٩ / ١ ما بعدها ، و أورد له ابن إسحاق قصيدة رائعة في هذا الشأن ، راجعها في السيرة النبوية ١ / ٢٢٧-٢٢٨ .

١٨ - المسند للإمام أحمد ٤ / ٨٨ - ٨٩ ، طبعة مكتبة التراث الإسلامي ، و الحديث صحيح كما قال الشيخ أحمد محمد شاكر في هامش الصفحة المشار إليها ، و راجع المصنّف ٥ / ٢٧٢ ، و مجمع الزوائد ٨ / ١٢٧ .

العرب ، و الصحف المزورة لأهل الكتاب ، و قد بدأ يتلمس الطريق نحو الحق ، و لما طلع الفجر بمبعث النبي ﷺ ، عَمِيَتْ بصيرته ، فمات كافرا كما عاش ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (النور: ٤٠) .

و من هذه المواقف الإنسانية في السنة النبوية المطهرة ، ما صح عن النبي ﷺ من إنشاده بَعْضَ الأَشْطَرِ من مشهور الشعر الجاهلي دون ذكر أسماء الشعراء ، كما فعل ﷺ مع لبيد و أمية ، فقد صح عن عائشة رضي الله عنها أنه « قيل لها : هل كان النبي ﷺ يَتَمَثَّلُ بشيء من الشعر؟ قالت كان يتمثل بشعر ابن رواحة ويتمثل و يقول : وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ . » و عنها أيضا : « كان النبي ﷺ إذا اسْتَرَاتَ الخبر تمثل فيه بيت طرفة : وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ . »^(١٩)

و الظاهر من صيغة كلام عائشة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ كان يردد هذا الشطر إذا استرأت - أي اسْتَبْطَأَ - الْحَبْرَ ، و في صيغة الحديث لدى البخاري : « أحيانا إذا دخل بيته يقول : وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ . » ، و هو ﷺ يعلم أن طرفة بن العبد شاعر جاهلي مات مشركا ، و لكن ما دام هذا الشطر يحمل حكمة إنسانية تصدق على كل إنسان ينتظر خبرا ما ، فإن النبي ﷺ كان يرده أحيانا ، و لم يَحُلْ دونه كونه قَائِلَهُ غَيْرَ مُسْلِمٍ ، بل وكان مشركا ، خاصة و أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ حِكْمَةً . »^(٢٠) ، لأن هذا الشطر لا يحمل بصمات طرفة الشاعر فقط ، و إنما يحمل أيضا بصمات طرفة الإنسان الشاعر الذي أحس بالضعف الإنساني في معرفة ما يفوق قوته الإدراكية ، فَتَحَتَّمَ عليه أَنْتِظَارُ آتِ مَا ، فيخبره بما يجهل .

١٩ - الأدب المفرد ، باب و يأتيك بالأخبار من لم تزود" ص ١٧١ ، وفي بالشعر حسن كحسن الكلام ومنه قبيح ص ١٨٦ ، و رواه الترمذي في الشمائل المحمدية ص ٢٠٠ ، و قال فيه المحقق : حديث حسن أو أعلى ، وأورده الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة المجلد ٥ / ٨٩ - ٩٠ برقم ٢٠٥٧ .
٢٠ - رواه البخاري في صحيحه ، كتاب "الأدب" باب " ما يجوز من الشعر و الرجز و الخداء و ما يكره منه ، ٦٥٨ / ١٠ مع الفتح ، كما رواه في الأدب المفرد باب من الشعر حكمة ، ص ١٨٤ بلفظ : « إِنَّ مِنَ الْبَيِّنَاتِ سِحْرًا وَمِنْ الشَّعْرِ حِكْمَةٌ » ، و سيأتي التفصيل في صيغ هذا الحديث في مكانه من هذا البحث إن شاء الله تعالى .

ولكن المقاصد تختلف ، فكم من مُتَمَثِّلٍ بهذا البيت ، أو بهذا الشطر وحده في الجاهلية والإسلام ، لكن الفرق شاسع بين موقف وموقف ، ومَقْصِدٍ وآخر، وإن كان الجامع بينهم جميعاً أنهم بشر ضعفاء، وكلهم ينتظر من يأتيه بالخبر؛ لكن النبي صلى الله عليه وسلم وإن تمثل بهذا الشطر دون سواه، فإنه يصرفه مصارف شتى ، يختص بها ﷺ من دون سائر البشر، كانتظار الخبر من السماء ، فَيَعْلَمُهُ اللهُ عز وجل عن طريق جبريل عليه السلام بهذا الخبر أو ذاك ، وقد يرسل الرسول ﷺ بعض أصحابه الكرام في سرية أو دعوة أو قضاء فينتظر خبرهم ، وكم مرة سبق إليه ﷺ الخبر من قِبَلِ جبريل عليه السلام .

و هذا يعني أن المقاصد التي يُسْتَشْهَدُ لها بهذا الشطر، تختلف باختلاف الأشخاص ، لكن تجمع بينهم الإنسانية ، وتُفَرِّقُ بينهم المَقَامَاتُ ، ومقام النبوة التي اختصَّ بها النبي ﷺ أشرفُ مقام ، ومع ذلك لم يمنعه هذا المقام الشريف من الاستشهاد بهذا الشطر الذي أبدعه ذلك الإنسان المعروف بطرفة بن العبد .

و لكن ، ما تجدر الإشارة إليه، هو أن النبي ﷺ زَكَّى كلام لبيد ، واستنشد من شعر أمية ما لم يستنشده لأحد غيره من الشعراء ، لِمَا أثر عن هذين الشاعرين من نُزُوع نحو التبعُد في الجاهلية ، و لِمَا يطفح به شعرهما من معاني دينية عميقة تجسد تلك الرغبة الدفينة في أعماق الفطرة الإنسانية نحو التَّدِينِ والرجوع إلى الأصل الذي خُلِقَتْ من أجله أول مرة ، وهو التبعُد لله عز وجل دون سواه ؛ بينما هنا مع طرفة المعروف بالتهتك والعربدة ، أثر النبي ﷺ هذا الشطر من شعره دون سواه ، لِمَا فيه من تجسيد للضعف الإنساني، وللرغبة في معرفة ما حُجِبَ عن النفس لقصورها ونسبية المعرفة لديها ، وهو شطر مجرد من أي شحنة دينية أو أي سلوك لا يليق بالإنسان - أي إنسان - ، وبالتالي فهو شعر حَسَنٌ يستحق التَّمَثُّلَ به ، والشعر في حدِّ ذاته كلامٌ ، حَسَنُهُ كحسن الكلام ، و قبيحُهُ كقبيح الكلام ، كما صح ذلك عن النبي ﷺ... (٢١)

٢١- رواه البخاري في الأدب المفرد ، باب الشعر حسن كحسن الكلام ومنه قبيح ص ١٨٥ ، ورواه التبريزي في مشكاة المصابيح ٣ / ١٣٥٥ ، وقال عنه الشيخ الألباني إسناده حسن ، ثم إنه أورده في سلسلة الأحاديث الصحيحة المجلد ٢ القسم ٢ ص ٨٠٨ برقم ٤٤٧ ، وسيأتي الحديث عنه مفصلاً قريباً بإذن الله .

وكما تمثل النبي ﷺ بكلام طرفة ، تمثل أيضا يوم بدر بكلام الشاعر الجاهلي حصين بن الحُمَام بن ربيعة ، ففي أثناء حديثه عن معركة بدر ، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : « وقد روينا في مغازي الأموي أن النبي ﷺ جعل - هوَ و أبو بكر الصديق - يمشي بين القتلى و رسول الله ﷺ يقول : « نَفَلْتُ هَامًا » فيقول الصديق :

مِنْ رِجَالٍ أَعَزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَ أَظْلَمًا . « (٢٢) »

فالنبي ﷺ و هو يمشي بين جثث سَرَاةِ قريش و سَادَتِهَا من أتى عليهم يومُ بدر، يدرك جيدا أن هؤلاء ممن كان يُشَارُ إليهم بِالْبَنَانِ في بطاح مكة المكرمة ، و مع ذلك شاء الله عز و جل أن يُقتلوا شر قتلة و أخزأها، بعدما صمموا على محاربة الله و رسوله ﷺ ، و أصروا على العقوق و الظلم ، و جحود القرابة و الجوار الذي كان يربط بينهم و بين النبي ﷺ ، و بين كثيرٍ ممن حضر بدرًا من الصحابة رضي الله عنهم ، فهم و إن كانوا أعزة لسبب من أسباب القرابة أو غيرها ، إلا أنهم أَعَقُّ و أَظْلَم ، لمحاربتهم النبي ﷺ و أصحابه رضي الله عنهم ، فهم أعزة من جهة الدم و المنصب ، و لكنهم أذلة من جهة الظلم و العقوق ، فكان أن فُلِّقَتْ هامهم تفتيقاً ، فالحق و القتال دونه ، لا تحول بينه أواصر القرابة أو الدم ، حتى و إن كان العدو أبا أو أخا أو عمًّا أو سوى ذلك ، لأن الصراع ليس بين الأجساد و الصُّوَرِ و إنما هو بين القِيَمِ ، بين من يريد أن تكون العبادة في الأرض خالصة لله جل و علا ، و بين من يريد أن يجعلها شِرْكَاً تركبه الأهواء كيف تشاء .

و مع ذلك تستيقظ المشاعر الإنسانية حتى في مثل هذه المواقف ، فقد قال ابن إسحاق عن جثث المشركين : « و لَمَّا أمر رسول الله ﷺ أن يُلقُوا في القَلِيبِ ، أُخِذَ عَثْبَةٌ فَسُحِبَ فِي القَلِيبِ ، فنظر رسول الله ﷺ - فيما بلغني - في وجه أبي حذيفة ابن عتبة ، فإذا هو كئيب قد تَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، فقال يا أبا حذيفة ، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ أو كما قال ﷺ ، فقال : لا ، و الله يا رسول الله ، ما شككت في

٢٢ - البداية و النهاية المجلد ٢ الجزء ٣ ص ٣٠٩ . و راجع ترجمة الحصين بن الحمام في الإصابة ٢ / ٨٥ .

أبي ولا في مصرعه ، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً و حِلماً و فضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، و ذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجوه له ، أحزنتني ذلك ، فدعاه رسول الله ﷺ بخير ، و قال له خيراً «^(٢٣)» ، و لعل في هذه القصة خير شاهد على معاني هذا البيت الذي تمثل ببعض منه الرسول ﷺ ، و الملاحظ أن النبي ﷺ عَرَفَ بداية هذا الشاهد ومعناه ، لكنه لم يحسن إنشاده كاملاً ، و قد ثبت ذلك في كثير من المواطن مما تحدثت به الأحاديث الصحيحة ، فالتفت ﷺ إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه يَسْتَنْشِدُهُ البقية ، ففعل ؛ و أصل هذا البيت في نص بارع لهذا الشاعر الذي عاش في الجاهلية ، و مات ولم يدرك الإسلام^(٢٤) ، هو :

جَزَى اللَّهُ أَفْنََاءَ الْعَشِيرَةِ كُلِّهَا بَدَارَةَ مَوْضُوعٍ عُقُوقًا وَ مَأْتِمًا^(٢٥)

٢ - في الشعر المعبر عن المواقف الإنسانية :

إلى جانب ما رأيناه في تعامل النبي ﷺ مع بعض الموروث من الشعر العربي ، نجد في الحديث النبوي الشريف قمة الإنسانية النبيلة ، حيث تظهر الرقة و الرحمة و الشفقة التي لا حدود لها في تصرفات الرسول ﷺ في كثير من المواقف ، بمجرد أن يسمع بيتاً ، أو مقطعة شعرية نَفَثَ بها صدر إنسان ما ، و إن كان عدواً كافراً .

ففي غزوة حنين قال أبو جرويل زهير بن صُرْدِ الْجُسَمِيِّ : «لما أسرتنا رسول الله ﷺ

يوم حنين - يوم هوازن - و ذهب يُفَرِّقُ الشَّبَانَ و السَّبِيَّ ، أنشدته هذا الشعر :

أُمْنُنْ عَلَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي كَرَمٍ فَإِنَّكَ الْمَرْءُ نَرَجُوهُ وَ نَنْتَظِرُ
أُمْنُنْ عَلَيَّ بِيَضَّةٍ قَدْ عَاقَهَا قَدْرٌ مُفَرِّقًا شَمْلَهَا فِي دَهْرَهَا غَيْرُ
أَبَقْتُ لَنَا الدَّهْرَ هَتَّافًا عَلَيَّ حَزَنٌ عَلَى قُلُوبِهِمُ الْعَمَاءُ وَ الْعُمَرُ
إِنْ لَمْ تُدَارِكْهُمْ نِعْمَاءٌ تَنْشُرُهَا يَا أَرْجَحَ النَّاسِ حِلْمًا حِينَ يُحْتَبَرُ

٢٣ - السيرة النبوية ٦٤٠٢-٦٤١ .

٢٤ - نص على ذلك ابن قتيبة في الشعر و الشعراء ٥٤٢٢ و تابعه ابن حجر في الإصابة ٢ / ٨٥ .

٢٥ - راجع شعراء النصرانية قبل الإسلام ١ / ٧٣٦ ، و راجع هذا الشاهد في الشعر و الشعراء ٢ / ٥٤٢ .

أُمْنٌ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا
لَا تَجْعَلُنَا كَمَنْ شَأَلَتْ نَعَامَتَهُ
إِنَّا لَنَشْكُرُ لِلنَّعْمَاءِ إِذْ كُفِرَتْ
فَالَيْسَ الْعَفْوُ مَنْ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهُ
يَاخِيرَ مَنْ مَرَحَتْ كُمْتُ الْجِيَادِ بِهِ
إِنَّا نَوْمَلُ عَفْوًا مِنْكَ نَلْبَسُهُ
فَاعْفُ عَفَا اللَّهُ عَمَّا أَنْتَ رَاهِبُهُ
وَإِذْ يَزِينُكَ مَا يَأْتِي وَ مَا تَذُرُّ
فَاسْتَبِقْ مِنَّا فَإِنَّا مَعَشَرُ زَهْرٍ
وَ عِنْدَنَا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ مُدْخَرٌ
مِنْ أُمَّهَاتِكَ إِنْ الْعَفْوُ مُسْتَهْرٌ
عِنْدَ الْهَيَاجِ إِذَا مَا اسْتَوْقَدَ الشَّرُّ
هَادِي الْبَرِيَّةِ إِذْ تَعْفُو وَ تَنْتَصِرُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ يَهْدِي لَكَ الظَّفَرُ

فقال رسول الله ﷺ : نساؤكم و أبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا
يارسول الله خيرتنا بين أحسابنا و أموالنا ، بل أبناؤنا و نساؤنا أحب إلينا ، فقال
رسول الله ﷺ : أمّا ما كان لي و لبني عبد المطلب فهو لكم . (٢١)

فلا يخفى ما في النص من توسل و رجاء و انتظار و أمل أيضا ، فالشاعر ،
وقد وفد على رسول الله ﷺ ، ضمن وفد هوازن ، و قد تابوا و أسلموا ، يدرك
جيدا رقة و رحمة رسول الله ﷺ ، فالأمل في العفو كبير و لا شك ، لذا نراه يلح
على كلمات بعينها ، مثل أمْنٌ ، و اعْفُ و سواهما مما له بالغ الأثر في قلب رجل
عادي ، فكيف في قلب الذي هو نفسه رحمة للعالمين ﷺ ، و لم يكنف الشاعر
بذلك ، و إنما ذكر رسول الله ﷺ بأن ضمن السبي نساء كن ممن كفّل رسول الله
ﷺ حين كان مُسْتَرْضِعاً في بني سعد ، و هم من صميم قبيلة هوازن ، إمعانا منه
في استدرا عطف رسول الله ﷺ أكثر ، حين يُذكّره بأيام صباه في بني سعد ،
حيث كان يحاط ببالغ الحذب و العطف في كنف حليلة السعدية ، و هذا ما جعل
رسول الله ﷺ يبادر باختبار القوم بسؤالهم عن أي الأمرين أحب إليهم ، أموالهم

٢٦ - رواه الطبراني في المعجم الأوسط ، ٤٥ / ٥ ، و الحديث صحيح ، أورده الشيخ الألباني في سلسلة
الأحاديث الصحيحة ، المجلد ٧ القسم ٢ ص ٧٦٠-٧٦١ برقم ٣٢٥٢ ، و راجع القصة بأبياتها مع الحديث
النبوي الشريف في البداية و النهاية ، المجلد ٢ الجزء ٤ ص ٧٥٢-٧٥٣ ، و الكامل في التاريخ ، / ٦٣٠ ،
و أورد ابن إسحاق القصة دون الأبيات في السيرة النبوية ، ٤٨٨٤-٤٨١ .

أم نساؤهم ، وبمجرد أن قالوا نساؤهم و ذرايهم ، استيقن رسول الله ﷺ من صدق لهجة الشاعر ، فلم يكتفِ ﷺ بأن يهبَ لهم حقه في سبيهم ، وإنما حقه وحق بني عبد المطلب قاطبة ، ثم تتابع المهاجرون و الأنصار بالتنازل عن سهمهم في سبي هوازن ، ليتصرف فيه الرسول ﷺ كيف يشاء .

لكن الذي أحب أن يُلتفتَ إليه ، هو أن وفد هوازن اختار أن يلتمس العفو من رسول الله ﷺ بالشعر ، ليس من أجل التأثير على الرسول ﷺ حتى يعفو ويصفح ، فهو ﷺ أرق الناس و أرحمهم و أسرعهم إلى العفو بالشعر و بدونه ، وإنما للتعبير عن مشاعر أعضاء الوفد أنفسهم بما يعكس عواطفهم و أحاسيسهم بأبلغ الألفاظ و أحسنِ التعبيرات و أرقها ، و لا يكون ذلك إلا بالشعر ، و هذا ما نلمسه في كل ألفاظ النص ، وبخاصة حين وصل إلى قوله :

إِنَّا نُؤْمَلُ عَفْوًا مِنْكَ نَلْبَسُهُ هَادِي الْبُرْيَةِ إِذْ تَعْفُو وَ تَنْتَصِرُ
 حيث نُحِسُّ في فعل نَلْبَسُهُ رَوْعَةً في الأداء ، تَحْتَزِلُ كل الضعف الإنساني في قوم خسروا الحرب و خسروا أهلهم و أموالهم ، و لو قُتِلوا لخسروا دنياهم و أخرَاهُمْ ، فقد أصبحوا عراة من كل شيء ، و لن يَسْتَرْهُمْ اليوم إلا مَنْ جَبَلَتْهُ الْجَمْعُ بين العفو و الانتصار ، و من شيمته إذا غَلَبَ عَفَا ﷺ ، و يكفي هذا لتجسيد قمة التعامل الإنساني من جانب الرسول ﷺ بعدما بلغ الشاعر في أبياته قمة الأداء الشعري .

و هذه الأبيات التي قالها ابن صرد الجشمي ، تذكرُ بأبيات قالتها قُتَيْلَةُ بنت الحارث ترثي فيه أخاها النضر بن الحارث الذي كان قد أُسِرَ يوم بدر ثم قتل بعد ذلك ، حيث تقول :

يَا رَاكِبًا إِنَّ الْأَيْلَ مَطَّئَةٌ
 مِنْ صُبْحِ خَامِسَةٍ وَأَنْتَ مُوَفَّقٌ
 أُمَحَمَّدٌ يَا خَيْرَ ضِينٍ كَرِيمَةٍ
 فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرَقٌ
 مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرَبَّمَا
 مِنْ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيظُ الْمُحْتَقُّ
 أَوْ كُنْتَ قَابِلَ فِدْيَةٍ فَلْيُنْفِقْ
 بَاعِزٌّ مَا يَغْلُو بِهِ مَا يُنْفِقُ
 فَالْضَّرُّ أَقْرَبُ مَنْ أَسْرَتْ قَرَابَةٌ
 وَأَحَقُّهُمْ لَوْ كَانَ عِنُقٌ يُعْتَقُ

فلما بلغت النبي ﷺ هذه الأبيات قال: «لَوْ بَلَغَنِي هَذَا قَبْلَ قَتْلِهِ لَمَنْتُ عَلَيْهِ»^(٢٧)، فقد تأثر رسول الله ﷺ لهذه الأبيات التي تعبر عن نفس أنثى مكلومة قُتِلَ أقرب الناس إليها في أول صِدَامٍ دَامَ بين المسلمين والمشركين، فَرَفَّةُ رسول الله ﷺ، وشفقته، وتقديره لمشاعر الإنسان، حتى وإن كان من أعدائه، حملة على أن يقول: «لَوْ بَلَغَنِي هَذَا قَبْلَ قَتْلِهِ لَمَنْتُ عَلَيْهِ»، فالنبي ﷺ لا يقول إلا حقا وصدقا، فلرُبَّ بَلْغَتِهِ أبياتٌ شعريةٌ معدودة لَعَفَا بها على عدُوٍّ مشركٍ لَدُوْدٍ، فهل هناك إنسانية أكبر من هذه؟! حقا إنه ﷺ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ.

ولا يبقى الأمر عند هذا الحد، والمشاعر الإنسانية لدى رسول الله ﷺ لا تعرف الحدود، ما لم تُتَّهَكُ حرَمَاتُ الله عز وجل، فعن «ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا» أن رسول الله ﷺ بعث سرية فغنموا، وفيهم رجل، فقال لهم: إني لست منهم، عشقت امرأة فلحقتها، فدعوني أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا بي ما بدا لكم، فنظروا، فإذا امرأة طويلة أدماء، فقال لها: اسلمي حبيش قبل نفاذ العيش:

أَرَأَيْتَ لَوْ تَبِعْتُكُمْ فَاحِقْتُكُمْ
أَمَّا كَانَ أَهْلًا أَنْ يُنَوَّلَ عَاشِقٌ
فَلَا ذَنْبَ لِي إِذْ قُلْتُ إِذْ أَهَلْنَا مَعًا
أَثِيبِي بُوْدٌ قَبْلَ أَنْ يَشْحَطَ النَّوَى
بِحَلِيَّةٍ أَوْ أَدْرَكْتُكُمْ بِالْخَوَانِقِ
تَكَلَّفَ إِذْ لَاجَ السُّرَى وَالْوَدَائِقِ
أَثِيبِي بُوْدٌ قَبْلَ إِحْدَى الصَّفَائِقِ
وَيَأْتِي الْأَمِيرُ بِالْحَبِيبِ الْمَفَارِقِ

قالت: نَعَمْ فَدَيْتُكَ، فقدَّموه فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوفقت عليه، فسَهَقَتْ سَهَقَةً ثم ماتت، فلما قدموا على رسول الله ﷺ، أخبر بذلك، فقال: «أَمَّا فِيكُمْ رَجُلٌ رَحِيمٌ؟!»^(٢٨).

فكلام الرسول ﷺ بما فيه من استفهام وتعجب معا، يغني عن كل بيان،

٢٧- أورده الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية المجلد ٢ الجزء ٣ ص ٣٢٤-٣٢٥، وراجع السيرة النبوية لابن هشام ٤٢٣-٤٣، والعقد الفريد لابن عبد ربه ٢٤٣٥-٢٤٤.

٢٨- رواه الطبراني في المعجم الكبير ١١/٣٦٩، وفي المعجم الأوسط ٢/١٩٦، ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٥/٢٠١، والحديث صحيح، وقد أورده الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة المجلد ٦ القسم ١ ص ١٨٤، برقم ٢٥٩٤، وراجع القصة والأبيات في السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤٣٣-٤٣٤، وفي الإصابة ٥٠١٤ وفي البداية والنهاية المجلد ٢ الجزء ٤ ص ٧١٠-٧١١ وفي الكامل في التاريخ ٦٢٢١.

فالرجل ليس من القوم الذين أسرهم الصحابة رضي الله عنهم ، وهو غريب عنهم ، وما أَوْقَعَهُ فيما وقع فيه إلا عشقه لتلك المرأة و مَجِيئُهُ لرؤيتها ، وقد تكلف لذلك السُّرى بالليل والسَّيْرَ بالنهار رغم شدة حرِّه وَهَجِه ، و لما أشرف على مضارب قومها وقع فيما وقع ، ثم إنه قبل ذلك و بعده ، رجل كافر و لا شك ، ومع ذلك عاتب رسول الله ﷺ مَنْ كان في السرية من الصحابة بهذه العبارة المختصرة التي لها في القلب أبلغ الأثر « أَمَا فِيكُمْ رَجُلٌ رَحِيمٌ؟! » ، فقد أكد رسول الله ﷺ على الرحمة دون سواها من الألفاظ ، لأنها لفظة جامعة لكل المشاعر الإنسانية النبيلة التي ينبغي أن تُسْتَحْضَرَ في مثل هذه المواقف .

ورغم أن أبيات الشاعر بالغة الرِّقَّة و التَّأَثُّر ، و مَدْعَاةٌ للشفقة و الرحمة ، فإن كلام الرسول ﷺ جاء أَرْقَّ و أَوْقَع ، فبادل رِقَّةَ الشعر و تَأَثُّرَ الشاعر ، بما هو أَرْقُّ و أَبْلَغُ في مراعاة المشاعر و العواطف الإنسانية ، مما يؤكد تلك المنزلة السامية للقيم الإنسانية في السنة النبوية المطهرة ، وهي تنظر إلى مثل هذا الإبداع الشعري المتميز ، فقد كان أولى بتلك السرية أن تأتي بالرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم لينظر في أمره بنفسه ، ليقضي فيه بما يراه مناسبا ، تماما كما وقع لسرية أخرى بعثها النبي ﷺ فَأَسْرَتُ « رجلا من بني سليم ، يقال له الأَصِيدُ بن سلمة ، فلما رآه رسول الله ﷺ رَقَّ لَهُ وَ عَرَضَ عليه الإسلامَ فَأَسْلَمَ ، و كان له أبٌ شَيْخٌ كبير ، فبلغه ذلك فكتب إليه :

مَنْ رَاكِبٌ نَحْوَ الْمَدِينَةِ سَالِمًا حَتَّى يُبَلِّغَ مَا أَقُولُ الْأَصِيدَا
أَتْرَكْتُ دِينَ أَبِيكَ وَ السُّمَّ الْعُلَا أَوْدُوا وَ تَابَعْتَ الْغَدَاةَ مُحَمَّدَا

في أبيات ، قال : فاستأذن النبي ﷺ في جوابه ، فَأَذِنَ له ، فكتب إليه :

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بِقُدْرَةٍ حَتَّى عَلَا فِي مُلْكِهِ وَتَوَحَّدَا
بَعَثَ الَّذِي مَا مِثْلُهُ فِيَمَا مَضَى يَدْعُو لِرَحْمَتِهِ النَّبِيِّ مُحَمَّدَا

في أبيات ، فلما قرأ كتابَ وَلَدِهِ ، أقبل إلى النبي ﷺ ، فأسلم «^(٢٩)» فَرِقَّةُ رسول

الله ﷺ ورحمته بالناس ، عَضَدَ الإسلام و المسلمين برجلين ، إن لم نقل أكثر إن كان لهم أهلٌ ووكْدٌ ، و للشعر في ذلك ، بعد توفيق الله عز و جل ، دور مهم كما لا يخفى ، مما يعني أن مراعاة الأحاسيس و العواطف الإنسانية و الدفع في اتجاهها ، لا يزيد وجه الإسلام إشراقاً وجمالاً فقط ، و إنما يعود عليه بالنتفع و بالتمكن من قلوب الناس ، مما يدفعهم إلى الإقبال عليه إقبالا ، و الدخول فيه أفواجا .^(٣٠) ولن أبرح هذا البعد الإنساني - و قد ركزت عليه أكثر من سواه - دون أن أَلِمَّ إلماما ولو مختصرا ، بما سار عليه كبار الصحابة رضوان الله عليهم بعد وفاة النبي ﷺ ، و هم يتعاملون مع الإبداع الأدبي وفق ما كان عليه الهدي النبوي ؛ مما يعني ، أن هذه القيم الإنسانية في الإبداع و في التعامل معه أيضا ، كانت قد تأسست و تأصلت مع النبي ﷺ ، فظلت تجري ينبوعا صافيا في أصفى القرون و أنقاها .

فالشاعر كان يعبر عن أحاسيسه و عواطفه بكل حرية وفق الحدود الشرعية التي تنظم حياة الناس بمفهومها الشامل ، فكان الخلفاء الراشدون بعد وفاة النبي ﷺ يراعون هذه المشاعر و يقدرونها ، لأنهم رأوا النبي ﷺ قد وفَّاهم حقها من المراعاة و التقدير ، ولأن الذي يُعبّر عن هذه العواطف و الأحاسيس هو إنسان قبل كل

٣٠ - أحيل هنا على أبيات قالتها امرأة يوم دخول النبي ﷺ مكة المكرمة فاتحا - و قد نسبها ابن حجر إلى ضرار بن الخطاب بن مرداس في الإصابة ٣ / ٤٨٥ - و قد سمعت سعد بن معاذ ﷺ يقول وفي يده الراية: اليَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ ، اليَوْمَ تَسْتَحِلُّ الْحَرَمَةَ ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر بالراية فأخذت من سعد إلى ابنه قيس ، راجع بتفصيل البداية و النهاية المجلد ٢ الجزء ٤ ص ٦٩٠-٦٩١ ، كما أحيل على أبيات بالغة التأثير أوردها القرطبي في تفسيره ١٠ / ١٦٠-١٦١ ، و قد أنشدها رجل الرسول ﷺ ، لكن في سَنَدٍ رَوَيْتَهَا و رواية قَصَّتْهَا ضَعُفٌ ، و هي :

غَدُوْتُكَ مَوْلُوداً وَ مِثْكَ يَافِعاً
 إِذَا لَيْلَةٌ ضَافَتْكَ بِالسَّقَمِ لَمْ آتِ
 كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي
 تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي عَلَيْكَ وَإِنِّي
 فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي
 جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وَفِظَاظَةً
 فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَبْرَعْ حَقَّ ابْنِي
 فَأَذَلَّيْنِي حَقَّ الْجَوَارِ وَلَمْ تَكُنْ
 تُعَلِّ بِمَا أَجْنِي عَلَيْكَ وَتَنْهَلُ
 لِسْقَمِكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَّلُ
 طَرَفَتْ بِهِ دُونِي فَعَيْنِي تَهْمَلُ
 لَتَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ وَفَتَّ مَوْجِلُ
 إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أَوْسَلُ
 كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعِمُ الْمَتَفَضِّلُ
 فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُصَاقِبُ يَفْعَلُ
 عَلَيَّ بِمَالِ دُونَ مَالِكَ تَبْخَلُ

أما الحديث الذي يروى مع هذه الأبيات «أنتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ» فهو صحيح ، أورده الشيخ الألباني بمصادره في سلسلة الأحاديث الصحيحة دون ذكر هذه الأبيات ؛ المجلد ٦ القسم ١ ص ١٣٧-١٣٨ .

شيء ، فله أن يعبر عن مكنونه بكل حرية بمفهومها الإسلامي الواسع الرحب .
 فقد كان عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قد « تزوج عاتكة ،
 وكان بها مُعْجَباً فشغلته عن أموره ، فقال له أبوه : طَلَّقْهَا ، فَطَلَّقَهَا ، ثم نَدِمَ ، فقال :
 أَعَاتِكُ لَا أَنْسَاكَ مَا ذَرَّ شَارِقُ وَ مَا لَاحَ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ مُحَلَّقُ
 لَهَا خُلِقُ جَزَلٌ وَرَأْيٌ وَ مَنْصِبُ وَ خُلِقُ سَوِيٌّ فِي الْحَيَاةِ وَ مَصْدَقُ
 وَلَمْ أَرْ مِثْلِي طَلَقَ الْيَوْمَ مِثْلَهَا وَلَا مِثْلَهَا فِي غَيْرِ شَيْءٍ تَطَلَّقُ
 وله فيها غير هذا ، فَرَقَّ له أبو بكر ، فأمره بمراجعتها ، فراجعها ، ومات وهي
 عنده و لها مرثية . » (٣١)

فلاحظ الرقة هنا في كل شيء : رقة في العواطف و الأحاسيس ، و رقة رائعة
 في الإبداع و الألفاظ المعبر بها ، و أروع من ذلك كله ، رقة أبي بكر و ردُّ فعله ﷺ .
 فهذا الجليل الذي هذبه الإسلام ، و علّمه الرقة و الرحمة التي كانت السمة الأبرز
 في حياة الرسول ﷺ انسابت هادئة مع أبي بكر ﷺ ؛ فابنه عبّر في هذا النص ليس
 عن ندمه فقط ، وإنما عن عشقه و هيامه بعاتكة أيضا ، لكن الألفاظ المعبر بها ، في
 غاية الرقة و الحشمة و الوقار ، لا تَبْدُلُ فيها و لا تَهْتِكُ ، و كأنه يريد أن يعطي نموذجا
 في الغزل الإسلامي ، فوصف المرأة بالحُلُقِ الْجَزَلِ و بالرأي و بالحُلُقِ السَّوِيِّ .
 و هو تعبير بارع جداً . و بالصدق ، أجمل بكثير من الألفاظ النائية التي ملأت
 الساحة الإبداعية في الجاهلية ، و بعد صدر الإسلام إلى يومنا هذا ، و لم يخرج
 الإبداع من وراء ذلك بشيء ، سوى بتهييج عواطف المراهقين و بإدخال الشعر
 في ظلمات لا تنتهي .

فأمام هذه المشاعر المتميزة ، كان طبيعيا من أبي بكر ﷺ و هو الرقيق الحاشية
 الأسيْفُ الصوت ، اللين العريكة ، أن يرق قلبه لولده ، و أن يُقَدِّرَ إحساسه
 و مشاعره التي عبر عنها بهذا التنبُّل النادر ، فأمره أن يراجع عاتكة إكراما لهذا

الإحساس، و لهذا البهاء الشعري الذي كان سفيراً بينهما ، ونِعَمَ السفيرُ الشعْرُ
بين الوالد و ولده !

أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فإنه ما أبرم « أمراً قط إلا تمثل فيه بيت شعر »^(٣٢) ،
وقد كان يعجبه كثيرا قول الشاعر عبدة بن الطيب :

الْمَرْءُ سَاعَ لَأَمْرٍ لَيْسَ يُدْرِكُهُ وَ الْعَيْشُ شُحٌّ وَإِشْفَاقٌ وَ تَأْمِيلٌ^(٣٣)

و قصصه مع الشعراء كثيرة تناقلتها مصادر مختلفة ، حسبنا منها ما اشتهر بين
الناس ، مما يُظهِرُ رِقَّتَهُ رضي الله عنه ، وسرعة دمعته أمام كل موقف إنساني مؤثر
فيسارع إلى العفو و الرحمة و تلبية الطلب ، ما لم يكن انتهاكا لحرمة الله
تعالى .

فما اشتهر عنه رضي الله عنه أنه سجن الحطيئة حين هجا الزبرقان بن بدر، فقال
الحطيئة:

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرَحٍ زُغِبِ الْحَوَاصِلِ لَا مَاءً وَلَا شَجَرٍ
أَلَقَيْتَ كَأَسْبِهِمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فَأَغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ

فبكى عمر ، فشفع فيه عمرو بن العاص ، فأطلقه^(٣٤) ، و في لفظ ابن قتيبة « فَرَقَّ
له عمر و خَلَّى سبيله ، وأخذ عليه ألا يهجو أحدا من المسلمين »^(٣٥) . فرغم شناعة
ما اقترفه الحطيئة ، إلا أن عمر أثر إطلاق سراحه ، ليس إشفاقا عليه فيما أعتقد ،
وإنما إشفاقا على أطفاله الصغار و خشية عليهم من الضياع بعد سجن والدهم ،
لذلك بكى عمر رضي الله عنه وَ رَقَّ له قلبه ، و أطلقه بعد سماعه لهذين البيتين المؤثرين
فعلاً ، بحسن اختيار اللفظ و جودة الإيقاع ، و مع ذلك فقد أخذ عليه ألا يهجو
أحدا من المسلمين .

و هذه الرقة اجتاحت عمر رضي الله عنه في موقف آخر أشد تأثيرا من هذا ، فلما خرج

٣٢ - بهجة المُجَالِسِ و أنسُ المُجَالِسِ ، ابن عبد البر المجلد ١ القسم ١ ص ٣٧ .

٣٣ - نفسه المجلد ١ القسم ١ ص ١١٧ ، و العقد الفريد ٥ / ٢٤٦ .

٣٤ - الإصابة ٢ / ١٧٧ ، وديوان الحطيئة ١٩١-١٩٢ و طبقات فحول الشعراء ١ / ١١٤ و الأغاني ٢ / ١٧٩ .

٣٥ - الشعر و الشعراء ١ / ٢٤٥ .

شيبان بن المخبل السعدي بعد أن هاجر في خلافة عمر مع سعد بن أبي وقاص إلى حرب الفرس «جزع عليه أبوه و كان قد أَسَنَّ و ضَعْفَ و كاد يُغَلَبُ على عقله ، فعمد إلى ماله لبيعه ويلحق بابنه ، فمنعه علقمة بن هوذة و أعطاه فَرَساً و قال له : أنا أكلم لك عمر في رد ابنك ، وتوجه إلى عمر و أنشده قول المخبل :

فَإِنْ يَكُ غُصْنِي أَصْبَحَ الْيَوْمَ بَالِيَا وَغُصْنُكَ مِنْ مَاءِ الشَّبَابِ رَطِيبُ
إِذَا قَالَ صَحْبِي يَا رَبِّيعُ أَلَا تَرَى أَرَى الشَّخْصَ كَالشَّخْصَيْنِ وَهُوَ قَرِيبُ
قال : فبكى عمر رقة له ، و كتب إلى سعد أن يُفْلَهُ ، فانصرف شيبان إلى أبيه ، فكان معه حتى مات «(٣٦) . فالرجل يشكو من كل شيء ، من الضعف و الكِبَرِ والشوق إلى الولد و سوى ذلك ، فكان طبيعياً أن تؤثر حالته في عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، ولو في ظرف صعب يتمثل في الجهاد في سبيل الله ، فعبر عن رفته و شدة تأثره بالبكاء أولاً ، ثم بأمره سعداً بإقفال الولد ليجاهد في والده لأنه أَوْلَى بالجهاد .

ولا يتوقف عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند هذا الحد ، وهو يراعي أحاسيس الناس و عواطفهم ، وإنما يتجاوز إلى مراعاة حق الناس حتى في صرف شهواتهم فيما يرضي الله سبحانه ، قال الإمام السيوطي : « و روينا من غير وجه أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة ، و كان يفعل ذلك كثيراً ، إذ مرَّ بامرأة من نساء العرب مُغْلَقاً عليها بابها ، وهي تقول :

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ تَسْرِي كَوَاكِبُهُ
فَوَ اللَّهُ لَوْ لَا اللَّهُ تُحَسِّي عَوَاقِبُهُ
وَلَكِنِّي أَخْسَى رَقِيباً مُوَكَّلَاً
وَ أَكْرَمُ بَعْلِي أَنْ تُنَالَ مَرَاتِبُهُ » (٣٧)

٣٦- الإصابة ٣ / ٣٩٠ و أعاد القصة نفسها في المصدر نفسه ٧ / ٢١٤ ، وذكرها ابن قتيبة أيضاً في الشعر و الشعراء ١ / ٣٣٣ ، وأورد ابن حجر قصصاً مماثلة لهذه وقعت لعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مع خراش بن أبي خراش الهذلي ٢ / ٣٥٩ و مع أمية بن أبي الأسكر ١ / ١١٧ و هذه القصة الأخيرة أوردتها أيضاً ابن سلام في طبقات فحول الشعراء ١ / ١٩١ .

٣٧- تاريخ الخلفاء ص ١٦٥ .

فهذه الأبيات وما ترتب عليها من الأحكام الشرعية - حيث « كتب عمر رضي الله عنه إلى عَمَّالِهِ بِالْغَزْوِ وَأَنْ لَا يَغِيبَ أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ »^(٣٨) - ومما حملته من قيم إنسانية نبيلة ، تكفي للإحساس بالطُّهْرِ وبالْعَفَافِ في هذا الجيل الذي رباه الرسول ﷺ ، فالمرأة عبرت عن مشاعرها بكل صراحة ، لكن مع كامل العفة والبراءة ، لأن الرادع عن إتيان الفاحشة رغم قوة الغريزة وقوة دواعيها مع الوحدة وطول الغياب ، ينبع من داخلها المفعم بخشية الله تعالى ، وبعلمها برقابته سبحانه ، ناهيك عن تحليها بالحياء والأنفة في أن تُوطئَ فراشها ما يُقدحُ في كرامة الزوج المجاهد في سبيل الله ، حِفْظاً لَهُ فِي غَيْبَتِهِ .

كل هذا الطهر والعفاف في هذه الأبيات ، بآدلة عمر رضي الله عنه بشعور إنساني نبيل يجمع بين تقدير عواطف هذه المرأة ، ومن خلالها عواطف جميع نساء المسلمين وبين ضرورة الحفاظ على أخلاق المجتمع المسلم وقيمه ، للحيلولة دون كل منافذ التفسخ والانحلال .

ب - البعد الفطري :

و هذا البعد مرآة تنعكس فيه الطبيعة السَّوِيَّةُ للإنسان المبدع ، بما تجسده من تمييز دقيق بين القول الحسن الذي تميل إليه حِبْلَةُ الْإِنْسَانِ السَّوِيِّ و فِطْرَتُهُ ، وبين القول الفاسد الرديء الذي تنفر منه هذه الفطرة تلقائياً ، صِيَانَةً لِمُرُوءَتِهَا وَلِطَهَارَتِهَا الَّتِي فُطِرَتْ عَلَيْهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ .

فقد روى البخاري أن الرسول ﷺ قال : « الشَّعْرُ بِمَنْزِلَةِ الْكَلَامِ ، حَسَنُهُ كَحَسَنِ الْكَلَامِ وَ قَبِيحُهُ كَقَبِيحِ الْكَلَامِ »^(٣٩) ، فالرسول ﷺ يحدد ماهية الشعر بدقة متناهية ، إنه مجرد كلام ، فإن كان مما يستحسنه الشرع الذي ينطق بلسان الفطرة الإنسانية التي فطر الله عز وجل الناس عليها أول مرة ، فهو حسن ، و ما استقبحه الشرع

٣٨ - المصدر السابق ص ١٦٥ و ١٦٨ .
٣٩ - حديث صحيح سبقت الإشارة إليه .

وَمَجَّةُ الذَّوْقِ السَّوِيِّ ، والطبع الإنساني السليم فهو قبيح ، أما الخصائص الفنية ،
فذلك مما يتميز به كل طرف .

لذلك ، فإنَّ لِلْمِعْيَارِ الفطري أهميته الخاصة في تعامل السنة النبوية مع الإبداع
الأدبي ، وهذا بارز جدا في أمثلة - على قَلَّتْهَا - أُثِرَتْ عن النبي ﷺ فيما استمع إليه
من شعر ، أو فيما أُثِرَ عن كبار الصحابة رضي الله عنهم ، فعن ثابت بن خالد ،
قال : « كنت عند ابن عمر ، فوقف عليه إياس بن خيثمة ، قال : ألا أنشدك شعراً يا
ابن الفاروق ؟ قال : بلى ولكن لا تُتَشِدَّنِي إِلَّا حَسَنًا ، فَأَنْشُدُهُ ، حتى إذا بلغ شيئاً
كَرِهَهُ ابن عمر ، قال له : حَسْبُكَ . »^(٤١)

فكما أن هناك مسؤولية في إبداع الكلمة ، فكذلك هناك مسؤولية في سماعها ،
و الغربال في ذلك هو الفطرة الإنسانية السليمة ، فعبد الله بن عمر رضي الله عنه أجاب
الشاعر إلى طلبه ، لكنه اشترط عليه ألا يسمعه من الشعر إلا ما كان حَسَنًا ، ولما بلغ
ما استكرهه منه ، أمره بالكف عن الإنشاد ، لأنه عدلَ عن الشعر الحسن إلى ما
سواه ، وهذا هو الهدى الذي كان عليه الرعيل الأول من الصحابة ، وهم
يؤسسون في خير القرون ، لما ينبغي أن يكون عليه الإبداع الأدبي في ظل الدين
الإسلامي الحنيف ؛ وعن عبد الله بن السَّخَّير ، قال : « صحبت عمران بن الحصين
من البصرة إلى مكة ، فكان يُنْشِدُ كل يوم شعراً ، ثم قال : إن الشعر كلامٌ ، وإن
من الكلام حَقًّا و باطلاً »^(٤٢) ، وعلى هذا أيضا سار التابعون لهم بإحسان ، ليظل
البعد الفطري هذا ، هو الفيصل في التمييز بين حسن الشعر وقبيحه ، فقد أنشد
ابن سيرين شعرا « فقال له بعض جلسائه : مثلك ينشد شعرا يا أبا بكر؟ فقال :
وَيْلَكَ يَا لُكْعَ ! وهل الشعر إلا كلام لا يخالف سائر الكلام إلا في القوافي فَحَسَنُهُ
حَسَنٌ و قَبِيحُهُ قَبِيحٌ »^(٤٣) .

٤٠ - الأدب المفرد ، باب من الشعر حكمة ص ١٨٤ .

٤١ - شرح السنة للإمام البَغَوِي ٣٦٩ / ١٢ ، ورواه البخاري في الأدب المفرد وزاد عليه : إن في معارض
الكلام لمندوحة عن الكذب ، باب المعارض ص ١٨٩ وروى ابن أبي شيبة في المصنف ٥ / ٢٨٢ هذه
الزيادة دون ذكر الحديث الذي تقدمه .

٤٢ - تفسير القرطبي ٩٩ / ١٣ .

وإني أسوق هذا الكلام ، وأنا أتحدث عن هذا البعد الفطري ، مع الاستشهاد بحديث الرسول ﷺ و بعمل الصحابة و التابعين . قبل إيراد أمثلة تطبيقية لهذا كله . لأن هناك من المفسرين من حمل حملة شعواء على الشعر كله ، فَصَنَّفَهُ كُلَّهُ فِي خَازِنَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَبَنَى عَلَى ذَلِكَ أَحْكَاماً مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ ، خَاصَّةً وَأَنْ مَكْرَةً الْمُسْتَشْرِقِينَ وَ مِنْ تَابِعِهِمْ مِنَ الدَّارِسِينَ الْعَرَبِ الْمُحَدِّثِينَ ، اسْتَغْلَوْا تِلْكَ الْآرَاءَ ، فَاتَّخَذُوهَا حُنْدُقاً يَطْعَنُونَ مِنْ وَرَائِهِ فِي خَاصِرَةِ الْإِسْلَامِ وَ مَوْقِفِهِ مِنَ الْإِبْدَاعِ الشَّعْرِيِّ .

وحسبي أن أورد من آراء أولئك المفسرين ما نراه يصب في صميم هذا البعد الفطري ، للتأكيد على أن التغاضي ، مهما يكن يسيراً ، عن السنة النبوية الشريفة يجلب شراً مستطيراً لا يمكن دَرُؤُهُ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفَسِ ، مِنْ ذَلِكَ مِثْلًا ، قَوْلُ الْفَيْرُوزْآبَادِيِّ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ مَوْقِفِ مُشْرِكِي مَكَّةَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ : « وَ إِنَّمَا رَمَوْهُ بِالْكَذِبِ ، فَإِنَّ الشَّعْرَ يَعْبَرُ بِهِ عَنِ الْكَذِبِ ، وَالشَّاعِرُ : الْكَاذِبُ ، حَتَّى سَمَّوْا الْأَدْلَةَ الْكَاذِبَةَ الْأَدْلَةَ الشَّعْرِيَّةَ ، وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ عَامَةِ الشُّعْرَاءِ : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، وَ لَكُنْ الشَّعْرُ مَقْرَأً لِلْكَذِبِ ، قِيلَ : أَحْسَنُ الشَّعْرِ أَكْذَبُهُ ، وَ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : لَمْ يَرِ مُتَدِينٌ صَادِقٌ اللَّهْجَةَ مُفْلِقًا فِي شِعْرِهِ » ،^(٤٣) وَ ذَهَبَ الْأَلُوسِيُّ الْمَذْهَبُ نَفْسَهُ ، فَقَالَ بَأَنَّ « الشَّعْرَ تَخِيلَاتٍ مُرْغَبَةٌ أَوْ مُنْفَرَةٌ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ ، وَهُوَ مَقْرَأُ الْكَاذِبِ ... يَدْعُو إِلَى تَغْيِيرِ الْمَعْنَى لِمُرَاعَاةِ اللَّفْظِ وَ الْوِزْنِ وَ لِأَنَّ أَحْسَنَهُ الْمُبَالِغَةُ وَ الْمَجَازِفَةُ وَ الْإِغْرَاقُ فِي الْوَصْفِ ، وَ أَكْثَرُهُ تَحْسِينٌ مَا لَيْسَ بِحَسَنٍ وَ تَقْيِيحٌ مَا لَيْسَ بِقْيِيحٍ ، وَ كُلُّ ذَلِكَ يَسْتَدْعِي الْكَذِبَ أَوْ يَحَاكِيهِ الْكَذِبُ »^(٤٤) ؛ وَ هَذَا الرَّأْيُ مُسْتَعْرَبٌ ، وَ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الْكَرِيمَةُ الَّتِي تَحَدَّثُ عَنِ الشَّعْرِ وَ الشُّعْرَاءِ وَاضِحَةٌ جَدًّا ، وَ أَحَادِيثُ الرَّسُولِ ﷺ بَيِّنَةٌ كُلُّ شَيْءٍ ، وَ قَدْ

٤٣ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٣ / ٣٢٤ .

٤٤ - روح المعاني ٢٢ / ٤٦-٤٧ ، وَ رَاجِعْ أَيْضًا أَضْوَاءَ الْبَيَانِ لِلشَّيْخِ الشَّنْقِيطِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ ٦ / ٢٦١ .

تحدثنا عن كثير منها وسيأتي منها غيرها ، ومع ذلك يذهب بعض المفسرين هذا المذهب ، مثلهم في ذلك مثل بعض المفسرين الآخرين الذين لا يَرَوْنَ الشعر مباحاً إلا إذا اشتمل على الذكر والزهد وسائر المواعظ مما لا إفراط فيه ، أو أن يكون في التوحيد و الثناء على الله سبحانه والحث على الطاعة والحكمة و الزهد في الدنيا و الترهيب من الركون إليها و الاغترار بها ^(٤٥).

ولعل الموقف العَدَل ، هو موقف جمهور المفسرين الذين رأوا بأن الشعر إذا خلا من الإيمان كان أصحابه غَاوِينَ ، يُغْلُونَ في المدح فيكذبون و يذمُّون فيظلمون ^(٤٦) وأعدل الأقوال في هذا الباب ، ما ذهب إليه ابن عطية حين فسَّرَ قوله تعالى من سورة الشعراء الآية ٢٢٣ ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ فقال : « و كل شاعر في الإسلام يهجو أو يمدح بغير حق و يقذف و لا يرتدع عن قول دنيء ، فهو داخل في هذه الآية ، و كل تَقِيٍّ منهم يُكثِرُ من الذكر و يمسك عن كل ما يُعَابُ فهو داخل في الاستثناء » ^(٤٧).

وقد أحسن و أجاد حين حصر المقصود بقوله تعالى في هذه الآية الكريمة بقوله : « و يدخل في الآية كل مُخَلِّطٍ يهجو أو يمدح شَهْوَةً و يقذف المحصنات و يقول الزور » ^(٤٨) ، و هذا هو الموافق للسنة المطهرة و لأقوال و أفعال الصحابة و التابعين لهم بإحسان ، وهو المعبر أيضا عن صميم البعد الفطري الذي نحن بصددده ، فكل ما يَمُجِّهُ الذوق السَّوِيُّ السَّلِيمُ و يَعْيِيهِ ، فهو داخل في القول القبيح ، و كل ما يستحسنه و يستجيده ، لأن الشرع الحكيم استجاده فهو حسن و جيد ، و لا يهم بعد ذلك الموضوع الذي أبدع فيه الشاعر ما دام يستضيء بنور الإيمان في إبداعه ، و لا خَوْفَ عليه ما دام تقوى الله عز وجل يسري في عواطفه و أحاسيسه

٤٥ - عمدة القارئ ٢١ / ١٨٩ وروح المعاني ١٤٧١٩ و إرشاد الساري ٩ / ٨٨-٨٩ ، و كلهم في ذلك تَابَعُوا الزمخشري في الكشف ٣ / ١٣٣ .

٤٦ - شرح السنة للبخاري ١٢ / ٣٨٠ ، و تفسير الطبري ١٩ / ٧٨ ، و تفسير القرطبي ١٣ / ١٠١ و تفسير الماوردي ٤ / ١٨٩ و فتح البيان في مقاصد القرآن ٥ / ١٠٧ و الكشف ٣ / ١٣٣ و تفسير ابن كثير ٣ / ٣٤٢ / ٣٤٣ .

٤٧ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ص ١٤١١ .

٤٨ - المصدر السابق ص ١٤١١ و قريب من هذا قول الزجاج في معاني القرآن و إعرابه ٤ / ١٠٥ .

، لأن الشعر كما قال أبو بكر ابن العربي « لَيْسَ يُكْرَهُ لِدَاثِهِ وَإِنَّمَا يُكْرَهُ لِمَتَّضَمَّنَاتِهِ »^(٤٩)؛ وعليه ، فالمدحوم من الشعر يظل مذموماً أبداً في ذوق المتلقي المؤمن التقيّ ، لأن التكلّم والإبداع فيه كان أصلاً مبنياً على الباطل رغبةً في تسليّة النفس ، وتحسيناً للقول القبيح^(٥٠) .

فالشاعر المسلم إنسانٌ كسائر الناس ، يحس كما يحسون ويشعر كما يشعر ، ويجد رغبة في القول كلما نزعَتْ نفسه نحو الإبداع ، كما قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة حين عاتبه ابن شهاب الزهري قائلاً : « تقول الشعر في نسكك وفضلك ! فقال : إن المصدور إذا نَفَثَ بَرّاً »^(٥١) ، لكنّ هذا النَفَثُ أو هذا الإبداع ، ينبغي أن يكون من صميم الفطرة الإنسانية ، عنها يصدرُ وإليها يعود ، فلا يدعُ موضوعاً حسناً إلا وخاض فيه بالقول الحسن ، وما وجد موضوعاً قبيحاً إلا واستنكف أن يقع فيه .

فإذا كان المفهوم من قوله تعالى في وصف الشعراء المشركين بأنهم ﴿ أَلْمَرَّةُ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ هو أنهم « في كلِّ فنٍّ يفتنون »^(٥٢) ، بحيث لا يدعون منكراً من القول إلا وتفننوا فيه بغوايتهم وضلالهم ، فإن على الشعراء المؤمنين أيضاً أن يتفننوا في كلِّ فنٍّ وكلِّ موضوع مهتدين بإيمانهم الذي أباح لهم التعبير عن كل طيب من المواضيع بالكلمة الطيبة . ولنا في سنة الرسول ﷺ الأسوة الحسنة ، فكان عليه الصلاة والسلام إذا سمع شعراً حسناً ، انطلقت أساريه ﷺ ، وإذا سمع غيره ولو في النص الواحد ، عُرفَ ذلك في وجهه الشريف .

من ذلك مثلاً ، ما حدّث به عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، أنه لَمَّا مَثَلَ بين يدي الرسول ﷺ وسأله كيف يقول الشعر: « قلت : أنظرُ في ذلك ثم أقول ، قال : فعليك بالمشركين ، فلم أكن أعددت شيئاً ، فأنشدته ، فلما قلت :

٤٩ . أحكام القرآن ٣ / ٤٦٢ وأخذ القرطبي بهذا القول في تفسيره ١٣ / ١٠١ .

٥٠ . أحكام القرآن ٣ / ٤٦٥ .

٥١ . تفسير القرطبي ١٣ / ٩٩ ، وراجع أيضاً قوله في المصنف لابن أبي شيبة ٥ / ٢٧٨ .

٥٢ . تفسير القرآن العظيم لأبي حاتم الرازي ٩ / ٢٨٣٢-٢٨٣٣ وتفسير الطبري ١٩ / ٧٧ .

فَخَبَّرُونِي أَثْمَانَ الْعَبَاءِ مَتَى
 كُنْتُمْ بِطَارِيقٍ أَوْ دَانَتْ لَكُمْ مُضْرٌ
 قال : فَكَأَنِّي عَرَفْتُ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْكِرَاهَةَ ، إِذْ جَعَلْتَ قَوْمَهُ أَثْمَانَ
 الْعَبَاءِ فَقُلْتُ :

يَا هَاشِمَ الْخَيْرِ إِنَّ اللَّهَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْبَرِيَّةِ فَضْلاً مَا لَهُ غَيْرُ
 إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ أَعْرَفُهُ فِرَاسَةً خَالَفَتْهُمْ فِي الَّذِي نَظَرُوا
 وَلَوْ سَأَلْتُ أَوْاسْتَنْصَرْتُ بَعْضَهُمْ فِي جُلِّ أَمْرِكَ مَا أَوْأَوْ وَمَا نَصَرُوا
 فَثَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ تَثَبَّتْ مُوسَى وَنَصَرًا كَالَّذِي نَصَرُوا

فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ مُتَبَسِّمًا ثُمَّ قَالَ : وَأَنْتَ فَثَبَّتَكَ اللَّهُ يَا ابْنَ رَوَاحَةَ « (٥٣)

فموضوع النصر كما هو بيّن في هجاء المشركين ومدح النبي ﷺ ، ومع ذلك حين أحس عبد الله بن رواحة بأنه لم يوفّق التوفيق كله في اختيار اللفظ المناسب في الهجاء ، عَرَفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فاضطر إلى البحث عن الأفضل والأحسن ، فوفّق في ذلك ، فعرف ذلك أيضا في وجه النبي ﷺ مرة أخرى ؛ وهذا يعني أن النبي ﷺ بانقباضه لما سمع ما كرهه ، و سروره و دعائه للشاعر لما سمع الحسن والجيد ، يعلم كلّ شاعر مسلم أن ينهج هذا النهج في الإبداع و القول الشعري ، حتى في التعامل مع العدو كما سنرى ، فانضباط اللسان بالحسن من القول أمرٌ مطلوب شرعاً ، كما أن القبيح منه مرفوض أيضا ، لأن الفطرة الإنسانية السويّة السليمة تستحسنه إذا كان حسنا، وتستكرهه إذا كان قبيحا ، كما هو بيّن في ردّ فعل النبي ﷺ مع عبد الله بن رواحة ، وكما فعل ﷺ مع كعب بن مالك حين مرّ به وهو ينشد :

أَلَا هَلْ أَتَى غَسَّانَ عَنَّا وَدُونَهُمْ
 مِنْ الْأَرْضِ حَرَقٌ حَوْلَهُ يَتَّبِعُ
 تُجَالِدُنَا عَنْ حُرْمِنَا كُلِّ فَحْمَةٍ
 كَرَدَفٍ لَهَا فِيهَا الْقَوَابِسُ تَلْمَعُ
 « فقال النبي ﷺ : لا يا كعب بن مالك ، فقال كعب : تُجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا كُلِّ

٥٣ - مجمع الزوائد ٨ / ١٢٤ - ١٢٥ ، وقد قال الهيثمي عن هذا الحديث : رجاله ثقات إلا أن معد ابن عمارة لم يدرك ابن رواحة وراجع أيضا طبقات فحول الشعراء ١ / ٢٢٦ .

فَحَمَّةٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : نعم ، يا كعب . « (٥٤) ، فحين أخفق كعب في اختيار اللفظ الحسن ، قال له النبي ﷺ : لا ، و حين وُفِّقَ ، قال له النبي ﷺ : نعم ؛ وهذا ما نلمسه أيضا في قول النبي ﷺ لحسان بن ثابت « أَحْسِنُ يَا حَسَانَ ! أَتَشَوَّهْتَ عَلَيَّ قَوْمِي أَنْ هِدَاهِمُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ !؟ » وذلك إثر الذي جرى بينه وبين صفوان بن المعطل . (٥٥) ؛ ولما « وَفَدَ قَرَدَةٌ بِنُفَاثَةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَبَايَعَهُ فَقَالَ : اسْمِعْ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَأَنْشُدُهُ :

بَانَ السَّبَابُ فَلَمْ أَحْفَلْ بِهِ بَالًا وَأَقْبَلَ الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ إِقْبَالَ
وَقَدْ أُرْوِي نِدْمِي مِنْ مُسْعَسَعَةٍ وَقَدْ أَقْلَبُ أَوْزَاكَ وَأَكْفَالَ
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجَلِي حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرْبَالَ
فقال له النبي ﷺ : « الحمد لله الذي عَرَّفَكَ الْإِسْلَامَ وَجَعَلَكَ مِنْ أَهْلِهِ » (٥٦) ، فالنفس السوية ترتاح لمثل هذا الكلام البارع الذي يصور فيه الشاعر نفسه وهو ينسلخ من الشباب الداعر الفاجر ، ويتسريل بهدى الإسلام مع إقبال الشَّيْبِ ، إعلانا بَطِيٍّ صفحة الجاهلية وفتح الصفحة الإسلامية ، حتى إن المتلقي ليحس من خلال بهاء اللفظ و حسن إيقاع النص ، بالانطلاق الذي يعترى النفس و هي تَنْشَطُ مِنْ عِقَالٍ وَتَهْتَدِي بَعْدَ حَيْرَةٍ وَتِيهِ .

فالنبي ﷺ أثنى على هذا الكلام الحسن ، و على السبيل الذي اختاره الشاعر ، لأن تَحَوُّلَ الْفِرْدِ فِي سَلُوكِهِ يَسْتَتِيعُ بِالضَّرُورَةِ تَحْوِلاً فِي طَرِيقَةِ تَعْبِيرِهِ ، حتى وإن وَرَدَتْ الْمَفْرَدَاتُ نَفْسَهَا الَّتِي كَانَ يَقُولُهَا زَمَنَ الْغَوَايَةِ ؛ فِي الْإِبْدَاعِ الَّذِي يَقُولُهُ بَعْدَ الْهَدَايَةِ وَ الرَّشْدِ ؛ كَالْخَمْرِ وَالْقِيَانِ وَ مَا إِلَى ذَلِكَ ، لِأَنَّ الْجَوْ إِيمَانِي الَّذِي يَغْمُرُ النَّصَّ ، جَعَلَهُ يَكْتَسِي بِحَلَّةٍ جَدِيدَةٍ الْحَيَاةَ الَّتِي وَلَجَهَا الشَّاعِرُ وَ

٥٤ - رواه الطبراني في المعجم الكبير ٩٧ / ١٩ ، والحديث قال عنه الهيثمي: إسناده حسن . مجمع الزوائد ١٢٤ / ٨ .

٥٥ - السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٣٠٤ والبداية والنهاية م ٢ ج ٤ ص ٥٥٠ والكامل في التاريخ ١ / ٥٨٢ .
٥٦ - الإصابة ٤٣٠٥ ، و الْمُسْعَسَعَةُ : الْحَمْرُ الْمَمْرُوجَةُ بِالْمَاءِ ، وَ أَوْزَاكَ ، ج : وَرَكٌّ وَهُوَ مَا فَوْقَ الْفَخْدِ ، وَيَقْصِدُ أَعْجَازَ النَّسَاءِ ، وَ الْأَكْفَالُ ، ج : كَفَلٌ وَهُوَ الْعَجْزُ ، أَوْ رِذْفُ الْعَجْزِ .

اكتسى بها، أو تسربل بها على حد تعبيره .

و عليه فإنه من خلال هذه الشواهد التي أوردناها ، يتبين لنا بأن الرسول ﷺ يريد من الشعر أن يكون كلاماً حَسَنًا، يتناسب و يتناسق مع الفطرة الإنسانية التي تأنس للطَّيِّبِ من القول و ترتاح له و تستبشر به ، بقدر ما تنفر من القبيح و تَشَمَّرُ منه و تَزَوَّرُ عنه ، وهذا هو النهج الذي سار عليه الخلفاء الراشدون والصحابة رضي الله عنهم و شددوا على ضرورة الالتزام به ، دَرَأَ لِمَظَنَّةِ الانحراف و البذاءة في الذوق الشعري ، مما من شأنه أن يهدد البنيان الثقافي للمجتمع الإسلامي .

و حسبنا من ذلك مثالٌ و احدٌ . تفاديا للتطويل - يظهر في قضاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين تَمِيمِ بنِ مُقْبِلِ و النجاشي الشاعر في تهاجيهما ، حيث نجد كلماتٍ بالغة الأهمية لتقويم الإبداع الإسلامي وفق الفطرة الإنسانية و الأخلاق الإسلامية ، قال ابن حجر « اسْتَعْدَى تميم بن مقبل عمر بن الخطاب على النجاشي فقال : يا أمير المؤمنين هجاني فَأَعْدِنِي عليه ، قال : يا نجاشي ما قلت ؟ قال يا أمير المؤمنين قلت ما لا أرى فيه إثماً ، و أنشد :

إِذَا اللَّهُ جَا زَى أَهْلَ لُؤْمٍ بِذِمَّةٍ فَجَا زَى بَنِي الْعِجْلَانَ بْنِ مُقْبِلِ
قَبِيلَتُهُ لَا يَغْنَدِرُونَ بِذِمَّةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ

فقال عمر : لَيْتَنِي من هؤلاء .

فقال : وَلَا يَرِدُونَ الْمَاءَ إِلَّا عَشِيَّةً إِذَا صَدَرَ الْوَرَادُ عَنْ كُلِّ مَنْهَلٍ

فقال عمر : ما على هؤلاء متى وَرَدُوا .

فقال : وَمَا سُمِّيَ الْعِجْلَانُ إِلَّا لِقَوْلِهِ خُذِ الْقَعْبَ وَاحْلُبْ أَيُّهَا الْعَبْدُ وَاعْجَلِ

فقال عمر : خير القوم أنفعهم لأهله .

فقال تميم : فَسَلَّهُ عن قوله :

أُولَئِكَ أَوْلَادُ الْهَجِينِ وَأُسْرَةُ اللَّيْلِ حَمِ وَرَهْطُ الْعَاجِزِ الْمُتَدَلِّلِ

فقال عمر : أَمَا هَذَا فَلَا أَعْدِرُكَ عَلَيْهِ ، فَحَبَسَهُ وَضْرِبَهُ . « (٥٧) .

فحين كان الشاعر ينشد شعرا من صميم الكلام الْحَسَنِ ، كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يجيب بما يفيد الاستحسان ، بل و بحديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٥٨) ، تأكيداً منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على توافق هذا الكلام مع مقاصد الشريعة و آدابها و مع الفطرة الإنسانية ، لكن ، حين وصل إلى ما يُضَادُّ هذه الفطرة و يخرج عن الحد الشرعي المطلوب ، و ذلك بتحقيق المسلمين ، لم يتوقف عمر عند حدود التنبيه القولي ، وإنما تجاوز إلى ضرب الشاعر و حبسه تَعْزِيرًا ، إمعاناً منه رضي الله عنه في استهجان هذا الإبداع .

ثم إن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سار على هذا النهج في تقويم الإبداع ، اقتداءً بالسنة النبوية الشريفة ، ليس في التعامل بين أفراد المجتمع المسلم بعضهم مع بعض ، و إنما حتى على مستوى الفرد الواحد ، لأن فساد هذا الفرد في خُلُقِهِ وَ طَبَعِهِ و إبداعه ، تهديدٌ للمجتمع كله بالانهيار ، لذلك حين « سمع الحارث بن أبي وَجْزَةَ يمدح خالد بن الوليد ، نهاه ، و قال : إن حب الفخر مُفسِدٌ للدين » (٥٩) ، فالشعر الفاسد لا يفسد الأفراد فقط ، و إنما يفسد الدين أيضاً ، و يفسد الفطرة و معها القيم الإنسانية كلها ، و هنا خطورة الكلمة المسؤولة ، كما أشرنا إلى ذلك في صدر هذا الكلام ، و لأسير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مواقف مشهودة مشهورة ، تجسد و عيه العميق و المبكر بهذه الخطورة ، اقتداءً بسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٦٠) .

و خلاصة القول في هذا البعد الفطري ، هو أن السنة المطهرة استجداتٌ من الشعر ما هو حسنٌ بضمونه الهادف البناء للقيم الإنسانية النبيلة ، و استهجنَت كل ما يسعى إلى تخريب الذوق الإنساني الفطري بكل ما هو قبيح من جميع

٥٧- الإصابة ١ / ٣٧٨ و ٤٩٣ / ٦ ، و أورد القصة ابن قتيبة في الشعر و الشعراء ١ / ١٤٧-١٤٨ .
٥٨- قوله خير القوم أنفعهم لأهله من الحديث الشريف خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ و أنا خيركم لأهلي و إذا مات صاحبكم فدعوه ، أوردته الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة المجلد ١ القسم ٢ ص ٥٧٥ برقم ٢٨٥ .
٥٩- الإصابة ١ / ٦٠٨ ، و أصل كلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أحاديث كثيرة منها ما أوردته البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب باب ما يكره من التمداح ١٠ / ٥٨٣ مع الفتح ، و راجع إرشاد الساري ٩ / ٨٩ .
٦٠- راجع نموذجاً متميزاً جليلاً لحرصه ، رضي الله عنه ، على صفاء الذوق الإسلامي في التَّمَثُّلِ بالشعر و روايته ، أوردته الإمام الشاطبي في كتاب الاعتصام ، ١ / ١٨٥-١٨٦ .

وجوهه ، و ما أَحْسَنَ ما قاله القرطبي رحمه الله وهو يعلق على حديث عمرو بن الشريد حين استنشده الرسول ﷺ شعراً أمية بن أبي الصلت ، كما مر بنا ، فقال : « وفي هذا دليل على حفظ الأشعار و الاعتناء بها إذا تضمنت الْحِكْمَ و المعاني المستحسنة شَرْعاً وَطَبْعاً » (٦١) .

ج - البعد الأخلاقي :

وهذا البُعدُ هو القطبُ و عليه المدارُ ، كما يظهر من خلال نظرة السنة النبوية إلى الإبداع الأدبي بما يجسده من خُلُقِ المسلم في أقواله و أفعاله ، خاصة و أن الإبداع يجسد ، كما قلنا سابقاً ، بطريقة من الطرق ، تفكيرَ المسلم و سلوكه معا ، و تتجلى معالم هذا البعد في مقصدين اثنين هما:

١ - التعبير عن الخلق النبيل في الإنسان :

إن التكريم الإلهي للإنسان بما أودعه فيه من عقل يفكر به و فؤاد يفقه به ، و بما حَمَلَهُ من مسؤولية الخلافة في الأرض لإصلاحها و إقامة الدين القِيمِ فيها ، يفرض عليه أن يكون في مستوى هذا التكريم ، و هذه المسؤوليات التي حُمِّلَهَا ، حتى تتجسد في كل حركاته و سكناته إنسانية الإنسان بِخُلُقِهِ و سلوكه ، بعدما فضله الله عز وجل على ما سواه من المخلوقات في خَلْقِهِ و تكوينه ؛ و مما ينبغي أن يتميز به ، حتى تتجلى فيه معالم هذه الإنسانية ، طريقة تفكيره و تعبيره و إبداعه .

والمتمتعن في السنة النبوية المطهرة ، يجد فيها إلحاحاً ظاهراً من النبي ﷺ على مكارم الأخلاق في كل ما يُلْفُ حياة المسلم الخاصة و العامة ، و هذا ما يتجسد في ذلك العدد الكبير من الأحاديث النبوية الصحيحة في الحث على حسن الخلق ، من ذلك مثلاً قوله ﷺ : « إِنْ خِيَارَكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقاً » (٦٢) ، و قوله ﷺ : «

٦١ - تفسيره ٩٦ / ١٣ ، و نقل عنه هذا الكلام الشيخ المراغي في تفسيره ١١٤ / ٨ ، كما ذهب الإمام النووي إلى شيء من هذا في شرحه لهذا الحديث من صحيح مسلم الجزء ١٥ ص ١٢ ، و راجع أيضاً كتاب الاعتصام ١٨٤ / ١ وما بعدها .

٦٢ - صحيح البخاري ، كتاب "الأدب" ، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل ٥٥٩ / ١٠ ، مع الفتح

إِنْ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ خُلُقًا» (٦٣) ، و الأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً .
وعلى هذا الأساس ينبغي أن يكون الإبداع الشعري مجسدا لهذا الخلق
الحسن ، و معبرا عن إنسانية هذا الإنسان في كل شيء ، وهذا ما أثنى عليه النبي
ﷺ من شعر عبد الله بن رواحة ، حسبما رواه البخاري من طريق الهيثم بن سنان
أنه « سمع أبا هريرة في قَصَصِهِ يَذْكُرُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ أَخَالَكُمْ لَا يَقُولُ
الرَّفَثَ ، يَعْنِي ابْنَ رَوَاحَةَ ، قَالَ :

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَهُ إِذَا انشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعٌ
أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا بِهِ مَوْقِنَاتٌ أَنْ مَا قَالٌ وَأَقَعُ
بَيْتٌ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَنْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ » (٦٤)
و قد ساق ابن حجر مناسبة هذه الأبيات كما قصها عبد الله بن رواحة على
النبي ﷺ فضحك منها حتى بدت نواجذه ﷺ (٦٥) .

وَالرَّفَثُ عَادَةٌ مَا يَدُلُّ عَلَى الْفُحْشِ . وَصِيَانَةُ اللِّسَانِ عَنِ التَّفَحُّشِ ، يَعْنِي
التحلي بالخلق الحسن في التعبير ، و الترفع عن الخوض فيما يمججه الذوق
ويستقبحه الطبع الإنساني ، لهذا أورد البخاري أحاديث حسن الخلق تحت باب «
لم يكن النبي ﷺ فاحشا ولا متفاحشا» ، فلو أن أحداً ممن لا تخلق له ، و لا أدبَ
فيه ، و كان في مثل موقف عبد الله بن رواحة ، لما تورع عن الخوض في وصف
مشاهد الفحش و الخنا ؛ لكن الخلق الحسن و الحياء أيضا ، منعا هذا الصحابي
الجليل من الخوض فيما يحط من مروءته ، خاصةً و أنه كان من خواص شعراء
النبي ﷺ ، مما كان يفرض عليه أقصى درجات التورع و التصون في الإبداع
الشعري ، لأنه أولاً كان في اتصال دائم و مباشر مع النبي ﷺ ، و ثانياً لأنه قدوة
للشعراء المسلمين الملتزمين بالدفاع عن العقيدة ضد أعدائها ؛ و كل هذا يفرض

٦٣ - نفسه ، كتاب الأدب ، باب " لم يكن النبي ﷺ فاحشا ولا متفاحشا " ١٠ / ٥٥٤ .

٦٤ - نفسه ، كتاب التهجد بانفضل من تعار من الليل فصلى ٥٠٣ و كتاب الأدب باب هجاء المشركين ١٠ / ٥٥٤
مع الفتح ، و راجع ما رواه القرطبي في هذا الشأن في تفسيره ، ١٥ / ٣٦ .

٦٥ - فتح الباري ٣ / ٥٣ ، و راجع فيه أقوال العلماء في هذا الحديث الشريف ، مما لا يتسع له المجال هنا .

عليه ليس حسن الخلق في الإبداع فقط، وإنما يفرض عليه التأسيس لإبداع إسلامي مُتَخَلِّقٌ بالخلق الحسن، ينفرد و يتميز عن كثير من الإبداع الذي كان من قبل في الجاهلية، و الذي كان «يَمْدَحُ الشَّهْوَةَ» كما قال ابن عطية من قبل.

و عليه فإن الإطار الذي ينبغي أن يسبح فيه المبدع المسلم المؤمن كيف شاء، هو الإطار الأخلاقي بمفهومه الواسع كما يراه الإسلام، فليُخَضَّرْ بعد ذلك في أي موضوع وبالطريقة التي تحلُّو له، لأنه يستمد سَلَفًا مناعته من الأخلاق الحسنة، وهذا ما يظهر بوضوح في الفهم العميق الذي فهم به عبد الله بن عباس رضي الله عنه الآية الكريمة ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ أي « في كُلِّ فَنٍّ مِنْ الكَلَامِ يَأْخُذُونَ »^(٦٦)، وهذا يعني - كما قلنا من قبل - أنه إذا كان الضلال لم يَحُدَّ حَدًّا مُعَيَّنًا يحول دون هَيَمَانِ الشاعر في كل فن من فنون القول غَثِّهِ وَسَمِينِهِ، فَاحِشِهِ وَ مُتَخَلِّقِهِ، وَأَكْثَرُهُ الغَثُّ وَ الفَحْشُ، فإن الإيمان الذي جاء في الاستثناء الإلهي ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ يعني أن الشعراء المؤمنين لهم الحق أيضا في التعبير عن المشاعر الإنسانية في كل فَنٍّ من فنون الكلام، مادام الأصل الذي يصدرون عنه هو الإيمان الذي يَمُدُّ الشاعر المؤمن بقوة المسؤولية الأخلاقية التي تحوّل بينه وبين البذاءة والفحش في القول، و مساويئ الأخلاق في التعبير والإبداع.

ثم إن الإسلام كتاباً وسنةً جاء للتغيير في كل شيء، في العقيدة و الشريعة و التفكير و الإبداع، فإذا عرفنا بأن شعراء الجاهلية كان أكثرهم على قدر غير قليل من سوء الأخلاق، مما جعل «أحوالهم غير مرضية عند أهل المروءة و الشرف لِمَا فيهم من الخلاعة و الإقبال على السكر و الميسر و النساء و نحو ذلك»^(٦٧)، فإنه من الطبيعي أن يقف القرآن الكريم و السنة النبوية المطهرة ضد هذا السلوك، ليكون

٦٦ - تفسير أبي حاتم الرازي ٩ / ٢٨٣٢ - ٢٨٣٣ و تفسير الطبري ٩ / ٧٧١.

٦٧ - تفسير التحرير و التنوير، الطاهر بن عاشور الجزء ٢٢ ص ٦٤، و تفسير المراغي ٨ / ١١٣.

المبدع المسلم ذا مروءة وشرف بسلوكه المستمد من دينه وإيمانه، وبقوله الذي يَمْتَحُ من مشكاة القرآن والسنة، ويهتدي بهديهما؛ وهذا ما حرص عليه الصحابة الكرام أشد الحرص بعد وفاة النبي ﷺ، وعياً منهم بدور الإبداع المتخلق بالخلق الحسن في تهذيب ذوق المجتمع المسلم، وتربية نُسئِهِ على مكارم الأخلاق، لهذا لم يكن «أحد من الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر أو تمثل به أو سمعه فَرَضِيَّ به، ما كان حكمةً أو مباحاً، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى» (٦٨)

وهذا ما يتجلى في أبهى مظاهره مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث قوّم الشعر وفق السنة النبوية المطهرة، اقتداءً بالنبي ﷺ في تعامله مع الشعراء، حتى خلا تماماً كلُّ ما استنشدَهُ أو سمعه من شعرائه صلى الله عليه وسلم من كل ما يُسيءُ إلى الخلق الحسن، أو إلى الأدب الرفيع.

فقد روى البخاري بسنده أنه قيل لعمر رضي الله عنه «هذا مولى بني الحسحاس يقول الشعر، فدعاه، فقال: كيف قلت؟ فقال:

وَدَّعْ سُلَيْمِي إِنْ تَجَهَّزْتَ غَادِيَا كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا
فقال: حَسْبُكَ، صدقت، صدقت» (٦٩)، وزاد ابن سلام الجمحي أن عمر رضي الله عنه

قال له «لَوْ قُلْتَ مِثْلَ هَذَا أُعْطَيْتَكَ عَلَيْهِ، فلما قال:

فَبَاتَ وَسَادَانَا إِلَى عَلَجَانَةٍ وَحَقْفٍ تَهَادَاهُ الرِّيَّاحُ تَهَادِيَا
وَهَبَّتْ شَمَالٌ آخَرَ اللَّيْلِ قَرَّةً وَلَا ثَوْبَ إِلَّا دَرَعُهَا وَرَدَائِيَا
فَمَا زَالَ بُرْدِي طَيِّباً مِنْ ثِيَابِهَا إِلَى الْحَوْلِ حَتَّى أَنْهَجَ الثَّوْبُ بَالِيَا

فقال له عمر رضي الله عنه: وَيَلْكَ إِنَّكَ مَقْتُولٌ» (٧٠).

٦٨- تفسير القرطبي ١٣ / ١٩ .
٦٩- الأدب المفرد باب "القائلة" ص ٢٦٤-٢٦٥ والإصابة ٣ / ٢٥١، وعجز هذا البيت أنشده النبي ﷺ فَقَدَّمَ
الإسلام على الشَّيْبِ، راجع أحكام القرآن ٢٦٤، وتفسير القرطبي ٥ / ٣٦١ .
٧٠- طبقات فحول الشعراء ١٨٨١٨٧١ والشعر والشعراء ١ / ٣٢١ .

فالشاهد غنيٌّ عن البيان ، فحين أجاد الشاعر القول ، صدَّقه عمر وربما وعده بالعطاء إذا سار في إبداعه على هذا النهج ، و لكن حين زاغَ وبدأ في هتكِ الأخلاق و التفحش ، هدده عمر رضي الله عنه بالقتل ، فكانت نهايته أن قتله قومٌ شَبَّبَ في بعض نسائهم كما ذكر ذلك ابن سلام .

فعمرو رضي الله عنه زكى الكلام الحسن الطيب وهدد على القبيح المخل بالحياء ، إمعانا منه في تصفية الإبداع الشعري الذي ينبغي أن يشيع بين المسلمين ، حفاظا عليهم من الانحلال أو التفسخ الخلقي فكرا و ممارسةً ، حتى إنه رضي الله عنه شدد حتى في التمثل بالإبداع المخل بالأخلاق ، فضلا عن إبداعه ، فقد « مرَّ رجل من مُزَيْنَةَ بِبَابِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَ قَدْ كَانَ يَتَّهَمُ بِامْرَأَتِهِ ، فَتَمَثَّلَ : هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتَوَدَعْتَ مَكْتُومٌ ، فَاسْتَعْدَى رَبُّ الْبَيْتِ عَلَيْهِ عَمْرَ رضي الله عنه ، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ : مَا أُرِدْتُ ؟ قَالَ : مَا عَلَيَّ أَنْ أَنْشُدْتُ شِعْرًا ! قَالَ : قَدْ كَانَ لَهُ مَوْضِعٌ غَيْرُ هَذَا ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَحُدَّ » (٧١) .

أما قصته رضي الله عنه مع النعمان بن عدي بن نضلة ، فهي شاهدٌ متميزٌ على هذا البعد الأخلاقي الذي نحن بصدده ، فحين ولَّاهُ على مَيْسَانَ ، بَلَغَهُ عَنْهُ شِعْرٌ قَالَ فِيهِ :

فَمَنْ مَبْلُغُ الْحَسَنَاءِ أَنْ خَلِيلَهَا	بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنَمِ
إِذَا شَتَّ غَنَّتِي دَهَاقِينَ قَرِيَّةٍ	وَصَنَاجَةٌ تَجْدُو عَلَى كُلِّ مَنْسَمِ
فَإِنْ كُنْتُ نَدْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِي	وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُتَمَلِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ	تَنَادُمًا فِي الْجَوْسِقِ الْمُتَهَدِّمِ

فأرسل إليه بالقدوم عليه ، و قال : والله يسوءني ذلك ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، ما فعلت شيئا مما قلتُ ، و إنما كانت فُضْلَةٌ من القول ، فقال له عمر: إني لأظنك صادقا و لكن لا تعمل لي عملا أبداً . (٧٢)

فعمرو رضي الله عنه حدَّ رجلا من عوامِّ المسلمين تمثَّلَ بشعرٍ مُخِلٍّ بالأخلاق ، فكيف بمن

٧١. طبقات فحول الشعراء ١٤٠١ .

٧٢. أحكام القرآن ٤٦٥٣ و الإصابة ٤٤٨٦ و السيرة النبوية لابن هشام ٣٦٦٤ .

يقوم بأمرهم .. بما يُفترض فيه من أقصى درجات الورع والاستقامة - ومع ذلك يقول شعرا كهذا ، بما فيه من ذِكرٍ للخمر والقيان والغناء وكل ما يحيل على جَوِّ العَرَبْدَةِ ، فَعُمِّرُ الحريص على العمل بالكتاب و السنة أيما حرص ، لم يحتمل هذا النوع من الإبداع المنافي لهما ، و رغم أن النعمان أقسم - كما جاء في بعض الروايات - بأن ما قاله ليس إلا فضلة من الشعر ، و لم يَقْتَرِفْ شيئاً مما قال ، إلا أن عمر رضي الله عنه عَزَلَهُ مع علمه بصدقه ، وكأن لسان حاله يقول : ألم يكن جديرا بهذه الفُضْلَةِ من الشعر أن تُعَبَّرَ عن مضمون نبيل شريف يعكس عواطف الشاعر بعمق دون المساس بالأخلاق ، ولا بما من شأنه أن يُشَكِّكَ في مروءة المبدع ؟! ألم يكن حَرِيّاً به أن يسبح في ملكوت الله كيف يشاء يختار من المواضيع و المضامين أنبأها و أشرفها ، حتى يكون الإبداع مرآة تنعكس فيه شخصية المبدع الشريف المُتَحَلِّق بالخلق الحسن النَّابِعِ من فطرته السليمة و طَوِيَّتِهِ المستقيمة؟! فَالْتَحَلِّي بِالْحُخِّ الْحَسَنِ فِي الْمَضْمُونِ ، لَا يَنْفِي مُطْلَقَ الحرية في التعبير .

و هذا الذي أُسِّسَتْ له السنة النبوية المطهرة ، و طَبَّقَهُ عمر رضي الله عنه ، استمر مع حفيده عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه على نحو قوي ، فشدد على هذا الجانب الأخلاقي في الشعر إبداعا ورواية ؛ فعندما وَلِيَ الخِلافة ، دخل عليه عَدِيُّ بن أرطاة ، فأخبره بأن الشعراء بالباب ينتظرون الإذن لهم بالدخول ، فقال له : من بالباب ؟ قال : ابن عمك عمر بن أبي ربيعة القرشي ، قال : لا قَرَّبَ الله قرابته ولا حَيًّا وَجْهَهُ ، أليس هو القائل :

أَلَا لَيْتَ أَنِّي يَوْمَ بَانُوا بِمَيْتِي
وَلَيْتَ طُهُورِي كَانَ رَيْفِكَ كُؤْلَهُ
وَيَا لَيْتَ سَلَمِي فِي الْقُبُورِ ضَجِيعَتِي
فَلَيْتَ عَدُوَّ اللَّهِ تَمَنَّى لِقَاءَهَا فِي الدُّنْيَا ثُمَّ يَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا ، وَ اللَّهُ لَا دَخَلَ عَلَيَّ

أبداً ، فمن بالباب غير من ذكرت ، قال جميل بن معمر العذري ، قال الذي يقول :
أَلَا لَيْتَنَا نَحْيًا جَمِيعًا وَإِنْ نَمْتُ
فَمَا أَنَا فِي طُولِ الْحَيَاةِ بَرَاغِبٍ
يُؤَافِي لَدَى الْمَوْتِ ضَرِيحِي ضَرِيحُهَا
إِذَا قِيلَ قَدْ سُويَ عَلَيْهَا صَفِيحُهَا

أَظْلُ نَهَارِي لَا أَرَاهَا وَتَلْتَقِي مَعَ اللَّيْلِ رُوحِي فِي الْمَنَامِ وَرُوحُهَا
 أُعْزِبُ بِهِ ، فَلَا يَدْخُلُ عَلَيَّ أَبَدًا ، فَمَنْ بِالْبَابِ غَيْرِ مِنْ ذَكَرْتَ؟ قَالَ كَثِيرَ عَزَّةٍ ،
 قَالَ: الَّذِي يَقُولُ:

رُهْبَانَ مَدِينٍ وَالَّذِينَ عَاهَدْتُهُمْ يَبْكُونَ مِنْ حَذَرِ الْعِقَابِ قُودًا
 لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتَ كَلَامَهَا حَسَرُوا لِعَزَّةٍ رُكْعًا وَسُجُودًا

أُعْزِبُ بِهِ ، فَمَنْ بِالْبَابِ غَيْرِ مِنْ ذَكَرْتَ؟ قَالَ الْأَحْوَصُ الْأَنْصَارِيُّ ، قَالَ : أَبْعَدَهُ
 اللَّهُ وَاسْحَقَّهُ ، أَلَيْسَ هُوَ الْقَائِلُ - وَقَدْ أَفْسَدَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ جَارِيَةً لَهُ
 حَتَّى هَرَبَتْ مِنْهُ ، قَالَ :

اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ سَيِّدِهَا يَفِرُّ مِنِّي بِهَا وَآتَّبِعُ
 أُعْزِبُ بِهِ ، فَمَنْ بِالْبَابِ غَيْرِ مِنْ ذَكَرْتَ؟ قَالَ : الْفَرَزْدَقُ ، قَالَ: أَلَيْسَ هُوَ الْقَائِلُ
 يَفْخَرُ بِالزَّنَا :

هُمَا دَلِيَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً كَمَا انْقَضَ بَازِ أَقْتَمِ الرِّيشِ كَاسِرُهُ
 فَلَمَّا اسْتَوَتْ رَجُلَايَ فِي الْأَرْضِ قَالَتَا أَحْيِي يُرَجِّي أُمَّ قَتِيلٍ نَحَازِرُهُ
 فَقُلْتُ ارْفَعُوا الْأَمْرَاسَ لَا يَشْعُرُوا بِنَا وَوَلَّيْتُ فِي أَعْقَابِ لَيْلِ أُبَادِرُهُ
 أُعْزِبُ بِهِ ، فَوَاللَّهِ لَا يَدْخُلُ عَلَيَّ أَبَدًا ، فَمَنْ بِالْبَابِ غَيْرِ مِنْ ذَكَرْتَ؟ قُلْتُ
 : الْأَخْطَلُ ، قَالَ هُوَ الْقَائِلُ :

فَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ دَهْرِي وَلَسْتُ بِأَكِلِ لَحْمِ الْأَصَاحِي
 وَلَسْتُ بِزَاجِرِ عَيْسَاءَ رُكُوبًا إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ لِلنَّجَاحِ
 وَلَسْتُ بِقَائِمِ كَالْعَيْرِ يَدْعُو قُبَيْلَ الصُّبْحِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ
 وَلَكِنِّي سَأَشْرِبُهَا شَمُولًا وَأَسْجُدُ عِنْدَ مُنْبَلَجِ الصَّبَاحِ
 أُعْزِبُ بِهِ ، فَوَاللَّهِ لَا وَطِئَ بِسَاطِي ، فَلَمَّا أَذِنَ لَجْرِيرٍ قَالَ لَهُ : اتَّقِ اللَّهَ يَا جَرِيرُ وَلَا
 تُقَلِّ إِلَّا حَقًّا . (٧٣)

٧٣- أحكام القرآن ٣/ ٤٦٦-٤٦٨ ، وأورد الإمام القرطبي شيئاً من هذا في تفسيره ١٣/ ١٠٠ ، وراجع أيضاً
 ما أورده ابن سلام في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٦٥٦-٦٥٧ ، وما أورده ابن قتيبة في الشعر والشعراء
 ١/ ٤٢٤-٤٢٥ .

فهذه الشواهد تَجْمَعُ كُلَّ مَا يُضَادُّ الفطرة السليمة و المروءة والأخلاق ، من زنا و خمر و فحش و زرَايَةَ بالدين و جَهْرٌ بالمعصية و سُخْرِيَّةٌ من الشعائر ، و هي شبيهة جداً بما أصبح عليه الإبداع في زماننا ، حتى أصبحت الأخلاق آخِرَ مَا يُفَكَّرُ فيه ، بل و لا يُطْلَقُ الإبداع إلا على ما فيه تَمْجِيدٌ لِلرَّذِيلَةِ و تَقْدِيرٌ لِلْحَطِيئَةِ .

ولكنَّ تَصَرُّفَ عمر بن عبد العزيز - وعن علم و فهم - مع هؤلاء الشعراء ، و إقضاءه لهم ، معناه إقصاء هذا النمط من الإبداع الذي كان قد اشتدَّ عُوْدُهُ في تلك المرحلة من تاريخ الأدب العربي ، لأنه خروجٌ عن التعبير عن الخلق النبيل في الإنسان ، و نَبْدٌ للمنهج السليم الذي سطرته السنة النبوية للإبداع الأدبي ، حتى ينشأ نشأة متوازنة يمتزج فيه مع سلوك المسلم و ممارساته اليومية امتزاجاً تلقائياً ، بعيداً عن الأهواء الطائشة ، و الانفعالات المريضة المهووسة بكل شذوذ في القول و العمل .^(٧٤)

٢ - الانتصار للإسلام بالقيم الإنسانية النبيلة :

و هذا من أعظم الجوانب الإنسانية و الأخلاقية في نظرة السنة النبوية إلى الإبداع الأدبي ، حيث نَظَّمَ الرسول ﷺ أساليب التعامل مع الآخر حتى وإن كان عَدُوًّا ، كما يظهر من خلال توجيهاته ﷺ لشعرائه للرد على هجاء المشركين ، له ﷺ و لكل المسلمين ، حين وصل بَغْيُهُمْ ذروته وهم يحملون على الإسلام و المسلمين .

و هذا المنهج في الانتصار نابعٌ من خلقه ﷺ ، بما جُبِلَ عليه من الرحمة و الرفق في الأمر كله ، حتى مع من كان يجاهره العداوة ، فعن « عائشة رضي الله عنها أن يَهُودَ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ ، فقالوا: السَّأْمُ عَلَيْكُمْ ، فقالت عائشة : عَلَيْكُمْ ، وَلَعَنَكُمْ

٧٤ - راجع في هذا الصدد كلمة جيدة لسيد قطب ، في ظلال القرآن ٥ / ٢٦٢٢ .

الله وَغَضِبَ عَلَيْكُمْ ، قال : مَهَلًا يَا عَائِشَةَ ، عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ وَإِيَّاكَ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ ، قالت : أَوْ لَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا ؟ قال : أَوْ لَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ ، فَيَسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ» (٧٥).

وَلِمَا وَرَدَ عَنْهُ ﷺ «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا بِاللَّعَّانِ وَلَا بِالْفَاحِشِ وَلَا بِالْبَذِيءِ» (٧٦) .

و هذا الأصل يُلْزِمُ المسلم في سلوكه مع الآخر أيًّا كان ، مسلماً أو غير مسلم ، كما هو صريح في هذين الحديثين الشريفين ، كما يُلْزِمُهُ أيضاً في كلامه العادي الذي يتعامل به في حياته اليومية ، أو في إبداعه الذي يدافع فيه عن الإسلام وأعراض المسلمين ، وفي الشعر منه بوجه خاص ، لمنزلته من كلام العرب كما قلنا سابقاً ، و لقوة تأثيره أيضاً ، فقد قال ﷺ : «أَهْجُوا بِالشَّعْرِ ، إِنَّ المُسْلِمَ يُجَاهِدُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ، وَالَّذِي نَفْسٌ مُحَمَّدٌ بِيَدِهِ ، كَأَنَّمَا تَنْضَحُونَهُمْ بِالنَّبْلِ» (٧٧) ، فالنبي ﷺ لم يجد بُدًّا من الرد على هجاء المشركين الذين لم يتركوا زوراً أو بهتاناً إلا ورموا به النبي صلى الله عليه و سلم و المسلمين بعامة ، مما حمل الصحابة رضي الله عنهم على استئذانه ﷺ في الرد عليهم ، فعن «عمار بن ياسر قال : لما هجانا المشركون شَكَّوْنَا ذَلِكَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ ، فقال : «قُولُوا لَهُمْ كَمَا يَقُولُونَ لَكُمْ» ، فلقد رَأَيْتُنَا نَعْلَمُهُ إِمَاءَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» (٧٨) .

لقد كانت حرباً شاملة بالسيف و بالقلم ، فُرِضَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يُعْفَ أَحَدٌ

٧٥- صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب "لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفاحشاً ١٠ / ٥٥٥ ، وصحيح مسلم ، في كتاب "السلام" ، باب "النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم" ، ٣ / ٧ - ٤ .

٧٦- رواه البخاري في الأدب المفرد ، باب "العياب" ، ص ٧٧ ، والحديث صحيح ، أورده الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة المجلد ١ القسم ٢ ص ٦٣٤ برقم ٣٢٠ .

٧٧- شرح السنة ١٢ / ٣٧٨ ، و مصابيح السنة ٣ / ٣١٤ ، و مشكاة المصابيح ٣ / ١٣٥٨ ، و مجمع الزوائد ٨ / ١٢٣ ، و أورده الشيخ الألباني ، في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، المجلد ٢ / ٤٣٦ برقم ٨٠٢ .

٧٨- مسند الإمام أحمد ٦ / ٣٦٤ ، طبعة دار الفكر ، و الحديث صحيح ، و قال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد و البزار بنحوه و الطبراني و رجالهم ثقات ، ٨ / ١٢٣ - ١٢٤ .

من خوضها ، كُلُّ بما يجيده ، بالقتال بالسيف ، أو بالهجاء باللسان ، أو بهما معا لكن عظمة الإسلام ونقاء تعاليمه ، لم تترك الحبل على الغارب ، بحيث يقول الشاعر المسلم ما شاء ، بدَعْوَى أنه يخوض حربا ضد المشركين الذين لا خُلُقَ لهم أصلا ، فَيُطْلَقُ عِنَانَ لِسَانِهِ بِكُلِّ بَدِيءٍ وَفَاحِشٍ مِنَ الْقَوْلِ ؛ لا ، فالمؤمن ليس بالبذيء ولا بالفاحش كما في الحديث الشريف ، فقد وضع النبي ﷺ ضوابط أخلاقية للقصيدة الهجائية ، لأن الإسلام دينٌ نَقِيٌّ في كل أحواله ، فينبغي أن يكون كذلك حتى في حَرْبِهِ وَقِتَالِهِ ، وهو ما كان له أبلغ الأثر في نفوس العدو الذي قهرته عظمة الإسلام وشموخه في كل شيء ، حتى في إدارة حرب اللسان ، وهذا ما يظهر بوضوح في قَسَمِ الرَسُولِ ﷺ : « و الذي نفسي بيده لكأنا تَنْضَحُونَهُمْ بِالنَّبْلِ فيما تقولون لهم من الشُّعْرِ »^(٧٩) ، ولا أشك في أن شِدَّةَ وَقَعِ القصيدة الإسلامية في نفوس العدو ، آتٍ من التزامها بالضوابط الأخلاقية التي حددها النبي ﷺ للشعراء ، بحيث لم يكونوا يهجون المشركين إلا بما فيهم ، وكفى بالصدق خُلُقًا كَرِيمًا .

لذلك ، قال النبي ﷺ فيما رواه القرطبي : « اِنْتَصِرُوا وَلَا تَقُولُوا إِلَّا حَقًّا وَلَا تَذَكَّرُوا الْأَبَاءَ وَالْأُمَّهَاتِ »^(٨٠) فالنبي ﷺ أمر الشعراء بالانتصار لدين الله بهجاء المشركين ، لكن مع التقيد الشديد بضابطين أساسيين لكي يكون للقصيدة مفعولها ، أولهما الحق ، لأن الإسلام دين حق فلا ينبغي أن يُنصَرَ إلا بالحق ، وليس بالزور ولا بالباطل ، لأن هذا من شيم المشركين و أعداء الإسلام في كل زمان و مكان ؛ و ثانيهما ، ألا يُهَجَى في القصيدة الإسلامية إلا من سَلَّ سَيْفَهُ أَوْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ دُونَ سِوَاهُ ، و إذا تجاوز الشاعر المسلم ذلك ، فقد جَارَ وَاَعْتَدَى ، و الإسلام أصلا ضد الجور والعدوان ، و بالتالي فلا يجوز للشاعر

٧٩ - شرح السنة ١٢ / ٣٧٨ و مصابيح السنة ٣ / ٣١٤ ، و مشكاة المصابيح ٣ / ١٣٥٨ ، و أورده الشيخ الألباني في الأحاديث الصحيحة ، المجلد ٢ / ٤٣٦ برقم ٨٠٢ و ٤ / ١٧٢ برقم ١٦٣١ ، و ٤ / ٥٩٣ ، برقم ١٩٤٩ .
٨٠ - تفسيره ١٣ / ١٠٢ .

المسلم أن يهجو إلا من حارب المسلمين؛ وهذا ينسجم مع التحذير الشديد الذي نص عليه النبي ﷺ بقوله: «إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ جُرْمًا ، إِنْسَانٌ شَاعِرٌ يَهْجُو قَبِيلَةً مِنْ أَسْرَهَا»^(٨١).

فليس من العدل أن يُؤخذَ سائرُ القومِ بِجَرِيرَةِ رَجُلٍ منهم هجا رجلا أو جماعة من المسلمين، لأن في ذلك تجاوزاً للحق ووقوعاً في الباطل ، لذلك قال القرطبي: «وإنما يكون الانتصار بالحق وبما حدّه الله عز وجل، فإن تجاوزَ ذلك، فقد انتصر بالباطل»^(٨٢)، لهذا، حين قال حسان بن ثابت رضي الله عنه لرسول الله ﷺ وقد همَّ بهجاء المشركين: «والذي بعثك بالحق لأفريئنهم بلساني فري الأديم ، فقال رسول الله ﷺ: لا تعجل ، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها... الحديث»^(٨٣)، فعبارة لا تعجل ، تحمل كل دلالات التريث والتثبت في القول، حتى يقع موقعه من الحق والصدق ، ومن الفئة المستهدفة بالهجاء .

فهذه الضوابط الأخلاقية السامية تقيّد بها شعراء الرسول ﷺ فيما أبدعوه من شعر وهم يردّون على الشعراء المشركين ، مما هو متداول بين الناس ، حيث نجد شرف المعنى ، مع نظافة اللغة المعبر بها ، مما يشهد على أخلاقية القصيدة الهجائية الإسلامية في صدر الإسلام .

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد ، فإن خلّق الرسول ﷺ منع حسان بن ثابت من إنشاد قصيدة قبلت في هجاء رجل مشرك ذكر رسول الله ﷺ بخير في حضرة قيصر ، و في ذلك قال القاضي عبد القاهر الجرجاني: «قال محمد بن سلمة الأنصاري: كُنَّا يَوْمًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِحَسَانِ بْنِ ثَابِتٍ: أَنْشِدْنِي قَصِيدَةً مِنْ شِعْرِ الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَضَعَ عِنْدَكَ آثَامَهَا فِي شِعْرِهَا وَرَوَايَتِهِ ، فَأَنْشَدَهُ قَصِيدَةً

٨١- رواه البخاري في الأدب المفرد، باب "ما يكره من الشعر"، ص ١٨٧، وأورده الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢ / ٣٩٠ برقم ٧٦٣ .

٨٢- تفسيره ١٣ / ١٠٢ .

٨٣- صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم ٧ / ١٦٤، وفي إرشاد الساري ٩ / ٩٤، تعليق لطيف على جزء منه، ورواه البخاري في كتاب الأدب، باب هجاء المشركين، ١٠ / ٦٦٨ .

للأعشى هجا بها علقمة بن علاثة :

عَلَقَمُ مَا أَنْتَ إِلَى عَامِرِ
أَلْتَأْقِضِ الْأَوْتَارَ وَالْوَاتِرِ

فقال النبي ﷺ : يا حسان ، لا تعدُّ تُشِدُّنِي هَذِهِ الْقَصِيدَةَ بَعْدَ مَجْلِسِكَ هَذَا ، فقال : يا رسول الله ، تَنَهَانِي عَنْ رَجُلٍ مُشْرِكٍ مَقِيمٍ عِنْدَ قَيْصَرَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : يَا حَسَّانُ أَشْكُرُ النَّاسَ لِلنَّاسِ ، أَشْكُرُهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَإِنْ قَيْصَرَ سَأَلَ أَبَا سَفْيَانَ فَتَنَاولَ مِنِّي - وَفِي خَبَرٍ فَشَعَثَ مِنِّي - وَإِنَّهُ سَأَلَ هَذَا عَنِّي فَأَحْسَنَ الْقَوْلَ . « (٨٤) » .

رسول الله ﷺ جَعَلَهُ يَعْتَرِفُ بِفَضْلِ ابْنِ عَلَاثَةَ وَهُوَ مُشْرِكٌ ، فَامْتَنَعَ حَتَّى عِن سَمَاعٍ مَا قِيلَ فِيهِ مِنْ هِجَاءٍ ، فَكَيْفَ لَا يُضْبِطُ ﷺ الْقَصِيدَةَ الْهَجَائِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ بِتِلْكَ الضُّوَابِطِ الْأَخْلَاقِيَّةِ السَّامِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ حَضَارَةً مِنْ حَضَارَةِ الْيَوْمِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ .

وبهذا يستقيم عود القصيدة الإسلامية ببعدها الأخلاقي الرفيع ، سواء في علاقة الشاعر المسلم بذاته ، فلا يعبر عن مشاعره إلا بما يجسد مروءته وأخلاقه ، أو في علاقته بغيره ، وهو يدافع عن دينه بإبداع رفيع تظلله الأخلاق بظلالها الرفيعة رفعة أخلاق الرسول ﷺ .

د - البعد الجمالي :

صح عن النبي ﷺ من طرق عدَّة أنه قال : « إِنَّ مِنَ الْبَيَّانِ سِحْرًا وَمِنَ الشُّعْرِ حِكْمَةٌ » (٨٥) ، وعند البغوي أن النبي ﷺ قال : « إِنَّ مِنَ الْبَيَّانِ سِحْرًا وَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلًا وَإِنَّ مِنَ الشُّعْرِ حُكْمًا وَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيَالًا » (٨٦) .

ومناسبة هذا الحديث الشريف كما أورد ذلك البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن

٨٤ - دلائل الإعجاز ص ١٩ ، والحديث "أشكر الناس... حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد في المسند من دون إيراد مناسبتها ، ١٣ / ٢٤٦ ، طبعة مكتبة التراث الإسلامي ، والحديث صحيح كما قال الشيخ أحمد شاكر في هامش الصفحة المشار إليها ، كما أورده الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة الجزء ١ القسم ٢ ص ٧٧٦ برقم ٤١٦ وفي ٢ / ٢٧٢ ، لكن دون ذكر مناسبتها أيضا .

٨٥ - الأدب المفرد باب من الشعر حكمة ص ١٨٤ وسلسلة الأحاديث الصحيحة ٤ / ٣٠٩ - ٣١٠ برقم ١٧٣١

٨٦ - مصابيح السنة ٣ / ٣١٧ ، وقد أورد هذا الحديث ضمن الأحاديث الحسان .

رجلا أو أعرابيا أتى النبي ﷺ فتكلم بكلام بين ، فقال النبي ﷺ هذا الحديث ، وقد فصلَ الحافظ أبو عمر ابن عبد البر القولَ في هذه المناسبة التي سأل فيها النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر ، فقال : «وروى حماد بن زيد عن محمد بن الزبير ، قال : قدم على رسول الله ﷺ الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وقيس بن عاصم ، فقال رسول الله ﷺ لعمرو : «أخبرني عن الزبرقان » ، فقال : هو مُطَاعٌ في نَادِيهِ ، شَدِيدُ الْعَارِضَةِ ، مَانِعٌ لِمَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ ، فقال الزبرقان : هو و الله يار رسول الله يَعْلَمُ أَنِّي أَفْضَلُ مِنْهُ ، فقال عمرو : إِنَّهُ لَزَمِرُ الْمُرُوءَةِ ، ضَيْقُ الْعَطَنِ ، أَحْمَقُ الْأَبِ ، لَيْثِمُ الْحَالِ يا رسول الله ؛ صَدَقْتُ فِي الْأُولَى ، و ما كَذَبْتُ فِي الْأُخْرَى ، أَرْضَانِي فَقُلْتُ أَحْسَنَ مَا عَلِمْتُ و أَسْحَطْنِي فَقُلْتُ أَسْوَأَ مَا عَلِمْتُ ، فقال النبي ﷺ : إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا ^(٨٧) .

فَبَيَانُ الْكَلَامِ وَحُسْنُ اخْتِيَارِ اللَّفْظِ ، هو المقصود من كلام النبي ﷺ في هذا الحديث بِخَاصَّةٍ ، بَغْضِ النَّظَرِ عَنْ مَضْمُونِ كَلَامِ عَمْرٍو بْنِ الْأَهْتَمِ ، لأن الحديث بإطلاقه يدل على البيان الذي يتعلق بحسن التركيب ، وجودة التأليف بين أجزاء الكلام ، بالتَّوَسُّلِ بِأَسَالِيبِ الْبَيَانِ الْمُخْتَلِفَةِ ، مما يعني أن النبي ﷺ ، وهو أفصح العرب وأعلمهم بأسرار العربية ^(٨٨) ، لم يكن لِيَسْتَحِيدَ مِنَ الْكَلَامِ إِلَّا مَا كَانَ جَيِّدًا فعلا ، وجميلا وفق مقاييس الجمال في الإبداع الأدبي .

و هذا ما عَبَّرَ عَنْهُ لِسَانُ الدِّينِ ابْنِ الْخَطِيبِ وَهُوَ يَمِيزُ بَيْنَ السِّحْرِ وَالشَّعْرِ ، مستشهدا بهذا الحديث الشريف ، فقال : «فمن الواجب أن يُسَمَّى الصَّنْفُ مِنَ الشَّعْرِ الَّذِي يَحْلُبُ النُّفُوسَ وَيَسْتَفِزُّهَا ، وَيُنْثِنِي الْأَعْطَافَ وَيَهْزُهَا ، بِاسْمِ السِّحْرِ الَّذِي ظَهَرَ عَلَيْهِ طِبَاعُهُ ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِهِ ، وَلِهَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا تَوَجَّهَ إِشَارَةٌ حَرْفِ التَّبَعِيضِ ، وَإِلَيْهِ يَنْظُرُ

٨٧ - الاستذكار ، باب " ما يكره من الكلام بغير ذكر الله " ، ٨ / ٥٥٧ ، وفي فتح المالك بتبويب التمهيد لابن عبد البر على موطأ الإمام مالك ، ١٠ / ٤٤٧ ، وراجع البيان والتبيين ١ / ٥٣ و ١ / ٣٤٩ ، وقد أورد القصة مع شيء من الاختلاف في روايتها .

٨٨ - راجع ما ساقه السيوطي في هذا الصدد وما أورده من أحاديث في المزهرة ١ / ٣٤ - ٣٥ .

بِالطَّرْفِ غَيْرِ الْغَضِيضِ» (٨٩)، و معناه ، أن النبي ﷺ لم يجعل الإبداع كَلَّةً في الجودة و الجمال سَوَاءً ، و إنما اُنْتَحَبَ مِنْهُ ما يصل ببيانه و برأعته حدَّ السحر في التأثير على المتلقي ، بما يُحْدِثُهُ لَدَيْهِ من اِنْفِعَالٍ وَلَذَّةٍ وَمُتَعَةٍ معاً ، بمفهوم البلاغة المعاصرة .

و لما كان « معظمُ براعةِ العربِ في الشعر » كما قال الإمام الباقلاني (٩٠) ، فإن التأمل في كل الأشعار التي استنشدتها النبي ﷺ أو تمثل بشيء منها ، يجدها آيةً في الجودة والبراعة فنيًا ودلالياً وإيقاعيا ، سواء فيما أبدعه شعراؤه ﷺ و سَمِعَهُ منهم فأثنى عليه بما أثارَ عنه من العبارات المعبرة عن إعجابه به ، و قد مرَّ بنا بعضها في أول هذا البحث ، أو فيما أثارَ عنه ﷺ من إعجابه بما استنشدته من شعر أمية بن أبي الصلت ، و لم يُنصَّ الْمُحَدِّثُونَ على تلك الآيات المائة ، مثلهم في ذلك ، مثل ما رواه ابن أبي شيبه « أن رجلا من بني ليث أتى النَّبِيَّ ﷺ فقال : يا رسولَ الله أنشدك؟ قال : لا ، فأنشدهُ في الرابعة ، فقال : إن كان أحد من الشعراء يُحسِنُ فقد أَحسنتَ » (٩١) ، فلو لم يحسن الشاعر في نضه معنى و مبنى ، ما كان للنبي ﷺ أن يقول له « أَحسنتَ » ، فليس من عادته ﷺ أن يصف شيئا إلا بما يستحقه كما قلنا وكما يظهر بوضوح مع النابغة الجعدي ، حيث قال الهيثمي : « وعن النابغة قال : أتيت النبي ﷺ فأنشدته قولي :

عَلَوْنَا الْعِبَادَ عِقَّةً وَتَكَرَّمَا
وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَطْهَرَا

قال النبي ﷺ : أين المظهرُ يا أبا ليلي ؟ قلت : الْجِنَّةُ ، قال : أَجَلٌ إن شاء الله ، قال : ثم قال : أنشدني ، فأنشدته قولي :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ
بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكْدَرَا
وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ
حَلِيمٌ إِذَا مَا أوردَ الأَمْرَ أَصْدَرَا

٨٩- السحر و الشعر ص ١٠ .

٩٠- إعجاز القرآن ص ١٩٨ .

٩١- المصنف ٥ / ٢٨٠ .

قال النبي ﷺ: أَحْسَنْتَ ، لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَاكَ « (٩٢) .

فعبارة ﷺ « أَحْسَنْتَ » ، جامعة للإحسان في جمال اللفظ وحسن سبكه وإيقاعه ، وفي معناه البارِع أيضا ، وهذا ما لا يخفى في هذه الأبيات التي تنضح بالبهاء الشعري على نحو لا يُدْفَع ، وهذا ما يتضح أيضا مع كعب بن زهير ، فحين كان يُنشدُ الرسول ﷺ قصيدته بَأَنْتَ سَعَادُ ووصل إلى البيتين التاليين :

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٍ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنْدٌ مِنْ سِيُوفِ اللَّهِ مَسْلُورٌ
نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ

« أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَنْ مَعَهُ : أَنْ اسْمَعُوا » (٩٣) ، ولا أشكُّ في أن إشارته

ﷺ دلالة على إعجابه بقصيدة كعب وبهذين البيتين بِخَاصَّةٍ ، أو بغيرهما مما أورده الرواة ، حيث نلمس الإتيان في الإبداع مَعْنَى وَ مَبْنَى وَإِيقَاعاً ، مما يؤكد ما قلناه سابقاً ، من أن النبي ﷺ كان يحرص على أن يكون الإبداع الصادر عن شعرائه ، جامعاً لكل شروط الجودة والإتيان ، لكي يكون كُلُّ ما يصدر عن المسلمين مُتَقَنَّأً وجميلاً ، سواءً في ذلك أخلاقهم أو سلوكهم أو إبداعهم أو حتى هجاؤهم .

وقد ذهب الفقيه أبو بكر ابن العربي إلى أبعد من هذا ، حين علَّقَ على قصيدة كعب بِرُمَّتِهَا بقوله: « فجاء في هذه القصيدة من الإِسْتِعَارَاتِ وَ التَّشْبِيهَاتِ بكل بديعِ وَ النبي ﷺ يَسْمَعُ وَلَا يُنْكِرُ حين شَبَّهَ رِيْقَهَا بِالرَّاحِ وَ قد كانت حُرِّمَتْ قَبْلَ إِنْشَادِهِ لِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ » (٩٤) ، فزينة الإبداع ، وأسباب روعته وبهائه ، يكمنُ في التشبيهات و الاستعارات وكلِّ أساليبه البيانية ، إلى جانب أساليبه المعنوية والبديعية أيضا ، وهذا مما لا يُنْكِرُ في كلام العرب ، لكن ، مع البقاء أثناء توظيف هذه الأساليب ضمن دائرة الرؤية الإسلامية في النظر إلى الكون والحياة ، وهذا

٩٢ - مجمع الزوائد ٨ / ١٢٦ ، وقال: رواه البزار وفيه ابن الأشدق وهو ضعيف ، والإصابة ٦ / ٣٩٣-٣٩٤ .
٩٣ - السيرة النبوية لابن كثير ٣ / ٧٠٦-٧٠٧ والبداية والنهاية المجلد ١٢ جزء ٤ ص ٧٧٤ والكامل في التاريخ ١ / ٦٣٤ وطبقات فحول الشعراء ١ / ١٠٢ والشعر والشعراء ١ / ٩٠ ودلائل الإعجاز ص ٢٢-٢٣ .
٩٤ - أحكام القرآن ٣ / ٤٦٩-٤٧٠ ، وقد ذهب حازم القرطاجني إلى قريب من هذا ، وصنَّفَ هذا النسب ضمن قسم سماه الكذب الاختلاقي راجع منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٧٨-٧٩ .

ما نَجِدُهُ في قصيدة كعب ذاتِهَا ، رغم أنها كانت أَوَّلَ قصيدة قالها في إسلامه ،
وأثر أن ينشدها النَّبِيُّ ﷺ في المسجد و مباشرة بعد صلاة الصبح^(٩٥) .
و كل هذا ينسجم تماما مع ما قلناه من قبل من أنَّ المبدع المسلم له الحق في أن
يكتب في كل المواضيع و الفنون ، بشرط أن يظل دائما في دائرة الإيمان و الأخلاق
في تعبيره و تفكيره و سلوكه ، مما يُظهِرُ و بجلاءٍ تِلْكَ الْقِيَمَ الإنسانية النبيلة في
الإبداع الأدبي ، كما تراه السنة النبوية الشريفة .

٩٥ - الروض الأثف للسهيلى ٤ / ١٩١ و السيرة النبوية لابن كثير ٣ / ٧٠٨ و البداية و النهاية المجلد ٢ الجزء ٤
ص ٧٧٥ .

خاتمة :

من خلال ما سبق ، يَظْهَرُ لنا ما تزخر به السنة النبوية الشريفة من قيم إنسانية نبيلة في رؤيتها إلى الإبداع الأدبي ، في كل أبعاده الإنسانية والفطرية والأخلاقية والجمالية .

فقد رأينا ذلك التعامل الإنساني الفريد الذي تعامل به النبي ﷺ مع الموروث الشعري العربي الجاهلي ، مما استنشده من شعر أمية بن أبي الصلت ، أو تمثّل به من شعر ليبد بن ربيعة و طرفة بن العبد ، كما رأينا تلك الرأفة والرحمة التي تعامل بها ﷺ مع أشعار قبيلت في مواقف إنسانية لها تأثيرها الخاص ؛ مثلما رأيناه في تعامله ﷺ مع أبيات لأبي جرول زهير بن صرد الجُسمي ، ومع الأبيات التي قالتها قُتَيْلَةُ بنت الحارث ترثي فيه أخواها النضر بن الحارث الذي كان قد أُسِرَ يوم بدر ، وغير ذلك من الشواهد ، إضافة إلى مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في هذا المجال .

هذا إلى جانب ما رأيناه من حرصه ﷺ على أن يكون الإبداع مرآة للفطرة الإنسانية في كل شيء ، بحيث تُعبّر عن الحَسَنِ وتُطمئنُ إليه ، وتنفّر من القبيح وتُشَمِّرُ مِنْهُ ، مما يعني ، أن السنة المطهرة استجدّات من الشعر ما هو حسنٌ بضمونه الهادف البناء للقيم الإنسانية النبيلة ، و استهجنّت كل ما يسعى إلى تخريب الذوق الإنساني الفطري بكل ما هو قبيح من جميع وجوهه .

وهذا كله ينبع من مكارم الأخلاق التي جُبلَ عليها النبي ﷺ ، وحثَّ عليها المسلمين بعامّة ، و حرص على أن تطبّع إبداعَ المسلم سواء في التعبير عن مشاعره الخاصة ، أو في انتصاره لدينه ولأعراض المسلمين بما يُجسّدُ إنسانيته ومروءته التي تترفع عن الدنّايَا وعن كُلِّ ما يحطُّ من كرامته ، كما رأينا ذلك سواء أثناء الحديث عن التعبير عن الخلق النبيل في الإنسان ، أو أثناء الحديث عن الانتصار للإسلام بالقيم الإنسانية النبيلة ، حيث تجلّى لنا مدى استقامة عود القصيدة الإسلامية بعدها الأخلاقي الرفيع ، سواء في علاقة الشاعر المسلم بذاته ، فلا يعبر عن مشاعره إلا بما يجسد مروءته وأخلاقه ، أو في علاقته بغيره ، وهو يدافع

عن دينه بإبداع رفيع تُظَلُّهُ الأخلاقُ بِظِلَالِهَا الرفيعة رِفْعَةً أَخْلَاقُ الرَّسُولِ ﷺ وكل هذا ينبغي أن يُصاغَ في كلامٍ بَيِّنِيٍّ جميلٍ ، تتوافر فيه معالم الجودة والإتقان ، وقد استشهدنا على ذلك ببعض ما أُثِرَ عن النبي ﷺ في هذا المجال أثناء الحديث عن البعد الجمالي ، حتى يَسْتَكْمِلَ الإبداعُ الأدبيُّ كلَّ عناصرِ بهائه وجماله ، ومن سائر جوانبه الدلالية و الفنية والإيقاعية، كما تراها السنة النبوية الشريفة .

التوصيات

- حبذا لو توصي الأمانة العامة الموقرة لهذه الندوة المباركة بتشكيل لجنة خاصة تجتمع بانتظام ، يُعَهَّدُ إليها إنجاز بحوث علمية أكاديمية متخصصة فيما يلي:
- 1- جمع جميع الأحاديث النبوية الشريفة في الشعر والشعراء والخطباء وتخرجها وبيان رتبها وتبويبها ، حتى يسهل الرجوع إليها من طرف الباحثين المتخصصين والمهتمين .
 - 2- جمع جميع الآثار المنسوبة في هذا المجال إلى الصحابة رضوان الله عليهم وكبار التابعين وتخرجها وتحققها وتوثيقها وبيان رتبها وتبويبها .
 - 3- دراسة القيم الحضارية والإنسانية والأخلاقية في هذه الأحاديث والآثار والشواهد الشعرية و الثرية الواردة فيها، دراسة أكاديمية متخصصة ، تبرز صفاء الرؤية الإسلامية إلى الإبداع ، بما هو تعبير إنساني نبيل يحفظ كرامة الإنسان و يصونها .
 - 4- ترجمة كل هذه الأعمال إلى بعض اللغات العالمية الحية ، حتى يطلع عليها الآخر، ويستفيد منها ، ويدرك ريادة السنة النبوية الشريفة في خدمة الإنسان والحضارة الإنسانية .

المصادر والمراجع

- أحكام القرآن ، أبو بكر ابن العربي ، راجع أصوله و خرج أحاديثه و علق عليه ، محمد عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٤
- الأدب المفرد ، الإمام البخاري ، مؤسسة الكتب الثقافية ، الطبعة الأولى بيروت ، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦ م
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري أبو العباس أحمد القسطلاني ، طبعة دار الفكر ، بدون تاريخ .
- الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار و علماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي و الآثار و شرح ذلك كله بالإيجاز و الاختصار ، أبو عمر ابن عبد البر القرطبي ، تعليق محمد عطا و محمد علي معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠ م .
- الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الجيل بيروت ط ١ ١٩٩٢ .
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن محمد الأمين الشنقيطي ، خرج أحاديثه محمد عبد العزيز الخالدي ، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠
- إعجاز القرآن ، أبو بكر الباقلاني ، شرح و تعليق د. عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، الطبعة ١ ، ١٩٩١ .
- الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني ، عناية : عبد الله علي مهنا و سمير جابر ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٩٨٦ .
- البداية و النهاية ، الحافظ ابن كثير ، توثيق عبد الرحمن اللادقي و محمد غازي بيضون ، دار المعرفة ط ٢ ، ١٩٩٨
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، الفيروزآبادي تح. محمد علي النجار ، المكتبة العلمية ، بلا تاريخ .
- بهجة المَجَالس و أنسُ المَجَالس ، ابن عبد البر ، تحقيق محمد مرسي الخولي دار

- الكتب العلمية بدون تاريخ .
- البيان و التبيين - الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الطبعة الرابعة - دار الفكر بدون تاريخ .
- تاريخ الخلفاء ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق سعد كُرَيْمِ الفقي ، دار اليقين ، المنصورة ط ١- ٢٠٠٣ .
- تفسير التحرير و التنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، بدون تاريخ .
- تفسير القرآن العظيم ، أبو حاتم الرازي ، تحقيق أسعد محمد الطيب ، المكتبة العصرية ط ١- ١٩٩٩ .
- تفسير القرآن العظيم ، الحافظ ابن كثير مكتبة النور العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م .
- تفسير الطبري ، ابن جرير الطبري ، طبعة دار المعرفة ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ .
- تفسير المراغي ، أحمد مصطفى المراغي ، طبعة دار الفكر بدون تاريخ .
- الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله القرطبي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ .
- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه ، محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ط ٢ ، ١٩٨٩ .
- ديوان الخطبة رواية و شرح ابن السكيت ، تحقيق نعمان محمد أمين طه ، مكتبة الخانجي ، ط ١- ١٩٨٧ .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني ، شهاب الدين الألوسي ، طبعة دار الفكر بلا تاريخ .
- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، أبو القاسم السهيلي ، تقديم و تعليق وضبط طه عبد الرؤوف سعد ، دار الفكر ، طبعة ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م .
- السحر و الشعر ، لسان الدين ابن الخطيب ، تحقيق د. محمد مفتاح رسالة مرقونة بخزانة كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، بجامعة محمد الخامس بالرباط ، المغرب

- سلسلة الأحاديث الصحيحة ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع ، الرياض ، الطبعة الأولى (تاريخ الطبع ، حسب المجلدات) من ١٩٩٥ إلى ٢٠٠٢ .
- السنن الكبرى ، للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، تحقيق عبد الغفار سليمان و سيد كسروي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١ م .
- السيرة النبوية للحافظ ابن كثير ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، دار الفكر الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨٢ .
- السيرة النبوية ، ابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري و عبد الحفيظ شلبي دار الفكر ، بلا تاريخ
- شرح السنة ، الإمام البغوي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، المكتب الإسلامي ، ط ٢ ، بيروت ١٩٨٣ .
- شرح المعلقات العشر ، الخطيب التبريزي تحقيق د. فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة ، ط ، ٤ ، ١٩٨٠ .
- شعراء النصرانية قبل الإسلام ، لويس شيخو ، منشورات دار المشرق ، بيروت الطبعة الثالثة ، ١٩٦٧ .
- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت ، بدون تاريخ .
- الشمائل المحمدية و الخصائل المصطفوية ، أبو عيسى الترمذي ، تحقيق وتعليق سيد بن عباس الجليمي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م .
- صحيح مسلم ، دار الجليل ، دار الثقافة ، بيروت بدون تاريخ .
- صحيح مسلم بشرح النووي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت الطبعة الثانية ، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢ م .
- طبقات فحول الشعراء محمد بن سلام الجمحي ، تحقيق محمود محمد شاكر مطبعة المدني ، القاهرة ١٩٧٤ .

- العقد الفريد ، ابن عبد ربه الأندلسي ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨٩ .
- عمدة القارئ شرح صحيح البخاري - بدر الدين أبو محمد العيني ، طبعة دار الفكر ، بدون تاريخ .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ابن حجر العسقلاني ، حقق أصله عبد العزيز بن باز ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ١٩٨٩
- فتح البيان في مقاصد القرآن ، أبو الطيب صدّيق بن حسن علي الحسيني القنوجي البخاري، وضع حواشيه إبراهيم علي شمس الدين ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ .
- فتح المالك بتبويب التمهيد لابن عبد البر على موطأ الإمام مالك ، ترتيب وتحقيق الأستاذ الدكتور مصطفى صميذة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ، ١٩٩٨ و .
- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، الطبعة الحادية عشرة ، دار الشروق ١٤٠٥هـ ١٩٨٥ - الكامل في التاريخ ، عز الدين ابن الأثير ، مؤسسة التاريخ العربي بيروت ، ط ٤ ، ١٤١٤هـ ١٩٩٤ م .
- كتاب الاعتصام ، أبو إسحاق الشاطبي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦ م .
- الكتاب المصنف في الأحاديث ولآثار ، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ، تقديم وضبط كمال يوسف الحوت ، الطبعة الأولى - دار التاج ١٤٠٩ - ١٩٨٩
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التنزيل ، محمود الزمخشري طبعة دار الفكر بلا تاريخ .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، أبو محمد بن عطية الأندلسي ، دار ابن حزم ، ط ١ ، ٢٠٠٢ م .
- مجمع الزوائد و منبع الفوائد ، علي بن أبي بكر الهيثمي ، دار الكتب العلمية

بيروت ١٤٠٨هـ ١٩٨٨ م .

- المزهري في علوم اللغة وأنواعها ، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، دار الجيل ودار الفكر ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم بدون تاريخ .

- المسند ، للأمام أحمد بن محمد بن حنبل ، شرحه و صنع فهارسه ، أحمد محمد شاكر ، مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة ، طبعة ١٩٩١ .

- المسند ، للأمام أحمد بن محمد بن حنبل ، طبعة دار الفكر ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤ م .
- المعجم الأوسط ، الإمام الطبراني ، تحقيق طارق بن عوض الله ، طبعة دار الحرمين ، القاهرة ١٤١٥ هـ .

- المعجم الكبير ، الإمام الطبراني ، تحقيق حمدي بن عبد المجيد ، مكتبة العلوم و الحكم ، الموصل ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ م .

- مشكاة المصابيح ، الخطيب التبريزي ، تحقيق ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي بيروت ط ٣ ، ١٩٨٥ .

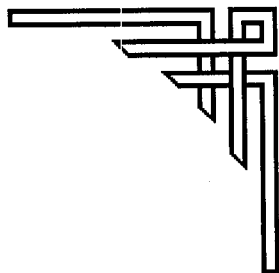
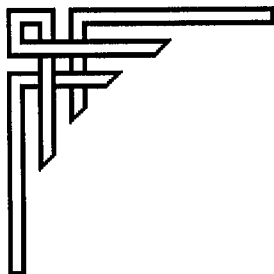
- مصابيح السنة الإمام البغوي ، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي ومحمد سليم إبراهيم سمارة و جمال حمدي الذهبي ، دار المعرفة ، بيروت طبعة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧ م .

- معاني القرآن وإعرابه أبو إسحاق الزجاج ، شرح وتحقيق عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب ط ١ ، ١٩٨٨ .

- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني ، تحقيق محمد بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، ط ٣ ، ١٩٨٦ .

- الموطأ ، الإمام مالك بن أنس ، دار إحياء الكتب العربية ، عناية ، محمد فؤاد عبد الباقي بدون تاريخ .

- التُّكْتُ والعُيون ، وهو تفسير الماوردي ، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري ، مراجعة وتعليق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٢ .



**أصول التعليم والتربية
وقيمتها المعرفية
من خلال السُّنة النَّبَوِيَّة**

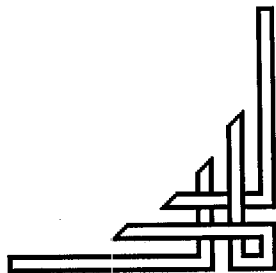
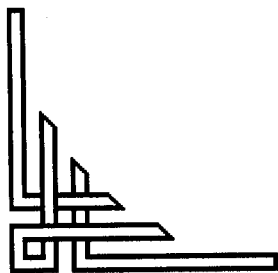
إعداد: الدكتور عبدالفتاح الزيني

أستاذ الحديث وعلومه

رئيس قسم الماجستير والدكتوراه

في الحديث والفقه بين الرواية والدراسة في المدرسة المالكية

جامعة الحسن الثاني المحمدية - الدار البيضاء - المغرب



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

الحمد لله ربّي الناس، القائل في محكم كتابه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١) والصلاة والسلام على الرحمة المهداة، الذي أدبه ربّه فأحسن تأديبه، والرضا عن خريجي المدرسة النبوية، المقتدين بخُلُقِ النبي ﷺ الذي كان منبعه القرآن. أما بعد:

إن مما يفيد خاتمية الرسالة الإسلامية وعالميتها، وصلاحياتها لكل زمان ومكان، هو صياغة النصوص القرآنية والنبوية على جهة الإطلاق والعموم المقتضيين لتقبّل جميع الفهومات عبر مختلف الأزمنة. إذ لو كان النص الشرعي لا يقبل إلا وجهاً واحداً في تفسيره لانسدّت قنوات الاجتهاد، واضمحلت مرونة الدين ويسره.

والنبي ﷺ، بوضعه النبيّ الخاتم، كان يدرك هذه الحقيقة، فلم يفسّر عليه الصلاة والسلام القرآن كلّهُ حتى يبقى المجال مفتوحاً لجميع مَنْ يأتي بعده من المفسّرين وغيرهم.

والرعيل الأول من الصحابة -رضوان الله عليهم- ومن جاء بعدهم في القرون الفاضلة، آمنوا بأنّ الاجتهادَ الفكري والاختلافَ التنوّعي يمثلان سعة الشريعة، واتساع أفاقها.

وفي هذا المنحى، يتنزّل الحديث النبوي الصحيح: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كلّ مائة سنة، مَنْ يجدّد لها دينها»^(٢) تنزيلاً يراعي مستجدات واقع المسلمين.

١- الآية ٤ من سورة القلم.

٢- رواه أبو داود في الملاحم ح. ٤٢٩١ والحاكم في مستدرکه (٤/ ٥٢٢). والبيهقي في المعرفة عن أبي هريرة. وهو حديث صحيح. انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، والمداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي لابن الصديق (٢/ ٣٤٦).

والتجديد الدِّيني، الذي هو فريضة إسلامية، يبرز في تجديد آليات التفكير، بمراجعة حال المخاطبين من المسلمين ومآلهم، والنظر في وضعيتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية، وهذا لا يتأتى إلا بالاطلاع الواسع على العلوم الانسانية التي تساعد المجتهد على فهم أحوال المسلم وما يحيط به من ملاسبات وقضايا، حتى نُخرج فقهاً يراعي أولوياته، ويوازن بين مصالحه، ويرتب حاجياته، ويأخذ بعين الاعتبار إكراهات المرحلة، باستصحاب الرؤية المقاصدية في غالب الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعال المُكَلَّفِين.

أحب أن أشير إلى قضية منهجية أتبعها هذا العمل، وهي اعتماد قناة قراءة دقيقة تتغنى تأصيل المفاهيم استناداً على نصوص السنة الشريفة، مع تحديد المدخل من النصوص الصحيحة حصراً، لأن مجال اشتغال النصوص أوسع من أن تحده هذه المداخلة المتواضعة.

من أجله كان صحيح البخاري قناة مركزية، ومسلكاً متصالحاً مع طبيعة المنهج الحديثي أولاً، وتأكيداً للعمل ضمن المنهج الإبيستيمولوجي الذي يفرض علينا التعامل مع النصوص في نقائها دون الاعتماد على الآراء المسبقة والإسقاطات التي يراها المنهج عوائق إبيستيمولوجية^(٣).

إن ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من ازدهار ورقي في الحقل التربوي كان بالاعتماد على التعاليم النبوية في مجالي التربية والتعليم.

ويقف الباحث مدهوشاً كيف استطاع النبي الكريم ﷺ أن يحول خامات الجاهلية إلى دعاة، ويخرج جيلاً متميزاً من الصحابة أصبحوا علماء وقادة للبشرية.

وتعاني أمتنا اليوم، الانحطاط والتخلف في العلوم، وتتعلق بالمناهج الغربية التي غزتها في عقر دارها، كأنها لا إسهام لها في المعرفة.

٣- انظر تكوين الفكر العلمي: la formation de lesprit scientifique لِكاسْطُون باشلار.

فيريد البحث إن شاء الله - تبيان مناهج التعليم والتربية، وضبط أصولها، وإبراز قيمتها المعرفية من خلال السنة النبوية.

وهناك مقاربات سيحاول البحث الإجابة عنها وهي كالآتي:

- ما هي الأسس العلمية في العملية التعليمية التربوية التي ارتكز عليها الرسول المربي ﷺ؟

- ما هي خصائص التعليم والتعلم من خلال منهج النبوة؟

- ما هي القيمة المعرفية لهذه الأصول؟ ومدى انعكاسها الحضاري على سلوك الفرد والجماعة.

وهذا البحث يمثل دراسةً علميةً أكاديمية، متواضعة، مع العلم أن تراثنا العربي الإسلامي زاخر بأسماء الأعلام المؤلفين في مجال التربية والتربية والتعليم أمثال: ابن سحنون (ت ٢٥٦هـ) والقاسبي (ت ٤٠٣هـ) والخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، وابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) والسمعاني (ت ٥٦٢هـ) (وابن الحاج العبدري (ت ٧٣٧هـ)، وابن جماعة (٣٣٧هـ)، والمواق (ت ٨٩٧هـ)....

وأخيراً: فهذه محاولة تخطو خطواتها بخجل، في أفق توسيعها وتعميمها بشروطها المتمثلة في احترام النصوص، وعدم التعسف في تفسيرها، واحترام الضوابط اللغوية لاستنباط المعاني كما قُعدت من طرف المحدثين والفقهاء والأصوليين وعلماء اللغة.

الأساس الأول: الحث على التعلم بذكر فضل العلم

رغب الدين الإسلامي في طلب العلم، للأثر الإيجابي له على المتعلم والمجتمع الذي يعيش فيه.

والوحيُّ بقسميه القرآنُ والسنةُ غنيٌّ بالنصوص الداعية إلى طلب العلم، وحثُّ المكلف على الاستزادة منه، وترغيب الناس فيه.

وتؤكد هذه النصوص على أهمية العلم في بناء الفرد الصالح، وصياغة المجتمع الفاضل، وعلى دوره في البناء الحضاري عامة.

فلم يكن من العبث أن تكون كلمة: ﴿ أَقْرَأُ ﴾ هي أول ما نزل على رسول الله ﷺ من الوحي، فهي كلمة عامة ومطلقة، تَوَلَّتْ أغلبُ نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة أمر تفسيرها وتبيينها والتععيد لها.

ولهذا وجدنا كثيراً من العلماء يولون اهتماماً كبيراً بالعلم وبيان فضله، وجرى على هذا النهج الإمام البخاري (ت ٢٥٦هـ) -رحمه الله تعالى- في الجامع الصحيح حيث صدر كتاب العلم بقوله: باب فضل العلم، ولم يورد فيه حديثاً يدل على فضل العلم، إشارة منه -رحمه الله- إلى أن فضل العلم معروف ومشهور يُسْتَعْنَى عن ذكر حديث أو حديثين فيه.

وهذا يعكس بوضوح وعي البخاري بجوهر رسالة الإسلام الحضارية التي تقوم على العلم والقراءة. والعلم في الإسلام عبادةٌ، وطريقٌ إلى المعرفة الدينية، ومن هنا تأتي أهميته، فهو وسيلة للتقرب إلى الله عز وجل وليس هدفاً قائماً بذاته، للحديث النبوي: «من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»^(٤).

لم تكتف السنة النبوية بالترغيب في طلب العلم والحث عليه، وذكر فضله وأثره، والثواب الذي يحصل عليه المتعلم، بل جعلته واجباً عينياً لقول رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(٥).

فجعل الرسول الكريم ﷺ طلب العلم فريضة عينية على كل من انتسب لهذا

٤- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر (ح ٢٦٩٩) من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة. وأخرجه الترمذي في أول أبواب العلم (١٣٧/٤) وقال: هذا حديث حسن. قال ابن حجر في الفتح (١/١٦٠): ولم يقل الترمذي له صحيح لأنه يقال إن الأعمش دلس فيه، فقال: حدثت عن أبي صالح. قلت: لكن في رواية أبي أسامة عن الأعمش: حدثني أبو صالح، فانتفت تهمة تدليسه.

٥- أخرجه ابن ماجه باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (١/٨١) (ح ٢٢٤) وابن عبد البر في أول جامع بيان العلم وفضله، من طريق حفص بن سليمان عن كثير بن شظير عن ابن سيرين عن أنس مرفوعاً بزيادة: «وواضع العلم عند غير أهله كمثل الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب». وحفص ضعيف جداً بل كذبه بعضهم. واختلف العلماء في تصحيحه وتضعيفه، فحسبه المزني، والسخاوي في المقاصد (ص ٢٧٥-٢٧٧) وذكر العراقي عن بعض الأئمة تصحيح بعض طرقه. وصححه أيضاً السيوطي. واستوعب طرقه أحمد بن الصديق في جزء سماه: «المسهم في طرق حديث طلب العلم فريضة على كل مسلم». وحكم بصحته. وقال السخاوي: قد ألحق بعض المصنفين بآخر هذا الحديث: «ومسلمة»، وليس لها ذكر في شيء من طرقه وإن كان معناها صحيحاً.

الدين الإسلامي، فسوّى بين وجوب طلب العلم ووجوب سائر العبادات من صلاة وزكاة وغيرها

ووجوب طلب العلم مقدّم على سائر الواجبات الأخرى لأن به تعرف أحكام الدين، يقول الحق سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٦) فبالعلم يعرف الحق سبحانه وتعالى.

ومن فطنة إمام المحدثين البخاري تبويبه بهذه الآية في كتاب العلم، في الباب العاشر إذ قال: العلم قبل القول والعمل لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾. قال ابن المنير معلقاً على هذه الترجمة: أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به، فهو متقدّم عليهما لأنه مصححٌ للنية المصححة للعمل، فنبّه البخاري على ذلك حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم: إن العلم لا ينفع إلا بالعمل تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه^(٧).

كما أن قول الله عز وجل: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٨) خطاب رباني يحث فيه تعالى نبيه الكريم على الاستزادة من نعمة العلم، وهي النعمة الوحيدة التي أمر نبيّنا عليه الصلاة والسلام بطلب المزيد منها، غير أن الخطاب في هذا النص القرآني، وإن كان يعني رسول الله ﷺ أصالةً، فهو موجه إلى كافة المكلفين تبعاً، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما يقول العلماء.

وإذا كان القرآن الكريم حثّ الناس على طلب المزيد من العلم، فقد بيّن ثمرات ذلك، أقلها أن من شأن العلم أن يرفع المملوك إلى درجة المملوك، لقول الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾^(٩).

٦- الآية ١٩ من سورة محمد.

٧- فتح الباري لابن حجر (١ / ١٦٠).

٨- الآية ١١٤ من سورة طه.

٩- الآية ١١ من سورة المجادلة.

ورد في صحيح مسلم عن نافع بن عبدالحارث الخزاعي وكان عامل عمر على مكة - أنه لقيه بعُسفان فقال له: مَنْ استخلفت؟ فقال: استخلفتُ ابنَ أبزى مولى لنا. فقال عمر: استخلفتَ مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض. فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين». (١٠)

ونذكر بعض الأحاديث النبوية الدالة على فضل العلم، منها:

- ١- «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» (١١)
- ٢- «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» (١٢).
- ٣- «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقيةً قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادبٌ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلاً. فذلك مثل من فقه دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلتُ به». (١٣)
- ٤- «يا أيها الناس تعلّموا، إنما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه». (١٤)

١٠- أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها (ح ٨١٦)
 ١١- رواه البخاري في العلم (ح ٧١) ومسلم في الزكاة (ح ١٠٣٧) من حديث معاوية.
 ١٢- رواه البخاري في العلم (ح ٧٣) ومسلم في صلاة المسافرين (ح ٨١٦)
 ١٣- رواه البخاري في العلم (ح ٩٧) ومسلم في الفضائل (ح ٢٨٢٢)
 ١٤- أورده ابن أبي عاصم كما في الفتح، والطبراني في المعجم الكبير (١٩ / ٣٩٥) حديث رقم (٩٢٩) من حديث معاوية، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١ / ١٢٨) في باب العلم بالتعلم: وفيه عتبة بن أبي حكيم وثقه أبو حاتم وأبو زرعة وابن حبان وضعفه جماعة وقال في الفتح (١ / ١٦١): إسناده حسن، إلا أن فيه مبهماً اعتضد بمجيئه من وجه آخر. وروى البزار في مسنده (٥ / ٤٢٣) نحوه من حديث ابن مسعود موقوفاً، ورواه أبو نعيم والأصبهاني مرفوعاً.

٥- «العلماء ورثة الأنبياء»^(١٥).

لا شك أن هذه النصوص تتضمن أصولاً تربوية وضوابط تعليمية نستخلص منها ما يلي:

يستفاد من الحديث الأول:

- حاجة المتعلمين إلى العلم الشرعي.
- عين الفهم في العلم لا يكون إلا بمراعاة الضوابط التربوية والمحددات التعليمية.

ويستنبط من الحديث الثاني:

- غرس روح التنافس الشريف بين المتعلمين.
- تشجيع المتعلمين على الازدياد من العلم.
- مراعاة قدرات الطلبة في الفهم.
- إدراك المعلم أو المربي أنه لا يصل إلى درجة أن يغبط إلا إذا كان لديه اقتناع تام بأنه في حاجة مستمرة إلى التعلم، وأن هناك من هو أعلم منه. ولا ينبغي أن يمنعه تبوؤه لمنصب التعليم من الجلوس بين يدي الأساتذة للاستفادة والتكوين والتقويم، وهذا ما يعبر عنه في علوم التربية بـالتكوين المستمر

'la formation continue

أما الحديث الثالث فيشير إلى خصائص المنهجية التعليمية الواجب توفرها عند المعلم، ومنها:

- حرص المعلم على تعليم الطلاب بكل وسيلة يستطيعها.
- ضرب المعلم الأمثلة أثناء الدرس لتعزيز العملية التعليمية.
- حرص المعلم على أن تكون الأمثلة قريبة من فهم الطالب، ومن بيئته ليتمكنه استيعابها.

١٥- رواه أبو داود (ح ٣٦٤١) والترمذي في العلم باب ١٩ وابن ماجه (ح ٢٢٣) وأحمد (١٩٦/٥) والدارمي (٩٨/١) وابن حبان (ح ٨٠ موارد) والحاكم كما في الفتح، وصححه من حديث أبي الدرداء. قال في الفتح (١/١٦٠): "وحسنه حمزة الكناني، وضعفه غيرهم [لاضطراب] سنده، لكن له شواهد يتقوى بها

وهذا الأساس التربوي الأول الذي فصلنا القول فيه بإيجاز، لا يؤتي أكله إلا إذا أُعِدَّ له زمرة من الأساتذة الأكفاء تربوياً وخلقياً، إذ العلم ينبغي أخذه من مظاهره الأصلية، ونقصد بذلك العلماء العاملين المخلصين. وفي هذا يقول البخاري في أول كتاب الفرائض من صحيحه: قال عقبه بن عامر رضي الله عنه: تعلموا قبل الظانين قال البخاري: يعني الذين يتكلمون بالظن ^(١٦).

قال ابن عباس رضي الله عنهما (ت ٦٨هـ): "كونوا ربانيين حكماء فقهاء". ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره. ^(١٧)

وجعل الأساس الأول هو: الحث على التعلّم بذكر فضل العلم مسألة تعليمية أولية تتجلى في إبراز أهمية المادة المقبل عليها المتعلّم. لأن في هذا تعريفاً له بخصائص المادة، وتحفيزاً له على استكشاف كنهها لتحصل عنده الرغبة. فحبُّ المادة المُدرّسة يساعد على سرعة التلقي وسهولة التواصل وحسن التفاعل. وهذا الشوق الذي يتولد عند المتعلم، يدفعه أحياناً إلى الرغبة في إتقان هذا العلم والتفوق على الأقران. هذا ما جعلنا نسمي الأساس الثاني بإصلاح النية حتى تكون نية المتعلم خالصة لوجه الله تعالى.

الأساس الثاني: إصلاح النية

الركيزة الأولى في طلب العلم هي إصلاح النية، لأن الله تعالى لا يقبل أيَّ عملٍ حتى يكون خالصاً لوجهه الكريم، إذ سلامة القصد شرط أساس في العملية التربوية والتعليمية شأنها في ذلك شأن كل العبادات.

فالأعمال تتبع النية، وصحتها وكمالها بحسب سلامة النية وخلوصها من الشوائب لقول الرسول ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» ^(١٨).

١٦- صحيح البخاري: كتاب الفرائض: الباب رقم ٢.

١٧- صحيح البخاري كتاب العلم باب ١٠.

١٨- رواه الأئمة المشهورون، إذ أخرجه البخاري في سبعة مواضع من صحيحه، ومسلم في الإمارة (ح ١٠٩٧) وأبو داود (ح ٢٢٠١) والترمذي (ح ٢٨٣/٥-٢٨٤ تحفة) والنسائي (١/ ٥٨-٦٠) وابن ماجه (ح ٤٢٢٧) ومالك في رواية الشيباني باب النوادر (ح ٩٨٣)

فهذا الحديث النبوي، المشهور على الألسنة، صدر به جماعة من العلماء مصنفاتهم، حتى يستشعر العالم والمتعلم ضرورة اصطحاب النية الخالصة لله في الطلب والتبليغ.

والنية لها مقاصد عقدية، وأبعاد تربوية تتجلى في سلوك المتعلم والمعلم على السواء، لتتجسد القدوة، ويحصل التأسي، وتنعكس النتائج التربوية المطلوبة.

وفي هذا الصدد نذكر أحاديث نبوية تبين خطورة وعظم أمر النية، منها:

١- «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه [ثلاثة]، منهم: رجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأُتي به فعرفه نعمة فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمتُ العلم وعلمته وقرأتُ فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم. وقرأت القرآن ليقال هو قارئ. فقد قيل. ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار». (١٩)

٢- «من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة». (٢٠)

٣- «من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار». (٢١)

وتبعاً لهذا فالعلم إذا لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى، ولم يختم بالنية الصادقة،

١٩- رواه مسلم في الإمارة (ح ١٩٠٥) عن أبي هريرة والحاكم في العلم (١/ ١٠٧).
٢٠- رواه أحمد (٢/ ٣٣٨) وأبو داود في العلم (ح ٣٦٦٤) وابن ماجه في المقدمة (ح ٢٥٢) وابن حبان (ح ٨٩ موارد) وأبو يعلى (١١/ ٢٦٠ ح ٦٣٧٣)

٢١- رواه الترمذي في العلم (٧/ ٤١٤ تحفة) واللفظ له عن كعب بن مالك وقال: هذا حديث غريب وإسحاق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القوي عندهم، تكلم فيه من قبل حفظه. ورواه ابن ماجه (ح ٢٥٣) عن ابن عمر. قال في الزوائد: إسناده ضعيف لضعف حماد وأبي كرب. وأخرجه ابن ماجه (ح ٢٥٤) وابن حبان (ح ٩٠ موارد) من طريق ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٨٣-٨٤) عن أنس، وأم سلمة، ومعاذ بن جبل، وكلها فيها ضعف. قلت: وهذه الطرق يقوي بعضها بعضاً مما يفيد أن الحديث حسن لغيره.

كان رياء في الدنيا وحسرة في الآخرة على صاحبه وندامة .
وإصلاح النية غرض أساسي يتقاسمه المعلم والمتعلم، فكل منهما يريد بعلمه
الطاعة والتقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنّع لمخلوق أو اكتساب
محمّدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو مباهاة الأقران أو أغراض دنيوية .
فالمعلم يقصد بتعليمه وتهذيبه طلبه العلم وجه الله تعالى، ونشر العلم وإحياء
الشرع، ودوام ظهور الحق وخمول الباطل ودوام خير الأمة بكثرة علمائها
ومتعلميهاح

فعلى المعلم والمتعلم أن يحرصا ويجاهدا على إخلاص النية لله تعالى ابتغاء
للثواب والأجر من الله تعالى . وإن حصل بعد ذلك مدح أو ثناء أو إعجاب من
الناس فذلك فضل من الله .

قال ابن رجب الحنبلي (٥٩٧هـ): فأما إذا عمل العمل لله خالصاً ثم ألقى الله
له الثناء الحسن في قلوب المومنين ففرح بفضل الله واستبشر بذلك لم يضره
ذلك .

وفي هذا المعنى جاء حديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه «سئل عن الرجل
يعمل العمل لله من الخير ويحمده الناس عليه؟ فقال: تلك عاجل بشرى
المؤمن»^(٢٢) .

ومعالجة النية ليس بالأمر الهين كما يعتقد البعض اليوم .
فهذا سفيان الثوري (ت ١٦١هـ) رحمه الله تعالى يقول: ما عاجلت شيئاً أشدّ
عليّ من نيّتي أنها تقلّب عليّ^(٢٣) .
وصح عن الشافعي: وددت أن الخلق يتعلّمون هذا العلم ولا ينسب إليّ حرف
منه^(٢٤) .

ولغرس النية في نفوس المتعلّمين، يتعيّن ترغيبهم في التعلّم وتحسين نيّتهم في

٢٢- جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص ١٧) والحديث أخرجه مسلم في صحيحه (ح ٢٦٤٢)

٢٣- لجامع لأدب الراوي وأخلاق السامع للخطيب (١/ ٣١٧)

٢٤- حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ١١٨) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٥١/ ٣٦٥).

طلب العلم وتأهّبهم لتلقي العلم، لأنهم إذا أدركوا أن المثابرة على العلم والاندفاع في طلبه يؤدي إلى تصحيح النية فسيسارعون في تحصيله ويتأدّبون بأدابه.

وفي هذا المعنى يقول التابعي الجليل الحسن البصري: كنا نطلب العلم للدنيا فجرّنا لآخره^(٢٥).

وورد عن بعض السلف: طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله^(٢٦).
يفهم من هذه الآثار أنه لو شرط إخلاص النية في تعلّم المبتدئين - مع وعورته على أغلبهم - لأدّى ذلك إلى تفويت العلم على طلابه وانقلبت النتائج التربوية والتعليمية.

الأساس الثالث: تكافؤ الفرص بين الذكور والإناث في التعليم

وإذا كان العلم وطلبه بهذه الأهمية، فإنه لا يمكن تحقيق الهدف المرجو منه إلا بتكافؤ الفرص في طلبه بين الذكور والإناث، على اعتبار أن المرأة مثلها مثل الرجل في كونها مسؤولة أمام الله تعالى في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فيما فرض عليها من العبادات، لهذا كان لها الحق بل عليها واجب تعلم الأمور التي لا يتحقّق الدين إلا بتعلّمها، فهي تشترك مع الرجل في العمل على تحقيق هدف التربية الإسلامية في نفسها ومنزلها وولدها، ولهذا فإن الرسول ﷺ كان لا يقبل دخول امرأة دين الإسلام حتى تتعلم أهمّ مبادئ الدين، وتبايع على تحقيق هذه المبادئ، وتتعهّد بتطبيق ما علمت. فالتعلم في حق المرأة كالتعلم في حق الرجل كلاهما مقترن بالعمل.

ويجمل بنا إيراد بعض الأخبار النبوية التي تدل على طلب المرأة العلم وحرصها عليه، وتعليم النبي ﷺ للنساء والرجال، منها:

٢٥- قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث للقاسمي (ص ٣٩٩)
٢٦- سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ١٥٢). وفتح المغيث للسخاوي (٢/ ٢٨١).

١- جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! ذهب الرجال بحديثك، وفي رواية أخرى: «غلبنا عليك الرجال» فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله. فقال: اجتمعن في يوم كذا وكذا في مكان كذا وكذا، فاجتمعن، فأتاهن رسول الله ﷺ فعلمهن مما علمه الله. ثم قال: ما منكن امرأة تقدّم بين يديها من ولدها ثلاثة إلا كان لها حجاباً من النار. فقالت امرأة منهن يا رسول الله: واثنين؟ قال: فأعادتها مرتين. ثم قال: «واثنين واثنين واثنين». (٢٧)

يدل هذا الحديث على المعطيات التربوية والتعليمية الآتية:

- تخصيص النساء بهذا اليوم ليتعلمن فيه أمورهن الخاصة بالإضافة إلى حضورهن مع الرجال في دروسهم.

- مجازاة الحريص على العلم ومكافئته لإشباع نهمه.

- حرص النساء على العلم، جعل العلم يأتيهن خلافاً للمعتاد، كما أن البخاري ترجم لهذا الحديث في كتاب (٣) العلم بقوله باب (٣٥) هل يُجعل للنساء يوم على حدة، وعنون له في كتاب (٩٦) الاعتصام بقوله: باب تعليم النبي (أمته من الرجال والنساء مما علمه الله ليس برأي ولا تمثيل).

٢- «أن أسماء سألت النبي ﷺ عن غسل المحيض؟... وفيه قالت عائشة: نعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين». (٢٨)

ويؤخذ من هذا الحديث على المستوى التعليمي ما يلي:

- على المتعلم تجب الخجل والتكبر لأنهما يمنعان من التعلم.

- جراءة الإناث في طرح السؤال يجب أن تكون مقيّدة بالأدب والحياء.

- مراجعة المتعلم المعلم فيما أشكل عليه من الدرس.

٣- قال رسول الله ﷺ مخاطباً الشفا بنت عبد الله: «ألا تعلمين هذه [يعني حفصة] رقية النملة (٢٩) كما علمتها الكتابة». (٣٠)

٢٧- أخرجه بهذا اللفظ البخاري في الاعتصام باب (٦) ح ٧٣١٠ ورواه أيضاً في العلم. حديث ١٠١.

٢٨- رواه بهذا اللفظ مسلم في الحيض ح (٣٣٢)

٢٩- نملة: قروح تخرج في الجنب.

٣٠- رواه بهذا اللفظ أبو داود في الطب ح (٣٨٨٧) والنسائي في الكبرى (٤ / ٣٦٦) وأحمد (٦ / ٣٧٢).

ويستفاد من هذا الحديث:

- مشروعية تعليم المرأة الكتابة.

- استحباب تعليم المرأة ما يتعلق بالتطبيب.

أما الحديث المروي عن عائشة مرفوعاً: «لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور» فهو حديث موضوع.^(٣١)

٤- حديث أبي موسى الأشعري: «ثلاثة لهم أجران... وفيه: رجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران».^(٣٢)

يؤخذ منه تربوياً:

أ- ضرورة تعليم المرأة لأنها نصف المجتمع.

ب- استحباب تعليم خادمت البيوت لما لهن من تأثير على تربية النشء.

ج- على المعلم بذل قصارى جهده في حسن تعليم أهله، بل حتى أمته لأن العلم مشاع بين جميع الناس، ويعتبر حقاً للمرأة كأخيها الرجل، فهما يعملان جنباً إلى جنب في تعلم العلم وحفظه، إذ تعليم المرأة هو عين الحرص على طلب العلم. بل ينبغي تخصيص برامج تعليمية خاصة بالنساء وهو ما يعبر عنه بالتربية النسوية التي تشمل إعطاء الدروس، وإقامة المحاضرات، وتهيئة الورشات بالموضوعات اللصيقة بالمرأة من حيث إنها أنثى.

وعدم إشراك المرأة التي يقع على كاهلها صناعة^(٣٣) الأجيال هو دروس العلم وضياعه وذهاب العلماء.

٣١- رواه الحاكم (٢/ ٣٩٥-٣٩٦) وعنه البيهقي في الشعب (٢/ ٤٧٧ ح ٢٤٥٣) وقال الحاكم عقبه: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. فتعبه الذهبي بقوله: بل موضوع، وآفته عبد الوهاب بن الضحاك قال أبو حاتم: كذاب. ورواه الطبراني في الأوسط (٦/ ٣٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٩٣): وفيه محمد بن إبراهيم الشامي، قال الدارقطني: كذاب.

٣٢- رواه البخاري في كتاب العلم باب تعليم الرجل أمته وأهل بيته (ح ٩٧) ومسلم في كتاب الإيمان (ح ١٥٤)

٣٣- اقتبستُ مصطلح صناعة من قوله تعالى في سورة طه الآية ٣٨: ﴿ولتصنع على عيني﴾

ويَتَبَيَّنُ مما اقتبسناه من هذه الأحاديث وغيرها مما لم نذكره هنا مخافة التطويل أن المبادئ والأسس التربوية المعمول بها حالياً في كبريات المدارس الغربية مبثوثة في دواوين الحديث النبوي ومؤلفات الفقه الإسلامي، ومصنفات التراث العربي الإسلامي.

وتمثل لهذا التنظير التربوي المقتبس من صميم الأحاديث النبوية بصنيع فقيه ومجتهد المحدثين أبي عبدالله البخاري في كتاب العلم من صحيحه، بتراجمه التربوية والتعليمية المستنبطة بدلالة العبارة من منطوق الأحاديث، حيث خصص لموضوع تعليم المرأة وتربيتها الأبواب الآتية:

الباب ٢٦ وعنوانه ب: الرحلة في المسألة النازلة وتعليم أهله.

والباب ٣١ وترجمه ب: باب تعليم الرجل أمته وأهله.

والباب ٣٢ وسماه ب: باب عظة الإمام النساء وتعليمهن.

والباب ٣٥ والذي قال فيه: باب هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم؟ والملاحظ أن البخاري يشرك في وجوب تعليم الأنثى الأب والأخ والزوج والحاكم، فكل واحد من هؤلاء له جزء من المسؤولية في ذلك التعلم، وبالتالي فهو يلزم الأسرة والمجتمع بتعليم الأنثى بنتاً كانت أو أختاً أو زوجة أو فرداً من أفراد المجتمع.

وتكافؤ الفرص بين الذكور والإناث في العملية التعليمية لا يعني بالضرورة أن تدرّس نفس الدروس لكلا الجنسين، فهذا خطأ تقع فيه المناهج التربوية المعاصرة، لعدم مراعاتها التخصص التربوي وفق طبيعة وتركيبه الجنسين النفسية والعضوية^(٣٤).

فالعبارة ليست بالقدرة العقلية على الدراسة والتحصيل، فنحن لا نعيش بعقولنا وحدها ولكن بكياننا كله: كياننا النفسي والعاطفي والجسدي والعصبي

٣٤- المرأة بين الفقه والقانون / مصطفى السباعي (ص: ١٦٦).

بالإضافة إلى كياننا العقلي والروحي^(٣٥).

فهذه المساواة بين الجنسين مغلوبة، فمهام الرجل تختلف عن مهام المرأة، فقد خلق الله كلا منهما لأداء وظائف منوطة به تتوافق مع طبيعته وفطرته، ويتعسر القيام بها على غيره، وللأسف فإن التعليم في البلاد الإسلامية لم يأخذ في الاعتبار الاختلاف بين الجنسين فصيغت المناهج ووضع المحتوى على أساس المساواة بينهما تقليداً للغرب وجرياً وراء نظمهم التربوية الوضعية^(٣٦).

والحال أن الإرث التربوي الإسلامي متمثلاً في جامع الإمام البخاري يؤكد على أن هذه المساواة خاطئة، فنجدته يعقد باباً يذكر فيه ضرورة تخصيص لقاءات علمية وتربوية تلامس موضوعاتها قضايا تهم المرأة وحدها في حياتها^(٣٧).

ومن هنا اختلط هذا المفهوم التربوي على بعض خصوم الإسلام، فحسبوا أن هذا التوجيه رقابة على تعليم المرأة دون الرجل، وهو خطأ أفسد على الناس التصور الحق للتعليم في الإسلام، فلا أدل على حسن التوجيه التربوي من فريضة تعليم المرأة، تعاملها مع وضعها الطبيعي في الحيض والنفاس وعلاقتها بزوجها وأبنائها والمجتمع ككل^(٣٨).

الأساس الرابع: تعليم الصغار

والكلام على وجوب تعليم المرأة يقودنا بالضرورة إلى الإشارة إلى تعليم الصغار، هذا التعليم الذي يتقاسمه البيت والمدرسة.

وقد يكون من الأمثلة والنماذج المهمة التي صرفها القرآن لنا، ما قصّه على الرسول القدوة ﷺ والمسلمين من بعده إلى يوم الدين، من قصة لقمان الحكيم في إطار تربية الأبناء، لتشكل تلك القصة منطلقات خالدة موحى بها لكل عمل

٣٥ - منهج التربية الإسلامية / محمد قطب (٢ / ٣٠٨-٣٠٩).

٣٦ - قضية التعليم في العلم العربي / مجلة المجتمع العدد (٨٣٤) (ص: ٣٦).

٣٧ - انظر: باب ٣٥ هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم.

٣٨ - الأمة الإسلامية في مواجهة التحدي الحضاري / د. عبد العزيز بن عثمان التويجري (ص: ١٣٥).

ثقافي أو تربوي أو إعلامي في مجال الأطفال في كل زمان ومكان.
والسنة النبوية تزخر بنماذج حية تُعنى بالصغار تعليمياً وتربوياً بمنهج نبوي
استطاع أن يربِّي به خامات الجاهلية فكيف بالصغار.

واختلف المحدثون قديماً في السنِّ التي يصح فيها سماع الصبي العلم
وعقدوا لذلك أبواباً في كتبهم مما يدل على تجاوزهم مسألة تعليم الصبيان إلى
مسألة أعمق منها وأكثر نضجاً، واعترافاً بقدرات الصغار، ألا وهي هل يصح
الاحتجاج، بما حصَّله راوي الحديث وهو صغير؟ وما هو أدنى حدِّ لذلك؟ وهل
هناك قاعدة منضبطة في ذلك أم أن الأمر يختلف بحسب القدرات الإدراكية
والمؤهلات النفسية مع اتفاقهم أن الصغير لا يؤدِّي علمه إلا بعد البلوغ.

وانطلاقاً من هذا المبدأ التربوي، لاحظ الإمام البخاري وجوب العناية
بالأحداث، وإتاحة الفرصة لهم للتزود والحفظ والفهم خاصة إذا وُجدت فيهم
الأهلية لذلك، فعقدَ الباب (١٨) من كتاب العلم الذي يستفسر فيه عن سن
تعليم الصغير. فلم يضع السؤال بقوله: هل يصح سماع الصغير؟ بل قال: متى
يصح سماع الصغير؟، وذلك لأن البخاري يجزم جزماً باتاً بضرورة تعليم
الصغار، وإنما ترك مسألة الفصل في تحديد السن المناسب للتعليم للمتخصصين
حسب تغير الزمان والمكان، وكأنه لمس ذلك من خلال رحلاته العلمية ومشاهداته
في مختلف البلاد الإسلامية.

وهذه قضية تعليمية لم تلتفت لها المناهج والنظريات الحديثة في التربية، وإنما
تلقتي هذه المناهج المعاصرة مع استنباطات المحدثين من السنة النبوية في
ضرورة الاهتمام بالطفل في مراحلهِ الأولى، لأنه أصبح من الأمور البديهية
والمسلم بها الآن لدى خبراء التربية أن التعليم في مرحلة الطفولة المبكرة ذو أثر
عميق في نمو طاقات الفرد وفي تهيئة مداركه لمزيد من التعليم في مستقبل حياته،
وإذا كنا لا نذهب إلى ما وصل إليه علماء التحليل النفسي من مبالغة مفرطة في
تأثير عوامل النمو في السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل على تكوين
شخصيته واتجاهاته في المستقبل، فإننا لا يمكن أن نقلل في الوقت نفسه من الأهمية

البالغة لعوامل التنشئة الأولى في تكوين القيم والاتجاهات والعادات^(٣٩).
ولذلك حرص الصالحون على تعليم الصغار من أبناء المسلمين والتذكير
بضرورة العلم للناشئة اقتداءً بسنة المصطفى ﷺ.

قال عبد الرحمن ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) لابنه في كتاب "لفتة الكبد في
نصيحة الولد: تعلّم بالدليل أنك مخلوق مكلف وأن عليك فرائض أنت مطالب
بها...^(٤٠).

وفترة الحداثة من أعمار الطلاب فرصة لاغتنام مواهبهم، وقد قيل: إن حفظ الغلام
الصغير كالنقش في الحجر، وحفظ الرجل بعدما يكبر كالكتاب على الماء^(٤١).

ومن الوقائع التربوية ذات الصلة بتربية وتعليم الصغار، نورد الأحاديث الآتية:
١- أتى النبي ﷺ بِقَدَحٍ فَشَرِبَ مِنْهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ غَلامٌ أَصغَرُ القومِ، والأشياخُ عن
يساره، فقال: «يا غلام! أتأذن لي أن أُعطيَهُ الأشياخُ؟ قال: ما كنت لأؤثرَ
بفضلي مِنْكَ أَحداً يا رسولَ الله، فأعطاه إياه»^(٤٢).

يستفاد من هذا الحديث:

- تعليم الصغار احترام من هو أكبر منهم.
- مخاطبة الصغير على أن له مكانة وأن رأيه معتبر وعدم إلغاء وجوده وهضم
حقه.

٢- عن سيّار^(٤٣) قال: «كنت أمشي مع ثابت البناني^(٤٤) فمرّ بصبيان فسلمّ عليهم،
وحدّث ثابت أنه كان يمشي مع أنس فمرّ بصبيان فسلمّ عليهم، وحدّث أنس
أنه كان يمشي مع رسول الله ﷺ فمرّ بصبيان فسلمّ عليهم»^(٤٥).

٣٩- التنمية البشرية: حامد عمار (ص: ١٥٠).

٤٠- لفتة الكبد في نصيحة الولد (ص: ٢٩).

٤١- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٣١١).

٤٢- رواه البخاري في كتاب المساقاة باب (١) في الشرب حديث ٢٣٥١ ومسلم في كتاب الأشربة (ح ٢٠٣٠).

٤٣- سيار أبو الحكم العنزي واسمه وردان من كبار أتباع التابعين. مات سنة ١٢٢هـ. التقريب (١/ ٣٤٣).

٤٤- ثابت بن أسلم البُناني، أبو محمد البصري، التابعي العابد الثقة، مات سنة بضع وعشرين. التقريب لابن حجر (١/ ١١٥).

٤٥- رواه بهذا اللفظ مسلم في السلام (ح ٢١٦٨) والبخاري في الاستيذان باب التسليم عليالصبيان (ح ٦٢٤٧).

قال ابن بطال: سلام النبي ﷺ على الصبيان من خلقه العظيم، وأدبه الشريف وتواضعه عليه السلام، وفيه تدريب لهم على تعليم السنن، ورياضة لهم على آدابه الشرعية ليلبغوا حدّ التكليف وهم متأدّبون بأدب الإسلام، وقد كان عليه السلام يمازح الصبيان ويداعبهم ليقنّدي به في ذلك.^(٤٦)

٣- عن ابن عباس قال: «كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال لي: يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفّت الصحف».^(٤٧)

وفي هذا الحديث فائدة تربوية مهمة تتجلّى فيما يلي:

مخاطبة الرسول ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وهو صغير السن، بهذه الأمور الكبيرة التي تمس الجانب العقدي، تدل على قضية تربوية أساسية وهي ضرورة فتح الآفاق للمتعلم لاستشراف المستقبل وإعلامه بمهمات الأمور حتى ترسّخ في ذهنه، ويتحمّل المسؤولية شيئاً فشيئاً حتى يصير قادراً على القيام بها على أحسن وجه.

٤- عن عمر بن أبي سلمة^(٤٨) قال: «كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ وكانت

٤٦- شرح ابن بطال (٢٥ / ٩).

٤٧- (أخرجه الترمذي في صفة القيامة ح ٢٦٣٤ (٧ / ٢١٩ - ٢٢٠ تحفة) وقال عقبه: حسن صحيح، وأحمد (٢٩٣ / ١) كلاهما عن طريق حنّش الصنعاني. وأخرجه الحاكم في المستدرک (٥٤١ / ٣) من طريق عبدالمك بن عمير.

قال ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (ص ١٨٤): وقد روي هذا الحديث من طرق كثيرة ... وأصح الطرق كلها طريق حنّش الصنعاني التي خرجها الترمذي، كذا قال ابن منذه وغيره ... وذكر العقيلي أن أسانيد الحديث كلها لينة وبعضها أصلح من بعض. وبكل حال فطريق حنّش التي خرجها الترمذي حسنة جيدة.

٤٨- عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، ربيب النبي ﷺ، صحابي صغير، أمه أم سلمة زوج النبي ﷺ، وأمره عليّ على البحرين، مات سنة ٨٣هـ.. التقريب (٥٦ / ٢).

يدي تطيش في الصفحة، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام سمّ الله، وكل بيمينك، وكل ممّا يليك». فما زالت تلك طعمتي بعد.^(٤٩)

يمكننا أن نهمل من هذا الحديث قواعد تربوية نلخصها على الشكل الآتي:

- على المرّبي أن يبادر بإصلاح الأخطاء في وقتها.
- عدم التعنيف على الخطأ وإصلاحه برفق ولين.
- استثمار الخطأ وجعله بادرة انطلاقة للتنبيه على أشياء أخرى، وأخذ المبادرة لتزويد المتعلم بمعارف تصب في نفس موضوع الخطأ.

والنتيجة تكون بعد هذا كله رسوخ تلك المعلومات، والمعارف في ذهن المتلقي وضمان عدم رجوعه إلى ذلك الخطأ، ولا أدلّ على ذلك من قول الصحابي في آخر الحديث: فما زالت تلك طعمتي بعد.

الأساس الخامس: آداب المعلم

يجد الباحث صعوبة في الكلام عن آداب المعلم، لأنه يلتقي مع صفة من صفات رسول الله ﷺ ومهمة من مهامه. يقول رسول الله ﷺ: «إن الله لم يعثني معتناً، ولا متعتناً، ولكن بعثني معلماً ميسراً»^(٥٠).

وعن معاوية بن الحكم السلمي^(٥١) قال: «بينما أنا أصليّ مع رسول الله ﷺ، إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم. فقلت: وا تُكلّ أمّياه! ما شأنكم؟ تنظرون إليّ، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمّتونني، لکنني سكتُ، فلما صلّى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه فوالله ما كهرني»^(٥٢)، ولا ضربني ولا

٤٩- رواه البخاري في الأطعمة باب التسمية على الطعام والأكل باليمين (ح ٥٣٧٦) ومسلم في الأشربة (ح ٢٠٢٢)

٥٠- رواه مسلم في الطلاق (ح ١٤٧٨)

٥١- معاوية بن الحكم السلمي: صحابي نزل المدينة. الإصابة (٦/ ١٤٨-١٤٩) القسم الأول.

٥٢- كهره يكهره: إذا زبره واستقبله بوجه عبوس، والكهر الانتهار. النهاية في غريب الأثر لابن الأثير. (٢١٢/٤).

شتمني. قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»^(٥٣).

فها هو الرسول الكريم ﷺ يصف نفسه بالمعلم، وبهذا الوصف وصفه الصحابي الجليل معاوية بن الحكم، وذكر ما كان عليه من عظيم الخلق وحسن الأدب. فما أحوج الذي يتصدى لتعليم الناس للتأسي بأخلاق المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه.

ولعلنا نحاول الاقتباس من سيرة وسنة الرسول ﷺ شذرات نضيء بها طريق من سار في درب التعليم، حسب ما يقتضيه المقام:

١- تأهيل شخصية المعلم:

يعتبر المعلم عاملاً أساسياً في نجاح العملية التعليمية، وهو من أهم عناصر التعليم، إذ التعليم لا يتم بغير معلم.

قيل لأبي حنيفة (ت ١٥٠هـ) رحمه الله: في المسجد حلقة ينظرون في الفقه، فقال: ألهم رأس؟ قالوا: لا، قال: لا يفقه هؤلاء، أبدأ^(٥٤) قال الله عز وجل:

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(٥٥).

قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»^(٥٦).

ومن هنا كان لا بد من الاهتمام بالمعلم واختياره وتحديد عناصر كفايته وتعيين مسؤوليته وأهم الصفات الواجب توفرها فيه، وبيان أهم وظائفه المتمثلة عنده في تنمية عقول المتعلمين وخلقهم ومهاراتهم، وإكسابهم المعارف والآداب المختلفة، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بأمور:

٥٣- رواه مسلم في المساجد (ح ٥٣٧)

٥٤- تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم. لابن جماعة (ص: ٤٦).

٥٥- آية ٥٧ من سورة الحج.

٥٦- رواه مسلم في الفضائل (ح ٢٢٧٦)

الأمر الأول: تحلّي المعلم بالأخلاق الحسنة انطلاقاً من كونه قدوة:

إن من أهم خصائص المعلم الناجح أن يلتزم بالآداب الفاضلة والأخلاق الحسنة التي يتطلبها تعليم العلم، وهذا الالتزام يؤدي به إلى إنتاج تعليم هادف ومنظم ومؤثر، ويمكن إرجاع ضرورة الالتزام بالأخلاق الحسنة إلى أهمية دور القدوة باعتبارها من أعظم وسائل التربية وأكثرها فعالية، لأن التلميذ سريع التأثر بمعلمه الذي يحبه، وقد ثبت بالرؤية والتجربة أن الناس لديهم حاجة نفسية إلى أن يشبهوا الأشخاص الذين يحبونهم ويقدرونهم.

فحاجة المعلم إلى اكتساب الأدب يجب أن لا تقل عن حاجته إلى اكتساب العلم والمعرفة، وأن واجب المعلم ليس تزويد تلاميذه بالمعارف المختلفة فحسب، بل إكسابهم حسن الخلق وكريم الأدب.

عن سعد بن هشام بن عامر قال قلت لعائشة: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ. قالت: ألسنتَ تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلقَ نبي الله ﷺ كان القرآن. (٥٧)

وسيرة معلّم الأمة ﷺ مليئة بالمواقف التي تنطق بعظيم خلقه، وجودة تعليمه، وحسن تأديبه.

فعلى من وُكلت إليه مهمة التعليم أن يتأسى بأخلاق وآداب الرسول الكريم حتى تكون لجهوده في التعليم ثمرة يجنيها.

الأمر الثاني: حسن هيئة المعلم

جعل الله سبحانه وتعالى دين الإسلام دين طهارةٍ وجمالٍ، يقول الرسول ﷺ: «إن الله جميل يحبّ الجمال» (٥٨).

وفي حديث جبريل المشهور أن عمر بن الخطاب قال: بينما نحن جلوس عند

٥٧- رواه مسلم في صلاة المسافرين (ح ٧٤٦)

٥٨- رواه مسلم في الإيمان (ح ٩١)

رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفرح وفيه: هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم. (٥٩)

وفي رواية عن أبي هريرة وأبي ذر: «وإنا جلوس مع رسول الله ﷺ في مجلسه إذ أقبل رجل أحسن الناس وجهاً، وأطيب الناس ريحاً كأن ثيابه لم يمسه دنس». (٦٠)

فهذا جبريل عليه السلام جاء معلماً للصحابة رضي الله عنهم فجاء في أحسن صورة، وأبهى حلّة، وعلى أجمل حال، وفي أطيب ريح، فجلب الأنظار، واسترعى اهتمام الصحابة إليه حتى يصغوا إليه ويكون لكلامه وقعاً في نفوسهم. ويستفاد من حديث جبريل أن المعلّم يلزمه أن تكون هيئته حسنة، فجبريل جاء معلماً الناس الإسلام والإيمان والإحسان بلسان مقاله، وهيئة المعلّم ولباسه بلسان حاله.

ومن الأحاديث التي يؤخذ منها وجوب عناية المعلّم بهيئته. ما رواه أنس بن مالك قال: ما شممتُ عنبراً قطُّ، ولا مسكاً، ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله (٦١) ينبغي لكل من أنيطت له مهمة البيان والتربية والتعليم أن يهتم بملبسه، وهيئته. وسار على هذا النهج النبوي الصحابة والتابعون، نذكر نماذج من سير بعض الصحابة، ومنهم:

- مصعب بن عمير (ت ٣ هـ)، الذي يعتبر أول سفير في الإسلام، بعثه رسول الله إلى المدينة ليعلم الناس دين الله، يحكي البراء بن عازب قائلاً: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم. (٦٢)

فمصعب أول مبعوث في الإسلام، ولا شك أن رسول الله ﷺ انتقاه

٥٩- رواه بهذا اللفظ مسلم في الإيمان (ح ٨ عن عمر، وأخرج البخاري نحوه عن أبي هريرة (ح ٥٠).
٦٠- رواه النسائي في الصغرى في كتاب الإيمان وشرائعه باب صفة الإيمان والإسلام (٨/١٠١) وفي الكبرى (٦/٥٢٨-٥٢٩).

٦١- رواه البخاري في المناقب باب صفة النبي ﷺ (ح ٣٥٦١) ومسلم في الفضائل (ح ٢٣٣٠) واللفظ له.

٦٢- رواه البخاري في المناقب باب مقدم النبي وأصحابه المدينة (ح ٣٩٢٥)

واصطفاه من بين الصحابة فما هي صفاته وهيئته.

روى إبراهيم بن محمد العبدري عن أبيه قال: كان مصعب بن عمير^(٦٣) فتى مكة شاباً وجمالاً، وكان أبواه يحبانه وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقها، وكان أعطر أهل مكة وكان رسول الله ﷺ يذكر يقول: ما رأيت بمكة أحسن لمّة ولا أرقّ حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير.^(٦٤) فليتأمل المعلم في حال مصعب الذي أرسل إلى المدينة فقلبها إيماناً وحباً، وجعلهم ينتظرون بشوق قدوم رسول الله ﷺ.

- معاذ بن جبل (ت ١٨هـ) أعلم الناس بالحلل والحرام، بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن معلماً وقاضياً، كما أرسل أبا موسى الأشعري. روى جابر بن عبد الله قال: كان معاذ بن جبل من أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً، وأسمحهم كفافاً.^(٦٥)

فاعتناء المعلم والمربي بهيئته وحاله أساسٌ تربوي يحول دون تكوين حواجز تنفير بين الطلبة ومعلمهم.

قال ابن سيرين: كانوا يتعلمون الهدى كما يتعلمون العلم^(٦٦).

الأمر الثالث: الرفق بطالب العلم، والإحسان إليه، وهو مطلب تربوي مهم، لأن النفوس جُبلت على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها. يقول الرسول ﷺ: «والرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»^(٦٧)

ولهذا يعتبر المعلم الأكثر تأثيراً في تلاميذه هو الذي يرفق بهم ويشفق عليهم، ومن فقد القدرة على ذلك فقد القدرة على التأثير فيهم.

يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنفَضُوا مِنْ

٦٣ - شهد بدرًا ثم أحدًا، ومعه اللواء، فاستشهد. الإصابة (٦/ ١٢٤).

٦٤ - رواه الحاكم في المستدرک (٣/ ٢٠٠).

٦٥ - رواه الحاكم (٣/ ٢٧٤)، والبيهقي (٦/ ٥٠).

٦٦ - تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم (ص: ٢).

٦٧ - رواه مسلم عن عائشة في كتاب البر والصلة. (ح ٢٥٩٤)

حَوْلِكَ ﴿٦٨﴾ فالله عزّ شأنه يمتنّ على رسوله الكريم بنعمة ليونة الجانب، ويبيّن له أنّه لو اتصف بالفضاظة والغلظة لانفضّ الناس من حوله ولما وفق في تبليغ رسالة ربّه.

ومن هنا تأتي أهمية الرفق، ولين الجانب عند المعلّم حتى يستطيع استمالة القلوب والتأثير فيها.

ولعل المتصفّح لسيرة معلّم الصحابة عليه الصلاة والسلام يجد رفقه وإحسانه للمتعلّمين بارزاً واضحاً لا يحتاج إلى استنباط ولا إعمال جهد، نذكر من هذه السيرة العطرة مبادئ تربوية عالية على سبيل المثال لا الحصر:

- روى أنس ابن مالك: بينما نحن جلوس في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مهّ مهّ. قال رسول الله ﷺ: «لا تُزرموه، دعوه». فتركوه حتى بال. فلما فرغ دعا بدلو من ماء فصبّه عليه. ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا لبول والقذر. إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة، وقراءة القرآن». (٦٩)

فالرسول ﷺ ترفق بالأعرابي رغم خطئه بل أشفق عليه أن يؤذي نفسه أو ينجس ثيابه، فقال للصحابة: «لا تزرموه». فبيّن له زلّته وصححها له في غاية الرفق واللّين.

- عن أنس بن مالك قال: خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي: أفّ قطُّ ولا قال لي لشيءٍ لمَ فعلتَ كذا؟ وهلاً فعلتَ كذا؟! (٧٠)

٦٨- آية ١٥٩ من سورة آل عمران.

٦٩- رواه البخاري في الأدب، باب الرفق في الأمر كله (ح. ٦٠٢٥) ومسلم في الطهارة (ح. ٢٨٤)
٧٠- رواه البخاري في الأدب باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (ح. ٦٠٣٨) ومسلم في الفضائل (ح. ٢٣٠٩)

٢- حرص المعلم على الازدياد من العلم: (التكوين المستمر)

تعتبر مواصلة العلم والاستزادة الدائمة من المعارف من أهم مسؤوليات المعلم، لتكوين شخصيته لمواكبة تطور البحث العلمي، وهذا ما عناه البخاري بقوله في الباب ٦ (ما جاء في العلم وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾) والباب ٢٢ (فضل العلم)، والباب ٤٧ قول الله تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ على اعتبار أن المعلم يجب أن يكون أحسن متعلم.

قال سعيد بن جبير: لا يزال الرجل عالماً ما تعلم، فإذا ترك التعلم وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون، وأنشد بعض العرب:

وليس العمى طول السؤال وإنما تمام العمى طول السكوت على الجهل^(٧١)

كما أن المعارف الضئيلة لدى المعلم قلما تثير أذهان التلاميذ أو تحرك مخيلاتهم، فإذا اقتصر المعلم على تلقين ما عنده من المعارف القليلة لم يقد التلميذ منها إلا أن يحفظها عن ظهر قلب، وقلما يفهمها فهماً منتجاً باعثاً على التفكير.

وكلما كانت إحاطة المعلم بمادته أوسع، كان ميل التلاميذ إليه أعظم فيحبونه ويعجبون به، ويقبلون عليه لما يجدون عنده من غزارة المادة وحسن التصرف في أطراف البحث فإذا شئنا أن نكون معلمين صالحين، وجب علينا أن نملأ عقولنا من الموضوع الذي نعلمه، هذه قاعدة أولية من قواعد التعليم^(٧٢).

إن وظيفة المدرس هي تقديم التلميذ لمجتمعه، وتقديم ثقافة المجتمع للتلميذ، وهذا التقديم يتطلب من المدرس أن يعرف الثقافة بقدر ما يعرف التلميذ، وهذا ما يبحث عليه الإمام البخاري في كتاب العلم من خلال الباب ١٠ بقوله: العلم قبل القول والعمل.

والحد الأدنى للمعرفة بهذه الثقافة هو إدراك المعلم من كل علم ما ينفي عنه

٧١- تذكرة السامع (ص: ٢٨).

٧٢- مستقبل التربية في العالم العربي: جميل صليبا (ص: ٣٧٨).

سمة الجهل، ولقد أصبح التربويون على يقين بأن المعلم في حاجة إلى معرفة عامة تتمثل في أساليب ومبادئ العلوم المختلفة، يمكن أن تضيف هذه المعرفة على أسلوب المعلم مرونة في التعليم وتنوعاً في المعلومات التي يمكن أن يقيّمها لتلاميذه حسب ما تملّيه عليه المناسبة التربوية^(٧٣)

والمعلم في طلبه الاستزادة من العلم يجعل نصب عينيه الحقيقة العلمية فهي ضالته يلتقطها أنى وجدها ولذلك يجب أن لا يستنكف أن يستفيد ما لا يعلمه ممن هو دونه منصباً أو نسباً أو سنّاً بل يكون حريصاً على الفائدة حيث كانت .

وإلى مثل هذا يشير الإمام البخاري رحمه الله تعالى في الباب السادس عشر من كتاب العلم: بقوله: باب ما يذكر في ذهاب موسى عليه السلام في البحر إلى الخضر، وقوله تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَٰنِ مِمَّا عَلَّمْتَٰ رُشْدًا ﴾ ^(٧٤) فطلب سيدنا موسى عليه السلام الاستزادة

من العلم هو في حد ذاته طلب للحقيقة العلمية، واستفادة الفاضل من المفضل .

وكلفه طلب العلم تحمل مشاق السفر برّاً وبحراً. وبهذا يحقّ لنا القول أن سيدنا موسى عليه السلام أصل مفهوم الرحلة في طلب العلم.

وفي هذا يقول الإمام عامر بن شراحيل الشعبي (ت ١١٠هـ): لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن لحفظ كلمة تنفعه فيما بقي من عمره لم أر سفره يضيع .^(٧٥)

والأهداف المتوخاة من الرحلة هي: طلب المعرفة، وضبطها، ونشرها. والحقيقة العلمية يمكن الوصول إليها في عصرنا الحالي عبر العديد من الوسائل التي تنشر المعلومات مثل: الأنترنت، والمراسلات العلمية مع الآخر، وطبع منشورات تسهّل مرور المعلومة، وهذا يلائم قصد البخاري في الباب السابع من

٧٣- التدريس الحديث: أصوله وتطبيقاته: محمود زياد حمدان (ص: ١٥٠).

٧٤- سورة الكهف الآية ٦٦.

٧٥- عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢/ ١٤٣).

كتاب العلم إذ قال: ما يذكر من المناولة وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان.

الأساس السادس: طرق التدريس

إن أساليب التدريس وطرائقه ليست واحدة في كل عصر وفي كل مجتمع، بل هي وليدة ظروف وحاجات ومطالب اجتماعية معينة، ومن ثم فهي تتغير كلما تغيرت الأهداف التعليمية والاهتمامات التربوية لمواجهة متطلبات المجتمع وحاجاته، كما يشملها التعديل والتبديل كلما تعددت وتنوعت مصادر المعرفة، وكلما لفحت رياح التغيير ثقافة المجتمع، أو شملت توقعات أفرادهم وآمالهم.

ومن هنا يجب أن نحكم على صلاحية طرق التدريس وأساليبه عند أي تربوي في ضوء متطلبات عصره الذي يعيش فيه.

إلا أن هذا كله لا ينفي وجود ثوابت في طرق التدريس لا يمكن للعملية التعليمية النجاح دون تطبيقها. وسأحاول صياغتها من خلال عناوين حسب تسلسلها المنطقي. وهي:

١- الوضع المكاني:

كان انتباه معظم الباحثين المحدثين يتركز على المؤسسات التعليمية ولا سيما المدرسة، وإلى حد ما الكتاب. والحق أن المدرسة تمثل أسمى إنجازات النظام التربوي الإسلامي، لذا فهي تستحق كل اهتمام، ولكن ينبغي أن لا يعزب عن بالنا أن المدرسة لم تظهر إلى الوجود إلا في القرن الخامس الهجري، ثم إن المدرسة لم تكن ظاهرة مفاجئة وإنما هي حصيلة لتطور النظام التربوي الإسلامي عبر ما لا يقل عن أربعة قرون^(٧٦) هذا النظام الذي استخدم التنوع المكاني حسب حاجات المتعلمين، والموضوع المراد ذكره.

ومن الأماكن التي كان ينشر فيها العلم: المسجد، والبساتين، والسوق...

٧٦- تاريخ التعليم عند المسلمين / منير الدين أحمد / ترجمة سامي الصقار (ص: ١١).

- يروي عبدالله بن عمر أن رجلاً قام في المسجد فقال يا رسول الله من أين تأمرنا أن نهل؟ فقال رسول الله ﷺ: «يهل أهل المدينة من ذي الحليفة ...» .
عنون البخاري هذا الحديث في كتاب العلم بـ باب (٥٢) ذكر العلم والفتيا في المسجد.

- يحكي عبدالله ابن عمر قائلاً: رأيتُ النبي ﷺ عند الجمرة وهو يُسأل فقال رجل: يا رسول الله نحرثُ قبل أن أرمي

فترجم البخاري لهذا الحديث بـ: باب (٤٦) السؤال والفتيا عند رمي الجمار .

- عن عمرو بن العاص أن رسول الله (وقف [على ناقته] في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه فجاءه رجل

فعنونه البخاري بـ: باب (٢٣) الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها . يستفاد من هذا الحديث أمران:

- جواز سؤال الطالب معلّمه في جميع الأحوال .

- ينبغي على المعلم أن يكون مريباً في جميع الأحوال .

وهذا يدل على أن الهاجس الأساسي عند المتعلّمين هو التعلّم مهما تنوعت الأماكن .

وهذا التنوع المكاني في تحصيل العلم يعتبر حافزاً تربوياً، حيث نجد أن هذه الحوافز تنبعث من طبيعة البيئة التربوية وأحداثها وميادينها، وتأخذ اتجاهاً عملياً يحرك الناس ضمن الحقل التربوي ذاته .

وَحَثُّ علماءِ التربية في العصر الحاضر على تنظيم خرجات ورحلات تعليمية إلى الغابات والبحار والآثار وغيرها ما هو إلا امتدادٌ لما ذكر من تنوع الأماكن لتحقيق المبتغى التعليمي .

٢- المؤثرات الصوتية:

إن المؤثرات الصوتية لها دور كبير في نجاح العملية التعليمية، لأن المعلم إذا أراد أن يسمع متعلّمه فلا بدّ من رفع صوته ليُسمعهم قوله، خاصة وأن من

متطلبات الانتباه الحسي والسمعي، الصوت الذي يصل مستوى معيناً من الارتفاع. ويطبّق مثل هذا المبدأ اليوم في التعليم باستخدام مكبرات الصوت لتسهيل توصيل وتبليغ الرسائل التعليمية اللفظية.

كما أنه يجب على المعلم استخدام مهارات خطابية في أدائه اللفظي مثل تغيير نبرات الصوت علواً وخفضاً، وذلك للفصل بين الموضوعات وشدّ الانتباه.

ورسول الله ﷺ بصفته معلماً استعمل هذا المنهج التربوي المتعلق بالتحكم في الصوت حسب الزمان والمكان والمخاطب والموضوع، من ذلك:

مارواه عبد الله بن عمر قائلًا: «تخلف عنا النبي ﷺ في سفرة سافرناها، فأدركنا وقد أرهقنا الصلاة ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: ويل للأعقاب من النار مرتين أو ثلاث». (٧٧)

ففي هذا الحديث أسس تربوية واضحة تتمثل فيما يلي:

- استخدام القدرات الصوتية من رفع وخفض تبعاً للموقف التربوي والتعليمي.

- تكرار المعلم للمعلومة للتأكيد عليها، أو للتصحيح، أو لتنبه الغافل.

ومما يدخل في هذا الموضوع، إثارة انتباه المعلم إلى إبداء الغضب عند رؤية سلوك تربوي خاطئ، وهو بذلك يقتدي بالرسول ﷺ عندما كان يتمثل انفعالياً، بما يقول بالتعبير الجسمي والحركي خصوصاً في الغضب إذا تجرأ أحدهم على حدّ من حدود الله، أو فعل شيئاً تضرّر منه المسلمون الآخرون، وإن كان عبادة مثل الصلاة.

عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رجل: يا رسول الله! لا أكاد أدرك الصلاة ممّا يطول بنا فلان، فما رأيتُ النبي ﷺ في موعظة أشدّ غضباً من يومئذ، فقال: أيّها الناس، إنكم منقرون، فمن صلّى بالناس فليخفف، فإن منهم المريض والضعيف وذا الحاجة. (٧٨)

٧٧- رواه البخاري في العلم باب (٣) من رفع صوته بالعلم ح (٦٠). ومسلم في الطهارة ح (٢٤١).
٧٨- رواه البخاري في كتاب العلم باب (٢٨) الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره. ح (٩٠).

٣- السلوك الحركي والوضع الجسمي:

السلوك الحركي والوضع الجسمي أثناء الدرس نعني به التعبير غير الشفهي المدعم بالحركات الجسمية المختلفة تفاعلاً مع الموقف، أو توضيحاً للحالة الانفعالية للموقف التعليمي أو زيادة في توضيح المحتوى المعرفي المقصود، من ذلك:

التعبير بإشارة اليد والرأس:

الملاحظ أن المعلم يستخدم الإشارة باليد والرأس مختصراً للتعبير اللفظي الموضح لما يريد، وليس هذا شحاً أو فقداناً للأسلوب التعبيري المناسب، ولكن لزيادة فعالية التعلم، ولإشراك المتعلم في إدراك المراد من الموضوعات المشار إليها، ولتمثيل عن التلازم والتقارب، ولفتح المزيد من الحرية التعليمية والتعبيرية أمام المتعلم.

يروى ابن عباس «أن النبي ﷺ سئل في حجته فقال: ذبحتُ قبل أن أرمي، فأوماً بيده قال: ولا حرج...». (٧٩)

- قال رسول الله ﷺ: «يقبضُ العلمُ ويظهرُ الجهلُ والفتنُ ويكثرُ الهرجُ» قيل: يا رسول الله! وما الهرج؟ فقال هكذا بيده فحرفها كأنه يريد القتل. (٨٠)

يستفاد من هذين الحديثين ما يلي:

- استخدام المعلم لبعض أعضائه أحياناً كأصابع يده، أو الإشارة برأسه، أو عينه، للتأكيد أو الموافقة أو المخالفة أو التحذير من سلوكٍ خاطئٍ أو نحو ذلك، لتقوية العملية التعليمية.

- على المعلم إيضاح المعلومات للطلاب وإيصالها إليهم بأقصر عبارة وأسهل أسلوب.

التعبير بالوجه: مما لا شك فيه أن الغضب تظهرُ أماراته على وجه المعلم، الذي

٧٩- رواه البخاري في كتاب العلم باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس (ح ٨٤)

٨٠- روى البخاري في كتاب العلم (ح ٨٥)

يدل على استخدام الوجه للتفاعل مع الموقف بما يلزم ذلك، إن كان فرحاً يُظهر السرور والبشر وغيرها من علامات الانفعال السار، وإن كان غير ذلك أظهر ما يدل عليه، مما يساعد في اختصار الوقت واللفظ، ويسرّ تبليغ الرسالة لأنه يشرك حواساً أخرى ويشدُّ الانتباه.

«تروي عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا أمرهم أمرهم من الأعمال بما يطيقون. قالوا إنا لسنا كهيتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول: إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا». (٨١)

٤- مراعاة الفروق الفردية:

إن معرفة المعلّم بتلاميذه من أهمّ عوامل نجاحه في عمله وتوفيقه في أداء رسالته، إذ بهذه المعرفة يمكنه أن يوجّه عملية التعليم وجهتها الصحيحة، كما أن معرفة المعلّم بتلاميذه ينبغي أن تكون أكثر من معرفة التلاميذ بأنفسهم، وذلك لما يتمتع به من العلم والخبرة وسعة الفهم، ولأن هذه المعرفة تمكّن المعلّم من مساعدة المتعلمين على بلوغ أهدافهم.

فالمعلّم يراعي الفروق الفردية بين المتعلّمين، ويقدر تفاوت حظوظهم في الذكاء، والقدرات، والاستعدادات العقلية، ويهتم بتمييزهم في الخصائص الوجدانية، والطاقات الجسمانية، ممّا يقود إلى تفاوتهم في معدل التعلّم والتحصيل العلمي.

ومادام كل متعلّم فريد من نوعه، مختلف في سماته وقدراته عن كل من سواه، فإن المعلّم يخطئ إن لم يعلمه تعليماً مناسباً لحالته، يختلف عن تعليم غيره.

حدّث أنس «أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرّحل قال: يا معاذ بن جبل! قال:

٨١- رواه البخاري في كتاب الإيمان (ح ٢٠)

لبيك يا رسول الله وسعديك، -ثلاثاً- قال: ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله عن النار. قال معاذ: يا رسول الله! أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال: إذا يتكلموا^(٨٢). فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً. فهم البخاري من هذا الحديث مراعاة القدرات الذهنية للمتعلمين، فترجم لهذا الحديث بقوله: باب (٤٩) من خصّ بالعلم قوماً دون قومٍ كراهية أن لا يفهموا. كما يؤخذ من هذا الحديث:

- جواز تخصيص المعلم لفئة من المتعلمين بمعلومات زائدة لما يلزمه فيهم من الضبط وصحة الفهم والنباهة.

- ضرورة استئذان المتعلمين المعلم في تبليغ معلومات معينة.

وينبغي على المعلم أن لا يبخل عن المتعلم بأنواع العلوم ما دام مؤهلاً لذلك، كما فعل رسول الله ﷺ مع عائشة حينما قال لها: «يا عائشة لو لا قومك حديثٌ عهدهم قال ابن الزبير: بكفرٍ - لنقضتُ الكعبةَ فجعلتُ لها باين: بابٌ يدخلُ الناسُ وبابٌ يخرجونُ». ففعله ابنُ الزبير^(٨٣).

في هذا الحديث ضوابط تربوية، نذكر منها:

- مخاطبة المتعلمين بما يناسب إدراكهم.
- مراعاة الفروق الفردية عند المتعلمين.
- العناية بالضعفاء من الطلاب وإفهامهم.
- استخدام الأسلوب المناسب لموقف التعليم.
- على المعلم أن لا يلقي إلى المتعلم عادي الذكاء ما لم يتأهل له لأن ذلك يبذّر ذهنه.

وتنبّه المحدثون إلى هذه المسألة التربوية في إعداد طلابهم بمراعاة مستوى النضج عند التلميذ.

٨٢- رواه البخاري في العلم (ح ١٢٨) ومسلم في الإيمان (ح ٣٢)
 ٨٣- رواه البخاري في العلم باب ٤٨ من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقع في أشد منه. (ح ١٢٦)

٥- مبدأ التدرج في التعليم:

إن مبدأ التدرج من أهم المبادئ البيداغوجية والديداكتيكية في العملية التعليمية، ولاسيما عندما يتعلق الأمر بالمتعلم في مراحل تعلمه الأولى، حيث لا ينبغي أن نثقل عقله بكثير من المعارف والمعلومات، إذ يجب أن يكون تعليمه وتعلمه مبنين على التدرج شيئاً فشيئاً.

فالمتعلم يجب أن يُعَلَّم على قدر فهمه وإدراكه، وتُقدَّم له المعلومات متدرجة، سواء تعلق ذلك بمحتويات المنهاج الدراسي أو تعلق الأمر بمضامين هذه المحتويات.

كما أنه ضروريٌّ للأداء الفعال، أن يُتدرَّجَ بالمتعلم من السهل إلى الصعب، ومن المعلوم إلى المجهول، ومن البسيط إلى المركب، ومن الواضح إلى المبهم، ومن المحسوس إلى المعقول، ومن الجزئي إلى الكلي ومن المهم إلى الأهم، ومن الشاهد إلى الغائب، ومن الفهم إلى التحليل، ومن التحليل إلى التركيب.

وقد ركّز الإمام الماوردي على هذا المبدأ حينما قال: للعلوم أوائل تؤدّي إلى أواخرها ومداخل تفضي إلى حقائقها، فليبدأ طالب العلم بأوائلها لينتهي إلى أواخرها ويمدّخلها ليفضي إلى حقائقها.^(٨٤)

وهذا كله يناسب صنيع الإمام البخاري في وضعه للكتب المكونة لجامعه الصحيح، وأبواب كل كتاب على حدة، إذ راعى مبدأ التدرج في وضعها.

٦ الأسلوب الحوارية:

أصبح التعليم عن طريق الحوار أسلوباً تربوياً معتمداً، ومعناه: تعليم الناشئ عن طريق التجاوب معه بعد تحضير الأسئلة تحضيراً يجعل كل سؤال ينبغي على الجواب المأخوذ من المتعلم على نحو يجعل المتعلم يشعر في نفسه بأن النتائج

٨٤- أدب الدنيا والدين (ص: ٥٤).

التي توصل إليها ليست جديدة عليه... فيصل المتعلم إلى المعلومات التي يراد إقناعه بها دون كبير عناء ودون أن يشعر أنها مفروضة عليه ودون أن يجد غرابة أو صعوبة في تلقي هذه المعلومات والافتناع بها وتبنيها، فالمربي يرجع إلى المتعلم ما يأخذه منه بالاستجواب بعد أن يبني عليه المعلومات الجديدة التي تلزم عنه لزوماً منطقياً فطرياً بدهياً، وقد سبق القرآن والسنة إلى أسلوب الحوار بشتى أشكاله وصيغته فكان أسلوباً ناجحاً مبسطاً ميسراً تمارس من خلاله الدعوة إلى الله^(٨٥).

ولنضرب على ذلك مثلاً من سنة رسول الله ﷺ، حينما أتى فتى شاب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه قالوا: مه مه، فقال: «أذنه»، فدنا منه قريباً قال: فجلس، قال: أتجبه لأمك». قال: لا والله جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم» قال: «أفتجبه لابنتك». قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك قال: ولا الناس يحبونه.^(٨٦)

فأسلوب رسول الله ﷺ جميعه مبني على الحوار، والإقناع، ودفع الشبهة بالحجة، كيف لا وحُلُقُهُ القرآن الذي حاور الله سبحانه وتعالى فيه ملائكته ورسله، بل حاور حتى العصاة وعلى رأسهم إبليس.

وجعل رسول الله ﷺ من الأسلوب الحواري ركيزة أساسية في المنهج التعليمي حتى يتيح للمتعلم فرص المشاركة بنشاطه الذاتي في العملية التعليمية، وذلك بهدف إثارة ذهن المتعلم وتحفيزه على التفكير والكشف عن الحقائق والخبرات والمعارف المختلفة. هذه الطريقة تساعد على اكتساب مهارات الاتصال، خاصة مهارات الاستماع والكلام وإدارة الحوار، كما أنها تكسب المتعلم أساليب وآداب النقاش القائمة على نظام احترام الآراء.

٨٥- التربية بالحوار: عبد الرحمن النحلوي (ص: ١٣ و ٤١)
 ٨٦- رواه أحمد (٥/ ٢٥٦) والطبراني في الكبير (٨/ ١٦٢) و(٨/ ١٨٣) والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٦٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٢٩): «ورجاله رجال الصحيح».

كما أن هذا الأسلوب يتيح للمتعلّم الفرصة للتحدث في موضوعات تهمة، ومشاكل تشغله، وبذلك فهو يشعر بقيمة التعليم وأهميته في حياته فيزداد إقباله عليه وتفاعله مع الأنشطة التعليمية.

٧- التكرار:

يعتبر التكرار من أهم الوسائل المساعدة على التعلّم، واهتمت السنّة النبوية بوسيلة التكرار لفعاليتها في شرح وتثبيت كثير من القواعد والتعاليم الدينية، وكان رسول الله ﷺ يسلك في تعليمه منهج التكرار، ولا يعجل حتى يعي الناس عنه ما يقول، ويفهموا ما يطرحه عليهم، ويستوعبوا ما يوجههم إليه، ويتيقنوا مما يأمرهم به.

يحكي أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً. (٧٨) ويظهر أن التكرار عملية أساسية للتعليم وترسيخ المعلومات وتخزينها بالذاكرة، وقد بيّنت كثير من التجارب الحديثة التي أجريت في الميادين التي تهتم بظاهرة الذاكرة والتعلّم أن للتكرار دوراً أساسياً في عمليات التعلّم والذاكرة. وقد ورد هذا الأسلوب في القرآن الكريم من خلال تكرار القصة بعينها، ولكن بطرق مختلفة في غير ما موضع، في صور مختلفة في التقديم والتأخير والإيجاز والإطناب وما شابه ذلك.

ومن حكمة هذا التكرار بيان بلاغة القرآن الكريم في أعلى مراتبها، ومن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة كما هو الحال في قصة النبي موسى عليه السلام مع فرعون.

٨- التنظيم الزمني:

التنظيم التعليمي يرتبط بحاجة وظروف المتعلّمين بصورة كبيرة، ولهذا كان

٨٧- رواه البخاري في كتاب العلم باب (٣٠) من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه (ح ٩٥)

لزماً وضع تنظيم زمني يراعي استعداد المتعلمين لتقبل العلم. وهذا ينبثق من صميم الدين الإسلامي الذي جعل أوقاتاً معلومة تمكن المسلم من تلقي العلم. وأول ما يدل على ذلك خطبة الجمعة الأسبوعية، وكذلك ما كان يفعله النبي ﷺ من تخوّل الصحابة بالموعظة المنتظمة.

وكان العلماء يحددون الوقت لمجالس المذاكرة ليتفرغ لها الشيوخ والطلاب. قال السمعاني: وينبغي للمملي أن يعين لأصحابه يوم المجلس، لئلا ينقطعوا عن أشغالهم وليستعدوا لإتيانه، ويعد بعضهم بعضاً، وإذا عيّن لهم اليوم، فلا ينبغي له إخلاف مواعده إلا أن يقتطعه عن ذلك أمر يقوم عذره به ^(٨٨) يحكي التابعي أبو وائل عبدالله بن شقيق «أن عبدالله بن مسعود كان يذكّر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن! لوددت أنك ذكّرتنا كل يوم. قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملككم، وإني أتخوّلكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخوّلنا بها مخافة السامة علينا» ^(٨٩) يستفاد من هذا الخبر المحددات التعليمية الآتية:

- مراعاة القدرات التحصيلية لدى الطلاب.
 - ضرورة إعداد البرامج التعليمية المناسبة لاستعدادهم.
 - رحمة المعلم بالمتعلمين والرفق بهم مخافة حصول الملل والسامة عليهم.
- فهذه سنة المصطفى ﷺ في التعليم، علّم بها صحابته وعلمها لهم، فخرّج بها جيلاً يُعتبر بحق فخرّاً للبشرية.

كما أن للمذاكرة أوقات، ينبغي العناية بها والحرص عليها. قال أحمد بن الفرات (ت ٢٥٨هـ): لم نزل نسمع شيوخنا يذكرون أشياء في

٨٨- أدب الإملاء والإستملاء للسمعاني (ص: ٣٨-٣٩).

٨٩- رواه البخاري في العلم باب (١١) ما كان النبي ﷺ يتخوّلهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا (ح ٦٨) وفي باب (١٢) من جعل لأهل العلم أياماً معلومة (ح ٧٠)

الحفظ، وأجمعوا على أنه ليس شيء أبلغ فيه، إلا كثرة النظر وحفظ الليل غالب على حفظ النهار^(٩٠)

وقال أبو بكر الخطيب (ت ٤٦٣هـ): إنما اختاروا المطالعة بالليل لخلوّ القلب فإن خلّوه يسرع إليه الحفظ^(٩١)

وقال إسماعيل بن أبي أويس (ت ٢٢٦هـ): إذا هممت أن تحفظ شيئاً فتمّ وقمّ عند السحر، فأسرج وانظر فيه، فإنك لا تنساه بعد إن شاء الله^(٩٢)

الأساس السابع: آداب المتعلم

الأمر الذي لا يختلف فيه عاقلان أن العلم بطبيعته الأبيّة - لا يُسلم قياده لأي كان، بل إنه ينزل ضيفاً عزيزاً على من كان أهلاً لاستضافته. هذه الأهلية التي لا تتأتى إلا لمن توفرت فيه خصال وخلال، ، وهي أكثر من أن تحصى بعضها جبلي وأغلبها مكتسب.

ويمكننا أن نحصر آداب المتعلّم في أربع ركائز هي أساس نجاحه حتى يبلغ الهدف المنشود وهذه الركائز هي:

١ آدابه مع المعلم:

درج العلماء على إجلال العالم وتوقيره، ولقننه سلفهم خلفهم، وطبقوه في تعاملهم وتصرفاتهم ليقندي اللاحق بالسابق، وليتأسى الطالب بشيوخه وأساتذته في طرق تعاملهم وتأديبهم في مجالس العلماء، وهذا التعظيم والتشريف من الطالب للعالم لا يتم إلا بالتحلي بالآداب الآتية:

أ- التواضع للمعلّم:

إن من أهم المقومات اللازم توفرها في طالب العلم التواضع لمن يعلمه.

٩٠- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٦٥).

٩١- المصدر نفسه.

٩٢- المصدر نفسه.

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»^(٩٣)
 وقال عبد الله بن المعتز: المتواضع في طلاب العلم أكثرهم علماً، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء^(٩٤)
 ولا بد أن يكون هذا التواضع نابعاً من صدق مقصد لا رياء فيه ولا تكلف، ولا تصنع مرهون بمصلحة مؤقتة يزول بزوالها.

وفي حديث جبريل الذي سبق ذكره وفيه: «حتى أسند ركبتيه إلى ركبتيه ..» إلى أن قال: «إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

قال الطيبي (ت ٧٤٣هـ): إنما جلس هكذا ليتعلم الحاضرون جلوس السائل عند المسؤول؛ لأن الجلوس على الركبة أقرب إلى التواضع والأدب، واتصال ركبة السائل بركبة المسؤول يكون أبلغ في استماع كل واحد من السائل والمسئول كلام صاحبه، وأبلغ في حضور القلب، وألزم للجواب؛ لأن الجلوس على هذه الهيئة دليل على شدة حاجة السائل إلى السؤال، وتعلق قلبه واهتمامه إلى استماع الجواب، فإذا عرف المسؤول هذا الحرص والاحتياج من السائل إلى السؤال يلزم على نفسه جوابه، ويبالغ في الجواب أكثر وأتم مما سأل السائل.^(٩٥)
 إن على طالب العلم احترام العلماء وتقديرهم، وأن يتسع صدره لما يحصل من اختلاف بين العلماء وغيرهم، وأن ينظر إلى معلمه بعين إجلال ويعرف له حقه ولا ينسى له فضله.

قال شعبة: كنت إذا سمعت من الرجل الحديث كنت له عبداً ما حيي^(٩٦) وأن يصبر على جفوة تصدر منه أو سوء خلق، ولا يصدّه ذلك عن ملازمته.
 عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ذلت طالباً فعززت مطلوباً^(٩٧) وأن

٩٣- رواه مسلم في كتاب البر والصلة (ح ٢٥٨٨)

٩٤- الجامع للخطيب (١/١٩٨).

٩٥- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢/٤٢٢).

٩٦- الجامع للخطيب (١/١٩٩)، جامع بيان العلم (١/١٢٧)، الإلماع للقاضي عياض (ص ٢٢٧)

٩٧- كشف الخفاء (ص ٥٠٥) (ح ١٣٤٤) وعزاه للدينوري.

يحسن خطابه معه بقدر الإمكان، فإن أراد الاستفادة تَلَطَّف في الوصول إلى ذلك. وإذا سمعه يذكر حُكماً في مسألة أو فائدة مستغربة أو يحكي حكاية أو ينشد شعراً وهو يحفظ ذلك أصغى إليه إصغاء مستفيد له في الحال، متعطش إليه، فرح به كأنه لم يسمعه قط .

قال عطاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به منه فأريه من نفسي أني لا أحسن منه شيئاً ^(٩٨)

قال حمدان بن الأصفهاني: كنتُ عند شريك فأتاه بعض أولاد الخليفة المهدي فاستند إلى الحائط وسأله عن حديث فلم يلتفت إليه، وأقبل علينا، ثم عاد فعاد شريكٌ لمثل ذلك فقال: أتستخفُّ بأولاد الخلفاء؟ قال: لا، ولكن العلمَ أجلُّ عند الله من أن أضيِّعه، فجثا على ركبتيه، فقال شريك: هكذا يطلب العلم ^(٩٩) وهذا التواضع والاحترام من المتعلم تجاه معلمه هو ما ضمنه البخاري في الباب التاسع والعشرين حينما قال: من برك على ركبتيه عند الإمام أو المحدث.

وهذا المنهج الأخلاقي الرفيع طبع عليه الصحابة الكرام. فعن الشعبي (ت ١١٠هـ) رحمه الله قال: أمسك ابن عباس بركاب زيد بن ثابت، فقال: أتمسك لي، وأنت ابن عم رسول الله ﷺ؟ قال: إنا هكذا نصنع بالعلماء ^(١٠٠)

ب- أدب الاستماع وحسن التصرف في المجلس:

يرى بعض المرين أن الاستماع الجيد نوع من أنواع القراءة لأنه وسيلة إلى الفهم وإلى الاتصال اللغوي بين المتكلم والسامع، فإذا كانت القراءة الصامتة قراءة العين، والقراءة الجهرية قراءة بالعين واللسان، فإن الاستماع قراءة الأذن. وتنمية مهارة الاستماع الجيد أمر ضروري للمتعلمين، وأمر ضروري للمعلم يساعده على إيصال المعلومة وضبط الفصل وحسن إدارته.

٩٨- حلية الأولياء (٣/ ٣١١)، وصفوة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢١٤).

٩٩- أدب الإملاء (ص: ١٣٣)، الجامع للخطيب (١/ ١٩٨)، كتاب العلم للنووي (ص: ١٠٥).

١٠٠- الجامع للخطيب (١/ ١٨٨)، جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٢٨)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٣٧).

ومن الأدب الذي كان يحرص عليه المحدثون في مجلس المحدث: الصمت والسكون، فعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: «أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير»^(١٠١).

ولقد بلغ من شدة توقير المحدثين لتلك المجالس ألا يتحدث أحد في المجلس، أو يبري قلماً، أو يضحك، فالإنصات في مجلس المحدث أمر ضروري، أدباً وانتفاعاً بما يسمع من حديث^(١٠٢)

قال الضحاک بن مزاحم: أول باب من العلم: الصمت، والثاني: استماعه، والثالث: العمل به، والرابع: نشره وتعليمه^(١٠٣)

عن جرير بن عبدالله البجلي قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: «استنصت الناس» ثم قال: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^(١٠٤).

قال النووي: وقوله «استنصت الناس» معناه مرهم بالإنصات ليسمعوا هذه الأمور المهمة، والقواعد التي سأقررها لكم وأحملكموها.^(١٠٥)
ونظراً لأهمية الإنصات والإصغاء في التحصيل العلمي، فقد جعل واجباً في خطبة الجمعة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت»^(١٠٦).

وفي رواية أخرى: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى الجمعة فاستمع

١٠١- أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الطب، باب الرجل يتداوى، ح ٣٨٥٥، والترمذي في سننه: كتاب الطب ح ٢٠٣٨ وقال: حسن صحيح. واللفظ لأبي داود.

١٠٢- من أدب المحدثين في التربية والتعليم للأستاذ أحمد نور سيف (ص: ٥٠).

١٠٣- أدب الإملاء (ص: ١٤٤) والجامع للخطيب (١/ ١٩٤) وجامع بيان العلم وفضله (١/ ١٣٨).

١٠٤- رواه البخاري في كتاب العلم باب (٤٣) الإنصات للعلماء ح ١٢١. ومسلم في الإيمان ح ٥٦.

١٠٥- شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٥٦).

١٠٦- رواه البخاري في كتاب الجمعة باب الإنصات يوم الجمعة (ح ٩٣٤) ومسلم في كتاب الجمعة (ح ١٥٨)

وأُنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة، وزيادة ثلاثة أيام، ومن مسّ الحصى فقد لغى»^(١٠٧).

وفي هذين الحديثين تظهر ضرورة الإنصات حيث قدم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويدل هذا على أن للإنصاتِ والتركيزِ مع المُلقِي أهمية قصوى في التعليم لأن التحصيل الجيد لا يكون إلا بالاستماع المركز.

وأدب الاستماع والصمت داخل الفصل الدراسي لا يتحقق إلا بحرص المتعلمين على التبكير بالحضور تجنباً للتشويش على الدرس جراء التأخير، وإذا حصل وتأخر طالب فعليه أن يتأدب بأدب الفصل وذلك بجلوسه حيث ينتهي به المجلس. فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «كُنَّا إِذَا انْتَهَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ جَلَسْنَا أَحَدُنَا حَيْثُ يَنْتَهِي»^(١٠٨) ويكره أن يقيم أحداً، ويجلس مكانه. فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَقِيمَنَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ»^(١٠٩)

وهذا الأدب الرفيع في مجالس العلم، هو ما يقصده البخاري بقوله في الباب الثامن من كتاب العلم: من قعد حيث ينتهي به المجلس ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها.

ج - أدب السؤال:

من بين الطرق التعليمية التعلُّمية التي تعرّض لها المربّون في الفكر التربوي الإسلامي ومارسها الشيوخ والمدرسون مع الطلاب والمتعلمين في الدرس، الطريقة الحوارية التي تعتبر شكلاً من أشكال التواصل البيداغوجي بين المفيد

١٠٧- رواه مسلم في كتاب الجمعة (ح ٧٥٨) رقم ٧٢

١٠٨- أخرجه أبو داود في الأدب، باب في التخلق ح ٤٨٢٥ والترمذي في الاستيذان ح ٢٧٢٥ وحسنه.

١٠٩- أخرجه البخاري في الاستيذان، باب لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ح ٦٢٦٩، ومسلم في صحيحه

كتاب السلام ح ٢١٧٧.

والمستفيد.

ومن أهمّ أدوات وتقنيات هذه الطريقة التعليمية التعلمية، السؤال كمكون بيداغوجي / ديداكتيكي سواء كان السؤال صادر عن المدرس في إطار التعليم أو كان صادراً عن المتعلم في إطار التعلّم، والسؤال وسيلة من وسائل التعلم يكتشف بها الإنسان حقيقة ما يجهله من أمور. لذا حثّ الله سبحانه وتعالى على السؤال وأمر بأن يلتمس العلم من أهله، وإلا لم تكن هناك فائدة من السؤال:

﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١١٠) ولأن السؤال مرآة عاكسة لعقلية السائل، فهو أداة لإبراز ذهن السائل ومدى استيعابه للأمور، وتنظيم الأفكار، ووضوح الرؤية من خلال ذلك.

وللسؤال آداب يجب أن تراعى، وطرق يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار لكي تتحقق الفائدة المرجوة منه. وإلى مثل هذه الآداب يشير الإمام البخاري رحمه الله بقوله في الباب السادس والثلاثون: (من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه). ولهذا الغرض وجّه زيد بن أسلم تلميذه محمد بن عجلان إلى أن يتعلم حسن السؤال قبل السؤال^(١١١). فلا يسأل لمجرد غرض السؤال، ولا يسأل إلا بعد أن يحدد المسألة الغامضة في ذهنه ليعين المسؤول على تحديد الجواب ودقته.

وإذا كان المعلم مسترسلاً في إلقاء الدرس فعرض للطالب في خلاله شيء أراد السؤال عنه فعليه أن لا يسأل في تلك الحال، بل يصبر حتى يُنهي المعلم حديثه ثم يسأل عما عرض له^(١١٢) حتى لا يفسد على السامعين سماعهم، ويشغل ذهن المحدث، فإذا صبر وتأنى نال بغيته، والتزم بآداب المجلس.

عن أبي هريرة قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى إذا قضى حديثه قال: «أين

١١٠ - الآية ٤٣ من سورة النحل.

١١١ - من أدب المحدثين في التربية والتعليم (ص: ٧٦).

١١٢ - الجامع للخطيب (١/ ٢١١) بتصرف.

أراه السائل عن الساعة؟» قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة». (١١٣)

ترجم البخاري للحديث بقوله: باب من سئل علماً وهو مشغول بحديث فأتته الحديث ثم أجاب السائل.

قال ابن حجر: محصله التنبية على أدب العالم والمتعلم، أما العالم فلما تضمنه من ترك زجر السائل، بل أدبه بالاعراض عنه أولاً حتى استوفى ما كان فيه، ثم رجع إلى جوابه فرفق به لأنه من الأعراب وهم جفاة. وفيه العناية بجواب سؤال السائل ولو لم يكن السؤال متعيناً ولا الجواب. وأما المتعلم فلما تضمنه من أدب السائل أن لا يسأل العالم وهو مشغول بغيره لأن حق الأول مقدم. ويؤخذ منه أخذ الدروس على السبق، وكذلك الفتاوى والحكومات ونحوها. وفيه مراجعة العالم إذا لم يفهم ما يجيب به حتى يتضح، لقوله: كيف إضاعتها، وبوّب عليه ابن حبان بإباحة إعفاء المسؤل عن الإجابة على الفور ولكن سياق القصة يدل على أن ذلك ليس على الإطلاق، وفيه إشارة إلى أن العلم سؤال وجواب ومن ثم قيل: حسن السؤال نصف العلم. (١١٤)

٢- الحرص على طلب العلم:

حرص الإسلام على توجيه أتباعه إلى أهمية استمرارهم في طلب العلم من المهد إلى اللحد، وبشرهم بثواب الحرص على التعلم، وبين لهم فضل العلم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١١٥) ففهم أصحاب رسول الله ﷺ

١١٣- رواه البخاري في كتاب العلم باب (٢) من سئل علماً وهو مشغول بحديث فأتته الحديث ثم أجاب

السائل، (ح ٥٩)

١١٤- فتح الباري (١/١٤٢).

١١٥- الآية ٩ من سورة الزمر.

ذلك واستوعبوه وامثلوه فصاروا حريصين ألا يفوتهم شيء من العلم مع رسول الله ﷺ.

- عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب قال: «كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلتُ جئتُه بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك». (١١٦)

قال ابن حجر: وفيه أن الطالب لا يغفل عن النظر في أمر معاشه ليستعين على طلب العلم وغيره مع أخذه الحزم في السؤال عما يفوته يوم غيبته. (١١٧)

فعلى الطالب أن يبادر في طلب العلم والحرص عليه لأن يوم الطالب في التعليم والتعلم أفضل من غده، وأفضل منه أمسه، والانسان كلما كبر كثرت عوائقه، ومن هذه المعوقات الوثوق بالذكاء فكثير من فاته العلم بركونه إلى ذكائه وتسويفه أيام الاشتغال، ومنها أيضاً التنقل من علمٍ قبل إتقانه إلى علم آخر أو ومن شيخ إلى آخر.

ولهذا حث السلف على طلب العلم والدأب في جمعه والعناية به، واهتموا بذلك في الحضر، وضربوا له أكباد الإبل في السفر والرحلة، وكان يحدوهم في طلبه والاهتمام بذلك، حديث رسول الله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم والفقہ بالتحقق، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» (١١٨)

فعن أبي الأحوص قال: قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: إن الرجل لا يولد عالماً، وإنما العلم بالتعلم (١١٩)

وعن علي رضي الله عنه قال: العلم ضالة المؤمن فخذوه ولو من أيدي المشركين، ولا يأنف أحدكم أن يأخذ الحكمة ممن سمعها منه (١٢٠) ولا يقنع من العلم بالقليل بل

١١٦ - أخرجه البخاري في العلم باب التناوب في العلم (ح ٨٩)

١١٧ - فتح الباري (١/ ١٨٦).

١١٨ - سبق تخريجه في الأساس الأول.

١١٩ - جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤٢٠).

١٢٠ - جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤٢١).

يطلب العلم حتى الممات كما قال ابن المبارك ^(١٢١)

ولأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة والفريضة لا تنقطع إلا بالموت أو بالعدر الشرعي. وهذا الحرص الجاد على طلب العلم هو سمة الطائفة التي جاء التنويه بها في قوله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ^(١٢٢) فإذا تلاشى في الأمة الحرص على طلب العلم، لن توجد هذه الطائفة.

ومظاهر الحرص على التعلم تتجلى في مبادئ عديدة منها: الجرأة في طلب العلم، والمذاكرة، والخروج في طلب العلم.

أ- الجرأة في طلب العلم: إن العلم كما هو معروف ينبغي أن يبدأ من دافع داخلي ذاتي يحرك في أعماق طالبه الرغبة والشوق إلى التعلم، وإذا كان هذا الوازع قوياً أكسب المرء الجرأة على تجاوز الحواجز النفسية، والمعيقات المادية. وأما من لم يكن فيه هذا الوازع فإن أقل هاجس نفسي يثبطه، وأوهن عائق يردّه.

عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المسلم حدثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسي أنها النخلة. قال عبدالله: فاستحييت فقالوا: يا رسول الله أخبرنا بها، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة» قال عبدالله: فحدثت أبي بما وقع في نفسي، فقال: لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا. ^(١٢٣)

وبوّب له البخاري ب: الحياء في العلم، وأكد على ذلك بأن قال: وقال مجاهد: لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر. وقالت عائشة:

نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين ^(١٢٤)
تأسّف عمر رضي الله عنه لكون ابنه عبدالله لم يخبر بالجواب وأنه استعمل الحياء في

١٢١- جامع بيان العلم وفضله (١/٤٠٦).

١٢٢- سورة التوبة / الآية: ١٢٢.

١٢٣- رواه البخاري في كتاب العلم باب (٥٠) الحياء في العلم (ح ١٣١)

١٢٤- سبق تخريجه.

غير موضعه، وهذا ما بينه ابن حجر حينما قال: ... وأما ما يقع سببا لترك أمر شرعي فهو مذموم، وليس هو بحياء شرعي وإنما هو ضعف ومهانة^(١٢٥)

وقد حث العلماء طالب العلم في حالة ما إذا كان السؤال من العالم عن فهم الدرس أن يلزم نفسه الصدق مع أستاذه، فإن لم يفهم طلب إفهامه، قال الزهري: العلم خزائن ومفتاحه المسألة، وإذا قال الشيخ: أفهمت؟ فلا يقل: نعم، قبل أن يتضح له المقصود من المسألة إيضاحا جليا لئلا يكذب، ولا يستحيي من قوله: لم أفهم لأن استثباته يحصل له مصالح^(١٢٦).

ويجب أن ترفع الكلفة بين المعلم والمتعلم، حتى يستطيع المتعلم أن يسأل بحرية عما يعين له من مشاكل ويطرأ أمامه من مسائل.

ويذهب علم النفس المعاصر إلى شبه هذا تماماً حيث يرى أن التلميذ إذا حصل له مع أستاذه نوع من الرهبة والكلفة أثار ذلك سلباً في تعلمه، ورفع الكلفة ليس معناه ترك التأدب مع المعلمين، وخرق ستر الحياء مع العلماء.

ب- المذاكرة:

من الأمور التي تتوقف عليها عملية إعداد المتعلم، توجيهه إلى أهمية المذاكرة في إعداده العلمي، وما ينبغي أن يراعيه في ذلك، ليحسن الأخذ، ويجود التحصيل، وليكون تعلمه قائماً على أساس سليم من الفهم والإدراك، والاعتناء الذاتي، بعيداً عن التعصب أو التقليد الأعمى.

والمذاكرة بما يحفظه الانسان أو يقتنع به، من مادة المفاعلة التي تقع بين طرفين أو أكثر، وقد تستعمل من طرف واحد، إذا أريد بها معنى الكثرة في بذل الوسع في الحفظ والتذكر، وتكون حينئذ مستعملة في غير بابها.

١٢٥- فتح الباري لابن حجر (ص: ٢٧٦).

١٢٦- المعيد في أدب المفيد والمستفيد / العلمي (ص: ١٤١).

بل أكثر من هذا أن المذاكرة منهج نبوي، روت عائشة رضي الله عنها عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: «أسرَّ إلي رسول الله ﷺ أن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي». (١٢٧) والحفظ مرحلة تسبق المذاكرة، وهذا ما يشير إليه الإمام النووي رحمه الله حيث قال: ويذاكر طالب العلم بمحفوظاته من يشتغل بالفن الذي يحفظ، سواء كان مثله في المرتبة -يعني العلم- أو فوقه، أو دونه، فإن بالمذاكرة يثبت المحفوظ ويتحرر ويتأكد، ويتقرر ويزداد بحسب كثرة المذاكرة (١٢٨).

ومما يترتب على المذاكرة تجديد المادة العلمية في ذهن الطالب وتبسيط عمليات التذكر ولذلك قال أحد الطلاب لزميله عقب جلسة مذاكرة: يرحمك الله فربَّ حديثٍ أحييته في صدري كان قد مات (١٢٩)، وقال الراهرمزي: تذاكروا الحديث فإن الحديث يهيج الحديث (١٣٠).

كما أن الحفظ والمذاكرة لهما أوقات ينبغي العناية بها والحرص عليها، قال أحمد بن الفرات: لم نزل نسمع شيوخنا يذكرون أشياء في الحفظ، فأجمعوا على أنه ليس شيء أبلغ فيه، إلا كثرة النظر، وحفظ الليل غالب على حفظ النهار (١٣١). وقال أبو حامد الغزالي: يجب على المتعلم مواظبة الدرس والتكرار في أول الليل وآخره، فإن ما بين العشاءين ووقت السحر هو وقت مبارك (١٣٢).

قال حماد شيخ أبي حنيفة:

اخْدُمَ الْعِلْمَ خِدْمَةَ الْمُسْتَفِيدِ وَأَدِمَّ دَرَسَهُ بِفِعْلِ حَمِيدِ
وَإِذَا مَا حَفِظْتَ شَيْئًا أَعِدْهُ ثُمَّ أَكِّدْهُ غَايَةَ التَّأَكِيدِ

١٢٧- رواه البخاري في كتاب المناقب باب (٢٥) علامة النبوة في الإسلام (ح ٣٦٢٤).

١٢٨- مقدمة المجموع شرح المهذب (٣٨ / ١).

١٢٩- الجامع للخطيب (١ / ٢٣٨).

١٣٠- المحدث الفاصل (ص: ٥٤٧).

١٣١- الجامع للخطيب (٢ / ٢٦٥).

١٣٢- خصائص الفكر التربوي عند الغزالي. الدكتور أحمد عرفات القاضي مجلة الأحمدية (ص: ٣٧٩) عدد

١٣ محرم ١٤٢٤هـ.

وقال الخطيب البغدادي: أجود أوقات الحفظ الأسمار ثم وسط النهار ثم الغداة. وقال أيضا: وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار. وأجود الأوقات للحفظ الأسمار، وللبحث الأبقار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل^(١٣٣).
والحفظ يستوجب الضبط وهو نوعان: ضبط صدر وضبط كتاب، ولذلك أشار البخاري رحمه الله إلى أهمية الكتابة بقوله: في الباب التاسع والثلاثين من كتاب العلم: باب كتابة العلم وذهب ابن حجر إلى أنه لا يبعد وجوبه في حق مَنْ يُخشى نسيانه ممن يتعين عليه تبليغ العلم^(١٣٤).

وبالحفظ والمذاكرة لا يُكتسب العلم فقط بل يتوصل بهما إلى الفهم، قال العيني: تفسير الفهم بالعلم غير صحيح، لأن العلم عبارة عن الإدراك الكلي، والفهم جودة الذهن، والذهن قوة تقتنص الصور والمعاني، وتشمل الإدراكات العقلية والحسية^(١٣٥).

وكلام العيني ناتج عن تأمل ما ذكره البخاري في الباب الرابع عشر من كتاب العلم: الفهم في العلم.

وتظهر أهمية الفهم في أن صاحبه يدخل فيمن ذكرهم رسول الله ﷺ بقوله: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»^(١٣٦).

ج - الخروج في طلب العلم:

إن الرحلة في طلب العلم مهمة جليلة، فلا غرو أن نجد القرآن الكريم يحث عليها، إذ يقول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(١٣٧). وأهداف الرحلة بالأساس تربوية تعليمية ابتداء من عصر الرسول ﷺ، وهي تتعلق إما بطلب العلم أو نشره

١٣٣- لفتيه والمتفقه (٢/ ١٠٣).

١٣٤- فتح الباري (١/ ٢٤٦).

١٣٥- عمدة القارئ، كتاب العلم (٢/ ص: ٧٣).

١٣٦- سبق تخريجه في الأساس الأول.

١٣٧- الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

عن طريق البعثات التعليمية...

وقد نبه إلى على ضرورة السفر في طلب العلم الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، لأن طالب العلم يكون أكثر تفرغاً إذا بُعِدَ عن الشغل بالأهل والأوطان، فلا يكون أمامه إلا التفرغ للعلم، إما بحضور مجالس العلماء أو مطالعته الكتب^(١٣٨).

وقد بلغ اهتمام العلماء بهذا الأمر إلى حد التأليف فيه، فقد صنف الحافظ أبو بكر الخطيب (ت ٦٣٣هـ) كتاباً خصّه بأخبار من رحل في طلب حديث واحد سماه: الرحلة في طلب الحديث^(١٣٩).

ويمكن تلخيص الأهداف العلمية للرحلة في: طلب، وضبط، ونشر المعرفة.

٣- آدابه مع أقرانه:

يقول الله عز وجل: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۗ ﴾^(١٤٠) إن ما يتعلّمه الفرد بالتعاون مع غيره من الأفراد ومشاركتهم أنفع وأعلى قيمة ممّا يتعلّمه بمفرده، نتيجة للنشاط الذي تحدّثه المنافسة.

ومما هو جدير بالذكر أن الفرد يتعلم بمشاركة زملائه كيفية التعاون، بالإضافة إلى تعلم الدراسة وتشجيع التربية التعاون أكثر من تشجيعها التنافس لا لأن ذلك يؤدي إلى زيادة فعالية التعلم، بل لأن هذا يؤدي إلى نتائج اجتماعية مرغوب فيها^(١٤١).

وفي هذا الإطار يمكن إدراج مفهوم التعلم التعاوني الذي هو شكل من أشكال التعلم الرمزي يشترط فيه أن يحدث التفاعل بين أفراد المجموعة بجميع أشكاله كالتأزر والتواصل والمسؤولية والمعالجة.

١٣٨- خصائص الفكر التربوي عند الغزالي / مجلة الأحمدية / العدد ١٣ محرم ١٤٢٤هـ.

١٣٩- وهو مطبوع بتحقيق الدكتور نور الدين عنتر / دار الكتب العلمية بيروت.

١٤٠- سورة المائدة الآية ٢

١٤١- الدروس التي تتعلّمها التربية من علم النفس / برسيغال سيموند / ترجمة عبد الرحمن صالح عبد الله (ص: ٣٧).

ولا بد لقطف ثمار هذا التعاون من مصاحبة الرفقاء المعينين على طلب العلم وبالأخص المجتهدين منهم والحريصين على تحصيل المعرفة بشتى أنواعها. قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»^(١٤٢). فالرفيق الحسن خير معين بعد توفيق الله على المثابرة لتحقيق الأهداف المرجوة سوية.

عن عبد الله بن عباس عن عمر بن الخطاب قال: «كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك»^(١٤٣).

فصنيع عمر و خليله رضي الله عنهما يبرز لنا معنى التعاون الحقيقي الذي أثمر حرص كل واحد منهما أن يبلغ أخاه ما فاته من العلم مع رسول الله ﷺ وهما بذلك يمثّلان أمر رسول الله ﷺ بتبليغ العلم حيث قال: «ألا ليلغ الشاهد منكم الغائب»^(١٤٤). وقد يحصل أن يبلغ الشاهد علماً - لم يفهمه جيداً - زملائه، فينتج عن هذا التبليغ تحريض للمبغ مع زملائه ودفعهم إلى المناقشة في الآراء والأفكار وغيرها، مما يؤدي إلى اختلاف أو تعارض، الأمر الذي يضع الفرد موضع تساؤل فيراجع أفكاره ومعلوماته ليصل إلى استنتاجات جديدة تعيد بناء فهمه لما هو أعمق.

وهذا الفهم المستخلص من المناقشة هو الذي عناه رسول الله ﷺ بقوله: «فليبلغ الشاهد الغائب قرباً مبلغ أوعى من سامع»^(١٤٥).

وطريقة المناقشة والمذاكرة هذه تفرز ظهور فوارق فردية بين المتعلمين، ترتفع في بعض الأحيان ببعض الطلبة إلى سلوك طريق الحسد تجاه المتفوقين. وهو طريق مذموم لأنه تمنى ما عند الغير مع زواله منه. وإن كان ورد به الحديث الذي

١٤٢- رواه الترمذي ح ٢٣٧٨ وأحمد (٢/٣٠٣، ٣٣٤)، والحاكم في المستدرک ١٧١/٤ وصححه.
 ١٤٣- أخرجه البخاري في العلم باب التناوب في العلم (ح ٨٩)
 ١٤٤- رواه البخاري كتاب العلم باب (٣٧) ليلغ العلم الشاهد الغائب (ح ١٠٥)
 ١٤٥- رواه البخاري في كتاب الحج باب (١٣٢) الخطبة أيام منى.

رواه عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها». (١٤٦)

قال ابن حجر: وأما الحسد المذكور في الحديث فهو الغبطة وأطلق الحسد عليه مجازاً. (١٤٧) فعلى طالب العلم أن يسلك مسلك الاغتباط وذلك بأن يتمنى أن يكون له مثل ما لزميله من نعمة التفوق العلمي دون أن يتمنى زوالها عنه. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

خصائص التعليم والتعلم من خلال منهج النبوة

إن لطريقة المصطفى ﷺ في التعليم خصائص ومميزات تختص بها عن سائر الطرق الأخرى الوضعية. ونجد أن هذه الخصائص هي نفس خصائص الإسلام، لأن الإسلام كل لا يتجزأ.

ونذكر هنا بعض خصائص منهج المصطفى في التربية والتعليم:

١- ربانية المصدر:

إن رسول الله ﷺ اصطفاه الله سبحانه وتعالى وأرسله للناس كافة بشيراً ونذيراً ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فرسالته كلها تعليم وتربية وتأديب. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٤٨) فمنهج المصطفى ﷺ في التعليم سائر وفق الوحي، ومن هنا تبرز أهميته لأنه مستقى من تعاليم الله سبحانه وتعالى المدبر الحكيم الذي يعلم ما في الأنفس وما تخفي الصدور، ويعلم طبيعة هذه النفس وما يصلح لها في الحال والمآل. قال تعالى:

١٤٦- رواه البخاري في العلم باب الاغتباط في العلم والحكمة (ح ٧٣) ومسلم في صلاة المسافرين (ح ٨١٦)
١٤٧- فتح الباري (١/١٦٧).
١٤٨- الآية ١٦٤ من سورة آل عمران.

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾^(١٤٩). هذه النفحة الإلهية والعناية الربانية شيء تفتقر له المناهج والنظريات الوضعية لأنها من صنع الإنسان المتصف بالقصور وتدخل الأهواء وضيق الأفق.

إن الفرق بين ما هو رباني وما هو وضعي إنساني هو نفس الفرق بين الخالق والمخلوق، وبين القادر والعاجز، إن جاز لنا أن نفرق. ولعل هذه الخصيصة التي هي ربانية المصدر تنبثق منها سائر الخصائص الأخرى لأن هذا المنهج ما دام رباني فلن ترقى إليه المناهج الأخرى في أية ناحية من نواحيه.

٢- الشمولية والتوازن:

المنهج النبوي يشمل الإنسان في مختلف نواحيه المادية والمعنوية وفي حياته الدنيوية والأخروية، ويجب عن تساؤلاته في عالم الغيب والشهادة. فهو ينظر إلى الإنسان نضرة متوازنة شاملة، يعامله باعتبار أنه نفخة من روح الله وباعتبار أنه خلق من طين، فالروح لها حظها والمادة كذلك في شمولية واتزان. قد يبدو أن هذا المنهج يفقد اتزانه في تركيزه على الروح أكثر من الجسد، وعلى الدار الآخرة أكثر من الدنيا. لكن في الحقيقة هذا عين التوازن لأن الدنيا زائلة فانية، والآخرة باقية خالدة وإعمار الخالدة. أولى من الزائلة. والروح هي المحرك للجسد، وهي القوى الدافعة له. فبتغذيتها يسمو الجسد ويتحرر ويندفع نحو البناء والتعمير.

كما نجد هذا المنهج يجيب عن المسائل الغيبية أو ما يسمى بما وراء الطبيعة، وعن الغاية من الخلق، وعن مصير الإنسان بعد الموت ح هذا الجانب نجد المناهج الوضعية تهمله، وإذا دخلت فيه لا نستطيع الخروج من متاهاته، وهذا خلل في هذه المناهج لأنها تضخم الجانب المادي وتغفل الجانب الروحي.

١٤٩- الآية ١٤ من سورة الملك.

٣- الثبات والمرونة:

استفدنا من المنهج التربوي التعليمي النبوي أسساً عامة ومبادئ كلية ثابتة لا يمكن أن تتغير بتغير الزمان والمكان، مثل ضرورة التعلم، والتدرج فيه والرفق بالمتعلم إلخ. وهذه مبادئ لا يمكن إلغاؤها ولا تغييرها، لكن الذي يتغير هو كيفية تطبيق هذه المبادئ، أو ما يسمّى بفقّه التنزيل حسب التطورات. وهذا ما يعطي لهذه الأسس صفة المرونة إلى جانب صفة ثبات أصولها.

وهذا شيء تفتقر له النظريات الوضعية فهي ليست ثابتة الأصول إذ إنها تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة وبحسب تغير رؤية المنظرين لها حسب التوجه، وحسب المصلحة الآنية.

٤- ربط العلم بالعمل:

الله سبحانه وتعالى مدح العلم وأهله، وأمر رسوله ﷺ في أول آية أنزلت عليه بالقراءة. والمصطفى ﷺ جعل طلب العلم فريضة، فطلب العلم في حد ذاته عبادة، وهو مهم لأن به يتنور الإنسان ليميز الصواب من الخطأ. لكن الدين الإسلامي جعل العلم وسيلة للعمل، وذم الذين لا يعملون بما يعلمون. فهو بذلك ربط النظري بالتطبيقي، والرواية بالدراية، والقراءة بالتدبر والفهم، والفهم بالعمل. كما جعل العمل غير المبني على العلم الصحيح غير مقبول. فهو بذلك حافظ على العلم، وجعل حياة المرء كلها علم، لأنه قبل أن يقدم على أي عمل لا بد أن يعلم حكم الله فيه.

٥- عالمية الأفق والرسالة:

الإسلام رسالة عالمية ليست في ملك أحد ولا حكرًا على أناس دون آخرين، وكذلك العلم في الإسلام.

والله سبحانه وتعالى أمر المسلم أن يحسن إلى جميع الناس لأنه سبحانه وتعالى كرم بني آدم. كما أمر بتبليغ هذا الدين حتى يصل إلى الناس جميعاً، فهو

بذلك جعله مشاعاً بين الناس بل أكثر من هذا توعد أشد الوعيد الذين يكتُمون العلم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾^(١٥٠) وروى عطاء عن أبي هريرة وغيره عن النبي ﷺ قال: «من سئل عن علم فكتمه أجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»^(١٥١) فهو بذلك ينتج أناساً يعودون بالنفع على البشرية جمعاء بل على الكون كله.

القيمة المعرفية لأصول التربية والتعليم من خلال السنة النبوية

بعث رسول الله ﷺ والبشرية وصلت إلى ذروة الانحطاط والجاهلية، بعث في العرب الذين ظهرت فيهم أسمى أنواع الجهل؛ من عبادة الأحمجار، واستعباد الناس، وواد البنات، وسفك الدماء، والظلم، وأكل أموال الناس بالباطل، وغلبة القوي للضعيف، والجري وراء الغرائز والشهوات.. إلى غير ذلك من الرذائل أو ما سماه القرآن بالضلال المبين.

كل هذا استقر في الأذهان مع مر السنين حتى صار سجية وطبعاً لهم، بل صارت الجهالات عقائد ومقدسات لا يستطيع أحد أن يناقش فيها بله أن يغيرها. بعث رسول رب العالمين -وسط هذه الجاهلية التي بلغت ذروتها- ومهمته عليه الصلاة والسلام البيان، والتعليم، والتزكية، والتغيير، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور. وأن يبين لهم الدين الحق ويهدم الباطل ويصحح المعتقدات والعادات.

تُرى في ظل النظم الحديثة كم يلزم من السنين، ومن المعلمين والمربين،

١٥٠- الآية ١٥٩ من سورة البقرة.

١٥١- رواه الحاكم في المستدرک (١/ ١٠١) وقال: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه... ثم لما جمعت الباب وجدت جماعة ذكروا فيه سماع عطاء من أبي هريرة، ووجدنا الحديث بإسناد صحيح لا غبار عليه عن عبدالله بن عمرو وأبو داود في العلم باب كراهية منع العلم ح (٣٦٥٨) والترمذي في العلم باب ما جاء في كتمان العلم ح (٢٧٨٧) (٧-٤٠٧-٤٠٨ تحفة). وقال عقبه: وفي الباب عن جابر، وعبدالله بن عمرو، وحديث أبي هريرة حديث حسن وابن ماجه في المقدمة باب من سئل عن علم فكتمه ح (٢٦١)، وأحمد (٢/ ٢٦٣).

ومن النظريات، ومن الموارد لتغيير مثل هذا الوضع ولإصلاح مثل هذه الانحرافات المتراكمة ظلّمت بعضها فوق بعض؟!!

لابد أن الجواب العلمي الواقعي سيفترض سنين كثيرة، وجهوداً كبيرة، ونظريات متطورة، وإمدادات هائلة. لكن الرسول المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه بعث لوحدّه بلا نظريات، ولا استعدادات قبلية، ولا غير ذلك. ولكنه بعث باصطفاء إلهي وعناية ربانية. كان مدده وسنده الوحي، فظل يدعو الناس ويذكرهم ويبشرهم وينذرهم ويعلمهم ويزكيهم. بمنهج تعليمي تكلمنا على بعض أسسه، وخصائصه في هذا البحث المتواضع. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١٥٢)

فاستطاع النبي ﷺ في ظرف ثلاث وعشرين سنة أن يخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الجهل إلى العلم، بعد أن كان القوي منهم يظلم الضعيف، والغني يستعبد الفقير، فصاروا قمة في الأخلاق الحسنة، وفي التعاون والإيثار. قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيُؤَثِّرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(١٥٣)، وأضحوا يحرصون على العلم والتعلم، لا يفوتون مجلس رسول الله ﷺ، بل إن شغلهم المعاش، تناوبوا في حضور مجلسه ﷺ، وبلغ الشاهد منهم الغائب.

من هذه التحولات التي أحدثها رسول الله ﷺ في هذه المدة اليسيرة، تظهر قوة وقيمة المنهج النبوي.

١٥٢- الآية ٢ من سورة الجمعة.

١٥٣- الآية ٩ من سورة الحشر.

لائحة المصادر والمراجع

- أدب الإملاء والاستملاء: السمعاني عبد الكريم بن محمد (ت ٥٥٠هـ) تحقيق عبد الرحمن المعلمي بيروت.
- أدب الدنيا والدين: أبو الحسن علي بن محمد حبيب البصري الماوردي (ت ٤٥٠هـ). تحقيق مصطفى السقا، بيروت. دار الكتب العلمية. الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- الإلماع عن أصول الرواية وتقييد السماع القاضي عياض بن موسى السبتي. (ت ٥٤٤هـ). تحقيق أحمد صقر دار التراث بمصر ١٣٩٨هـ.
- الأمة الإسلامية في مواجهة التحدي الحضاري. عبد العزيز بن عثمان التويجري. سلسلة المعرفة للجميع. العدد ٣. يناير ١٩٩٩م.
- تاريخ التعليم عند المسلمين. / منير الدين أحمد / ترجمة سلمي الصقر.
- تاريخ دمشق: ابن عساكر بن الحسن (ت ٥٧١هـ) تحقيق محب الدين العمري دار الفكر بيروت ١٩٩٥م.
- التدريس الحديث: أصوله وتطبيقاته - محمود زياد حمدان.
- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم المتعلم: ابن جماعة بدر الدين بن إبراهيم (ت ٧٣٣هـ). دار الكتب العلمية، بيروت.
- التربية بالحوار عبدالرحمان النحلاوي.
- جامع الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٥هـ) إشراف: عبد الوهاب عبد اللطيف ومعه تحفة الأحوذوي. دار الفكر.
- جامع العلوم والحكم: ابن رجب عبدالرحمان (ت ٧٩٥هـ). دار الفكر ١٩٩٢هـ.
- جامع بيان العلم وفضله: يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) المطبعة المنيرية. القاهرة.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) تحقيق محمود الطحان. دار المعارف الرياض.

- الدروس التي تتعلمها التربية من علم النفس. بريسفال سيموند، ترجمة عبد الرحمن صالح عبدالله.
- سنن أبي داود. سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥هـ) تحقيق محيي الدين عبد الحميد. درا الفكر.
- السنن الكبرى: البيهقي أحمد بن الحسن (ت ٤٥٨هـ) إعداد محمد عبدالقادر عطا. مكتبة دار الباز مكة المكرمة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- السنن الكبرى: النسائي أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ) تحقيق عبدالغفار البنداري وسيد كسروي حسن دار الكتب العلمية طة ١١٤١هـ / ١٩٩١م.
- سير أعلام النبلاء الذهبي محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ) حقق بإشراف شعيب الأرنؤوط ط٧. دار الرسالة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- شرح ابن بطلال: علي بن خلف ابن بطلال (ت ٤٤٩هـ). دار الكتب العلمية.
- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح: الطيبي الحسين بن عبدالله (ت ٧٤٣هـ) تحقيق عبدالحميد هنداوي مكتبة نزار مصطفى الباز الرياض ط١ ١٤٧١هـ / ١٩٩٧م.
- صحيح مسلم: مسلم بن حجاج (ت ٢٦١هـ) تحقيق فؤاد عبد الباقي دار إحياء الكتب العربية.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: بدر الدين محمود بن أحمد العيني (ت ٨٥٥هـ) إشراف صدقي جميل العطار. دار الفكر ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- فتح المغيث شرح ألفية الحديث: السخاوي محمد بن عبدالرحمان (ت ٩٠٢هـ) دار الكتب العلمية بيروت طة ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
- الفقيه والمتفقه: احمد بن علي ثابت الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ).
- كتاب العلم وآداب العالم والمتعلم: للنووي يحيى بن شرف ٦٧٦هـ. تحقيق عبدالله بدران. دار الخير ١٩٩٣م.
- لفظة الكبد في نصيحة الولد. ابن الجوزي.
- مجلة الأحمديّة. العدد ١٣ محرم ١٤٢٤هـ / مارس ٢٠٠٣م.

- مجلة المجتمع . العدد ٤ .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: الهيثمي علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ) دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي القاهرة بيروت ١٤٠٧هـ .
- المجموع شرح المذهب للشيرازي / النووي يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ) .
مصورة دار الفكر .
- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي: الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي (ت ٣٦٠هـ) . تحقيق: د. محمد عجاج الخطيب . ط ٣ . دار الفكر ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .
- المرأة بين الفقه والقانون . مصطفى السباعي .
- المستدرک علی الصحیحین الحاکم محمد بن عبد اللہ (ت ٤٠٥هـ) إشراف يوسف مرعشي دار المعرفة بيروت .
- مستقبل التربية في العالم العربي . جميل صليبا .
- مسند أبي يعلى أحمد بن علي الموصلي (ت ٣٠٧هـ) . تحقيق حسين سليم أسد . دار المأمون للتراث دمشق ط ١ ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .
- مسند الإمام أحمد: أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) مصورة دار الكتب العلمية .
- المعجم الكبير: الطبراني سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠هـ) تحقيق حمدي بن عبد المجيد . مكتبة العلوم والحكم . الموصل ط ١ ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣ م .
- من أدب المحدثين في التربية والتعليم الدكتور أحمد محمد نور سيف درا البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث دبي ط ١ ١٤١٨هـ / ١٩٩٧ م .
- منهج التربية الإسلامية محمد قطب . دار الشروق بيروت ط ٨ . ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣ م .
- موارد الضمآن إلى زوائد ابن حبان: الهيثمي . نور الدين (ت ٨٠٧هـ) تحقيق محمد عبدالرزاق حمزة . دار الكتب العلمية بيروت .
- موطأ الإمام مالك (ت ١٧٩هـ) رواية محمد بن الحسن الشيباني تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف . دار القلم بيروت ط ١١ .

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الجلسة الافتتاحية	
■ كلمة معالي جمعة الماجد - رئيس مجلس أمناء الكلية .	١١
■ كلمة الأمين العام لندوة الحديث الشريف	
- أ.د. حمزة عبد الله المليباري	١٣
■ كلمة الضيوف - أ.د. محمد المختار ولد أمباله	١٩
■ قصيدة بهذه المناسبة بعنوان: ومضات إيمانية	
- شعر د. قطب الريسوني	٢٨
الجلسات العلمية؛ الجلسة الأولى:	
■ السُّنَّة النَّبَوِيَّة ونِسبَتها من الثقافة والحضارة الإسلاميَّتين	
- أ.د. أبو لبابة الطاهر صالح حسين - جامعة الإمارات	٣٥
■ القيم الحضارية في السنن المكية	
- د. محمد الوثيق - المغرب	٨٧
■ شمولية القيم الحضارية وتكاملها في السُّنَّة النَّبَوِيَّة بخصوص	
معاملة الأعداء وقت الحرب	
- أ.د. أحمد أبو الوفا - مصر	١٣٧
■ تفعيل القيم الحضارية في السُّنَّة النَّبَوِيَّة (السبل والمعوقات)	
- أ.د. عباس محجوب - السودان	١٩٥

- القيم الحضارية سبل ومعوقات تفعيلها في ضوء السُّنة النَّبويَّة
- د. سعاد صبيح براك الصبيح - الكويت ٢٤٧
 - أثر السُّنة النَّبويَّة في ترسيخ القيم الحضارية في النفوس
- أحاديث المسجد أئموذجًا
- د. مازن حسين حريري - جامعة تعز - اليمن ٢٨٩
- الجلسة الثانية:

- قيمة المستقبلية في الحديث النبوي
- أ. د. إلياس بلكا - المغرب ٣٣٧
- مقاصد العلم والمعرفة في السُّنة النَّبويَّة
- أ. د. الفاتح الحبر عمر أحمد - السودان ٣٩٩
- العلاقة (التفاعلية) بين المعرفة والسلوك من خلال السُّنة النَّبويَّة المطهرة
- أ. د. أحمد عثمان رحمانى - كلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي ٤٣٧
- السُّنة النَّبويَّة والقيم الإنسانية في الإبداع الأدبي
- د. بنعيسى أحمد بويوزان - المغرب ٥٠١
- أصول التعليم والتربية وقيمتها المعرفية من خلال السُّنة النَّبويَّة
- أ. د. عبدالفتاح الزينفي - المغرب ٥٥٧

الراعي الذهبي



الراعي الفضي



الراعي البرونزي



Government of Dubai
DEPARTMENT OF TOURISM
AND COMMERCE MARKETING

حكومة دبي
دائرة السياحة
والتسويق التجاري